الفهرس سيد المرسلين (ص) .. الجزء الأول

السيرة المحمَّدية مدرسة الأجيال
مقدّمة المحاضر .. التاريخُ فيأعظَم حماساتِه
١ - شبه الجزيرة العربية أو مَهْدالحضارة الإسلامية
٢ - العَرَب قبلَ الإسلام
٣ - إمبراطوريّتا الرُوم وإيران إبّان عهدِ الرِّسالةِ
٤ - أسلاف رسول الإسلام (ص)
٥ - مولدُ رسُول اللّه صلّى اللّهعليه وآله
٦ - فَترةُ الطفُولة في حياة النبيّصلّى اللّه عليه وآله
٧ - العَودة إلى أحضان العائلة
٨ - فترة الشَباب في حياة النبيّالاكرم
٩ - من فترة الشباب الى مزاولةالتجارة
١٠ - من الزواج الى البعثة
١١ - بدء الوَحي
١٢ - متى نزل الوحي أولاً ؟
١٣ - ما سبَقني أحدٌ
١٤ - الدَعوَةُ السِرِّيّةودَعوَةُ الأقربين
١٥ - الدعوة العامّة
١٦ - رأي قريش في القرآن
١٧ - الى الحبشة
١٨ - الأسلحةُ الصَديئة والاساليبالفاشلة
١٩ - اسطورة الغرانيق
٢٠ - الحصار الاقتصادي والاجتماعي
٢١ - وَفاة أبي طالب وخديجة الكبرى
٢٢ - المعراج
٢٣ - سفرة إلى الطائف
٢٤ - بيعة العقبة
حوادث السنة الأُولى من الهجرة

السيرة المحمَّدية مدرسة الأجيال

«لقد كان لكم في رسول اللّه اسوة حسنة»

القرآن الكريم

النبي الأكرم «محمد» صلّى اللّه عليه وآله أُسوةٌ للمسلمين... أُسوةٌ يقتدون بها في جميع مناحي حياتهم : الفردية والاجتماعية ، والسياسية... أُسـوة إلى الأبد... في كل زمان ومكان، في كل عصر ومصر، لجميع المسلمين من كل لون ولغة.

ولكن كيف يتأسى المسلمون - في مختلف الأجيال والأدوار - برسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله، وكيف يقتدون بسيرته المثلى، ويهتدون بهديه العظيم ؟

إن هذا لا يتسنّى إلا اذا كانت حياة رسول الإسلام بجميع خصوصـياتها، وتفاصيلها، وفي جميع مجالاتها ونواحيها، مدونة مسجلـة، بـل ومحللّـة تحليلاً دقيقاً وعميقاً.

من هنا فان الضرورة تقضي بوجود تاريخ مدون، مشفوع بالتحليل الدقيق، والدراسة الموضوعية لشخصية وسيرة سيد المرسلين صلّى اللّه عليه وآله

في كافة مجالاتها الشخصية والرسالية والسياسية والعسكرية.

حقاً إن في حياة رسول الإسلام العظيم «محمد بن عبد اللّه» صـلّى اللّـه عليه وآله - كما هو واضح لمن تتبع وتصفح - أُموراً دقيقة، ولكن بالغـة العظمة في مداليلها ومعانيها، بالغة الأهمية في معطياتها ودروسها.

{٦}

فرسول الإسلام صلّى اللّه عليه وآله وسلّم هو خـاتَم الأنبيـاء، ورسـالته وشريعته خاتمة الرسالات والشرائع ونهضته هي النهضة الكبرى التي مهد لها الأنبياء السابقون، وقد فتحت هذه النهضة الالهية صفحة جديدة في حياة البشرية، وغيرت مسار التاريخ الإنساني تغييراً جذرياً، وأسست حضـارة كبرى لا تزال أمواجها - رغم مرور أربعة عشر قرناً - حيـة نابضـة، فاعلة، تهز الضمائر، وتتفاعلُ مع العقول.

ولهذا فإن السيرة المحمدية مشحونةٌ بالمناهج والدروس، زاخرة بالبصائـر والعبر، بقدر ما هي مليئة بالدقائق والحقائق، واللطائف والاسرار.

حقاً إن حياة النبي صلّى اللّه عليه وآله بحاجة إلى تعمقٍ جديدٍ كلما تجـدد الزمن، وكلما تقدمت العلوم والمعارف، وتطورت الحياة، وانفتحـت أمـام البشرية آفاق جديدةٌ في شتى الأصعدة والمجالات.

ولا شك أن هذه المهمة ليست عملاً بسيطاً ومهمة سهلة، وخاصة مع مـا

عليه الكثير من المصادر التاريخية الأولى من تصحيف او تحريف او تشويه للحقائق، او تغيير للأمور.

فان هذه المهمة تحتاج - في ما تحتاج إليه - إلى ثلاثة أشياء أساسية :

١ - عقلية متفتحة، متدبرة، نافذة متأنية.

٢ - جهود كبيرة، وتتبع واسع، وتمييز للصحيح عن السقيم، والدخيل عن الاصيل.

٣ - معرفة بجوانب تتصل بالسيرة المحمدية اتصالاً وثيقاً كالمعرفة بمكانة سيد المرسلين صلّى اللّه عليه وآله في القرآن الكريم.

فمع توفّر هذه الشروط يمكن الحصول على صورة نقية، ومفيـدة للسـيرة المحمدية المباركة، صورة تتفق مع روح القرآن، وتلتقـي مـع الواقـع، وتصلح للاتساء، والاقتداء، والاهتداء والاقتفاء.

ولقد توفرت هذه الشروط - وللّه الحمد - في اسـتاذنا العلامـة الحجـة المحقّق سماحة الشيخ جعفر السبحاني، حفظه اللّه.

فهو المعروف بسلسلته القرآنية «مفاهيم القرآن» الـتي تكشـف عـن إحاطة كبيرة بكتاب اللّه العزيز، وإلمام قليل النظير بمفاهيمه.

كما عرف بأعماله الفكرية الناضجة المتنوعة الكاشفة عن عقلية متفتحـة، واعية ومعاصرة.

ولهذا كان خير من قام في عصرنا الحاضر بدراسـة السـيرة المحمديـة الطاهرة العبقة، فكان هذا العمل التاريخي المبـارك الـذي توفّـرت فيـه المستلزمات الثلاثة الآنفة الذكر : العقلية المتفتحـة، والمعرفـة الواسـعة بالقرآن الكريم وخاصة في ما يتّصل بالرسول الأكرم، إلى جانـب التتبـع الواسع والاستقصاء الكبير لمواقع العبرة والاسوة في حياة خـاتم الأنبيـاء وسيد المرسلين.

ولا أجدني - في هذا التقديم العابر - بحاجة إلى ذكر نقاط القوة الكثـيرة في هذه الدراسة المستوعبة لشخصية وحياة رسول الإسلام، بـل أرى أن يحاول القارئ الكريم بنفسه الاطلاع على ذلك حتى لا يفوته شيء ممـا لا يفوت، وسيقف بنفسه أيضاً على جسامة ما بذل في هذه الدراسة من جهد، وروعة ما ضمنت من تحليل، وأهمية ما احتوته من حقائق.

وفي الختام اسأل اللّه العلي القدير ان يتقبل منا جميعاً هذا الجهد، ويجعلـه ذخراً ليوم لا ينفع فيه مال ولا بنون، انه خير معين.

قم

جعفر الهادي

فهرس
بعد

مقدّمة المحاضر .. التاريخُ في أعظم حماساتِه

* مختبر «الحياة» العظيم.

* «لقد عمرتُ مع أولهم الى آخرهم !».

* حياة العظماء، والخالدين.

* عندما يلتقى العالم الحاضر بالعالم الغابر.

* التاريخ بين التسجيل.

* أخطاء المستشرقين العجيبة.

يحاولُ الإنسان دائماً أن ينظر إلى كل قضية من القضايا من نافذة الحـس، وأن يدرسها من خلال المنظار الحسي المادي، لأن أوثقَ المعلومات لديـه هي تلك التي تتألف من هذه «المعلومات الحسية» ولهذا فإن المسائل التـي تحظى بأدلة حسية اكثر تكسب في العادة قسطاً اكبر مـن ثقـة الانسـان، وتصديقه.

وعلى هذا الاساس عمد العالم اليوم الى تأسيس آلاف المختبرات الضخمة للتحقيق في شتى القضايا العلمية، ويعكف العلماء في هذه المختبرات على دراسة وتحليل الامور المتنوعة باسلوب خاص وطريقة معينة.

ولكن هل يمكن - تُرى - أن تدخلَ المسائلُ والقضايا الاجتماعية في نطاق التجربة المختبرية، وتخضع للمجهر والميكرسكوب، ليمكن الحكم في هـذه المجالات من خلال ذلك ؟!

فمثلاً، هل يمكن أن نعرفَ عن طريق التجارب المختبرية ما يؤدي إليه

الاختلافُ والتشرذم في المجتمع الواحد، وما يصيب شعباً من الشعـوب أو أمة من الامم من هذا الطريق ؟

أم هل يمكن تقييم ما تنتهي إليه جهود المستعمرين، أو ما يؤول اليه الظلم والحيف، من خلال تجربة حسية ؟

أم هل يمكن الوقوفُ علـى نتـائج «الاختـلاف الطبقـي»، و«التمييـز العنصري» في المجتمع عن طريق التجربة المختبرية ؟

في الاجابة على كل هذه الاسئلة يجب أن نقول : كلاً مع الاسف.

وذلك لأنّه لا توجد للقضايا الاجتماعية - رغم أهميتها القصوى - مثل هذه المختبرات، وحتى لو أمكن توفير مثل هذه المختبرات المناسـبة لتحليـل وتقييم ودراسة القضايا الاجتماعية، فان إنشاءها وايجادها يكلـفُ نفقـات باهضةً، وتستدعي جهوداً عظيمة.

ولكن الأمر الذي في مقدوره أن يقلّل من حجم هذا النقص إلى حد كبير هو أننا نملك اليوم شيئاً يسمى ب: «تاريخ الماضين» والذي يشرح لنا ما كان عليه البشر - أفراداً وجماعات - طوال آلاف السنين من الحياة على هـذه الارض، كما ويعكس مختلف الذكريات والخواطر عنهم، من إنتصـارات وهزائم، ونجاحات وانتكاسات، ويوقفنا بالتالي على كل ما وقع فـي حيـاة الامم والشعوب من حوادث مرة او حلوة.

إن التاريخ يذكر لنا : كيف وجدت الحضارات المشرقة والمدنيات العظمى في العالم، وكيفَ سلكت - بعد مدة - طريق السقوط والانقـراض، حتـى أنها قد محيت عن صفحة الوجود بالمرة، واصبحت خبراً بعد أثر، وبالتالي ما هي العوامل التي كانت وراء سيادة الشعوب ثم اندحارها.

إن حياة الماضين وتاريخهم يحتفظ لنا في صفحاته بقسط كبير ومهم جـداً من هذه الحوادث، ولهذا صح أن يقال : «التاريخ مختبر الحياة العظ يم»، فبمعونة التاريخ يمكن تقييم مختلـف القضايـا الاجتماعيـة، ودراسـتها واستخلاص النتائج والعبر المفيدة منها.

وإن من حسن الحظ أننا لم نكن أول من حط قدمه على هذا الكوكب، فهذه الأرض بسهولها وشعابها العريضة، وتلك السمـاء بنجومهـا وكواكبهـا الساهرة شهدتا ملايين الملايين من البشر الذين سكنوا الارض من قبلنـا، وشهدتا افراحهم واتراحهم، همومهم وغمومهم، حـروبهم، ومصالحـاتهم، وكل ما رافق واكتنف حياتهم من حب وبغض وظلمات وأنوار، وارتقـاء وهبوط، إلى غير ذلك من شؤون وشجون الحياة البشرية التي يزخر بهـا تاريخ الشعوب والاقوام والامم.

صحيح أنهم قد اختفوا مع الكثير من أسرار حيـاتهم، وغـابوا جميعـاً - أشخاصاً وأسراراً - في بحر من النسيان وانسدل عليهـم الستـار، إلا أن قسطاً ملِفتاً للنظر وجملة يعتد بها من تلك الامور إما أنها قد دونت بأيـدي أصحابها، أو لا تزال طبقاتُ الارض وبطون التلال تحتفظ بها في ثناياهـا وطياتها، كما ولا تزال ذات الاطلال الصامتة - في ظاهرهـا - تشكـل أضخم متحف، واغنى معرض، واكبر مختبر، يعيد لنـا شـريط التاريـخ ويحكي وقائعه وأحداثه، ويشرح رموزه وأسراره.

إن مطالعة تلكم الصفحات من تاريخ الامم الغابرة فـي الكتـب، او فـي الاطلال العظيمة، أو في ما يعثر عليه المنقبون في بطون التلال، وثنايـا الارض تعلّمنا أموراً كثيرة، وتضيف إلى عمرنا عمـراً جديـداً وزمنـاً اضافياً، لا يستهان به وذلك بما تقدم لنا مِن الخـبرة والعـبرة، والهـدى والبصيرة.

أليست حصيلة العمر ما هي إلا ما استفادة المرء من تجارب ؟ ألا يجعـل

التاريخ خلاصة أفضل التجارب تحت تصرفنا ؟

ولقد اشار الامام امير المؤمنين علي بن ابي طالب عليه السلام في وصية لولده الى هذه الحقيقة حيث قال :

«أي بني! إنّي وإن لم اكن عمرتُ عمر من كان قبلي، فقَد نظـرتُ فـي أعمالهم وفكرتُ في أخبارهم وسرت في آثارهم حتى عدتُ كأحـدهم بـل كأني بما انتهى الي من أُمورهم قد عمرتُ مع أولهم إلى آخرهم»(١).

---

(١) نهج البلاغة، قسم الرسائل رقم ٣١.

ولكن المؤسف أن كُتُب التاريخ الموجودة الآن تعاني من نقص كبير مـن حيث الاشارة الى العبر والدروس الاجتماعية المفيدة، لأن هذه المصنفـات لم تدون لأجل هذا الغرض، ولهذا أُغفِلَ فيها - في الاغلب - كل ما هـو مؤثر في كشف الحقائق التاريخية، وإبراز العلل الكامنـة وراء الحـوادث المتنوعة والوقائع المختلفة، وبالتالي فقد تجاهلت تلك الكتب والدراساتُ ما هو المفتاح الطبيعي لحل الرموز الكبرى في مسـيرة التـاريخ البشـري، واعتنت - بدلاً عن ذلك - بالقضايا التافهة.

لقد تصدى كثير من المؤرخين لتدوين وتسجيل القضايا التاريخيـة، تـارة

بهدف التسلية وأخرى بدافع إبـراز الفضـل لأقـوامهم او طـوائفهم، واظهار تفوقها على الاقوام والطوائف الأخـرى، وثالثـة بـدافع الحـب والبغض، او التعصب لهذا أو ذاك ولهذا عجزت هذه المؤلفات والكتب عن حل أية مشكلة، وتبديد أية حيرة، بل هي تزيد المرء ضلالاً إلى ضـلال، وحيرة الى حيرة !

ولكن رغم كل هذا يستطيع أولو النباهـة والبصـيرة، واصـحاب الفهـم والتحقيق ان يتواصلوا - من خلال مطالعة هذه المؤلفات التاريخية على ما فيها من عيوب ونقائص، ومع ما فيها من أساطير عن الشعوب المختلفة - إلى ما يساعدهم على كشف الكثير من اسرار وخلفيات القضايا والامـور المتعلقة بالشعوب الماضية، تماماً كما يفعل الطبيب الحـاذق، او القاضـي البارع الذي يمكنهما من خلال الوقوف على القرائن الجزئيـة المتفرقـة، التوصل إلى اكتشاف نوع «المرض» أو حالة «المتهـم» الحقيقيـة، ومـا يعاني منه في واقعه النفسي.

* * *

إن أعظم صفحات التاريخ قيمة هي تلك التي تعكس لنـا حيـاة العظمـاء وسيرة الرجال الخالدين، وتبحث عنها بصدق وامانة وموضوعية.

إن لحياتهم أمواجاً خاصة، كما أنها زاخرة بانوع الحوادث.

لقد كانوا عظماء حقاً، وكذلك كان كل ما يرتبط بهم، ومن ذلك تـاريخهم، إنه شيء عظيم يستحق التأمل والتدبر، فهو يتسِم بِلمعان يلفـت الأنظـار،

الالباب وإنّه غني بالعظات والعبر، زاخر بالبصائر والدروس والى درجة لا توصف.

إنهم معجزةُ الخليقة بلا ريب، وإن حياتهم لهي - في الحقيقـة - ملحمـة التاريخ الكبرى، وساحة البطولات الخالدة، ومسرح الحماسات العظمـى، الحية النابضة على مر العصور، والايام.

لقد كان اولئك العظماء يعيشون في الاغلب على خط الثورات والتغييرات الاجتماعية الاول (وبعبارة أصح) كانت الثورات والتحولات الاجتماعيـة تجد مصداقيتها في حياتهم وتتجسد في مواقفهم، ولهذا كانوا يشكلون - في واقع الأمر - حلقة الاتصال بين الدنياوات المختلفة المتناقضـة، وكانـت حياتهم الحافلة بالاحداث شاهدة للألوان المختلفة والمشاهد المثيرة المتنوعة.

* * *

وعلى رأس أولئك الرجال التاريخيين والعظماء الخالدين رسول الإسـلام العظيم محمد صلّى اللّه عليه وآله وسلّم فانه لم تتسم حياة أحد - من حيث وفرة الاحداث، وعظمة الأمواج، كما اتسمت به حياته صلّى اللّه عليه وآله ولا اتصفت شخصية بمثل ما اتصف به ذلك النبي العظيم.

فلم يستطع احد سواه أن يؤثر في بيئته، ثم في جميع العالم، وينفذ إلـى أعماق الاعماق بمثل السرعة والسعة التي حصلت له صلى اللّه عليه وآله.

ولم يوجد أي واحد منهم قط من مجتمعه المنحطّ المتخلّف، حضارة بتلـك العظمة والشموخ، كما فعله رسولُ الإسلام صلّى اللّه عليه وآله - وتلـك حقيقة يقر بها كل مؤرخي الشرق والغرب.

إن مطالعة عميقة لسيرة وحياة هذا الإنسان العظيم، قادرة على أن تعلمنـا الكثير الكثير، وأن توقفنا على مشاهد متنوعة في غايـة النفـع ومنتهـى الفائدة.

إن مشاهد عجيبة مثل الأيام الأُولى مِن بناء الكعبة المعظمـة، واسـتيطان اسلاف النبي الكريم «مكة» وهجوم عسكر الفيل الفاشل لهدم بيـت اللّـه المعظم، والاحداث والملابسات المرافقة لمولد النبي صلّى اللّه عليه وآله.

كما وإن مشاهد محزنة مثل وفاة «عبد اللّه» و«آمنة» والدي رسول اللّـه صلّى اللّه عليه وآله في مطلع حياته الشريفة بتلك الكيفية المؤلمة.

ومشاهد عظيمة ومهيبة وحافلة بالاسرار مثل الايام الاولـى مـن نـزول الوحي، وما جرى في جبل «حراء» وما تبعـه مـن مواقـف الاسـتقامة والمقاومة التي ابداها واتخذها رسول اللّه واصحابه المعدودون طيلة ثلاثة

عشر عاماً، في سبيل نشر الدين الاسلامي في مكة، ومكافحة الوثنيـة والجاهلية.

وكذا مشاهد مثيرة وساخنة وحماسية مثل وقائع السنة الأولى من الهجـرة المباركة وما عقبتها من حوادث ومواقف.

* * *

ولقد ألّفت حول حياة رسول الإسلام أعظم قادة البشرية على الاطلاق كتب ورسائلٌ ودراساتٌ كثيرة بحيث لو اتيح لنا أن نجمعها فـي مكـان واحـد لشكلت مكتبة عظيمة وضخمة.

ويمكن القولُ - بشكل قاطع - بأنه ليس ثمة من عظيم اسـتقطب اهتمـام التاريخ والمؤرخين والمفكرين العالميين الكبار، كما ليس ثمة شخصية من شخصيات العالم كتب حولها المؤلفون والباحثون هذا القـدر الهائـل مـن المؤلفات والمصنفات، والرسائل والكتب، كما حصل لرسول الإسلام محمد صلّى اللّه عليه وآله وسلّم.

إلا أن أكثر هذه الكتب والمؤلفات تعاني من أحد إشكالين : إما أن الكتـاب جاء على نسق التسجيل المجرد للحوادث، أو النصوص التاريخية، من دون أن يتصدى فيه مؤلفه لتحليلها، ودراسة خلفياتها ونتائجها، وإصدار الحكـم اللازم فيها، بل إن البعض قد تجنب عن بيان علـل الوقـائع الإسـلامية واسبابها، وثمارها ومعطياتها كذلك.

أو أن المؤلّف - في بعضها الآخر - عمد إلى طائفة من الآراء الحدسية، والاجتهادات الباطلة، العارية عن الدليل واثبتها في مؤلفه على أنها الحكـم الحق،

وخلط هذه الاحكام مع بيان الحوادث، ومن ثـم اخـرج كتابـه ذاك الـى الجمهور المتعطش الى تاريخ الإسلام، على أنه التاريخ المحقق، الممحص.

إن الإشكال الذي يرد على الطائفة الاولى هو : أن الهدف من التاريخ ليس هو مجرد تسجيل الحوادث التاريخية وضبطها وتدوينها، إنما هـو كتابـة صفحات التاريخ، وقضاياه وأحداثه من المصادر الصحيحة الموثوق بهـا، وإبراز عللها واسبابها، وثمارها ونتائجها، والتاريخ بهذا الشكل أعظم كنز تركه الأقدمون لنا، ومثل هذا النوع من الدراسة التاريخية لم تُـدون - أو أنه قلّما دونت - حول أعظم قادة البشر، محمد صلّى عليه وآله فقد تجنب اكثر كتاب السيرة النبوية عن اظهار الرأي في الحوادث، او القيـام بـاي تحليل للوقائع، بحجة الحفاظ على أصول الحوادث ونصوصها.

في حين أن هذا العذر، وهذه الحجة غير كافية لتبرير هذا الموقف، لأنـه كان في مقدور اولئك المؤرخين - للحفاظ على ما ذكـروه - أن يؤلفـوا نوعين من الكتب، نوعاً يختص بسرد الوقائع والنصوص التاريخية على ما هي عليه من دون ابداء رأي، او تحليل ودراسة، ونوعاً آخر يعتني بذكـر الحوادث والقضايا التاريخية مع تحليلها ودراسـتها بصـورة موضـوعية صحيحة أو ان يتم كلا الأمرين في كتاب واحـد بـأن تفـرز الحـوادث

التاريخية عن التحليل والرأي.

على كل حال قلما نجد بين قدماء الكُتّاب المسلمين مـن تصـدى للسـيرة النبوية المحمدية الطاهرة بهذه الصورة، وقلماً يوجد هناك كتـاب يتنـاولُ حياة خاتم الانبياء وسيد المرسلين بالتحليل المذكور.

بل لابد من القول بان السيرة النبوية الطاهرة ليست هـي وحـدها التـي حرمت من مثل هذا النمط من التأليف والكتابة، بل شمل هذا الحرمان اكثر الحوادث التاريخية التي وقعت على مر العصور الإسلامية فهي أُدرجـت في الكتب من دون دراسة موضوعية وتقييم دقيق.

نعم إن أول من فتح هذا الطريق على وجه عامة المؤلفين والكتاب هو :

العلامة المغربي «ابن خلدون»(١) فقد أسس في مقدمته المعروفـة باسـم مقدمة ابن خلدون نمط التاريخ التحليلي بنحوٍ من الانحاء.

وأما الطائفة الثانية من تلك الكتب فهي وإن أُلفت على نمط التاريخ التحليلي واتسمت بصفة التحقيق والدراسة ولكن حيث ان بعضهم لم يتجشـم عنـاء التتبع والاستقصاء، أو أنه اعتمد في تحليله للحوادث على المصادر غيـر المتقنة وغير الصحيحة، فقد تورط في أخطاء فظيعـة محيـرة، وأكثـر مؤلفات المستشرقين - التي لم تكتَب في الأغلب بهـدف التوصـل الـى

الحقيقة - من هذا النمط، ومن هذه القماشة.

ولقد دأب في هذه الدراسة - بعد ملاحظة هذه الاشكالات - على ان يقـدم إلى القراء جهد امكانه كتاباً يخلو عن عيوب ونقائص كلتا الطائفتين.

* * *

مزايا هذا الكتاب :

قد لا يكون من الضروري بيان مزايا هذا الكتاب، واستعراض امتيازاتـه في مقدمته، فذلك أمر ينبغي أن يقف عليه القارئ الكـريم بنفسـه ضـمن مطالعته لهذه الدراسة، إلا انه إلفاتاً لنظر القارئ نشير الى مزيتين هامتين هما :

أولاً : أنّنا عمدنا - في هذا الكتاب - الى تناول وبيان الحوادث والوقائـع المهمة التي تنطوي على قدر اكبر من الفائدة، والعبرة، وأعرضنا صـفحاً عن ذكر الاحداث الجزئية، والوقائع الصغيرة مثل الكثير من السرايا.

ثم أننا أخذنا الحوادث التاريخية هذه من المصادر الأصيلة، والأولية، التي دونت في القرون الإسلامية المشرقة الاولى، فقد استخلصنا الحادثـة مـن مجموعة تلك المصادر، ثم أشرنا إلى مصدر أو مصدرين من المصـادر التي ذكرت الحادثة

(١) هو القاضي عبد الرحمان بن محمَّد الحضرمي المالكي المتوفى عام ٨٠٨ هجري، ومقدمته وتاريخه - على ما فيهما من أخطاء فظيعة في التحليل - معدودان من الكتب الجيدة المفيدة، وهما مبتكران في نوعهما.

بصورة اكثر تفصيلاً ودقة.

وربما يظن بعض القراء الكرام أننا اكتفينا في نقـل الحـوادث والوقائـع بمراجعة مصدر أو مصدرين مما ذكرناه في أقصى الصفحة (أي الهامش) في حين أن الواقع هو غير هذا، فنحن قد راجعنا حتى في نقل الحـوادث الصغيرة مهما صغرت، اكثر المصادر الأصيلة المعروفة، وبعد التحقـق والتثبت منها لخصناها وذكرناها في هذا الكتاب.

ولو أننا أشرنا - في جميع الحوادث والوقائع - الى جميع المصادر التـي مررنا بها لاستأثر جدول المصادر بقسم كبير من صفحات هـذا الكتـاب، وهو أمر من شأنه أن يبعث على الملل عند القراء، فلكي لا يحس القـراء بأي تعب أو ملل من جانب، ولأجل أن نحافظ على وثائقية الكتاب وأصالة أبحاثه وإتقانها من طرف آخر اكتفينا بذكر القدر الـلازم مـن المصـادر وتجنبنا تحشيدها بتلك الصورة المِمِلّة.

وأما المزية الثانية : فإننا أشرنا - ضـمن الدراسـات اللازمـة - إلـى الاعتراضات والاشكالات، بل وأحياناً إلى مواطن الاساءة التي قـام بهـا

المستشرقون المغرضون وأجبنا على جميع الانتقادات والاعتراضـات غير المبررة وغير الصحيحة بأجوبة مقنعة وقاطعة وصحيحة، وجردناهم من الاسلحة التي شهروها في وجه الإسلام ورسول اللّه صلّى اللّه عليـه وآله وسلّم - كما يقول المثل، وتلك حقيقة يقف عليها القارئ الكريم بنحـو أجلى في محلّها.

وعلى هذا الاساس عمدنا إلى ذكر رأي المؤلّفين الشيعـة (فـي المسائـل المختلف فيها بين المؤرخين الشيعة والمؤرخين السنة) مع ذكر المصـادر والشواهد التاريخية الواضحة والمبرهنة عليه، وأزحنا كل ما يدور حـول ذلك الرأي من شبهة أو إشكال، ويستهدف إنكار صحته وحقانيته.

إننا إذ نقدم هذه الدراسة التحليلية لشخصية وحياة خاتم الأنبياء محمد صلّى اللّه عليه وآله إلى القراء الكرام نأمل أن يهتم بها عامة المسلمين وخاصـة المثقفين والشّباب منهم بوجه خاص، ويتنـاولوا هـذه السـيرة العطـرة بالمطالعة المتأنية والتأمل

والتدبر، ونأمل أن يستطيع شبابنا المؤمن المتحمس من أن يرسم خريطـة حياته وحياة مجتمعه في ضوء ما يستلهمه ويستوحيه مـن سـيرة وحيـاة رسول الاسلام صلّى اللّه عليه وآله، في هذه الحقبة البالغة الخطورة. واللّه ولي التوفيق.

جعفر السبحاني

٢٦ / جمادى الآخرة / ١٣٩٢

قبل فهرس بعد

١ ـ شبه الجزيرة العربية أو مَهْد الحضارة الإسلامية

الجزيرةُ العربية هي في الحقيقة شبه جزيرة كبيرة وتقـع فـي الجـ نوب الغربي من آسيا، وتبلغ مساحتُها ثلاثة ملايين كيلومتر مربع، أي ضِـعف مساحة إيران، وستة أضعاف فرنسا، وعشرة أضعاف إيطاليـا، وثمانيـن ضِعف سويسرة.

ويحد شبه الجزيرة - هذا الذي هو اشبه ما يكون بمستطيل غير متـوازي الاضلاع - من الشمال فلسطين وصحراء الشام، ومن المشـرق الحـيرةُ ودجلة والفرات والخليج الفارسي، ومن الجنوب المحيط الهنـدي وخليـج عمان، ومن المغرب البحر الأحمر.

وعلى هذا يحاصر هذه الجزيرة من المغرب والجنوب البحر، ومن الشمال والشرق الصحراء، والخليج.

وقد جرت العادة بتقسيم هذه المنطقة من القديم إلى ثلاثة اقسام :

١ - القسم الشمالي والغربي ويسمى بالحجاز.

٢ - القسم المركزي والشرقي ويسمى بصحراء العرب.

٣ - القسم الجنوبي ويسمى باليمن.

وتُشكّل داخلَ شبه الجزيرة هذا صحاري كبيرة، ومناطق شاسـعة رمليـة حارة، وغير قابلة للسكنى تقريباً، ومن جملة هـذه الصحـاري صـحراء «بادية

سماوة» التي تسمى اليوم بصحراء «النفوذ» وصـحراء أُخـرى واسـعة الاطراف تمتد إلى الخليج الفارسي يطلق عليها اليوم إسم «الربع الخـالي» وقد كان يسمى قسم من هذا الصحاري سابقاً بالأحقاف، ويسمـى القسـم الآخر بالدهناء.

وعلى أثر هذه الصحاري تشكل ثُلث مساحة شبه الجزيرة هـذا أراضـي خالية من الماء والعشب وغير قابلة للسكنى، اللهم إلا بعض ما يحصل من المياه، بسبب تساقط الامطار، في قاب الصحاري فيتجمع حولهـا بعـض القبائل العربية بعض الوقت، ويرعون فيها ابلهم وانعامهم ردحاً قليلاً مـن الزمن.

وأما حالة المناخ في شبه الجزيـرة العربيـة، فـالهواء فـي الصحـاري والأراضي المركزية (حار وجافٌ جداً، وفي السواحل مرطـوب، وفـي بعض النقاط معتدلٌ، وبسبب رداءة الطقس هذه لا يتجـاوز عـدد سـكانه خمسة عشر مليون نسمة.

وتوجد في هذه الجزيرة سلسلة جبال تمتد من الجنوب الى الشمال، ويقارب ارتفاع أعلى قممها ٢٤٧٠ متراً.

وقد كانت معادن الذهب والفضة والاحجار الكريمة تشكل مصادر الـثروة في شبه الجزيرة هذا منذ القديم، وكان سكانها يعتنون - من بيـن الانعـام والحيوانات - بتربية الابل والفرس اكثر من غيرهما، ومن بين الطيـور بالحمام والنعامة اكثر من الطيور الأُخرى.

بيد أن اكبر مصدر للثروة في الجزيرة العربية اليوم يـأتي عـن طريـق استخراج النفط.

وتعتبر مدينة «الظهران» الذي يسميه الاوربيون بالدهران المركز النفطي الرئيسي في هذه الجزيرة، ويقع هذا البلد في ناحية الاحساء التي تقع فـي المنطقة الشرقية من الجزيرة العربية على حدود الخليج الفارسي.

ولكي يتعرف القارئ الكريم على الأوضاع في شبه الجزيرة العربية هـذا بنحو اكثر تفصيلاً فاننا نعمد إلى شرح الاقسام الثلاثة المذكورة :

١ - «الحجاز» وهي المنطقة التي تشكل القسم الشمـالي والغربـي مـن الجزيرة

العربية وتمتد أراضيها على ساحل البحر الاحمر ابتداء من فلسطين وحتى حدود اليمن.

والحجاز بعد هذا منطقة جبلية، وذات صحار قاحلـة، واراض حجريـة، وصخرية، يكثر فيها الحصى.

ولقد كانت هذه المنطقة - في التاريخ - اكثر شهرة مـن غيرهـا، ومـن المعلوم أن هذه الشهرة جاءت بسبب جملة من العوامل المعنوية والدينيـة، فهي الآن تضم بين جوانحها بيت اللّه الحرام «الكعبـة المعظمـة»، قبلـة ملايين المسلمين، ومهوى افئدتهم.

وقد كانت البقعةُ التي تقوم عليها بنية «الكعبة المعظمة» تحظى منذ سنوات مديدة قبل بزوغ الإسلام باحترام العرب وغيرهم، ولهذا حرموا القتال حول الكعبة تعظيماً لها، حتى إذا جاء الإسلام أقر للكعبة ولما حولها، مثل ذلـك الاحترام، والتعظيم أيضاً.

ومن أهم مدن الحجاز : «مكة» و«المدينة» و«الطائف»، وكان للحجاز منذ القديم ميناءان هما : ميناء «جدة» الذي يستخدمه أهل مكة، وميناء «ينبع» الذي يستخدمه أهلُ المدينة، في سد الكثير من إحتياجـاتهم ويقـع هـذان الميناءان على ساحل «البحر الاحمر».

مكةُ المعظمة :

وهي من أشهر مدن العالم وأكثر المدن الحجازية سكاناً، وترتفع عن سطح البحر بما يقارب ٣٠٠ متر.

واذ تقع مدينة «مكة» بين سلسلتين من الجبال لذلك فانها لا تُرى من بعيد، ويقطنها اليوم حوالي ١٥٠) ألفاً من السكان.

تاريخ مكة :

يبدأ تاريخ «مكة المكرمة» من زمن النبي إبراهيم الخليل عليه السلام، فقد

أسكن هذا النبي ولده «اسماعيل» مع أُمه «هاجر» في ارض مكة، فنشـأ اسماعيل هناك، وتزوج من القبائل التي سكنت علـى مقربـة مـن تلـك المنطقة.

ثم إن إبراهيم عليه السلام بنى وبأمر مـن اللّـه تعـالى البيـت الحـرام «الكعبة».

وتقول بعض الروايات الصحيحة إن الكعبة بنيت على يد النبي نوح عليـه السلام وأن ابراهيم عليه السلام جدد بناءها.

وهكذا نشأت وبعد هذا تأسست مدينة مكة.

وتتكون نواحي «مكة» من أراض سبخة شديدة الملوحة بحيـث لا تكـون قابلة للزراعة اصلاً، حتى أن بعض المستشرقين يذهب إلى أنه لا يوجد أية منطقة في العالم في رداءة أوضاعها الجغرافية والمحيطية والطبيعية مثـل هذه المنطقة.

المدينَةُ المنورةُ :

وهي مدينة تقع في شمال مكة وتبعد عنها ب: ٩٠ فرسخاً تقريباً، وتحيـط بها بساتين ومزارع ونخيل وافرة، وأرضها أكثر صلاحية لغرس الاشجار والزرع.

وكانت المدينة المنورة تسمى قبل الإسلام ب«يثرب»، وبعد أن هاجر إليها رسول الإسلام صلّى اللّه عليه وآله سميت بمدينة الرسول، ثم أُطلقت عليها لفظة «المدينة» مجردة تخفيفاً.

ويحدثنا التاريخ أن العمالقة كانوا أول من سكن هذه الـديار، ثـم خلـف العمالقة طائفة اليهود، والأوس والخزرج الذين سـمي المسلمـون منهـم بالأنصار في ما بعد.

هذا وقد سلمت الحجاز - على عكس سائر المناطق - من طمع الطامعين وغزو الغزاة والفاتحين، ولم نشاهد فيها أي شيء من آثار حضارة الامبراطوريتين العظيمتين آنذاك قبل الإسلام : الروم والفرس، وذلك لأنها إذ كانت تتألف من أراض قاحلة مجدبة غير قابلة للسكنى والعيش لم تحظ باهتمام أحد من أولئك الفاتحين حتى يفكر في تسيير العساكر، وتجييش الجيوش لفتحها ليعود بعد تحمل آلاف المشاكل التي تستلزمها عملية الاستيلاء على أراضي تلك المنطقة

خالي الوفاض صفر اليدين.

وللوقوف على هذه الحقيقة اقرأ القصة التالية التي نقلها «ديودرس».

عندما دخل ديمتريوس القائد اليوناني الكبير «بطرا» (وهي مدينة قديمة من مدن الحجاز) بهدف فتح جزيرة العرب خاطبه سكان تلك المدينة قائلين :

لماذا تحاربنا أيها الملك ديمتريوس ونحن من سكان الصحارى التي لا تُسد فيها خلّة، ترانا نقطن في هذه البقاع القاحلة فراراً من العبودية. إقبل هداياناً، وارجع الى حيث كنت، سنكون من أوفى الاصدقاء لك، ولكنك اذا رغبت في حصرنا حرمت كل هناءة، ورأيت عجزك عن اكراهنا على تبديل طرق حياتنا التي تعودناها منذ نعومة أظفارنا، وإذا قدرت على أسر بعضنا أيقنت أنك لن تجد واحداً ممن أسرت يستطيع أن يألف حياة غير التي ألفناها.

هنالك رأى ديمتريوس أن يقبل هديتهم وان يرضى بالمآب(١).

٢ - المنطقة الوسطى والشرقية، التي تسمى ب«صحراء العرب» ومنطقة «نجد» التي هي جزء من هذه المنطقة أرض مرتفعة يقوم فيها بضع قُرى صغيرة معدودة.

ولقد أصبحت الرياض التي اتخذها السعوديون عاصمة لهم بعد اسـتيلائهم من المراكز المهمة في هذه الناحية من الجزيرة.

٣ - المنطقة الجنوبية الغربية مـن الجزيـرة العربيـة، والـتي تسمـى ب«اليمن» وتمتد طولاً من الشمال الى الجنوب حوالي (٧٥٠) كيلو مـتراً ومن الغرب الى الشرق حوالي (٤٠٠) كيلو متراً.

وتقدر مساحة هذا البلد بستين الف ميل مربع تقريباً. ولكنها كانت - قبـل ذلك - أوسع من هذا القدر، وقد كان قسم منها (وهو عدن) خلال النصف الاول من القرن الأخير تحت الانتداب البريطاني، ومن هنا ينتهي شـمالاً الى نجد، وجنوباً الى عدن، وغرباً الى البحر الأحمر وشرقاً الى صـحراء الربع

---

(١) حضارة العرب : تأليف غوستاف لوبون ص ٩١ - ٩٢ ترجمة عادل ليتر.

الخالي(١).

ومن مدن اليمن المعروفة مدينة «صنعاء» التاريخية العريقة، ومن موانئها المشهورة ميناء «الحديدة» التي تقع على البحر الأحمر.

ومنطقة اليمن من اكثر مناطق الجزيرة العربية خصوبـة وبركـة، ولهـا تاريخ مشرقٌ وعريق في المدنية والحضارة، فقد كانت اليمن مقراً لملـوك تبع، الذين حكموا اليمن سنيناً مديدة وكانت اليمن قبـل الإسـلام مركـزاً تجارياً مهماً، وكانت في الحقيقة ملتقى طـرق الحجـاز، اشـتهرت فـي العصور القديمة بمعادن الذهب، والفضة، والحديـد، والنحـاس، وكانـت تصدر الى خارج البلاد.

ولا تزال آثار الحضارة اليمنية القديمة باقية الى الآن.

ولقد قام أهلُ اليمن الاذكياء باقامة أبنية وعمارات عالية وجميلـة بهممهـم العالية في عصور كان البشر يفقد فيها الوسائل الثقيلة، والاجهزة المعقدة.

كان ملوك اليمن يحكمون البلاد دون أي منازع، إلا أنهم رغـم ذلـك لـم يكونوا يمتنعون عن تنفيذ ما رسمه حكماء اليمن ورجـالهم مـن انظمـة وقوانين للحكم وادارة البلاد آنذاك.

ولقد سبقوا الآخرين في الزراعة والفلاحة، وقد نظموا لإحياء الأراضـي وزراعتها، نظاماً دقيقاً للري طبقوا بنوده بدقة، ولهذا كانت بلادهم تعـد - آنذاك - من البلدان الراقية المتقدمة من هذه الناحية.

فها هو «غوستاف لوبون» المؤرخ الفرنسي المعروف يكتب حول اليمـن قائلاً : إن بلاد العرب السعيدة من أغنى بقاع العالم(٢).

ويكتب الادريسي المؤرخ المعروف الذي كان يعيش في القرن الثاني عشر حول «صنعاء» قائلاً : كانت صنعاء مقر ملوك اليمن، وعاصمة جزيـرة العرب، وانه كان لملوكها قصر متين شهير وكانت تشتمل علـى بيـوت مصنوعة من الحجارة

---

(١) لقد انقسمت اليمن مؤخراً الى يمن شمالية وأُخرى جنوبية لكل واحد منها نظام حكم خاصّ وحكومة خاصّة..

(٢) حضارة العرب : ص ٩٤.

المنحوتة(١).

هذه الآثار العجيبة التي عثر عليها المستشرقون وعلماء الآثار في تنقيباتهم

الأخيرة تثبت حضارة عجيبة لليمن في عصورها القديمة وذلـك فـي مختلف نواحيها مثل «مأرب» و«صنعاء» و«بلقيس».

ففي مدينة مأرب (وهي مدينة سبأ المعروفة) كانت تقوم قصـور ضـخمة وصروح عالية ذوات أبواب وسقوف مزينة بالذهب، وكانت تحتوي علـى أوان وصحون من الذهب والفضة، وأسرة كثيرة مصنوعة مـن المعـدن والفاز(٢).

ومن آثار «مأرب» التاريخية السد المعروفُ باسم ذلك البلد والذي لا تزال اطلاله باقية، وهو السد الذي تهدم بسبب السيل الذي وصفه القرآن الكريم بالعرم.

فقد جاء في سورة سبأ الآية ١٥ - ١٩ قوله تعالى :

(لقَد كان لِسبأ في مسكِنِهم آيةٌ جنّتان عن يمين وشمال كُلُوا مِن رزق ربكُم واشكُروا له بلدةٌ طيِبةٌ ورب غفُور. فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيلَ العـرم وبدلناهم بِجنتيهم جنتين ذواتي أُكلٍ خمطٍ وأثلٍ وشيء مِن سِدر قليلٍ. ذلِـك جزيناهم بما كفروا وهل نجازي الا الكفور. وجعلنا بينهم وبين القُرى الّتي باركنا فيها قُرى ظاهرةً وقدرنا فيها السير سِيروا فيها ليالي وأياماً آمِنيـن. فقالُوا ربنا باعِد بين أسفارنا وظلموا أنفُسهم فجعلناهم أحاديث ومزقناهم كُلَ ممزق إن في ذلك لآيات لِكل صبارٍ شكُور)(٣).

---

(١) نزهة المشتاق في اختراق الآفاق على ما في حضارة العرب، ص ٥٥.

(٢) حضارة العرب : ص ٩٤.

(٣) للوقوف على المزيد من المعلومات عن اليمن قديماً وحديثاً، راجع الكتب المؤلفة حول جغرافية العالم الإسلامي.

قبل فهرس بعد

٢ ـ العَرَب قبلَ الإسلام

لمعرفة أوضاع العرب قبل الإسلام يمكن الرجوع إلى المصادر التالية:

١- التوراة على ما فيها من تحريفات .

٢- كتابات اليونانيين والروميين في القرون الوسطى .

٣- الكتابات التاريخية الّتي كتبها علماء الإسلام ومؤلفوه .

٤- الآثار القديمة الّتي عثر عليها المستشرقون في تنقيبـاتهم والّتـي استطاعت من أن تكشف النقاب عن طائفة لا يستهان بها من الحقائق فـي هذا الصعيد .

إلاّ انه مع وجود كل هذه المصادر والمراجع لا تزال هناك نقاطٌ كثيرةٌ عن تاريخ العرب في القرون البعيدة تعاني من الغموض .

ولكن حيث أن دراسة أوضاع العرب قبل الإسلام هي من باب المقدمة في هذا الكتاب، والهدف الاساسي إنما هو دراسة السيرة النبوية الطـاهرة، من هنا نكتفي في هذا الفصل باستعراض النقاط الخاصة والواضحة مـن حياة العرب قبيل الإسلام على اننا يمكننا أن نقف على وصف دقيق لحالة العرب خاصة قبيل بزوغ الإسلام من خلال مصدرين اسلاميين اساسـيين هما:

١- القرآن الكريم .

٢- ماورد عن الامام علي ـ عليه السلام ـ في نهج البلاغة.

فقد وردت في هذين المصدرين تصريحاتٌ ونصوص صريحة تكشف عن ما كان عليه العرب في الجاهلية مـن سـوء الأحـوال والاوضـاع والاخلاق في جميع الاصعدة والابعاد، وسنشير إلى ابرز هذه النصـوص ونقف عندها بعض الشيء، ولكننا نستعرض قبل ذلك شـيئاً مـن تاريـخ العرب في القرون البعيدة فنقول:

إن من المسلم أن شبه الجزيرة العربية كان منذ أقدم العصور موطنـاً لقبائل كثيرة انقرض بعضها بمرور الايام، وفي ثنايا الاحداث، بيد ان هناك ثلاث قبائل قد تشعبتْ عنها أفخاذٌ وفروع تحظى بشهرة اكثر من بين مـن سكنوا هذه المنطقة .

وهذه القبائل الأم هي:

١- العرب البائدة: وإنما سميت بالبائدة لأنها أبيدت بالعـذاب الالهـي السماوى أو الأرضى بسبب عصيانها وتمردها، وهلكت شيئاً فشيئاً، ولـم يبق على وجه الارض من نسلهم أحد!

ولعلهم كانوا هم المعنيون بقوم «عاد» و «ثمود» الذين جاء ذكرهم في القرآن الكريم مراراً .

٢- القحطانيون: وهم أبناء يعرب بن قحطان الذين كانوا يقطنون فـي «اليمن» وسائر المناطق الجنوبية من الجزيرة العربية ويسمـون بـالعرب الأُصلاء، وهم اليمنيون اليوم، ومنهم قبائل الأوس والخزرج وهما قبيلتـان كبيرتان كانتا تقطنان المدينة المنورة إبان ظهور الإسلام .

وقد كان للقحطانين حكومات كثيرة، كما كانت لهم جهود كـبرى فـي تعمير ارض اليمن واحيائها، وقد تركوا من ورائهم حضارات ومدنيات لا يستهان بها .

وتوجد الآن كتابات تُقرأ بصورة علمية توضح إلى حد كبـير تار يخ القحطانيين وكلُّ ما يقال عن مدنية العرب وحضارتهم قبل الإسلام تعـود في الحقيقة إلى هذه الطائفة وخاصة من سكن منهم ارض اليمن .

٣- العدنانيون: وهم أبناء اسماعيل بن ابراهيم الخليل ـ عليه السـلام ـ ،

وسوف يأتي ذكر جذور هذه الطبقة في الابحاث القادمـة. وخلاصـة ذلك: أن إبراهيم الخليل ـ عليه السلام ـ أُمران يسكـن ولـده الرضـيع اسماعيل مع زوجته «هاجر» ام اسماعيل في ارض مكة، فخـرج بهمـا ابراهيم ـ عليه السلام ـ من «فلسطين» وهبط بهما فـي ذلـك الـوادي العميق الخالي عن الماء والعشب «مكة» ثم ان يد العناية الالهية امتدت إلى تلك العائلة المهاجرة، وجادت عليها بعين «زمزم» الّـذي جلـب الـرواء والحياة إلى تلك المنطقة القاحلة الضامئة.

ثم تزوج إسماعيل من قبيلة «جرهم» الّتي خيمت بالقرب مـن مكـة، واصاب من هذا الزواج عدداً كبيراً من الابناء، والاحفاد، وأحفاد الاحفـاد كان من جملتهم «عدنان» الّذي ينتهي نسبه إلى النبي اسماعيل عبر عـدد من الآباء والجدود .

ثم تشعبت ذريةُ إسماعيل إلى بطون وأفخاذ، وعشائر وقبائل عديـدة، كان من بينها قبيلة قريش الّتي حظيت بشهرة أكبر، ومنها عشـيرة بنـي هاشم الّتي انحدر منها رسول اللّه ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ ـ كمـا ستعرف ذلك بالتفصيل، عما قريب .

أخلاقُ العرب وتقاليدُهم العامة:

والمراد منها هو الأخلاق والآداب الاجتماعية الّتي كانت سائدة في ذلك المجتمع، وقد سادت بعض هذه الاخلاق والعادات والتقاليد في المجتمع العربي عامة.

ويمكن تلخيص ما كان العرب يتمتعون به من أخلاق وصفات حسنة عامة في ما يلي :

لقد كان العرب زمن الجاهلية وبخاصة ولد «عدنان» أسخياء بالطبع، يكرمون الضيف، وقلّما يخونون في الامانة، لا يغتفرون نقض العهود، ولا يتهاونون مع من يتنكر للمواثيق، يضحون في سبيل المعتقد، ويتحلون بالصراحة الكاملة، وربما وجد فيهم من تمتع بذكاء لامع، وذاكرة خارقة يحفظ بها الأشعار والقصائد الطوال، والخطب المفصلة.

هذا إلى جانب براعتهم في فن الشعر والخطابة بحيث لم يسبقهم في ذلك غيرهم وإلى جانب انهم كانوا مضرب المثل في الشجاعة والجرأة، والمهارة في الفروسية والرمي.

يرون الفرار والادبار في الحرب عاراً لازماً، وصفة ذميمة يلام صاحبها بسببها اشد اللوم .

ولكن في مقابل ذلك كله كانوا يعانون من مفاسد أخلاقية تغطي على كل كمال عندهم، وتنسي كل فضيلة .

ولولا تلك الكوة المباركة الّتي فتحت عليهم من عالم الغيب، لطويت صفحة حياتهم الإنسانية على القطع واليقين .

يعني لو لم تبزغ شمس الإسلام في أواسط القرن السادس الميلادي، ولم

تسطع اشعتها الباعثة على الحياة، على عقولهم وقلوبهم لما رأيت اليوم من العرب العدنانيين اي اثر، ولتكررت مقولة العرب البائدة مرة أُخرى !

لقد حول فقدان القيادة الرشيدة، وغياب الثقافة الصحيحة حياة العـرب، من جانب، وانتشار الفساد والفحشاء من جانب آخر إلـى حيـاة حيوانيـة مزرية حتّى أن صفحات التاريخ تروي لنا أخباراً وقصصاً مفصلـة عـن حروب دام بعضها خمسين عاماً، وبعضها الآخر مائة عام قد نشبت بيـن الاطراف العربية لأسباب طفيفة ودوافع تافهة جدا .

لقد أدى عدم سيادة النظام والقانون على الحياة العربية، وعدم وجـود حكومة قوية مسيطرة على الاوضاع، توقـف البغـاة والمتمـردين عنـد حدودهم، إلى أن يعيش العرب ـ آنذاك ـ في صـورة القبائـل الرحـل، ويرحلوا في كل سنة إلى منطقة معينة من الصحراء التماساً للعشب والماء لانفسهم ولانعامهم، فاذا عثروا على ماء وعشب أو شيء من آثار الحيـاة نزلوا عنده، وأنزلوا رحالهم بجواره، فاذا سمعوا عن وجود مكان افضـل استأنفوا رحلتهم الصحراوية التماساً لحياة اكثر بركـة، وع طاء، وأوفـر خصباً وأمناً .

هذه الحيرة وهذا الضياع وعدم الاستقرار كان ناتجاً من أمرين:

الأول: سوء الاوضاع الجغرافية ورداءة الأحوال الطبيعيـة للجزيـرة العربية، وخاصة من حيث الماء والمناخ والمراعي .

والآخر: الحروب والمصادمات الدموية الكثيرة، واضطراب الأحـوال الاجتماعية، الّتي كانت تُلجىء جماعات كثيرة إلى التنقل الدائم والرحيـل عن الأوطان ومغادرتها، وعدم الاستقرار في منطقة معينة .

هل كانَ للعرب حضَارةٌ قبل الإسلام؟

يستنتج مؤلف كتاب «حضارة العرب» من دراسته لأوضـاع العـرب الجاهلية أن العرب كانوا أصحاب حضارة عريقة سبقت الإسلام بقرون .

فالقصور الضخمة الّتي أقاموها في مختلف نقاط ومنـاطق الجزيـرة العربية، والعلاقات التجارية الّتي كانت لهم مع ارقـى شـعوب الأرض، شواهد قوية على تمدنهم وحضارتهم الغابرة، لأن قومـاً أنشـأوا المـدن العظيمة ـ قبل الرومان بقرون كثيرة ـ وكانت علاقاتهم بـارقى واكبـر شعوب الأرض وثيقة، لا يمكن عدهم همجاً، وشعباً بلا حضارة.

ثم إنه يستدل ـ في موضع آخر من كتابه ـ على حضـارة العـرب الغابرة بادابهم ووحدة وكمال لغتهم إذ يقول:

«ولو كان التاريخ صامتاً إزاء حضارة لقطعنا ـ مع ذلك ـ بوجودها قبل ظهور «محمد» بزمن طويل، ويكفي لتمثّلها أن نذكر أنه كان للعـرب آداب ناضجة ولغة راقية .

والحق أن الآداب واللغة من الأُمور الّتي لا تأتي عفواً، وهي تتخذ دليلا على ماض طويل، وينشأ عن إتصال أُمة بأرقى الامم اقتباسها لما عند هذه الأُمم الراقية من التمدن إذا كانت أهلا لذلك» .

وقد خَصص المؤلفُ المذكور صفحات عديدة في كتابه لإثبات حضارة عريقة وعظيمة للعرب قبل الإسلام معتمداً في ذلك على ثلاث أُمور:

١- وجود لغة راقية .

٢- وجود علاقات مع الامم الراقية .

٣- وجود قصور وأبنية ضخمة، وفخمة في اليمن كما يصفها المؤرخان المسيحيان المعروفان «هيردوتس» و «ارتميدور» اللذان كانا يعيشان قبل المسيح بقرون، وقدامى المؤرخين المسلمين كالمسعودي[١] .

لا كلام في أنه كانت هناك في بعض مناطق الجزيرة العربية بعض حضارات، ولكن الأدلة الّتي استند اليها المؤلفُ المذكور لا يمكن ان تكون شاهداً ودليلاً على وجود الحضارة في جميع نقاط الجزيرة العربية أبداً .

صحيح أن تكامل اللغة يسير جنباً إلى جنب مع غيره من مظاهر المدنية، ولكن لا يمكن ان نعتبر اللغة العربية لغة مستقلة وغير مرتبطة باللغات الأُخرى اي العبرانية والسريانية والآشورية والكلدانية، لأن جميع هذه اللغات ـ حسب ما يؤيده ويؤكده المتخصصون في علم اللغات ـ كانت ذات يوم ـ متحدة الأصل، وقد تشعبت من لغة واحدة، وفي هذه الحالة يحتمل أن تكون اللغة العربية قد حققت تكاملها عبر اللغة العبرانية أو الآشورية، وبعد تكاملها أصبحت لغة مستقلة، أي ان الآخرين أسهموا في تكميلها .

كما أنه لا شك أن وجود علاقات تجارية مع الأُمم والشعوب الراقية هو الآخر دليل على الحضارة والمدنية إلاّ أنه هل كانت جميع مناطق الجزيرة العربية تملك مثل هذه العلاقات، أم إن اكثرها كانت محرومة من ذلك؟

هذا من جهة.

ومن جهة أخرى فان وجود علاقات بين حكومتين في الحجاز وهما: «الحيرة وغسان» وبين حكومتي «الفرس» و «الروم» لا يدل أبداً على وجود حضارة في المنطقتين الحجازيتين إذ أن جميع هذه الحكومات كانت متصفة بالعمالة، فان الكثير من البلاد الافريقية هي اليوم من مستعمرات

الدول الاوربية ومع ذلك لا توجد فيها اية مؤشرات ولا اية مظاهر من الحضارة الغربية الواقعية .

---

١ - حضارة العرب: ٧٨ ـ ١٠٠ .

طبعاً لا يمكن إنكار حضارة «سبأ ومأرب اليمن» العجيبة لأنه مضافـاً إلى ما جاء حول هذه الحضارة في التوراة، وما نُقِلَ عـن «هـيردوتس» وغيره، كتب المؤرخ المعروفُ «المسعودي» عن مأرب يقـول: إن ارض سبأ كانت من أخصب أراضي اليمن وأثراها وأغـدقها، واكثرهـا جنانـاً وغيطاناً وأفسحها مروجاً، بين بنيان وجسد مقيم وشجر موصوف ومساكب للماء متكاثفة، وأنهار متفرقة، وكانت مسيرة اكثر من شهر للراكب المجـد على هذه الحال، وفي العرض مثل ذلك، وان الراكب أو المار كان يسيـر في تلك الجنان من أولها إلى أن ينتهي إلى آخرها لا يرى جهة الشمـس، ولا يفارقه الظِلُ لاستتار الارض بالعمارة والشجـر واسـتيلائها عليهـا واحاطتها بها، فكان أهلها في اطيب عيش وارفهه، وأهنا حـال وارغـده، وفي نهاية الخصب وطيب الهواء وصفاء الفضاء، وتـدفق الميـاه وقـوة الشوكة، واجتماع الكلمة، ونهاية المملكة... فذلّت لهـم البـلاد، واذعـن لطاعتهم العباد فصاروا تاج الارض[١].

وخلاصة القول أن هذه الدلائل لا تدل على وجود حضارة فـي كـل مناطق الجزيرة العربية وخاصة منطقة الحجاز الّتي لم تذق طعم الحضارة أبداً، حتّى أن «غوستاف لوبون» نفسه يعترف بهذه الحقيقة إذ يقـول: «ان جزيرة العرب نجتْ من غزو الأجنبي خلا ما أصاب حـدودها الشماليـة،

وإن عظماء الفاتحين من مصريين وأغارقة ورومان وفرس وغيرهـم ممن انتهبوا العالم لم ينالوا شيئاً من جزيرة العرب الّتي أوصـدت دونهـم أبوابها»[٢] .

وعلى فرض صحة كل ما قيلَ عن وجود حضارة شاملة فـي جميـع مناطق الجزيرة العربية فانه يجب القول بان القدر المسلم في هذا المجـال هو انه لم يبق أي اثر من هذه الحضارات في منطقة الحجاز، إبان طلـوع الإسلام، وبزوغ شمسه، وهي حقيقة يصرح بها القرآن الكـريم إذ يقـول تعالى: (و كُنْتُم على شَفا حفرة مِن النّار فأنقَذكُم مِنْها)[٣] .

---

١ - مروج الذهب: ج ٢، ص ١٦١ و ١٦٢.
٢ - حضارة العرب: ص ٩٣ .
٣ - آل عمران: ١٠٣ .

وينْبغي هنا أن نقف عند القرآن الكريم قليلا ـ كما وعدنا بذلك ـ فانه خير مرآة تعكس أحوال العرب وأوضـاعهم بدقـة متناهيـة وبشموليـة ماوراءها شمولية .

ملامح المجتمع الجاهلي العربي في منظور القرآن:

إن القرآن يكشف إجمالا عن أن النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ بعِثَ إلى قوم لم يبعث اليها احد قبله إذ يقول: (ولٰكِن رحمةً مِن ربك لِتُنْذِر قَوماً ما أتاهم مِن نَذير مِن قَبلك لَعلهم يتَذكرون)[١].

ويقول في آية أُخرى: (أم يقُولون افتراه بلْ هو الحق مِن ربك لِتُنـذر

قوماً ما أتاهم مِن نَذير مِن قَبلِك لَعلهم يهتَدون)[٢] .

ومن المعلوم أن المقصود في هاتين الايتين ونظائرهما هم قريش والقبائل القريبة اليها.

على أن أشمل وصف قرآنى لأوضاع المجتمع العربي الجاهلي وأحواله هو قول اللّه تعالى: (وأعتَصِموا بِحبل اللّه جميعاً و لا تَفَرقُوا واذْكُروا نِعمةَ اللّه علَيكُم إذْ كُنْتُم أعداء فَالفَ بين قُلُوبكُم فَأصبحتُم بِنعمته إخواناً و كُنْتُم على شَفا حفَرة مِن النّار فَأنقذَكُم مِنْها كَذلِك يبين اللّه لَكُم آياتِهِ لَعلكُم تَهتَدون)[٣] .

فإن هذه الآية تصور حياة العرب تصويراً مرعباً، إذ تُصورهم اولا وكأنهم قد سقطوا في قعر بئر الجاهلية، والضلال والشقاء فلا ينقذهم شيء من قعر التردي والسقوط الاّ التمسك بحبل اللّه، حبل الإيمان والقرآن .

وتصورهم ثانياً وكأنهم على شفير جهنم يوشكون أن يسقطوا فيه ويهووا في نيرانه، وليست تلك النار إلاّ نيران العداوات والحروب الّتي لو لم يقض عليها الإسلام بتعاليمه لأُحرقت حياة العرب جميعاً .

هذه هي صورةٌ سريعةٌ عما كان عليه العرب في الجاهلية من جهل وسقوط .

واما تفصيل ذلك فيمكن الوقوف عليه بمراجعة الآيات الأُخرى التي

---

١ - القصص: ٤٦ .
٢ - السجده: ٣ .
٣ - آل عمران: ١٠٣ .

تعرضت لذكر عادات العرب وأخلاقهم، وأفعالهم وتقاليدهم، بصـورة مفصلة، وها نحن نشير هنا إلى تلكم العادات والاخلاق الفاسدة على ضوء تلك الآيات على نحو الاختصار تاركين التوسع في ذلك إلى مجال آخر .

لقد اتصف المجتمع العربى الجاهلي قبل الإسلام وشاعت فيه أخـلاق وعادات من أبرزها مايلي:

١ـ الشِرْكُ في العِبادة:

صحيح أن العرب في الجاهلية كانت ـ كما يكشف القرآن ذلك لنـا ـ موحدة في جملة من الامور والمجالات كالخالقية والتدبير والـذات[١] إلاّ أنهم كانوا ـ في الأكثر ـ مشركين في العبادة، بل قد ذَهبـوا فـي هـذا السبيل الباطل إلى أحط المستويات في إتخاذ المعبودات والوثنية .

وإلى ذلك يشير قوله تعالى: (وجعلُوا للّه شُركاء الجِن و خَلَقهم وخَرقُوا لَه بنِين و بنات بِغَير عِلْم سبحانَه و تَعالى عما يصِفُون)[٢] .

وقوله تعالى: (أفَرَأيتُم اللاتَ والعزى و مناةَ الثالِثَةَ الأُخْرى)[٣] .

وغير ذلك من الآيات الّتي تشير إلى ما كان يعبده الجاهِليون مِن أوثان وأصنام ومبلغ ما وصلوا إليه من انحطاط، واسفاف وانحراف فـي هـذا المجال .

٢ـ إنكارُ المعاد:

كان المشركون والجاهليون يرفُضون الاعتراف بالمعاد الّـذي يعنـي عودة الإنسان إلى الحياة في عالم آخر للحساب والجزاء، ويصفـون مـن يخبر عن ذلك

١ - نعم يُستَفاد من آية واحدة أنّه كان هناك اتجاهٌ نادرٌ بين العرب في الجاهلية ينسب الظواهر الطبيعية إلى الطبيعة والدهر يقول اللّه تعالى: «وَ قالوا ما هِيَ إِلاّ حَياتُنا الدُّنْيا نَموتُ وَنَحيا وَ ما يُهلِكُنا إِلاّ الدَهْرُ وَ ما لَهُمْ بِذلِكَ مِنْ عِلْم إِنْ هُمْ إِلاّ يَظُنُّونَ» (الجاثية: ٢٤) .
٢ - الأنعام: ١٠٠ .
٣ - النجم: ١٩ و ٢٠ .

اليوم بالجنون أو الكذب على اللّه!!

يقول تعالى: (و قالَ الذين كَفَروا هلْ نُدلكُم على رجل ينبئكُم إذا مزقْتُم كُل ممزق إنَكُم لفي خَلق جديد، وأفْترى على اللّه كَذِباً أم به جِنةٌ بل الذيـن لا يؤْمِنُون بِالآخِرة في الْعذابِ والضلال البِعيد)[١].

٣ـ هَيْمَنَةُ الخرافات:

لقد كانت حياة العرب الجاهلية مليئةً بالخرافات الّتي كان منها تحريمهم الأكل من أنعام اربعة ذكرها القرآن منددأ بهذه البدعة إذ قال: (ما جعل اللّه مِن بحيرة ولا سائبة و لا وصيلة و لا حام ولكن الذين كَفَروا يفْترون على اللّهِ الكِذب وأكثَرهم لا يعقِلُون)[٢] .

أما (البحيرة) بوزن فعِلية بمعنى مفعولة من البحر وهو الشـق، فهـي الناقة إذا نتجت خمسة أبطن آخرها أُنثى ـ وقيل ذكر ـ بحـروا أذنهـا وشقوها ليكون ذلك علامة وتركوها ترعى، ولا يستعملها أحد في شيء .

وأما (السائبة) على وزن فاعلة بمعناها أو بمعنى مفعولة فهي الناقة إذا نتجت اثني عشر بطناً ـ وقيل عشرة ـ فهي تُهمل ولا تُركب. ولا تمنـع عن ماء، ولا يشرب لبنها الاضيف .

وأما (الوصيلة) بوزن فعيلة بمعنى فاعلة أوبمعنى مفعولة فهي الشـاة تنتج سبعة أبطن أوتنتج عناقين عناقين .

وأما (الحامي) بوزن فاعل من الحمى بمعنى المنع فهو الفَحل من الإبل الّذي يستخدم للقاح الأُناث، فاذا ولد من ظهره عشرة ابطن قـالوا: حمِـي ظهره فلا يحمل عليه، ولا يمنع من ماء ومرعى[٣] .

والظاهر ان هذا المذهب تجاه هذه الانواع من الانعـام كـان بدافـع الاحترام

---

١ - سبأ: ٧ و ٨ .
٢ - المائدة: ١٠٣ .
٣ - راجع مجمع البيان: ج ٣، ص ٢٥٢ و ٢٥٣ في تفسير الآية .

والشكر لما وهب أصحابها من النعم والبركات، غير ان هذا العمـل ـ كان في حقيقته ـ نوعاً من الإيذاء والإضرار بهذه الحيوانات، لأنهم كانوا يهملونها ويحرمونها من العناية اللازمة فكانت تشقى بقية حياتها، وتقاسـي من الحرمان، مضافاً إلى ما كان يصيبها من التلف والضياع، وما يلحـق ثروتهم والنعم الّتي وهبها اللّه لهم من هذا الطريق من الضرر والخسارة .

والأسوأ من كل ذلك أنهم ـ كما يستفاد من ذيل الآية ـ كانوا ينسبون هذه المبتدعات المنكرات وهذا المنع والحظر إلى اللّه سبحانه وتعـالى، إذ يقول سبحانه: (ولكِن الذِين كفَروا يفْتَرون على اللّه الكذب) وقد أعلم اللّـه في مطلع الآية أنه لم يحرم مِن هذه الاشياء شيئاً، وأنهم ليكذبون على اللّه بادعائهم أن هذه الأشياء من فعل اللّه أو أمره .

وقد أشار القرآن إلى هذه الخرافات الّتي كانت تُكبل عقول الناس فـي ذلك المجتمع إذ يقول: (و يضع عنْهم إصرهم والأغلالَ الّتي كانَتْ عليهم)[1] .

٤ـ الفساد الاخلاقي:

كان المجتمع الجاهلي العربي يعاني من فساد ذريع في الاخلاق وقـد أشار القرآن الكريم إلى اثنين من أبرز وسائل الفساد ومظاهره هما: القمار (الّذي كانوا يسمونه بالميسر وانما اشتق من اليسر لأنه اخذ مـال الرجـل بيسر وسهولة من غير كد ولا تعب) والخمر .

وقد بلغ شغفهم بالخمر أنهم أعرضوا عن قبول الإسلام واعتناقه لأنـه يحرم تناول الخمر وشربه، كما نقرأ ذلك في قصة الاعشى عما قريب .

يقول القرآن في هذا الصعيد: (يسأَلونَك عن الخَمر والميسر قُلْ فيها إثم كبير و منافِع لِلنّاس و إثمهما اكبر مِن نفْعِهما)[2] .

وقد استطاع القرآن الكريم عبر مراحل أربع أن يستأصل هذه العـادة البغيضة

---

١ - الأعراف: ١٥٧ و راجع المحبر: ص ٣٣٠ ـ ٣٣٢ .
٢ - البقرة: ٢١٩ .

الّتي كانت قد تجذرت بشكل عجيب في نفوس ذلك القوم، حتّى اصبحت السمة البارزة لحياتهم واصبح التغنّي بالخمرة، ووصفها الطـابع الغالـب

لآدابهم، واللون البارز الّذي يصبغ قصائدهم واشعارهم .

على أن الفساد الأخلاقي في المجتمع الجاهلي العربي قبل الإسلام لـم يكن ليقتصر على معاقرة الخمر، ومزاولة الميسر بل تعدى إلـى ألـوان أُخرى ذكرها القرآن الكريم في ثلاثة عشر موضعاً، حيث عد منها الزنـا، واللوط، والقذف، وإكراه الفتيات على البغاء وماشا كل ذلك[١] .

٥ـ وَأدُ البنات وإقبارُهن:

ويشير القرآن الكريم أيضاً إلى عادة جاهلية سيئة أُخرى كانت رائجـة بين قبائل العرب الجاهلية قاطبة وهي دفن البنت حيةً .

فقد شجب القرآن الكريم هذه العادة البغيضة وهذا العمـل اللانسانـي ونهى عنه بشدة في اربعة مواضع، إذ قال تعالى: (و إذا الموؤدةُ سـئلتْ. بأى ذَنب قُتِلَتْ)[٢]. وقال تعالى: (و لا تَقْتُلُوا أولادكُم خَشيةَ إمـلاق نَحـن نَرزقُهم و إياكُم إن قَتْلَهم كان خِطْئاً كبيراً) [٣] .

وقد اتى جد «الفرزدق» «صعصعة بن ناجية بن عقال» رسول اللّه ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ وعد من اعماله الصالحة في الجاهلية أنه فدى مائتين وثمانين موؤدة في الجاهلية، وأنقَذهن من الموت المحتم باشـترائهن من آبائهن بأمواله .

وقد افتخر «الفرزدق» بإحياء جده للموؤدات في كثير مـن شـعره إذ قال:

ومنّا الّذي منَع الوائدات وأحيا الوئيد فلم يوأد[٤]

١ - راجع للوقوف على ذلك سورة النساء: ١٥ و ١٦. وسورة النور: ٢ و ٣ وغيرها. وراجع المحبر: ص ٣٤٠ .
٢ - التكوير: ٨ و ٩ .
٣ - الإسراء: ٣١ .
٤ - بلوغ الارب في معرفة أحوال العرب: ج ٣، ص ٤٥ و ٤٦ .

٦ـ تصوراتهم الخرافية حول الملائكة:

ومما اشار إليه القرآن الكريم تصورات العرب الجاهلية حول الملائكة، فقد كانوا يعتقدون أن الملائكة من الإناث وأنهن بنات اللّه، إذ يقول تعالى:

(فَاستَفْتِهِم ألربك البناتُ ولهم البنُون. ام خَلَقْنـا الْملائكـةَ إناثـاً وهـم شاهِدون. ألا إنهم مِن إفْكِهِم لَيقُولُون ولَد اللّه و إنهـم لَكـاذِبون أصـطفى البناتِ على البنين. ما لَكُم كَيفَ تَحكُمون)[1] .

٧ـ كيفية الانتفاع من الانعام:

إذا كانت العرب الجاهلية تمتنع من تنـاول لحـوم الأنعـام الاربعـة المذكورة آنفاً وتجتنب عن استعمال ألبانها وشعورها وأصـوافها إلا أنهـا كانت في المقابل تتناول الدم، والميتة والخنزير، وتأكـل مـن الحيوانـات والأنعام الّتي تقتلها بصورة قاسية، وبالتعذيب والأذى، وربما كانت تعتبـر ذلك نوعاً من العبادة، ويعرف ذلك من الآية التالية الّتي نزلت تنهى بشـدة عن أكل هذه اللحوم، وتحرم تناولها، إذ يقول سبحانه: (حرمتْ عليكُم الميتَة والدم ولَحم الْخِنْزِير و ما أُهِل لِغَير اللّه بِه و المنخَنقةُ والموقوذةُ والمتردية والنَطيحةُ و ما اكلَ السبع إلاّ ما ذَكيتُم وما ذُبِح على النُصب وأن تَستَقْسِموا بِالأزلامِ ذلِكُم فِسقٌ)[2] .

فقد حرم اللّه في هذه الآية اكل:

١- الميتة .

٢- الدم.

٣- لحم الخنزير .

٤- ما ذكر اسم غير اللّه عليه .

٥ـ الّتي تموت خنقاً، وهي المنخنقة .

---

١ - الصافّات: ١٤٩ ـ ١٥٤ .
٢ - المائدة: ٣ .

٦- الّتي تضرب حتّى تموت، وهي الموقوذة .

٧ـ الّتي تقع من مكان عال فتموت وهي المتردية .

٨ـ الّتي تموت نطحاً من حيوان آخر وهي النطيحة .

٩ـ ما افترسه سبع إلا إذا ذُكي قبل موته .

١٠- وما ذُبِح أمام الاصنام .

٨ـ الاستقسام بالازلام:

فقد كان تقسيم لحم الذبيحة يتم عن طريق الأزلام، والأزلام جمع (زلم) بوزن (شَرف) وهي عيدان وسهام تستخدم في ما يشبه القرعة لتقسيم لحـم الذبيحة .

فقد كان يشتري عشرة أنفار بعيراً ثم يذبحونه، ثم يكتبون على سـبعة منها اسهماً مختلفة من الواحد إلى السبعة ولا يكتبون على ثلاثة منها شيئاً، ثم يجعلونها في كيس ثم يستخرجونها واحدة بعد أُخرى، كلُّ واحدة باسـم أحدهم فيأخذ كل واحد منهم من الذبيحة ما خرج له مـن السهـم، وهكـذا يقتسمون الذبيحة بينهم[1]، فنهاهم اللّه عن ذلـك بقولـه: (وأن تَستَقْسِمـوا بِالأزلامِ ذلِكُم فِسقٌ) لأنه ضرب من القمار الّذي ينطوي على مفاسد الميسر والقمار .

٩ـ النسيء:

كان العرب الجاهليون يعتقدون حرمة الاشهر الحـرم (وهـي اربعـة المحرم ورجب وذوالقعدة وذوالحجة) فكانوا يتحرجون فيها مـن القتـال، وجرت عادة العرب على هذا من زمن إبراهيم واسماعيل ـ عليهما السلام ـ .

الاّ أن سدنة الكعبة أو رؤساء العرب كانوا يعمدون أحياناً، ولقاء مبالغَ يأخذُونها، أو جرياً مع أهوائهم، إلى تأخير الاشهر الحرم، وهو الأمر الّذي عبر

---

١ - راجع للوقوف على تفصيل هذه الطريقة بلوغ الارب: ج ٣، ص ٦٢ و ٦٣، والمحبر: ص ٣٣٢ و ٣٣٥ .

عنه القرآن الكريم بالنسيء ثم نهى عنه وعده كفـراً إذ قـال: (إنّمـا النّسيء زيادةٌ في الكُفْر يضل به الذين كفروا يحِلونَه عاماً و يحرمونه عاماً ليواطئوا عدة ما حرم اللّه فيحلّوا ما حرم اللّه زين لهم سوء أعمالِهم واللّـه

لا يهدي الْقوم الْكافِرين)[1] .

وقد ذكرت كُتُب التاريخ والسير كيفية النسيء وتأخير الأشهر الحـرم، الّذي كان يتم بصورة مختلفة منها: أن جماعة ما لو كانـت ترغـب فـي استمرار الغارة والقتال ولم تطق تاخير النضال مدة الاشهر الحرم كانـت تطلب من سدنة الكعبة، لقاء ما تقدمه لهم من هدايا واموال، تجويز الغارة والقتال في شهر محرم، وتحرم القتال في شهر صفر بدله ليتم عدد الأشهر الحرم (وهي اربعة). وهذا هو معنى قوله تعالى: (ليواطِئوا عدةَ ما حـرم اللّه) وكانوا إذا أحلوا الْقتالَ والغارة في المحرم من سنة حرموه في المحرم مِن السنة التالية، وهذا هو معنى قوله تعالى: (يحلونَه عامـاً، ويحرمونِـه عاماً) .

١٠ـ الربا:

ومما يشير إليه القرآن الكريم من المفاسد الشائعة، والأعمال المنكـرة في المجتمع العربي الجاهلي قبل الإسلام: «الربا» الّذي كان يشكل العمود الفقري في اقتصاد ذلك المجتمع .

وقد حارب القرآن الكريم هذه العادة المقيتة، وهذا الفساد الاقتصـادي حرباً شعواء، إذ قال تعالى: (يا أيها الذين آمنُوا اتّقوا اللّه وذَروا ما بقي مِن الربا إن كُنْتُم مؤمِنين. فَإن لَم تَفْعلُوا فَأذَنُوا بِحرب مِن اللّهِ و رسـولِه و إن تُبتُم فَلكُم رؤُوس اموالِكُم لا تَظْلِمون و لا تظْلَمون)[2] .

والعجيب أنهم كانُوا يبررون هذا العمل اللاإنساني بقولهم (إنّما البيع مِثلُ الربا)[3] فاذا كان البيع حلالا وهو اخذ وعطاء فليكن الربا كذلك حـلالا، فإنه أخذٌ وعطاء أيضاً، مع أن «الربا» من ابشع صور الاستغلال، وقد رد

١ - التوبة: ٣٧ .
٢ - البقرة: ٢٧٨ و ٢٧٩ .
٣ - البقرة: ٢٧٥ .

سبحانه على هذه المقالة بقوله تعالى: «وأحل اللّه البيع و حرم الربا»[١] ففي البيع والشراء يتساوى الطرفان في تحمل الضرر المحتمل، بينما لا يتضرر المرابي في النظام الربوي أبداً وإنّما يلحق الضرر بمعطي الربـا دائماً، ولهذا تنمو المؤسسات الربوية، ويعظم رصيدها، وثروتها يوماً بعـد يوم فيما يزداد الطرفُ الآخر بؤساً وفقراً، ولا يحصل من جهوده المضنية إلا على ما يسد جوعته، ويقيم اوده، لا اكثر، كلُّ ذلك نتيجة لهذا الاسلوب الاقتصادي غير العادل .

صورٌ من الوضع الجاهلي

ما قدمناه كان أبرز المفاسـد الاخلاقيـة والاجتماعيـة والاقتصاديـة والسياسية الّتي اشار اليها القرآن الكريم، وأما التاريخ فملـيء بـالصور والقصص الّتي تحكي عن تردي حالة العرب الجاهلية وسقوطها الفضيـع في قعر الفساد في جميع المناحي والجهات .

واليك في ما يلي نماذج وصور معدودة تكفي للوقـوف علـى الحالـة العامة في ذلك المجتمع نقتبسها لك من أصح المصادر واوثقها:

وها نحن نقدم قصة «أسعد بن زرارة» الّتي تسلط الضوء على ما كان عليه الوضع الجاهلي في اكثر مناطق الحجاز، فقد قدم «أسعد بن زرارة» و «ذكوان بن عبد قيس» ـ وهما من الأوس وكان بين الاوس والخـزرج حرب قد بقوا فيها دهراً طويلا، وكانوا لا يضعون السـلاح لا بالليـل ولا

بالنهار، وكان آخر حرب بينهم «يوم بعاث» وقد انتصر فيهـا الأوس على الخزرج ـ مكة في عمرة رجب يسألون الحاف على الاوس، وكـان اسعد بن زرارة صديقاً لعتبة بن ربيعة، فنزل عليه فقال: انه كـان بيننـا وبين قومنا حرب وقد جئناك نطلب الحاف عليهم، فقال له عتبـة: إن لَنـا شغلا لا نتفرغ لشيء. قال سعد: وما شغلكم وأنتم في حرمكم وأمنكم؟ قال له عتبة: خرج فينا رجلٌ يدعي أنّه رسول اللّه سفّه أحلامنا، وسب آلهتنـا وأفسد

---

١ - البقرة: ٢٧٥ .

شُبابنا، وفرق جماعتَنا، فقال له أسعد: من هو منكم؟ قال: ابن عبداللّـه بن عبدالمطلب من أوسطنا شرفاً، وأعظمنا بيتاً .

وكان أسعد وذكوان، وجميع الاوس والخزرج يسمعون من اليهود الذين كانوا بينهم: النضير وقريظة وقينقاع، أن هذا أوان نبى يخرج بمكة يكـون مهاجره بالمدينة لنقتلنكم به يا معشر العرب، فلما سمع ذلك أسعد وقع فـي قلبه ما كان سمع من اليهود، قال: فأين هو؟ قال: جالس في الحجر، وإنّهم لا يخرجون من شعبهم إلاّ في الموسم، فلا تسمع منه ولا تكلمه فانه ساحر يسحرك بكلامه، وكان هذا في وقت محاصرة بني هاشم في شـعب أبـي طالب، فقال له «أسعد»: فكيف أصنع وأنا معتمر لابـد لـي أن أطـوف بالبيت؟ قال: ضع في أُذنيك القطن، فدخل «أسعد» المسجد وقد حشا أُذُنيـه بالقطن، فطاف بالبيت ورسول اللّه جالس في الحجر مع قـوم مـن بنـي هاشم، فنظر إليه نظرة فجازه، فلما كان في الشوط الثاني قال في نفسه: ما أجد أجهلَ مني؟ أيكون مثل هذا الحديث بمكة فلا اتعرفه حتّى ارجع إلـى

قومي فاخبرهم، ثم أخذ القطن من اذنيه ورمى به وقال لرسول اللّـه: أنعم صباحاً، فرفع رسولُ اللّه ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ رأسه إليـه وقال: قد أبدلنا اللّه به ما هو احسن من هذا، تحية أهـل الجنـة: السـلام عليكم، قال له أسعد:(إن عهدك بهذا لقريب، إلى ما تدعويا محمد؟ قال: إلى شهادة ألاّ إله إلاّ اللّه، واني رسولُ اللّه، و أدعوكُم إلى: «ألاّ تشركوا بِـه شَيئاً و بِالوالِدين إحساناً و لا تَقْتُلُوا أولادكُم مِن إملاق نَحن نَرزقُكُم وإياهم و لا تَقْربوا الفواحِشَ ما ظَهر منها وما بطَن و لا تَقْتُلوا النفْس التي حـرم اللّهُ إلا بِالحق ذلِكم وصاكُم بِهِ لَعلكُم تَعقِلُون،و لا تَقربوا مالَ اليتيم إلاّ بِالتي هي أَحسن حتى يبلُغَ أشُده و أوفُوا الكيلَ و الْميزان بِالقِسطِ لانُكلفُ نَفْساً إلاّ وسعها وإذا قلتُم فَاعدِلُوا و لَو كان ذاقربى و بِعهدِ اللّه أوفُوا ذلِكُم وصـاكُم بِه لَعلكُم تَذكرون)[1] .

---

١ - الأنعام: ١٥١ و ١٥٢ .

فلما سمع «أسعد» هذا قال له: أشهد أن لا إله إلاّ اللّه، وأنـك رسـولُ اللّه، يا رسول اللّه بأبي أنت وأُمي...[1] .

إن الامعان في مفاد هاتين الآيتين يغنينا عن دراسة شـاملة وواسـعة لاوضاع العرب الجاهلية لأن هاتين الآيتيـن تكشفـان عـن الأمـراض الاخلاقية الّتي كانت تكتنف حياة العرب الجاهلية. ولهذا تلا رسـول اللّـه الآيات الّتي تشير إلى هذه الادواء والامراض ليلفت نظر «أسـعد» إلـى أهداف رسالته الكبرى .

العقيدة والدين في الجزيرة العربية:

عند ما رفع «إبراهيم الخليل» لواء التوحيد في البيئة الحجازية، واعاد بناء الكعبة المعظمة ورفع قواعدها بمعونة ابنه «اسماعيل»، تبعه في ذلك طائفة من الناس ممن أنار اللّه به قلوبهم، الاّ انه من غير المعلوم إلـى اى مدى استطاع ذلك النبي العظيم أن يعمم دين التوحيد ويبسط لـواءه علـى الجميع، ويؤلف صفوفاً متراصة، وجبهة عريضة قوية من الموحدين، غير ان من المعلوم انه اصبحت تلك المنطقة مسرحاً للوثنية ولعبـادة الاشـياء المختلفة مع الايام فقد كانت الطبقة المثقفة مـن العـرب تعبـد الكواكـب والقمر، فهذا هو المؤرخ العربي الشهير الكلبي الّـذي توفـى عـام ٢٠٦ هجرية يكتب في هذا الصدد قائلا كان «بنومليح» من خزاعة يعبدون الجن وكانت «حمير» تعبد الشمس، و «كنانة» تعبد القمر، و «تميم» الدبران، و «لخم» و «جذام» المشتري، و«طي» سهيلا، و «قيس» الشِعرى، و «أسد» عطارداً .

أما الدهماء والذين كانوا يشكلون اغلبية سكان الجزيـرة فقـد كـانوا يعبدون ـ مضافاً إلى الصنم الخاص بالقبيلة أو العائلة ـ ثلا ثمائة وستين صنماً، وكانوا ينسبون أحداث كل يوم من أيام السنة إلى واحد منها .

وقد دخَلَتْ عبادةُ الأصنام والأوثان في مكة بعد «إبراهيم الخليـل» ـ عليه السلام ـ

---

١ - بحارالأنوار: ج ١٩، ص ٨ و ٩، اعلام الورى: ص ٣٥ ـ ٤٠ .

على يد «عمر بن لحي»، ولكنها لم تكن في بداية أمرها بتلك الصورة الّتي وصلت إليها في ما بعد فقد كانوا يعتبرونها في بداية الامر شفعاء إلى

اللّه ووسطاء بينه وبينهم، ولكنهم تجاوزوا هذا الحد في ما بعـد حتّـى صاروا يعتقدون شيئاً فشيئاً بانها اصحاب قدرة ذاتية مستقلة، وأنها بالتالي آلهة وأرباب .

وكانت الاصنام المنصوبة حول الكعبة تحظى باحترام جميع الطوا ئف العربية، ولكن الاصنام الخاصة بالقبائل فقد كانت موضع احترام جماعـة خاصة فقط، ولأجل أن تبقى حرمة هذه الأصنام والأوثان الخاصة محفوظة لا يمسها أحد بسوء كانوا ينشؤون لها أماكن وبيوت خاصة، وكانت سدانة هذه البيوت والمعابد تنتقل من جيل إلى آخر بالوراثة .

أما الآصنام العائلية فقد كانت العوائل تقتنيها للعبادة كل يوم وليلة، فاذا أراد احدهم السفر كان اخر ما يصنعه في منزله هو ان يتمسح به أيضاً .

وكان الرجل إذا سافر فنزل منزلا أخذ أربعة أحجار فنظر إلى أحسنها، واتخذه رباً وجعلَ ثلاثة أثافى لقدره، وإذا ارتحل تركه .

وكان من شَغَفَ أهل مكة وحبهم للكعبة والحرم أنه كان لا يسافر منهم أحد إلا حمل معه حجراً من حجارة الحرم تعظيماً للحرم، وحباً له فحيثمـا حلّوا نصبوه وطافوا به كطوافهم بالكعبة صبابة بها، ويمكن أن تكون هـذه هي «الأنصاب» الّتي فُسرت بالاحجار العادية غـير المنحوتـة وتقابلهـا الأوثان، وهي الاحجار المنحوتة على هيئة خاصة، وأما «الأصنام» فهـي المعمولة من خَشَب أو ذهب أوفضة على صورة انسان .

لقد بلغ خضوع العرب أمام الاصنام والأوثان حداً عجيباً جداً، فقد كانوا يعتقدون بأنهم يستطيعون كسب رضاها بتقديم القرابين اليها، وكانوا بعـد نحر الهدايا يلطخون وجوه الاصنام ورؤوسها بدماء تلك الهـدايا، وكـانوا يستشيرونها في مهام امورهم، وجلائل شؤونهم، فاذا ارادوا الوقوف علـى مستقبل الأمر الّذي تصدوا له ومعرفة عاقبته أخير هو أم شر استقسم لهـم

(٥٤)

(الأمر والنهي) وهي قطع كُتِب على بعضها (إفْعلْ) وعلـى بعضهـا الآخر (لا تَفْعلْ) فيمد أمين القداح يده ويجيل القداح ويخرج واحداً فان طلع الآمر فعل أو الناهي ترك .

وخلاصة القول، ان الوثنية كانت العقيدة الرائجة في الجزيرة العربية، وقد تفشتْ فيهم في مظاهر متنوعة ومتعددة، وكانت الكعبة المعظمة ـ في الحقيقة ـ محط أصنام العرب الجاهلية وآلهتهم المنحوتة، فقد كـان لكـل قبيلة في هذا البيت صنم، وبلغ عدد الاصنام الموضوعة في ذلك المكـان المقدس (٣٦٠) صنماً في مختلف الاشكال والهيئات والصور، بـل كـان النصارى أيضاً قد نقشوا على جدران البيت وأعمدته صوراً لمريم والمسيح والملائكة، وقصة ابراهيم .

وكان من جملة تلك الأصنام: «اللات» و «العزى» و «منـاة» الّتـي كانت تعتبرها قريش بنات اللّه ويختص عبادتها بقريش .

وكانت «اللات» تعتبر أم الالهة، وكان موضعها بالقرب من «الطائف» وكانت من الحجر الابيض، و أما «مناة» فكانت في عقيدتهم إلاهة المصير وربة الموت والاجل وكان موضعها بين «مكة» و «المدينة».

ولقد اصطحب «ابوسفيان» معه يوم «أحد»: «اللات» و «العزى».

ويروى انه مرض ذات يوم «أبو أُحيحة» وهو رجل من بـني أُميـة، مرضه الّذي مات فيه، فدخل عليه ابولهب يعوده، فوجده يبكي، فقال: مـا يبكيك يا با احيحة؟ أمن الموت تبكي ولابد منه؟ قال: لاولكنى اخاف ان لا تُعبد العزى بعدي! قال ابولهب: واللّه ما عبدت حياتك (اي لا جلـك) ولا

تُترك عبادتُها بعدك لموتك!! فقال أبو أُحيحة: الآن علمتُ ان لي خليفة[1].

ولم تكن هذه هي كل الأصنام الّتي كانت تعظمها وتعبدها العرب بـل كانت لقريش اصنام في جوف الكعبة وحولها وكان اعظمها «هبل»، كمـا انه لم يكن لكل قبيلة صنم خاص فحسب بل كانت كل عائلة تعبـد صـنماً خاصاً بها

---

١ - الأصنام للكلبي: ص ٢٣ .

مضافاً إلى صنم القبيلة وكانت المعبودات تـتراوح بيـن الكواكـب، والشمس، والقمر، والحجر، والخشب، والتراب، والتمر، والتماثيل المنحوتة المختلفة في الشكل، والهيكل، والاسم، المنصوبة في الكعبة أو فـي سـائر المعابد .

لقد كانت الاصنام جميعها أو أغلبها معظمة عند العرب، يتقربون عندها بالذبائح ويقربون لها القرابين، وجرت عادة بعض القبائل انذاك أن تختـار من بين أفرادها كل سنة شخصاً في مراسيم خاصة ثم تذبحه عنـد أقـدام اصنامها، وتقبر جسده على مقربة من المذبح .

هذا العرض المختصر يكشف لنا كيـف أن ارض الجزيـرة العربيـة برمتها كانت قد اصبحت مسرحاً للاصنام ومستودعـاً ضـخماً للاوثـان، وكيف تحولت هذه البقعة من العالم ببيوتها وازقتها وصحاريها وحتّى بيت اللّه المحرم كانت قد تحولت إلى مخـزن للنُصـب المؤلهـة، والتماثيـل

المعبودة، ويتجلى هذا الأمر من قول شاعرهم الّذي اسلم وراح يستنكر ما كان عليه من عبادة الاصنام المتعددة الخارجة عن الاحصاء والعـد، إذ قال:

أَربا واحِداً أم ألف رب * أدين إذا تقسمتِ الأُمور

عزاتُ اللاتَ والعزى جميعاً * كذلك يفعلُ الجِلِد الصبور

فلا عزى أدين ولا ابنتيها * ولا صنَمي بني عمرو أزور

ولا غنماً أزور وكان رباً * لنا في الدهر إذ حلمي يسير

ولكن أعبد الرحمان ربي * لِيغْفِر ذَنبِى الرب الغفُور[1]

وقد حدثت بسبب الاختلاف والتعددية في عبـادة الاصـنام والاوثـان المؤلهة السخيفة الباطلة، تناقضاتٌ، وصراعاتٌ، وحروب ومناحرات، قـد جرت بالتالي ويلات ومآس وخسائر مادية ومعنوية كـبرى علـى تلـك الجماعة المتوحشة، الضالة .

* * *

---

١ - بلوغ الارب في معرفة أحوال العرب: ج ٢، ص ٢٤٩ و جاء البصير .

عقيدة العرب حول حالة الإنسان بعد الموت:

وعن مصير الإنسان وحالته ما بعد المـوت هـذه المشكلـة الفلسفيـة العويصة كانت رؤية العرب ونظرتهم تتلخص في ما يلي:

عند ما يموت الإنسان تخرج روحه من جسده على هيئة طـائر شـبيه بالبوم يسمى عندهم بـ «الهامة والصدى» ثم يبقى هذا الطائر قريباً مـن جسد الميت ينوح نوحاً مقرحاً وموحشاً، وعند ما يوارى الميت يبقى هـذا الطائر مقيماً عند قبره إلى الابد!

وربما وقفَ على جدار منزل الميت أحيانـاً لِتَسقـطِ أخبـار عائلتـه والاطلاع على أحوالهم!!

قال شاعرهم في ذلك:

سلطَ الموتُ والمنون عليهم * فَلْهم في صدى المقابر هام

وإذا كان المرء قدمات بموتَة غير طبيعية كما لو قُتِلَ ـ مثلا ـ فـإن ذلك الحيوان ينادي باستمرار: «اسقوني... اسقوني» اي اسقوني بسفك دم القاتل واراقته؛ ولا يسكن عن هذا النواح والنداء الخاص الابعـد الانتقـام والثأر من قاتله.

قال احدهم في ذلك:

فيارب إن أهلك ولم تُروهامتي * بِلَيلي أمتْ لا قبر أعطَشَ مِن قبري[1]

من هنا بالضبط تتجلى الحقيقة للقارىء ويعلم جيداً كيـف أن تاريـخ العرب ما قبل الإسلام وتاريخهم ما بعد الإسلام ما هو الاّ تاريخان علـى طرفي نقيض:

فذلك تاريخ جاهلية، ووثنية وإجرام، وهذا تاريخ علم ووحدانية وانسانية واليمان، وشتان ما بين وأد البنات، وبين رعاية الايتام، وبين السلب والنهب والاغارة وبين المواساة والايثار، وبين عبادة الاوثان والاصـنام الصمـاء العمياء

---

١ - بلوغ الارب: ج ٢، ص ٣١١ و ٣١٢ .

والتقرب إلى اللّه الواحد القادر .

الآداب مرآة آداب الشعوب ونفسياتها:

المخلفاتُ الفكرية والثقافية، وما يتركه أي شعب مـن الشعـوب مـن قصص وحكايات افضل وسيلة للتعرف على خلفياته النفسية والأخلاقيـة، ذلك لأن الآداب بما فيها الشعر والقصةُ، والخطبـةُ والحكايـةُ، والمثـلُ والكنايةُ مرآةٌ صادقةٌ تعكس المستوى الفكري لأية جماعة، وتعتـبر خيـر مقياس لتمدنها، وحضاراتها، وأفكارها ونفسياتها، تماماً كما تحكي اللوحاتُ الفنيةُ عن حياة عائلة، أو منظر طبيعي جميل، أو اجتماعات صـاخبة، أو مشاهد قتالية .

إن القصائد والأمثال العربية الّتي كانت رائجة آنذاك تستطيع ـ قبـل كل شيء ـ أن تكشف عن الوجـه الحقيقـي لتـاريخهم ونمـط حياتهـم

وسلوكهم، ولهذا السبب لا يجوز لأي مؤرخ واقعي يسعى إلى الحصول على صورة كاملة عن تاريخ شعب من الشعوب أن يتجاهل التركة الفكرية والأدبية والثقافية لذلك الشعب سواء أكان شعراً أم نثراً، أمثالا أم حكماً، قصصاً أم أساطير .

ومن حسن الحظ أن مؤرخي الإسلام اثبتوا وسجلوا باتقان ما أُثِر من العرب مما يرتبط بآدابهم في العصر الجاهلي بقدر ما أُتيح لهم ذلك .

وقد كان ابو تمام «حبيب بن اويس» (المتوفى عام ٢٣١ هجرية) والّذي يعتبر من كبار أُدباء الشيعة، وله قصائد رائعة في مدح آل الرسول، ممن اعتنى عناية بالغة بهذه الناحية، حيث جمع في كتاب واحد طائفة كبيرة جداً من الشعر الجاهلي مفصلة في عشرة أبواب هي:

١- الحماسة .

٢ـ المراثي .

٣- الادب .

٤- النسيب .

٥- الهجاء .

٦- الاضافات .

٧- الصفات .

٨- السير .

٩- الملح .

١٠- مذمة النساء .

وقد تناولَ هذا الديوان التاريخي القيم عدد كبير من أُدبـاء المسلميـن وعلمائهم بشرح ابياته، وتفسير غوامضها، وبيان اغراضها، ومقاصدها.

كما ترجم أصلُ الديوان إلى لغات اجنبية عديدة جاء ذكر طائفة منهـا في كتاب «معجم المطبوعات»[١] .

مكانة المرأة عند العرب الجاهلية:

إن الباب العاشر من هذا الديوان خير وسيلة لمعرفة ما كانـت عليـه المرأة في العصر الجاهلي من الحرمان، وأقوى دليل على أنها كانت تعيشُ ـ في ظل ذلك العهد ـ في أسوأ الحالات وأشد الظروف واتعسها .

هذا مضافاً إلى أن الآيات القرآنية الّتي تنزلت وهـي تشجـب بعنـف معاملة الجاهلين للعنصر النسائي، وقسوتهم على الأُنـثى، هـي الأُخـرى افضل شاهد على مدى الانحطاط الاخلاقـي والتـدهور السلوكـي الّـذي انحدروا إليه في هذا المجال .

إن القرآن الكريم يصف عادة وأد البنات بقوله: (وإذا الموؤدة سئلت)[٢] أي ليسئل يوم القيامة عن البنات اللاتي وئدن وهن أحياء .

إن القرآن الكريم بهذه العبارة الموحية إنما يتحدث ـ فـي الحقيقـة ـ عن عادة وأدالبنات بمرارة، ويشجبها بشدة حتّى أنه يعتبرها جريمة نكراء لا تمر ـ في الآخرة ـ بدون حساب شديد، وسؤال خاص .

١ - معجم المطبوعات: ص ٢٩٧، وقد اشتهر هذا الديوان ببابه الأول: «الحماسة» فسمي ديوان الحماسة.
٢ - التكوير: ٨ .

حقاً انه لأمر يكشف عن مدى القسوة الّتي كان عليها قلوب الجماعة .

إنها قسوة تغشى كل عواطف المرء فلا يعود يسمع معها نداء الضمير، ولا يحس معها بوخز الوجدان، انه لا يعود يسمع معها حتّى صراخ بنتـه الجميلة البريئة، واستغاثاتها المؤلمة وهي ترى بأم عينيها حفيرتها، وتحس بيدي والدها القاسي، وهو يدفعها إلى تلك الحفرة ويدفنها حية!

إنها قسوة تكشف عن أسوأ وأحطّ درجات الانحطاط الخلقي، والتقهقـر الإنساني .

وبنو تميم هي أول قبيلة اقدمت على هذه الجريمة النكراء، وكان السبب أن «بني تميم» أمتنعوا من دفع ضريبة الاتاوة الّتي كانت عليهم إلى الملك، فجرد اليهم النعمان بن المنذر حاكم العراق آنذاك جيشاً كبيراً لضرب هـذا التمرد، وانتصر على «بني تميم» في المآل وغنم منهم الغنائم وسبى منهم الفتيات والنساء، فوفدت وفود «بني تميم» على النعمان بن المنذر وكلّمـوه في الذراري والنساء، فحكم النعمان بان يجعل الخيار في ذلك إلى النساء، فأية امرأة اختارت زوجها ردت عليه، فاختلْن في الخيار، فاختار بعضهن العودة إلى الاهل والاباء، واختارت بنتٌ لقيس بن عاصـم سـابيها علـى زوجها مما أثار هذا الموقف والاختيار غيظ والدها العجوز «قيـس بـن عاصم» فنذر من ذلك الحين أن يدس كلّ بنت تُولَد له. وهكذا سن لقومـه الوأد، واخذت بقية القبائل بهذه العادة البغيضة الوحشية إرضـاء لغيرتهـم وظلّوا يمارسونها اعواماً متمادية[1] .

واليك واحدة من القصص المأساوية في هذا المجال:

قيل لماوفد «قيس بن عاصم» على رسول اللّه ـ صلى الله عليه وآلـه وسلم ـ سأله بعض الانصار عما يتحدث به في الموؤدات، فاخبر انه مـا ولدت له بنت إلاّ وأدها، قال: كنتُ اخاف العار وما رحمتُ منهن إلاّ بنيـة كانت ولدتها أمها وأنا في سفر، فدفعتها إلى أخواتها، وقدمت أنا من سفري فسألتها عن الحمل، فأُخبِرت أنها

---

١ - بلوغ الارب في معرفة أحوال العرب: ج ٣، ص ٤٢ و ٤٣ .

ولدت ولداً ميتاً، وكتمتْ حالها، حتّى مضت على ذلك سنون، وكـبرت الصبية، وينعت، فزارت أمها ذات يوم، فدخلتُ فرأيتها وقد ضفرت شعرها وجعلت في قرونها جداداً ونظمت عليها ودعاً، والبستها قلادة مـن جـزع فقلت لها: من هذه الصبية؟ وقد اعجبني جمالها فبكت أمها، وقالـت: هـذه ابنتك، فامسكتُ عنها حتّى غفلتْ أمها ثم اخرجتها يوماً فحفرتُ لها حفـرة وجعلتها فيها وهي تقول: يا ابت ما تصنع؟ أخبرني بحقك!! وجعلتُ أقلّـب عليها التراب، وهي تقول: أنت مغط على بهذا التراب، أنت تاركي وحدي، ومنصرفٌ عني، وجعلتُ اقذفُ عليها حتّى واريتها، وانقطع صوتُها، فتلك حسرتها في قلبي، فَدمعتْ عينا رسول اللّه ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ وقال: «إن هذه لقسوة، ومن لا يرحم لا يرحم»[1] .

وقد ذكر ابن الاثير في كتابه «أسد الغابة» في مادة: قيس: ان النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ سأل قيساً عن عدد البنات اللاتي وأدهن فـي

الجاهلية: فاجاب قيس بانه وأد اثنتي عشرة بنتاً له[٢] .

وروي عن ابن عباس أنه قال: كانت الحامل إذا قربت ولادتها حفـرت حفرة فمخضت على رأس تلك الحفرة، فاذا ولدت بنتاً رمت بها في الحفرة وإذا ولدت ولداً حبسته[٣] .

المرأة ومكانتها الاجتماعية عند العرب:

كانت المرأة عندهم تباع و تُشترى كالمتاع، وكانت محرومة من جميع الحقوق الاجتماعية والفردية، حتّى حق الارث .

وقد كان المثقفون من العرب يعدون النساء من الحيوانات، ولهذا كانوا يعتبرونهن جزء من أثاث البيت ويعاملونهن معاملة الرياش والفراش حتّى سار

---

١ - حياة محمَّد: تأليف محمَّد علي سالمين، ص ٢٤ و ٢٥ .
٢ - راجعُ اسد الغابة: ج ٤، ص ٢٢٠، وجاء في بلوغ الارب في معرفة أحوال العرب: ج ٣، ص ٤٣ أنه وأد بضع عشرة بنتاً .
٣ - بلوغُ الارب: ج ٣، ص ٤٣ .

فيهم المثلُ المعروفُ: «وانما امهات الناس اوعية» .

كما أنهم غالباً ما كانوا يقتلون بناتهم في اليوم الاول من ميلادهن خشية الفقر تارة، ودفعاً للعار والشنآن تارة أُخرى .

وقد كان هذا القتل يتُم إما بذبحهن أو إلقاءهن من شاهق، أو إغراقهـن في الماء أو الدفن وهن أحياء كما سبق .

وقد تعرض القرآن الكريم ـ الّذي يعد من وجهة نظـر المستشرقيـن الكتاب والمصدر التاريخي العلمي الوحيد الّذي لم تنالـه يـد التحريـف ـ تعرض لذكر قصة من هذا النوع ضمن آيات من سورة النحل حيث قـال: (و إذا بشر أحدهم بالأُنثى ظل وجهه مسوداً وهو كظيم يتوارى مِن القـوم مِن سوءِ ما بشر بِه أيمسِكُه على هون أم يدسه في التُـراب ألا سـاء مـا يحكمون)[1] .

هذا والمؤسف أكثر هو ما كان عليه وضع الزواج في الجاهلية، حيـث لم يكن يستند إلى أي قانون، ولم يخضع لأى واحد من النظم المعقولة، بل كان وضعاً عديم النظير في ذلك الزمان، فلم يكن لعدد الزوجات ـ مثلا ـ حد معلوم، أو قاعدة ثابتة .

كما انه كلما أرادوا التخلص من مهر الزوجة عمـدوا إلـى ايذاءهـا بقسوة، حتّى تتخلى هي بنفسها عن حقها، وكان اقترافها لأى عمل منـاف للعفة هو الآخر سبباً لسقوط حقها في المهر بالمرة .

ولطالما استغل بعض الاشخاص هذا القانون الجائر للتخلص مِن مهور زوجاتهم فاتهموهن بالخيانة الزوجية!!

ومن قبيح ما كانوا يفعلون ان يتزوج الرجل بزوجة أبيه بعد تطليقهـا، أو وفاته وربما تناوب الأبناء على امرأة أبيهم واحداً بعد واحد، فقد كـان الرجل من العرب الجاهلية إذا مات عن المرأة أو طلّقها قام أكبر بنيه، فان كان يحب أن يتزوجها طرح ثوبه عليها، وإن لم يكن يريد الـتزوج بهـا تزوج بها بعض اخوته بمهر

---

١ - النحل: ٥٨ و ٥٩ .

جديد[١] .

وقد ابطل الإسلام هذه العادة الفاسدة حيث قال اللّه تعالى: (و لا تنكحوا ما نَكح آباؤُكُم مِن النساء إلاّ ما قد سلف إنه كان فاحِشَة ومقتاً وساء سبيلا)[٢] .

وقد ذكرت كتب التاريخ والسيرة طائفة ممن فعلوا هذا نعرض عن ذكر أسماءهم .

كما ذكرت تلك الكتب انواعاً أُخرى من المناكح الفاسدة الشنيعة الّتـي أبطلها الإسلام[٣].

ثم إن المطلقة لم يكن لها الحق ـ في زمن الجاهلية ـ في ان تـتزوج برجل آخر بعد انقضاء عدتها إلا إذا اذن لها الزوج الأول الّذي كان غالباً ما يأخذ مهرها في الزواج الثاني في قبال الاذن .

وربما منَع اولياؤُها من أن تتزوج بزوجها الاول الّذي طلقها، ثم خطبها بعد انقضاء العدة إذا رضيتْ به ورغبت فيه، أو أن تـتزوج بمـن أرادت واحبت ـ بعد انقضاء العِدة ـ أصلا، حمية جاهلية .

وكان الرجل يرث امرأة ذي قرابته إذا مات عنها، تماماً كما يرث مـا خَاف من أمتِعةِ المنزل، زاعماً بانه أحقُ بها من غيره، فيعظلها (يمنعها من الزواج) أو ترد إليه صداقها، وفي رواية؛ إن كانت جميلة تزوجهـا، وان كانت دميمة حبسها حتّى تموتَ فيرثها، وقد نهى اللّه تعـالى عـن ذلـك، وأبطلَ تلك العادات إذ قال تعالى: (و إذا طَلّقْتُم النساء فَبلغن أَجلَهـن فـلا

تَعضلُوهن أن ينكِحن أزواجهن إذا تَراضوا بينَهم بِالْمعروفِ ذِلك يوعظ بِه من كان مِنْكُم يؤْمن باللّه واليوم الآخِرِ ذِلكُم أزكى لَكُم و أطْهر و اللّـه يعلَم و أَنْتُم لا تَعلَمون)[٤] .

---

١ - المحبر: ص ٣٢٦ و ٣٢٧ .
٢ - النساء: ٢٢، و كانوا يُسمّون من يتزوج زوجة أبيه الضيزن، وكان هذا الزواج يسمّى في الجاهلية «نكاح المقت» ويسمى الولد منه: مقتّي. (راجع بلوغ الارب: ج ٢، ص ٥٣ ومجمع البيان للطبرسي: ج ٣، ص ٢٦).
٣ - المحبر: ٣٣٧ ـ ٣٤٠ .
٤ - البقرة: ٢٣٢ .

وقال سبحانه: (يا أيها الذين آمنُوا لا يحِل لَكُم أن تَرِثُوا النساء كرهاً و لا تَعضلُوهن لِتَذْهبوا بِبعض ما آتيتُموهن)[١] .

وقال تعالى: (و إذا طَلَّقْتُم النساء فَبلَغْن أَجلَهن فَأمسِكُوهن بِمعـروف أو سرحوهن بِمعروف و لا تُمسِكُوهن ضِراراً لِتَعتَدوا و من يفْعلْ ذلِـك فَقَـد ظَلَم نَفْسه)[٢] .

وخلاصة القول؛ إن المرأة كانت في العهد الجاهلي بشر حال، ويكفـي لتلخيص ما قلناه انه لما خطب احدهم إلى رجل ابنَتَه، وذكـر لَـه المهـر والصداق قال: إنّي وإن سِيقَ إلى المهر ألْف وعبدان (اي عبيد ومماليك) وذَود (وهو من الابل مِن الثلاث إلى العشر) عشْر، أحب أصـهاري إلـى القَبر وقال شاعرهم، في ذلك.

لِكُل أبي بِنت يراعي شُؤْونَها * ثلاثةُ أصهار إذا حمد الصهر

فبعلٌ يراعيها وخدر يكنها * وقبر يواريها وأفضلُها القبر[٣]

كما ان العرب كانت مصفقة ومتفقة على توريث البنين دون البنات[٤].

مقارنة بسيطة:

ولو لاحظتَ أيها القارىء الحقوق الّتي قررها الإسـلام فـي مجـال (المرأة) لاذعنتَ ـ حقاً ـ بأن هذه الاحكام والمقررات وهذه الخطـوات المؤثرة الّتي خطاها النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ في سبيل اصلاح حقوق المرأة، وتحسين اوضاعها، هي بذاتها شاهد حق، ودليل صدق على حقانيته، وصدق ارتباطه بعالم الوحي .

فاية رعاية ولطف بالمرأة وحقوقها وأي اهتمام بشأنها وكرامتها أعلـى واكثر من ان يوصي النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ مضافاً إلى مـا جاء في آيات واحاديث كثيرة تؤكّد على حقوق المرأة وتوصي أتباع هـذا الدين بالرحمة بهن واحترامهن في

---

١ - النساء: ١٩ .
٢ - البقرة: ٢٣١ .
٣ - بلوغ الارب: ج ٢، ص ٩ .
٤ - المحبر: ص ٢٣٦ .

خطبته الشهيرة في (حجة الوداع) بالمرأة، ويؤكد على ذلك اشد تأكيـد إذ يقول ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ :

(ايها الناس إن لِنساءكُم عليكُم حقاً، ولكم عليهن حقاً... فاتقوا اللّه فـي النساء واْستوصوا بهن خيراً، فانهن عنـدكم عبـوان... أطعمـوهن ممـا

تأكُلُون، وألْبسوهن مما تَلبسون)[1] .

العربُ والرُّوح القتالية:

من الناحية النفسية يمكن القول بان عرب الجاهلية كانوا النموذج الكامل للإنسان الحريص، الموصوف بالطمع الشديد، القوى التعلق بالماديات.

لقد كانوا ينظرون الى كل شيء من زاوية منافعه ومردوداته الماديـة، كما أنهم كانوا دائماً يرون لأنفسهم فضيلة وميزة على الآخرين .

كانوا يحبون الحرية حباً شديداً، ولذلك كانوا يكرهون كل شـيء يقيـد حريتهم .

يقول ابن خلدون عنهم: «إنهم (اي العرب الجاهلية) بطبيعة التوحـش الّذي فيهم اهلُ انتهاب وعيث، ينتهبون ما قدروا عليه... وكان ذلك عندهم ملذوذاً لما فيه من الخروج عن ربقة الحكم، وعدم الإنقياد للسياسة وهـذه الطبيعة منافيةٌ للعمران ومناقضة له» .

ويضيف قائلا: «فطبيعتهم انتهاب ما في أيدي الناس، وان رزقهم فـي ضلال رماحهم وليس عندهم في أخذ اموال الناس حد ينتهون إليه بل كلما امتدت أعينهم إلى مال أو متاع أو ماعون انتهبوه»[2] .

لقد كانت الاغارة وكان النهب والقتال من العادات المستحكمـة عنـد القوم، ومن الطبائع الثانوية في نفوسهم، وقد بلغ ولعهم وشغفهم بكل ذلـك ونزوعهم

---

١ - وردت هذه العبارات في مصادر مختلفة مع شيء طفيف من الاختلاف،

راجع تحف العقول: ص ٣٣ و ٣٤ .
٢ - مقدّمة ابن خلدون: ص ١٤٩ .

الشديد إليه أن أحدهم ـ كما يقال ـ سأل النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ بعد أن سمع منه وصف الجنة وما فيها من نعيم: وهل فيها قتال؟

ولما سمع الجواب بالنفي قال: اذن لا خير فيها!!

اجل لقد سجل التاريخ للعرب ما يقرب من (١٧٠٠) وقعة وحرباً، امتد أمد بعضها إلى مائة سنة أو اكثر، يعني أن أجيالا كثيرة كانـت تتـوارث الحرب، وتستمر في قتال الخصم، ورب حرب دامية طويلةُ الأمد إندلعـت بسبب قضية تافهة[١] .

لقد كان العربي في العهد الجاهلي يعتقد بأن الدم لا يغسلـه الا الـدم، وقضية «الشنفري» الّتي هي اشبه بالأساطير لغرابتها يمكن أن تعكس مدى «العصبية الجاهلية» الّتي كانت سائدة آنذاك .

فالشنفري يهان على يد رجل من «بني سلامان» فيعزم على الانتقـام منه، وذلك بأن يقتل مائة من تلك القبيلة، وبعد التربص الطويل يغتال تسعاً وتسعين، ويبقى مشرداً حتّى تغتالُه جماعة من اللصوص عند بئر فتفعـل جمجمته ـ بعد مقتله ـ فعلتها، اذْ تتسبب بعد مرور سنين ـ في قتل رجل من قبيلة ـ «بني سلامان» وبذلك يكتمل العدد الّذي حلف على قتلهم مـن تلك القبيلة، وذلك عندما يمر رجل من «بني سلامان» على تلك المنطقـة فيهب طوفان شديد يلقي بجمجمة «شنفرة» على ذلك الرجل فتصيبـه فـي رجله بشدة، فيموتُ بما لحقه من ألم وجراحة[٢] .

١ - العرب قبل الإسلام: ص ٣١٩ و ٣٢٠، هذا وتعتبر حرب داحس والغبراء، من أيام العرب التاريخية قبل الإسلام، وقد نشأت بسبب سباق بين فرسين هما داحس والغبراء (وهو فرسين لقيس بن زهير من بني عبس) وفرسين آخرين (لحذيفة الغدر) انتهى إلى التنازع في السباق وازداد التنافر بين المتسابقين وانجرّ إلى طعن أحدهما الآخر، وأن تتهيأ على اثر ذلك مقدماتُ حرب طويلة بين قبيلتي الرجلين وحلفائهما استمرت من عام ٥٦٨ م إلى عام ٦٠٨ م وموت كثيرين .
(راجع تاريخ العرب وآدابهم ص ٤٧ و الكامل لابن الأثير: ج ١، ص ٣٠٤) .
٢ - تاريخ العرب: ج ١، ص ١١١، وراجع أيضاً بلوغ الارب في معرفة أحوال العرب: ج ٢، ص ١٤٥ و ١٤٦ .

ولقد بلغ أُنس العرب الجاهلية بالقتال وسفك الدماء أن جعلـوا القتـل والسفك للدماء من مفاخر الرجال!!

ويبدو ذلك جلياً لمن يقرأ قصائدهم الملحمية الّتي تفوح منها رائحة الدم، ويخيم عليها شبح الموت، تلك القُصائد الّتي يمدح فيها الشـاعر نفسـه أو قبيلته بما أراقوه من دماء!!، وما ازهقوه من ارواح وما سبوه من نساء!!، وأيتموه من أطفال!!

ونجد في البيت الشعرى التالي مدى انزعاج الشاعر العربى الجاهلـي لما اصاب قبيلته مِن نكسة وذل وهزيمة في ميدان القتال، إذ يقول:

قَلّيتَ لي بِهمو قَوماً إذا ركبوا * شَنوا الإغارة ركباناً وفُرسانا

ويصف القرآن الكريم هذه الحالة بقوله: (و كُنْتم على شَفا حفْـرة مِـن النّار فَأَنْقَذَكُم مِنها)[1] .

الاخلاق العامة في المجتمع الجاهلي العربي:

ومهما يكن من امر فان عوامل مختلفة كالجهـل وضـيق ذات اليـد،

وجشوبة العيش، وعدم وجود قانون صحيح يحكم الحياة الاجتماعيـة، وحالة البداوة الموجبة للتوحش، والكسل والبطالة وغير ذلك من الرذائـل الاخلاقية كانت قد حولتْ جو الجزيرة العربية إلى جو فاسد قاتم، حتّى أن أموراً يندى لها الجبين قد اخذت طريقها إلى حياة تلك الجماعـة وراحـت تتخذ شيئاً فشيئاً صفة العادات المتعارفة!!

لقد كانت الغارات وعملياتُ النهب، والقمار، والربا، والاسر، والسبـي من الأعمال والممارسات الرائجة في حياة العرب الجاهلية، وكان شـرب الخمر ومعاقرتها بلا حدود هو الآخر من الأعمال القبيحة الشائعة لـديهم، ولقد ترسخت هذه العادة القبيحة في حياتهم إلى درجة انها صارت جـزء من طبيعتهم، وحتّى أن

---

١ - آل عمران: ١٠٣ .

شعراءهم خصصوا مساحات كبيرة في قصائـدهم لامتـداح الخمـرة ووصفها وكانت الحانات مفتوحة في وجه الناس طيلـة الوقـت تستقبـل الزبائن، وقد نُصِبت عليها رايات.

فها هو شاعرهم يقول:

إذا مت فادفِنى إلى جنبِ كَرمة * تُروي عِظامي بعد موتى عروقُها

ولا تَدفِنَنى في الفَلاةِ فإنِني * أخافُ إذا ماتِت أن لا أذوقُها[1]

لَقَد بلغت معاقَرةُ الخمر من الرواج في الحياة العربية الجاهلية بحيـث

اصبحت لفظة «التجارة» تعادل في عرفهم بيع الخمور، والاتجاربها .

ولقد كانت الأخلاق تفسر عند العرب الجاهلية بنحو آخر عجيب، فانهم مثلا كانوا يمدحون الشجاعة والمروءة والغيرة، ولكنهم كانوا يقصدون من «الشجاعة» القدرة على الإغارة وسفك الدماء، وكثرة عـدد القتلـى فـي الحروب!!

كما أن الغيرة كانت تعني عندهم وأد البنـات حتّـى أن هـذا العمـل الوحشي كان يعد عندهم من أعلى مظاهر الغيرة، وكانوا يـرون الوفـاء والوحدة في نصرة الحليف حقاً أو باطلا، وهكذا فان اكثر القصص التـي نُقِلَت عن شجاعتهم وشَغَفهم بالحرية كانت الشجاعة والشغف بالحرية فيها تتلخص وتتجسد في الاغارة والانتقام .

انهم كانوا يعشقون ـ في حياتهم ـ المرأة والخمرة والحـرب ليـس غير .

النزوع إلى الخرافة والاساطير في المجتمع الجاهلي:

ولقد بين القرآن الكريم اهدافُ البعثـة المحمديـة المقدسـة بعبـارات موجزة، ومما يلفت النظر ـ اكثر من أى شيء - ما ذكـره تعـالى فـي الكتاب العزيز حول أهم هذه الاهداف والغايات العليا إذ قـال: (و يضـع عنهم إصرهم و الأَغْلالَ التي كانَتْ عليهم)[٢] .

---

١ - تفسير مفاتيح الغيب: ج ٢، ص ٢٦٢، طبعة مصر: ١٣٠٥ .
٢ - الأعراف: ١٥٧ .

فلابد أن نعرفَ ماذا كانت تلك الاغلال والسلاسلَ الّتي كانـتْ عـرب الجاهلية ترزخُ تحتها حتّى قَبيل بزوغ فجر الإسلام؟

لا ريب أنها لم تكن من جنس الأغلال والسلاسل الحديدية، ولـم يكـن المقصود منها ذلك أبداً، فماذا كانت إذَن يا ترى؟

أجل إن المقصود مِن هذه الاغلال هي الأوهام والخرافات الّتي كانـت تَقيد العقلَ العربي عن الحركة، وتعيقه عن النمو والتقدم، ولا شك أن مثل هذه السلاسل والأغلال الّتي تقيد الفكر البشـري وتمنعـه مـن التحليـق والتسامي، اثقل بكثير من الاغلالَ والقيود الحديدية واضر على الإنسـان منها بدرجات ومراتب، لأن الأغلالَ الحديدية توضع عن الأيدي والأرجل بعد مضي زمان، ويتحرر الإنسان منها، بعد حين، ليدخل معترك الحيـاة بعقلية سليمة مبراة من الأوهام والخرافات، وقد زالتْ عنه ما تركته تلـك الحدائد من جروح وآلام .

أما السلاسل والاغلال الفكريـة (ونعـنى بهـا الاوهـام والاباطيـل والخرافات) التي قد تهيمن على عقل الإنسان وتكبلُ شعوره فانهـا طالمـا رافقت الإنسان إلى لحظة وفاته، واعاقته عن المسير والانطـلاق، دون ان يستطيع التحرر منها، والتخلص من آثارها، وتبعاتها، اللهم إذا استعان على ذلك بالتفكير السليم، والهداية الصحيحة .

فبالتفكير السليم وفي ضوء العقل البعيد عن أى وهـم وخيـال يمكنـه التخلص مِن تلك الاغلال والقيود الثقيلة، وأما بدون ذلك فـإن أى سـعي للإنسان في هذا السبيل سيبوء بالفشل .

إن من أكبر مفاخر نبي الإسلام أنه كافَح الخرافـات، وأعلـن حربـاً شعواء على الأساطير، ودعا إلـى تطهـير العقـل مـن أدران الأوهـام والتخيلات، وقال: لقد جئت لاخذ بساعِد العقل البشري، وأشـد عضـده،

وأحارب الخرافه مهما كان مصدرها. وكيفما كان لونها وأيـا كانـت غايتها، حتّى لو خَدمت أهدافي، وساعدتْ على تحقيق مقاصدي المقدسة .

إن ساسة العالم الذين لاتهمهم إلاّ إرساء قواعد حكمهم وسلطانهم على

الشعوب لا يتورعون عن التوسل بأية وسيلة، والاستفادة من اية واقعة في سبيل تحقيق مآربهم حتّى أنهم لا يتـأخرون عـن التـذرع بترويـج الخرافات والأساطير القديمة بين الشعوب للوصول إلى سـدة الحكـم، أو البقاء فيها ما امكنهم ذلك. ولو اتفق أن كانوا رجالا موضوعيين ومنطقيين فانهم في هذه الحالة دافعوا عن تلك الخرافات والأوهام والاساطير الّتي لا تنسجم مع اي مقياس عقلي بحجة الحفاظ على التراث القومي، أواحـترام راي الكثرية الشعب، أوما شابه ذلك من الحجج المرفوضة .

ولكن رسولَ الإسلام لم يكتف بإبطال المعتقدات الخرافية الّتي كانـت تلحِق الضرر به، وبمجتَمعه، بل كان يكافح ويحارب بجميـع قـواه كـل أسطورة أو خرافة شعبية أو فكرة فاسدة باطلة، تخدم غرضـه، وتساعـد على تحقيق التقدم في دعوته ويسعى إلى أن يجعلَ الناس يعشقون الحقيقـة لا ان يعبدوا الخرافات، ويكونوا ضحايا الاساطير والأوهام، واليك واحـداً من هذه المواقف العظيمة على سبيل المثال لا الحصر .

لمامات َ إبراهيم بن رسول اللّه ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ ـ وهـو ابنه الوحيد، حزن عليه النبي حزناً شديداً فكانت تنحدر الدموع منه علـى غير اختيار، واتفق ان انكسفت الشمس في ذلـك اليـوم أيضـاً، فذهـب المولعون بالخرافة في ذلك المجتمع (العربي) على عادتهم إلى ربط تلـك الظاهرة بموت إبراهيم واعتبار ذلك دليلا على عظمة المصاب به فقـالوا: انكسفت الشمس لموت ابن رسول اللّه، فصعد رسول اللّه ـ صلى الله عليه

وآله وسلم ـ المنبر وقال: «أيها الناس ان الشمس والقمر آيتـان مـن آيات اللّه يجريان بامره، ومطيعان له، لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياتِـه، فاذا انكسفا، أو أحدهما صلّوا» .

ثم نزل من المنبر فصلى بالناس صلاة الكسوف وهي ما تسمى بصلاة الايات[1] .

---

١ - بحارالأنوار: ج ٩١، ص ١٥٥ .

ان فكرة انكساف الشمس لموت ابن صاحب الرسالة وان كان من شأنها ان تقوي من موقع النبي في قلوب الناس، وتخدم بالتالي غرضه، وتساعـد على انتشار دعوته، وتقدمها، إلا أنه ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ رفض ان يحصل على المزيد من النفوذ في قلوب الناس من هذا الطريق .

على أن محاربة النبى ـ صلى الله عليه وآله وسـلم ـ ـ للخرافـات والاساطير الّتي كانت نموذجا بارزاً من محاربته للوثنية، وتأليه المخلوقات وعبادتها، لم تكن من سيرته في عهد الرسالة بل كان ذلك دأبه في جميـع أدوار حياته، حتّى يوم كان صبياً يدرج، فا نه كـان يحـارب الاوهـام والخرافات، ويعارضها في ذلك السن أيضاً .

تقول حليمةُ السعدية مرضعة النبى ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ ـ : لما تم له (اي لمحمد) ثلاث سنين قال لي يوماً: «يـا أُمـاه مـالِي لا أرى أخَوى بالنّهار»؟

قلت له: يا بنى إنهما يرعيان غنيمات، قال: «فَمالي لا أخْرج معهما»؟

قلت له: تحب ذلك؟ قال: نَعم .

فلما أصبح دهنته وكحلته وعلقت في عنقه خيطاً فيه جزع يمانية (وهي من التمائم الباطلة كانت تعلّق على الشخص في أيام الجاهلية لدفع الآفـات عنه)، فنزعها، وقال لي: «مهلا يا أُماه فَإن معِي من يحفُظنِي»[1] .

الخرافات في عقائد العرب الجاهلية:

كانت عقائد جميع الامم والشعوب العالمية يوم بزوغ شـمس الإسـلام ممزوجة بألوان من الخرافات والأساطير .

فالاساطير اليونانية والساسانية كانت تخيم على افكار الشعـوب الّتـي كانت تعد في ذلك اليوم من أرقى الشعوب والمجتمعات .

على انه لا تزال خرافات كثيرة تسـود وإلـى الآن فـي المجتمعـات الشرقية المتقدمة، ولم تستطع الحضارةُ الراهنة أن تزيلها من حياة النـاس ومعتقداتهم .

---

١ - بحارالانوار: ج ١٥، ص ٣٩٢ .

إن تنامي الخرافة «يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالمستوى العلمي والثقافي فـي كل مجتمع، فبقدر ما يكون المجتمع متخلفاً من الناحية الثقافيـة والعلميـة تزداد نسبة وجود الخرافة ومقدار نفوذها في عقول الناس ونفوسهم .

لقد سجل التاريخ عن سكّان شبه الجزيرة العربية طائفة هائلة وكبـيرة من الاوهام والخرافات، وقد جمع السيد محمود الآلوسي اكثرها في كتابـه

«بلوغ الارب في معرفة احوال العرب»، مرفقاً كل ذلك بما حصل عليه من الشواهد الشعرية وغيرها[1].

ومن يتصفح هذا الكتاب يقف على ركام هائل من الخرافات الّتي كانت تملأ العقل العربي الجاهل آنذاك وتعشعش في نفوسهم، وقد كانت هذه السلسلة الرهيبة من الأوهام هي السبب في تخلّف هذا الشعب عن بقية الشعوب والأمم الاخرى .

ولقد كانت هذه الخرافات من أكبر السدود في طريق تقدم الدعوة الإسلامية، ولهذا أجتهد النبى الأكرم ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ بكل طاقاته في محو وازالة آثار الجاهلية الّتي لم تكن سوى تلك الأوهام والاساطير والخرافات .

فعندما وجه «معاذ بن جبل» إلى اليمن اوصاه بقوله:

«واِتْ أمر الجاهِلية إلاّ ما سنه الإسلام و أظهر أمر الأسلام كلّه صغيره وكبيره»[2] .

لقد وقف رسولُ اللّه ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ أمام جماهير كبيرة من العرب الذين كانت عقولُهم ترزخ تحت الافكار والمعتقدات الخرافية ردحاً طويلا من الزمن يعلن عن نهاية عهد الأفكار والاوهام الجاهلية إذ قال: «كُل مأثرة في الجاهِلية تحتَ قَدمى»[3] .

---

١ - بلوغ الارب في معرفة أحوال العرب: ج ٢، ص ٢٨٦ ـ ٣٦٩ .
٢ - تحف العقول: ص ٢٥ .
٣ - السيرة النبوية: ج ٣، ص ٤١٢ .

نماذج من الخرافات في المجتمع الجاهلي:

وللوقوف على مدى أهمية التعاليم الإسلامية وقيمتها نلفت نظر القارىء الكريم إلى نماذج من هذه الخرافات، ومن أراد التوسع راجـع المصـدر المذكور .

١ـ الاستسقاء باشعال النيران:

كانت العرب إذا أجدبت، وأمسكت السماء عنهم، وأرادوا أن يستمطروا عمدوا إلى السلع والعشر (وهما أشجار سـريعة الاشـتعال) فحزموهمـا، وعقدوهما في أذناب البقر، وأضرموا فيها النيران وأصعدوها فـي جبـل وعر، واتبعوها يدعون اللّه تعالى، ويستسقونه، وانما يضرمون النيران في أذناب البقر تفاؤلا للبرق بالنار... وكانوا يسوقونها نحو المغرب مـن دون الجهات الاخرى، وكانت هذه الثيران والابقـار إذا صـاحت مـن وجـع الاحتراق ظنّت العرب بان ذلك هو الرعد!!!

وقد قال شاعرهم في ذلك:

يا (كحلُ)قَد أثقَلتَ أذناب البقَر * بسلع يعقَد فيها وعشر

فَهل تَجودين بِبرق أو مطَر؟

٢ـ ضرب الثور إذا عافت البقر:

كانوا إذا أوردوا البقر فتمتنع من شرب الماء، ضربوا الثـور لِيقتحـم الماء، بعده ويقولون: إن الجن تصد البقر عن الماء، وأن الشيطان يركـب قَرني الثور، ولا يدع البقر تشرب الماء، ولذلك كانوا يضربون وجه الثور.

وقد قال في هذا شاعرهم:

كذاك الثور يضرب بالهراوى * إذا ما عافَت الْبقَر الظِماء

وقال آخر:

فإني إذاً كالثّور يضرب جنبه * إذا لُم يعفَ شُرباً وعافت صواحبه[1]

---

١ - عافت أي كرهت شرب الماء .

وقال ثالث:

فلا تجعلوها كالبقير وفحلُها * يكسر ضرباً وهو للورد طائع

وما ذَنبه إن لم ترد بقَراته * وقَد فاجأتْها عند ذاك الشرائع

٣ـ كيّ صحيح الإبل ليبرأ السقيمُ:

إذا كان يصيب الإبل مرض أو قرح في مشافرها واطرافها عمدوا إلى بعير صحيح من تلك الإبل فكووا مِشفَره وعضده وفَخذَه يرون أن ذلك إن فعلوه ذهب العر والقرح والمرض عن إبلهم السقيمة، ولا يعـرف سـبب ذلك .

وقد احتمل البعض أنهم إنما كانوا يفعلون ذلك وقايـة للصحـاح مـن الإصابة بالعر الّذي أصاب غيرها، أو أنه نوع من المعالجة العلمية، ولكن لماذا ترى كلّهُم يعمدون إلى بعير واحد من بين كل تلك الابل، فلابد مـن القول بأن هذا الفعل كان ضرباً من الاعمال الخرافية الّتي كانت سائدة في ذلك المجتمع الجاهلي قبل الإسلام.

وقد قال شاعرهم عن ذلك:

وكلّفتني ذنب امرىء وتركتُه * كِدِى العريكوى غيره وهو راتع

وقال آخر:

كمن يكوي الصحيح يروم برءاً * بِه مِن كل جرباء الإهاب

وقال ثالث:

فالزمتَنِي ذنباً وغيري جره * حنانيل لا تكو الصحيح بأجربا

٤ـ حبس ناقة عند القبر اذامات كريمٌ:

إذا ماتَ منهم كريم عقلوا ناقته أوبعيره عند القبر الّذي دِفن فيـه ذلـك الكريم، فعكسوا عنقها، وأداروا رأسها إلى مؤخرها وتركوها في حفيرة لا تطعم ولا تسقى حتّى تموت، وربما أُحرقَت بعد موتها وربما سِلخَتْ وملىء جِلدها ثماماً، وكانوا يزعمون أن من مات ولم يبلَ عليه (اي لم تعقل ناقـة عند قبره هكذا)

حشر ماشياً، ومن كانت له بلية (اي ناقة عقلت هكذا) حشِر راكباً على بليته .

وقد قال أحدهم في هذا الصدد:

إذا مِت فادفنى بحراء مابها * سوى الأصرخين أو يفوز راكب

فإن أنتَ لم تُعقر على مطيتي * فلا قام في مال لك الدهر حالب

وقال آخر وهو يوصي ولده بان يفعلوا له ذلك:

أبنى لا تنس البلية إنها * لأبيك يوم نُشُوره مركوب

٥ـ عَقرُ الإبل عَلى القُبُور:

كانوا إذا ماتَ أحدهم ضربوا قوائم بعير بالسيف عند قبره، وقيل انهـم كانوا يفعلون ذلك مكافأة للميت المضياف على ما كان يعقره من الإبل في حياته وينحره للاضياف.

وقد ابطلت الشريعة المقدسة هذه العادة الباطلة في ما أبطلته فقد جـاء في الحديث «لا عقْر في الإسلام» .

وقد قال أحدهم حولَ العقر هذا:

قُلْ للقواِفل والغُزاة إذا غَزوا * والباكرين وللمجد الرائح

إن الشَجاعة والسماحة ضمنا * قبراً بِمرو على الطريق الواضح

فإذا مررتَ بِقبره فاعقِربِهِ * كُوم الجلاد وكل طِرف سابح

وأنضح جوانب قبره بدمائها * فلقد يكون أخا دم وذبائح

٦ـ نهيق الرجل أذا اراد دخول القرية (التعشير):

ومن خرافاتهم أن الرجلَ منهم كان إذا اراد دخولَ قرية فخافَ وباءهـا أوجنّها وقف على بابها قبل ان يدخلها فنَهقَ نهيقَ الحمار، ثم علّـق عليـه كعب أرنب كأن ذلك عوذة له، ورقية من الوباء والجن ويسمون هذا النهيق التعشير.

قال شاعرهم:

ولا ينْفَع التعشير أن حم واقع * ولا زعزع يغني ولا كعب ارنب

وقال الآخر:

لعمرى إن عشّرتُ من خيفة الردى * نِهاق حمير أنني لجزوع

٧ـ تصفيق الضالّ في الصحراء ليهتدي:

فقد كان الرجلُ منهم إذا ضلّ في فلاة قلّب قميصه وصفق بيديه، كأنـه يومىء بهما إلى انسان مهتدي.

قال أعرابي في ذلك:

قلبتُ ثيابي والظنون تجولُ بي * ويرمي برجلي نحو كلّ سبيل

فلأياً بلائي ما عرفت حليلتي * وأبصرتُ قصداً لم يصب بدليل

٨ـ الرتم:

وذلك أن الرجل منهم كان إذا سافر عمد إلى خيط فعقده فـي غصـن شجرة أوفي ساقها فاذا عاد نظر إلى ذلك الخيط فإن وجده بحاله علـم ان زوجتَه لم تخنه وان لم يجِده أو وجده محلولا قال: قد خانتني. وذلك العقـد يسمى «الرتم».

قال شاعرهم في ذلك:

خانته لما رأتْ شَيباً بمفرقه * وغَره حِلفُها والعقْد للرتم

وقال الآخر:

لا تحسبن رتائما عقدتَها * تنبيك عنها باليقين الصادق

وقال ثالث:

يعلل عمرو بالرتائم قلبه * وفي الحى ظبى قد أحلّت محارقه

فما نَفَعتْ تِلك الوصايا ولا جنَتْ * عليهِ سوى ما لا يحب رتائمه

٩ـ وطيُ المرأة القتيل الشريف لبقاء وَلَدها:

فقد كانت العرب تقول: ان المرأة المقلاة وهي الّتي لا يعيش لها ولـد، إذا وطئت القتيلَ الشريف عاشَ ولَدها.

(٧٦)

قال احدهم:

تظلّ مقاليت النساء يطأنه * يقُلْن ألا يلقى على المرء مئزر

١٠ـ طرْحُ السِنّ نَحو الشَمْس إذا سَقطتْ:

ومن تخيلات العرب وخرافاتهم أن الغلام منهم إذا سقَطَتْ له سن أخذها بين السبابة والابهام واستقبل الشمس إذا طلعت وقذف بها وقال: يا شـمس ابدليني بسن احسن منها ولتجر في ظلمها آياتك، أو تقول أيـاؤك، وهمـا جميعاً شعاع الشمس.

قال احدهم وهو يصف ثغر معشوقته:

سقته اياة الشمس إلاّ لثاته * أسف ولم تكرم عليه باثمدِ

أي كأن شعاع الشمس اعارته ضوءها.

هذا وقد أشار شاعرهم إلى هذا الخيال (أوقل الخرافة المذكورة) إذ قال:

شادن يحلو إذا ما ابتسمتْ * عن أقاح كاقاح الرمل غر

بدلته الشمس من منبته * برداً أبيض مصقولَ الاثر

١١ـ تعليق النجاسة على الرجل وقاية من الجنون:

ومن تخيلات العرب أنهم كانوا إذا خافُوا على الرجل الجنون، وتعرض الارواح الخبيثة له نجسوه بتعليق الاقذار كخرقة الحيض وعظام الموتـى قالوا: وأنفع من ذلك أن تعلقُ عليه طامتٌ عظام موتى ثم لا يراها يومـه ذلك. وانشدوا في ذلك:

فلو أن عِندي جارتَين وراقياً * وعلقَ أنجاساً علّي المعلقُ

وقالت امرأة وقد نَجست ولَدها فلم ينفعه ذلك ومات:

نجستُه لا ينفع التنجيس * والموتُ لا تفوتُه النفوس

١٢ـ دم الرئيس يشفي:

فقد كانت العرب تعتقد أن دم الرئيس يشفي من عضة الكلْب الكَلِب.

قال الشاعر:

بناةُ مكارم وأساة جرح * دِماؤُهم من الكلَبِ الشفاء

وقال آخر:

أحلامكُم لسِقامِ الجهل شافيةٌ * كما دِماؤكُم تشفي من الكلَب

١٣ـ شق البرقع والرداء يوجب الحب المتقابل:

ومن أوهامهم وتخيلاتهم أنهم كانوا يزعمون أن الرجل إذا احب إمـرأة واحبته فشق برقعها وشقّت رداءه صلح حبهما ودام، فان لم يفعلا ذلك فَسد حبهما، قال في ذلك احدهم:

وكم شَقَقْنا مِن رداء محبر * و مِن برقُع عن طَفلة غير عانس

إذا شُق برد شُق بالبرد برقع * دواليك حتّى كلنا غير لابس

نروم بهذا الفعل بقياً على الهوى * والف الهوى يغوى بهذي الوساوس

١٤ـ معالجة المرضى بالأمور العجيبة:

ومن مذاهبهم الخرافية في معالجة المرضى إذا بثرت شفة الصبي حمل منخلا على رأسه ونادى بين بيوت الحى: الحلأ الحلأ، الطعـام الطعـام، فَتُلقي له النساء كِسر الخبز، واقطاع التمر واللحم في المنخل ثم يلقي ذلـك للكلاب فتأكله، فيبرأ مِن المرض فان أكل صبى من الصبيان من ذلك الّذي ألقاه للكلابِ تمرة أو لقمة أو لحمة بثرت شفته .

فقد رويت عن إمرأة أنها انشدت:

ألا حلأ في شفة مشقوقه * فقد قضى منخلُنا حقوقه

ومن أعاجيبهم أنهم كانوا إذا طالت علة الواحد منهم، وظنوا أن به مساً من الجن لانه قَتَلَ حية، أو يربوعاً، أو قنفذاً، عملوا جِمالا من طين وجعلوا عليها جوالق وملاؤها حنطة وشعيراً وتمراً، وجعلوا تلك الجمال في بـاب جحر إلى جهة المغرب وقت غروب الشمس وبـاتوا ليلتهـم تلـك، فـاذا اصبحوا نظروا إلى تلك

الجمال الطين فاذا رأوا انها بحالها قالوا لم تقبل الدية فزادوا فيهـا وان رأوها قد تساقطت وتبدد ما عليها من الميرة قالوا: قد قبلت الدية واستدلوا على شفاء المريض وفرحوا وضربوا الدفّ.

قال بعضهم:

قالُوا وقد طالَ عنائي والسقم * إحمِلْ إلى الجِن جمالات وضم

فَقَد فَعلت والسقام لم يرم * فبالذي يملأك برئي اعتصم

وقال آخر:

فياليتَ أن الجن جازوا حمالتي * وزحزح عني ما عناني من السقم

أعلّلُ قلبي بالذي يزعمونه فَيالَيتَني عوفيت في ذلك الزعم

ومن مذاهبهم في هذا المجال أن الرجلَ منهم كـان إذا ظهـرت فيـه القوباء (وهو مرض جلدي) عالجها بالريق .

قال احدهم:

يا عجباً لهذه الفليقة * هل تُذهِبن القُوباء الريقة

١٥ـ خرافاتٌ في مجال الغائب:

كانوا إذا غُم عليهم أمر الغائب ولم يعرفوا له خبراً جاؤوا إلـى بئـر عادية (أي مظلمة بعيدة القعر) أو جاؤوا إلى حصن قديم ونادوا فيـه: يـا فلان أو يا أبا فلان (ثلاث مرات)، ويزعمون انه إن كان ميتاً لم يسمعـوا صوتاً، وإن كان حياً سمعوا صوتاً ربما توهموه وهمـاً، أو سـمعوه مـن الصدى فَبنَوا عليه عقيدتهم، قال بعضهم في ذلك:

دعوتُ ابا المِغوار في الحفْر دعوة * فما آض صوتي بالذي كنت داعيا (١)

أظن أبا المغوار في قصر مظلم * تجر عليه الذارياتُ السوافيا

وقال آخر:

وكم ناديتُه والليلُ ساج * يِعادى الِئار فما أجابا

---

١ - آضَ أي عاد ورجع.

ومن ذلك أن الرجل منهم كان إذا اختلجت عينه قال: (أرى من أُحبـه) فأن كان غائباً توقع قدومه، وإن كان بعيداً توقع قربه، وقالَ أحدهم:

إذا اختلَجتْ عيني أقولُ لعلها * فَتاة بني عمرو بها العين تَلْمع

وقال آخر:

إذا اختلَجت عيني تَيقنتُ إنّني * أراك و إن كان المزار بعيدا

وكانوا إذا لا يحِبون لمسافر أن يعود إليهم أوقدوا ناراً خَلفَه ويقولـون في دعائهم «أبعده اللّه وأسحقَه وأوقد ناراً إثره» قال بعضهم:

صحوتُ وأوقدتُ لِلجهل ناراً * ورد عليك الصبا ما استعارا

١٦ـ عقائدهُمْ العجيبة في الجنّ وتاثيرهُ:

كانت العرب في الجاهلية تعتقد في الجن وتأثير هذا الكائن فـي شـتى مجالات حياتهم اعتقاداتٌ عجيبة وفي غاية الغرابة .

فتارة تستعيذُ بالجن، وقد إستعاذَ رجلٌ منهم و معه ولد فاكلـه الأسـد فقال:

قَد استعذْنا بعظيم الوادي * مِن شَر ما فيهِ مِن الأعادي

فلم يجرنا من هزبر عادي

وعن الاستعاذة بالجن قال اللّه سبحانَه في القرآن: (و أنه كان رجـالٌ مِن الإنسِ يعوذُون بِرجال مِن الجِن فَزادوهم رهقاً)[1] .

ومن ذلك إعتقادهم بهتاف الجن. ولهم في هذا المجال أساطير خرافيـةٌ مذكورة في محلّها .

ومن هذا القبيلُ إعتقادهم بالغول، فقد كانت تزعم العرب في الجاهليـة أن الغيلان في الفلوات (وهي من جنس الشياطين) تتراءى للناس، وتغـول تغولا اي تتلون تلوناً فتضلّهم عن الطريق، وتهلكهم، ومن هذا القبيل أيضاً إعتقادهم بالسعالي!!

---

١ - الجن: ٦ .

وقد قال أحدهم في ذلك:

وساحرةٌ عيني لو أن عينَها * رأَت ما أُلاقيهِ مِن الهول جنّتِ

أبيتُ وسعلاةٌ وغولٌ بِقَفْرة * إذا الليلُ وأرى الجن فيه أرنت

١٧ـ تشاؤمهم بالحيوانات والطيور والاشياء:

ومن مذاهبهم الخرافية تشاؤمهم بأشياء كثيرة وحالات عديدة:

فمن ذلك؛ تشاؤمهم بالعطاس.

وتشاؤمهم بالغراب حتّى قالوا: فلان أشام من غراب البين، ولهم فـي هذا المجال أبياتٌ شعرية كثيرةٌ منها قول أحدهم:

ليتَ الغراب غداة ينعب دائباً * كان الغراب مقطع الأوداجِ

وكذا تشاؤُمهم وتطيرهم بالثور المكسور القرن والثعلب. إلى غير ذلك من التخيلات والأوهام والخرافات والاسـاطير، والاعتقـادات العجيبـة، والتصورات الغريبة الّتي تزخر بها كتب التاريخ المخصصةِ لبيان أحـوال العرب قبلَ الإسلام وحتّى ابان قيام الحضارة الإسلامية .

مكافحة الإسلام لهذه الخرافات:

ولقد كافح الإسلام جميع هذه الخرافـات بطـرق مختلفـة، واسـاليب متنوعة.

أما بالنسبة إلى ما كانوا يفعلونَه بالحيوانات فمضافاً إلى أن أى شـيء من هذه الأعمال لا ينسجم مع العقل والمنطق والعلم لأن المطر والغيث لا ينزل من السماء باسعال النيران، وضرب الثيران لا يؤثر في البقر، كما لا ينفع كى البعير الصحيح في شفاء الإبل السقيمة، وتعتبر هذه الاعمال نوعاً من تعذيب الحيوانات وقد نهى الإسلام بشدة عن تعذيب الحيوانات وايذائها، باي شكل كان .

فقد روي عن النبى ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ أنه قال: «لِلدابـةِ على صاحبها ست خصال:

١- يبدأ بعلفها إذا نَزل .

٢ـ ويعرض عليها الماء إذا مربه .

٣ـ ولا يضرب وجهها فإنها تسبح بحمدِ ربها .

٤ـ ولا يقفْ على ظهرها إلا في سبيل اللّه عزوجلّ .

٥ـ ولا يحملها فوق طاقتها .

٦ـ ولا يكلّفها من المشي إلا ما تطيقُ[١] .

كما روي أنه نهى رسولُ اللّه ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ عـن أن توسم البهائم في وجهها، وأن تضرب في وجوهها فانها تسبح بحمد ربها .

ومن هنا ندرك ان التعاليم في مجال الرفق بالحيوان، وحمايته، علـى النقيض من العادات الجاهلية السائدة في البيئة العربية آنذاك .

واما بالنسبة إلى التمائم والأشياء الّتي كانت تعلّقها العرب على أعنـاق وصدور رجالها، وأولادها، من الأحجـار والخَـرز، و عظـام الموتـى، ومعالجة المرضى والمصابين وغيرهم بها أحياناً فقد حاربها الإسلام، بعد أن ابطلها كما ابطل الافاعيل الّتي سبق أن ذكرناها قبل هذا .

فلما جاءت جماعات من الأعراب إلى رسول اللّه ـ صـلى الله عليـه وآله وسلم ـ وسألوه عن الرقى والقلائد الّـتي كـانوا يتـداوون بهـا أو يسترقونها بدلا عن التداوي بالعقاقير والأدوية قـائلين يـا رسـول اللّـه: انتداوى؟

قال رسولُ اللّه ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ : «تداووا فإن اللّه لـم يضع داء إلا وضع له دواء»[٢] .

بل نجد النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ يأمر سعد بن أبي وقاص عندما أُصيب بمرض في فؤاده أن يعالج نفسه عِند طبيب إذ قال لـه لمـا

عاده وعرف بحاله: «إنَك رجلٌ مفود، إئتِ الحارثَ بن كلْدة أخا ثقيف فإنَه رجلٌ يتطبب»[٣] .

---

١ - من لا يحضره الفقيه: ج ٢، ص ٢٨٦، وراجع للوقوف على أحاديث حقوق الحيوان كتاب الشؤون الاقتصادية: ص ١٣٠ ـ ١٥٩ أيضاً .
٢ - التاج الجامع للأُصول: ج ٣، ص ١٧٨ .
٣ - التاج الجامع للأُصول: ج ٣، ص ١٧٩ .

هذا مضافاً إلى أنه وردت أحاديث كثـيرة تصـرح ببطـلان التمائـم السحرية الّتي لا تنفع ولا تضر أبداً، وها نحن نشير فـي مـا يلـي إلـى نموذجين من هذه الأحاديث:

١- يقول أحدهم: دخلتُ على النبى ـ صلى الله عليه وآلـه وسـلم ـ بابن لي قد علقت عليه من العذرة (وهي قلادة سحرية جاهلية) فقال: علام تدعَرن أولادكن بهذا العِلاق، عليكن بهذا العود الهِنْدي» وكان ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ يقصد عصارة هذا العود[١] .

٢ـ روي عن الإمام جعفر بن محمد الصادق ـ عليه السلام ـ أ نه قال: «إن كثيراً مِن التمائم شِرك»[٢] .

هذا مضافاً إلى أن النبى ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ وأوصـياءه الكرام ـ بارشادهم الناس إلى ما ينبغي أن يتداووا به من العقاقير والأدوية وما أعطوه من تعاليم قيمة كثيرة في هذا المجال ممـا جمعـه المحـدثون الكبار تحت عنوان: «طب النبى» و «طب الرضا» و... و قـد وجهـوا ضربة قوية أُخرى إلى تلك الأوهام والتخيلات، والخرافات والاساطير الّتي

كان يعاني منها المجتمع العربي الجاهلي قبل الإسلام[٣] .

وأما الغول، والطيرة، والتشاؤم، والهامة والنَوء فقـد حاربهـا النبـي بصراحة إذ قال: ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ «لا هامة ولا نَـوء ولا طِيرة، ولا غول»[٤] .

وقال ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ : «العِيافَةُ والطِيرةُ والطَرق مِـن الجبت»[٥] .

---

١ - التاج الجامع للأُصول: ج ٣، ص ١٨٤ .
٢ - سفينة البحار: ج ١، مادة رقي .
٣ - وقد فتح المحدّثون من الفريقين أبواباً خاصّة لأحاديث الطبّ النبوىّ في كتب الحديث أيضاً.
٤ - التاج الجامع للأُصول: ج ٣، ص ١٩٦ و ١٩٧ الفصل الرابع باب نفي مزاعم الجاهلية، قال مؤلف التاج: الهامّة طائر أو البوم إذ سقط في مكان تشاءم أهلُه، أو دابّة تخرجُ من راس القتيل أو من دمه فلا تزالُ تصيح حتّى يؤخذَ بثاره، والنَوء نجمٌ يأتي بالمطر وآخر يأتي بالريح (حسب عقيدة الجاهلية)!!

٥ - التاج الجامع للأُصول: ج ٣ ص ٢٠١. قال مؤلّف التاج العيافة زجر الطّيْر والتفاؤل بأسمائها وأصواتها كالتفاؤل بالعُقاب على العِقاب، وبالغُراب على الغُربة، وبالهُدْهُدْ على الهُدى، وكذا بافعالها، وكيفية طيرانها فكانت العرب تزجر الطيرَ وتثيره فما اخذ منها ذات اليمين تبركوا به وتيمّنوا وما تياسر منها تشاء موابه (كما في بلوغ الارب في معرفة أحوال العرب: ج ٣، ص ٢١٢ تحت عنوان كيفية الزجر عند العرب).
و«الطرق»: الضرب بالحصى (للإستدلال على أُمور غيبيّة باعتقاد الجاهليين).
والجبت هو الباطل .

وعن النبى ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ أيضاً أنه قال: «إن الرقـى والتمائم والتولة شرك»[١] .

وعن أحدهم قال: قلتُ يا رسولَ اللّه اموراً كنّا نصنعها في الجاهليـة،

كنّا نأتي الكهان، قال: فلا تأتوا الكهان، قلت: كنّا نتطير قال: ذاك شيء يجده أحدكُم في نفسِه فلا يصدنكم» .

إن وجود النهي الشديد والمكرر في الاحاديث الكثـيرة عـن الطـيرة والتشاؤم، والزجر والعيافة والتمائم والتولـة والهامـة والنـوء والغـول، والكهانة، وايذاء الحيوانات وكيهن، وتعذيبهن، وماشابه ذلك يدل بوضـوح وقوة على مدى رسوخ هذه العادات الباطلة في الحياة العربيـة الجاهليـة، يكشف عن مبلغ اعتقادهم بها، ونزوعهم اليها وهو بالتـالي يكشـف عـن مغزى قوله تعالى: (ويضع عنَهم إصرهم والأغْلال التي كانَت عليهـم)[٢] فأية سلاسل وأغلال أثقل وأسوء عاقبة وأشد وطئة، من هذه الأغـلال... أغلال الخرافة والوهم، وسلاسل التخيلات والاساطير؟!!

أوضاع العرب الإجتماعية قبيل ظهور الإسلام:

إن أُولى خطوة خطاها البشَر باتّجاه النمط الإجتماعي كانت عندما أقْبل على تاسيس وإقامة الحياة القبلية، فالقبيلة تتكون من إجتماع عـدة عوائـل وأسر مترابطة فيما بينها بوشائج القربى والنسب تحت زعامة شيخ القبيلة، وبهذا يتحقق

---

١ - التاج الجامع للأُصول: ج ٣، ص ٢٠٣. قال مؤلِّف الجامع: «التولة»: نوع من السحر يحبّب الرجلَ إلى زوجته، وهو من عمل المشركين (أي في الجاهلية) .
٢ - سورة الاعراف: ١٥٧ .

أبسط نمط من أنماط الحياة الإجتماعية .

وقد كانت الحياةُ العربية ـ آنذاك ـ من هذا القبيل، فكلُ مجموعة من العوائل المترابطة نسبياً تتجمع في شكل قبيلة، وتتشكل بذلك مجتمعاً صغيراً يخضع فيه الجميع لأوامر رئيس القبيلة وزعيمها، ولقد كان الجـامع بيـن افراد القبيلة هو الرابطة القومية، والوشيجة النسبية، وكانت هـذه القبائـل تختلف في عاداتها ورسومها، وتقاليدها وأعرافها، اختلافاً كبيراً، وإذ كانت كل قبيلة تعتبر القبائل الاخرى غريبة عنها لذلك كانت لا تقيـم للآخريـن وزناً ولا قيمة، ولا تعترف لهم باي حق أو حرمة .

ولهذا كانت ترى الإغارة على الآخرين وقتلهم، ونهب أموالهم، وسلب ممتلكاتهم وسبي نسائهم من حقوقها القانونية المشروعة، اللّهم إلاّ أن يكون بين القبيلة، والقبيلة الأُخرى حلف أو معاهدة .

هذا من جانب .

ومن جانب آخر كانت القبيلة الّتي تتعرض للإغارة من جانـب قبيلـة أُخرى ترى من حقها أن ترد الصاع صاعين، تقتـل كـل أفـراد القبيلـة المغيرة، لأن الدم ـ في نظرهم ـ لا يغسله الا الدم!!!

ولقد تبدلت أخلاقيةُ العرب هذه بعد انضوائهم تحـت لـواء الإسـلام الحنيف، بل تحولوا من نمط الحكومة القبلية المتخلفة والنـ ظام العشـائري الضيق هذا، إلى حكومة عالمية، واستطاع رسولُ الإسلام ـ ـ صـلى الله عليه وآله وسلم ـ ان يؤلف من القبائل العربية المتفرقة أُمة واحدة .

ولا شك أن تأليف أُمة واحدة من قبائل وجماعات اعتادت طوال سنين مديدة من التاريخ على التناحر والتنازع، والتخاصم والتقاتـل، والتهاجـم والإغارة في ما بينها، واستمرأت سفك الدماء، وإزهاق الارواح، وذلك في مدة قصيرة، عملٌ عظيم جداً، ومعجزة اجتماعية لا نظير لها، لأن مثلَ هذا التحول العظيم إذا أُريد لَه أن يتم عبر التحولات والتطورات العادية لاحتاج

إلى تربية طويلة الامد، ووسائل لا تحصى كثرة .

(٨٥)

يقول «توماس كارليل» في هذا الصدد: لقد اخرج اللّه العرب بالإسلام من الظلمات إلى النور، وأحيى به منها امة خاملة لا يسمع لها صوتٌ ولا يحس فيها حركة، حتّى صار الخمولُ شُهرة والغموض نباهـة والضعـة رفعة والضعف قوة، والشرارة حريقاً، وشمل نوره الأنحاء وعـم ضـوؤه الأرجاء ما هو إلا قرن بعد إعلان هـذا الـدين حتّـى أصـبح للعـرب (المسلمين) قدم في الهند واخرى في الاندلس[١] .

وإلى هذه الحقيقة يشير ايضاً مؤلف تاريخ اللغـات الساميـة الشهيـر «رينان» قائلا: «لا مكان لبلاد العرب في تاريخ العالم السياسي والثقافـي والدينى قبل ذلك الانقلاب المفاجىء الخارق للعادة الّذي صار به العـرب أمة فاتحة مبدعة ولم يكن لجزيرة العرب شأن في القـرون الأولـى مِـن الميلاد، حين كانت غارقة في دياجير ما قبل التاريخ»[٢] .

أجل إن هذه القبائل العربية الجاهلية المختلفة المتناحرة لم تكن تعيـش أية حضارة، ولم تمتلك اية تعاليم وقوانين، وأنظمـة وآداب قبـل مجـيء الإسلام، لقد كانت محرومة من جميع المقومات الإجتماعية الّـتي توجـب التقدم والرقي، ولهذا لم يكن من المتوقع ابداً ان تصل إلـى تلـك الـذرى الرفيعة من المجد والعظمة، ولا أن تنتقل من نمط الحياة القبلية الضيقة إلى عالم الإنسانية الواسع، وأفق الحضارة الرحيب بمثل هذه السرعـة الّتـي وصلت إليه والزمن القصير الّذي انتقلت فيه .

إن مثّل الشعوب والأمم البشرية مثل المباني والعمارات تماماً .

فكما أن البناء القوي الراسخ يحتاج إلى مواد انشائية قوية معدة باتقـان

ومحضرة باحكام حتّى يستطيع البناء المصنـوع مـن هـذه المـواد، والمؤسس بعناية وهندسة متقَنة من الوقوف في وجه الأعاصير، والأمطار الغزيرة كذلك يحتاج كيان كل أُمة رشيدة من الأُمم إلـى أُسـس وقواعـد محكمة (وهي الأُصول والآداب الكاملة، والأخـلاق الإنسانيـة العاليـة) لتستطيع من البقاء والتقدم .

---

١ - الخطط الاستعمارية لمكافحة الإسلام: ص ٣٨، والإسلام والعلم الحديث: ص ٣٣ .
٢ - حضارة العرب: ص ٨٧ .

ولهذا السبب لابد من التأمل في أمر وسر هذه الظاهرة العجيبة ولابـد أن نتساءل:

كيف تحقق ذلك التطور العظيم، وذلك التحول العميق للعرب الجاهلية، ومن اين نشأ؟؟

كيف امكن ان تتحول جماعة متشتتة، متعادية، متناحرة، متباغضة، في مابينها، بعيدة عن النظم الإجتماعية، بمثل هذه السرعة إلى أُمـة متآلفـة متاخية متعاونة متسالمة متحابة، وتشكل دولة قوية كياناً سياسـياً شـامخاً أوجب أن تخضع لها دول العالم وشعوبه، وتطيعهـا، وتحـترم مبادءهـا واخلاقها وآدابها آنذاك .

حقاً لو كان في مقدور العرب أن يحرزوا ذلك التقدم الهائل بفعل عامل ذاتي فلماذا لم تستطع عرب اليمن الّذين كانوا يمتلكون شـيئاً كبـيراً مـن الثقافة والحضارة، والذين عاشوا الانظمة الملكية سنيناً عديدة، بل وربـت

في احضانها ملوكاً وقادة كباراً، أن تصل إلى مثل هذه النهضة العظيمة الشاملة، وتقيم مثل هذه الحضارة العريضة الخالدة .

لماذا لم تستطع العرب الغساسنَة الذين كانوا يجـاورون بـلاد الشـام المتحضرة، ويعيشون تحت ظلّ حضارة «الروم» أن يصلـوا إلـى هـذه الدرجة من الرشد؟

لماذا لم تستطع عرب الحيرة الذين كانُوا ـ وإلى الامـس القريـب ـ يعيشون في ظلّ الامبراطورية الفارسية أن ينالوا مثل هذا الرقي والتقـدم؟ وحتّى لووصلوا إلى هذه الدرجة من التقدم وحققوا هذه القفزة فانه لم يكـن أمراً يثير العجب لأنهم كانوا يعيشون في أحضان مدنيات كبرى، ويتغذون منها، ولكن الّذي يثير الدهشة، والعجب هو أن تستطيع عرب الحجاز مـن تحقيق هذه النهضة الباهرة، ويرثوا الحضارة الإسلامية العظمى وهم الذين كانوا يفتقرون إلى أبسط مقومات الحضارة الذاتية، ولم يكن لهم عهد بـأي تاريخ حضارى مشرق، بل كانُوا كما عرفت يرزحون تحت أغلال الوهـم والتخَيل، ويسيرون في ظلمات الخرافات والأساطير .

* * *

(٨٧)

دُوَل الحيرة وغسّان:

على العموم كانت المناطقُ ذاتُ المناخ الجيد من الجزيرة العربية حتّى آخر قرن قبل الإسلام تحت سيطرة ثلاث دول كـبرى هـي: «ايـران»، «الروم»، «والحبشة».

فالشرق والشمال الشرقي من هذه المنطقة كانت تحت حماية «ايران» .

والشمال الغربي كان تابعاً للروم .

والمناطق المركزية والجنوب كانت تحت نفوذ «الحبشة» .

وعلى أثر مجاورة هذه المناطق للدول المتحضرة المذكورة، وما كـان بينها من نزاع وتنافس دائمين ظهرت في المنـاطق الحدوديـة للجزيـرة العربية دول شبه متحضرة، وشبه مستقلة كان كلُّ واحدة منها تابعـة فـي حضاراتها لدولة متمدنة عظمى تجاورها .

وقد كانت دول «غسان»، و «الحيرة» «وكنده» من هذه الـدول شـبه المستقلة وشبه المتمدنة، وكانت كلُّ واحدة منها تابعة لاحدى الدول العظمى آنذاك: «ايران»، «الروم»، «الحبشة» .

الحيرة: يتبين من الآثار والأخبار أنه هاجرت ـ فـي أوائـل القـرن الثالث بعد الميلاد ـ بعض الطوائف العربية، وذلك فـي نهايـات الحكـم الأشكاني، إلى الأراضي المجاورة للفرات، وسيطروا علـى قسـم مـن أراضي العراق، وقد أوجدت هذه الجماعةُ المهاجرةُ القرى والقلاع هناك، شيئاً فشيئاً، وأحدثت المدن الّتي مِن أهمها: «الحيرة» الّتي كانت تقع علـى حافة صحراء بالقرب مِن مدينة الكوفة الحالية .

وقد كانت هذه المدينة ـ وكما يظهر من إسمها ـ في بداية أمرها قلعة (لأن الحيرة تعني في اللغة السريانية: الدير وما يشبهه) يسكنها العرب ثـم تطورت شيئاً فشيئاً إلى مدينة.

وقد ساعد مناخها الجميل، والمياه الوافرة الّتي تأتي اليها من الفـرات، وجودة

الأحوال الطبيعية الأُخرى إلى أن تجتذب اليها أصـحاب الصحـراء، وسكان البوادي، والقفار، كما واستطاعت هذه المدينة وبفضل مجاورتهـا

للحضارة الفارسية إن تكتسب من ثقافتها ومدنيتها ما أفاض عليها لوناً من الحضارة والمدنية، وقد بنيت بالقرب مـن «الحـيرة» قصـور مثـل «الخورنق» الّذي اضاف إلى هذه المدينة جمالا وبهاء خاصين، وقد تعرف العرب الساكنون في هذه المنطقة على الخط والكتابة، ويمكـن ان تكـون الكتابة والقراءة قد سرتا منها إلى بقية مناطق الحجاز ومدنها[١] .

ولقد كان ملوك «الحيرة» وأمرأوها من اللخميين العرب يؤيدون مـن قِبل الدولة الإيرانية بقوة، وسبب هذا التأييد، والحماية الايرانيـة لأُمـراء الحيرة وملوكها كان يكمن في أن ملوك إيران ـ آنذاك ـ كانوا يريدون أن تكون الحيرة سداً، وحاجزاً بينهم وبين عرب البادية، يدفعون بهـم خطـر الغزاة من أهل الصحارى على الحدود الإيرانية .

ولقد سجلَ التاريخُ أسماء هؤلاء الأُمراء؛ وقد نظم «حمزة الاصفهاني» فهرستاً بأسمائهم، وجدولا بأعمارهم ومدد حكوماتهم، ومن كان يعاصرهم من ملوك بني ساسان الإيرانيين[٢] .

ومهما يكن الأمر فإن دولة اللخميين العرب كانت من أكبر الحكومـات العربية شبه المتحضرة في منطقة الحيرة، وكان آخر ملوك هذه السلسلـة هو «النعمان بن المنذر» صاحب القصة التاريخية الّتي تتضمن خلعه مـن الحكم، وقتله بواسطة الملك الايراني:«خسرو برويز»[٣] .

غَسان: في أوائل القرن الخامس أو اوائل القرن السادس الميلادي هبط جماعة من المهاجرين اليمنيين في الشمال الغربي ـ أقصى نقاط الجزيرة العربية ـ وفي جوار الإمبراطورية الرومية، وأسسوا دولة الغساسنة، وقد كانت هذه الدولة

١ - فتوح البلدان للبلاذري: ص ٤٥٧ .
٢ - سِنى ّ ملوك الأرض: ص ٧٣ ـ ٧٦ .
٣ - الأخبار الطوال: ص ١٠٩ .

تحت حماية الروم، وكان ملوكُها ينصبون من جانـب إمبراطوريـات «قسطنطينية» مباشرة، تماماً كما كان ملُوك «الحيرة» ينصبون من جانـب ملوك ايران .

ولقد كانت دولة الغساسنة متحضرة نوعاما، وحيث أن مراكز حكمهـا كانت قريبة من ناحية إلى «دمشق» ومجاورة لـ : «بصرى» مركز القسم الرومي من الجزيرة العربية من ناحية أخرى، لذلك تأثرت بحضارة الروم تأثراً كبيراً وبالغاً .

ولقد كان الغساسنة متحالفين مع الروميين بسبب ما كان بينهـم وبيـن ملوك الحيرة اللخميين العرب والايرانيين من الاختلاف والنزاع، ولقد حكم في دولة الغساسنة تسعة أو عشرة من الأمراء والملوك تباعاً .

الدين في أرض الحجاز:

لقد كان الدين الرائج في الحجاز هو الوثنية، وعبادة الاصنام.

نعم كانت هناك أقليات دينية يهودية تقطن في يثرب (المدينة فيما بعد) وخيبر، كما انه كان هناك من يتبع المسيحية وهم سـكّان نجـران، البلـد الحدودي لليمن والحجاز .

وكان الدين الرائج في المناطق الشمالية من الحجاز (إي الشام حاليـاً) هو المسيحية بسبب مجاورة هذه المنـاطق للـروم وخوضـعها للسيـادة الرومية .

ولو أننا استثنينا من الحجاز هذه المناطق الحساسة الثلاث لما وجدنا في بقية مناطق الحجاز إلاّ الوثنية في أشكال مختلفة، واعتقادات متنوعة، اللّهم إلاّ بضع افراد كان عددهم لا يتجاوز عدد أصابع اليد ممن يسمون بالاحناف كانوا على دين التوحيد، وكان عددهم بالنسبة إلى الاكثرية الساحقة من العرب الوثنيين قليلا جداً[1] .

فمنذ زمن النبي «إبراهيم» الخليل وابنه «اسماعيل» ـ عليهما السلام ـ دخل

---

١ - السيرة النبوية: ج ١، ص ١٢٢ و ١٢٣ .

التوحيد، ودخلت بعض التعاليم الأخلاقية والدينية إلى أرض الحجاز، وكان الحج وأداء مناسكه إحتراماً للكعبة الشريفة هو أحد هذه التعاليم والسنن الّتي دخلت مع «الخليل» إلى هذه المنطقة، ثم إن رجلا من قبيلة «خزاعة» يسمى «عمرو بن لحي» الّذي كانت زعامة مكة قد عهدت إليه، أدخل عبادة الاوثان في مكة في ما بعد، وذلك عندما سافر هذا الخزاعي إلى بلاد الشام فوجد قوماً من العمالقة يعكفون على تماثيل جميلة النقش والمنظر يعبدونها، ويؤلّهونها، فقال لهم: ما هذه الأصنام الّتي اراكُم تعبدون؟؟ قالوا له: هذه اصنام نعبدها فنستمطرها فتمطرنا، ونستنصرها فتنصرنا، فقال لهم: أفلا تعطونني منها صنماً فاسير به إلى ارض العرب فيعبدوه؟؟ فأعطوه صنماً، وهكذا استحب عملهم، وجلب معه إلى مكة صنماً جميلُ النقش والنحت يدعى «هبل» فنصبه ودعا الناس إلى عبادته، وتعظيمه .

وهكذا دخلت الوثنية إلى «مكة» المكرمة، واصبحت عبـادة الاوثـان والاصنام عبادة رائجة في تلك الديار[1] .

واشهر اصنام العرب هي:

١ ـ هبل وكانت أعظم اصنام العرب الّتي في جوف الكعبة .

٢ ـ اساف .

٣ ـ نائلة وكانت هي واساف على موضع زمزم ينحرون عندهما .

٤ ـ اللات وكانت لثقيف بالطائف .

٥ ـ العزى وكانت بنخلة الشامية، وكانت لقريش وبني كنانة .

٦ ـ منات وكانت للاوس والخزرج ومن ذهب مذهبهم من أهل يثرب .

٧ ـ عميانس وكان بأرض خولان يقسمون له من أنعامهم وحروثهم .

٨ ـ سعد .

---

١ - السيرة النبوية: ج ١، ص ٧٨ ـ ٨١، والعمالقة هم طائفة من العرب عاشوا وسادوا ثمّ بادوا قبل الإسلام .

٩- ذوالخلصة وكانت لدوس وخثعم وبجيلة .

١٠- مناف[1] .

ولقد كانت هذه هي أشهر أصنام العرب علاوة على الأصنام الأخـرى غير المعروفة الّتي كانت تختص بطائفـة دون أخـرى، أو بعائلـة دون عائلة .

العلم والثقافة في الحجاز:

كان أهلُ الحجاز يوصفون بالأميين، والأمى هو من لم يتعلـم القـراءة والكتابة فهو كمن ولدته أمه، أو هو باق في عدم العلم بـالقراءة والكتابـة على الحالة الّتي ولد فيها من أمه .

ولأجل أن نعرف مدى ما كان عليه العلم والثقافة عند العرب من القيمة يكفي أن نعلم بأن عدد الذين كانوا يعرفون القراءة والكتابة بين قريش إلـى ما قبل ظهور الإسلام لم يكن يتجاوز (١٧) شخصاً في مكة و (١١) نفـراً فقط من بين الأوس والخزرج في المدينة[٢] .

إذا لاحظنا هذا التخلف والانحطاط في مجال العلم والثقافة فـي البيئـة العربية الجاهلية يتضح لنا مدى تأثير الإسلام، وادركنـا عظمـة التعاليـم الإسلامية فـي جميـع الحقـول الاعتقاديـة والاقتصاديـة والأخلاقيـة والثقافية،ولابد في تقييم الحضارات أن نطالع وندرس الحلقة السابقة، ثـم نقيم الحلقة التالية في ضوء ذلك، وفي هذه الصورة نقف على عظمة تلـك الحضارة الحقيقية[٣] .

---

١ - راجع الأصنام للكلبي، والمحبر: ص ٣١٥ ـ ٣١٩ .
٢ - فتوح البلدان: ص ٤٥٧ ـ ٤٥٩ .
٣ - للوقوف على معلومات أوسع واكثر حول عقائد مختلف طوائف المجتمع العربي الجاهلي، وثقافتها وتقاليدها راجع الكتابين التاليين:
ألف: «بلوغ الارب في معرفة أحوال العرب» تأليف السيد محمود الآلوسي المتوفى عام ١٢٧٠ هجري قمري .

باء: «المفصَّل في تاريخ العرب قبل الإسلام» تأليف الأُستاذ جواد علي، وهذا الكتاب أُخرج في (١٠) مجلدات، وقد بُحثَ فيها كل ما يرتبط بحياة العرب في العهد الجاهلي .

جعفر بن ابي طالب يصف العهد الجاهلي:

ويشهد بذلك أيضاً ما قاله جعفر بن أبي طالب عند النجاشي ملك الحبشة عندما اراد مَبعوثاً قريش استعادتَهما إلى مكة:

أيّها الملك، كُنّا قوماً أهلَ جاهِليَّة، نعبدُ الاصنام، ونأكلُ الميتة، ونأتي الفواحِشَ، ونقطعُ الأرْحام، ونسيء الجوار ويأكلُ القوىُ مِنّا الضعيف، فكنّا على ذلك، حتّى بعث اللّه إلينا رسولا منّا نعرف نسبَه وصدقَه وأمانَتَه وعفافَه، فدعانا إلى اللّه لنوحِّده ونعبده، ونخلعُ ما كنّا نعبدُ نحنُ وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان وأمرَنا بصدق الحديث وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وحُسْن الجوار، والكفِّ عن المحارم والدّماء، ونَهانا عن الفَواحِش وقول الزُور، وأكل مالِ اليَتيم، وقذفِ المحصَنات، وأمَرنا أنْ نَعبُدَ اللّه وَحدَهُ لا نشركُ بِهِ شيئاً، وأمَرَنا بِالصّلاةِ والزّكاةِ والصِيام قالت: فعدّد عليه امور الإسلام حتّى قال: وصدّقناه، وآمَنّا به واتَّبْعناهُ على ما جاء به من اللّه فعبدنا اللّه وحدَه فلم نشرك به شيئاً وحرَّمنا ما حرّمَ عَلَيْنا وأحللنا ما أحلَّ لنا، فَعدا علينا قومَنا فَعذَّبُونا وفنونا عن ديننا ليردُّونا إلى عبادة الأوثان مِنْ عِبادَة اللّه تعالى، وأنْ نَسْتَحِلَّ ما كنا نَستحِلَّ من الخَبائث[١] .

---

١ - السيرة النبوية: ج ١، ص ٣٣٥ و ٣٣٦. والحديث عن أُمّ سلمة .

الإمام علىّ يصف العهد الجاهلىّ:

وقد وصف الإمام على أميرالمؤمنين ـ عليه السلام ـ تلك الحالة في خطبه، وحيث أنه عاصر ذروة ذلك الوضع المأساوي ووصفه وصفاً دقيقاً لذلك ينبغي أن نقف عند كلامه قليلا ليتبين لنا جيداً ما كان عليـه العـرب إبان عهد الرسالة الإسلامية المباركة:

قال ـ عليه السلام ـ في الخطبة (الثانية) من نهج البلاغة:

«... وأشْهد أن محمداً عبده و رسوله أرسلَه بالدين المشْهـور والعِلْـم الماثور والكِتاب المسطُور والنور الساطِع، والضِيـاء اللامـع، والأمـر

الصادع إزاحة للشُبهات واحتجاجاً بالبينات و تَحذيراً بالآيات، وتَخْويفاً بالمثلات[١] والناس في فتن انْجذَم[٢] فيها حبلُ الدين، وتزعزعتْ سواري[٣] اليقْين واْختَلَفَ النَجر[٤]، وتَشتتَ الأمر وضاقَ المخْرج، وعمِى المصدر فالهدى خامِلٌ، والعمى شامِلٌ، عصِي الرحمان و نُصِر الشَيط ـان و خُ ـذِلَ الإيمان فَانْهارت دعائِمه،وتَنكرتْ معالِمه و درست[٥] سبلُه وعفَت شُركه[٦] أطاعوا الشَيطان فَسلكُوا مسالِكه، ووردوامناهِلَه[٧] بِهم سارتْ أعلامه، وقام لِواؤُه في فِتَن داستْهم بأَخْفافِها[٨] ووطَئَتْهم بِأَظْلافِها[٩] وقامتْ على سنابِكِها[١٠] فَهم فيها تئهون حائرون جاهِلُون مفْتُونُون في خَير دار وشَر جِي ـران نُومهم سهود و كُحلُهم دموع بأَرض عالِمها ملْجم وجاهِلُها مكرم.

وقال في الخطبة (التاسعة والثمانين) أيضاً:

«أرسلَه صلّى اللّه عليه وآله على حِين فَتْرة مِن الرسل و طُول هجعة من الأُمم واعتزام[١١] مِن الفِتَن وانْتِشار مِن الأُمور وتلظ[١٢] مِن الحروب والدنْيا

---

١ - المثلات: العقوبات .
٢ - انجذم: انقطع .
٣ - السواري: الدعائم .
٤ - النجر: الأصل .
٥ - درست: انطمست .
٦ - الشُرك: الطُرق.
٧ - المنهل: مورد النهر .
٨ - الخف: هو للبعير كالقدم للإنسان .
٩ - الظلف: للبقر والشاة كالخفّ للبعير والقدم للإنسان .
١٠ - السنابك: طرف الحافر .
١١ - اعتزم الفرس: إذا مرّ جامحاً .
١٢ - تلظّ: تَلَهُّب .

كاسِفَةُ النور ظاهِرةُ الغُرور على حين أصفِرار مِن ورقها وأياس مِـن ثَمرها واغْورار[١] مِن مائها قَد درست منار الْهدى و ظَهرتْ أعلام الردى فَهى متَجهمة[٢] لأهلِها عابِسةٌ في وجه طالِبها ثَمرهـا الفِتْنَـةِ و طَعامهـا الجيفَةُ[٣] وشعارها الخوفُ ودثارها السيفُ» .

و قالَ في الخطبة (السادسة والعشرين): «إن اللّه بعث محمداً ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ نَذيراً لِلعالَمِين وأمِيناً على التنْزيـل وانتُـم معشَـر العرب على شَر دين و في شَر دار مِنيخُون[٤] بين حِجارة خَشِن[٥] وحيات صم[٦] تَشربون الكَدِر وتَأكُلُون الجشِب[٧] و تَسفِكُون دِمـاءكُم وتقطعـون أرحامكُم الأصنام فيكُم منْصوبة و الآثام بِكُم معصوبة[٨]».

وقال ـ عليه السلام ـ في الخطبة (الثالثة والثلاثين): «إن اللّه بعـثَ محمداً ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ وليس أحد مِن العرب يقرأ كِتاباً ولا يدعي نُبوة فساق الناس حتّى بوأهم محلتهم[٩] و بلغهم منجاتَهم فَاسـتقامتْ قَناتُهم[١٠] واطمأنت صفاتُهم» .

وقال في الخطبة (الخامسة والتسعين) أيضاً :

«...بعثَه صلّى اللّه عليه وآله والنّاس ضلالٌ في حيرة وحاطِبون فـي فِتْنَة قَد استَهوتْهم الأهواء واستَزلتْهم الْكِبريـاء واسـتَخَفتْهم[١١] الجاهِليـةُ الجهلاء حيارى في زلْزال مِن الأمر و بلاء مِن الْجهل فَبالَغَ ـ صـلى الله عليه وآله وسلم ـ في النصِيحةِ و مضى على الطريقَةِ و دعا إلى الْحِكْمةِ و الْموعِظَةِ الْحسنَةِ».

وقال ـ عليه السلام ـ : في الخطبة (السادسة والتسعين) أيضاً:

«... مستَقَرّه خَير مستَقَر و منْبتُه أشْرفُ منْبت في معادِن الْكَرامـة و مماهِدِ[12] السلامةِ قَد صرفَتْ نَحوه أفْئدةُ الأبـرار و ثُنيـتْ إلَيـهِ أزمـةِ الأبصار دفَن

---

١ - اغورار الماء: ذهابه.
٢ - تجهّمه: استقبله بوجه كريه .
٣ - إشارة إلى أكل العرب للميتة من شدة الاضطرار .
٤ - منيخون: مقيمون .
٥ - الخُشّن: جمع خشناء من الخشونة .
٦ - الُصمّ: الّتي لا تسمع لعدم انزجارها بالاصوات .
٧ - الجشِب: الطعام الغليظ .
٨ - معصوبة: مشدودة .
٩ - بَوّأهم محلَّهُمْ: أنزلَهم منزلتهم .
١٠ - القناة: العود كناية عن القوة .
١١ - استخفّتهم: طيّشَتْهُمْ .
١٢ - الممهَد: ما يُبسَط فيه الفراش .

اللّه بِهِ الضغائِن و أطْفَأ بِهِ الثوائر[1] ألف بِه إخْواناً و فَرقَ بِهِ أقْرانـاً أعز بِهِ الذّلة و أذَل بِهِ الْعِزة كلامه بيان و صمتُه لِسان» .

وقال ـ عليه السلام ـ في الخطبة (١٥١) أيضاً :

«... أضاءتْ بِه ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ البلاد بعـد الضلالـةِ المظْلِمةِ والْجهالَةِ الغالِبةِ والْجفْوة الْجافِيةِ و النّـاس يستَحِلـون الْحـريم و يستَذِلون الْحكِيم يحيون على فَتْرة[2] و يموتُون على كفْرة» .

وقال في الخطبة (١٩٨):

«.. ثُم إن اللّه سبحانَه بعثَ محمداً ـ صلى الله عليه وآلـه وسـلم ـ بِالْحق حِين دنا مِن الدنْيا الإنْقِطاع و أقْبلَ مِن الاخِرة الإطّلاع[٣] و اظْلَمتْ بهجتُها بعد إشْراق و قامتْ بأهلِها على ساق و خَشُن مِنها مِهاد[٤] و أزفَ[٥] منها قياد في انْقِطاع مِن مدتها واقْتِراب مِن أشْراطِها[٦] و تَصـرم[٧] مِن أهلِها وانْفِصام[٨] مِن حلْقَتِها و انْتِشار[٩] مِن سببها وعنـاء[١٠] مِـن أعلامِها و تَكشف مِن عوراتِها و قِصر مِن طُولِها» .

وقال ـ عليه السلام ـ في الخطبة (٢١٣):

«أرسلَه بِالضياء و قدمه في الأصطِفاء فَرتَق[١١] بـه المفـاتِقَ[١٢] و ساور[١٣] بِه المغالِب وذَالَ بِه الصعوبة و سهل بِهِ الحزونَـةَ[١٤] حتّـى سرح الضلالَ عن يمين و شِمال».

وقال في الخطبة (١٩١):

«و اشهد أن محمداً عبده و رسولُه ابتَعيه و النّاس يضربون في عَمرة[١٥] و يموجون في حيرة قَدقادتْهم أزمةُ الحين[١٦] و استَغْلَقَتْ على أفْئدتِهم أقْفالُ الرين»[١٧] .

---

١ - الثائرة: العدواة .
٢ - على فترة: على خلوّ من الشرائع .
٣ - الاطّلاع: الإتيان .
٤ - خشونة المهاد: كناية عن شدّة آلام الدنيا .
٥ - ازف: قرب .
٦ - الشَرط: العلامة .
٧ - التصرّم: التقطّع .
٨ - الانفصام: الانقطاع .

٩ - انتشار الأسباب: تبدّدها حتّى لا تُضبّط .
١٠ - عفاء الأعلام: اندراسها .
١١ - رتق: سدّ به الفتق.
١٢ - المفاتق: مواضع الفتق .
١٣ - ساور: ثاوبَ .
١٤ - الحزونة: غلظ في الارض .
١٥ - الغَمرة: الماء الكثير .
١٦ - الحين: الهلاك .
١٧ - الرين: التغطية .

فاطمة الزهراء تصف الوضع الجاهلي:

وقد وصفت السيدة فاطمة الزهراء بنتُ رسول اللّه ـ صلى الله عليـه وآله وسلم ـ العهد الجاهلي بمثل ذلك إذ قالت في خطبتها أمام أبي بكـر والمسلمين[١] :

«فَبلغَ (اي رسولُ اللّه) بالرسالة صادِعاً بالنذارة[٢] مائلا على مدرجـةِ المشْركين ضارباً ثَبجهم[٣] آخِذاً بأَكْظامِهم داعِياً إلى سبِيل ربه بِالحِكْمـةِ و الْموعظَةِ الْحسنَةِ يكْسِر الأصنام و ينْكُثُ الهام[٤] حتّى انْهزم الجمع و ولوا الدبر حتى تَفَرى الليلُ عن صبحِهِ و أسفَر الحقُ عن محظِـهِ[٥] و نَطَـقَ زعيم الدين و خَرستْ شَقاشقُ[٦] الشيـاطين وأطـاح و شِـيظُ[٧] النفـاق وانحلتْ عقَد الْكُفْر والشقاق و فُهتُم بِكَلِمةِ الاخْلاص في نفَر مِـن البيـض الْخِماص و كُنْتُم على شَفا حفْرة مِن النّار مذْقَـةَ[٨] الشّـارب و نُهـزة[٩] الطامِع وقَبسةِ العِجلان[١٠] و موطىء الأقْدامِ تَشْربـون الطَـرقَ[١١] . و تَقْتاتُون القِد[١٢] والورق أذِلةً خاسِئين تَخافُون أن يتخَطفَكُـم النّـاس مِـن حولِكُم فَأَنْقَذكُم اللّه تَعالى بِمحمد بعد اللتَيا و التي بعد أن مِنـى بِبهـم[١٣] الرجال و ذُؤبان الْعرب و مردة أهل الْكِتاب[١٤] كُلما أوقَدوا ناراً لِلْحـرب

أطْفَأها اللّه، أو نجم[١٥] قَرن الشيطـان أو فَغـرت[١٦] فـاغِرةً مِـن المشركين، قَذَفَ أخاه في لَهواتِها[١٧] فَلا ينْكَفِىء[١٨] حتّى يطَـا صِـماخَها بأخْمصِهِ» .

---

١ - شرح نهج البلاغة لابن ابي الحديد وبلاغات النساء وغيرهما .
٢ - النذار: الأنذار .
٣ - الثبج: الكاهل .
٤ - الهامة: الرأس .
٥ - المحض: الخالص .
٦ - الشقشقة: شيء يشبه الرئة يخرج من فم البعير أذا هاج .
٧ - الوشيظ: الأتباع والخدم .
٨ - المذقة: شربة من اللبن الممزوج بالماء .
٩ - النهزة: الفرصة .
١٠ - قبسة العجلان: الشعلة من النار الّتي يأخذها الرجل العاجل .
١١ - الطرق: الماء الّذي خوضته الابل وبوّلت فيه .
١٢ - القد: قطعة جلد غير مدبوغ .
١٣ - البهمة: الشجاع الذى لا يهتدي من أن يؤتى .
١٤ - المارد: العاتي .
١٥ - نجم: طلع .
١٦ - فَغرت: فتحت .
١٧ - اللهاة: اللحمة المشرفة على الحلق في أقصى الفم .
١٨ - ينكفىء: يرجع .

جعفر بن ابي طالب يصف العهد الجاهلي:

ويشهد بذلك أيضاً ما قاله جعفر بن أبي طالب عنـد النجاشـي ملـك الحبشة عندما اراد مبعوثاً قريش استعادتَهما إلى مكة:

أيها الملك، كُنّا قوماً أهلَ جاهِلية، نعبد الاصنام، ونأكلُ الميتة، ونأتـي الفواحِشَ، ونقطع الأرحام، ونسيء الجوار ويأكلُ القوى مِنّا الضعيف، فكنّا على ذلك، حتّى بعث اللّه إلينا رسولا منّا نعرف نسبـه وصـدقه وأمانَتَـه وعفافَه، فدعانا إلى اللّه لنوحده ونعبده، ونخلع ما كنّا نعبد نحن وآباؤنا من

دونه من الحجارة والأوثان وأمرنا بصدق الحديث وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وحسن الجوار، والكف عن المحارم والدماء، ونَهانا عن الفَواحِـش وقول الزور، وأكل مال اليتيم، وقذفِ المحصناتِ، وأمرنا أن نَعبد اللّـه و حده لا نشرك بِهِ شيئاً، وأمرنا بالصلاةِ والزكاةِ والصِيام قالت: فعدد عليـه امور الإسلام حتّى قال: وصدقناه، وآمنّا به واتبعناه على ما جاء به من اللّه فعبدنا اللّه وحده فلم نشرك به شيئاً وحرمنا ما حرم علَينا وأحللنا ما أحـل لنا، فَعدا علينا قومنا فَعذبونا وفتنونا عن ديننا ليردونا إلى عبادة الأوثان مِن عِبادة اللّه تعالى، وأن نَستَحِل ما كنا نَستحِل من الخَبائث[1] .

---

١ - السيرة النبوية: ج ١، ص ٣٣٥ و ٣٣٦. والحديث عن أُمّ سلمة .

٣ ـ إمبراطوريّتا الرُوم وإيران إبّان عهدِ الرِّسالةِ

للوقوف على أهمية النهضة الإسلامية المباركة الّتي تحققت على يـدي النبى الاكرم ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ بعد ارساله من جانـب اللّـه تعالى وقيمتها، تكتسب دراسة بيئتين إجتماعيتين اهمية قصـوى، وتلِـك البيئتان هما:

١- بيئةُ نزول القرآن الكريم، أي البيئة الّتي ظهـر فيهـا الإسـلام، وترعرع ونمى .

٢- البيئة العالمية (خارج الجزيرة العربية)، ويعرف ذلك بدراسة عقائد الناس وافكارهم في اكثر مناطق العالم ـ يومذاك ـ مدنيـة وحضـارة، ومطالعة آدابهم وأخلاقهم وتقاليدهم، وأعرافهم، ومدنياتهم الّتي كانت تعتبر أفضل الأفكار والمدنيات، وأرقى الحضارات، والأوضاع آنذاك .

ولقد كانت بيئتا: الامبراطورية الرومانية، والإمبراطورية الإيرانية ألمع نقطة في ذلك اليوم ـ كما يدلنا التاريخ على ذلك. ولابد أسـتكمالا لهـذا البحث من دراسة الأوضاع في هاتين الإمبراطوريتين، في مناطقها، ومن نواحيها المختلفة، لنقف من هذا الطريق على قيمة الحضارة الّتي اتى بهـا الإسلام، ونعرف ذلك بوجه أفضل .

* * *

أوضاع الروم ابان عهد الرسالة:

ان أوضاع الروم لم تكن بأقل سوء من أوضـاع منافستهـا «ايـران»

فالحروب الداخلية من جانب والمعارك الخارجية المستمرة مع «ايران» وصراعها الدائم المستمر مع الاخيرة على منطقة «ارمينية» وغيرها كـل ذلك كان يهيء الناس في تلك البلاد للقبول بثورة جديدة يضع حداً لمآسيهم ومحنهم.

ولقد كان للاختلافات والمنازعات الطائفية والمذهبية النصيب الاكبـر والأوفر في توسيع رقعة هذه الاختلافات، والمنازعات.

فالحرب لم تتوقّفْ أبداً بين الوثنيين والمسيحيين ولم تنطفىء شـرارتها يوماً ابداً.

فكان إذا غَلَب رجالُ الكنيسة على دست الحكم وأخذوا بمقاليده مارسوا أشد أنواع الضغط والأضطهاد بحق خصومهم ومنافسيهم الأمر الّذي كـان يساعد على إيجاد أقلية ناقمة من جهة، كما ويمكن اعتبـار ذلـك عامـلا مساعداً من جهة أُخرى على تهيئة الشعب الروماني لاحتضـان الـدعوة الإسلامية، وتقبلها .

لقد كان حرمان طوائف كثيرة ومختلفة ناشئاً مـن ممارسـات رجـال الكنيسة الخشنة ومواقفهم المتزمتة .

هذا مضافاً إلى أن اختلاف القساوسة والرهبان النصارى فيما بينهم من جهة، وتعدد المذاهب من جهة اخرى كان يعمل على التقليـل مـن هيبـة الامبراطورية الرومانية وجرها إلى الضعف والوهن المتزايد يومـاً بعـد يوم .

هذا بغض النظر عن أن البيض والصفر من سكّان الشمال والمشـرق كانوا يفكّرون في السيطرة على المناطق الغنية من أوربة، وربمـا ألحـق أحدهما بالآخر خسائر فادحة وباهضة في الصرعات والمصادمات الّتـي

كانت تقع بينهما. وكان هذا هو نفسه السبب في أن تنقسم الامبراطوريةُ الرومية إلى معسكرين: المعسكر (أوالقسم الشرقي) والمعسكـر (أوالقسـم الغربي) .

ويعتقد المؤرخون أن أوضاع الروم السياسية، والاجتماعية والاقتصادية في القرن السادس كانت مضطربة، ومتدهورة جداً، حتّى أنهم لا يرون في غلبة

الروم وتفوقها على إيران شاهداً على قـدرتها العسكريـة، وتفوقهـا النظامي، بل يرون أن هزيمة إيران كانت بسبب الفوضى الّتي كان سـائدة انذاك في جهاز الحكم الايراني .

إن هاتين الدولتين اللتين كانتا تتربعان على عرش السيـادة والسياسـة العالمية في مطلع ظهور الإسلام كانتا تعيشان حالة سيئة مـن الفوضـى، والهرج والمرج، ومن البديهى أن مثل هذه الأوضاع كان مـن شـأنها أن توجد حالة من التهيؤ الكبير والظمأ الشديد إلى دين صـحيح يضـع حـداً ونهاية لتلك الحالة، ويعيد تنظيم حياتهم .

ظاهرة الجدل العقيم في المجتمع الرومي:

المتعارف أن يعمد جماعةُ مِن البطّالين والفسقة إلى طرح سلسلة مـن القضايا والمسائل الخاوية والنقاش حولها بهدف التوصـل إلـى أغـراض فاسدة، فيستهلكون بذلك أوقات الناس، ويهدرون أعمارهم على منحر الجدل العقيم .

وهي حالة لها مصاديق كثيرة وشواهد عديدة فـي كثـير مـن بـلاد المشرق، ولسنا بصدد التوسع فيه فعلا .

وقد كانت «الروم» تعاني يومئذ من مثل هذه الحالة اكثر من اي مكان آخر .

فقد كان ملوك الروم ورجال الحكم والسياسة تبعاً لمذاهب دينية كنسيـة يعتقدون بأن المسيح ذو طبيعتين ومشيئتين، ولكـن طائفـة أُخـرى مـن النصارى وهم «اليعقوبية» كانوا يقولون بانه: ذو طبيعة ومشيئة واحدة .

وقد وجهت هذه المسألة الباطلة نفسها، والجدل الواهي حولها ضـربة شديدة إلى وحدة الروم ومن ثم استقلالها، واحدثت في صـفوفها انشقاقـاً عميقاً حيث كانت السلطات الحاكمة تضطر إلى الـدفاع عـن معتقـداتها، ولذلك كانت تضطهد معارضيها، وتلاحقهم وهـذا الاضـطهاد والضغـطُ الروحى سبب في لجوء البعض إلى الدولة الايرانية، كما كان هؤلاء هـم الذين تركوا المقاومة عند

مواجهة الجيش الإسلامي، وألقوا السلاح، واسـتقبلوا جنـود الإسـلام بالاحضان .

كانت الروم تمر آنذاك بظروف اشبه مـا تكـون بظـروف القـرون الأُوربية الوسطى الّتي ينقل عنها «فلا ماريون» الفلكى الشهـير القضايـا التالية الّتي تدل على المستوى الفكرى والثقـافي لأُوربـة فـي القـرون الوسطى:

لقد كان كتاب «المجموعة اللاهوتية» المظهر الكامل للفلسفة المدرسية في القرون الوسطى، وقد بقي هذا الكتاب يدرس في أوربة خلال أربعمائة سنة ككتاب رسمي ومعترف به .

وقد كان من الأبحاث المطروحة في هذا الكتاب البحـث حـول عـدد

الملائكة الّتي يمكنها ان تستقر على راس إبرة؟! أو عدد الفراسخ بين العين اليسرى والعين اليمنى للاب الخالد؟! إلى غير ذلك من القضايا التافهة!!

إن الامبراطورية الرومية السيئة الحظ فيما كانت تعاني من الحروب الخارجية الكثيرة، كانت تعاني كذلك من النزاعات والاختلافات الداخلية ـ الّتي كانت ـ على الاغلب ـ تتصف بالصبغة المذهبية والطائفية ـ وكانت تدفع بالبلاد إلى حافة الهاوية، وتزيدها قربا إليها يوماً بعد يوم .

ولما رأى اليهود (وهي الزمرة الشريرة المتآمرة على الشعوب دائماً) تصاعد الاضطهاد والضغط الّذي يمارسه الامبراطورالمسيحي الرومي خطّطت لاسقاط ذلك النظام، فاحتلت مدينة انطاكية ذات مرة، ومثلت بأسقف أنطاكية الاكبر فصلموا أذنه، وجدعوا أنفه، فانتقمت حكومة الروم لهذه الجناية بعد مدة، وقتلت اليهود في انطاكية في مذبحة عامة .

وقد تكررت هذه الجرائم الفضيعة وهذه المذابح، والمذابح الانتقامية المضادة بين اليهود والنصارى عدة مرات، وربما سرت موجة الروح الانتقامية أحياناً إلى خارج البلاد، فمثلا اشترى اليهود من ايران ذات مرة ثمانين الف مسيحي ثم حزوا رؤوسهم انتقاماً وتشفياً.

من هذا يستطيع القارىء الكريم أن يقف على الصورة القاتمة للوضع السيء والمتردي الّذي كان عليه العالم إبان بزوغ شمس الإسلام، ويذعن ـ مع

المذعنين ـ بأن التعاليم الإسلامية الرفيعة التي انقذت العالم من ذلك الوضع المأساوي لم تكن أبداً وليدة الفكر البشرى وان نسيم الوحدة،

الناعشة، ونغمة السلام الّتي يهدف إليه الإسلام ويسعى إلـى تحقيقـه واقراره في الحياة البشرية ليس لها من مصدر إلا الغيب، إذ كيف يمكـن القول بان الإسلام الّذي يعترف حتّى للحيوانات بحق العيش والحياة نابـع من تلك البيئة المغرقة في القسوة والوحشية، وناشيء من ذلـك المحيـط المفحم بروح الانتقام والتشفي .

لقد أبطل الإسلام جميع تلك المجادلات العقيمة والمناقشات التافهة حول مشيئة عيسى وشخصيته، وقال في نعته ووصفه:

(ما المسِيح بن مريم إلاّ رسولٌ قَد خَلَتْ مِن قَبله الرسلُ وأُمه صِـديقةٌ كانا يأكُلان الطّعام)[1] .

إن هذه الآية انهت الكثير من أبحاث رجال الكنيسة الباطلـة الخاويـة حول «الروح» و «المسيح» ودمه، وشخصيته، وحقيقته، كما ان الإسـلام بفضل التعاليم الرفيعة، واحياء السجايا والملكات الفاضلة انقذ البشرية مـن المنازعات، الفارغة، والمذابح الفضيعة .

أوضاع إيران إبان عَهد الرسالة:

إن ما دفعنا إلى دراسة أوضاع الإمبراطورية الرومية هو نفسه يحتـم علينا أيضا دراسة اوضاع إيران يومذاك .

لقد صادف ظهور الإسلام وبعثة الرسول الكريم محمد ـ ـ صـلى الله عليه وآله وسلم ـ (٦١١ ميلادية) عهد السلطان الإيراني خسرو برويز (٥٩٠ ـ ٦٢٨ م)، و في عهد «خسرو برويز» هذا هاجر رسول اللّـه ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ من مكة إلى المدينة (الجمعـة ١٦ جـ ولاي ٦٢٢)، وصارت هذه الواقعة مبدء للتاريخ الإسلامي .

في هذه الأيام كانت الدولتان العظيمتان (الروم الشرقية وايران

١ - المائدة: ٧٥ .

الساسانية) تسيطران على معظم مناطق العالم المتحضر، ولـم تـزل هاتان الدولتان في نزاع مستمر وصراع دائم على مناطق النفوذ حتّى بعد ظهور الإسلام.

فقد بدأت حروب ايران والروم الطويله من عهد الساط ـان الإيرانـي أنوشيروان (٥٣١ ـ ٥٨٩ م) واستمرت إلى عهد الملك «خسرو بروي ـز» واستغرقت اربعاً وعشرين عاماً من الزمان[١] .

وقد سبب تحمل «ايران» و «الروم» للخسائر الكـبرى، فـي الارواح والثروات خلال هذه المعارك الطويلة في إضعاف تينك الدولتين، وتعطيل وشلّ قواهما بحيث لم يبق منهما إلاّ شبح دولتين لا اكثر .

ولكي نقف على الوضع العام في ايران آنذاك من جهاتـه المختلفـة، وابعاده المتنوعة وبصورة أفضل، يجب ان نلقي نظرة فاحصة على وضع الحكومات الّتي توالت على سدة القيادة الايرانية بعد حكـم «انوشـيروان» وحتّى بداية دخول المسلمين .

البَذخ والتَرف في البلاط الساساني:

كانت حياة الملوك الساسانيين تتسم عموماً بالبذخ والترف، والتشريفات الطويلة العريضة، وكان البلاطُ الساساني الفخم جداً يخلب ببريقه، بريـق العيون، ويسحر الافئدة والعقول .

وكان للايرانيين في عهد الساسانيين لواء يعرف بـ «درفش كاوياني» اي العلم الكاوياني نسبة إلى كاوه وهو بطل قومي إيراني أسطوري، وقـد كانوا يحملونه معهم في الحروب، أو ينصبونـه فـوق قصـورهم اثنـاء إحتفالات الساسانيين الكبرى، وقد كان هذا اللواء موشحاً ومزينـاً بأغلـى أنواع المجوهرات بلغت قيمتها التقديرية ـ حسب قول بعض الكتـاب: « ٠٠٠ / ٢٠٠ / ١» درهماً (أو ما يعادل

---

١ - تاريخ علوم وادبيات در ايران ص ٣ و ٤ وايران در زمان ساسانيان ص ٢٦٧ (باللغة الفارسية).

٠٠٠ / ٣٠ پوند) .

وقد بلغت مجموعة المجوهرات والاشياء الثمينة والتصاوير والرسـوم المحيرة للعقول الّتي كانت تكتض بها قصور الساسانيين من حيث الاهمية والقيمة حداً سحرت العيون وخلبت الالباب .

ولو أننا أردنا أن نقف على عجائب ما في تلك القصور، ومـا كانـت تحتوي عليه من غرائب الاشياء لكفانا أن نلقي نظرة واحدة إلى السجـادة البيضاء والكبيرة التي كانت مفروشة في احـدى صـالات بعـض تلـك القصور، وهي السجادة الّتي كانت تدعى بالفارسية بـ «بهارستان كسرى» وهو بساط كانوا يعدونه للشتاء إذا ذهبـت الريـاحين، فكـانوا إذا أرادوا الشرب وتعاطي الخمر فرشوه، وشربوا عليه فكأنهم في رياض وكان هذا البساط ستيناً في ستين أرضه بذهب ووشيه بفصـوص، وثمـره بجوهـر وورقه بحرير»[1]!!

وقيل أيضاً أن هذا البساط كان مئة وخمسين ذراعاً في سـبعين ذراع وكان منسوجاً من خيوط الذهب والمجوهرات الغالية جداً!!

وقد كان «خسرو برويز» أكثر الملوك الساسانيين ميلا إلـى الـترف، والبذخ، واتخاذ الزينة، وقد بلُغَت عدد نسائه وجواريه عدة الآف .

يقول حمزة الاصفهاني في كتاب «سنى ملوك الارض» واصفاً حالـة الترف والبذخ الّتي كان يعيشُها كسرى برويز: ثلاثة آلاف امـرأة، واثنـا عشر .

وجاء في تاريخ الطبري: أن «كسرى[٢] برويز» كان قد جمـع مـن الأموال ما لم يجمع أحد من الملوك، وكان أرغب النـاس فـي الجواهـر والأواني[٣] .

---

١ - تاريخ الطبري ج ٢، ص ١٣٠ .
وجاء في تاريخ الطبري: كانت هذه السجّادة ستين ذراعاً في ستين ذراعاً، بساطاً واحداً مقدار جريب فيه طرق كالصور، وفصوصٌ كالأنهار وخلال ذلك كالدَّير وفي حافاته كالأرض المرزوعة والأرض الميقلة بالنبات في الربيع من الحرير على قضبان الذهب، ونواره بالذَهب والفضّة!!
٢ - سنىّ ملوك الارض والأنبياء: ص ٤٢٠ .
٣ - تاريخ الطبري: ج ١، ص ٦١٦ .

الوضع الاجتماعي في ايران:

لم يكن الوضع الإجتماعي في عهد الساسانيين بأفضـل مـن الوضـع السياسي آنذاك أبداً، فقد بلغ الاختلاف الطبقي الّذي كان سائداً في ايـران منذ زمن بعيد اشده واقوى درجاته، واسوء حالاته في العهـد الاختـلاف

الساساني .

فطبقة النبلاء والكهنة كانت تتميز على بقية الطبقات تميزاً كاملا، فهـم يختصون بجميع المناصب الاجتماعية الحساسة والعليا، بينما حرم الكسبـة والمزارعون وبقية أبناء الشعب من كافة الحقوق الاجتماعية، ولم يكن لهم من واجب ودور في النظام إلا دفع الضرائـب الثقيلـة والمشاركـة فـي الحروب .

يكتب أحد الكتّاب الإيرانيين وهو الاستاذ سعيد نفيسي في هذا الصعيـد قائلا:

ان ما كان يثير روح النفاق بين الايرانيين اكثر هو سياسـة التمايـز الطبقي القاسي جداً الّذي كان الساسانيون يتبعونها في التعامل مع الشعـب، وكان لها جذور في العهود والحضارات السابقة، ولكنها بلغت ذورتها فـي العهد الساساني بالذات!!

ففي الدرجة الأُولى كان للعائلات السبع من النبلاء، ثم للطبقات الخمس إمتيازاتٌ خاصة حرمتْ منها عامة أبناء الشعب .

فالملكية كانت محصورة ـ تقريباً في تلك العائلات السبع مع العلم أن الشعب في العهد الساساني كان يقارب عدد نفوسه مائة وأربعين مليوناً في حين لا يبلغ عدد كل واحد من تلك العائلات الممتازة والمتميزة في شؤونها مائة ألف شخص، فيكون مجموعها سبع مائة ألف[1] .

وإذا افترضنا أن حراس الحدود وأمراءهم والملاك الذين كانوا يتمتعون هم الآخرون بشيء من حق الملكية كان يبلغ عددهم أيضاً سبع مائة ألـف أيضاً فيكون حق التملك والمالكية حينئذ خاصاً بمليون ونصف من مجموع مائة

١ - تاريخ اجتماعي ايران: ج ٢، ص ٦ ـ ٢٤ (باللغة الفارسية) .

واربعين مليوناً، فقد كانت تلك الزمرة القليلة هي الّـتي تملـك، وأمـا الآخرون وهم الاكثرية الساحقة فقد كانوا محرومين من هذا الحق الطبيعي الموهوب لهم من جانب اللّه أساساً وأصلا .

لقد كان الكسبة والفلاحون الذين كانوا محرومين من جميـع الحقـوق، والإمتيازات ولكنّهم كانوا يتحملون نفقات حياة البذخ والرفاهية الّتي كـان يرفل فيها النُبلاء والأشراف والطبقـات العليـا، لا يـأملون خـيراً وراء استمرار هذه الاوضاع، ودوامها، ولهذا كثـيراً مـا كـان المزارعـون والفلاحون والطبقات الدنيا من الشعب يغـادرون أعمـالهم، ومزارعهـم ويلجأون إلى الأديرة فراراً من الضرائب الباهضة والاتـاوات القاصـمة للظهور، المبددة للثروات[١] .

يقول مؤلف كتاب «ايران في عهد الملوك الساسانيين» [٢].

إن حروب إيران ـ الروم الطويلة بدأت مـن عهـد حكومـة الملـك الإيراني انوشيروان (٥٣١ ـ ٥٨٩ م) .

وخلاصة القول أنه كان في الامبراطورية الساسانية يملك أقلية صغيرة تقلّ نسبتُها عن ١/٥ % (واحد ونصف بالمائة) من مجموع الشعـب كـل شيء بينما كان اكثر من (٨٩ %) من الشعب الإيراني محرومين من حق الحياة تماماً كالعبيد .

حَقُّ التعلّم خاصُ بالطبقات الممتازة!!:

في العهد الساساني كان ابناء الاغنياء والبيوتات الرفيعة هـ ـم وحدهـ ـم الذين يتمتعون بحق التعليم، بينما كان عامة جماهير الشعـ ـب، والطبقـ ـات الوسطى والدنيا محرومين من تحصيل العلوم واكتسابها .

وقد كانت هذه المنقصة بادية وواضحة في عصور ايران التاريخية جداً بحيث ذكرها الشعراء الكبار في ملاحمهم ودواوينهم الملكيـ ـة المعروفـ ـة بالرغم من ان

---

١ - ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين: ٧٠ و ٧١ .
٢ - إيران في عهد الساسانيين: ص ٤٢٤ .

الهدف من تلك الملاحم والـ ـدواوين كـ ـان هـ ـو الحماسـ ـة، والتفاخـ ـر بالبطولات وتجييش العواطف، بعد مدح الملوك والامراء .

فها هو «الفردوسي»[١] الشاعر الملحمي الفارسي المعروف، بل اشهر شعراء ايران قد ذكر في شاهنامته (وهي الملحمة الشعرية الّتي يذكر فيها أمجاد ملوك الفرس في قرابة ستين ألف بيت) قصة في هذا الصدد تعتبـ ـر أفضل شاهد على ما قلناه .

وقد وقعت هذه القصة في زمن «أنو شيروان»، أي في الوقـ ـت الّـ ـذي كانت الامبراطورية الساسانية تمر فيه بعهدها الذهبي .

وهذه القصة تشهد بأن اكثرية الشعب في عهد هذا الملك أيضاً كانـ ـت محرومة من حق التعلم، وممنوعة عن اكتساب الثقافة .

يقول الفردوسي: لقد أبدى حذّاء استعداده لتحمل نفقات الجيش الإيراني ـ في حربه مع الروم ـ بدفع ما يحتاجون إليه من ذهب وفضة .

ومع أن السلطة في عهد «انوشيروان» كانـت بحاجـة ماسـة إلـى مساعدات مالية كبيرة إذ كان يتعين عليها أن تجهز ما يقرب من ثلاثمائـة الف مقاتل قد اصيبوا بالمجاعة وقلة العتاد، بحيث أدى ذلك إلـى وقـوع بعض الاعتراضات، وإلى ظهور الفوضى في الجنود، مما أدى بدوره إلى قلق الملك الإيراني «أنوشيروان» .

والتخوف من مضاعفات هذه الحالة، وآثاره السيئة في قتالـه للـروم، ولذلك بادر إلى استدعاء وزيره المحنك «بزرجمهر» للتشاور معـه فـي المخاص من ذلك الوضع المحـرج، ثـم امـره بالتوجـه إلـى منطقـة «مازندران» وجمع الاموال اللازمة من سكانها .

ولكن «بزرجمهر» حذر الملك من مغبة هذا العمل، وأضاف بأن هـذا من شأنه أن يضاعف من الخطر ثم اقترح جمع الامـوال اللازمـة عـن طريق القروض الشعبية فاستحسن «انوشيروان» اقتراحه وأمـره باتخـاذ الترتيبات اللازمة على

---

١ - راجع للتعرف السريع على شخصية هذا الشاعر: الموسوعة العربية الميسرة: ص ١٢٨٦ .

التو فيرسل الوزير مندوبين له إلى المـدن الإيرانيـة ليكلـم التجـار واصحاب الثروة في الامر .

فيبدى الحدّاء المذكور استعداده لتحمل كل نفقات الجيش لوحده الاّ انـه اشترط ذلك بان يسمحوا لولده الوحيد الراغب في تحصيل العلـم جـداً ان يتعلم .

فاستحقر الوزير شرطه ووعده بالانجـاز، والسمـاح لولـده بالتعلـم وتحصيل العلم، ثم عرض الامر على الملك انو شيروان وهو يأمل في ان يتجاوب الملك مع رغبة الحدّاء وطلبه الصغير إذا ما قيس بما سيعطيه من اموال طائلة في تلك الاوضاع الحرجة .

ولكن الملك استشاط غضباً لهذا الطلب، ونهر الوزير قائلا: دع هذا، ما أسوأ ما تطلبه، ان هذا لا يمكن ان يكون، لان ابن الحدّاء بخروجـه مـن وضعه الطبقي يهدم التقليد الطبقّي المتبع، فينفرط بذلك عقد الدولة، ويكون ضرر هذا المال علينا اكثر من نفعه، وشره اكثر من خيره .

ثم إن الفردوسي يعمد إلى شرح المنطق الميكافيلي لحكاية عـن لسـان انوشيروان إذ يقول ناظما ذلك في ابيات[1]:

وإذا اصبح ابن الحدّاء عالماً كاتباً عارفاً فعندما يجلس ولدنا على مسند الحكم والسلطنة واحتاج إلى كاتب، فانه سيضطر إلى الاستعانة بابن ذلـك الحدّاء ـ الكاتب ـ (وهو من عامة الشعب ومن ابناء الطبقة الدنيا وفـي حين جرت عادتنا إلى الآن على أن نستعين بابناء الاشـراف والنبـلاء لا أبناء الطبقة الدنيا)!!!

وإذا حصل ابن الحدّاء وبائع الاحذية على العلم والمعرفة أعاره العلـم والمعرفة حينئذ عيوناً بصيرة، وآذاناً سميعة فيرى حينئذ مـا يجـب أن لا يراه،

---

١ - وإليك هذه الأبيات باللغة الفارسية:
چو بازارگان بچه گردد دبير * هنرمند و با دانش و ياد گير
چو فرزند ما برنشند به تخت * دبيرى بيايدش پيروز بخت
هنر بايد از مرد موزه فروش * سپارد بدو چشم بينا و گوش
بدست خردمند مرد نژاد * نماند جز از حسرت و سرد باد

ويسمع ما يجب أن لا يسمعه، وحينئذ لا يبقى لأبناء الملوك إلا الحسرة والتأسف[١] .

وهكذا يعيد الملك دراهم الحذّاء المسكين إليه رافضاً طلبه ويعود الحذاء خائباً وهو يتوسل بما يتوسل به المستضعفون والمحرومـون المظلومـون وهو الدعاء والضراعة إلى اللّه في الليل وفي هذا قال الفردوسـي: عـاد مبعوث الملك بدراهم الحذاء إليه فاصيب الحذاء لذلك بغم شديد ثم لما جن الليل تضرع الحذاء إلى اللّه وشكا إليه الملك طالباً عدالته[٢].

والعجيب هو أن يصف البعض هذا السلطان بالعادل وهو الّذي لم يعالج أسوأ مشكلة في المجتمع الإيراني أيام حكمـه وسـلطانه وهـي المشكلـة الثقافية، بل تسبب في أن يصاب الشعب الإيراني بالمزيد مـن المشاكـل الاجتماعية وغيرها .

فقد وأد ودفن في القبور احياء ما يقرب من ثمانين الف انسان (اومائة الف كما قيل) في حادثة واحدة، وهي فتنة مزدك، حتّى أنه ظن انـه قـد قضى على جذور تلك الفتنة وهو لا يعلم أنها لم تُستأصل لأن مثـل هـذه الأساليب القمعية انما تقضي فقط على المسبب دون السبب وتكافح المجرم لا الجرم .

لقد كان السبب الحقيقي وراء تلـك الفتنـة هـو الظلـم الاجتمـاعي،

والاختلاف الطبقى، واحتكار الثروة، والمنصب على أيدي طبقة خاصة وحرمان الاكثرية الساحقة من الشعب وغير ذلك من المفاسد وكان عليه لو أراد الاصلاح أن يعالج هذه الأمور ليأتي على المشكلة من أساسها، ولكنه بدل ذلك كان يريد ـ بالقهر والقمع وفي ظلّ الحراب والسياط ـ أن يظهر الناس انفسهم بمظهر الراضي وعن السلطة، الموافـق علـى تصرفاتهـا، وأحوالها وأوضاعها السيئة!!!

ومن هنا نعرف بطلان الحديث المروى عن النبى ـ صلى الله عليـه وآله وسلم ـ

---

١ - راجع شاهنامه (باللغة الفارسية) وتاريخ اجتماعي ايران: ص ٦١٨ .
٢ - فرستاده برگشت و شد بادرم دل كفشگر زان درم پر زغم
شب آمد، غمى شد ز گفتار شاه * خروش جرس خواست از بارگاه

الّذي قال فيه: (ولدتُ في زمن الملك العادل) ويقصد به انوشـيروان[١].

صفحة سوداءٌ من جرائم خسروبرويز:

ومن جرائم الملك خسروبرويز ومظالمه المنكرة مـا فعلـه بوزيـره الشهير «بزرجمهر» الّذي خدم البلاط الشاهنشاهي الايرانى ثلاثـة عشـر عاماً وكان ذلك موجباً لشهرته في البلاد وحسن صيته بين الناس .

فقد عمد هذا الملك إلى سجن الوزير المذكور، والنكاية به، وقدكتب إلى الوزير المسجون رسالة يقول فيها: إن حظك مِن العلـم والمعرفـة أنـه عرضك للقتل!!

فاجابه «بزرجمهر» بقوله: «فقد انتفعتُ بعلمي مادام قد حالفنى الحظُ، وحيث عاكسني الآن، فانّني اصبر وأنتفع بصبري، فإذا فاتني فعـلُ خيـر كثير فانني سعيد لأنني لم أرتكب كذلك شراً كثيراً وإذا ما سلبني منصـب الوزارة فاني في الوقت نفسه قد استرحت كذلك من غم الحيف بالناس، فلا ابالي بما أنا فيه» .

ولما بلغَت هذه الرسالة إلى الملك «برويز» استشاط غضباً، وأمر بقطع شفتي الوزير، وجدع أنفه، وعندما عرف الوزير بهذا الأمر الظالم قـال: أجل أن شفتي تستحقان اكثر من هذا .

فسأله خسروبرويز: ولماذا؟ فقال: لأنهما وصفتاك عند العامة والخاصة بما لا تستحق من الأوصاف، واعطتاك ما ليس فيك من الخصال، فامالتـا اليك القلوب، ورغبتا فيك النفوس، والافئدة، وآشاعتا عنـك أمجـاداً لـم تستحقها، يا اسوأ الملوك وأظلم الحكام، تقتلني الآن بسوء الظـن بعـد أن كنت على يقين من وفائي، وصدقي، واخلاصي، وسلامتي، فمن بعد هـذا يأمل في عدلك، ومن بعد هذا يثق بقولك؟!

---

١ - راجع في هذا المجال: تذكرة الموضوعات لابن الجوزي، اللئالي المصوغة في الاحاديث الموضوعة للسيوطي، وكذا مجمع الزوائد للهيثمي .

فازداد «خسروبرويز» لسماع هذه الكلمـات الساخنـة غضبـاً علـى غضب، وأمر من فوره بقتل الوزير، فضرب عنقه في التو[١] .

وتلك هي معاملة ذلك الملك الموصوف زوراً بالعادل مع اقرب مقربيه، واكثر معاونيه إخلاصاً، ووفاء له فكيف كانت تُرى معاملته مع سائر أفراد

الرعية وبقية أفراد الشعب؟؟

حكم التاريخ في الملوك الساسانيين:

لقد اتخذ الحكام الساسانيون في عهودهم وحكومـاتهم سياسـة خشنـة قاسية، وقد أخضعوا الناس بسلطانهم بالسيف والعنف .

كانوا يفرضون على الناس ضرائب ثقيلة وأتـاوات باهضـة قاصـمة للظهور، ولهذا السبب كان عامة الشعب الايراني غير راضين على حكمهم وسيرتهم، ولكنهم خوفاً على نفوسهم، ما كانوا يتمكنون من الاعـلان مـن استيائهم هذا بل لم يكن لأرباب الفكر والرأي والعارفين بالامور شـأن ولا قيمة في البلاط الشاهنشاهي .

لقد بلغ الاستبدادي لدى الحكام الساسانيين حداً لم يستطع معه أحد مـن إظهار رأيه، ولم يجرأ احد على إبداء أية ملاحظة في شأن من الشؤون .

لقد بلغت القوة بخسروبرويز حداً عجيباً وصفه الثعالبي بقوله:

قيل لخسرو برويز (كسرى) دعونا فلانا الوالي فتباطأ عـن الامتثـال، فأمر الملك من فوره قائلا ان كان يصعب عليه مجيئه ببدنه كلـه، فاننـا يكفينا شيء منه، فليؤتى برأسه فحسب[٢] .

---

١ - يذكر الفردوسي الشاعر الملحمي هذه القصة في شاهنامته المعروفة عند ذكر وقائع انوشيروان اثناء حربه مع الروم (ج ٦، ص ٢٥٧ ـ ٢٦٠) .
٢ - ايران در عهد ساسانيان: ص ٣١٨ .

الفوضى في الحكومة الساسانية:

ومما يجب ان لا نغفل عن ذكره هو ما تعرضت له الحكومة الساسانية في اواخر عهدها من الفوضى الادراية، وتفاقم الهرج والمرج في جهازها الحكومي .

فقد دب الصراع والنزاع ونشب التنافس الحاد بين الامراء، والاعيـان وقاده الجيش في ذلك العهد وذهب كلُ فريق يختار أميراً من أبناء العائلـة المالكة، ويقوم بتصفية الطائفة الأُخرى الّتي اختارت أميراً آخر .

وعندما فكّر العرب المسلمون في فتح إيران كانت العائلـة الساسـانية المالكة قد بلغت ذروة الضعف والانقسام .

ومما يدل على ذلك تعاقب ما يقرب من (١٤) ملكاً على مسند الحكـم والسلطان خلال مدة اربعة اعوام من مقتل الملك «خسرو برويز» وجلوس شيرويه مجلسه وحتّى آخر ملك من ملوك بني ساسان .

وهذا يعني أن حكومة إيران انتقلت خلال مدة لا تتجاوز اربعة اعـوام من يد إلى يد أُخرى (١٤ مرة)!! ومن الواضح ما يلحق باية دولة ومملكة تتعرض لـ (١٤) انقلاب يقتل فيه ملك، ويحل محله ملك آخر في مثل هذه المدة القصيرة .

فقد كان كلُ حاكم يتسلم زمام الحكم ويستولي على عرش السلطان يعمد إلى قتل واغتيال كل من كان يطمع في العرش، ولا يتـورع فـي سـبيل إرساء قواعد حكمه من ارتكاب كل ما يراه ضرورياً، فكـان الأب يقتـل ابنه، والابن يقتل أباه، وربما يقتل الاخ إخوته، والزوجة زوجها وهكذا...

فقد قتل «شيرويه» أباه[١] للحصول على مقعد الحكم والسلطان، كمـا أباد اربعين شخصاً من أبناء الملك «خسروبرويز» اي إخوته!![٢] .

وكان «شهر براز» يقتل كل من لا يثق به، وقد أدى هذا إلى أن يقضي على كل أبناء سلالته من الامراء الساسانيين ممن كان قـد تسنـم عـرش السلطان

---

١ - الكامل في التاريخ: ج ١، ص ٢٩٦ .
٢ - تاريخ اجتماعي ايران: ج ٢، ص ١٥ ـ ١٩ .

والملوكية قبله، رجلا كان ذلك أم إمراة، صغيراً كان ام كبيراً، لكيـلا يبقى في الوجود من يطمع في السلطان أو يدعيه!!

وصفوة القول: أن الفوضى السياسية بلغت في أواخر العهد الساسـاني حداً بحيث كانوا يجلسون فيه الأطفال والصبيان والنساء على اريكة الحكم، ثم يثورون عليهم ويقتلونهم بعد ايام أو أشهر ويحلون محلهـم أشخاصـاً آخرين!!

وعلى هذا فإن الدولة الساسانية رغم قوتها الظاهرية كانت آخـذة فـي الانحطاط والانحلال وسائرة نحو التمزق والفناء .

الفوضى الدينية في ايران الساسانيين:

لقد كان أهم عامل للفوضى الّتي كانت تعاني منها الاوضاع في العهـد الساساني هو الاختلاف في المعتقدات الدينية الّتي كانت سائدة آنذاك .

فحيث أن «اردشير بن بابك» مؤسس السلسلة الساسانية كان ابن مؤبـد (وهو رجل دين زردشتي) وقيماً على بيت نار وقد تمكن مـن السلطـان بفضل الموابدة فانه اجتهد في الترويج لدين آبائه في ايران .

وفي عهد الساسانيين كان الدين الرسمي والشائع في أوساط الشعب الإيراني هو الدين الزرادشتي، ولما كانت السلالة الساسانية قد توصلت إلى الحكم بواسطة الموابدة ـ كما أسلفنا ـ لذلك كان الموابدة والقيمون على بيوت النار (ونعني بهم رجال الدين الزرادشتي) يحظون بمكانة كبرى لدى البلاط الساساني إلى درجة أنهم أصبحوا يشكّلون في أواخر العهد الساساني أقوى طبقة، وأشد الاجنحة نفوذاً في المجتمع الإيراني آنذاك .

ولقد كان الحكام الساسانيون دائماً ممن رشحهم للحكم الموابدة ورجال الدين الزردشتي المجوسي، ولذلك كان الحكام يأتمرون بأوامرهم، ولو أن أحداً منهم خالف الموابدة عارضوه أشد المعارضة، وسحبوا عنه تأييدهم ودعمهم، ولهذا اجتهد الملوك الساسانيون في كسب رضا الموابدة، والعناية بهم اكثر من غيرهم من الطبقات، وقد تسببت عناية أولئك الملوك بالموابدة وحمايتهم لهم في تزايد

عددهم، يوماً بعد يوم .

وقد كان الساسانيون يستغلون رجال الدين المجوس أكبر استغلال لتثبيت قواعد حكمهم، وتقوية مواقعهم في السلطان ولذلك أقاموا في مختلف مناطق القطر الإيراني العريض بيوت النار، (وهي معابد المجوس) جاعلين في كل واحد من هذه المعابد ثلة كبيرة من الموابدة كسدنة .

فقد كتب المؤرخون يقولون: ان «خسرو برويز» شيد بيتاً للنار عظيماً ووكل به (١٢ الف) هيربد (وهو منصب خاص ورتبة خاصة في نظام القيادة الدينية المجوسية) لينشدوا فيه الاناشيد الدينية، ويؤدوا الطقوس والشعائر المجوسية!![1] .

وعلى هذا الاساس كان الدين المجوسي دين البلاط، وكان رجاله في خدمة الملوك .

هذا وقد اجتهد الموابدة ـ بكل ما في وسعهم ـ في إبقاء الطبقات الكادحة والمحرومة من ابناء الشعب الإيراني في حالة من الركود والجمود وحالة عدم الاحساس بالآلام والرضا بالأمر الواقع .

ولقد تسببت الصلاحياتُ الواسعة والحريات المطلقة المخولة إلى الموابدة في ابتعاد الناس عن الدين المجوسي والنفور منه، فجماهير الشعب كانت تبحث لنفسها عن غير ما يتدين به الأشراف من عقيدة ودين .

يقول مؤلف كتاب «تاريخ اجتماعي ايران» وقد سعى الشعب الإيراني ـ في المآل ـ إلى ان يتخلص من ضغوط الاشراف والموابدة واضطهادهم، ولهذا ظهر بيت الزردشتيين في قبال الدين الرسمي «المزدية الزردشتية» الّذي كان دين البلاط كما عرفنا، وكان يدعى: بهدين (اى الدين الافضل) مذهبان آخران[٢] .

اجل وبسبب ضغوط الاشراف وتشددات الموابدة في العهد الساساني ظهرت في ايران مذاهب مختلفة الواحد تلو الآخر، وقد حاول «مزدك» ومِن قبله «ماني» ان يوجدا بأنفسهما تحولا في الاوضاع الدينية وفي العقائد والمؤسسات،

---

١ - تاريخ تمدن ساساني: ج ١، ص ١ (بالفارسية) .
٢ - تاريخ اجتماعي ايران: ج ٢، ص ٢٠ .

ألاّ أنهما منيا بالفشل في هذا السبيل[1] .

فحوالي سنة (٤٩٧ ميلادية) قام «مزدك»، وألغى المالكية الانحصارية (الخاصة)، ونسخ عادة تعدد الزوجات، ونظام الحريم وكان ذلك في مقدمة برامجه الاصلاحية، وقد لقيت أفكاره هذه تأييداً قوياً مـن قِبـل الطبقـات المحرومة المسحوقة الّتي فجرت بقيادة «مزدك» ثورة كـبرى، وانقلابـاً هائلا في المجتمع الإيراني .

ولقد كانت هذه الثورات والانتفاضات الشعبية لأجل أن يتوصل النـاس إلى حقوقهم المشروعة، الممنوحة لهم من قبل اللّه خالقهم وبارئهم .

ولقد قوبل مذهب «مزدك» باعتراض شديد من قِبل الموابدة، وامـراء الجيش، وجر إلى فتنة كبيرة، وإلى تردي الاوضاع في ايران آنذاك .

كما ان المذهب الزردشتي قد فقد ـ في أواخـر العهـد الساسـاني ـ حقيقته بصورة كاملة، ووصل الأمر بعبادة النار وتقديسها إلى درجة أنهـم كانوا يحرمون الدقّ على حديدة محمـاة اكتسبـت لـون النـار ولهيبهـا بمجاورتها لها.

وبكلمة واحدة؛ لقد كانت اكثر المعتقدات الزردشتية المجوسية تتألف من الخرافات والأساطير، وقد أعطت حقائق هذا الدين ـ في هـذا العهـد ـ مكانها لحفنة من الشعائر الجوفاء، والطقوس الفارغة، الّتي أضاف إليهـا الموابدة سلسلة من التشريفات الطويلة العريضة تثبيتاً لمـواقعهم، ودعمـاً لمكانتهم في المجتمع الإيراني يومئذ .

لقد بلغت سيطرة الخرافات والاساطير البعيدة عن العقل والمنطق على هذه العقيدة، ورسوخها في هذا الدين حداً أقلق حتّى رجال الدين الزردشتي انفسهم أيضاً، وقد كان بين الموابدة أنفسهم من أدرك منذ البدايـة تفاهـة

الطقوس والشعائر الزردشتية الجوفاء فتخلى عنها .

---

١ - المذهب المانوي هو المذهب الزردشتي الخليط بالمسيحية، فقد اخترع ماني من مسلك قومي وآخر اجنبي مذهباً جديداً ثالثاً .

هذا من جانب

ومن جانب آخر كان قد انفتح على الشعب الإيراني منذ أيـام الملـك «أنوشيروان» فما بعد طريق التفكير، والتأمل، والتحقيق، ومما قد قوى هذا الامر ما حصل من اتصالات بين العقائد الزردشتية والمعتقدات المسيحيـة وغيرها من العقائد والاديان وما تحقق من تلاقح بينها نتيجة تسلل الثقافـة اليونانية والهندية، وغيرها إلى الوسط الإيراني، وتسبب كل ذلك في يقظة الشعب الإيراني، ولذلك اصبح يعاني من هذه الخرافات والاساطير الّتـي كانت الديانة الزردشتية تعج بها اكثر من أي وقت مضى .

وعلى أية حال فان الفساد الّذي ظهر في أوساط رجال الدين الزردشت، وتطرق الخرافات والاساطير الواهية الكثيرة إلى المعتقـدات الزردشـتية تسبب في حصول مزيد من التشتت والاختلاف والتشرذم في آراء الشعب الإيراني وعقيدته .

ومع ظهور هذا الاختلاف وعلى أثر إنتشار المذاهب المتنوعة ظهـر روح الشك والتردد لدى الطبقة المفكرة والمثقفة، وسرت منهم إلـى بقيـة الاصناف والفئات مما أدى ذلك إلى أن يفقد جماهير الشعب ثقتها وايمانها القطعي، واعتقادها الكامل السابق بتلك المعتقدات .

وهكذا استشرى الهرج والمرج وعمت الفوضى واللادينية كل مناطـق إيران والمجتمع الإيراني، كما رسم «برزويه» الطبيب الشهير في العهـد الساساني حيث صور نموذجاً كاملا عن الاختلاف الاعتقـادي والتشـرذم الفكري، وبالتالي اضطراب الأوضاع الإيرانية في العهد الساسـاني، فـي مقدمة «كليلة ودمنة» .

الحروب الإيرانية الرومية:

لقد انقذ «بزرجمهر» ـ الوزير الإيراني الشهير الّذي كان يحتل مكان الصدارة في حكومة «انوشيروان» وكان موصوفاً بالتدبير والكفاءة العالية ـ ايران من الاخطار الّتي احدقت بها في اكثر الاحايين، ولكـن علاقتـه بالسلطان

(انوشيروان) كانت تتأثر احياناً بسعاية الساعين ووشاية الوشاة الذيـن كانوا يوغرون صدر الملك ضده فيستصدرون منه قراراً بحبسه وسجنه .

وقد أوغر هؤلاء السعاة والواشون أنفسهم صدر «انوشـيروان» ضـد امبراطور الروم، وألّبوه عليه، وشجعوه على توسيع رقعة نفوذه، وتوسـيع حدود بلاده واضعاف سيطرة منافسه الخطير، متجاهلا وثيقـة «الصلـح الخالد» الّتي عقدها مع الروم واتفق فيها الجانبان علـى عـدم التعـرض بعضهم لبعض .

وأدى هذا التحريض بأنوشيروان إلى مهاجمة الروم، واشـتعلت علـى اثرها نيران الحرب، واستطاع جنود ايران ان يفتحوا سورية (وقد كانـت مستعمرة رومية) في مدة قصيرة تقريباً، وحرق انطاكيـة ونهـب آسـيا الصغرى .

وبعد عشرين عاماً من القتال وسفك الدماء، والكر والفر بين الروم وايران وبعد أن فقد الجانبان قدراتهم وطاقاتهم في تلك المعارك الطاحنة، وبعد الخسائر العظيمة الّتي تحملهما الطرفان إضطرا إلى عقد وثيقة الصلح مرة ثانية، وحددوا حدود بلادهما، ومناطق نفوذهما كما كانت عليه في السابق شريطة أن تدفع دولة الروم كل عام ما يعادل (عشرين الف) دينار إلى دولة ايران .

ومِن الواضح الّذي لا يخفى ولا يحتاج إلى البيان أن حروباً طويلة الامد تدور رحاها بعيداً عن مركز الدولة من شأنها ان تأتي بالنتائج السيئة والتبعات الثقيلة على اقتصاد الشعب المحارب، وصناعته وتوجه إلى هذه الجوانب ضربات قوية، لا تزول آثارها إلاّ بعد زمان طويل خاصة مع ملاحظة الوسائل والأدوات في تلك العصور .

ومهما يكن فان هذه الحروب، وهذه الحملات المكلفة هيأت المقدمات الموجبة لسقوط الحكومة الإيرانية الحتمي .

فان آثار هذه المعارك لم تَزل بعد إلاّ وقد نشبت حرب أُخرى دامت سبعة اعوام فان «تي باريوس» امبراطور الروم بعد ان تسنم عرش السلطان هدد بحملاته الكبيرة استقلال الدولة الإيرانية بدافع الانتقام .

وفي الأثناء ـ وقبل ان يتضح موقف الطرفين وموقعهما في تلك المعارك من

الهزيمة أو الانتصار ـ مات «انوشيروان» وخلفه في إدراة البلاد ابنه «خسروبرويز» .

وقد حمل هذا الأخير على الروم ايضاً، وذلك عام (٦١٤) بحج

معينة، وفتح في أول حملة من حملاته: بلاد الشام وفلسطين وأفريقيـة ونَهب اورشليم، وأحرق كنيسة القيامة ومزار السيد المسيح ـ عليه السلام ـ وهدم المدن، ودمرها .

وقد انتهت هذه الحرب بعد مقتل تسعين الف من النصـارى لصالـح الإيرانيين .

في مثل هذه المرحلة الّتي كان فيها العالم المتحضر آنذاك يحـترق ـ في نيران الحروب والظلم، بعِث رسول اللّه ـ صلى الله عليه وآله وسـلم ـ بالرسالة الإسلامية، وبلغ نداؤه المحيي للنفوس والعقول سمع البشريـة، وقام يدعو الناس إلى الصلح والسلم، وإلى النظم والامن .

ولقد أدى انهزام الروميين المتدينين، المؤمنين باللّه على أيدي المجوس الكفار، عبدة النار، إلى ان يتفاءل اهل مكة الوثنيون بهذا الحدث، ويحدثوا (ويمنّوا) أنفسهم بالانتصار على المسلمين المؤمنين باللّـه عمـا قريـب، وانطلقوا يرددون هذه الأُمنية أمام المسلمين وهم يحاولون بهـا إضـعاف معنوياتهم، وزعزعة إيمانهم، الامر الّذي أقلق المسلمين .

ولم يتخذ النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ موقفاً تجاه هذه الظاهرة انتظاراً لما سينزل به عليه الوحي إلى ان نزلت آيات في هذا المجال هـي الآيات الأُولى من سورة الروم الّتي تقول: (الم، غُلِبتِ الروم فـي أدنـى الأرض و هم مِن بعدِ غلَبهم سيغْلِبون في بِضع سنين للّه الأمر من قبـل و من بعد و يومئذ يفْرح الْمؤمِنُون بنَصر اللّه ينصر مِن يشاء و هو الْعزيز الرحيم. وعد اللّهِ لا يخْلِفُ اللّه وعده ولكِن اكْثَر النّاسِ لا يعلَمون)[1] .

وقد تحقّقت نبوءة القرآن هذه حول الروم في عام (٦٢٧ ميلادية) حيث

١ - الروم: ١ ـ ٦ .

استولى «هرقل» على «نينوى» في حملة واحدة .

وعلى أية حال كانت الدولتان المتنافستان تطويان الـدقائق والساعـات الأخيرة من حياتهما فيما تستعدان من ناحيـة اخـرى لتجميـع القـوى، والتهيؤلشن حملات جديدة، وخوض حروب ومعارك أُخرى ولكن حيث أن الارادة الالهية كانت قد تعلقت بأن يسطع على تلك المنطقتين نور التوحيد وتنتعش نفوس الروميين والفرس الذابلة الميتة بنسائم الإسـلام الناعشـة، واشعته الهادية، لذلك لم يلبث أن قُتِل «خسرو برويز» علـى يـدي ابنـه «شيرويه» الّذي لم يدم سلطانه بعد اغتياله لأبيه اكثر من ثمانية أشهر، ثم سادت ايران بعد «شيرويه» فوضى شاملة خلال اربعة اشهر، حيث تناوب على مسند الحكم حكام وامراء عديدون أربعة منهم من النسـاء، إلـى أن أنهى الجيشُ الاسلامى بحملاته الناجحة هذه الاوضاع، ووضع نهاية لهـذا الصراع السياسي الحاد الّذي استمر خمسين عاماً والّذي ساعد بدوره على تقدم الفتوحات الإسلامية .

٤ ـ أسلاف رسول الإسلام (ص)

١ - بطل التوحيد : إبراهيم الخليل عليه السلام

إن الهدف من استعراض حياة النبي العظيم إبراهيم الخليل عليه السلام هو التعريف بأجداد النبي محمد صلّى اللّه عليه وآله وسلّم وأسلافه، لانتهـاء نسبه الشريف إلى النبي إسماعيل بن إبراهيم الخليل عليه السلام، وحيث ان لهاتين الشخصيتين العظيمتين وبعض أسلاف النبي العظام نصيباً هاماً في تاريخ العرب والإسلام، لهذا ينبغي الحديث عن أحوالهم بصورة مختصرة، خاصة أن حوادث التاريخ الإسلامي ترتبط ارتباطاً كاملاً - كحلقات سلسلة واحدة - بالحوادث السابقة، او المقارنة لبزوغ الإسلام.

فعلى سبيل المثال تُعتَبر كفالة «عبد المطلب» لرسول اللّه صلّى اللّه عليـه وآله وحمايته له، وجهود «ابي طالب» ودفاعه الطويل عن النبي، وعظمة الهاشميين وسمو مقامهم واخلافهم، وجذور معاداة الأمويين لهم، الاسـس والقواعد الموضوعية لحوادث التاريخ الإسلامي، ولهذا كـان لا بـد مـن تخصيص فصل كامل في التاريخ الإسلامي لهذه الابحاث.

إن في حياة حامل راية التوحيد النبي «إبراهيم الخليل» عليه السلام نقاطـاً مشرقة وبارزة جداً.

فجهاده العظيم في سبيل ارساء قواعد التوحيد واقتلاع جـذور الوثنيـة مما

لا ينسى.

وهكذا حواره اللطيف والزاخر بالمعاني مع عبدة النجوم والكواكـب فـي عصره والذي ذكره القرآن الكريم لمعرفتنا، افضل واسمى درس توحيدي لطلاب الحقيقة وبغاة الحق.

مولد إبراهيم :

لقد ولد بطلُ التوحيد في بيئةٍ مظلمة كانت تسربلها ظلمات الوثنية، وعبادة البشر... في بيئة كان الإنسان فيها يخضع لأصنام نحتها بيديه، كما يخضع لكواكب ونجوم.

ولقد ولد حامل لواء التوحيد : «إبراهيم الخليل» عليه السلام في «بابـل» الذي يعدها المؤرخون إحدى عجائب الدنيا السبع، ويذكرون حولها قصصاً وأموراً كثيرة تنبئ عن عظمتها وأهمية حضارتها، فيقـول «هـيرودتس» المؤرخ المعروف - مثلاً - : لقد كانت بابل بنية بشكل مربع طول كـل ضلع من اضلاعه الاربعة (١٢٠ فرسخاً) ومحيطه (٤٨٠ فرسخاً)(١).

إن هذا الكلام مهما كان مبالغاً فيه إلا أنه على كل حال يكشـف عـن حقيقة لا تقبل الإنكار، إذا ما ضم إلى ما كتبه الآخرون عن تلـك المدينـة التاريخية.

غير اننا لا نرى من تلك المدينة اليوم ومن مناظرها الجميلة، وقصورهـا الرائعة، إلا تلاً من التراب في منطقة بين «دجلة» و«الفرات»، فـالموت يخيم على كل تلك المنطقة، اللّهم الا عندما يكسر علماء الآثار بتنقيباتهـم جدار الصمت أحياناً، بحثاً عن آثار تلك المدينـة، ويستخرجـون بقاياهـا الموقوف على معالم من حضارة اصحابها وسكانها.

لقد فتح رائد التوحيد ومرسي اركانه «إبراهيم الخليل» عليه السلام عينيه

---

(١) قاموس الكتاب المقدّس، مادّة بابل.

في دولة «نمرود بن كنعان».

وكان نمرود هذا رغم أنه يعبد الصنم يدعي الألوهية ويأمر الناس بعبادته.

وقد يبدو هذا الامر عجيباً جداً فكيف يمكن ان يكون الشخص عابد صـنم

ومع ذلك يدعي الألوهية في الوقت نفسه، إلا أن القرآن الكريم يذكر لنا نظير هذه المسألة في شأن «فرعون مصر»، وذلك عندما هز النبي موسى بن عمران عليه السلام قواعد العرش الفرعوني بمنطقه القـوي، وحجتـه الصاعقة، فاعترض أنصار فرعون وملأه على هـذا الأمـر، وخـاطبوا فرعون بلهجة معترضة قائلين : «أتذر موسى وقومه لِيفسِدوا فـي الأرض ويذرك وآلهتك»(١).

ومن الواضح جداً أن «فرعون» كان يدعي الالوهية فهو الذي كان يقول : «أنا ربكُم الأعلى»(٢) وهو القائل : «ما عِلمت لكُم مِن الـهٍ غـيري»(٣) ولكنه كان في الوقت نفسه عابد صنم ووثنياً.

بيد أن هذه الازدواجية ليست بأمر غريبٍ عند الوثنيين، ولا يمنع مانع في منطقهم أن يكون الشخص نفسه وثنياً يعبد الصنم، ومع ذلك يدعي أنه الـه ويدعو الناس إلى عبادته فيكون الهاً معبوداً، يعبد الهـاً أعلـى منـه، لأن المقصود من المعبود والاله ليس هو خالق الكون بل هو من يتفوق علـى الآخرين بنحو من أنحاء التفوق ويمتلك زمام حياتهم بشكل من الإشكال.

هذا والتاريخ يحدثنا أن العوائد في بلاد الروم كانت تعبد كبارها ومع ذلـك كان اولئك الكبار المعبودين انفسهم يتخذون لأنفسهم معبوداً أو معبـودات أُخرى.

إن أكبر وسيلة توسل بها «نمرود» في هذا السبيل هو استقطاب جماعة من الكهنة والمنجمين الذين كانوا يعدون الطبقة العالمة والمثقفـة فـي ذلـك

العصر.

فقد كان خضوع هذه الطبقة يمهد لاستعمار الطبقة المنحطة وغير الواعية من الناس.

هذا مضافاً إلى أنه كان يناصر «نمرود» بعض من ينتسب إلى «الخليل»

---

(١) الأعراف : ١٢٧.

(٢) النازعات : ٢٤.

(٣) القصص : ٣٨.

عليه السلام بوشيجة القربى مثل «آزر» الذي كان يصنع التماثيل، وكـان عارفاً بأحوال النجوم والفلك أيضاً، وكان هذا هو الآخر أحد العراقيل التي كانت تمنع الخليل من انجاح مهمته، لأنه مضافاً إلى مخالفة الرأي العام له، كان يواجه مخالفة أقاربه ايضاً.

لقد كان نمرود غارقاً في عالم خيالي عندما دق المنجمون فجأة أول ناقوس للخطر وقالوا له : سوف تنهار حكومتُك، ويتهاوى عرشك وسلطانك على

يد رجل يولد في تلك البيئة، الأمر الذي أيقظ أفكاره النائمة، فتساءل من فوره : وهل ولد هذا الرجل ؟ فقيل له : لا، انه لم يولد بعد. فأمر من فوره بعزل الرجال عن النساء (وذلك في الليلة التي انعقدت فيها نطفة ابراهيـم الخليل عليه السلام عدو نمرود، وهادم ملكه، ومزيل سلطانه وهي الليلـة التي حددها وتكهن بها المنجمون والكهنة من انصار نمرود) ومع ذلك كان جلاوزة «نمرود» يقتلون كل وليد ذكر، وكان علـى القوابـل ان يسجلـن اسماء المواليد في مكتبه الخاص.

ولقد اتفق أن انعقدت نطفةُ «الخليل» في نفس الليلة التي منع فيها أي لقـاء جنسي بين الرجال، وازواجهم.

لقد حملت أُم إبراهيم به كما حلمت أُم موسى به، وامضت فترة حملها فـي خفاء وتستر، ثم لجأت بعد وضع وليدها العزيز الى غار بجبل على مقربة من المدينة حفاظاً عليه، وراحت تتفقده بين حين وآخر من الليل والنهـار، قدر المستطاع.

وقد أرضى هذا الاسلوب الظالم «نمروداً» وأراح باله بمرور الـزمن، اذ أيقن بانه قد قضى به على عدو عرشه، وهادم سلطانه، وتخلص منه.

لقد قضى «إبراهيم» عليه السلام ثلاثة عشر عاماً في ذلك الغار الذي كان يتصل بالعالم الخارجي عبر باب ضيق، ثم أخرجته أُمه من ذلك الغار بعد ثلاثة عشر عاماً، ودخل «إبراهيم» في المجتمـع، فاسـتغرب المجتمـع النمرودي وجوده وانكروه(١).

(١) تفسير البرهان : ج ١ ص ٥٣٥.

لقد خرج «إبراهيم» من الغار، مؤمناً باللّه بفطرته، وقوى توحيده الفطري، بمشاهدة الأرض والسماء، والنظر في سطوع الكواكب والنجوم والتأمل في ما يجري في عالم النبات من نمو وحركة إلى غير ذلك مما يجـري فـي عالم الطبيعة العجيب.

لقد واجه إبراهيم عليه السلام بعد خروجه من الغار جماعة مـن النـاس بهرتهم أحوال الكواكب وعظمة أمرها، ففقدوا عقولهم تجاه هذه الظـاهرة، كما راى جماعةٌ أُخرى أحطّ فكرياً من سابقتها يعبدون اصناماً منحوتة، بل واجه ما هو اسوأ بكثير من أعضاء الطوائف والجماعات الضالـة اذ رأى رجلاً يستغل جهل الناس وغبائهم ويدعي الالوهية ويفرض عليهم عبادتـه والخضوع له !!

لقد كان إبراهيم عليه السلام يرى أن عليه أن يهيئ نفسه لخوض المعركة في هذه الجبهات الثلاث المختلفة، وقد نقل القرآن الكريم قصة نضال النبي «إبراهيم» عليه السلام في هذه الاصعدة والجبهات الثلاث وسننقل لك فـي ما يأتي وباختصار ما ذكره القرآن في هذا المجال.

إبراهيم ومكافحته للوثنية :

كانت ظلمات الوثنية قد خيمت على منطقة بابل (موضـع ولادة الخليـل) برمتها.

فالآلهة المدعاة، والمعبودات (السماوية والارضية) الباطلـة قـد سـحرت عقول مختلف فئات الشعب، فبعضها في نظـرهم هـي أربـاب القـدرة والسلطة، وبعضها الآخر وسيلة الزلفى والتقرب الى اللّه إلى غير ذلك من التصورات السخيفة في هذا الصعيد.

وحيث أن طريقة الأنبياء في هداية البشرية وارشـادهم هـي الاسـتدلال بالبراهين، والاحتجاج بالمنطق، لانهم إنما يتعاملون مـع قلـوب النـاس وعقولهم، ويبتغون ايجاد حكومة تقوم على أساس الإيمان واليقين، ومثـل هذه الحكومة لا يمكن اقامتها بالسيف او بالنار والحديـد. لهـذا يبـدأون حركتهم بالتوعية الفكرية.

إن علينا أن نفرق بين الحكومات التي يريد الأنبياء تأسيسها، وحكومة

الفراعنة والنماردة.

ان هدف الطائفة الثانية هو : الرئاسة والزعامة، والحفاظ عليها بكل وسيلة

ممكنة في حياتهم، وإن تلاشت وتهاوت من بعدهم.

ولكن الانبياء والرسل يريدون حكومة تبقى قائمة في جميع الحالات وماثلة في جميع الاوقات، في الخلوة والجلوة، في وقت الضعف، وفي وقت القوة، في حياتهم وبعد مماتهم... انهم يريدون أن يحكموا على القلـوب لا علـى الابدان، وهذا الهدف لا يتحقق ابداً عن طريق القـوة واسـتخدام العنـف والقهر !! انما يتحقق عن طريق الحجة والبرهان.

لقد بدأ النبي «إبراهيم» عملَه بمكافحة ما كان عليه أقرباؤه الذين كان فـي طليعتهم وعلى رأسهم «آزر» وهو الوثنية وعبادة الاصنام، ولكنه لم ينتـه من هذه المعركة ولم يحرز إنتصاراً كاملاً في هذه الجبهة بعد إلا وواجـه عليه السلام جبهة أُخرى، وكانت هذه الجماعة أعلى مستوى مـن افـراد الجماعة السابقة في الفهم والثقافة. لان هذه الجماعة - على خلاف أقرباء إبراهيم قد نبذت عبادة الأوثـان والأصـنام(١)، والمعبـودات الارضـية الحقيرة، وتوجهت بعبادتها وتقديسها الى الكواكـب والنجـوم والاجـرام السماوية.

ولقد بين «الخليل» عليه السلام في حواره العقائدي مـع عبـاد الاجـرام السماوية، ومكافحته لمعتقداتهم الفاسدة، سلسلة من الحقائق الفلسفية والعلمية التي لم يصل إليها الفكر البشري يومذاك، وذلك ببيان بسيط مدعوم بأدلة لا تزال الى اليوم موضع اعجاب كبار العلماء، ورواد الفلسفة والكلام.

والأهم من ذلك - في هذا المجال - أن القرآن الكريم نقل أدلة «إبراهيـم

الخليل» عليه السلام باهتمام خاص وعناية بالغة ولهذا ينبغـي لنـا أن نتوقف عندها قليلاً، وهذا ما سنفعله في هذه الصفحات.

---

(١) ترتبط آية ٧٤ من سورة الأنعام بحواره عليه السّلام مع الوثنيّين، بينما ترتبط الآيات اللاحقة لها بعبدة الأجرام السماوية.

حوار الخليل مع عبدة الكواكب :

ذات ليلة وقف إبراهيم عليه السلام عند ابتداء مغيب الشمس يتطلـع فـي السماء - وهو ينوي هداية الناس - وبقي ينظر الى النجوم والكواكب من أول الغروب من تلك الليلة الى الغروب من الليلة التاليـة، وخـلال هـذه الساعات الاربع والعشرين حاور وجادل ثلاث فرق، مـن عبـدة النجـوم وابطل عقيدة كل فرقة منها بأدلة محكمة، وبراهين متقنة قوية.

فعندما أقبل الليلُ وخيم الظلام على كل مكان وهو يخفـي كـل مظاهـر الوجود ومعالمه في عالم الطبيعة ظهر كوكب «الزهرة» من جانب الأفـق وهو يتلألأ. فقال إبراهيم لِعباد هذا الكوكب - وهو يتظاهر بموافقتهم جلباً لهم، ومقدمة للدخول معهم في حوار - : «هذا ربي».

وعندما افل ذلك الكوكب وغاب عن الانظار قال : «لا احب الآفلين».

وبمثل هذا المنطق الجميل أبطل عقيدة عبدة الزهـرة، واظهـر خواءهـا وفسادها.

ثم إنه عليه السلام نظر الى كوكب القمر المنير الذي يسحر القلوب بنـوره وضوئه، فقال - متظاهراً بموافقة عبدة القمر - : «هـذا ربـي» ثـم رد باسلوب منطقي محكم تلك العقيدة أيضاً، عندما امتدت يد القـدرة المطلقـة ولملمت أشعة القمر من عالم الطبيعة، وعندما إتخذ ابراهيم عليـه السـلام هيئة الباحث عن الحقيقة ومن دون أن يصدم تلك الفرق المشركة ويجـرح مشاعرها اذ قال : «لئن لم يهدِني ربي لأكُونن مِن القوم الظالين»(١) لأن القمر قد أفل أيضاً كما أفل سابقُه فهو كغيره أسير نظام علوي لا يتخلـف، وما كان كذلك لا يمكن ان يعد رباً يعبد، ويتوجه اليه بالتقديس والتضرع.

ولما ولّى الليل وأدبر، واكتسحت الشمس الوضاءة باشعتها حجب

---

(١) الأنعام : ٧٧.

الظلام، وبثت خيوطها الذهبية على الوهاد والسهول، والتفت عبدة الشمس الى معبودهم، تظاهر ابراهيم بالاقرار بربوبيتها اتباعـاً لقواعـد الجـدل والمناظرة ولكن افول الشمس وغروبها اثبت هو الآخر بـ طلان عبادتهـا

ايضاً بعد أن اثبت خضوعها للنظام الكوني العام، فتبرأ «الخليل» عليه السلام من عبادتها بصراحة.

وعندئذ أعرض عليه السلام عن تلك الطوائف الثلاث وقال : «إنّي وجهتُ وجهي للّذي فطر السماواتِ والأرض حنِيفاً وما أنا مِن المشركين»(١).

لقد كان المخاطبون في كلام إبراهيم عليه السلام هم الذين يعتقـدون بـأن تدبير الكائنات الارضية، ومنها الانسان، قد انيطت إلى الاجرام السماويـة وفوضت اليها !!

وهذا الكلام يفيد أن الخليل عليه السلام لم يقصد المطالب الثلاث التالية :

١ - اثبات الصانع (الخالق).

٢ - توحيد الذات وأنه واحد غير متعدد.

٣ - التوحيد في الخالقية، وأنه لا خالق سواه.

بل كان تركيزه عليه السلام على التوحيد في «الربوبية» و«التدبير» وادارة الكون، وانه لا مدبر ولا مربي للموجودات الأرضـية إلا اللّـه سـبحانه وتعالى، ومن هنا فانه عليه السلام فور إبطاله لربوبية الاجرام السماويـة

قال : «وجهتُ وجهي للّذي فطر السماواتِ والأرض...» وهو يعني ان خالق السماوات والأرض هو نفسه مدبرها وربها، وانه لم يفوض أي شيء من تدبير الكون، - لا كله ولا بعضه - الى الاجرام السماويـة، فتكـون النتيجة : أن الخالق والمدبر واحد لا أن الخالق هو اللّه والمدبر شيء آخر.

ولقد وقع المفسرون، والباحثون في معارف القرآن في خطأ، والتباس عند التعرض لمنطق «إبراهيم» عليه السلام وشرح حواره هذا، حيث تصوروا أن الخليل عليه السلام قصد نفي «ألوهية» هذه الأجرام يعني الالوهية التي تعتقد بها

---

(١) الأنعام : ٧٩.

جميع شعوب الأرض ويكون هذا الكون الصاخِب آية وجوده.

بينما تصور فريق آخر ان «إبراهيم» كان يقصد نفي «الخالقية» عن هـذه الأجرام السماوية، لأنه من الممكن ان يخلق إله العالم كائناً كامل الوجـود والصفات ثم يفوض اليه مقام الخالقية في حين أن هذين التفسـيرين غيـر صحيحين، بل كان هدف الخليل عليه السلام - بعد التسليـم بوجـود الـه واجب الوجود، وتوحيده، ووحدانية الخالق - البحث في قسم آخـر مـن التوحيد، الا وهو التوحيد «الربوبي»، وبالتالي اثبات أن خالق الكون هـو

نفسه مدبر ذلك الكون أيضاً، وعبارة : «وجهتُ وجهـي...» أفضـل شاهد على هذا النوع من التفسير.

من هنا كان التركيز الأكبر في بحث ابـراهيم علـى مسألـة «الـرب» و«الربوبية» في صعيد الاجرام كالقمر والزهرة والشمس(١).

هذا واستكمالاً للبحث الحاضر لابد من توضيح برهان النـبي «ابـراهيم» عليه السلام.

لقد استدل «ابراهيم» في جميع المراحل الثلاث بأفول هذه الاجـرام علـى أنها لا تليق بتدبير الظواهر الارضية وبخاصة الإنسان.

وهنا ينطرح سؤال : لماذا يعتبر أفول هذه الاجـرام شـاهداً علـى عـدم مدبريتها ؟

إن هذا الموضوع يمكن بيانُه بصور مختلفة، كل واحدة منها تناسب طائفة معينة من الناس.

ان تفسير منطق «الخليل» عليه السلام واسلوبه في إبطال مدبرية الاجرام السماوية وربوبيتها بأشكال وصور مختلفة أفضل شاهد علـى أن للقـرآن الكريم أبعاداً مختلفة وأن كل بعدٍ منها يناسب طائفة من الناس.

(١) لقد بيّنا مراتب التوحيد من وجهة نظر القرآن الكريم في كتابنا «معالم التوحيد في القرآن الكريم» وأثبتنا هناك أنّ التوحيد في الذات غير التوحيد في الخالقية، وأن هذين النوعين من التوحيد غير التوحيد في الربوبية، وهي غير المراتب الأُخرى للتوحيد، فراجع الكتاب المذكور تقف على هذه الحقيقة.

واليك ما يلي التفاسير المختلفة لهذا الاستدلال :

الف : إن الهدف من اتخاذ الرب هو أن يستطيع الكائن الضعيف في ظـل قدرة ذلك الرب من الوصول الى مرحلة الكمال ولابد ان يكون لمثل هـذا الرب ارتباطٌ قريب مع الموجودات المراد تربيتها بحيث يكون واقفاً علـى أحوالها، غير منفصل عنها، ولا غريب عليها.

ولكن كيف يستطيع الكائن الذي يغيب ساعات كثيرة عن الفرد المحتاج اليه في التربية ويحرم ذلك الفرد من فيضه وبركته، ان يكون رباً للموجـودات الأرضية ومدبراً لها ؟!

من هنا يكون أفول النجم، وغروبه، الذي هو علامة غربته وانقطاعه عـن الموجودات الارضية خير شاهد على أن للموجودات الأرضية رباً آخـر، منزهاً عن تلك النقيصة عارياً عن ذلك العيب.

باء : ان طلوع الأجرام السماوية وغروبها وحركتها المنظمة دليل على أنها جميعاً خاضعة لمشيئة فوقها، وانها في قبضة القوانين الحاكمة عليها، والخضوع لقوانين منظمة هو بذاته دليل على ضعف تلـك الموجـودات، ومثل هذه الموجودات الضعيفة لا يمكن أن تكون حاكمة على الكـون، أو شيء من الظواهر الطبيعية، وأما استفادة الموجودات الارضية مـن نـور تلك الأجرام وضوئها فلا يدل أبداً على ربوبية تلك الأجرام، بل هو دليـل على أن تلك الأجرام تؤدي وظيفة تجاه الموجودات الأرضية بـأمر مـن موجود أعلى.

وبعبارة أُخرى : إن هذا الأمر دليل على التناسق الكوني، وارتباط الكائنات بعضها ببعض.

جيـم : ما هو الهدف من حركة هذه الموجودات ؟ هل الهدف هو أن تسير من النقص إلى الكمال أو بالعكس ؟

وحيث أن الصورة الثانية غير معقولة، وعلى فرض تصورها لا معنى لأن يسير المربي والمدبر للكون من مرحلة الكمال الى النقص والفناء، يبقـى الفرض الاول وهو بنفسه دليل على وجـود مـرب آخـر يوصـل هـذه الموجودات القوية في ظاهرها

من مرحلة الى مرحلة، هو - في الحقيقـة - الـرب الـذي يبلـغ بهـذه الموجودات وما دونها إلى الكمال.

طريقة الأنبياء في الحوار والجدال :

لقد اسلفنا في ما سبق أن «ابراهيم» - بعد خروجه مـن الغـار - واجـه صنفين منحرفين عن جادة التوحيد هما :

١ - الوثنيون.

٢ - عبدة الاجرام السماوية.

ولقد سمعنا حوار «ابراهيم» عليه السلام وجداله مع الفريق الثاني، وعلينا الآن أن نعرف كيف حاور الوثنيين وعبدة الاصنام ؟

إن تاريخ الانبياء والرسل يكشف لنا عن أنهم كانوا يبدأون دعـوتهم مـن انذار الاقربين ثم يوسعون دائرة الدعوة لتشمل عامة الناس كما فعل رسول الإسلام في بدء دعوته حيث بدأ بانذار عشيرته الاقربين لمـا امـره اللّـه تعالى بذلك اذ قال : «وأنذِر عشيرتك الأقربين»(١). وبذلك أسس دعوتـه على إصلاح اقربائه وعشيرته.

ولقد سلك «الخليل» عليه السلام نفس هذا المسلـك أيضـاً إذ بـدأ عملـه الاصلاحي باصلاح اقربائه.

ولقد كان لآزر بين قومه مكانة اجتماعية عليا فهو - مضافاً إلى معلوماته في الصناعة وغيرها - كان منجماً ماهراً، وذا كلمة مسموعة ورأي مقبول في بلاط «نمرود» في كل ما يخبر به من أخبار النجوم، وكل ما يستخرجه وما يستنبطه من الامور الفلكية ويذكره من تكهنات.

لقد ادرك «ابراهيم» ان بجلبه لآزر (عمه) يستطيع ان يسيطر على اوساط الوثنيين، ويجردهم من ركيزة هامة من كبريات ركائزهم، ولهذا بادر الى منع

---

(١) الشعراء : ٢١٤.

عمه آزر - وبافضل الاساليب - عن عبادة الاوثان، بيد أن بعض الأسباب أوجبت أن لا يقبل «آزر» بنصائح «ابراهيم» عليه السلام، والمهم لنا في هذا المجال هو ان نتعرف على كيفية دعوة الخليل وعلى اسلوب حواره مع «آزر».

ان الامعان في الآيات التي تنقل حوار «ابراهيم» عليه السلام مع «آزر» توضح لنا أدب الانبياء، واسلوبهم الرائع في الدعوة والارشاد، ولنقف عند حوار ابراهيم ودعوته، ليتضح لنا ذلك.

يقول القرآن الكريم عن ذلك : (إذ قال لأبيهِ يا أبتِ لِم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئاً. يا أبتِ إني قد جائني مِن العِلم مـا لـم يأتِـك فاتّبعني أهدِك صِراطاً سوياً. يا ابتِ لا تعبد الشيطان إن الشّيطـان كـان لِلرحمن عصِياً. يا أبت إنّي اخافُ أن يمسك عذاب مِن الـرحمن فتكُـون لِلشّيطان ولياً).

فاجابه «آزر» قائلاً : (أراغب أنت عن آلهتي يا إبراهيم لئـن لـم تنتـه لأرجمنك واهجرني ملياً).

ولكن «ابراهيم» بسعة صدره وعظمة روحه تجاهـل رد «آزر» العنيـف ذلك وأجابه قائلاً : «سلام عليك سأستغفِر لك ربي»(١).

وأي جواب أفضلُ مِن هذا البيان وأي لُغة ألين مِن هذه اللغة واحب الـى القلب، واكثر رحمة ولطفاً.

هل كان آزر والد إبراهيم ؟

ان الظاهر من الآيات المذكورة وكذا الآية (١١٥) من سـورة «التوبـة» والآية (١٤) من سورة الممتحنة هو : أن «آزر» كان والد إبراهيم عليـه السلام.

وقد كان إبراهيم يسميه أباً في حين كان «آزر» وثنياً، فكيف يصح ذلك وقد اتفقت كلمة علماء الشيعة عامة على كون والد النبي الكريم «محمد»

---

(١) مريم : ٤٢ - ٤٧.

صلّى اللّه عليه وآله وسلّم وجميع الأنبياء مؤمنين باللّه سبحان موحدين اياه تعالى.

ولقد ذكر الشيخ المفيد رضوان اللّه عليه في كتابه القيم «أوائل المقالات»(١) ان هذا الامر هو موضع اتفاق علماء الشيعة الامامية كافة بل وافقهـم في ذلك كثير من علماء السنة ايضاً.

وفي هذه الصورة ما هو الموقف من ظواهر الآيات المذكورة الـتي تفيـد أبوة «آزر» لإبراهيم، وما هو الحل الصحيح لهذه المشكلة ؟؟

يذهب أكثر المفسرين إلى أن لفظة «الأب» وان كانت تُستعمل عادة في لغة العرب في «الوالد»، إلا أن مورد استعمالها لا ينحصر في ذلك.

بل ربما استعملت - في لغة العرب وكذا في مصطلح القـرآن الكـريم -

في : (العم) أيضاً. كما وقع ذلك في الآية التالية التي اسـتعملت فيهـا لفظة الأب بمعنى العم اذ يقول سبحانه :

(إذ قالَ لِبنيه ما تعبدون مِن بعدي قالُوا نعبد إلهك وإلـه آبائـك إبراهيـم واسماعيل وإسحاق إلهاً واحِداً ونحن له مسلمون)(٢).

فإن مما لا ريب فيه أن «اسماعيل» كان عماً ليعقوب لا والداً له، فيعقوب هو ابن اسحاق، واسحاق هو أخو اسماعيل.

ومع ذلك سمى أولاد يعقوب «اسماعيل» الذي كان (عمهم) أباً.

ومع وجود هذين الاستعمالين (استعمال الاب في الوالد تارة، وفي العم تارة أُخرى) يصبح احتمال كون المراد بالاب في الآيـات المرتبطـة بهدايـة «آزر» هو العم أمراً وارداً، وبخاصة إذا ضممنا الى ذلك قرينة قوية فـي المقام وهي : اجماع العلماء الذي نقله المفيد رحمه اللّه على طهارة آبـاء الانبياء واجدادهم من رجس الشرك والوثنية.

ولعل السبب في تسمية النبي «ابراهيم» عمه بالأب هو أنه كان الكافل

---

(١) أوائل المقالات : ص ١٢ باب القول في آباء رسول صلّى اللّه عليه وآله.

(٢) البقرة : ١٣٣.

لابراهيم ردحاً من الزمن، ومن هنا كان «ابراهيم» ينظر اليه بنظر الأب، وينزله منزلة الوالد.

القرآن ينفي أبوة «آزر» لإبراهيم :

ولكي نعرف رأي القرآن الكريم في مسألة العلاقة بين «آزر» و«ابراهيم» عليه السلام نلفت نظر القارئ الكريم الى توضيح آيتين :

١ - لقد أشرقت منطقةُ الحجاز بنور الايمان والإسلام بفضل جهود النبـي «محمد» صلّى اللّه عليه وآله وسلّم وتضحياته الكبرى، وآمن اكثر النـاس به عن رغبة ورضا، وعلموا بأن عاقبة الشرك، وعبادة الاوثان والاصنام هو الجحيم والعذاب الاليم.

إلا أنهم رغم ابتهاجهم وسرورهم بما وفقوا له من إيمان وهدايـة، كانـت ذكريات آبائهم وأمهاتهم الذين مضوا على الشرك والوثنية تزعج خواطرهم وتثير شفقتهم، واسفهم.

وكان سماع الآيات التي تشرح أحوال المشركين في يوم القيامة يحزنهـم ويؤلمهم، وبغية ازالة هذا الالم الروحي المجهد طلبوا من رسول اللّه صلّى

اللّه عليه وآله أن يستغفر لآبائهم وأُمهاتهم كما فعل «إبراهيم» في شأن «آزر» فنزلت الآية في مقام الرد على طلبهم ذاك، اذ قال سبحانه :

(ما كان ِللنبي والذين آمنوا أن يستغفِروا ِللمشركين ولو كانُوا أُولي قربـى مِن بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم. وما كان استغفار إبراهيم لأبيـه إلا عن موعِدة وعدها إياه فلما تبين له أنه عدو للّه تبرأ مِنـه إن إبراهيـم لأواه حليم)(١).

إن ثمت قرائن كثيرة تدل على أن محادثة النبي «إبراهيم» وحـواره مـع «آزر» ووعده بطلب المغفرة له من اللّه سبحانه قـد انتهـى إلـى قطـع العلاقات،

---

(١) التوبة : ١١٣ و١١٤.

والتبري منه في عهد فتوة «إبراهيم»، وشبابه، أي عندما كان «إبراهيم» لا يزال في مسقط رأسه «بابل» ولم يتوجه بعد الى فلسطين ومصـر وأرض الحجاز.

إننا نستنتج من هذه الآية أن «إبراهيم» قطع علاقته مع «آزر» - في أيام شبابه - بعد ما أصر «آزر» على كفره، ووثنيته، ولم يعد يذكره الى آخر

حياته.

٢ - لقد دعا «إبراهيم» عليه السلام في أُخريات حياته - أي في عهد شيخوخته - وبعد أن فرغ من تنفيذ مهمته الكبرى (تعمير الكعبة) واسكان ذريته في أرض مكة القاحلة، دعا وبكل اخلاص وصدق جماعة منهم والداه، وطلب من اللّه إجابة دعائه، إذ قال في حين الدعاء :

(ربنا اغفِر لي ولوالدي وِللمؤمِنين يوم يقوم الحِساب)(١).

إن هذه الآية تفيد بصراحة - أن الدعاء المذكور كان بعد الفراغ من بناء الكعبة المعظمة، وتشييدها، يوم كان إبراهيم يمر بفترة الشيخوخة، فاذا كان مقصوده من الوالد في الدعاء المذكور هو «آزر» وانه المراد له المغفرة الالهية كان معنى ذلك أن «ابراهيم» كان لم يزل على صلة ب«آزر» حتى أنه كان يستغفر له في حين أن الآية التي نزلت رداً على طلب المشركين أوضحت بأن «إبراهيم» كان قد قطع علاقاته ب«آزر» في أيام شبابه، وتبرأ منه، ولا ينسجم الاستغفار مع قطع العلاقات.

إن ضم هاتين الآيتين بعضهما الى بعض يكشف عن أن الذي تبرأ منه «ابراهيم» في أيام شبابه، وقطع علاقاته معه، واتخذه عدواً هو غير الشخص الذي بقي يذكره، ويستغفر له الى أُخريات حياته(٢).

إبراهيم محطم الأصنام :

لقد حل موسم العيد، وخرج أهلُ بابل المغفّلون الجهلـة إلـى الصحـراء للاستجمام، ولقضاء فترة العيد، وإجراء مراسيمه، وقد أخلوا المدينة.

---

(١) إبراهيم : ٤١.

(٢) مجمع البيان : ج ٣ ص ٣٢١، والميزان : ج ٧ ص ١٧٠.

ولقد كانت سوابق «إبراهيم»، وتحامله على الأصنام، واستهزاؤه بهـا قـد أوجدت قلقاً وشكاً لدى أهل بابل، ولهذا طلبوا منه - وهم الذين يساورهـم القلق من موقفه تجاه اصنامهم - الخروج معهم إلى الصحراء، والمشاركة في تلك المراسيم، ولكن اقتراحهم هذا بل إصرارهم واجه رفض إبراهيـم الذي رد على طلبهم بحجة المرض اذ قال : «إنّي سقِيم» وهكذا لم يشترك في عيدهم، وخروجهم وبقي في المدينة.

حقاً لقد كان ذلك اليوم يوم ابتهاج وفرح للموحد والمشرك، وأما للمشركين فقد كان عيداً قديماً عريقاً يخرجون للاحتفال به، واقامة مراسيمه وتجديد ما كان عليه الآباء والاسلاف الى الصحراء حيث السفوح الخضراء والمزارع الجميلة.

وكان عيداً لإبراهيم بطل التوحيد كذلك، عيداً لم يسبق به مثيل، عيداً طال

انتظاره، وافرح حضوره وحلوله، فها هو إبراهيم يجد المدينة فارغـة من الاغيار، والفرصة مناسبة للانقضاض على مظاهر الشرك والوثنيـة، وحدث هذا فعلاً.

فعندما خرج آخر فريق من اهل بابل من المدينة، إغتنم «إبـراهيم» تلـك الفرصة ودخل وهو ممتلئ ايماناً ويقيناً باللّه في معبدهم حيـث الأصـنام والأوثان المنحوتة الخاوية، وأمامها الأطعمـةُ الكثـيرة الـتي احضرهـا الوثنيون هناك بقصد التبرك بها، وقد لفتت هذه الاطعمةُ نظـر «الخليـل» عليه السلام، فأخذ بيده منها كسرة خبز، وقدمها مستهزئاً الى تلك الاصنام قائلاً : لماذا لا تأكلون من هذه الاطعمة ؟

ومن المعلوم أن معبودات المشركين الجوفاء هذه لم تكن قادرة على فعـل أي شيء أو حركة مطلقاً فكيف بالاكل.

لقد كان يخيم على ذلك جو ذلك المعبد الكبير سحابة من الصمـت القاتـل ولكنه سرعان ما اخترقته اصوات المعول الذي اخذ «إبراهيم» يهوي بـه على رؤوس تلك التماثيل الجامدة الواقفة بلا حراك، وايديها.

لقد حطم «الخليل» عليه السلام جميع الاصنام وتركها ركاماً من الاعـواد المهشمة، والمعدن المتحطم، واذا بتلك الاصنام المنصوبة في اطراف ذلك الهيكل

قد تحولت الى تلة في وسط المعبد.

غير ان «ابراهيم» ترك الصنم الأكبر من دون ان يمسه بسـوء، ووضـع المعول على عاتقه، وهو يريد بذلك ان يظهر للقوم بأن محطم تلك الأصنام هو ذلك الصنم الكبير، إلا أن هدفه الحقيقي من وراء ذلك كان امراً آخـر سنبينه في ما بعد.

لقد كان «إبراهيم» عليه السلام يعلم بأن المشـركين بعـد عـودتهم مـن الصحراء، ومن عيدهم سيزورون المعبد، وسوف يبحثون عن علـة هـذه الحادثة، وأنهم بالتالي سوف يرون ان وراء هذا الظاهر واقعـاً آخـر، اذ ليس من المعقول ان يكون صاحب تلك الضربات القاضية هو هذا الصنـم الكبير الذي لا يقدر أساساً على فعل شيء على الاطلاق.

وفي هذه الحالة سوف يستطيع «إبراهيم» عليه السلام أن يستفيد من هـذه الفرصة في عمله التبليغي، ويستغل اعتراضهم بأن هذا الصنم الكبـير لا يقدر على شيء أبداً، لتوجيه السؤال التالي اليهم : اذن كيف تعبدونه ؟ !!

فمنذ أن اخذت الشمس تدنو الى المغيب ويقترب موعد غروبها، وتتقلـص اشعتها وتنكمش من الروابي والسهول، أخذ الناس يؤوبون إلـى المدينـة أفواجاً افواجاً.

وعندما آن موعد العبادة، وتوجهوا إلى حيث اصنامهم، واجهـوا منظـراً

فظيعاً وامراً عجيباً لم يكونوا ليتوقعونه !!

لقد كان المشهد يحكي عن ذلة الآلهة وحقارتها، وهو أمر لفت نظر الجميع شيباً وشباناً، كباراً وصغاراً.

ولقد كانت تلك اللحظة لحظة ثقيلة الوطأة على الجميع بلا استثناء.

فقد خيم سكوتٌ قاتلٌ مصحوب بحنق ومضض على فضاء ذلـك المعبـد المنكود الحظ.

إلا أن أحدهم خرق ذلك الصمت الرهيب وقال : من الذي ارتكـب هـذه الجريمة، ومن فعل هذا بآلهتنا ؟!

ولقد كانت آراء «إبراهيم» ومواقفه السلبية السابقة ضد الاصنام وتحاملـه الصريح عليها تبعثهم على اليقين بأن «إبراهيم» وليس سواه هو الذي صنع ما صنع بآلهتهم واصنامهم.

ولأجل ذلك تشكلت فوراً محكمة يرأسها «نمرود» نفسه وأخذوا يحـاكمون «ابراهيم» وأُمه !!

ولم يكن لأُمه من ذنب إلا أنها أخفت ابنها، ولم تُعلِم السلطات بوجـوده ليقضوا عليه، شأنه شأن غيره من المواليد الذين قضت تلك السلطة الظالمة عليهم حفاظاً على نفسها وكيانها.

ولقد أجابت أُم إبراهيم على هذا السؤال بقولها : أيها الملك فعلت هذا نظراً مني لرعيتك، فقد رأيتكتقتل أولاد رعيتك فكان يذهب النسل فقلت : إن كان هذا الذي يطلبه دفعتُه إليه ليقتله ويكف عن قتل أولاد الناس، وإن لم يكـن ذلك فبقي لنا ولدنا.

ثم جاء دور مساءلة إبراهيم عليه السلام فسأله قائلاً : «من فعل هذا بآلهتنا يا إبراهيم» فقال إبراهيم : « فعله كبيرهم هذا فاسألُوهم إن كانوا ينطِقُون».

وقد كان «إبراهيم» عليه السلام يهدف من هذه الاجابة اللامبالية المصحوبة بالسخرية والازدراء هدفاً آخر، وهو ان «إبراهيم» عليه السلام كان علـى يقين بأنهم سيقولون في معرض الاجابة على كلامه هذا : إنـك تعلـم يـا إبراهيم ان هذه الأصنام لا تقدر على النطق، وفي هذه الصورة يستطيـع «إبراهيم» أن يلفت نظر السلطات التي تحاكمه الى نقطة اساسية.

وقد حدث فعلاً ما كان يتوقعه «إبراهيم» عليه السلام لما قـالوا لـه وقـد نكسوا على رؤوسهم : «لقد عِلمت ما هؤلاء ينطِقُون» فقال إبـراهيم رداً على كلامهم هذا الذي كان يعكس حقارة تلك الاصنام والأوثـان وتفاهـة شأنها : «أفتعبدون مِن دون اللّه ما لا ينفعكُم ولا يضركم أُفّ لكُـم ولِمـا تعبدون مِن دون اللّهِ أفلا تعقِلُون».

إلا أن تلك الزمرة المعاندة التي ران على قلوبها الجهلُ والتقليد الأعمى لم

يجدوا جواباً لإبراهيم الذي أفحمهم بمنطقه الرصين الا أن يحكموا باعدامه حرقاً، فأوقدوا ناراً كبيرة وألقوا بإبراهيم عليه السلام فيهـا إلا أن العنايـة الالهية شملت إبراهيم الخليل عليه السلام، وحفظته من اذى تلـك النـار، وحولت ذلك الجحيم الذي اوجده البشر، الى جنينة خضراء نضرة اذ قال : «يا نار كُوني برداً وسلاماً على إبراهيم»(١).

العبر القيمة في هذه القصة :

مع ان اليهود يعتبرون أنفسهم في مقدمة الموحدين، لم ترد هذه القصة في توراتهم الحاضرة رغم كونها معروفة بينهم، بل تفرد القرآن الكـريم مـن بين الكتب السماوية بذكرها لأهميتها.

من هنا فإننا نذكر بعض النقاط المفيدة، والدروس المهمة في هذه القصـة التي يهدِفُ القرآن من ذكرها وذكر امثالها من قصص الأنبياء والرسل:

---

(١) وقد ذكر تفاصيل هذه القصة في الآيات ٥١ الى ٧٠ من سورة الانبياء وها نحن ندرج كل هذه الآيات هنا :

(ولقد آتينا إبراهيم رُشده من قبل وكُنا به عالِمين. إذ قال لأبيه وقومه ما هذه التماثيلُ الّتي أنتُم لها عاكِفُون. قالوا وجدنا آباءنا لها عابدين قال لقد كُنتُم أنتُم وآباؤُكم في ضلال مُبين. قالُوا أجئتنا بالحق أم أنت من اللاعبين قال بل ربكُم ربُ السّماواتِ والأرض الّذي فطرهُنّ وأنا على ذلكُم مِن الشاهدين وتاللّه لأكيدنّ أصنامكم بعد أن تُولُّوا مُدبرين. فجعلهُم جُذاذاً إلا كبيراً لهُم لعلّهُم إليه يرجِعُون. قالُوا من فعل هذا بِآلهتِنا إنّهُ لمِن الظّالمين. قالوا سمِعنا فتى يذكُرُهم يُقال لهُ إبراهيم. قالوا : فأتُوا به على أعيُن النّاس لعلّهُم يشهدُون قالُوا ءأنت فعلت هذا بآلِهتنا يا إبراهيم. قال بل فعلهُ كبيرُهم هذا فسئلُوهم إن كانوا ينطِقُون. فرجعُوا إلى أنفُسهم فقالوا إنّكم أنتم الظّالِمون، ثمّ نكِسُوا على رُؤوسِهم لقد علِمت ما هؤُلاء ينطِقون. قال : أفتعبُدون مِن دون اللّه ما لا ينفعكُم شيئاً ولا يضُرُّكم. أُف لكُم ولما تعبُدون مِن دون اللّه أفلا تعقِلُون. قالوا حرِّقُوه وانصُروا آلِهتكُم إن كنتم فاعِلين. قُلنا يا نارُ كوني برداً وسلاماً على إبراهيم. وأرادُوا به كيداً فجعلناهُم الأخسرين).

وللوقوف على تفاصيل وخصوصيات ولادة إبراهيم عليه السّلام وتحطيمه للأصنام راجع كتاب الكامل لابن الأثير : ج ١ ص ٥٣ - ٦٢، وبحار الأنوار : ج ١٢ ص ١٤ - ٥٥.

١ - إن هذه القصة خير شاهد على شجاعة «إبراهيم الخليل» عليه السلام وبطولته الفائقة.

فعزم ابراهيم على تحطيم الاصنام، ومحق وهدم كـل مظـاهر الشـرك والوثنية المقيتة لم يكن امراً خافياً على النمروديين لانه عليه السلام كان قد أظهر شجبه لها، واعلن عن استنكاره لعبادتها وتقديسها من خلال كلماتـه القادحة فيها، واستهزائه بها، فقد كان عليه السلام يقول لهم بكل صـراحة بانه سيتخذ من تلك الاصنام موقفاً ما اذا لم يتركوا عبادتها وتقديسها، فقـد قال لهم يوم ارادوا ان يخرجوا الى الصحراء لمراسيم العيـد : «وتاللّـه لأكِيدن أصنامكُم بعد أن تُولوا مدبرين»(١).

ولقد كان موقف الخليل عليه السلام ينم عن شجاعة كبرى فقـد قـال الإمام الصادق عليه السلام في هذا الصدد :

«ومنها (اي ومما تحلّى به النبي ابراهيم) الشجاعة وقد كشفـت (قضيـةُ) الاصنام عنه، ومقاومة الرجل الواحد ألوفاً من أعداء اللّه عز وجلّ تمـام الشجاعة»(٢).

٢ - ان ضربات «إبراهيم» القاضية وان كانت في ظاهرها حرباً مسلحة، وعنيفة ضد الاصنام إلا أن حقيقة هذه النهضة - كما يستفـاد مـن ردود «إبراهيم» على أسئلة الذين حاكموه، واسـتجوبوه - كانـت ذات صـبغة تبليغية دعائية.

فان «إبراهيم» لم يجد وسيلة لايقاظ عقول قومه الغافية، وتنبيـه فطرهـم الغافلة، إلا تحطيم جميع الاصنام، وترك كبيرها وقد علـق القـدوم علـى عاتقه ليدفع بقومه إلى التفكير في القضية من اساسها وحيث أن العمل لـم يكن اكثر من مسرحية إذ لا يمكن أن يصدق أحدهم بأن تلـك الضربـات القاضية كانت من صنع ذلك الصنم الكبير وفعله حينئذٍ يستطيع إبراهيم أن يستثمر فعله هذا في دعوته، ويقول ان هـذا الصنـم الكبـير لا يقـدر - وباعترافكم - على فعل أي شيء

---

(١) الأنبياء : ٥٧.

(٢) بحار الأنوار : ج ١٢ ص ٦٧.

مهما كان صغيراً وحقيراً فكيف تعبدونه اذن ؟ !

ولقد استفاد «إبراهيم» من هذه العملية فعلاً، وتوصل الى النتيجة التي كان يتوخاها، فقد ثابوا الى نفوسهم بعد ان سمعوا كلمـات «إبـراهيم» عليـه السلام، واستيقظت ضمائرهم وعقولهم ووصفوا انفسهم بالظلم بعد أن تبين لهم الحق وبطل ما كانوا يعبدون اذ قال تعالى : «فرجعوا إلى أنفُسِهم فقالُوا إنّكم أنتم الظّالِمون»(١) وهذا بنفسه يفيد بأن سلاح الانبياء القاطع في بـدء عملهم الرسالي كان هو : سلاح المنطق والاستدلال ليس إلا، غاية الأمـر أن هذا كان يؤدى في كل دورة بما يناسبها من الوسائل، وإلا فمـا قيمـة تحطيم عدد من الأصنام الخشبية بالقياس إلى مخـاطرة النـبي «ابراهيـم الخليل» بنفسه وحياته، وبالقياس الى الاخطار التي كانت تتوجه اليه نتيجة هذا العمل الصارخ.

إذن فلابد ان يكون وراء هذه العملية الخطيرة هدفٌ كبير وخدمة عظمـى تستحق المخاطرة بالنفس، ويستحق المرء امتداح العقل له اذا عرض حياته للخطر في سبيلها.

٣ - لقد كان إبراهيم يعلم جيداً بأن هذا العمل سيؤدي بحياته، وسيكون فيه حتفه، فكانت القاعدة تقتضي أن يسيطر عليه قلقٌ واضـطراب شـديدان، فيتوارى عن أعين الناس، أو يترك المزاح، والسخريـة بالأصـنام علـى

الأقل، ولكنه كان على العكس من ذلك رابط الجأش، مطمئن النفـس، ثابت القدم، فهو عندما دخل في المعبد الذي كانت فيه الأصنام تقدم بقطعة من الخبز الى الاصنام ودعاها ساخراً بها، الى الاكل، وثم ترك الأصـنام بعد اليأس منها تلاً من الخشب المهشم، واعتبر هذا الامر مسألة عاديـة لا تستأهل الوجل والخوف، وكأنه لم يفعـل مـا يستتبـع المـوت المحقـق ويستوجب الاعدام المحتّم.

فهو عندما يأخذ مكانه امام هيئة القضاة يقول معرضاً بالاصنام : فعله كبير الأصنام فاسئلوه ولا شك أن هذا التعريض والسخرية إنما هو موقف من

---

(١) الأنبياء : ٦٤.

لا يوجس خيفة، ولا يشعر بوجل من عمله، بل هو فعل من قد هيأ نفسـه لكل الاخطار المحتملة، واستعد لكل النتائج مهما كانت خطيرة.

بل الأعجب من هذا كله دراسة وضع «إبراهيم» نفسه حينمـا كـان فـي المنجنيق وقد تيقّن أنه سيكون وسط ألسنة اللهب بعد هنيئة، وتلتهمه النـار المستعرة تلك النار التي جمع اهل «بابل» لها الحطب الكثير تقربـاً الـى آلهتهم، وكانوا يعتبرون ذلك العمل واجباً مقدساً.. تلك النار التي كان لهيبها من القوة بحيث ما كانت الطيور تستطيع من التحليق على مقربة منها.

في هذه اللحظة الخطيرة الحساسة جاءه جبرئيل واعلن عن استعداده لانقاذه وتخليصه من تلك المهلكة الرهيبة قائلاً له : هل لك إلي من حاجة ؟ فقـال «إبراهيم» : أما إليك فلا، وأما إلى رب العالمين فنعم(١).

ان هذا لجواب يجسد ايمان «إبراهيم» العظيم، وروحه الكبرى.

لقد كان «نمرود» الذي جلس يراقب تلك النار من عدة فراسـخ، ينتـ ظار بفارغ الصبر لحظة الانتقام، وكان يحب ان يرى كيف تلتهم ألسنـة النـار «إبراهيم». فما أرهب تلك اللحظات !

لقد اشتغل المنجنيقُ، وبهزة واحِدة أُلقي بإبراهيم عليه السلام في وسط النار غير أن مشيئة اللّه، وارادته النافذة تدخلت فوراً لتخلص خليل اللّه ونبيـه العظيم، فحولت تلك النّار المحرقة التي أوقدتها يد البشـر الـى روضـة خضراء وجنينة زاهرة ادهشت الجميع حتى أن «إبـراهيم» التفـت إلـى «آزر» وقال - من دون ارادته - : «يا آزر ما اكرم إبراهيم على ربه»(٢).

إن انقلاب تلك النّار الهائلة الى روضة خضراء لإبراهيم قد تم بأمر اللّـه المسبب للأسباب والمعطل لها متى شاء، المعطي لها آثارها، والساب عنها ذلك، متى ارد.

---

(١) عيون أخبار الرضا : ص ١٣٦، وأمالي الصدوق : ص ٢٧٤، وبحار الأنوار : ج ١٢ ص ٣٥.

(٢) تفسير البرهان : ج ٣ ص ٦٤.

قبل فهرس بعد

اجل إن اللّه الذي منح الحرارة للنّار والاضاءة للقمر، والاشعاع للشمـس لقادر على سلب هذه الآثار وانتزاعها من تلك الاشياء وتجريـدها، ولهـذا صح وصفُه بمسبب الاسباب، ومعطلها.

غير ان جميع هذه الحوادث الخارقة والآيات الباهرة لم تستطع ان توفـر لابراهيم الحرية الكاملة في الدعوة والتبليغ، فقد قررت السلطـة الحاكمـة وبعد مشاورات ومداولات إبعاد «إبراهيم» ونفيه، وقد فتـح هـذا الأمـر صفحة جديدة في حياة ذلك النبي العظيم، وتهيأت بذلك اسباب رحلته الـى بلاد الشام وفلسطين ومصر وارض الحجاز.

هجرة الخليل عليه السلام :

لقد حكمت محكمة «بابل» على «إبراهيم» بالنفي والإبعاد من وطنه، ولهذا اضطر عليه السلام ان يغادر مسقط رأسـه، ويتوجـه صـوب فلسطيـن ومصر، وهناك واجه استقبال العمالقة الذين كانوا يحكمـون تلـك البقـاع وترحيبهم الحار به ونعم بهداياهم التي كان من جملتهـا جاريـة تدعـى «هاجر».

وكانت زوجته «سارة » لم تُرزق بولد الى ذلك الحيـن، فحركـت هـذه

الحادثة عواطفها ومشاعرها تجاه زوجها الكريم إبراهيم ولذلك حثتـه على نكاح تلك الجارية علّه يرزقُ منها بولد، تقر به عينُـه وتزدهـر بـه حياته.

فكان ذلك، وولدت «هاجر» لإبراهيم ولداً ذكراً سمي باسماعيل، ولم يمض شيء من الزمان حتى حبلت سارة هي أيضاً وولدت - بفضل اللّه ولطفـه - ولداً سمي باسحاق(١).

وبعد مدة من الزمان أمر اللّه تعالى «إبراهيم» بان يذهب بإسماعيل وأمـه «هاجر» إلى جنوب الشام (أي ارض مكة) ويسكِنهما هناك في واد غيـر معروف الى ذلك الحين... واد لم يسكنه احد بل كانت تنزل فيـه القوافـل التجارية

---

(١) بحار الأنوار : ج ١٢ ص ١١٨ و١١٩.

الذاهبة من الشام الى اليمن، والعائدة منها الى الشام، بعض الوقت ثم ترحل سريعاً، وأما في بقية أوقات السنة فكانت كغيرها مـن أراضـي الحجـاز صحراء شديدة الحرارة، خالية عن أي ساكن مقيم.

لقد كانت الاقامة في مثل تلك الصحراء الموحشة عملية لا تطاق بالنسبـة

لإمرأة عاشت في ديار العمالقة وألفت حياتهم وحضـارتهم، وترفهـم وبذخهم.

فالحرارة اللاهبة والرياح الحارقة في تلك الصحراء كانـت تجسـد شـبح الموت الرهيب امام ابصار المقيمين.

وإبراهيم نفسه قد انتابته كذلك حالةٌ من التفكير والدهشة لهذا الامر، ولهذا فإنّه فيما كان عازماً على ترك زوجته «هاجر» وولده «إسماعيل» في ذلك الواد قال لزوجته «هاجر» وعيناه تدمعاه : «إن الذي أمرني أن اضعكُم في هذا المكان هو الذي يكفيكم».

ثم قال في ضراعة خاصة : (رب اجعل هذا بلداً آمناً وارزق أهلَـه مِـن الثمرات من آمن مِنهم بِاللّه واليومِ الآخر)(١).

وعندما انحدر من ذلك الجانب من الجبل التفت اليهما وقال داعياً : (ربنـا إنّي أسكنتُ مِن ذُريتي بِواد غير ذي زرعٍ عند بيتك المحرم ربنا ليقيمـوا الصلاة فاجعل أفئدةً مِن النّاس تهوي إليهم وارزقهم مِن الثّمـراتِ لعلهـم يشكرون)(٢).

إن هذا السفرة والهجرة وإن كانت في ظاهرها امراً صـعباً، وعمليـة لا تطاق، إلا أن نتائجها الكبرى التي ظهرت في ما بعد أوضـحت وبينـت أهمية هذا العمل، لأن بِناء الكعبة، وتأسيس تلك القاعـدة العظمـى لأهـل التوحيد، ورفع راية التوحيد في تلك الربوع، وخلق نواة نهضة، عميقـة،

دينية، انبثقت على يد رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله وسلّم وشعت من تلك الديار إلى أنحاء العالم، كل ذلك كان من ثمار تلك الهجرة.

---

(١) البقرة ١٢٦.

(٢) إبراهيم : ٣٧.

عين زمزم كيف ظهرت ؟

لقد غادر «إبراهيم» عليه السـلام أرض مكـة تاركـاً زوجتـه وولـده «إسماعيل» بعيون دامعة، وقلب يملأه الرضا بقضاء اللّه والامـل بلطفـه وعنايته.

فلم تمض مدة إلا ونفد ما ترك عندهما من طعام وشراب، وجف اللبن في ثديي «هاجر»، وتدهورت أحوال الرضيع «إسماعيل»، وكانت دموع الام الحزينة تنحدر على حجره، وهي تشاهد حال وليدها الذي قد أخذ العطـش والجوع منه مأخذاً.

فانطلقت من مكانها فجأة تبحث عن الماء حتى وصلت إلى جبل «الصفـا» فرأت من بعيد منظر ماء عند جبل «مروة»، فاسرعت إليه مهرولة، غيـر

ان الذي رأته وظنته ماء لم يكن الا السراب الخادع، فزادها ذلك جزعاً وحزناً على وليدها مما جعلها تكرر الذهاب والاياب الى الصفا والمـروة أملاً في أن تجد الماء ولكن بعد هذا السعي المتكرر، والـذهاب والايـاب المتعدد بين الصفا والمروة عادت الى وليدها قانطةً يائسةً.

كانت أنفاس الرضيع الظامئ ودقّات قلبه الصغير قد تباطأت بل واشـرفت على النهاية، ولم يعد ذلك الرضيع الظامئ قادراً على البكاء ولا حتى على الانين.

ولكن في مثل هذه اللحظة الحرجة الصعبة استجاب اللّه دعاء خليله وحبيبه «إبراهيم»، اذ لاحظت هاجر الماء الزلال وهو ينبـع مـن تحـت اقـدام «اسماعيل».

فسرت تلك الام المضطربة - التي كانت تلاحظ وليـدها وهـو يقضـي اللحظات الاخيرة من حياته، وكانت على يقين بانه سـرعان مـا يمـوت عطشاً، وجهداً - سروراً عظيماً بمنظر الماء، وبرق فـي عينيهـا بريـق الحياة، بعد ان اظلمت الدنيا في عينيها قبل دقائق، فشربت من ذلك المـاء العذب، وسقت منه رضيعها الظامئ، وتقشعت بلطف اللّه وعنايتـه وبمـا بعثه من نسيم الرحمة الربانية كل غيوم اليأس، وسحب القنوط التي تلبدت وخيمت على حياتها.

ولقد ادى ظهور هذه العين التي تدعى بزمزم في ان تتجمع الطيور في تلك

المنطقة وتحلق فوق تلك البقعة التي لم يعهد أن حلقت عليها الطيـور، وارتادتها الحمائم، وهذا هو ما دفع بجرهم وهي قبيلة كانـت تقطـن فـي منطقة بعيدة عن هذه البقعة ان تتنبه إلى ظهور ماء فيها لما رأت تساقـط الطيور وتحليقها، فأرسلت واردين ليتقصيا لها الخبر ويعرفا حقيقة الأمر، وبعد بحث طويل وكثير، انتهيا الى حيث حلت الرحمة الالهيـة، وعندمـا اقتربا إلى «هاجر» وشاهداً بام عينيهما «امرأة» و«طفلاً» عند عين مـن الماء الزلال الذي لم يعهداه من قبل عادا من فورهما من حيث أتيا، وأخبرا كبار القبيلة بما شاهداه، فاخذت الجماعة تلو الجماعة من تلك القبيلة الكبيرة تفد إلى البقعة المباركة، وتخيم عند تلك العين لتطرد عن «هاجر» وولدها مرارة الغربة، ووحشة الوحدة، وقد سبب نمو ذلك الوليد المبارك ورشـده في رحاب تلك القبيلة في ان يتزوج إسـماعيل هـذا مـن تلـك القبيلـة، ويصاهرهم، وبذلك يحظى بحمايتهم له، وينعم بدفاعهم ورعايتهم ومحبتهم له.

فانه لم يمض زمان حتى إختار «إسماعيل» زوجة من هذه القبيلة، ولهـذا ينتمي ابناء «إسماعيل» الى هذه القبيلة من جهة الأم.

تجديد اللقاء :

كان إبراهيم عليه السلام بعد أن ترك زوجته «هاجر» وولده «إسـماعيل» في ارض «مكة» بأمر اللّه، يتردد على ولده بين فينة وأُخرى.

وفي احدى سفراته ولعلّها السفرة الأُولى دخل «مكـة» فلـم يجـد ولـده

«إسماعيل» في بيته، وكان ولده الذي أصبح رجلاً قوياً، قـد تـزوج بامرأة من جرهم.

فسأل «إبراهيم» زوجته قائلاً : اين زوجك ؟ فقالت : خرج يتصيد، فقـال لها : هل عندك ضيافة ؟ قالت : ليس عندي شيء وما عندي أحد، فقال لها إبراهيم : «اذا جاء زوجك فأقرئيه السلام وقولي له : فليغير عتبة بابه».

وذهب إبراهيم عليه السلام منزعجاً من معاملة زوجة ابنه «إسماعيل» لـه وقد قال لها ما قال.

ولما جاء إسماعيل عليه السلام وجد ريح ابيه فقال لامرأته : هـل جـاءك احد ؟ قالت : جاءني شيخ صفته كذا وكذا كالمستخِّفة بشأنه، قال : فمـاذا قال لك ؟ قالت : قال لي أقرئي زوجك السلام وقولي لـه: فليغيـر عتبـة بابه !!

فطلقها وتزوج أُخرى، لأن مثل هذه المرأة لا تصلـح ان تكـون زوجـة وشريكة حياة(١).

وقد يتساءل أحد : لماذا لم يمكث إبراهيم عليه السلام هناك قليلاً ليرى ولده إسماعيل بعد عودته من الصيد، وقد قطع تلك المسافة الطويلة، وكيف سمح لنفسه بان يعود بعد تلك الرحلة الشاقة من دون ان يحظـى برؤيـة ابنـه

العزيز ؟!

يجيب ارباب التاريخ على ذلك بان إبراهيم انما استعجل في العـودة مـن حيث انى لوعد اعطاه لزوجته سارة بأن يعود اليها سريعاً، ففعل ذلك حتى لا يخاف. وهذا من اخلاق الانبياء.

ثم إن «إبراهيم» سافر مرة أُخرى إلى أرض مكة بأمر اللّه، وليبني الكعبة التي تهدمت في طوفان «نوح»، ليوجه قلوب المؤمنين الموحدين إلى تلـك النقطة.

إن القرآن الكريم يشهد بأن أرض «مكة» قد تحولت إلى مدينة بعـد بنـاء الكعبة قبيل وفاة إبراهيم عليه السلام، لأن إبراهيم دعا بعيد فراغه من بناء الكعبة قائلا :

(رب اجعل هذا البلد آمِناً واجنُبني وبِني أن نعبد الأصنام)(٢) على حيـن دعا عند نزوله مع زوجته، وابنه إسماعيل في تلك الأرض قائلاً :

(رب اجعل هذا بلداً آمِناً)(٣).

وهذا يكشف عن ان مكة تحولت الى مدينة عامرة في حياة الخليل

(١) بحار الأنوار : ج ١٢ ص ١١٢ نقلاً عن قصص الأنبياء.

(٢) إبراهيم : ٣٥.

(٣) البقرة : ١٢٦.

عليه السلام، بعد ان كانت صحراء قاحلة، وواد غير ذي زرع.

* * *

ولقد كان من المستحسن استكمالاً لهذا البحث أن نشرح هنا كيفيـة بنـاء الكعبة المعظمة، ونستعرض التاريخ الاجمالي لذلك، بيد أننا لكي لا نقصر عن الهدف المرسوم لهذا الكتاب اعرضنا عن ذلك وعمدنا إلى ذكر بعض التفاصيل عن أبرز واشهر أجداد رسول اللّه، صلّى اللّه عليه وآله وسـلّم، في التاريخ.

٢ - قُصي بن كلاب :

إن أسلاف الرسول العظيم صلّى اللّه عليه وآله هم على التوالي : عبد اللّه، عبد المطلِب، هاشم، عبد مناف، قُصي، كِلاب، مرة، كعب، لُؤي، غالِـب، فِهر، مالِك، النضر، كِنانة، خُزيمة، مدركة، إلياس، مضر، نـزار، معـد، عدنان(١).

من المسلّم أن نسب النبي الاكرم صلّى اللّه عليه وآله إلى عدنان هـو مـا ذُكر، فلا خلاف فيه، إنما وقع الخلاف في عدد، واسماء من هم بعد عدنان إلى إسماعيل عليه السلام، ولذلك لم يجز التجاوز عنه لحـديث رواه ابـن عباس عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله اذ قال : «إذا بلَغ نسـبي إلـى عدنان فأمسِكُوا»(٢) هذا مضافاً إلى أن النبي نفسه كان اذا عدد أجداده فبلغ إلى عدنان أمسك، ونهى عن ذكر من بعده الى إسماعيل، وقد روي عنـه صلّى اللّه عليه وآله أنه قال : كذِب النسابون.

ولهذا فإننا نكتفي بذكر من أُتفِق عليه، ونعمد الى الحديث عن حيـاة كـل واحد منهم.

ولقد كان كل من ذكرنا أسماءهم هنا معروفين، ومشهورين في تاريخ

---

(١) التاريخ الكامل : ج ٢ ص ٢ - ٢١.

(٢) بحار الأنوار : ج ١٥ ص ١٠٥ عن مناقب ابن شهراشوب، وكشف الغمّة : ج ١ ص ١٥.

العرب، بيد أن حياة طائفة منهم ترتبط بتاريخ الإسلام، ولهذا فاننا نقف عند حياة «قصي» ومن لحقه إلى والد النبي «عبد اللّه» ونعرض عن ذكر حياة

غيرهم من أجداده وأسلافه صلّى اللّه عليه وآله ممن لا علاقة له بهذه الدراسة(١).

أما «قُصي» وهو الجد الرابع لرسول اللّه صلّى اللّـه عليـه وآلـه فأمـه «فاطمة» التي تزوجت برجل من بني كلاب ورزقت منه بولـدين همـا : «زهرة» و«قصي» إلا أن زوج فاطمة قد توفي، وهذا الاخير لم يزل فـي المهد، فتزوجت بزوج آخر يدعى ربيعة، وسافرت معه الى الشام، وبقـي «قصي» يحظى برعاية أبوية من ربيعة حتى وقع خلاف بين قصي وقوم ربيعة، واشتد ذلك الخلاف حتى انتهى إلى طرده من قبيلتهم، مما أحـزن ذلك أُمه، واضطرت الى إرجاعه الى «مكة». وهكذا اتت به يد القدر إلى «مكة»، وسببت قابلياته الكامنة التي برزت في تلك المدينة في تفوقه على أهل مكة وبخاصة قريش.

وسرعان ما احتل قصي هذه المقامات العالية، وشغل المناصب الرفيعـة، مثل حكومة «مكة» وزعامة قريش، وسدانة الكعبة المعظمة، وصار رئيس تلك الديار دون منازع.

ولقد ترك (قصي) من بعده آثاراً كثيرة وعديدة منها تشجيع الناس على بناء المساكن والبيوت حول الكعبة المعظمة، وتأسيس مكان للشورى ليجتمع فيه رؤساء القبائل العربية من اجل التداول في الامور وحل المشاكـل يدعـى بدار الندوة.

وقد توفي «قصي» في القرن الخامس الميلادي وخلف من بعـده ولديـن

هما : «عبد الدار» و«عبد مناف».

٣ - عبد مناف :

وهو الجد الثالث لرسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله واسمه «المغيرة» ولقبه

---

(١) لقد بحث ابن الأثير في الكامل حول حياتهم فراجع : ج ٢ ص ١٥ - ٢١.

«قمر البطحاء»، وكان أصغر من اخيه «عبد الدار» إلا أنه كـان يحظـى بمكانة خاصة عند الناس دون أخيه، وكان شعاره التقوى، ودعوة النـاس الى حسن السيرة وصلة الرحم، بيد انه مع ما كان له من المكانة القوية لم ينافس اخاه «عبد الدار» في المناصب العالية التي كان يشغلها.

فقد كانت الزعامة لاخيه عبد الدار حسب وصية أبيهما «قصي».

ولكن بعد وفاة هذين الأخوين وقع الخصام والتنازع بـ ين أبنائهمـا علـى المناصب، وانتهى ذلك بالصراع الطويل إلى اقتسام المناصب والمقامـات، وتقرر ان يتولى ابناء عبد الدار سدانة الكعبة، وزعامة دار الندوة، ويتولى ابناء عبد مناف سقاية الحجيج وضيافتهم ووفادتهم.

وقد بقي هذا التقسيم المتفق عليه ساري المفعول الى زمن ظهور الإسلام(١).

٤ - هاشم :

وهو الجد الثاني لنبي الإسلام واسمه «عمرو» ولقبه «العلاء» وهو الـذي ولد مع «عبد شمس» توأمين، وأخواه الآخران هما : «المطلب» و«نوفل».

هذا وثمة خلاف بين أرباب السير وكتاب التاريخ في : أن هاشـماً وعبـد شمس كانا توأمين، وأن هاشماً ولد واصبع واحدة من اصابع قدمه ملصقة بجبهة «عبد شمس» وقد نزعت بسيلان دم، فتشاءم الناس لذلك(٢) يقـول الحلبي في سيرته : فكانوا يقولون : سيكون بينهما دم فكان بين ولديهما أي بين بني العباس

---

(١) لم تكن هناك مناصب للكعبة يوم أُسّست ورُفع قواعدُها بل حدث كل ذلك تدريجاً بحكم المقتضيات والتطوّرات، وكانت هذه المناصب التي استمرت الى زمن ظهور الإسلام عبارة عن :

١ - سدانة الكعبة.

٢ - سقاية الحجيج.

٣ - رفادتهم وضيافتهم.

٤ - زعامة المكيين وقيادة جيشهم. ولم يكن هذا الأخير منصباً ذا صبغة دينية.

(٢) تاريخ الطبري : ج ٢ ص ١٣.

(وهم من اولاد هاشم) وبين بني امية (وهم من اولاد عبد شمس)(١).

وكأن كاتب السيرة قد تجاهل الحوادث المحزنة والمؤسفة التي وقعت بين بني امية وابناء علي عليه السلام في حين أن تلك الحوادث الداميـة التـي تسببها بنو امية وأهرقت فيها دماء ذرية رسول اللّه وعترتـه الطـاهرة، اقوى شاهد على تلك العداوة بين هاتين الطائفتين، ولكننا لا نـدري لمـاذا تجاهل ذكرها مؤلف السيرة الحلبية ولم يشر اليها مطلقاً ؟!

ثم ان من خصوصيات أبناء «عبد منـاف» حسبمـا يستفـاد مـن الأدب الجاهلي، وما جاء فيه من أشعار، أنهم توفوا في مناطق مختلفة.

فهاشم - مثلاً - توفي في «غزة» وعبد شمس مات في مكة، ونوفل فـي ارض العراق، والمطلب في ارض اليمن(٢).

وكان من سجايا هاشم واخلاقه الفاضلة أنه كان كلّما هل هلال شـهر ذي الحجة قام صبيحته، وأسند ظهره الى الكعبة المشرفة، وخطب قائلاً : «يـا معشر قريش إنكم سادة العرب وأحسنها وجوهاً، وأعظمهـا احلامـاً (اي

عقولاً) وأوسط العرب (اي أشرفها) أنساباً، وأقرب العـرب بـالعرب أرحاماً.

يا معشر قريش إنكم جيران بيت اللّه تعالى اكرمكُم اللّه تعـالى بولايتـه، وخصكم بجواره، دون بني إسماعيل، وانه يأتيكم زوار اللّه يعظمون بيتـه فهم أضيافه وأحق من اكرم أضياف اللّه انتم، فـاكرموا ضـيفه وزواره، فانهم يأتون شعثاً غبراً من كل بلد على ضوامر كالقداح، فاكرموا ضـيفه وزوار بيته، فورب هذه البنية لو كان لي مال يحتمل ذلك لكفيتكموه، وأنـا مخرج من طيب مالي وحلاله ما لم يقطع فيه رحم، ولم يؤخذ بظلم، ولـم يدخل فيه حرام، فمن شاء منكم ان يفعل مثل ذلك فعل، وأسألكم بحرمة هذا البيت أن لا يخرج رجلٌ منكم من ماله لكرامة زوار بيت اللّه وتقويتهم، إلا طيباً لم يؤخذ ظلماً، ولم يقطع فيه رحم، ولم يؤخذ غصباً»(٣).

---

(١) السيرة الحلبية : ج ١ ص ٤.

(٢) السيرة الحلبية : ج ١ ص ٥.

(٣) السيرة الحلبية : ج ١ ص ٦.

ولقد كانت زعامة «هاشم» وقيادته نافعة للمكيين من جميع النواحي، وكان لها تأثير كبير في تحسين أوضاعهم.

ولقد سبب كرمه وما قام به من إطعام واسع في سنوات الجدب القاسية في تخفيف شدة الوطأة عن أهل مكة، وبالتالي ادى الى عدم احساسهم بالقحط، وآثار الجدب.

كما أن من خطواته البارزة واعماله النافعة جداً لتحسين الحالـة التجاريـة للمكيين هو ما عقده مع أمير «غسان» من المعاهدة، الأمر الذي دفع بأخيه «عبد شمس» إلى أن يعاهد أمير الحبشة، وبأخويه الآخـرين «المطلـب» و«نوفل» الى ان يعاهدا أمير اليمن وملك ايران تكون القوافـل التجاريـة بموجب تلك المعاهدات للجانبين في أمان، من العدوان والتعرض.

وقد أزالت هذه المعاهداتُ الكثير من المشاكـل، وكانـت وراء ازدهـار التجارة في «مكة المكرمة» حتى عهد بزوغ شمس الإسلام.

ثم ان من أعمال «هاشم» وخطواته النافعة تأسيسه لرحلتي قريش اللتيـن يتحدث عنهما القرآن الكريم اذ يقول : «رحلة الشتاء والصيـف» وهمـا رحلة إلى الشام، وكانت في الصيف، ورحلة الى اليمن، وكانت في الشتاء، وقد استمرت هذه السيرة حتى ما بعد ظهور الإسلام ايضاً.

أمية بن عبد شمس يحسد هاشماً :

ولقد حسد «أمية بن عبد شمس» ابن أخي هاشم عمه «هاشماً» علـى مـا حظي به من المكانة والعظمة، والنفوذ الى قلوب الناس وجذبها نحوه بسبب

خدماته وأياديه، وما كان يقوم به من بذل وانفاق، وحـاول جاهـداً ان يقلده ويتشبه بهاشم في سلوكه ولكنه رغم كل مـا قـام بـه مـن جهـود ومحاولات لم يستطع أن يتشبه به ويتخذ سيرته، وكما لم يستطع بايقاعـه وطعنه به ان يقلل من شأنه بل زاده رفعة وعظمة.

لقد كان لهيب الحسد في قلب «أمية» يزداد اشتعالاً يوماً بعد يوم، حتى

دفع به الى ان يدعو عمه «هاشماً» للذهاب إلى كاهن من كهنـة العـرب للمنافرة عنده فتكون الرياسة والزعامة لمن يمدحه ذلك الكـاهن، وكانـت عظمة «هاشم» وسمو مقامه تمنع من منافرة ابن اخيه (أمية) إلا أنه رضي بالمنافرة هذه تحت اصرار (أمية) بشرطين :

١ - أن يعطي المغلوب خمسين من النياق سود الحدق تنحر بمكة.

٢ - جلاء المغلوب عن مكة عشر سنين.

ومن حسن الحظ أن ذلك الكاهن نطق بمدح «هاشم» بمجـرد أن وقعـت عيناه عليه فقال : «والقمر الباهر، والكوكب الزاهر، والغمام الماطر... لقد سبق هاشم أمية إلى المآثر» الى آخر كلامه. وهكذا قضى لهاشم بالغلبـة فأخذ الابل فنحرها وأطعمها واضطر أمية الى الجلاء عن مكـة والعيـش بالشام عشر سنين(١).

وقد استمرت آثار هذا الحسد التاريخي إلى ١٣٠ عاماً بعد ظهور الإسلام، وتسببت في جرائم وفجائع كبرى عديمة النظير في التاريخ.

ثم ان القصة السابقة مضافاً الى انها تبين مبـدأ العـداوة بيـن الأمويـن والهاشميين تبين أيضاً علل نفوذ الأمويين في البيئة الشاميـة، ويتبيـن أن علاقات الأمويين العريقة بأهل هذه المنطقة هي التي مهدت لقيام الحكومة الأموية في تلك الديار.

هاشم يتزوج...

كانت «سلمى» بنت «عمرو الخزرجي» امرأة شريفة في قومها، قد فارقت زوجها بطلاق، وكانت لا ترضى بالزواج من أحد، ولدى عودة «هاشـم» من بعض أسفاره نزل في يثرب أياماً فخطبها إلى والدها، فرغبت سـلمى فيه لشرفه في قريش، ولنبله وكرمه، ورضيت بالزواج منـه بشـرطين : أحدهما أن لا تلد ولدها

---

(١) الكامل لابن الاثير : ج ٢ ص ١٠، والسيرة الحلبية : ج ١ ص ٤.

إلا في اهلها، وحسب هذا الاتفاق بقيت «سلمى» مع زوجها «هاشم» فـي

مكة بعض الوقت حتى اذا ظهر عليها آثار الحمـل رجعـت الـى : «يثرب» وهناك وضعت ولداً اسموه « شيبة». وقد اشتهر في ما بعـد ب «عبد المطلب».

وكتب المؤرخون في علة تسميته بهذا الاسم بأن هاشماً لما أحـس بقـرب انصرام حياته قال لاخيه «المطلب» : يا أخي أدرك عبدك شيبة. ولذلـك سمي شيبة بن هاشم : «عبد المطلب».

وقيل أن أحد المكيين مر على غلمان يلعبون في زقاق من ازقـة يـثرب، وينتضلون بالسهام، ولما سبق أحدهم الآخرين في الرمي قال مفتخراً : «أنا ابن سيد البطحاء» فسأله الرجل عن نسبه وابيه فقال : أنا شيبة بن هاشـم بن عبد مناف، فلما قدم الرجلُ مكة اخبر «المطلب» أخا «هاشم» بما سمعه ورآه، فاشتاق «المطلب» الى ابن أخيه فذهب الى المدينة، ولمـا وقعـت عيناه على ابن اخيه «شيبة» عرف شبه أخيه هاشم، وتوسم فيه ملامحه، ففاضت عيناه بالدموع، وتبادلا قُبلات الشوق، والمحبـة، وأراد أن يأخـذه معه الى «مكة» وكانت أُمه تمانع من ذلك، ولكن ممانعتها كانت تزيد مـن عزم العم على أخذه الى «مكة» واخيراً تحققت أُمنية العم فقـد اسـتطاع «المطلب» أن يحصل على اذن أُمه، فاردفه خلفه وتوجه حـدب «مكـة» تدفعه رغبة طافحة الى إيصاله إلى والده هاشم.

وفعلت شمس الحجاز واشعتها الحارقة فعلتها في هذه الرحلة فقد غيـرت لون وجه شيبة وأبلت ثيابه، ولهذا ظن أهل «مكة» عند دخوله مـع عمـه «مكة» أنه غلام اقتناه «المطلب» فكان يقول بعضهم لبعض : هـذا عبـد المطلب، وكان المطلب ينفي هذا الامر، ويقول : إنما هو ابن أخي هاشـم

وما هو بعبدي، ولكن ذاك الظن هو الآخر فعل فعلته، وعرف «شيبة» بعبد المطلب(١).

وربما يقال : أن سبب شهرته بهذا الإسم هو انه تربى وترعرع في حجـر عمه

---

(١) الكامل لابن الاثير : ج ٢ ص ٦، وتاريخ الطبري : ج ٢ ص ٨ و٩، السيرة الحلبية : ج ١ ص ٦.

«المطلب» وكانت العرب تسمي من يترعرع في حجر أحد وينشـأ تحـت رعايته عبداً لذلك الشخص تقديراً لجهوده وتثميناً لرعايته.

٥ - عبد المطّلب :

عبد المطّلب بن هاشم وهو الجد الأول للنبي صلّى اللّه عليه وآلـه كـان رئيس قريش وزعيمها المعروف، وكانت له مواقف بارزة، وأعمال عظيمة في حياته، وحيث أن ما وقع من الحوادث في أيام حكمه يـرتبط ارتباطـاً وثيقاً بتاريخ الإسلام ولهذا يتعين علينا دراسـة بعـض تلكـم الحـوادث والوقائع.

لاشك أن المرء مهما تمتع بنفسية قوية فانه سيتأثر - في المآل - ببيئته وعاداتها، وتقاليدها، التي تصبغ فكره، بصبغة خاصة، وتطبع عقليته بطابع معين.

بيد أن هناك بين الرجال من يقاوم تأثير العوامل البيئية بمنتهى الشهامة والشجاعة، ويصون نفسه من التلوث بشيء من أدرانها وأقذارها.

وبطلُ حديثنا هنا هو احد النماذج الصادقة لاولئك الرجال العظماء لان في حياته صفحات مشرقة عظيمة، وسطوراً لامعة تنبئ عن نفسيته القوية، وشخصيته الشامخة.

فان الذي يعيش ثمانين عاماً في وسط اجتماعي تسود فيه الوثنية، ومعاقرة الخمر، والربا، وقتل الأنفس البريئة، والفحشاء حتى ان هذه الامور كانت من العادات والتقاليد الشائعة، ولكنه مع ذلك لم يعاقر الخمر طوال حياته، وكان ينهى عن القتل والخمر والفحشاء، ويمنع عن الزواج بالمحارم، والطواف بالبيت المعظم عرياناً، وكان ملتزماً بالوفاء بالعهد، واداء النذر بلغ الامر ما بلغ، لهو - حقاً - نموذج صادقٌ من الرجال الذين يندر وجودهم، ويقل نظيرهم في المجتمعات.

أجل إن شخصية اودعت يد المشيئة الربانية بين حناياها نور النبي الاكرم أعظم قائد عالمي، يجب ان يكون إنساناً طاهر السلوك، نقي الجيب منزهاً عن أي نوع من أنواع الانحطاط، والفساد.

هذا ويستفاد من بعض قصصه وكلماته القصار أنه كـان أحـد الرجـال المعدودين الذين كانوا يؤمنون باللّه واليوم الآخر في تلك البيئة المظلمـة، وكان يردد دائماً : «لن يخرج من الدنيا ظلوم حتى ينتقم منـه، وتصيبـه عقوبة... واللّه ان وراء هذه الدار داراً يجزى فيهـا المحسـن بإحسانِـه، ويعاقب فيها المسيء باساءته»(١) أي ان الظلوم شأنه في الدنيا أن تصيبه عقوبة، فاذا خرج ولم تصبه العقوبة فهي معدة له في الآخرة.

ولقد كان «حرب بن أُمية» من أقربائه، وكان من اعيان قريش ووجوههـا أيضاً، وكان يجاور يهودياً فاتفق أن وقع بينه وبين حرب نزاع في بعـض اسواق تهامة، تبودلت بينهما فيه كلمات جارحة، وانتهى ذلك إلـى مقتـل اليهودي بتحريك من «حرب»، ولما علم «عبد المطّلب» بذلك قطع علاقته بحرب، وسعى في استحصال دية اليهودي المقتول من «حرب» ودفعهـا إلى اولياء القتيل، وهذه القصة تكشف عن حب عبد المطلب للمستضعفيـن والمظلومين وحبه للحق والعدل.

حفر زمزم :

منذ أن ظهرت عين زمزم نزل عندها قبيلة جرهم التي كانت بيدها رئاسة مكة طوال سنين مديدة، وكانت تستفيد من مياه تلك العيـن، ولكـن مـع ازدهار أمر التجارة في «مكة»، واقبال الناس على الشهوات والمفاسـد آل الأمر إلى جفاف تلك العين، ونضوب مائها بالمرة(٢).

ويقال : أن قبيلة «جرهم» لما واجهت تهديداً من جانب قبيلة خزاعة

---

(١) السيرة الحلبية : ج ١ ص ٤.

(٢) لا ريب أنّ تفشي الذنوب والمعاصي بين الناس من عوامل نزول البلايا والكوارث ولا يبعد أن تكون الأعمال المخزية من موجبات الجدب والقحط والمجاعات، وهذه الحقيقة مضافاً الى انطباقها على القواعد الفلسفية ممّا صرح به القرآن الكريم والسنّة الشريفة، راجع سورة الاعراف الآية ٩٦.

واضطرت إلى مغادرة تلك الديار، وايقن زعيمها «مضاض بن عمـرو» بانه سرعان ما يفقد زعامته، ويزول حكمه وسلطانه بفعل هجـوم العـدو، امر بان يلقى الغزالان الذهبيان، والسيوف الغالية الثمن الـتي كانـت قـد أهديت الى الكعبة، في قعر بئر زمزم، ثم يملأ البئر بالتراب ويعفى أثـره إعفاء كاملاً حتى لا يهتدي خصومه الى مكانه ابداً، حتى اذا عـادت إليـه زعامته وعاد الى مكة استخرج ذلك الكنز الدفين، واستفاد منه. ثم نشـب القتال بين «جرهم» و«خزاعة» واضطرت «جرهم» وكثـير مـن ابنـاء اسماعيل الى مغادرة «مكة المكرمة»، والتوجه إلـى ارض اليمـن، ولـم يرجع أحد منهم الى «مكة» ابداً.

ووقعت زعامة مكة منذ هذا التاريخ بيد «خزاعة» حتى بزغ نجم قريـش في سماء مكة بوصول قصي بن كلاب (الجد الرابع لنبي الإسلام) إلى سدة الزعامة والرئاسة، ثم بعد مدة انتهى امر الزعامة الى «عبد المطلب» فعزم على أن يحفر بئر «زمزم» من جديد، ولكنه لم يعرف بموقع البئر معرفـة

كاملة حتى اذا عثر عليه بعد بحث طويل قرر ان يهيـئ هـو وولـده «حارث» مقدمات ذلك.

وحيث أنه «يوجد في المجتمع دائماً من يتحجج ويجادل - بسبب سلبيته - ليمنع من أي عمل ايجابي مفيد، انبرى منـافسو «عبـد المطلـب» إلـى الاعتراض على قراره هذا وبالتالي التفرد باعادة حفر بئر زمـزم، لكيـلا يذهب بفخر هذا العمل العظيم، وقالوا له : «إنها بئر أبينا اسماعيل، وان لنا فيها حقاً فاشركنا معك» ولكن «عبد المطلب» رفض هذا الطلـب لبعـض الاسباب، فقد كان «عبد المطلب» يريد ان يتفرد بحفر زمزم، ويسبل ماءها ليسقي منها جميع الحجيج دون مـانع ولا منـازع، ويحـول بـذلك دون المتاجرة به ولم يكن ليتسنى له ذلك إلا إذا قام بحفر زمزم بوحـده دونـه مشاركة من قريش.

وقد آل هذا الأمر الى النزاع الشديد فتقرر أن يتحاكموا الى كاهن من كهنة العرب وعقلائهم والقبول بما يقضي به، فتوجه «عبد المطلب» ومنـافسوه الى ذلك الكاهن وقطعوا الصحارى القاحلة بين الحجـاز والشـام، وفـي منتصف الطريق أصابهم جهد وعطش شديدان، ولما تيقنوا بالهلاك، وقرب الوفاة اخذوا

يفكرون في كيفية الدفن اذا هلكوا وماتوا، فاقترح «عبد المطلب» ان يبادر كلُ واحد إلى حفر حفرته حتى إذا أدركه الموت دفنه الآخرون فيها، فـاذا استمر بهم العطش وهلكوا يكون الجميع (ماعدا من بقي منهم علـى قيـد الحياة) قد أقبروا، ولم تغد أبدانهم طعمة للوحوش والطيور فأيد الجميع هذا

الاقتراح(١)، واحتفر كل واحد منهم حفيرة لنفسه، وجلسوا ينتظـرون الموت بوجوه واجمة، وعيون ذابلة، وفجأة صاح عبد المطلب : «واللّه إن إلقاءنا بأيدينا هكذا للموت لانضرب في الأرض ونبتغي لأنفسنـا لعجـز» وحثهم على البحث عن الماء في تلك الصحراء بصورة جماعية عسـى ان يجدوا ما ينقذهم من الموت، فركب عبد المطلب وركب مرافقوه، واخـذوا يبحثون عن الماء يائسين غير مصدقين، ولم يمض شيء حتى ظهرت لهم عين ماء عذبة انقذتهم من الموت المحتم، وعادوا من حيث جـاؤوا وهـم يقولون لعبد المطلب : «قد واللّه قضى لك علينا يا عبد المطلب، واللّـه لا نخاصمك في زمزم أبداً، إن الذي سقاك هذا الماء بهذه الفلاة لهـو الـذي سقاك زمزم، فارجع إلى سقايتك راشداً وتنازلوا له لينفرد بحفـر زمـزم ويكون إليه أمره دون منازع، ولا شريك»(٢).

فعمد «عبد المطلب» وولده الوحيد الحارث الى حفر البئر، ونشأ من ذلـك تلٌ هائلٌ من التراب حول البئر، وفجأة عثر «عبد المطلب» على الغزالين المصاغين من الذهب، والسيوف المرصعة المهداة الى الكعبة، فشب نزاع آخر بين «قريش» وبين «عبد المطلب» على هـذه الاشـياء، واعتـبرت «قريش» نفسها شريكة في هذا الكنز، وتقرر ان يلجأوا إلى القرعة لحـل هذه المشكلة، فخرجت القرعة باسم «عبد المطلب»، وصار جميـع ذلـك الكنز اليه دون «قريش»، ولكن عبد المطلب خص بتلك الأشـياء الكعبـة فصنع من السيوف باباً للكعبة، وعلق الغزالين الذهبيين فيها.

---

(١) ولعلّ احجام الآخرين من الإدلاء بالاقتراح وهو اليأس المطلق من تحصيل الماء.

(٢) تاريخ اليعقوبي : ج ١ ص ٢٠٦، والسيرة النبوية : ج ١ ص ١٤٢ - ١٤٧.

التفاني في سبيل الوفاء بالعهد والنذر :

رغم ان العرب الجاهليين كانوا غارقين في الفساد الأخلاقي فـانهم كـانوا يتحلون ببعض الصفات الحسنة، والخصال المحببة.

وللمثال كان نقض العهود من أقبح الافعال في نظرهم، فاذا عقدوا عهـوداً مع القبائل العربية أوثقوها بالأيمان، المغلظة المؤكدة، والتزموا بهـا إلـى الاخير، وربما نذروا النذور الثقيلة واجتهدوا في اداءها مهما كلف ذلك من مشقة وثمن.

ولقد أحس «عبد المطلب» عند حفر بئر زمزم بالضعف في قـريش لقلـة اولاده، ولهذا نذر اذا رزقه اللّه تعالى عشرة بنين أن يقدم أحـدهم قربانـاً للكعبة ولم يطلع احداً على نذره هذا.

ولم يمض زمان الا وبلغ عدد ابنائه عشرة، وبذلك حان أوان وفائه بنـذره الذي نذر، وهو ان يذبح احدهم قرباناً للكعبة.

ولا شك ان تصور مسألة كهذه فضلاً عن تنفيذه كـان امـراً فـي غايـة الصعوبة على عبد المطلب، ولكنه كان في نفس الوقت يخشى ان يعجـز

عن تحقيق هذا الامر فيكون من الناقضين للعهد، التاركين لاداء النذر، ومن هنا قرر أن يشاور أبناءه في هذا الامر، وبعد ان يكسـب رضـاهم وموافقتهم يختار احدهم للذبح بالقرعة(١).

وتمت عملية القرعة، فاصابت «عبد اللّه» والد رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله وسلّم فاخذ عبد المطلب بيد ابنه، وتوجه من فوره إلى حيـث يذبحـه فيه.

ولما علمت قريش رجالُها ونساؤها بقصة النذر المذكور ومـا آلـت إليـه عملية القرعة حزن الناس والشباب خاصة لـذلك حزنـاً شـديداً وبكـوا وضجوا، وقال أحدهم ليتني ذبحت مكان هذا الشاب.

---

(١) هذه القضية ذكرها كثير من المؤرخين وكتّاب السيرة، وهذه القصّة إنّما هي جديرة بالاهتمام من جهة أنها تجسّد مدى إيمان «عبد المطلب» وقوّة عزمه، وصلابة إرادته، وتبين جيّداً كم كان مصرّاً على الوفاء بعهوده والتزاماته.

فاقترحت قريشٌ على عبد المطلب بان يفـدي «عبـد اللّـه»، واظهـروا استعدادهم لدفع الفدية إذا جاز ذلك، فتحير «عبـد المطلـب» تجـاه تلـك المشاعر الساخنة، والاعتراضات القوية، وراح يفكّر في عدم الوفاء بنذره، ويفكر في نفس الوقت في الحصول على مخاص معقول من هذه المشكلة، فقال له أحدهم : لا تفعل وانطلق إلى أحد كهنة العرب عسى أن يجد لـك

حلاً.

فوافق «عبد المطلب» واكابر قريش على هذا الاقتراح، وتوجهوا بأجمعهم نحو «يثرب» قاصدين ذلك الكاهن، ولما قدموا عليه سألوه في ذلك فاستمهلهم يوماً واحداً، ولما كان اليوم الثاني دخلوا عليه فقال لهم : كم دية المرء عندكم ؟ قالوا : عشر من الابل.

فقال : إرجعوا إلى بلادكم، وقربوا عشراً من الإبل واضربوا عليها وعلى صاحبكم «أي عبد اللّه» القداح فان خرجت القرعة على صاحبكم فزيدوا عشراً، حتى يرضى ربكم، وإن خرجت على الإبل فانحروها فقد رضي ربكم ونجا صاحبكم وكانت عنه فداء.

فهدأ اقتراح الكاهن لهيب المشاعر الملتهبة لدى الناس، لأن نحر مئات الابل كان أسهل عليهم من أن يشاهدوا شاباً مثل «عبد اللّه» يتشحط في دمه.

ولهذا فانهم فور عودتهم إلى «مكة» بادروا إلى اجراء القرعة في مجمع كبير من الناس وزادوا عشراً عشراً حتى اذا بلغ عدد الإبل مائة خرجت القداح على الإبل، ونجا «عبد اللّه» من الذبح، فأحدث ذلك فرحة كبيرة لدى الناس، بيد أن «عبد المطلب» طلب أن تُعاد عملية القرعة قائلاً : «لا واللّه حتى أضرب ثلاثاً»، وأنما أراد ذلك ليستيقن ان ربه قد رضي عنه، ولكن في كل مرة كانت القداح تخرج على الإبل المائة فنحرت الابلُ ثم تركت لا يمنع عنها انسان ولا سبع(١).

(١) السيرة النبوية : ج ١ ص ١٥٣، وبحار الانوار : ج ١٦ ص ٧٤، وقد نُقل عن النبيّ الأكرم صلّى اللّه عليه وآله أنّه قال : «أنا ابن الذبيحين» يقصدُ بالأول جدّه إسماعيل عليه السّلام والثاني أباه «عبد اللّه» الذي كاد أن ينحر ولكنه نجا من الذبح كما نجا جدُّه إسماعيل عليه السّلام.

حادثة عام الفيل :

عندما يحدثُ أمر عظيم في امة من الأُمم وخاصة إذا كان ذا جذور دينيـة او ذا مدلولات قومية أو سياسية فانه سرعان ما يتحول - بفعـل اعجـاب الناس عامة به - الى مبدأ للتاريخ.

فقيام النبي موسى يعتبر مبدأ للتاريخ عند اليهود، ومولد السيد المسيح يعتبر مبدأ للتاريخ عند النصارى، والهجرة النبوية الشريفة تعتبر مبـدأ للتاريـخ عند المسلمين.

وهذا يعني أن كل امة من الأُمم تقيس حوادثها من حيـث الزمـان بذلـك الحدث الذي تعتبره بداية تاريخها.

وأحياناً تتخذُ الأُمم والشعوب بعض الحوادث مبدأ للتاريخ مع انهـا تملـك مبدأ سياسياً للتاريخ، كما نلاحظ ذلك في بلاد الغرب وشعوبه، فقد اتخـذت

الثورةُ الفرنسية، وثورة اكتوبر الشيوعية مبدأ للتـاريخ فـي فرنسـا، والاتحاد السوفياتي، بحيث اصبح يقاس بهما كل ما وقـع مـن الحـوادث بعدهما.

ولكن الشعوب غير المتحضرة التي لم تمتلك مثل تلك الثورات والحركات السياسية والدينية كان من الطبيعي أن تتخذ الحوادث الخارقة للعادة مبـدأ لتاريخها بدلاً من الثورات والتحولات الاجتماعية، وهذا مـا حـدث عنـد العرب وقبل الإسلام.

فانهم - بسبب حرمانهم من حضارة صحيحة - اتخذوا من بعض الوقائـع المفجعة والمرة - كالحرب والزلزال، والمجاعة والقحط او الحوادث غير الطبيعية، الخارقة العادة مبدأ لتاريخهم.

ولهذا نجد مبادئ متعددة للتاريخ عند العرب، آخرها : ضجة عـام الفيـل وهجوم «أبرهة» على «مكة» بهدف الكعبة المشرفة، التي صارت في مـا بعد مبدأ للتاريخ تؤرخ - بقية الحوادث والوقائع اللاحقة.

ونظراً لأهمية هذا الحدث التاريخي العظيم الذي وقع عام ٥٧٠ واتفقت فيه

ولادة النبي الكريم صلّى اللّه عليه وآله فاننا نتناول هذه القصة بـالعرض والتحليل :

ما هي عوامل هذه الحادثة ؟

لقد ذكرت قصة أصحاب الفيل في القرآن بصورة مختصرة، وسوف ننقل - هنا - الآيات التي نزلت حول هذه القصة بعد حوادثها.

يكتب المؤرخون عن علة هذه الحادثة ان ملك اليمن «تُبان أسعد» والد ذي نواس بعد ان أرسى قواعد حكمه مر في احـدى رحلاتـه علـى يـثرب (المدينة)، وقد كانت ل«يثرب» في ذلك الوقت مكانةٌ دينيةٌ مرموقـةٌ فقـد قطنها جماعة من اليهود(١)، وبنوا فيها عدداً من المعابد والهياكل، فـأكرم اليهود مقدم ملك اليمن، ودعوه إلى دينهم ليستطيعوا في ظل حكمه حمايـة أنفسهم من أذى المسيحيين الروميين، والمشركين العرب.

ولقد تركت دعوتُهم وما رافقها من اساليب مؤثرة اثرها فـي نفـس ذلـك الامير واختار اليهودية، واجتهد في بثها ونشرها. ثم ملك من بعـده ابنـه «ذو نواس» الذي جد في بث اليهودية والتحق به جماعة خوفاً.

بيد أن اهل نجران الذين كانوا قد دانوا بالمسيحية قبل ذلك امتنعـوا مـن تغيير دينهم وترك المسيحية واعتناق اليهودية، وقاوموا «ذا نواس» مقاومة شديدة، فشق ذلك على ملك اليمن، واغضبه فتوجه احد قادته الى نجـران على رأس جيش كبير لتأديب المتمردين من أهلها فعسكر هذا الجيش على مشارف نجران، واحتفر قائده خندقاً كبيراً، واوقد فيه ناراً عظيمة، وهـدد المتمردين بالاحراق بالنار. ولكن أهل نجـران الـذين احبـوا المسيحيـة

واعتنقوها برغبة كبيرة اظهروا شجاعة كبرى، واستقبلوا الموت حرقاً، وغدوا طعمة للنيران.

يقول المؤرخ الإسلامي «ابن الاثير الجزري» بعد ذكر هذه القصة : لمـا قتل

---

(١) وفاء الوفا : ج ١ ص ١٥٧، والسيرة النبوية : ج ١ ص ٢١ و٢٢.

«ذو نواس» من قتل في الأُخدود لاجل العود عن النصرانية أفلـت منهـم رجلٌ يقال له «دوس» فقدم على «قيصر» فاستنصره على «ذي نـواس» وجنوده واخبره بما فَعل بهم، فقال له قيصر : بعدت بلادك عنـا، ولكـن ساكتب الى النجاشي ملك الحبشة وهو على هذا الدين وقريب منكم، فكتب قيصر الى ملك الحبشة يأمره بنصره، فأرسل معه ملك الحبشة سبعين ألفاً، وأمر عليهم رجلاً يقال له «أرياط» وفي جنوده «ابرهة الأشرم» فسـاروا في البحر حتى نزلوا بساحل اليمن، وجمع «ذو نواس» جنوده فـاجتمعوا وكتب الى زعماء قومه من اهل اليمن يدعوهم الـى الاجتمـاع لمقاتلـة عدوهم، فلم يجيبوه، فانهارت حكومته أمام حملة جيش الحبشـة، وسـيطر الاحباش على ارض اليمن، وجعِل «أبرهـة» امـيراً عليهـا مـن قِبـل «النجاشي» بعد مقتل «ارياط» على يد «أبرهة» في صراع على السلطة(١).

وهذه القصة هي التي تعرف في القرآن الكريم بقصة «اصحاب الأُخدود» وقد جاء ذكرها في سورة البروج اذ يقول اللّه تعـالى : (قُتِـل أصـحاب الأُخدود. النار ذات الوقود. إذ هم عليها قُعود. وهـم علـى مـا يفعلُـون بالمؤمنين شُهود. وما نقموا مِنهم إلا أن يؤمنوا باللّه العزيز الحميد. الّـذي له ملك السماواتِ والارض واللّه على كُل شيء شهيد)(٢).

وقد ذكر المفسرون هذه القصة في شأن نزول هذه الآيات بصورة مختلفة(٣).

ثم ان «ابرهة» الذي اسكره الانتصار والغلبة على منافسه، وتمـادى فـي الشهوات بنى في صنعاء كنيسة عظيمة تقرباً الى ملك الحبشة، وارضاء له ثم كتب كتاباً الى «النجاشي» ملك الحبشة يقول فيه: «إني قد بنيتُ لك ايها الملك كنيسة لم يبن مثلها لملك كان قبلك، ولست بمنته حتى أصرف اليهـا حج العرب».

---

(١) الكامل في التاريخ : ج ١ ص ٢٦٠ - ٢٦٣، والسيرة النبوية : ج ١ ص ٣١ - ٣٧.

(٢) البروج : ٤ - ٩.

(٣) راجع مجمع البيان : ج ٥ ص ٤٦٤ - ٤٦٦.

وقد أدى معرفة العرب بما جاء في هذا الكتاب إلى ردة فعل شديدة لديهم، الى درجة أن امرأة مِن قبيلة «بني افقم» تسللت ذات ليلة الى تلك الكنيسة واحدثت فيها، فأثار هذا العمل الذي كان يدل على مـدى ازدراء العـرب بكنيسة «أبرهة» واحتقارهم لها، غضب «أبرهة»، هذا من جانـب ومـن جانب آخر كان «ابرهة» كلما زاد في تزيين تلك الكنيسة زاد ذلك من حقد العرب، وحنقهم عليه، واحتقارهم لكنيسته، فتسبب كل ذلك في أن يحلـف أبرهة على السير إلى الكعبة وهدمها، فسير لذلك جيشاً عظيماً، وقدم أمامه الفِيلة المقاتلة، وخرج متوجهاً صوب مكة وهو يعتزم هدم الكعبة بيت اللّه الحرام !!

فلما عرف زعماء العرب بغايته، وادركوا خطورة ذلك العمل وايقنوا بـان استقلال العرب وسيادتهم تتعرض لخطر السقوط، لم يمنعهم ما عهدوه من قوة «ابرهة» وانتصاراته بل خرج بعضهم الى حربه فقاتلوه بكل شـجاعة وبسالة مدفوعين بدافع الغيرة والحفاظ على الشرف المهدد بالخَطر.

فقد خرج «ذو نفر» وهو من أشراف أهل اليمن وملوكهم، ودعا قومه ومن أجابه من سائر العرب الى حرب «أبرهة» ولكـن سـرعان مـا تغلّـب «ابرهة» عليه بجيشه الكبير، ثم خرج له بعد ذلك «نفيل بن حبيب» وبقي يقاتله مدة طويلة فهزمه «ابرهة» وأُخِذ له اسيراً، فطلب «نفيل» العفو منه فاشترط عليه أن يدلّه على طريق مكة ليعفو عنه، فدلّه نفيل حتى الطائف، واوكل الدلالة على بقية الطريق الى شخص آخر يدعى «ابو رغال» فدلّه أبو رغال على الطريق حتى أرض «المغمس» وهي منطقة قريبـة مـن «مكة» فنزل «أبرهة» وجيشه بالمغمس، فارسل أبرهة رجلاً من الحبشة -

على عادته - الى ضواحي «مكة» فاستولى على أموال قـريش مـن الإبل والغنم فساق اليه في جملة ذلك مائتي بعير لعبد المطلب، ثـم أمـر رجلاً آخر يدعى «حناطة» ليدخل «مكة» ويبلغ أهلها عنه ما جـاء مـن اجله، وهو هدم البيت المحرم الكعبة المعظمة، وقال له : سل عن سيد اهل هذا البلد وشريفها، ثم قل له : ان الملك يقول لك : «إني لم آت لحـربكم، انما جئتُ لهدم هذا البيت، فان تعرضوا دونه بحرب فلا حاجة لي في

دمائكم» فإن هو لم يرد حربي فأتني به.

فدخل «حناطة» مكة ولما سأل عن سيد قريش وشريفها، وقد كانت قبائـل قريش المختلفة قد تجمعت في اطراف البلد جماعات جماعات تتذاكر فـي امر «ابرهة» وما يجب اتخاذه من موقف تجاهه.

فدلّوه على بيت «عبد المطلب»، ولما دخل على «عبد المطلب» أبلغه مقالة «أبرهة» فقال له عبد المطلب : «واللّه ما نُريد حربه، وما لنا بـذلك مـن طاقة، هذا بيت اللّه الحرام، وبيت خليله إبراهيم عليه السلام، فان يمنعـه منه فهو بيته وحرمه، وان يخلي بينه وبينه فواللّه ما عندنا دفع عنه»؟

فسر «حناطة» رسول ابرهة بمنطق عبد المطلب ومقالته التي كانت تحكي عن قوة ايمانه، وعن روحه المسالمة فطلب منه أن يصحبه الى «أبرهة»، قائلاً : فانطلق معي اليه، فانه قد امرني أن آتيه بك.

عبد المطّلب يذهب الى معسكر أبرهة :

فتوجه عبد المطلب هو وجماعة من ولده إلى معسكـر ابرهـة، فاعجـب «أبرهة» بوقار رئيس قريش وهيبته إعجاباً شديداً، وبهر به حتى أنه نزل له من تخته اجلالاً، واخذ بيده، واجلسه الى جنبه، فسألـه عـن طريـق مترجمه متأدباً : ما الذي اتى به وماذا يريد ؟ فاجابه عبد المطلب قـائلاً : حاجتي أن يرد الملك علي مائتي بعير أصابها لي.

فقال «أبرهة» لترجمانه : قل له : قد كنت اعجبتني حين رأيتك، ثـم قـد زهدتُ فيك حين كلمتني، أتكلمني في مائتي بعير أصبتُها لك، وتترك بيتـاً هو دينك ودين آبائك قد جئتُ لهدمه، لا تكلمني فيه ؟!

فقال له عبد المطلب : إني أنا رب الإبل، وان للبيت رباً سـيمنعه، فقـال «أبرهة» مغتراً بنفسه : ما كان ليمتنع مني.

ثم أمر بان ترد الابل إلى أصحابها.

* * *

إنتظار قريش :

ولقد انتظرت قريش عودة «عبد المطلب» من معسكر «أبرهة» بفارغ الصبر لتعرف نتيجة ما دار بينه وبين أبرهة، وعندما عاد «عبد المطلب» اخبرهم الخبر، وامرهم بالخروج معه من مكة، والتحرز في رؤوس الجبال من معرة الجيش فخرجوا الى الشعاب، والجبال، ثم لما كان الليل نزل عبد المطلب مع جماعة من قريش الى الكعبة واخذ بحلقة بابها يـدعون اللّـه ويستنصرونه على أبرهة وجنده وقال «عبد المطلب» مناجياً اللّه سبحانه : «اللّهم أنت أنيس المستوحشين ولا وحشة معك، فالبيت بيتُك والحرم حرمك والدار دارك ونحن جيرانك تمنع عنه ما تشاء ورب الدار أولى بالدار» ثم قال :

لا همّ إن(١) العبد يمنع رحـله فامنع حِلالك(٢)**

لا يغلِبنَّ صليبُهم*ومحالهم عدواً مِحالك(٣)**

وقال أيضاً :

يا ربِّ لا أرجُو لهم سواكا*يا ربِّ فامنع مِنهمُو حِماكا**

إن عدوَّ البيتِ من عاداكا*إمنعهُم أن يخربُوا فِناكا**

ثم انه ترك حلقة الباب، ولجأ الى الجبل لينظروا ما سيجري.

وفي الصباح وعندما كان «أبرهة» وجنده يستعدون للتوجه الى «مكـة»، واذا بأسراب من الطيور تظهر من جهة البحر يحمل كل واحد منها ثلاثـة احجار، حجر في منقاره، وحجرين في رجليه، فاظلم سماء الجيش بتحليق

تلك الطيور فوق رؤوس الجند، وتركت تلك الاحجار الصغيرة الحقيرة في ظاهرها اثرها العجيب فقد رجمت تلك الطيور جنود «ابرهـة» بتلـك الاحجار بامر اللّه، فكانت لا تصيب منهم أحداً إلا تحطم راسـه، وتمـزق لحم بدنه، وهوى صريعاً،

---

(١) لا هم أصلها : اللّهم والعرب تحذف الالف واللام وتكتفي بما بقي.

(٢) الحلال جمع حلة وهي جماعة البيوت.

(٣) المحال : القوّة والشدّة.

قبل فهرس بعد

وهلك من توه، فاصابت واحدةٌ من تلك الاحجـار رأس «ابرهـة» نفسـه فارتعدت فرائصه وايقن بغضب اللّه وسخطه عليه، فنظر الى جنوده وهـم أشلاء مبثوثون هنا وهناك على الأرض كورق الشجر في فصل الخريف، فصاح بِمن لم يزل على قيد الحياة من جنده بامرهم بأن يتهيأوا للعودة الى اليمن، من حيث أتوا، فاخذ بقية الجند طريق اليمن هاربين، غير أن هـذه البقية قد هلكت شيئاً فشيئاً في أثناء الطريق حتى أن أبرهة نفسه بعد أن لم يصل الى صنعاء إلا بعد ان تفرق لحم بدنه، وسقطت اعضاؤه وجوارحـه ومات بصورة عجيبة.

وقد دوى صوتُ هذه الواقعة العجيبة والرهيبة في العالم آنذاك، وقد ذكرها القرآن الكريم في سورة الفيل اذ يقول تعالى : (ألم تر كيـف فعـلَ ربـك بِأصحابِ الفِيل. ألم يجعل كيدهم في تضليلٍ. وأرسل عليهم طيراً أبابيـل. ترميهم بِحِجارة مِن سِجيل. فجعلَهم كعصفٍ مأكُول).

وما ذكرناه هنا - في هذه الصفحات - ليس هو في الحقيقة إلا خلاصة ما ورد في كتب التاريخ الإسلامي، وصرح به القرآن الكريم(١).

واستكمالاً لهذا البحث نعمد هنا إلى دراسة نظرية المفسر المصري الكبير الشيخ «محمد عبده» والعلامة المعروف الدكتور «هيكل» وزيـر الثقافـة المصري السابق في هذا المجال.

كلمة حول المعجزة :

لقد أوجد التقدم العلمي الأخير في مختلـف مـ جالات العلـوم الطبيعيـة والفضائية، وما استلزم ذلك من تهافت طائفة كثيرة من الفرضيات، ضجة عجيبة في الغرب، فمع أن جميع تلك التطورات كانت مجـرد تطـورات علمية تجري في مجال المسائل الطبيعية أو الفلكية، ولم يكن لها اية صـلة بالمعتقدات الدينية

---

(١) السيرة النبوية : ج ١ ص ٤٣ - ٦٢، والكامل في التاريخ : ج ١ ص ٢٦٠ - ٢٦٢، بحار الأنوار : ج ٥ ص ١٣٠ - ١٤٦.

فإن هذا التحول والتطور وتلك الكشوف أوجدت شكاً عجيباً لـدى بعـض الناس انسحب على جميع المعارف والمعتقدات الدينية الموروثة على وجه الاطلاق !

والسر في ذلك هو أن العلماء رأوا بأن الفرضيات القديمـة، الـتي بقيـت تسيطر على الأوساط العلمية لمدة طويلة من الزمان، قد اصـبحت اليـوم عرضةً للبطلان والسقوط تحت مطارق التجربة وبواسـطة الاختبـارات العلمية، والتحقيقات المختبرية، فلم يعد - بعد هذا - مجالٌ للقول بفرضية الافلاك التسعة التي طلع بها «بطليموس»، ولا بفرضية مركزية الارض،

ولا غيرها من عشرات الفرضيات، فقالوا في أنفسهم : ومن أين نَـرى لا تكون بقية المعلومات والمعارف الدينية من هذا القبيل ؟!

وقد تفاقم هذا النوع من الشك في قلوب جماعة من العلماء بالنسبـة الـى جميع المعتقدات والمعارف الدينية ونمى بشكل قوي في فترة قصيرة، وعم الاوساط العلمية كأي مرض !!

هذا مضافاً إلى أن محاكم التفتيش وتشدد الكنيسة وأربابها كان لها النصيب الاكبر في ظهور هذه الحالة بل في نموها، واطرادها، لأن الكنيسة كانـت تقضي على العلماء الذين نجحوا في اكتشاف القوانين العلمية تحت التعذيب والاضطهاد القاسي بحجة أنها تخالف الكتاب المقدس، وتعارض مقـررات الكنيسة !!

ومما لا يخفى أن مثل هذه الضغُوط، وهذا الاضطهاد والتعجرف ما كـان ليمر من دون حدوث ردة فعل، وقد كان من المتوقع منذ البداية أن العلماء في الغرب لو اتيحت لهم الفرصة لانتقموا من الدين بسبب سوء تصـرف الكنيسة، وسوء معاملتهم لهم خاصة، وللناس عامة.

وقد حدث هذا فعلاً فكلّما تقدم العلم خطوةً، واطّلع العلماء على العلاقـات السائدة بين الكائنات الطبيعية، واكتشفوا المزيد من الحقائق الكونية، والعلل الطبيعية لكثير من الحوادث والظواهر المادية، وكذا علل الامراض، قـلّ اعتناؤُهم بالقضايا الميتافيزيقية،، وما يدور حول المبدأ والمعاد والافعـال الخارقة للعادة

كمعاجز الانبياء، وازداد عدد المنكرين لها والشاكين فيها، والمترددين في قبولها يوماً بعد يوم !!

لقد تسبب الغرور العلمي الذي أُصيب به العلماء في الغرب في أن ينظـر بعض اولئك العلماء الى جميع القضايا الدينية بعين الازدراء والتحقير، وأن يمتنعوا حتى عن التحدث في المعاجز التي يخبر بها التـوراة والانجيـل، ويعتبروا عصا موسى عليه السلام، ويده البيضاء، ونفخة المسيـح عليـه السلام التي كانت تشفي المرضى وتحيي الموتى من الأساطير، وراحـوا يستائلون - في عجب واستنكار - : وهل يمكن أن تتحـول قطعـةٌ مـن الخشب اليابس إلى أفعى، أو ثعبان، أو هل يمكن ان تعود الحياة إلى ميتٍ بكلمات من الدعاء ؟

لقد تصور العلماء الذين أسكرتهم فتوحاتهم العلمية، أنهم ملكوا مفاتيح جميع العلوم، ووقفوا على جميع العلاقات بين الكائنـات الطبيعيـة والظواهـر الكونية، ومن هنا تصوروا أنه لا توجد أيةُ علاقة بيـن قطعـة الخشـب والثعبان، او بين جملة من الدعاء والتفاتةٍ من بشر وعـودة الـروح الـى الموتى، ولهذا أخذوا ينظرون الى هذه الامور بعين الشك والترديد، وربما بعين الانكار والرفض المطلق !!

وقد سرى هذا النوع من التفكير الى اوساط بعض العلماء المصريين الذين تأثروا بهذا الاتجاه اكثر من غيرهم، مع بعض التعديل في ذلك الموقـف، وشيء من الاختلاف في النظرة المذكورة، ولهذا اتبعوا تلك السـيرة فـي

تحليل الوقائع والحوادث التاريخية والعلمية من هذا النوع، والسِر في تأثر بعض علماء مصر بهذه النظرة قبل واكثر من غيرهم هو احتكاك هذه الجماعة بالأفكار الواردة من الغرب قبل غيرهم، ومن هذه المنطقة سرت بعض النظريات والآراء الغربية إلى البلاد الإسلامية الأُخرى.

لقد اختار هؤلاء طريقاً خاصاً قصدوا به الحفاظ على حرمة الكتاب العزيز، والاحاديث القطعية ومكانتها من جهة، وكسب نظر العلماء الماديين الطبيعيين الى انفسهم من جهة أُخرى، أو ارادوا ان لا يختاروا ما لا يمكن التوفيق بينه وبين القوانين العلمية الطبيعية وتطبيقه عليها.

لقد وجد هؤلاء من جهة أن القرآن الكريم يخبر عن سلسلة من المعجزات والخوارق التي لا يمكن تفسيرها بالعلوم العادية المتعارفة، لأن العلم لا يستطيع أن يدرك العلاقة بين العصا الخشبية اليابسة والثعبان، ومن جهة أُخرى كان القبول بالنظريات التي لا يمكن إثباتها بالحس والتجربة أمراً في غاية الصعوبة لهم.

ولهذا السبب، وفي خِضم الصراع بين هذين العاملين : العلم والعقيدة، اختار هؤلاء الكتاب والعلماء نهجاً يستطيعون به وضع نهاية لهذا الصراع، والتنازع، فيحافظون على ظواهر القرآن والاحاديث من جانب، ويتجنبون القول بما يخالف منطق العلم من جانب آخر، ويتلخص هذا النهج في تفسير جميع المعاجز وجميع خوارق العادة التي جرت على أيدي الأنبياء بالموازين العلمية الحاضرة الرائجة في هذا العصر بصورة تبدو وكأنها أُمور طبيعية، وبهذا يكونون قد حافظوا على مكانة القرآن الكريم

والاحاديث القطعية المسلّمة، ولم يتفوهوا بما يخـالف العلـم الحديـث ويتعارض مع معطياته.

ونحن هنا نذكر من باب النموذج والمثال : التفسير الذي ذكـره العلامـة المصري المعروف «محمد عبده» لقصة اصحاب الفيل وما جرى لهم :

فهو يقول عند تفسيره لسورة الفيل :

«فيجوز لك ان تعتقد أن هذا الطير من جنس البعوض أو الـذباب الـذي يحمل جراثيم بعض الامراض، وان تكون هذه الحجارة من الطين المسموم اليابس الذي تحمله الرياح فيعلق بارجل هذه الحيوانات، فاذا اتصل بجسـد دخل في مسامه فاثار فيه تلك القروح التي تنتهي بافساد الجسـم وتساقـط لحمه، وأن كثيراً من هذه الطيور الضعيفة يعد من أعظم جنود اللّـه فـي إهلاك من يريد إهلاكه من البشر، وأن هذا الحيـوان الصغـير - الـذي يسمونه الآن بالميكروب - لا يخرج عنها»(١).

---

(١) راجع تفسير في ظلال القرآن : ج ٣٠ ص ٣٥١.

وقال أحد الكتاب مؤيداً هذا الاتجاه بقوله : «إن الطير المستعمل في الكتاب العزيز يراد منه مطلق ما يطير، ويشمل الذباب والبعوض ايضاً»

ولا بد - قبل دراسة هذه الأقوال - أن نستعرض مرة أُخرى الآيات النازلة في اصحاب «الفيل».

يقول اللّه تعالى : (ألم تر كيفَ فعلَ ربك بِأصحابِ الفِيل ألم يجعل كيدهـم في تضلِيل. وأرسلَ عليهم طيراً أبابِيل. ترمِيهم بِحِجارةٍ مِن سِجيل. فجعلهم كعصفٍ مأكُولٍ).

إن ظاهر هذه الآيات يفيد أن جيش أبرهة أُصيب بالغضب والسخط الالهي، وان هلاكه وفناءه كان بهذه الأحجار التي حملتها تلك الطيور، وألقت بهـا على رؤوس الجند وأبدانهم.

إن الامعان في مفاد هذه الآيات يعطي أن موتهم كان بسبب هذه الاسـلحة غير الطبيعية (الصغيرة الحقيرة في ظاهرهـا، القويـة الهدامـة بفعلهـا وأثرها).

وعلى هذا فان أي تفسير يخالف ظاهر هذه الآيات لا يمكن الـذهاب اليـه وحمل الآيات عليه ما لم يقم على صحته دليل قطعي.

نقاطٌ تقتضي التأمل في التفسير المذكور :

١ - إن التفسير المذكور لا يستطيع كذلك أن يجعل كـل تفاصـيل هـذه

الحادثة أمراً طبيعياً، بل هناك جوانب في تلك الواقعة التاريخية العجيبة لا بد من تفسيرها بالعوامل والاسباب الغيبية، لأنه مع فـرض أن هـلاك الجند وتلاشي أجسادهم تم بواسطة ميكروب : «الحصبة» و«الجـدري»، ولكن من الذي ارشد تلك الطيور الى تلك الاحجـار الصغـيرة الملوثـة بميكروب الحصبة والجدري، فتوجهت بصورة مجتمعة الى تلك الاحجـار الخاصة بدل التوجه إلى الحب والطعام، ثم كيف بعد حمل تلك الأحجـار بمناقيرها وأرجلها حلقت فوق معسكر «أبرهة» ورجمت جنده كما لو أنّها جيشٌ منظّم موجه ؟؟

هل يمكن إعتبار كل ذلك أمراً عادياً، وحدثاً طبيعياً ؟

ترى لو أننا فسرنا طرفاً من هذه الحادثة العظيمـة والعجيبـة بالعوامـل الغيبية، وبارادة اللّه النافذة فهل تبقى مع ذلك أية حاجة الى أن نفسر جانباً من هذه الحادثة بتفسير طبيعي مألوف، ونركض وراء التوجيهات الباردة، لنجعلها امراً مقبولاً.

٢ - إن الكائنات الدقيقة، او ما يسمى الآن ب«الميكروب» لا شـك انهـا عدوة لمطلق الإنسان، وليست بصديقة لهذا أو ذاك، ومع ذلك كيف توجهت الى جنود «ابرهة» وقتلتهم دون غيرهم، وكيف نسيت المكيين بالمرة ؟!

ان التاريخ المدون يثبت لنا أن جميع الضحايا في هذه الواقعـة العظيمـة كانوا من جند «ابرهة» ولم يلحق فيها : أي أذى - إطلاقـاً - بقـريش،

وغيرهم من سكان الجزيرة العربية، في حين أن الحصبة والجدري من الأمراض المعدية، التي تنقلها العوامل الطبيعية كالرياح وغيرها من منطقة إلى أُخرى، وربما تُهلك اهل قطر باجمعهم.

فهل مع هذا يمكن أن نعد هذه الحادثة حدثاً طبيعياً عادياً ؟!

٣ - ان اختلاف هذا الفريق في تحديد نوعية الميكروب، يضفي على هذا الادعاء مزيداً من الإبهام، ويجعله أقرب الى البطلان.

فتارة يقولون : انه ميكروب الوباء وتارةً أُخرى يقولون : انه داء الحصبة والجدري، في حين اننا لم نجد مستنداً صحيحاً لهـذا الخـلاف، ومـبرراً وجيهاً لهذا الاختلاف، اللّهم إلا ما احتمله «عكرمة» من بيـن المفسـرين، وعكرمة هو نفسه موضع نقاش بين العلماء والا لما ذهب «ابن الاثير» من بين المؤرخين وارباب السير الى ذكر هذا الرأي في صـورة الاحتمـال الضعيف، والقيل، ثم عاد فرد هذا القول فوراً(١).

والأعجب من الجميع ما أعطاه مؤلف كتاب «حياة محمد» الدكتور هيكـل وزير المعارف المصري السابق من تفسير، عند ذكر قصة الفيل.

---

(١) الكامل : ج ١ ص ٢٦٣.

فهو بعد ذكر تلك القصة سرد آيات سورة الفيل، ومع أنه اتى بقـول اللّـه تعالى «وأرسل عليهم طيراً أبابيل» قال عن هلاك جنود أبرهة : «ولعـلّ جراثيم الوباء جاءت مع الريح من ناحية البحر، وأصابت العدوى أبرهـة نفسه»(١) فاذا كان الذي جاء بهذا الميكروب هو الريح، فلماذا حلّقت طيور الأبابيل على رؤوس جيش أبرهة، وألقت بالأحجار الصغيرة على رؤوسهم ودون غيرهم، واي أثر كان لهذه الاحجار في هلاك أُولئك الجنود وموتهم ؟

فالحق هو : أن لا يتبع هذا النمط مـن التفكـير، وأن لا نسعـى لتفسيـر معجزات الأنبياء - الكبرى بمثل هذه التأويلات والتفسيرات، بل إن طريق المعجزات والإعجاز أساساً يختلف عن طريق العلوم الطبيعية التي تتحـدد دائرتها بمعرفة العلاقات العادية بين الظواهر الطبيعية، ولهذا يجب علينـا أن لا نعمد - ارضاء لهوى جماعة ممن لا يمتلكون أية معلومات دينيـة، وليست لديهم أية معرفة بهذا النوع من القضايا - الى التنازل عن أُسـسنا الدينية المسلّمة، في حين لا توجد أية حاجة ملزمة إلى مثل ذلـك التنـازل والاعتذار !.

نقطتان هامتان :

وهنا لابد من أن نذكّر بنقطتين هنا :

الأولى : يجب ان لا يظن أحد - خطأً - أننا بما قلناه هنا نريد تصحيح كل

ما تلوكه ألسن الناس، وتنسبه الى الانبياء العظام، أو إلى عبـاد اللّـه الكرام، من دون أن يكون له أي سند صحيح أو وجه معقول بـل وربمـا اتسم بطابع الخرافة في بعض الاحيان والموارد.

بل مقصودنا هو : أن نثبت - وطبقاً للمصادر الصحيحة والقطعية المتوفرة - أن الأنبياء كانوا يقومون - لاثبات ارتباطهم بما وراء هذه الطبيعـة - بأعمال خارقة للعادة، خارجة عن الناموس الطبيعي المألوف، تعجز العلوم الطبيعية الرائجة عن

---

(١) حياة محمَّد لمحمَّد حسين هيكل : ص ١٠٢ و١٠٣.

إدراك عللها، وأسبابها.

فهدفنا هو الدفاع عن هذه الطائفة من المعاجز.

الثانية : إننا لا نقول مطلقاً : أن وجود المعجزة هـو تخصيـص لقـانون العلية العام، بل اننا في الوقت الذي نحترم فيه هذا القانون المسلّم نعتقد بأن لجميع حوادث هذا العالم عللاً خاصة واسباباً معينة، وأنه من المستحيل أن يوجد شيء بعد عدمه من دون علة، بيد أننا نقول ان لهـذه الطائفـة مـن الظواهر والوقائع (اي المعاجز) عللاً غير طبيعية، وان هذه العلل ميسـرة

ومتاحة لأنبياء اللّه ورسله والرجال الإلهيين خاصة، وليس في مقـدور أحد - لم يستطع لا عن طريق الحس ولا عن طريق التجربة أن يكتشـف هذه العلل - أن يتنكّر لها، وينكرها، بل ان جميع الاعمال الخارقـة التـي يقوم بها أنبياء اللّه ناشئة عن علل لا يمكـن تفسيرهـا بالعلـل الطبيعيـة المألوفة، ولو أنها خضعت للتفسير والتوجيه لخرجت عن كونها معجـزة، ولم يصدق في حقها عنوان الاعجاز.

ولكي نقف على حقيقة هذا الامر، ونعرف مدى بطلان المذهب المـذكور (مذهب تفسير الخوارق والمعاجز بالتفسير المادي والمـألوف المحـض) ينبغي أن نتبسط قليلاً في شرح مسألة الاعجاز ونبحث في مدى علاقتهـا بقانون العلية العام.

بحثٌ علمي حول المعجزة في خمس نقاط :

إن الحديث العلمي عن المعجزة لا بد أن يتركّز على عدة نقـاط أساسـية هي :

١ - ما هي المعجزة وما هو تعريفها ؟

٢ - هل الإعجاز يهدم القوانين العقلية المسلّمة ؟

٣ - هل المعجزة تصدر عن علل مادية غير عادية فقط ؟

٤ - كيف تدل المعجزة على صدق ادعاء النبوة ؟

٥ - كيف وبماذا نميز المعجزة عن الخوارق الأُخرى ؟

إن الاجابة على هذه الأسئلة كفيلة بتوضيح حقيقة المعجزة، وبيـان مـدى بطلان الاتجاه المذكور نعني : تفسير المعاجز بالتفسير المادي الطبيعي.

على أننا - نظراً لضيق المجال - سنختصر الجواب على هـذه الأسـئلة، وعلى من أراد التوسع أن يرجع إلى كتب الكلام والعقيدة.

١ - ما هي المعجزةُ وما هو تعريفها ؟

لقد عرف علماء العقيدة المعجزة بتعاريف مختلفة أتقنها وأكملها هـو : ان المعجزة أمر خارقٌ للعادة، مقـرون بالـدعوى، والتحـدي، مـع عـدم المعارضة، ومطابقة الدعوى(١).

ويعني الشرطُ الأولُ (اي كون المعجزة أمراً خارقاً للعادة) أن كل ظـاهرة من الظواهر الطبيعية الحادثة مرتبطة بعلة حتماً، فلا يمكن صدورها مـن دون علة، وهذا الكون مشحون بالعلل التي يكتشفها البشـر شـيئاً فشيئـاً وتدريجاً عبر وسائله العادية أو العلمية، ولكن المعجزة مع كونها ظـاهرة

واقعية ولهذا فهي كغيرها مرتبطةٌ بعلة، بيد أنها تختلف عن غيرها من الظواهر في أن من غير الممكن كشف عللها مـن الطريـق العاديـة أو بواسطة التجارب والتحقيقات العلمية، ولا يمكن تفسيرها وتبريرها بالعِلَـل العادية أو بما يكتشف العلم من العلل لمثل هذه الحوادث، والمقصود مـن خرق العادة هو أن تقع المعجزةُ على خلاف ما عهدناه وتعودنا عليه فـي الظواهر الأُخرى وعِلَلها، مثل إشفاء المرضى من دون علاج ودواء كمـا هو المعهود، واخراج الماء من صخرة صماء من دون حفر أو تنقيب كما هو المألوف، وتحويل العصا الى أفعى من دون تبييض وتفـريخ وتوالـد وتناسل، بل بمسح من يد، أو بعبارة من لسان، او بضرب من عصا !!

من هنا نكتشفُ أن كل ظاهرة يقف الناس العاديون بـالطرق العاديـة أو العلماء خاصة بالطرق العلمية على عللها وأسبابها لا تكون معجزة لأنّه في هذه

---

(١) راجع للوقوف على هذا التعريف : كشف المراد في شرح تجريد الاعتقاد للعلامة الحلّي شرحاً والمحقق نصير الدين الطوسي متناً : ص ٢١٨، وأيضاً شرح تجريد الاعتقاد للعلامة القوشجي : ص ٤٦٥.

الصورة لم يقع أي شيء على خلاف العادة والمألوف، ليدل على مزية في الانبياء.

فان مثل هذه الظاهرة التي يكون لها علةٌ عاديةٌ يعرفها جميع الناس، أو سبب علمي خاص يعرفها علماء ومتخصصو ذلك العلم يمكـن أن يقـوم بايجاد أمثالها جميع الناس، فلا يكون حينئذٍ معجزة.

ولا يعني هذا - وكما اسلفنا - أن المعجزة لا تنتهي الى أية علة، أصـلاً، بل هي تستند إلى علة غير متعارفة وغير عادية، ولمزيد التوضيح سنبحث في هذا المجال عند الاجابة على السؤال الثالث.

ويقصد من الشرط الثاني (أي كون الاعجاز مقروناً بالدعوى) أن يدعـي صاحب المعجزة النبوة والسفارة من جانب اللّه تعالى، ويـأتي بـالمعجزة دليلاً على صحة دعواه هذه، إذ في غير هذه الصـورة لا يكـون الأمـر الخارق للعادة معجزةً بل يطلق عليه في الاصطلاح الديني لفظ «الكرامة» كما كان لمريم بنت عمران التي كلما دخل عليها زكريا المحـراب وجـد عندها رزقاً فاذا سألها من أين لها ذلك ؟ قالت : هو من عند اللّه(١).

ويعني الشرطُ الثالثُ أن يكون الاعجاز مقروناً بدعوة الناس الى الإتيـان بمثله، وعجز الناس عن هذه المعارضة، وعدم قدرتهم على الاتيان بمثلـه مطلقاً إذ في هذه الصورة يتضح أن النبي يعتمد على قـوة الهيـة غيـر متناهية، قوة خارجة عن حوزة البشر العادي.

واما الشرط الرابع فيعني أن الامر الخارق للعادة إنّما يكون عملاً إعجازياً، ويستحق وصف المعجزة الدالّة على ارتباط الآتي بها بالمقام الالهـي، إذا وافق الامر الواقع ما يدعي أنه قادر على الإتيان به.

فلو قال : سأجعلُ هذا البئر الجاف الفارغ من الماء، يفيض بالماء باشـارة اعجازية، ثم يقع ما قاله كان هذا الأمر معجزة حقاً، وأما إذا قال : سأجعل هذا

---

(١) راجع سورة آل عمران : ٣٧.

الماء القليل الموجود في البئر يفيض ماء، بالإعجاز، ولكن جف ذلك البئر على عكس ما قال، لم يكن ذلك إعجازاً، بل كان تكذيباً لمدعيها.

هذا هو خلاصة ما يمكن أن يقال حول تعريف المعجزة والاعجـاز وهـو يساعد على فهم طبيعة العمل الإعجازي.

٢ - هل الاعجاز يهدم القوانين العقلية المسلمة ؟

وبهذا يتضح جواب السؤال المطروح في هذا المجال وهو أن يقـال : إن قانون العلية (أي : ارتباط كل معلول حادث بعلة) مما ارتكز عليه الذهـن البشري وقبله العلم والفلسفة، ولذلك فاننا نلاحظ : كلّما وقف الإنسان على ظاهرة مهما كانت - بحثَ عن علّتها فوراً فاذا رأى حية - مثلاً - عرف بان علتها الطبيعية هي أن تبيض حية، ثم خروج حية مـن البيـض بعـد

سلسلة من التفاعلات فكيف يمكن القبول بالمعاجز مع أنها لا تنشأ عن مثل هذا العلل ولا تمر بمثل هذه المقدمات والمراحل والتفاعلات الطبيعية، مثل انقلاب العصا إلى ثعبان، أو نبوع الماء من الصخر من دون حفر أو تنقيب.

أليس هذا هدماً، أو تخصيصاً لذلك القانون العقلي المسلم العام ؟

فان الجواب على هذا السؤال هو ان مثل هذا السؤال لا يطرحه إلا الذيـن يحصرون العلل والعلاقات بين الاشياء فـي العلـل والعلاقـات الماديـة الطبيعية.

ولكن الحق هو أن أية ظاهرة مادية يمكن أن يكون لها نوعان من العلل :

١ - العلةُ العادية التي تخضع للتجربة.

٢ - العلةُ غير العادية التي يعرفها الناس ولم تكن متعارفـة ولا تخضـع للتجربة العلمية.

وهذا يعني أنه لا توجد أية ظاهرةُ في هذا العالم بدون علة.

وتوضيح هذا أن أصل وجود الحية ونبوع الماء من الصخرة وتكلم الطفل

- مثلاً - أمر ممكن، ولا يعد من المحالات، لأنهـا لـو كانـت مـن المحالات لما تحقق وجودها أبداً.

نعم إنها بحاجة إلى علة لكي تتحقق، والعلة - سواء في المعاجز أو غيرها - يمكن أن تكون إحدى الامور التالية :

أ - العلة الطبيعية العادية وهي ما ألفناها وإعتدنا عليها مثل ظهور شجرة من نواة بعد سلسلة من التفاعلات.

ب - العلة الطبيعية غير العادية وغير المعروفة وهذا يعني أنه قد يكـون لظاهرة معينة نوعان من العلل، وطريقان للتحقق والوجود أحدهما معروف ومعلوم، والآخر مجهول وغير معلوم، والانبياء بحكـم اتصـالهم بالعلـم والقدرة الالهية، يمكن أن يقفوا على هذا النوع مِن العلل - عـن طريـق الوحي - ويوجدوا الظاهرة.

ج - تأثير النفوس والارواح :

فان بعض الظواهر يمكن أن تكون ناشئة من تأثير أرواح الأنبياء ونفوسهم القوية، كما نلاحظ ذلك في مجال المرتاضين الهنود الذين يبلّغون درجـة يستطيعون معها أن يقوموا بما يعجز عنه الأفراد العاديون، وذلك بفضـل الرياضات النفسية التي يخضعون لها. وهو ما يسمى باليوجا أحياناً، وقـد

كتبت حوله كتب ودراسات(١).

وقد أشار الى هذا جملةٌ من علماء الإسـلام وفلاسـفته منهـم الفيلسـوف الإسلامي الشهير صدر الدين الشيرازي حيث يقول :

«لا عجب أن يكون لبعض النفوس قوةٌ الهيةٌ تكون بقوتها كأنها نفس العالم فيطيعها العنصر طاعة بدنها لها، فكلّما ازدادت النفس - تجـرداً وتشبهـاً بالمبادئ القصوى ازدادت قوةً وتأثيراً في ما دونها.

وإذا صار مجرد التصور والتوهم سبباً لحدوث هذه التغيرات في هيولـي البدن لأجل علاقة طبيعية، وتعلّقٍ جبلي لها إليه، لكان ينبغي أن تؤثر فـي بدن الغير وفي هيولي العالم مثل هذا التأثير، لأجل مزيـد قـوة شـوقية، واهتزاز علوي للنفس

---

(١) راجع كتاب الطاقة الانسانية لأحمد حسين.

ومحبة الهية لها، فيؤثر نفسه في إصلاحها، وإهلاك ما يضرها ويفسدها»(١).

د - العلل المجردة عن المادة :

فيمكن ان تكون للظواهر علل مجردة عن المادة كالملائكة، بان تقوم الملائكة بأمر من الله سبحانه بتدمير قرية، او تقوم بمعجزة بعد طلب النبي منها ذلك.

والملائكة مظاهر القدرة الالهية في الكون، وهي التي تدبر أمور الكون بأمر الله تعالى كما يقول القرآن الكريم : «فالمدبراتِ أمراً»(٢) وهي بالتالي جنود الله في السماوات والأرض «ولله جنود السماواتِ»(٣).

فلا بد من ارجاع الظواهر الطبيعية الواقعة الى أحد هذه العوامل الاربعة، ولا يمكن أبداً حصر العلة في العلة الطبيعية العادية المعروفة كما تصور منكرو الاعجاز، بل يمكن أن تكون كلُ واحدة من هذه العلل سبباً لحدوث الظاهرة الطبيعية، فاذا لم نشاهد علة ظاهرة من الظواهر لم يجز لنا أن نُبادر - فوراً - إلى تصور أنها ناشئةٌ من غير علة.

ويجب ارجاع معاجز الأنبياء الى إحدى الطرق الاخيرة، والقول بأن الانبياء استخدموا - في ايقاع الخوارق والمعاجز - إما العلل المادية غير المعروفة للعرف، والعلم، وأما نفوسهم القوية التي حصلت لهم بفعل الجهاد الروحي العظيم والرياضات النفسية الشديدة فهي علة تلك الأفعال الخارقة للعادة.

كما ويمكن ان تكون جميع تلك الافعال العجيبة ناشئة عن جملة من العلل

والعوامل الغيبية المدبرة للكون بامر اللّه ومشيئته.

إذن فلا تتحقق المعجزة بدون علة كما يتصور، ولا يهدم الاعجاز القوانين العقلية المسلّمة.

---

(١) راجع المبدأ والمعاد : ص ٣٥٥ و٣٥٦ لصدر المتألهين المشهور بصدر الدين الشيرازي، وشرح المنظومة للحكيم السبزواري : ص ٣٢٧ قال السبزواري ناظماً :

يطيعه العنصرُ طاعة الجسد*للنفس فالكلُ كجسمهُ يُعدَ**

(٢) النازعات : ٥.

(٣) الفتح : ٤.

٣ - هل المعجزة تصدر عن علل مادية غير معروفة فقط ؟

قد يتصور البعض أن المعاجز تصدر عن علل مجردة عن المادة فقط نافين أن تكون لها أية علل مادية معروفة او غير معروفة، في حين لا يصح هذا السلب الكلي، اذ ما اكثر الخوارق التي تنشأ عن أُمور عادية وعبر سلسلة

من التفاعلات الطبيعية.

فعندما يرقُد مرتاض هندي ليمر عليه تراكتور مـن دون ان تحـدث فـي جسمه أية جراحات أو اصابات فان هناك أُموراً مادية كثيرة دخلت في هذا الامر الخارق مثل : وقوع هذا الحدث في اطار الزمان الخاص، والمكـان الخاص، ومثل جسم المرتاض، وماكنة الحراثة.

فان جميع هذه الاشياء المادية اثرت في ظهور هذا العمل الخارق.

وهكذا عندما تنقلب عصا الكليم عليه السلام إلى حية على نحو الاعجـاز فان العصا شيء مادي وهكذا الحال في غيره من الموارد.

ولهذا لا يمكن ان نتجاهل تأثير العوامل والامور المادية في ظهور الأُمور غير العادية ، وننكر دخالتها بمثل هذا الإنكار.

وهذه هي اكثر النظريات اعتدالاً في هذا المجال.

وفي مقابل ذلك التفريط(١) أفرط آخرون اذ قالوا : ان جميـع المعاجـز والخوارق ناشئة من علل مادية غير معروفة.

وحتى ما يقوم به المرتاضون يعود الى هذه العوامـل الطبيعيـة الـتي لا

يعرفها ولا يقف عليها حتى النوابغ من الناس فضلاً عن العاديين، لأن العوامل الطبيعية على نوعين : المعروفـة وغـير المعروفـة، والنـاس يستفيدون في حياتهم اليومية - في الأغلب - مـن القسـم الاول، بينمـا يستخدم الانبياء والمرتاضون تلك العوامل الطبيعية غير المعروفـة التـي وقفوا عليها وادركوها دون غيرهم.

---

(١) أي حصر علل الخوارق والمعاجز في العوامل المجرَّدة ونفي تأثير العلل الماديّة على نحو الاطلاق.

والسبب في وصفنا هذه النظرية بالافراط والتطرف هو عدم وجود دليـل لاثباته، بل يمكن ان يقال ان مثل هذا الموقف ناشئ عن الانهزامية تجـاه العالم المادي، أو انه لارضاء الماديين، والنافين لما لا يدخل فـي إطـار العالم المادي فان الماديين يرفضون أي عالم آخر غير الطبيعـة وآثارهـا وعلاقاتها وخواصها، وحيث أن ارجاع المعجزات إلى العلل المجردة عن المادة يخالف منطق الماديين، ويضادد اتجاههم وتصـورهم لهـذا عمـد أصحاب هذه النظرية (نظرية إرجاع المعاجز والخوارق إلى علل طبيعيـة غير معروفة وغير عادية) إلى مثل هذا التفسير إقناعاً للماديين، وارضـاء لهم فقالوا : ان جميع الخوارق والمعاجز ناشئة من علل طبيعيـة ومادیـة على الإطلاق، غاية ما في الأمر أنها علل غير معروفة، شأنها شأن كثير من العوامل الطبيعية المجهولة.

ونحن بدورنا نترك هذه النظرية في دائرة الاجمال وبقعة الإمكان، لعدم الدليل لا على طبقها ولا على خلافها.

٤ - كيف تدلّ المعجزة على صحة ادعاء النبوة ؟

إن صفحات التاريخ مليئة بذكر من ادعوا النبوة خداعاً وكذباً، واستثماراً للناس، مستغلين سذاجة الاغلبية الساحقة من جانب، وانجذابهم الفطري إلى قضايا التوحيد والايمان من جانب آخر.

فكيف وبماذا يميز النبي الصادق عن مدعي النبوة ؟؟

إن المعجزة هي إحدى الطرق التي تدل على صحة إدعاء النبوة.

وإنما تدل المعجزة على صدق ادعاء النبوة، وارتباط النبي بالمقام الربوبي لأن اللّه الحكيم لا يمكن أن يزود الكاذب في دعوى النبوة بـالمعجزة، لأن في تزويد الكاذب تغريراً للناس الذين يعتبرون العمل الخارق دليلاً على ارتباط الآتي بها بالمقام الربوبي.

والى هذا أشار الامام جعفر الصادق عليه السلام بقوله في جواب من سأله عن علة اعطاء اللّه المعجزة لانبيائه ورسله:

«ليكُون دليلاً على صدق من أتى به، والمعجزة علامةٌ للّه لا يعطيها إلا انبياءه ورسله، وحججه، ليعرف به صدق الصادق مِن كذب الكاذِب»(١).

٥ - بماذا نميز المعاجز عن غيرها من الخوارق ؟

لا شك في أن السحرة والمرتاضين يقومون بأفعال خارقة للعادة مثيرة للعجب والدهشة حتى ان البسطاء ربما يذهب بهم الاندهاش إلى حد الاعتقاد بأن القائمين بهذه الخوارق مزودون بقوىً غامضة غيبيةٍ لا يتوصلُ اليها البشر.

فكيف يمكن اذن أن نُميز بين المعاجز وتلك الخوارق والعجائب ؟

إن التمييز بين هذه وتلك يمكن أن يتم اذا لاحظنا العلائم الفارقة بين المعجزة وغير المعجزة من الاعمال الخارقة للعادة، كاعمال السحرة والمرتاضين (اصحاب اليوجا) ونظائرهم.

وهذه الفوارق هي عبارة عن الامور التالية :

١ - إن القوة الغامضة الحاصلة لدى المرتاضين والسحرة ناشئة بصورة مباشرة من التعلم والتحصيل عند اساتذة تلك العلوم، وذلك طيلة سنين عديدة من الزمان.

بينما لا يرتبط الاعجاز بالتعلّم والتلمذ أبداً، والتاريخ خير شاهد على هـذا الكلام.

٢ - إن أفعال السحرة والمرتاضين العجيبة قابلـة للمعارضـة والمقابلـة بأمثالها، وربما بما هو اقوى منها، على عكس الإعجاز، فالمعجزات غيـر قابلة لأن تعارض وتقابل بمثلها ابداً.

٣ - المرتاضون والسحرة لا يتحدون أحداً بأفعالهم ولا يطلبون معارضـة أحد لهم وإلا لافتضحوا وكُبتوا.

بينما يتحدى الانبياء والرسل بمعاجزهم جميع الناس ويدعونهم لمعارضتهم

---

(١) علل الشرائع : ج ١ ص ١٢٢.

والاتيان بمثل معاجزهم لو قدروا، واستطاعوا.

فهذا هو القرآن الكريم ينادي بأعلى صوته على مر العصور : (قُـل لئـن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتُوا بِمثل هذا القرآن لا يأتُون بِمثلِهِ ولـو

كان بعضهم لِبعض ظهيراً)(١).

وذلك لأن أفعال السحرة الخارقة مهما كانت فانها تستند الى الطاقة البشرية المحدودة، ولا تتجاوزها بينما يعتمد الانبياء والرسـل العنصـر الغيـبي، والإرادة الإلهية.

٤ - إن أفعال السحرة والمرتاضين الخارقة للعادة أُمور محدودة ومقتصرةٌ على ما تعلموها وتمرنوا عليها، بينما لا تكون معاجز الأنبيـاء والرسـل مقتصرة على أُمور خاصة، فهم لا يعجزون عن الاتيان بكل مـا يطلبـه الناس منهم، طبعاً حسب شرائط خاصة مذكورة في محلهـا فـي أبحـاث الاعجاز(٢).

فتلك معاجز موسى المتعددة الابتدائية، والمقترحة، ومعاجز المسيح عليـه السلام المتنوعة خير مثال على هذا الأمر.

٥ - إن اصحاب المعاجز يقصدون من معاجزهم دائماً دعوة الناس إلـى أهداف إنسانية عالية وغايات الهية سامية وبالتالي هداية المجتمع البشـري إلى المبدأ والمعاد، والأخلاق الفاضلة فيما لا يهدفُ المرتاضون والسحـرة إلا تحقيق مآرب دنيوية حقيرة، ونيل مكاسب مادية رخيصة.

هذا مضافاً إلى أن الأنبيـاء والرسـل أنفسهـم يختلفـون عـن السحـرة والمرتاضين

---

(١) الاسراء : ٨٨.

(٢) مثل أن لا يكون ما يطلبه الناس محالاً عقلياً كرؤية اللّه، ومثل أن لا يكون ما سيأتي لهم به دليلاً على ارتباطه بالمقام الربوبي، كما لو طلبوا منه أن تكون له جنّة من تخيل وأعناب وبيتٌ من ذهب، لأنّ هذه الأُمور لا تكون دليلاً على النبوّة إذ نلاحظ أنّ كثيراً مِن الناس يملكون هذه وليسوا مع ذلك بأنبياء.

وأن لا يكون المقترحون من ذوي اللجاج والعناد الذين لا يقصدون من طلب المعاجز إلا الهزل والاستهزاء والتنزّه. وأن لا تكون نتيجة المعجزة هلاكهم كما لو طلبوا ان يُنزِّل عليهم ناراً من السماء تحرقهم لأن في ذلك نقضاً للغرض.

في نفسيتهم العالية، وأخلاقهم الفاضلة وتاريخهم المشرق، وصفاتهم النبيلة على العكس من السحرة والمرتاضين.

هذه هي أهم العلامات الفارقة بين المعاجز التي تدل على نبـوة الانبيـاء، والخوارق التي يقوم بها المرتاضون والسحرة.

وبعد أن تبين كل هذا اتضح أن الخوارق الالهية التي هـي مـن مقولـة المعاجز أيضاً تختلف عن الأُمور العادية في أن عللها لا تنحصر في العلل المادية غير المعروفة فضلاً عن الأُمور المادية المعروفة، بل ربما تكـون مستندة الى العلل المجردة، فليس من الصحيح ان نسعى لتفسير الخـوارق الالهية مثل : «قصة الفيل» التي أهلك اللّه تعالى فيهـا جيـش «أبرهـة» العظيم بأحجار صغيرة من سجيل رمتها طيور الأبابيـل بالعلـل الماديـة

المعروفة كما فعل من أشرنا إلى أسمائهم في مطلع هذا البحث(١).

ولهذا عدل «سيد قطب» عن رأيه الذي كان قد أبداه في ما سبق في أمثال هذه الأُمور، اذ قال :

ان الطريق الأمثل في فهم القرآن وتفسيره أن ينفُض الانسان من ذهنه كل تصور سابق، وأن يواجه القرآن بغير مقـررات تصوريـة أو عقليـة أو شعورية سابقة، وأن يبني مقرراته كلها حسبما يصور القـرآن والحديـثُ حقائق هذا الوجود، ومن ثم لا يحاكم القرآن والحديث لغـير القـرآن، ولا ينفي شيئاً يثبته القرآن ولا يؤولُه، ولا يثبت شيئاً ينفيه القـرآن أو يبطلـه، وما عدا المثبت والمنفي في القرآن فله أن يقول فيه ما يهديه اليـه عقلـه وتجربته.

نقول هذا بطبيعة الحال للمؤمنين بالقرآن... وهم مع ذلك يؤولون نصوصه هذه لتوائم مقررات سابقة في عقولهم وتصورات سابقة في أذهـانهم لمـا ينبغي أن تكون عليه حقائق الوجود(٢).

---

(١) أي الاستاذ الشيخ محمَّد عبده والاستاذ محمَّد حسين هيكل.

(٢) وهنا قال سيّد قطب في هامش هذا الكلام ما نصه «وما أُبرئ نفسي أنني فيما سبق من مؤلّفاتي وفي الأجزاء الأُولى من هذه الظلال قد انسقتُ الى شيء من هذا وارجو أن أتداركه في الطبعة التالية اذا وفق اللّه».

فاما الذين لا يؤمنون بهذا القرآن، ويعتسفون نفي هذه التصورات لمجـرد أن العلم لم يصل الى شيء منها فهم مضحكون حقاً ! فالعلم لا يعلم اسرار الموجودات الظاهرة بين يديه والتي يستخدمها في تجاربه، وهذا لا ينفـي وجودها طبعاً ! فضلاً عن أن العلماء الحقيقيين اخذت جماعة كبيرة منهـم تؤمن بالمجهول على طريق المتدينين أو على الأقـل لا ينكـرون مـا لا يعلمون، لأنهم بالتجربة وجدوا أنفسهم - عن طريق العلم ذاتـه - أمـام مجاهيل فيما بين ايديهم مما كانوا يحسبون انهم فرغوا من الاحاطة بعلمـه فتواضعوا تواضعاً علمياً نبيلاً ليس فيه سمةُ الادعاء، ولا طابع التطـاول على المجهول كما يتطاول مدعو العلم، ومدعو التفكـير العلمـي، ممـن ينكرون حقائق الديانات وحقائق المجهول(١).

ثم يقول في موضع آخر من تفسيره ناقداً لموقف الاستاذ عبده مـن قصـة الفيل التي هي احدى الخوارق حيث حفظ اللّه تعالى بيته المعظم على نحو خارق للعادة :

ويرى الذين يميلون الى تضييق نطاق الخوارق والغيبيات، والـى رؤيـة السنن الكونية المألوفة تعملُ عملها، أن تفسير الحادث بوقوع وباء الجدري والحصبة اقرب واولى، وان الطير تكون هي : الذباب والبعوض تحمـل الميكروبات فالطير هو كل ما يطير.

ثم ينقلُ كلام الاستاذ «عبده» الذي ذكرناه بنصه مع قوله : هذا ما يصـح الاعتماد عليه في تفسير السورة، وما عدا ذلك فهو مما لا يصح قبولـه إلا بتأويل إن صحت روايته، ومما تعظم به القدرة ان يؤخذ من استعز بالفيل

- وهو اضخم حيوان من ذوات الاربع جسماً - ويهلك بحيوان صغير لا يظهر للنظر ولا يدرك بالبصر حيث ساقه القدر لا ريب عند العاقل أن هذا اكبر واعجب وأبهر.

---

(١) في ظلال القرآن : ج ٢٩ ص ١٥١ - ١٥٣.

قبل فهرس بعد

ثم يقول : ونحن لا نرى أن هذه الصورة التي افترضها الاستاذُ الامـام - صورة الجدري أو الحصبة من طين ملوث بالجراثيم - أدل على قـدرة، ولا اولى بتفسير الحادث، فهذه كتلك في نظرنا من حيث إمكان الوقـوع، ومن حيث الدلالة على قدرة اللّه، وتدبيره، ويستوي عندنا أن تكون السنـة المألوفة للناس، المعهودة المكشوفة لعلمهم، هي التي جرت، فأهلكت قومـاً أراد اللّه اهلاكهم، أو أن تكون سنة اللّه قد جرت بغير المـألوف للبشـر، وغير المعهود المكشوف لعلمهم فحقّقت قدره ذاك.

ثم يقول : لقد كان اللّه سبحانه يريد بهذا البيت(١) أمـراً، كـان يريـد أن يحفظه ليكون مثابة للناس وأمناً وليكون نقطة تجمع للعقيدة الجديدة تزحفُ منه حرة طليقة في ارض حرة طليقة لا يهيمن عليها احد من خارجها ولا تسيطر عليها حكومةٌ قاهرة تحاصر الدعوة في محضنهـا، ويجعـل هـذا الحادث عبرة ظاهرة مكشوفة لجميع الانظار في جميع الأجيال، ليضربهـا مثلاً لرعاية اللّه لحرماته وغيرته عليها.

فمما يتناسق مع جو هذه الملابسات كلها أن يجيء الحادثُ غير مألوف ولا معهود بكل مقوماته وبكل اجزائه، ولا داعي للمحاولة في تغليب صـورة المألوف من الأمر في حادث هو في ذاته وبملابساته مفرد فذٌ.

وبخاصة ان المألوف في الجدري والحصبة لا يتفق مع ما روي من آثـار

الحادث بأجسام الجيش وقائده فإن الجدري أو الحصبة لا يسقُط الجسـم عضواً عضواً، وأنملة انملة، ولا يشق الصدر عن القلب !!

ثم ان «سيد قطب» يشير إلى علل تفسير هذه الحادثـة الخارقـة للعـادة بالتفسير المادي العادي الطبيعي، والمدرسة العقلية الـتي كـان الاسـتاذ «عبده» على رأسها، وضغط الفتنة بالعلم التي تركت آثارهـا فـي تلـك المدرسة، ونحن نكتفي بهذا القدر بالمناسبة، وإشعاراً بما يمكن أن يجنيـه مثل هذا الاتجاه على مقولات الدين ومفاهيمه ومقرراتـه عـن الأحـداث الكونية والتاريخية والانسانية

---

(١) أي الكعبة المشرّفة.

والغيبية(١).

هذا ويجدر بنا ان ننقل هنا ما قاله صاحب تفسير مجمع البيان فـي هـذا الصدد في شأن حادثة الفيل استكمالاً لهذا البحث وتأكيداً لمعجزتـه هـذا الحدث.

قال صاحب المجمع : وكان هذا من اعظم المعجزات القاهرات، والآيـات الباهرات في ذلك الزمان، اظهره اللّه تعالى ليدل على وجـوب معرفتـه،

وفيه ارهاص لنبوة نبينا صلّى اللّه عليه وآله لأنه ولد في ذلك العـام، وفيه حجةٌ لائحة قاصمة لظهور الفلاسفة والملحـدين المنكـرين للآيـات الخارقة للعادات فانه لا يمكن نسبة شيء مما ذكره اللّه تعالى مـن أمـر اصحاب الفيل إلى طبع وغيره كما نسبوا الصيحة والريح العقيم والخسـف وغيرهما مما أهلك اللّه تعالى به الامم الخالية، إذ لا يمكنهم أن يروا فـي اسرار الطبيعة ارسال جماعات من الطير معها احجار معدة مهيأة لهـلاك أقوام معينين قاصدات إياهم دون من سواهم فترميهم بها حـتى تهلكهـم، وتدمر عليهم، لا يتعدى ذلك إلى غيرهم ولا يشك من له مسكة عن عقـل ولب ان هذا لا يكون الا من فعل اللّه تعـالى مسبـب الاسـباب ومذلـل الصعاب، وليس لأحد أن ينكر هذا لأن نبينا صلّى اللّه عليه وآله لما قـرأ هذه السورة على أهل مكة لم ينكروا ذلك بل اقروا به وصدقوه مـع شـدة حرصهم على تكذيبه، واعتنائهم بالرد عليه وكانوا قريبي عهد بأصـحاب الفيل، فلو لم يكن لذلك عندهم حقيقةٌ وأصلٌ لأنكروه، وجحدوه، وأنهم قـد أرخوا بذلك كما أرخوا ببناء الكعبة، وموت قصي بن كعب وغير ذلك.

وقد اكثر الشعراء ذكر الفيل ونظّموه ونقلته الرواةُ عنهم فمِن ذلك ما قالـه (أُمية) بن ابي الصلت :

إن آيات ربِّنا بيِّنات*ما يُماري فيهنّ إلا الكفُورُ**

حبس الفِيلَ بالمُغمَّس حتى*ظلّ يحبو كأنه معقُورُ**

---

(١) في ظلال القرآن : ج ٣٠ ص ٢٥١ - ٢٥٥.

وقال عبد اللّه بن عمرو بن مخزوم :

أنت الجليل ربَنا لم تُدنِس*أنت حبست الفيل بالمغمَّس**

مِن بعد ما همَّ بشيء مبلس*حبستَه في هيئة المكركس(١)**

وقال ابن قيس الرقيات في قصيدة :

واستهلَّت عليهمُ الطير با*لجندل حتى كأنّه مرجُومُ (٢)**

ماذا بعد هزيمة الأحباش ؟

لقد استوجب مقتل أبرهة وتحطّم جيشه وهلاكهم، وبالتالي هزيمـة أعـداء الكعبة المشرفة، وأعداء قريش، أن يتعاظم شأن المكيين، وشـأن الكعبـة الشريفة في نظر العرب، فلا يجرأ أحد - بعد ذلك - في أن يحدث نفسـه بغزو مكة، والإغارة على قريش، أو أن يفكر في التطاول علـى الكعبـة المعظمة صرح التوحيد الشامخ، فقد اخذ الناس يقولون في انفسهم : إن اللّه أهلك أعداء بيته المعظم بمثل ذلك الاهلاك إحتراماً لبيته وتعظيمـاً لشـأن قريش، وقلّما كان يتصور أحد أن ما وقع كان لاجل المحافظة على الكعبة فقط، أي من دون أن يكون لمكانة قريش ومنزلتهم وشأنهم دخل في ذلـك، ويشهد بذلك أن قريشاً تعرضت مراراً لحملات متكررة من غـزاة ذلـك العصر دون أن يصابوا بمثل ما أُصيب به جند «ابرهة» الذي قصد الكعبة

بالذات ويواجهوا ما واجهه، من الردع والكبت.

إن هذا الفتح والظفر الذي نالته قريش من دون تعب ونصب، ومـن دون إراقة أية دماء من أبنائها، أحدثت في نفوس القرشـيين حـالات جديـدة خاصة، فقد زادت من غـرورهم وحميتهـم، وعنجهيتهـم، واعتزازهـم بعنصرهم، فأخذوا يفكرون في تحديد شؤون الآخرين، والتقليل من وزنهم، اعتقاداً منهم بانهم الطبقة الممتازة من العرب دون سواهم. كما أنها دفعتهم الى أن يتصوروا أنهم وحدهم موضع عناية الأصنام (الثلاثمائة والستيـن) فهم وحدهم الذين تحبهم

---

(١) المنكّس.

(٢) تفسير مجمع البيان للطبرسي : ج ١٠ ص ٥٤٣ في تفسير سورة الفيل.

تلك الاصنام، وتحميهم وتدافع عنهم !!

ولأجل هذا تمادوا في لهوهم، ولعبهم، وتوسعوا في ممارسة اللذة والـترف حتى أنهم أظهروا ولعاً شديداً بالخمر، فكانوا يحتسونها في كـل مناسـبة، وربما مدوا موائد الخمر في فناء الكعبة، وأقاموا مجالس سمرهم وأنسهـم إلى جانب أصنامهم الخشبية، والحجرية، التي كان لكل قبيلة مـن العـرب بينها صنم أو اكثر، ويقضون فيها اسعدَ لحظات حياتهم - حسب تصورهم،

وهم يتناقلون فيها كل ما سمعوه من أخبار وقصص حـول «منـاذرة» الحيرة و«غساسنة» الشام وقبائل اليمن، وهم يتصورون أن هـذه الحيـاة الحلوة اللذيذة هي من بركة تلك الاصنام والاوثان، فهي التي جعلت عامـة العرب تخضع لقريش، وجعلت قريشاً افضل من جميع العرب !!

أوهام قريش تتفاقم !!

إن أخطر ما يمر به إنسان في حياته هو أن يصفو عيشه مـن المشاكـل، ردحاً من الزمن ويحس لنفسه بنوع من الحصانة الوهمية، فعنـدها تجـده يخص الحياة بنفسه ويستأثر بكل شيء في الوجود ولا يرى لغيره من أبناء نوعه وجنسه من البشر أي حق في الحياة، ولا أي شأن وقيمة تذكر، وذلك هو ما يصطلح عليـه بالاسـتكبار والاسـتعلاء، والاحسـاس بـالتفوق، والغطرسة.

وهذا هو بعينه ما حصل لقريش بعد اندحار جيـش «ابرهـة» وهلاكـه، وهلاك جنده بذلك الشكل العجيب الرهيب.

فقد عزمت قريش منذ ذلك اليوم - وبهدف إثبات تفوقها وعظمتها للآخرين -، على أن تلغي أي احترام لأهل الحلّ لانهم كانوا يقولـون : ان جميـع العرب محتاجون الى معبدنا، وقد رأى العرب عامة كيف اعتنى بنا آلهـةُ الكعبة، خاصة، وكيف حمتنا من الاعداء !!

ومن هنا بدأت قريش تضيق على كل من يدخل مكة من أهل الحل للعمرة

او الحج، وتتعامل معهم بخشونة بالغة، وديكتاتورية شـديدة ففرضـت على

كل من يريد دخول مكة للحج أو العمرة أن لا يصطحب معه طعاماً مـن خارج الحرم، ولا يأكل منه، بل عليه أن يقتني من طعـام أهـل الحـرم، ويأكل منه، وأن يلبس عند الطواف بالبيت من ثياب أهل مكـة التقليديـة القومية، أو يطوف عرياناً بالكعبة إن لم يكن في مقدوره شراؤها واقتناؤها، ومن كان يرفُض الخضوع لهذا الأمر، مِن رؤساء القبائل وزعمائها، كـان عليه أن ينزع ثيابه - بعد انتهائه من الطواف - ويلقيها جانباً، ولا يحـق لأحد ان يمسها أبداً لا صاحبها ولا غيرها(١).

اما النساء فكان يجب عليهن اذا أردنَ الطواف أن يطفنَ عاريات على كل حال، وان يضعن خرقة على رؤوسهن ويرددن البيت التـالي فـي اثنـاء الطواف :

اليوم يبدو بعضُه أو كُلّه*وبعد هذا اليوم لا أحِلُّه**

ثم إنه لم يكن يحق لأي يهودي أو مسيحي - بعد هزيمة «ابرهـة» الـذي كان هو أيضاً مسيحياً - أن يدخل مكة إلا أن يكون أجيراً لمكي، وحتى في هذه الصورة كان يجب عليه أن لا يتحدث في شيء من أمر دينه ومن أمر كتابه.

لقد بلغت النخوةُ والعصبية بقريش حداً جعلتهم يتركون بعض مناسك الحج

التي كان يجب الإتيان بها خارج الحرم !!

لقد أنفوا منذ ذلك اليوم أن يأتوا بمناسك عرفة(٢) كما يفعل بقيـة النـاس فتركوا الوقوف بعرفة، والافاضة منها مع أن آباءهم (من ولد إسـماعيل) كانوا يقّرون أنها من المشاعر والحج، وكانت هيبـة قـريش وعظمتهـا الظاهرية رهن - برمتها - بوجود الكعبة بين ظهرانيها، وبوظائف الحـج ومناسكه هذه، اذ كان يجب على الناس في كل عام أن يـأتوا إلـى هـذا الوادي الخالي عن الزرع وهذه الصحراء اليابسة لأداء المناسك، إذ لو لـم يكن في هذه النقطة من الأرض أي مطاف أو مشعر لما رغب احد حتـى في العبور بها فضلاً عن المكث فيها عدة ايام وليال.

---

(١) وكانت تسمّى عندهم «اللّقى».

(٢) الكامل في التاريخ : ج ١ ص ٢٦٦.

لقد كان ظهور مثل هذا الفساد الاخلاقي وهذا الموقـف المتعصـب مـن الآخرين أمراً لابد منه بحسب المحاسبات الاجتماعية.

فالبيئة المكية لا بد أن تغرق في الفساد والانحراف حـتى يتهيـأ العالـم لانقلاب أساسي ونهضة جذرية.

إن كل ذلك الانفلات الاخلاقي والترف والانحراف كان يهـيئ الارضـية ويعدها لظهور مصلح عالمي، أكثر فاكثر.

ولهذا لم يكن غريباً أن يغضب «أبو سفيان» فرعون مكة وطاغيتها علـى «ورقة بن نوفل» حكيم العرب الذي تنصر في أُخريات حياته واطلع على ما في الانجيل، كلما تحدث عن اللّه والانبياء ويقول له : «لا حاجـة الـى مثل هذا الاله وهذا النبي، تكفينا عناية اصنامنا» !!

عبد اللّه والد النبيّ :

يوم فدى «عبد المطلب» ولده «عبد اللّه» بمائة من الابل نحرها، وأطعـم الناس في سبيل اللّه، لم يكن يمضي من عمر «عبد اللّه» اكثر من اربعـة عشر ربيعاً، وقد تسبَبت هذه الواقعةُ في أن يكتسب «عبـد اللّـه» شـهرة خاصة بين عشيرته مضافاً الى شهرته الكبرى بين قـريش، وأن يحظـى بمكانة كبيرة عند أبيه : «عبد المطلب» بنحو خاص، لأن ما يكافُ الانسان غالياً، ويتحملُ في سبيله عناء اكثر لا بد أن يحظى لديـه بمكانـة اكـبر، ويحبه محبة تفوقُ المتعارف.

ومن هنا كان «عبد اللّه» يتمتع باحترام يفوق الوصف بين أبناء عشيرتـه وأفراد عائلته وأقربائه.

ثم إن «عبد اللّه» يوم كان يتوجه برفقة والدهِ إلى المذبح كان يعـاني مـن

مشاعر وأحاسيس متناقضة ومتضادة، فهو من جانب كان يكِن لوالـده احتراماً كبيراً وحباً شديداً، ولهذا لم يكن يجد بداً من طاعته، والانصيـاع لمطلبه، بينما كان من جانب آخر يعاني من قلق، واضطراب شديدين على حياته التي كان يرى كيف تعبث بها يد القدر، وتكاد تقضـي عليهـا كمـا يقضي الخريفُ على

أوراق الشجر.

كما أن «عبد المطلب» نفسه كان هو الآخر تتجاذبه قوتان متضادتان : قوةُ الايمان والعقيدة من جانب، وقوةُ العاطفة والمحبة الأبوية من جانب آخر، وقد أوجدت هذه الواقعة في نفسي هاتين الشخصيتين آثاراً مـرة يصعـب زوالها، بيد أن تلك المشكلة حيث عولجت بالطريقة التي ذكرناهـا ونجـا «عبد اللّه» من الموت المحقق فكر «عبد المطلب» فوراً في ان يغسل عن قلب «عبد اللّه» تلك المرارة القاسية بزواج «عبد اللّه» بآمنة، وبذلك يقوي من عرى حياته التي بلغت درجة الانصرام، بأقوى السبل، وأمتن الوسائل.

ومن هنا توجه «عبد المطلب» الى بيت «وهب بن عبد منـاف» - فـور رجوعه من المذبح آخذاً بيد ولده عبد اللّه - وعقد لولده على «آمنة بنـت وهب» التي كانت تُعرفُ بالعِفة، والطُهر، والنجابة، والكمال.

كما أنه عقد لنفسه - في ذات المجلس - على «دلالة» ابنـة عـم آمنـة، ورزق منها «حمزة» عم رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله والمشابه له فـي

السن(١).

غير أن الاستاذ المؤرخ «عبد الوهاب النجار» المدرس بقسم التخصص في الازهر الذي صحح «التاريخ الكامل» لابن الاثير، وعلق عليه بملاحظات وهوامش مفيدة شكك في صحة هذه الرواية، واستغربها، وقال : لا أظـن أنه يصح شيء في هذه الرواية، إذ المعقولُ أن يتريث «عبد المطلب» بعد ذلك المجهود المضني حتى يريح نفسه ثم يذهب ليخطب لابنه(٢).

ولكننا نعتقد بأن المؤرخ المذكور لو نظر إلى المسألة مِن غير هذه الزاوية لسهل عليه التصديقُ بهذه الرواية.

ثم أن «عبد المطلب» عين موعداً للزفاف، وعند حلول ذلك الموعد تمـت مراسم الزفاف في بيت «آمنة» طبقاً لما كان متعارفاً عليه فـي قـريش، ولبث

---

(١) تاريخ الطبري : ج ٢ ص ٧ والمذكور في هذا المصدر «هالة».

(٢) الكامل في التاريخ : ج ٢ ص ٤ قسم الهامش.

«عبد اللّه» مع «آمنة» ردحاً من الزمن حتى سافر الى الشـام للتجـارة،

وعند عودته توفّي اثناء الطريق كما ستعرف.

دور الأيادي المشبوهة في تاريخ الإسلام :

لا شك أن التاريخ سجل في صفحاته كل ما يتعلق بالشعوب والاقوام من نقاط مضيئة أو مظلمة، كقصص للعبرة والعظة.

ولكن الحب والبغضَ تارة والتساهل والبدعة تارة أُخرى وحب اظهار المقدرة وابراز القوة الأدبية تارة ثالثة وغير ذلك من العوامل والاسباب عملت عملها فتدخلت - في جميع الأدوار والعصور - في صياغة التاريخ، وخلطت الغث بالسمين والحقيقة بالخرافة، وتلك هي مشكلة كبرى تقع في طريق المؤرخ الذي يريد عرض حوادث التاريخ في أمانة وإستقامة، ولذلك يجب عليه أن يميز الحق عن الباطل، والصدق عن الكذب من خلال الأخذ بالموازين العلمية، والممارسة الكاملة للتاريخ. ولقد كان للعوامل المذكورة تأثير أيضاً في تدوين التاريخ الإسلامي، فالأيادي المريبة المشبوهة عملت على تحريف الحقائق في هذا المجال، بل وربما عمد بعض الاصدقاء - بهدف تعظيم شأن النبي الاكرم صلّى اللّه عليه وآله - الى نسبة بعض الأُمور التي يظهر عليها آثار الاختلاق والإفتعال إليه صلّى اللّه عليه وآله وسلّم وهو منها براء.

فقد جاء في التاريخ أن نور النبوة كان يسطع في جبين «عبد اللّه» والد النبي صلّى اللّه عليه وآله دائماً(١)، كما نقرأ أن «عبد المطلب» كان يأخذ بيد ولده «عبد اللّه» في سنين الجدب والقحط، ويصعد الجبل ويستسقي

متوسلاً الى اللّه بالنور الذي كان بينا في جبين «عبد اللّه»(٢) فهذا هو ما كتبه وسجله كثير من علماء الشيعة والسنة في مؤلفاتهم، ونحن لا نملك أي دليل على عدم صحته.

ولكن هذه القصة وقعت أساساً لبعض الاساطير التي لا يمكن ان نقبل بهـا مطلقاً

---

(١) السيرة الحلبية : ج ١ ص ٣٩.

(٢) الكامل في التاريخ : ج ٢ ص ٤.

واليك فيما يأتي ما الحِق بهذه القضية التاريخية الثابتة.

قِصة فاطمة الخثعمية :

و«فاطمةُ» هذه هي أختُ «ورَقة بن نوفل» الذي كان من حكماء العـرب وكُهانهم، وكان له معرفة كبيرة بالإنجيل. وقد ضبط التاريخ حديثـه مـع خديجة في بدء بعثة الرسول الاكرم صلّى اللّه عليه وآله وسوف نشير إليه في محله من هذا الكتاب.

وكانت «فاطمة» اخت «ورقة» قد سمعت من أخيها عن نبوة رجل من احفاد «اسماعيل»، ولهذا ظلّت تنتظر، وتبحث.

وذات يوم وعندما كان «عبد المطلب» متوجهاً الى بيت آمنة بنت وهـب بعد قفوله ومنصرفه من المذبح وهو آخذ بيد «عبد اللّه»، شاهدت «فاطمة الخثعمية» - التي كانت تقف على مقربة من منزلها - النور الساطع مـن جبين «عبد اللّه»، والذي كانت تنتظره مدة طويلة وتبحث عنـه بشـوق، فقالت : اين تذهب يا عبد اللّه ؟ لك مِثلُ الإبل التي نحِرت عنك، وقع علي الآن.

فقال : أنا مع أبي ولا استطيع خلافه وفراقه !!(١).

ثم تزوج «عبد اللّه» بآمنة في نفس ذلك اليوم، وقضى معها ليلة واحدة.

ثم في الغد من ذلك اليوم أتى المرأة «الخثعمية» التي عرضت نفسها عليه، وأبدى استعداده لتنفيذ رغبتها، ولكن «الخثعمية» قالت له : ليس لـي بـك اليوم حاجة، فلقد فارقك النور الذي كان معك أمس !!(٢).

وقيل : إنه لما عرضت تلك المرأة «الخثعمية» علـى «عبـد اللّـه» مـا عرضت أجابها «عبد اللّه» بالبداهة ببيتين من الشعر هما :

أمّا الحرامُ فالممماتُ دُونـهُ*والحِلُّ لا حلٌ فاستبينـهُ**

فكيف بالأمر الذي تبغِينَهُ*يحمي الكريمُ عرضَه**

---

(١) تاريخ الطبري : ج ٢ ص ٥.

(٢) السيرة النبوية : ج ١ ص ١٥٦ النصّ والهامش.

ولكن لم تمر ثلاثة من زواجه بآمنة، واقامته عندها حتى دعته نفسه إلى ان يأتي الخثعمية، وعرض نفسه عليها قائلاً : هل لـك فيمـا كنـت اردت ؟ فقالت : لقد رأيت في وجهك نوراً فأردت ان يكون لي فـأبى اللّـه الا أن يجعله حيث اراد فما صنعت بعدي ؟

قال : زوجني أبي «آمنة بنت وهب» !!(١).

علائم الإختلاق في هذه القصة !

لقد غفل مختلِقُ هذه القصة عن أمور كثيرة عند صياغته لها، ولم يستطـع اخفاء آثار الاختلاق عنها.

فلو كان يكتفي بالقول - مثلاً - بان «فاطمة» صادفت «عبد اللّه» ذات يوم في زقاق من الأزقة، أو سوق من الاسواق، وشاهدت نور النبي ساطعاً من

طلعته ففكرت في الزواج به رغبة في ذلك النور لكان مـن الممكـن التصديق بهذه القصة، بيدَ أن نصَ القصة جاء بصورة لا يمكن القبول بها للأسباب التالية :

١ - ان هذه القصة تفيد أن المرأة «الخثعمية» عندما عرضت نفسها على «عبد اللّه»، كانت يد «عبد اللّه» في يد والده «عبد المطلب»، فكيف يمكن ان تعرض تلك الفتاة نفسها عليه وتبين مطلوبها له ويدور بينهما ما يدور، ولا يحس عليهما عبد المطلب ؟!

ثم الم تستيح من عظيم قريش «عبد المطلب» الذي لم يثنه عن طاعة اللّـه تعالى شيء حتى مقتلُ ولده وذبحه.

ولو قلنا أن مطلبها كان حلالاً مشروعاً فان ذلك لا ينسجم مع البيتين مـن الشعر اللذين رد بهما «عبد اللّه» طلبها.

٢ - والأصعب من ذلك قصة عبد اللّه نفسه. فان ولداً مثل «عبـد اللّـه» يحترم والده الى درجة الاستعداد لأن يذبح وفاء لنذر والده، كيف يمكن أن يتفوه في

---

(١) تاريخ الطبري : ج ٢ ص ٧، والكامل في التاريخ : ج ٢ ص ٤.

حضرة والده بما نُقِلَ عنه ؟!

ترى أيمكن لشاب نجا لتوه من السيف والذبح، ولا يزال يعاني مـن آثـار الصدمة الروحية أن يستجيب لرغبات امرأة، أو يبدي اسـتعداده ورضـاه القلبي لذلك لولا وجود والده معه ؟!!

ترى هل كانت تلك المرأة جاهلة بالظروف، لا تقدر الاحوال، ولا تعـرف الوقت المناسب لطرح مطلبها، أو أن مختلق هذه القصة غفل عـن نقـاط الضعف البارزة هذه ؟!!

ثم إن مما يفضح هذه القصة ويظهر بطلانها ما جاء في الصـورة الثانيـة لها، فان عبد اللّه - كما لاحظنا - جابه طلب تلك المرأة ببيتين من الشعر وقال ما حاصله بأن الموت أسهل عليه من ارتكاب هذا الفعل الحرام الذي يأتي على دين الرجل وشرفه، فكيف يجوز لمثل هذا الشاب الطاهر الغيور أن يقع فريسة لتلك الأهواء، والرغبات الرخيصة الفاسدة، والحال انه لـم ينقض من زواجه اكثر من ثلاث ليال، وتدفعه غريزته الجنسيـة إلـى أن يبادر الى بيت المرأة الخثعمية.

إن ما جابه به «عبد اللّه» دعوة تلك المرأة، وما جاء في ذينك البيتين مـن الشعر اللذين يطفحان بالغيرة، والإباء، لخير دليل على طهارة «عبد اللّه» وعفته، وتقواه، وترفعه عن الآثـام والادران، وابتعـاده عـن الانجـاس والادناس.

وقد علّق الاستاذ العلامة «النجار» على هذه الاسطورة بقوله : «ليس مـن المعقول أن يذهب عبد اللّه يبغي الزنا في الساعة التي تزوج فيها، ودخـل فيها على امرأته».

ولكن الاستاذ «النجار» أخطأ في تشكيكه في النور النبوي الساطع في جبين «عبد اللّه» حيث قال معقباً على كلامه السابق : «ولكنها مسألة النور فـي وجهه يريدون إثباتها ورسول اللّه غني عن هذا كله»(١).

فان ذلك مما رواه جميع المؤرخين بلا استثناء، فلا داعي ولا وجه للتشكيك فيه !

---

(١) هامش الكامل في التاريخ : ج ٢ ص ٤.

طهارة النبي من دنس الآباء وعهر الأُمهات :

وينبغي هنا - وبالمناسبة - ان نشير الى مسألة مهمة فـي تـاريخ النبـي الكريم صلّى اللّه عليه وآله ألا وهي طهارة النسب النبوي من دنس الآباء ودناءتهم وعهر الامهات وفسادهن فلا يكون في اجداده وجداتـه سـفاح، وزنا.

وهذا مما اتفق عليه المسلمون، بعد ان دلّ عليه العقل اذ لو لم يكن النبـي منزهاً عن دناءة الآباء وعهر الامهات لتنفر عنه الطباع ولم يرغب احـد في متابعته، والانقياد لاوامره ونواهيه.

ولقد صرح رسول الإسلام صلّى اللّه عليه وآله بذلك في احاديث رواهـا السنة والشيعة.

فقد جاء عن النبي صلّى اللّه عليه وآله انه قال :

«نقلت من الاصلاب الطاهرة الى الارحام الطاهرة نكاحاً لا سفاحاً»(١).

وجاء ايضاً انه صلّى اللّه عليه وآله قال :

«لم يزل اللّه ينقلني من الأصلاب الحسيبة الى الأرحام الطاهرة»(٢).

وقال الإمام امير المؤمنين علي بن ابي طالب عليه السلام :

«وأشهد أن محمداً عبده ورسولُه وسيد عباده كلما نسخَ اللّه الخلق فرقتيـن جعله في خيرهما لم يسهم فيه عاهر، ولا ضرب فيه فاجر»(٣).

وقال الإمام الصادق عليه السلام في هذا الصدد عند تفسير قول اللّـه تعالى : «وتقلّبك في الساجِدين» :(٤)

«في أصلاب النبيين، نبي بعد نبي، حتى اخرجه من صلب ابيه عن نكـاح غير سفاح من لدن آدم»(٥).

وقد صرح علماء الإسلام من الفريقين بهذا الأمر، واشترطوه في النبي.

---

(١) كنز الفوائد : ج ١ ص ١٦٤.

(٢) السيرة الحلبية : ج ١ ص ٤٣.

(٣) نهج البلاغة : الخطبة ٢١٥ طبعة عبده.

(٤) الشعراء : ٢١٩.

(٥) تفسير مجمع البيان عند تفسير الآية.

قال المحقق نصير الدين الطوسي في تجريد الاعتقاد : ويجب فـي النبـي العصمة... وعدم السهو، وكل ما ينفّر عنه مـن دنـاءة الآبـاء وعهـر الامهات...(١).

وقد وافقه على هذا العلامة القوشجي الاشعري في شرح التجريد(٢).

وقال العلامة المتكلم المقداد السيوري في اللوامع الالهيـة : ويجـب أن لا يكون مولوداً من الزنا ولا في آبائه دني ولا عاهر(٣).

وفاةُ عبد اللّه في «يثرب» :

لقد بدأ «عبد اللّه» بالزواج فصلاً جديداً في حياته، وأضاء ربوعها بوجود شريكة للحياة في غاية العفة والكمال هي زوجته الطاهرة «آمنة» وبعد مدة من هذا الزواج المبارك توجه في رحلة تجارية - وبصحبة قافلة - الـى الشام بهدف التجارة.

دقت أجراس الرحيل، وتحركت القافلة التجارية وفيها عبد اللّـه، وبـدأت رحلتها من «مكة» صوب الشام، وهي مشدودة بمئات القلوب والافئدة.

وكانت «آمنة» تمر في هذه الايام بفترة الحمل، فقد حملت مـن زوجهـا «عبد اللّه».

وبعد مضي بضعة أشهر طلعت على مشارف مكة بوادر القافلة التجاريـة وهي عائدة من رحلتها، وخرج جمع كبير من أهل مكة لاسـتقبال ذويهـم المسافرين العائدين.

ها هو والد «عبد اللّه» ينتظر - في المنتظرين - ابنه «عبد اللّه»، كما ان عيون عروسة ولده «آمنة» هي الأُخرى تدور هنا وهناك تتصفح الوجـوه وتبحث عن زوجها الحبيب «عبد اللّه» في شوق لا يوصف.

---

(١) كشف المراد في شرح تجريد الاعتقاد : ص ٣٤٩ تحقيق الشيخ حسن زاده الآملي.

(٢) راجع : شرح القوشجي لتجريد الاعتقاد : ص ٣٥٩.

(٣) اللوامع الإلهية : ص ٣١١.

ولكن ومع الأسف لا يجدان أثراً من «عبد اللّه» بين رجال القافلة !!

وبعد التحقيق يتبين أن «عبد اللّه» قد تمرض أثناء عودتـه فـي يـثرب، فتوقف هناك بين اخواله لكي يستريح قليلاً، فاذا تماثل للشفاء عاد إلى أهله في «مكة».

وكان من الطبيعي أن يغتم هذان المنتظران «عبد المطلب وآمنـة» لهـذا النبأ، وتعلو وجهيهما آثار الحزن والقلق، وتنحدر من عيونهما دموع الأسى والاسف.

فأمرَ «عبد المطّلب» اكبر ولده : «الحارث» إلى أن يتوجه الى «يثرب»، ويصطحب معه «عبد اللّه» الى مكة.

ولكنه عندما دخل يثرب عرف بأن أخاه : «عبد اللّه» قد توفي بعد مفارقة القافلة له بشهر واحد، فعاد الحارث الى مكة، فاخبر والده «عبد المطلب»، وكذا زوجته العزيزة «آمنة» بذلك، ولم يخلف «عبد اللّه» من المال سوى خمسة من الابل، وقطيع من الغنم، وجارية تدعى «أم أيمن» صارت فيما بعد مربية النبي الاكرم صلّى اللّه عليه وآله وسلّم(١).

---

(١) تاريخ الطبري : ج ٢ ص ٧ و٨، والسيرة الحلبية : ج ١ ص ٥٠.

٥ ـ مولدُ رسُول اللّه صلّى اللّه عليه وآله

كانت سحب الجاهلية الداكنة تُغطّي سماء الجزيرة العربية، وتمحي الاعمالُ القبيحةُ والممارساتُ الظالمة، والحروب الداميةُ، والنهـب والسلـب، ووأد البنات، وقتلُ الاولاد، كل فضيلة أخلاقية في البيئة العربية، وكان المجتمع العربي قد اصبح في منحدر عجيب من الشقاء، ليس بينهم وبين الموت الا غشاء رقيق ومسافة قصيرة !!

في هذا الوقت بالذات طلعت عليهم شمس السعادة والحياة فاضاءت محيـط الجزيرة الغارق في الظلام الدامس، وذلك عندما اشرقت بيئة الحجاز بمولد النبي المبارك «محمد» صلّى اللّه عليه وآله وسلم، وبهذا تهيأت المقـدمات اللازمة لنهضة قوم متخلف طال رزوحه تحت ظلام الجهـل، والتخلـف، وطالت معاناته لمرارة الشقاء. فانه لم يمض زمن طويل الا وملأ نور هذا الوليد المبارك ارجاء العالم واسس حضارة انسانيـة عظمـى فـي كـل المعمورة.

فترةُ الطُفولة في حياة العظماء :

ان جميع الفصول في حياة العظماء جديرةٌ بالتأمل، وقمينة بالمطالعة، فربما تبلغ العظمة في شخصية احدهم من السعة، والسمو بحيث تشمـل جميـع فصول حياته

بدءاً من الطفولة، بل وفترة الرضاع فتكون حياته وشخصيته برمتها سلسلة متواصلة من حلقات العظمة.

إن جميع الأدوار، والفترات في حياة العظماء، والنوابغ وقادة المجتمعـات البشرية، ورواد الحضارات الانسانية وبناتها تنطوي في الأغلب على نقاط مثيرة وحساسة وعلى مواطن توجب الاعجاب.

إن صفحات تاريخهم وحياتهم منذ اللحظة التي تنعقد فيها نطفهم في أرحام الأُمهات، وحتى آخر لحظة من أعمارهم مليئة بالاسرار، زاخرة بالعجائب.

فنحن كثيراً ما نقرأ عن أُولئك العظماء في أدوار طفولتهم أنها كانت تقارن سلسلة من الامور العجيبة، والمعجزة.

ولو سهل علينا التصديق بهذا الامر في شأن الرجال العاديين من عظمـاء العالم لكان تصديقنا بأمثالها في شأن الانبياء والرسل اسهل من ذلك بكثير، وكثير.

إن القرآن الكريم ذكر فترة الطفولة في حياة النبي موسى عليه السلام فـي صورة محفوفة بكثير من الأسرار، فهو يقول ما خلاصته : ان مئات مـن الاطفال قُتِلوا وذُبحوا بامر من فرعون ذلك العصر منعاً من ولادة موسـى ونشوئه.

ولكن ارادة اللّه شاءت ان يولد الكليم، وظلت هذه المشيئة تحفظه من كيـد الكائدين ولهذا لم يعجز اعداؤه عن القضـاء عليـه او إلحـاق الاذى بـه فحسب، بل تربى في بيت فرعون أعدى اعدائه.

يقول القرآن الكريم في هذا الصدد : (ولقد منّا عليك مرة أُخرى. إذ أوحينا إلى أُمك ما يوحى أن أقذفيه في اليم فليلقِه اليم بِالساحِل يأخذه عـدو لـي وعدو له وألقيتُ عليك محبةً مِنّي ولِتُصنع على عيني).

ثم يقول : (إذ تمشي أُختك فتقُول هل أدلّكم على من يكفلُه فرجعنـاك إلـى أُمك كي تقر عينُها ولا تحزن)(١).

---

(١) طه : ٣٧ - ٤٠.

ثم إن القرآن الكريم يذكر قصة ولادة المسيح، ويصور طفولتـه ونشأتـه بشكل أعجب اذ يقول :

(واذكُر في الكتاب مريم إذ انتبذَت مِن أهلها مكاناً شرقياً. فاتخـذت مِـن دونهم حجاباً فأرسلنا اليها روحنا فتمثّل لها بشراً سوياً. قالت إنّـي أعـوذ بالرحمن مِنك إن كنت تقياً قال إنما أنا رسول ربك لأهب لك غُلاماً زكياً.

قالت أنّى يكون لي غلام ولم يمسسنِي بشر ولم أك بغِياً. قال كذلِك قال ربك هو علي هين ولنجعله آية للنّاسِ ورحمةً مِنا وكـان أمـراً مقضيـاً. فحملته فانتبذت به مكاناً قصياً. فأجاءها المخاض إلى جذع النخلة قالت يـا ليتني مِت قبل هذا وكنتُ نسياً منسِياً. فناداها من تحتِها ألا تحزني قد جعل ربك تحتكِ سرياً. وهزي إليك بجذع النخلةِ تُساقِطْ عليك رطباً جنياً. فكُلـي واشربي وقري عيناً فإما ترين من البشر أحداً فقولي إنّي نذرتُ للرحمـن صوماً فلن أُكلم اليوم إنسِياً. فأتت بهِ قومها تحمِله قالُوا يا مريم لقد جِئـتِ شيئاً فرياً. يا أُختَ هارون ما كان أبوكِ امرأ سوءٍ وما كانت أُمـك بغيـاً. فأشارت إليه قالوا كيف نُكلم من كان في المهدِ صبياً. قال إنّي عبـد اللّـه آتاني الكِتاب وجعلني نبياً. وجعلني مباركاً أين ما كُنت وأوصاني بِالصلاة والزكاة ما دمت حياً. وبراً بوالدتي ولم يجعلني جباراً شقياً. والسلام علـي يوم وِلدتُ ويوم أموتُ ويوم أُبعث حياً)(١).

فإذا كان أتباع القرآن والتوراة والانجيل يشهدون بصحة هذه المطالب حول ولادة هذين النبيين العظيمين من اولى العزم لموسـى وعيسـى عليهمـا السلام، ويقرون بصدقها، فلا يصح في هذه الصورة أن نستغـرب وقـوع أمثالها في شأن رسول الإسلام، ونتعجب من الحوادث العجيبة التي سبقت أو رافقت ميلاده المبارك، ونعتبرها أموراً سطحية لا تدل على شيء.

فنحن نقرأ في الكتب التاريخية وفي كتب الحديث عن وقوع حوادث عجيبة

---

(١) مريم : ١٦ - ٣٣.

يوم ولادة النبي الكريم صلّى اللّه عليه وآله مثل : ارتجاس ايوان كسرى، وسقوط اربع عشرة شرفة منه، وانخماد نار فارس الـتي كانـت تُعبـد، وانجفاف بحيرة ساوة، وتساقط الاصنام المنصوبة في الكعبة على وجوهها، وخروج نور معه صلّى اللّه عليه وآله وسلّم أضاء مساحـة واسـعة مـن الجزيرة، والرؤيا المخيفة التي رآها انوشيروان ومؤبـدوه، وولادة النبـي صلّى اللّه عليه وآله مختوناً مقطوع السرة، وهو يقـول : «أللّـه اكـبر، والحمد للّه كثيراً، سبحان اللّه بكرة وأصيلاً».

وقد وردت جميع هذه الامور في المصادر التاريخية الأولـى، والجوامـع الحديثية المعتبرة(١).

ومع ملاحظة ما ورد في حق موسى وعيسى ونقلنا بعضه هنا، لا يبقى أي مجال للشك في صحة هذه الحوادث.

نعم ينبغي أن نسأل هنا : ماذا كانت تهدف هذه الحوادث غير العادية ؟

وفي الاجابة على هذا السؤال يجب ان نقول :

إن هذه الحوادث الخارقة والعجيبة كانت تهدف إلى أمرين :

الأول : أن تدفع بالجبابرة، والوثنيين وعبدة الاصنام إلى التفكير فيما هم فيه فيسألوا أنفسهم : لماذا انطفأت نيرانُهم التي طالما بقيت مشتعلة تحرسها اعيان السدنة والكهنة ؟

لماذا سببت هزةٌ خفيفةٌ في ارتجاس ايوان كسرى العظيم المحكم البنيان، ولم يحدث لبيت عجوز في نفس ذلك البلد شيء ؟

لماذا تهاوت الاصنام المنصوبة في الكعبة وحولها، وانكبت على وجوهها بينما بقيت غيرها من الاشياء على حالها لم يصبها شيء ابداً ؟

لو كانوا يفكرون في تلك الحوادث لعرفوا أن تلك الحوادث كانت تبشّر بعصر جديد... عصر انتهاء فترة الوثنية وزوال مظاهر السلطة الشيطانية

---

(١) تاريخ اليعقوبي : ج ٢ ص ٥، بحار الأنوار : ج ١٥ ص ٢٤٨ - ٣٣١، السيرة الحلبية : ج ١ ص ٦٧ - ٧٨ وغيرها.

وانحدارها ؟

الثاني : ان هذه الحوادث جاءت لتبرهن على شأن الوليد العظيم، وانه ليس وليداً عادياً، فهو كغيره من الانبياء العظام الذين رافقت مواليدهم أمثال تلك

الحوادث العجيبة، والوقائع الغريبة، كما يخبر بذلك القرآن الكريم فيما يحدثه عن حياة الانبياء - كما عرفت - وتخبر بها تواريخ الشعوب والملل المسيحية واليهودية.

واساساً لا يلزم ان تكون تلك الحوادث سبباً للعبرة ووسيلة للاتعـاظ يـوم وقوعها، بل يكفي ان تقع حادثة في احدى السنين، ثم يعتبر بها الناس بعد أعوام عديدة، وقد كانت حوادثُ الميلاد النبوي من هذه المقولة، لأن الهدف منها كان هو ايجاد هزة في ضمائر أُولئك الناس الذين كانوا قد غرقوا في احوال الوثنية، والظلم، والانحـراف الاخلاقـي حتى قمـة رؤوسـهم، وعشعشت الجهالة والغفلة في اعماقهم حتى النخاع.

إن الذين عاشوا في عصر الرسالة، أو من اتى من بعدهم عندما يسمعـون نداء رجل نهض - بكل قواه - ضد الوثنية، والظلم، ثم يطالعون سوابقه، ويلاحظون الى جانب ذلك ما وقع ليلة ميلاده من الحوادث العظيمة التـي تتلاءم مع دعوته، فانهم ولا شك سيعتبرون تقارن هـذين النـوعين مـن الحوادث دليلاً على صحة دعواه، وصدق مقاله فيصدقونـه، وينضـوون تحت لوائه.

إن وقوع أمثال هذه الحوادث الخوارق عند ميلاد الانبياء مثل «إبـراهيم» و«موسى» و«المسيح» و«محمد» صلّى اللّه عليهم اجمعين لا يقل اهميـة عن وقوعها في عصر رسالتهم ونبوتهم، فهي جميعاً تنبـع مـن اللطـف الالهي، وتتحقق لهداية البشرية، وجذبها إلى دعوة سفرائه ورسله.

في أي يوم ولد رسولُ اللّه صلّى اللّه عليه وآله ؟

لقد اتّفق عامة كُتّاب السيرة على أن ولادة النبي الكريم كانت في عام الفيل سنة ٥٧٠ ميلادية.

لأنه صلّى اللّه عليه وآله وسلّم رحل الى ربه عام (٦٣٢) ميلادية عـن (٦٢)

أو (٦٣) عاماً، وعلى هذا الأساس تكون ولادته المباركة قد وقعت في سنة (٥٧٠) ميلادية تقريباً.

كما أن اكثر المحدثين والمؤرخين يتفقون على أنه صلّى اللّه عليه وآله ولد في شهر ربيع الأول.

انما وقع الخلاف في يوم ميلاده، والمشهور بين محدثي الشيعة أنه كان يوم الجمعة السابع عشر من شهر ربيع الأول بعد طلوع الفجر.

والمشهور بين أهل السنة أنه صلّى اللّه عليه وآله ولد فـي يـوم الاثنيـن الثاني عشر من ذلك الشهر(١).

أي هذين القولين هو الصحيح ؟

ان من المؤسف جداً أن يعاني التقويم الدقيق لميلاد رسول الإسلام العظيـم صلّى اللّه عليه وآله ووفاته بل مواليد ووفيات اكثر قادتنا وائمتنا لمثل هذا الارتباك، وان لا تكون اوقاتها وتواريخها محددةً معلومة على وجه التحقيق واليقين !.

ولقد تسبب هذا الارتباك في أن لا تستند اكثر احتفالاتنا ومآتمنا إلى تاريخ قطعي، في حين نجد أن علماء الإسلام كانوا يهتمون - عادة - بتسجيـل الوقائع التي حدثت على مدار القرون الإسلامية في نظم خاص وعنايـة كبيرة، ولكننا لا ندري ما الذي منع من تسجيل مواليد هـذه الشخصيـات العظيمة ووفياتهم على نحو دقيق، وصورة قطعية ؟!

على أن مثل هذه المشكلة يمكن حلها بدرجة كبيرة بالرجوع إلى أهل البيت عليهم السلام، فان أي مؤرخ لو أراد أن يكتب عن حيـاة شـخصية مـن الشخصيات وأراد أن يلم بكل تفاصيلها ودقائقها لم يسمح لنفسه بان يفعـل ذلك من دون ان يراجع ابناء او اقرباء تلك الشخصية التي يزمع ترجمتها والكتابة عنها.

---

(١) وقد ذكر المقريزي في «الامتاع» ص ٣ جميع الاقوال في يوم ميلاد النبي وشهره وعامه، فراجع.

ولقد مضى رسولُ اللّه صلّى اللّه عليه وآله وسلّم وخلّف من بعـده ذريـة وقربى وهم الذين يطلق عليهم اهل البيت.

واهل بيته يقولون : لو كان صحيحاً وحقاً ان رسول اللّه صلّى اللّه عليـه وآله أبونا وجدنا، وقد نشأنا في بيته وترعرعنا في حجره فاننا نقول انه قد ولد يوم كذا وتوفي يوم كذا فهل يبقى بعد ذلك مجال لأن نتجاهـل قولهـم ورأيهم، ونختار ما يقوله الآخرون من الأبعدين، وقديماً قالوا : أهل البيت ادرى بما في البيت ؟ (١).

فترةُ الحمل :

المعروفُ أن النور النبوي الشريف استقر في رحم آمنة - الطاهر في أيام التشريق وهي اليوم الحادي عشر والثاني عشر والثالث عشر من شهر ذي الحجة(٢)، ولكن هذا الامر لا ينسجم مع الـرأي المشهـور بيـن عامـة المؤرخين من كون ولادة النبي الاكرم صلّى اللّه عليه وآله في شهر ربيع الأول، اذ في هذه الصورة يجب ان نعتبر مدة حمل «آمنة» به صلّى اللّـه عليه وآله إما ثلاثة أشهر واما سنة وثلاثة اشهر، وكلا الامرين خارجـان عن الموازين العادية في الحمل، كما أنه لم يعده احد من خصائص النبـي صلّى اللّه عليه وآله(٣).

ولقد عالج المحققُ الكبير الشهيـد الثـاني (٩١١ - ٩٦٦ هجـري) هـذا الإشكال بالنحو التالي إذ قال :

إن ذلك مبني على النسيء الذي كانوا يفعلونه في الجاهلية، وقد نهى اللّـه تعالى عنه، وقال : «إنّما النسيء زيادةٌ في الكُفر».

وتوضيح هذا هو أن أبناء «إسماعيل» كانوا تبعاً لاسلافهم يؤدون مناسـك الحج في شهر ذي الحجة، ولكنهم رأوا - في ما بعد - أن يحجوا في كـل شهر عامين

---

(١) ومن هنا لا بد من الاعتراف بان ما ينقله ويكتبه الامامية من تفاصيل تتعلق بحياة رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله وسلّم هي أقرب من غيرها الى الحقيقة لأنها مأخوذة عن اقربائه وابنائه عليهم السّلام.

(٢) الكافي : ج ١ ص ٤٣٩ أبواب التاريخ باب مولد النبيّ صلّى اللّه عليه وآله ووفاته.

(٣) قد ذكر الطريحي فقط في مجمع البحرين في مادة شرق قولاً بهذا لم يُسم قائله.

يعني ان يحجوا في ذي الحجة عامين وفي المحرم عـامين وفـي صـفر عامين وهكذا.

وهذا يعني أن الحج يعود كل اربعة وعشرين سنة في موضـعه الطبيعـي (اي شهر ذي الحجة).

وقد جرى العرب المشركون على هذه الطريقة حتى صادفت أيـام الحـج شهر ذي الحجة في السنة العاشرة من الهجرة النبوية فحج النبي صلّى اللّه عليه وآله في تلك السنة حجة الوداع، فنهى في خطبة له عن هذه الفعلـة (التي تسمى بالنسيء بمعنى تأخير الحج عن موضعه وموعده) فقال : «ألا وإن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق السماواتِ والأرض السنة إثنا عشر شهراً، مِنها أربعةٌ حرم! : ثلاثٌ متواليات : ذو القعدة وذو الحجة، ومحرم، ورجب الذي بين جمادى وشعبان»(١).

وقد أراد صلّى اللّه عليه وآله وسلّم بذلك أن الأشهر الحرم رجعـت الـى مواضعها، وعاد الحج الى ذي الحجة وبطل النسيء.

ونزل في هذه المناسبة قولُ اللّه تعالى : (إنّما النسيء زيادةٌ في الكُفر يضل به الّذين كفروا يحلونه عاماً ويحرمونه عاماً)(٢).

من هنا تنتقل أيام التشريق كل سنتين من مواضعها، علـى مـا عرفـت، وحينئذٍ لا منافاة بين القول بأن نور النبي انتقل إلى رحم أُمه «آمنة بنـت وهب» في أيام التشريق، وبين ما اجمع عليه عامة المؤرخين من أنه ولـد في شهر ربيع الأول. وانما تكون المنافاة بين هذين الامرين إذا كان المراد من أيام التشريق هو اليوم الحادي عشر، والثاني عشر، والثالث عشر من شهر ذي الحجة خاصة، ولكن قلنا أن ايام التشريق كانت تنتقل من شـهر الى آخر باستمرار، فيلزم أن يكون عام حمل أُمه به، وعام ولادتـه أيـام الحج الواقعة في شهر جمادى الاولى، وحيث أنه صلّى اللّه عليه وآله ولد في شهر ربيع الأول فتكون مدة حمل «آمنة» به عشرة أشهر تقريباً.

(١) مجمع البيان : ج ٥ ص ٢٩.

(٢) التوبة : ٣٧.

مؤاخذاتٌ وإشكالاتٌ على هذا البيان :

إن النتيجة التي توصل اليها المرحوم «الشهيد الثاني» ليست صحيحة، كما أن المعنى الذي ذكره للنسيء لم يقل به من بين المفسرين إلا مجاهد، واما الآخرون فقد فسروه بنحو آخر فلا يكون التفسير الذي مر قوياً، وذلك :

اولاً : لأن «مكة» كانت مركزاً لجميع الاجتماعات كما كانت معبداً للعرب جميعاً، ولا يخفى أن تغيير الحج في كل سنتين مرةً واحدةً مـن شـأنه أن بسبب الالتباس لدى الناس ويوقعهم في الخطأ والاشتباه، وبالتالي يتعرض ذلك الاجتماع العظيم، وتلك العبادة الجماعية الى خطر الزوال.

ولهذا يستبعد ان ترضى قريش والمكيون بان يخضع ما هو وسيلة لعزتهم وافتخارهم للتغيير والتبدل الذي من عواقبه ان يتعـرض وقتـه وموعـده للنسيان، فيذهب ذلك الإجتماع، ويزول من الاساس.

ثانياً : إذا أخضعنا ما قاله «الشهيد الثاني» لمحاسبة دقيقة فإن كلامـه يستلزم ان تكون ايام التشريق والحج في السنة التاسعة من الهجرة واقعـة في شهر ذي القعدة لا جمادى الاولى في حين أن امير المؤمنين علياً عليه السلام كُلف في هذه السنة بالذات بأن يقرأ سورة البراءة على المشركيـن في ايام الحج، والمفسرون والمحدثون متفقون على أن عليه السلام تلاهـا عليهم في العاشر من شهر ذي الحجة ثم امهلهم اربعة اشهر ابتـداء مـن شهر ذي الحجة لا ذي القعدة(١).

ثالثاً : ان النسيء يعني أن العرب حيث لم يكن لـديهم مصـدر صـحيح للرزق بل كانوا يعيشون في الاغلب، على النهب والغارة لهذا كـان مـن الصعب عليهم ترك الحرب، في الاشهر الحرم الثلاث (وهي ذو القعدة وذو الحجة، والمحرم) لهذا ربما طلبوا من سدنة الكعبة بأن يسمحوا لهم بالقتال في شهر المحرم، ثم يتركون

---

(١) ولقد قام العلامة المجلسي في بحار الأنوار : ج ١٥ ص ٢٥٣ بهذه المحاسبة، وان لم يشر الى الإشكال الذي أوردناه فليراجع.

الحرب في شهر صفر، وهذا هو معنى النسيء فلم يكن نسـيء وتأخيـر للشهر الحرام في غير شهر محرم، وفي الآية نفسهـا اشـارةٌ الـى هـذا المطلب : «يحِلونه عاماً و يحرمونَه عاماً».

والذي نراه في حل هذه المشكلة هو : أن العرب كانوا يحجـون فـي وقتين : أحدهما شهر ذي الحجة، والثاني شهر رجب، وقد كانوا يؤدون كل مناسك الحج في هذين الوقتين على السواء، فيمكن أن يكون المقصود مـن حمل «آمنة» برسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله في ايام التشريق هو شـهر رجب فإذا اعتبرنا يوم ولادته هو السابع عشر من شهر ربيع الاول كانت مدة حمل «آمنة» به ثمانية أشهر واياماً.

الاحتفال بذكرى المولد النبوي :

وينبغي ان يحتفل المسلمون جميعاً بمولد النبي الاكرم صلّى اللّه عليه وآله وسلّم، ويقيموا المهرجانات الكبرى في هذه المناسبة الشريفة الـتي كانـت مبدأ الخير والبركة، ومنشأ السعادة والكرامة للبشرية جمعاء، وأية مناسـبة احرى بالاحتفال والاحتفاء من هذه المناسبة ؟

على ان اقامة مثل هذه الاحتفالات هو نوع من تكريم رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله وهو أمر مطلوب ومحبوب في الشريعة المقدسة.

فقد قال اللّه تعالى :

(فالّذين آمنُوا به وعزروه ونصروه واتّبعوا النور الّذي أُنزل معه أُولئك هم المفلِحون)(١).

وعزر بمعنى كرم وبجل كما في اللغة(٢) وهو لا يختص بزمان دون زمان، فعلى المسلمين في كل وقت وزمان ان يعظّموا شأن رسـول اللّـه صلّى اللّه عليه وآله، ويكرموه، سواء في حياته أو بعد مماته، لما له مـن فضل عظيم على الناس، ولما

---

(١) الأعراف : ١٥٧.

(٢) راجع مفردات الراغب : مادّة عزر.

له من منزلة عند اللّه تعالى.

كيف لا والاحتفال بميلاده لا يعني سوى ذكر أخلاقه العظيمـة، وسـجاياه النبيلة، والاشادة بشرفه وفضله وهي أُمور مدحه القرآن الكريم بها اذ قال سبحانه : «وإنّك لعلى خُلقٍ عظيم»(١) وقال تعالى أيضاً : «ورفعنـا لـك ذكرك»(٢) وغير ذلك من الآيات المادحة لرسول اللّه صلّى اللّـه عليـه وآله.

فان الاحتفال بميلاد رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله الذي يتحقـق بذكـر صفاته وأخلاقه والاشادة به خير مصداق لرفع ذكره، الذي فعله اللّه بنحو ما.

ولو كان رفع ذكر النبي صلّى اللّه عليه وآله، أمراً غير جائز ولا صحيح، بل فعلاً قبيحاً لما فعله اللّه، فيكفي في حسنه وصحته بل ومشروعيته ومطلوبيته ان اللّه تعالى فعله بالنسبة لنبيه صلّى اللّه عليه وآله.

وهل يكون الاحتفال بمولد رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله، واظهار السرور والشكر للّه تعالى بمقدم نبيه المبارك عبادة للنبي كما يزعم البعض اذ يقول :

«الذكريات التي ملأت البلاد باسم الاولياء هي نوع من العبادة لهم وتعظيمهم»(٣).

والحال ان العبادة في مفهومها الاصطلاحي الموجب للشرك والكفر ليس إلا الخضوع لمن يعتقد بالوهيته وتعظيمه بهذه النية(٤) واين هذا من ذكر فضائل النبي في يوم مولده والابتهاج بمقدمه والشكر للّه على ولادته.

ثم ان تعظيم رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله ينطلق من كونه عبداً مطيعاً للّه تعالى، ادى رسالته بصدق واخلاص، وجسد بسلوكه وسيرته كل مكارم الاخلاق أصدق تجسيد فالاحتفال بمولده الكريم احتفال بالقيم السامية، وشكر للّه على منّه، واظهار للحب الكامن في النفوس ليس إلا.

والزعم بانه محرم لكونه بدعة، او لأنه لا يخلو عن اشتماله على منكرات

---

(١) القلم : ٤.

(٢) الانشراح : ٤.

(٣) فتح المجيد : ص ١٥٤، ثمّ نقل عن كتاب قرّة العيون ما يشابه هذا المضمون.

(٤) راجع مفاهيم القرآن في معالم التوحيد : ص ٤٠٤ - ٤٤٠.

ومحرمات كالرقص والغناء فهو مرفوض، مردود لان الكلام انما هو حول اصل الاحتفال مجرداً عن المحرمات والمنكرات.

ان الاحتفاء والاحتفال بمولد خاتم النبيين رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآلـه وسلّم انما هو تكريم لمن كرمه اللّه تعالى، وامر بتكريمـه، وحـث علـى احترامه وحبه، ومودته، وانه بالتالي اداء شكر للّه تعالى على تلك الموهبة العظيمة، وتلك العطية المباركة حيث من سبحانه على البشرية عامة وعلى المسلمين خاصة بأن شرف الارض بمولود عظيم نعمـت الارض ببركـة شخصيته وخلقه، واشرقت بنور رسالته ودعوته، فاية نعمة تـرى اولـى بالشكر من هذه، واي شكر اجمل وافضل من الاحتفاء بمولد هـذا النبـي العظيم صلّى اللّه عليه وآله، وذكر فضائله، ومناقبـه، للتعـرف عليهـا، والاقتداء بها، وتشديد الحب له بسببها، والابتهال الى اللّه في يوم ميـلاده، وطلب التوفيق الالهي لمتابعته، والسير على نهجه، والدفاع عن رسـالته،

والذب دون دينه، بعد الشكر للّه تعالى على موهبته هذه ؟؟

هذا ولقد درج المسلمون في العصور الإسلامية الاولـى علـى الاحتفـال بذكرى المولد النبوي وأنشأوا القصائد الرائعة في مدحه، وذكـر خصالـه ومكارم اخلاقه، واظهروا السرور بمولده والشكر للّه تعالى بلطفه، وتفضله به صلّى اللّه عليه وآله على البشرية.

قال الإمام الديار بكري في تاريخ الخميس في هذا الصدد :

لا يزال أهل الإسلام يحتفلون بشهر مولده عليه السلام ويعملون الـولائم، ويتصدقون في لياليه بانواع الصدقات ويظهرون السرور، ويزيـدون فـي المبرات ويعتنون بقرائة مولده الكريم، ويظهر عليهم من بركاته كل فضل عميم(١).

أجل ينبغي على المسلمين ان يحتفلوا بمقدم نبيهم الكريم ولا يعبأوا بما قاله البعض حيث قال : «الذكريات التي ملأت البلاد باسم الاولياء هي نوع من

---

(١) تاريخ الخميس في أحوال أنفس نفيس : ج ١ ص ٢٢٣ نقلاً عن المواهب اللدنية : ج ١ ص ٢٧ للقسطلاني.

العبادة لهم وتعظيمهم»(١).

فهذا القول مغالطة صريحة، ان لم يكن نابعاً عن الغفلة والجهـل بعـد ان تبين حقيقة الاحتفال واقامة الذكريات احتفاء بالمولد النبوي(٢).

مراسم تسمية النبي صلّى اللّه عليه وآله :

حل اليوم السابع من الميلاد المبارك، فعقّ عبد المطلب عن النبي بكبـش شكراً للّه تعالى ودعا جماعة ليشتركوا في الاحتفال الذي حضـره عامـة قريش لتسمية النبي، وسماه «محمداً»، وعندما سألوه عما حمله علـى أن يسمي هذا الوليد المبارك «محمداً» وهو اسم لم يعرفه العـرب الا نـادراً أجاب قائلاً : أردتُ أن يحمد في السماء والأرض(٣).

والى ذلك يشير حسان بن ثابت بقوله :

فشقّ لهُ مِن إسمهِ لِيُجلّهُ*فذُفاء والعرش محمُودٌ وهذا محمّدُ(٤)**

ومن المسلّم أن هذا الإختيار لم يكن ليتم من دون دخالة للإلهام الالهي، لأن اسم «محمد» وإن كان موجوداً عند العرب إلا أنه قلّ من كان قد تسمـى بهذا الإسم، فحسب ما استقصاه بعض المؤرخين لم يتسم به الى ذلك اليوم من العرب الا ستة عشر شخصاً كما يقول شاعرهم :

إن الذين سُمُوا باسم محمدٍ*مِن قبلِ خير الخلق

ضِعف ثمان(٥)

ولا يخفى أن نُدرة المصاديق لأي لفظ من الالفاظ أو اسم من الأسماء مـن شأنِها أن تقلّل فرص الاشتباه فيه، وحيث أن الكتب السماويـة كانـت قـد أخبرت عن إسم النبي الخاتم صلّى اللّه عليه وآلـه وصـفاته، وعلائمـه الروحية والجسمية، لذلك يجب أن تكون علائمه صلّى اللّـه عليـه وآلـه واضحةً جداً جداً

---

(١) هوامش الفتح المجيد.

(٢) راجع للتوسّع : معالم التوحيد في القرآن الكريم.

(٣) السيرة الحلبية : ج ١ ص ٧٨ و٧٩.

(٤) بحار الأنوار : ج ١٦ ص ١٢٠، والسيرة الحلبية : ج ١ ص ٧٨ و٧٩.

(٥) السيرةُ الحلبية : ج ١ ص ٨٢ ثمّ يذكر صاحب السيرة اولئك الأشخاص في بيتين آخرين.

حتى لا يتطرق إليها التباس أو اشتباه، وقد كان من علائمه صلّى اللّه عليه وآله اسمه الشريف، فيجب أن تكون مصاديقُها قليلة جداً حتى يزيل ذلك أي عروض للشك والترديد في تشخيص النبي الاكرم صلّى اللّه عليـه وآلـه خاصة إذا ضمت إليه بقية أوصافهِ وعلائمِه، وخصوصياته.

خَطأ المستَشرقين :

لقد ذكر القرآن الكريم اسمين او عدة أسماء للنبي الاكرم صلّى اللّه عليـه وآله.

ففي سورة آل عمران ومحمد والأحزاب والفتح في الآيات ١٤٤ و٢ و٤٠ و٢٩(١) سماه «محمداً»(٢).

وفي سورة الصف الآية ٦(٣) دعاه «أحمد».

والعلةُ في تسميته بهذين الإسمين أن امه «آمنة» سمته «أحمـد» قبـل أن يسميه جده، كما هو مذكور في التاريخ.

وعلى هذا فان ما ذكره بعض المستشرقين - في معرض الإعـتراض - بأن الإنجيل - حسب تصريح القرآن الكريم في سورة الصف الآيـة ٦ - بشّر بنبي اسمه «أحمد» لا «محمد» كلام لا اسـاس لـه ولا مـبرر، لأن القرآن الكريم الذي سمى نبينا : ب: «أحمد» سماه في عـدة مواضـع ب: «محمد» فإذا كان المصدر في تعيين اسم النبي هو : القرآن الكريم، فـان القرآن سماه بكلا الاسمين، في موضع باسم

---

(١) يعتقد البعضُ أنّ هذا ليس اسماً للنبيّ صلّى اللّه عليه وآله بل هو من الحروف المقطعة في القرآن.

(٢) قال تعالى : «و ما مُحمّدٌ إلا رسولٌ قد خلت مِن قبله الرُّسلُ».

وقال تعالى : «والّذين آمنُوا وعمِلُوا الصالِحات وآمنُوا بِما نُزِّل على محمَّدٍ».

وقال سبحانه : «ما كان مُحمَّد أبا أحدٍ مِن رجالِكُم ولكِن رسول اللّه وخاتم النّبيّين».

وقال عزّ وجلّ : «مُحمّدٌ رسولُ اللّه والّذين معه أشدّاء على الكفار رُحماء بينهُم».

(٣) اذ قال سبحانه : «ومُبشِّراً برسُول يأتي مِن بعدي اسمُهُ أحمد».

«محمد»، وفي موضع آخر باسم «احمد».

«أحمد» كان مِن أسماء النبي المشهورة :

كل من كان له ادنى إلمامٍ بتاريخ النبي الاكرم صلّى اللّه عليه وآله وسـلّم علم أنه صلّى اللّه عليه وآله كان يدعى بإسمين في النـاس منـذ صـغره أحدهما : «محمد» الذي سماه به جده «عبد المطلب»، والآخـر «أحمـد» الذي سمته به أمه «آمنة».

وهذه حقيقة من حقائق التاريخ الإسلامي، وقد روى المؤرخون هذا الأمر،

ويمكن للقارئ الكريم أن يقرأه في السيرة الحلبية(١).

ولقد أنشأ عمه «أبو طالب» - الذي أُنيطت إليه كفالته بعـد وفـاة عبـد المطلب، فبقي يقوم بهذه المهمة طوال اثنين وأربعين عاماً بكـل حـرص ورغبة، ولم يمتنع في هذا السبيل عن بذل كل مـا اسـتطاع مـن غـال ورخيص انشأ في ابن أخيه أبياتاً سماه في بعضها «محمد» وفي بعضهـا الآخر «أحمد»، وهذا يكشف عن انه صلّى اللّه عليه وآله كـان معروفـاً آنذاك بكلا الاسمين.

واليك فيما يأتي بعض هذه الأبيات التي سمى فيها «أبو طالب» النبي باسم احمد :

١ ـ إن يكُن ما أتى بهِ أحمدُ اليوم*سناءً وكان في الحشر ديناً**

٢ ـ وقولُه لأحمد أنت امرؤ*خلُوفُ الحديث ضعيف النّسب**

٣ ـ وإن كان أحمدُ قد جاءهم*بحقّ ولم يأتِهم بالكَذِب**

٤ ـ أرادُوا قتل أحمد ظالموه*وليس بقتلهم فيهم زعيم**

٥ ـ ألا إنّ خير الناس نفساً ووالداً*إذا عُدّ ساداتُ البرية أحمدُ**

٦ ـ فلسنا وبيتِ اللّه نسلم أحمداً*لِعزّاء من عض الزمان ولا كرب(٢)**

وقد سمى «أبو طالب» النبي صلّى اللّه عليه وآله في أبيات اخرى بأحمد

---

(١) السيرة الحلبية : ج ١ ص ٨٢ و٨٣.

(٢) ديوان أبي طالب عليه السّلام.

أيضاً قد ذكرها كبار المحققين من المؤرخين والمحدثين ونسبوها الى أبـي طالب ولكنها غير موجودة في ديوانه(١).

كما وأنه قد سماه غير ابي طالب في أبياته بأحمد مما يدل على أنه كـان مشتهراً بهذا الاسم في ذلك الزمان، وتلك الابيات كثيرة تفوق حد الحصـر والاحصاء لكنّنا ننقل نماذج منها هنا :

قال حسان بن ثابت في رثائه للنبي صلّى اللّه عليه وآله :

مفجعةٌ قد شقّها فقدُ أحمد*فظلّت لآلاء الرسول تُعدّدُ**

أطالت وقوفاً تذرف العين جُهدها*على طلل القبر الذي فيه أحمدُ(٢)**

وقال في رثائه أيضاً :

صلّى الالهُ ومن يُحيق بعرشهُ*والطّيبُون على المبارك احمدِ(٣)**

وقال في رثاء جعفر بن أبي طالب الطيار :

فمن كان أو يكون كأحمد*نظام الحق او نكال لملحد (٤)**

وقال حسان وهو يذكر معجزة من معاجز النبي صلّى اللّه عليه وآله :

ففي كفِّ أحمد قد سبّحت*عيونٌ مِن الماء يوم الظمأ(٥)**

وقال كعب بن مالك :

فهذا نبيُّ اللّه أحمدُ سبّحت*صِغارُ الحصى في كفّه بالترنّم(٦)**

وقال «ورقة بن نوفل» يوم أخبرته خديجةُ بنزول الوحي على النبي صلّى اللّه عليه وآله :

---

(١) مثل قوله :

لعمري لقد كلِفتُ وجداً بأحمد*وأحببتُهُ حُب الحبيب المواصل**

زعمت قريشٌ أن أحمد ساحرٌ*كذِبت وربّ الراقصات إلى الحرم**

راجع ديوان أبي طالب، وسيرة ابن هشام : ج ١ ص ٢٧٢، وشرح النهج لابن ابي الحديد : ج ١٤ ص ٧٩ وغيرها.

(٢) و(٣) ابن هشام في سيرته : ج ٢ ص ٦٦٧ و٦٦٩، وابن سعد في طبقاته : ج ٢ ص ٣٢٣.

(٤) شاعر عهد الرسالة : تحقيق محمد عزت نصر اللّه.

(٥) و(٦) بحار الأنوار : ج ١٦ ص ٤١٣ و٤١٥.

فإن يكُ حقاً يا خديجةُ فاعلمي*حديثك إيانا فاحمدُ مُرسلُ(١)**

وقالت عاتكةُ بنتُ عبد المطلب ترثي النبي صلّى اللّه عليه وآله :

يا عينُ جُودي ما بقيتِ بعبرة*سحّاً على خير

البرية أحمدِ(٢)

وقال العباس في مناسبة تزويج النبي صلّى اللّه عليه وآله بخديجة :

أحمدُ سيّدُ الورى***خيرُ ماش وراكِب(٣)

فترةُ الرضاع في حياة النبي صلّى اللّه عليه وآله :

لم يرتضع وليد قريش المبارك «محمد» من أمه سوى ثلاثة أيام، ثم حظِيت بفخر إرضاعه - بعد ذلك - امرأتان هما :

١ - «ثويبة» مولاة «أبي لهب»، وقد أرضعته أربعة أشهر فقط، وكـان النبي صلّى اللّه عليه وآله وزوجتُه الوفية : «خديجة بنت خويلد» يقـدران هذا العمل لها حتى آخر لحظات حياتها(٤).

و«ثويبة» هذه كانت قد أرضعت قبل ذلك «حمزة» عم النبي صـلّى اللّـه عليه وآله و«أبا سلمة بن عبد اللّه المخزومي» أيضاً فكـانوا إخـوة مـن الرضاعة(٥).

وقد بعث رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله بعد مبعثه، من يشتريها من «أبي لهب» ليعتقها فابى(٦).

وكان النبي صلّى اللّه عليه وآله يكرمها كلما دخلت عليه، وكان يبعث إليها بالصلة إلى أن بلغه خبر وفاتها عند منصرفه من وقعة «خيبر» فسأل عن إبنها فقيل : مات قبلها، فسأل عن قرابتها، فقيل : لم يبق منهم أحد(٧).

٢ - «حليمة السعدية» بنت ابي ذؤيب التي كانت من قبيلة سعد بن بكـر بن هوازن، وكان أولادها عبارة عن : «عبد اللّه»، «أنيسة»، «شـيماء»، وقد

---

(١) بحار الأنوار : ج ١٨ ص ١٩٥.

(٢) الطبقات الكبرى : ج ٢ ص ٣٢٦.

(٣) بحار الأنوار : ج ص ٧٢.

(٤) تاريخ الخميس في احوال انفس نفيس : ج ١ ص ٢٢٢.

(٥) السيرة النبوية : ج ٣ ص ٩٦.

(٦) الكامل في التاريخ : ج ١ ص ٢٧١.

(٧) تاريخ الخميس : ج ١ ص ٢٢٢ - ٢٢٥ نقلاً عن سيرة مغلطاي وغيره.

قامت آخر آولادها وهي «الشيماء» بحضانة النبي صلّى اللّه عليـه وآلـه

أيضاً :

وقد كان من عادة العرب يومذاك هو أن يدفعوا أولادهم الرضـعاء إلـى المراضع اللائي كُن يعِشن في البوادي لينشأوا في تلك البيئات المعروفـة بطيب هوائها، وقلة رطوبتها، وعذوبة مائها ببنية قوية، هذا مضافـاً إلـى صيانتهم عن خطر الوباء الذي كان يهدد الأطفال في «مكة»، ولأن ذلـك كان له مدخلٌ عظيم، وتأثير بليغ في فصاحة المولود لسلامـة لغـة أهـل القبائل الساكنة في البوادي آنذاك.

وكانت مراضع بني سعد من المشهورات بهذا الأمر بين العرب، فقد كانت نساء هذه القبيلة التي كانت تسكن حوالي «مكة» ونواحي الحـرم يأتيـن «مكة» في كل عام في موسم خاص يلتمسن الرضعاء ويذهبن بهـم إلـى بلادهن حتى تتم الرضاعة.

وكان النبي صلّى اللّه عليه وآله قد تجاوز شهره الرابع لما قدمت نساء من بني سعد «مكة» يلتمسن الرضعاء في سنة جدب وقحط، ولهذا كن بحاجة شديدة إلى مساعدة أشراف «مكة» واعيانها.

ويقول بعض المؤرخين : أنه لم تقبل أيةُ واحدة من تلك المراضع أن تأخذ «محمداً» بسبب يتمه، وقد كان اغلبهن يردن أن تأخذن من يكون لـه أب حي حتى يغدق عليهن بالمساعدات والصـلات، وحـتى «حليمـة» هـي الأُخرى أبت أخذه، ولكنّها أيضاً لم تحصل على طفـل لِهـزال جسمهـا، فاضطرت الى أن تأخذ حفيد «عبد المطلب» وقالت لزوجها : واللّه لأذهبن

الى ذلك اليتيم فلآخذنّه، فقال لها زوجها : لا عليك ان تفعلـي، عسـى اللّه ان يجعل لنا فيه بركة.

ولقد اصاب الزوجان في ظنّهما هذا، فمنذ أن أبدت «حليمـة» اسـتعدادها لخدمة ذلك اليتيم شملت الالطاف الالهية كل مجالات حياتها(١).

إن القسم الأول من هذه القصة ليس سوى اسطورة، لأن مكانة البيت

---

(١) السيرة النبوية : ج ١ ص ١٦٢ و١٦٣.

الهاشمي الرفيعة، وشخصية رجل عرف بِكمال الجود والاحسان، وبعـون المحتاجين والمحرومين كانت سبباً في أن لا تعرض المرضعات عن اخـذ «محمد» فحسب، بل يتنازعن على اخذه ولهذا لا يكون هـذا القسـم مِـن التاريخ سوى اسطورة تكذبها الحقائق.

واما علة عدم اعطاءه صلّى اللّه عليه وآله وسلّم الى غير «حليمـة» مـن المرضعات فهي : أن وليد قريش لم يقبـل أي ثـدي مـن أثـداء تِلكـم المرضعات، ولم يزل كذلك حتى قبل ثدي «حليمة السعدية»، فسـر بذلـك «عبد المطلب» وأهله سروراً عظيماً، بعد أن حزنهم امتناعه عنهـن قبـل ذلك(١).

قالت «حليمة» : استقبلني عبد المطلب فقال : من انت، فقلت : أنا امـرأة من بني سعد، قال : ما اسمك ؟ قلتُ : حليمة، فتبسـم «عبـد المطلـب» وقال : بخ بخ سعد وحلم، خصلتان فيهما خير الدهر، وعز الأبد(٢).

نظرةُ الإسلام في تأثير الرضاع :

وهنا ينبغي بالمناسبة أن نشير الى نظرة الإسلام في تأثير الرضـاع فـي شخصية الإنسان.

فقد سبق الإسلام العلم الحديث في الكشف عن آثار اللبن في تكوين الإنسان الخُلقي والنفسي والعضوي سلباً وإيجاباً.

ولهذا حثّ الإسلام على استرضاع الام، كما حث على اختيار المرضعات الصالحات ونهى عن استرضاع اليهودية والمجوسية والنصرانية والمجنونة منعاً من انتقال طباعِهن إلى الطفل عن طريق الوليد.

واستكمالاً لهذا البحث نورد جملة من الأحاديث التي تصرح بهذه الحقيقـة العلمية الهامة :

١ - قال امير المؤمنين علي عليه السلام :

---

(١) بحار الأنوار : ج ١٥ ص ٣٤٢ و٣٤٣.

(٢) السيرة الحلبية : ج ١ ص ٨٩.

«تخيروا للرضاع كما تخيرون لِلنكاح فان الرضاع يغير الطباع»(١).

٢ - وعنه عليه السلام ايضاً :

«أنظروا من يرضع أولادكُم فإن الولد يشُب عليهِ»(٢).

٣ - عن الإمام ابي جعفر الباقر عليه السلام انه قال :

«لا تسترضعوا الحمقاء فان اللبن يعدي، وإن الغُلام ينزع إلى اللبـن...»(٣).

٤ - وعنه عليه السلام ايضاً :

«استرضع لولدك لِبَن الحِسان وإياك والقِباح فإن اللبن قد يعدي»(٤).

٥ - وعن علي عليه السلام انه قال :

«ما مِن لبن يرضع به الصبي أعظم بركةً عليه مِن لبن أُمه»(٥).

---

(١) قرب الأسناد : ص ٤٥.

(٢) فروع الكافي : ج ٢ ص ٩٣.

(٣) وسائل الشيعة : ج ١٥ ص ١٨٨.

(٤) التهذيب : ج ٢ ص ٢٨٠.

(٥) روضة المتّقين : ج ٨ ص ٥٥٤.

٦ ـ فترةُ الطفُولة في حياة النبيّ صلّى اللّه عليه وآله

إن صفحات التاريخ تشهد بأن حياة رسول الإسلام صلّى اللّه عليـه وآلـه وسلّم من بداية طفولته وأوان صباه وإلى يوم بعثه بالرسالة كانت مشحونة بسلسلة من الحوادث العجيبة التي تعد بأجمعها من كراماته صلّى اللّه عليه وآله وتدل على أن حياة النبي لم تكن حياة عادية.

وينقسم المؤلفون في تفسير هذه الحوادث الى طائفتين :

١ - الماديون، وجماعة من المستشرقين : فان العلماء المـاديين الذيـن يحصرون الوجود في نطاق المادة، ويعتبرون جميـع الظواهـر ظواهـر مادية، وينحتون لكل واحدة منها علة طبيعية، لا يهتمون بهذه الحوادث ولا يعيرونها أية أهمية، لامتناع واستحالة وقوع أمثال هذه الظواهـر حسـب النظرة المادية، ولهذا فكل ما يصادفونه في ثنايا التاريخ من هـذا البـاب يعتبرونه من ولائد الخيال، ومما نسجته اوهام التابعين لـذلك الـدين، او الطريقة.

وقد تبعهم في هذا الموقف جماعة من المستشرقين فرغم انهـم يعتـبرون انفسهم - حسب الظاهر - في عداد الموحدين، والمؤمنين باللّه، وبما بعـد الطبيعة من عوالم الغيب، إلا أنهم - لضعف إيمانهم وبسبـب غرورهـم العلمي، وغلبة النزعة المادية على أفكارهم وأذهـانهم - اتبعـوا - لـدى تحليلهم لهذه الحوادث - المنهج المادي، فنحن

نقرأ في كتاباتهم مراراً وتكراراً زعمهم بان النبوة ما هي إلا نبوغٌ بشري، وأن النبي مجرد نابغة اجتماعية استطاع تغيير مسار الحياة البشرية بافكاره النيرة !!

ولاشك أن مثل هذا التصور ينبع من طريقة التفكير المادي الـذي يعتبـر جميع الأديان من ولائد الفكر البشري وافرازات الذهن الانساني، في حين ان علماء العقيدة اثبتوا في : مباحث «النبوة العامة» ان النبوة عطية الهية، وموهبة ربانية هي في الحقيقة منشـأ جميـع الالهامـات والارتباطـات المعنوية، ومصدر لمناهج الانبياء وبرامجهم، ليست أبداً وليـدة نبوغهـم الإنساني، ولا نسيجة فكرهم البشري، وليس لها مصدر إلا الإلهـام مـن الغيب، ولكن عندما ينظر المستشرقُ المسيحي الى هذه القضايا من زاويـة الفكر المادي ويريد تفسير جميع هذه الظواهر بالأُسس العلمية التي كشـف عنها التجربةُ ينتقد مثل هذه الحوادث ذات الطابع الاعجازي، وربما انكرها من الاساس.

٢ - المؤمنون باللّه : الذين يعتقدون بأن العالم المادي بجميع خصوصياته وخواصه يخضع لتدبير عالم آخر، وأن ذلك العالم (أي عالم التجرد ومـا وراء الطبيعة) هو المنظم لهذه الطبيعة، وهو المدبر لهذا الكون المادي.

وبعبارة أُخرى إن عالم المادة ليس عالماً مسيباً، مستقلاً عـن غـيره، وان جميع الانظمة والقوانين الطبيعية والعلمية مسببةٌ عن تأثيرات موجـودات عليا، وبخاصة ناشئةٌ عن إرادة اللّه الخالق، الذي اعطى للمادة وجودهـا،

وأوجد القوانين والعلاقات الصحيحة بين أجزائها، وبنى بقاءهـا علـى سلسلة من النواميس الطبيعية.

إن هذا الفريق من الناس مع احترامهم للقوانين العلمية، واذعانهم الصادق بما قاله العلماء في صعيد العلاقات، والروابط القائمة بين القوانين مما أثبته العلم والكّده، يعتقدون بأن مثل هذه القوانين الطبيعية ليست أُموراً لا تقبـل التغيير، والتبدل.

فهم يعتقدون بأن العالم الاعلى يمكنه - إذا أراد - أن يغير تلك القوانيـن لغايات خاصة، وليس في مقدوره ذلك فقط، بل فعل ذلك في جملـة مـن الموارد

لأهداف عليا.

وبعبارة أُخرى : إن الافعال الخارقة للعادة ليست ظواهر عارية عن العلل، بل إن علتها غير طبيعية، وافتقاد العلة الطبيعية (وخاصة العلة الطبيعيـة غير المعروفة) ليس دليلاً على افتقاد مطلق العلة.

والخلاصة، إن قوانين الخلقة ليست بحيث لا يمكن تبدلها، وتغيرها بـارادة بارئها وخالقها.

إنهم يقولون : إن جميع خوارق العادة، وجميع أفعال الأنبياء العجيبـة التي تتصف بصفة الاعجاز، والخارجة عن اطار القوانين الطبيعية، تتحقق من هذه الزاوية.

إن هذا الفريق من الناس لا يسمحون لأنفسهم بان يرفضوا الأعمال الخارقة للعادة، والكرامات التي جاء ذكرها في القـرآن الكـريم، والاحاديـث، أو وردت في المصادر التاريخية الصحيحة المعتبرة، أو يشكّوا فيها بحجة أنها لا توافق الموازين الطبيعية، والقوانين العلمية.

وها نحن نشير إلى قضيتين عجيبتين وقعتا في فترة الطفولـة مـن حيـاة رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله وسلّم، ومع اخذ ما قلناه بنظر الاعتبـار لا يبقى أي مجال للترديد، أو الاستبعاد :

١ - لقد نقلَ المؤرخون عن «حليمة السعدية» قولها بأنهـا لمـا تكفّلـت إرضاع النبي صلّى اللّه عليه وآله أرادت أن ترضعه في محضـر أُمهـا، ففتحت جيبها وأخرجت ثديها الايسر، وأخذت رسول اللّه صلّى اللّه عليـه وآله فوضعته في حجرها، ووضعت ثديها في فمه، فترك النبي صلّى اللّـه عليه وآله ثديها، ومال إلى ثديها الأيمن، فاخذت «حليمة» ثديها الأيمن من يد النبي صلّى اللّه عليه وآله وسلّم ووضعت ثديها الأيسر في فمه وذلك أن ثديها الأيمن كان جهاماً (أي خالياً من اللبن ولم يكن يـدر بـه)، وخافـت «حليمة» أن النبي صلّى اللّه عليه وآله اذا مص الثدي ولم يجد فيه شيئاً لا يأخذ - بعده - الأيسر. ولكن النبي أصر على أخذ الثدي الأيمن، فلما مص صلّى اللّه عليه وآله الأيمن امتلأ فانفتح حتى ملأ شدقيه

فادهش الجميع ذلك(١).

٢ - وتقول «حليمة» أيضاً : إن البوادي أجدبت وحملنا الجهد على دخول البلد، فدخلتُ مكة مع نساء بني سعد فأخذتُ رسول اللّه صلّى اللّـه عليـه وآله فعرفنا به البركة والزيادة في معاشنا ورياشنا حتى أثرينـا، وكـثرت مواشينا، وأموالنا(٢).

إن من المسلم أن حكم الماديين، او من يحذو حذوهم ويتبع منهجهم في هذه المسائل يختلف عن حكم المؤمنين باللّه.

فان أتباع المنهج المادي اذ عجزوا عن تفسير هذا النوع من القضايا مـن زاوية العلوم الطبيعية، نجدهم يبادرون الى اعتبار هذه الحوادث من نسـج الخيال، ومن ولائد الاوهام، واما اذا كانوا اكثر تأدباً لقـالوا : إن رسـول الإسلام ليس بحاجة إلى أمثال هذه المعاجز.

ونحن نقول : لا نقاش في أن النبي صلّى اللّه عليه وآله غني عـن هـذه المعاجز إلا أن عدم الحاجة شيء، والحكم بصحة هذه الأُمور او بطلانهـا شيء آخر.

وأما المؤمن باللّه الذي يرد النظام الطبيعي، إلى مشيئة اللّه خالق الكـون وارادته العليا، ويعتقد بأن كل الحركات والظواهر في العالم الطبيعي مـن اصغر اجزائه (الذرة) الى اكبر موجوداته (المجرة) يجري تحت تـدبيره،

ونظارته، فانه بعد التحقق من مصادر هذه الحوادث والتأكد من وقوعها ينظر إليها بنظر الاحترام، وأما إذا لم يطمئن إليها لـم يرفضهـا رفضـاً قاطعاً.

ولقد ورد في القرآن الكريم نظائر عديدة لهذه القصة حـول «مـريم» أم عيسى فالقرآن يخبرنا عن تساقط الرطب الجني من جذع النخلـة اليابسـة كرامة لوالدة المسيح عندما لجأت إليه مريم عند المخاض إذ يقول :

(... ألا تحزني قد جعلَ ربكِ تحتك سرياً. وهزي إليك بجذع النخلةِ تُساقط عليك رطباً جنِياً)(٣).

---

(١) بحار الأنوار : ج ١٥ ص ٣٤٥ و٣٤٦.

(٢) المناقب لابن شهراشوب : ج ١ ص ٢٤.

(٣) مريم : ٢٤ و٢٥.

إنه وان كان الفرق بين «مريم» و«حليمة» شاسعاً وكبيراً من حيث الملكات الفاضلة والمكانة، والمنزلة، إلا أن منزلة «مـريم» عليهـا السـلام لـو استوجبت مثل هذا اللطف الالهي، ففي المقام استوجب نفس مقـام الوليـد العظيم، ومكانته عند اللّه تعالى أن تشمله العناية الالهية.

كما انه قد جاء في القرآن الكريم حول مريم عليها السلام امـور أُخـرى مشابهة.

ان عصمة هذه المرأة الطاهرة، وتقاها وطهرها البـالغ كانـت بحيـث أن «زكريا» كلّما دخل عليها المحراب وجد عندها رزقاً، فاذا سألها : مِن أين لكِ هذا قالت : هو مِن عِند اللّه ؟(١).

وعلى هذا الأساس يجب أن لا نتردد ولا نسمح لانفسنا بأن نشك في مثـل هذه الكرامات، أو نستبعدها.

خمسةُ أعوام في الصحراء :

أمضى وليد «عبد المطلب» في قبيلة «بني سعد» مدة خمسة أعوام، بلـغ فيها أشده.

وخلال هذه المدة اخذته «حليمة» إلى أُمه مرتين أو ثلاثاً، وقد سلّمته إلـى أُمه في آخر مرة.

وكانت المرة الأُولى من تلك المرات عند فطامه، ولهذا السبب أتـت بـه صلّى اللّه عليه وآله «حليمة» الى مكة ولكنها عادت به إلـى الصحـراء باصرار منها، وكان السبب وراء هذا الاصرار على اصطحابه معها إلـى

البادية هو أن هذا الوليد قد أصبح مبعث خير ورخـاء، وبركـة فـي منطقتها، وقد دفع شيوع مرض الوباء في «مكة» إلى ان تقبل امه الكريمة بهذا الطلب(٢).

وأما المرةُ الثانيةُ من تلك المرات فكانت عندما قدم جماعة من نصارى

---

(١) (... وكفّلها زكريّا كُلّما دخل عليها زكريّا المِحرابَ وجد عِندها رزقاً قال يا مريمُ أنّى لكِ هذا قالت هُو مِن عِند اللّه). (آل عمران : ٣٧).

(٢) بحار الأنوار : ج ١٥ ص ٤٠١.

الحبشة الى الحجاز، فوقع نظرهم على محمد صلّى اللّه عليه وآله في «بني سعد»، ووجدوا فيه جميع العلائم المذكورة في الكتب السماوية للنبي الـذي سيأتي بعد عيسى المسيح عليه السلام، ولهذا عزموا على أخذه غيلة الـى بلادهم لما عرفوا ان له شأناً عظيماً، لينالوا شرف احتضانه ويذهبوا بفخره (١).

ولا مجال لاستبعاد هذه القضية لأن علائم النبي صلّى اللّـه عليـه وآلـه ذُكِرت في الانجيل حسب تصريح القرآن الكريم، فـلا يبعـد أن علمـاء النصارى قد تعرفوا في ذلك الوقت على النبي من العلائم الـتي قرأوهـا ودرسوها في كتبهم.

يقول القرآن الكريم في هذا المجال :

(وإذ قال عِيسى بن مريم يا بني إسرائيل إنّي رسولُ اللّه إليكُم مصدقاً لِما بين يدي مِن التوراة ومبشراً برسول يأتي مِن بعدي اسمه أحمد فلما جاءهم بِالبيناتِ قالوا هذا سِحر مبين)(٢).

ثم ان في هذا الصعيد آياتٌ أُخر صرحت بجلاء بأن علائم رسول الإسلام في الكتب السماوية الماضية في وضوح، ومن غير إبهام، وأن الامم السابقة كانت على علم بهذا الأمر(٣).

---

(١) السيرة النبوية : ج ١ ص ١٦٧.

(٢) الصف : ٦.

(٣) (الذين يتَّبِعون الرسول النبيَّ الأُميّ الّذي يجِدونَهُ مكتوباً عِندهُم في التوراة والإنجيل). (الأعراف : ١٥٧).

٧ ـ العَودة إلى أحضان العائلة

لقد خلقَت يد القدرة الالهية كل فرد من أفراد النوع الانساني لأمر معيـن، فهناك من خلق لاكتساب العلم والمعرفة، وهنـاك مـن خُلـق للاختـراع والاكتشاف، وثالثٌ خلق للسعي والعمل، وبعض للتدبير والسياسة وفريـق للتدريس والتربية وهكذا.

وإن المربين المخلصين الذين يهمهم تقدم الأفـراد أو رقـي مجتمعهـم لا يعمدون إلى نصب أحد في عمل من الاعمال ولا يعهدون اليه مسؤولية من المسؤوليات إلا بعد اختبار سليقته ومواهبه، بغية وضع الرجل المناسب في المكان المناسب، اذ في غير هذه الحالـة يتعـرض المجتمـع لضرريـن كبيرين : احدهما : أن لا يوكل إلى الفرد ما يستطيع القيام به، والثاني : ان يبقى العمل الذي قام به ناقصاً، مبتوراً.

وقد قيل في المثل : لكل انسان موهبة، والسعيد هو مـن اكتشـف تلكـم المواهب، واصابها.

وقد ذكروا أن استاذاً كان ينصح تلميذاً له كسولاً، ويعدد له مضار الكسـل والتواني، ويصف له حال من ترك الاشتغال بالعلم، وضيع ربيع حياته في البطالة والغفلة.

وبينما الاستاذ ينصح تلميذه - وهو يسمع مواعظ أستاذه - رأى تلميذه يرسم

بقطعة من الجص صورة على المنضدة، فادرك من فوره أن هذا الصبي لم يخلق للدرس وتحصيل العلم، بل خلقته يد القدرة للرسم، فطلب منه أن يصطحب أباه الى المدرسة في اليوم القادم، ثم قال لوالد الصبي : إذا كان ولدك هذا كسولاً في التعلم والتحصيل، فانه يمتلك ذوقاً رفيعاً في الرسم، ورغبة كبيرة في التصوير.

وقبل الوالد نصيحة المعلّم هذه ولم يمض زمان طويلٌ إلا وبرع الصبي وغدى قمة في هذا الفن، بعد أن تابع هوايته بشغف وأكثر من ممارستها.

إن فترة الطفولة والصبا في حياة الأشخاص خير فرصة لأولياء الأطفال بأن يختبروا مواهب أبنائهم، ويتعرفوا عليها من خلال تصرفاتهم، وأفكارهم وردودهم، لأن حركات الطفل وأقواله الجميلة والحلوة خير مرآة لما ينطوي عليه من مواهب وقابليات وصفات لو توفرت لها ظروف التربية الصحيحة لأمكن الاستفادة منها على أفضل صورة، وأحسن وجه.

إن مطالعة فاحصة لحياة النبي الأكرم صلّى اللّه عليه وآله وأقواله وأفعاله الى وقت البعثة المباركة تُوفقنا على صورة كاملة لشخصيته صلّى اللّه عليه وآله وتوضح لنا أهدافه العليا، على أن مطالعة صفحات الطفولة في حياته صلّى اللّه عليه وآله فقط لا تكشف لنا عن مستقبله المشرق، بل ان

دراسة الصورة الاجمالية لحياته وتاريخه إلى يـوم مبعثـه الشريـف، وإعلانه عن نبوته وقيادته للمجتمع، تخبرنا عن ذلك المستقبـل العظيـم، وبالتالي عن هذه الحقيقة وهي أن هذه الشخصية خُلِقـت لأي عمـل، وأن إدعاء الرسالة والقيادة له هل ينسجم مع سوابقه التاريخية أم لا ؟؟

هل تُؤيد تفاصيلُ حياتِه خلال أربعين سنة قبل الرسالة، وهل تؤيد أفعالـه واقوالُه، وبالتالي : سلوكه مع الناس ومعاشرته الطويلـة مـع الآخريـن رسالته أم لا ؟؟

من هنا نعمد الى عرض بعض الصفحات من حياة رسول اللّه صلّى اللّـه عليه وآله في أيامها وسنواتها الاولى.

لقد حافظت مرضعةُ النبي صلّى اللّه عليه وآله عليه خمس سنوات، وقامت في هذه المدة برعاية شؤونه خير قيام، وبالغت في كفالته والعناية به، وفي خلال هذه المدة تعلّم النبي لغة العرب على احسن ما يكون، حتى انه صلّى اللّه عليه وآله كان يفتخر بذلك في ما بعد اذ كان يقول :

«أنا أعربكُم (اي أفصحكم)... وارضعت في بني سعد»(١).

ثم ان «حليمة» جاءت به إلى «مكة»، وبقي عند امه الحنون ردحـاً مـن الزمن، وفي كفالة جده العظيم : «عبد المطلب» ردحاً آخر منه، وكان هو

السلوة الوحيدة لاقاربه والبقية الباقية من أبيه : «عبد اللّه»(٢).

سفرةٌ إلى يثرب :

منذ أن فقدت كنّة «عبد المطلب» وعروس ابنها : «آمنة» زوجها الشـاب الكريم : «عبد اللّه» باتت تترقب الفرص لتذهب إلى «يثرب» وتزور قبر زوجها الحبيب الفقيد عن كثب، وتزور اقاربها في يثرب في نفس الوقت.

وذات مرة فكّرت بأن تلك الفرصة قد سنحت، وأن ولدها «محمداً» قد كبر، ويمكنه أن يشاركها في حزنها، فتهيأت هي وأُم ايمن للسفر، واتجهت نحو يثرب برفقة «محمد»، ولبثت هناك شهراً.

ولقد انطوت (وبالاحرى حملت) هذه السفرة على بعـض الآلام الروحيـة لوليد قريش «محمد» لأنه صلّى اللّه عليه وآله رأى فيها ولأول مرة البيت الذي توفي فيه والده العزيز ودفن(٣)، وكانت والدته قد حدثته بامور عـن والده إلى ذلك الحين.

وكانت لا تزال سحابةُ الحزن تخيم على روحه الشريفة إذ فوجئ بحادثـة مفرحة أُخرى، وغشيه موج آخر من الحزن لأنه عند عودته من مكة فقـد أمه

---

(١) السيرة الحلبية : ج ١ ص ٨٩.

(٢) السيرة النبوية : ج ١ ص ١٦٧.

(٣) كان البيت الذي يضمّ قبر «عبد اللّه» عليه السّلام لا يزال موجوداً حتى قُبيل توسعة الدائرة حول المسجد النبوي الطاهر، ولكنه أُزيل بحجّة إيجاد تلك التوسعة.

العزيزة في اثناء الطريق في منطقه تدعى ب«الابواء»(١).

إن هذه الحادثة قد عززت مكانة الرسول الكريم صلّى اللّه عليه وآله في عشيرته اكثر فأكثر، وجعلته يتمتع بمحبة أزيد منهم، فهو الزهرة الوحيدة من تلك الجنينة المباركة، كما انه صار منذ ذلك الحين يتمتع بعناية أكبر من قبل جده «عبد المطلب» ولهذا كان يحبه اكثر من أبنائه، بل ويؤثره عليهم جميعاً.

ومن ذلك أنه كان يمد في فناء الكعبة المعظمة بساطٌ لزعيم قريش «عبد المطلب» فيجلس هو عليه ويتحلقُ حوله وجوه قريش وسادتها وأولاده فإذا وقعت عيناه على بقية عبد اللّه «محمد» أمر بأن يفرج له حتى يتقدم نحوه ثم يجلسه الى جنبه على ذلك البساط المخصوص به(٢).

ان القرآن الكريم يذكّر النبي صلّى اللّه عليه وآله بفترة يتمه ويقول : «ألم يجدك يتيماً فآوى».

إن الحكمة وراء يتم وليد قريش ليست واضحة لنا تمام الوضوح، ولكننـا نعلم إجمالاً بأن سيل هذه الحوادث المؤلمة احياناً، والمزعجة احياناً أُخرى لم يك خالياً عن حكمة معقولة ومصلحة رشيدة، بيد أننا مع كل هذا يمكـن لنا الحدس بأن اللّه تعالى أراد أن يذوق قائد العالم البشري ومعلمه، وإمـام الانسانية وهاديها - وقبل ان يتسلم مهامه، ويزاول مسؤولياتـه العظمـى ويبدأ قيادته - حلو الحياة ومرها، ويجرب سراء العيش وضـراءه، حتـى تتهيأ لديه تلك الروح الكبرى الصبورة الصامدة، ويدخر من تلك الحوادث الصعبة تجارب ودروساً، ويعد نفسه لمواجهة مسلسل الشدائد والمصاعب، والمشاق والمتاعب التي كانت تنتظره في المستقبل.

وربما أراد اللّه تعالى أن لا تكون في عنق نبيه طاعة لأحد، ولهذا أنشـأه حراً خلياً مِن كل قيدٍ، منذ الايام الأُولى من حياته، يصنـع نفسـه بنفسِـه ويقيض لها موجبات الرشد، واسباب الرقي ليتضح أن نبوغه ليس نبوغـاً بشرياً عادياً ومألوفاً

---

(١) السيرة الحلبية : ج ١ ص ١٠٥.

(٢) السيرة النبوية : ج ١ ص ١٦٨.

وانه لم يكن لوالديه أي دخل فيه وفي مصيره، وبالتالي فان عظمته الباهرة

نابعةٌ من مصدر الوحي، وليست مـن العوامـل العاديـة والاسـباب المأنوسة المتعارفة.

وفاة عبد المُطلب :

لقد جرت عادة الحياة ان تتعرض للمرء باستمرار، وتستهدف سفينة حياته كالأمواج المتلاحقة موجهة ضرباتها القوية لروحه، ونفسه.

أجل هذه هي طبيعة الحياة وسنتها مع أفراد النـوع الانسـاني مـن دون استثناء.

ولم يكن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله بمعزل عن هذه السنة المعروفـة وهذه القاعدة الحياتية العامة.

فلم تكن أمواج الحزن تفارق قلب رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآلـه لوفـاة والديه بعد حتى فاجأته مصيبة كبرى.

إنه لم يكن يمضي من عمر النبي صلّى اللّه عليه وآله اكـثر مـن ثمـان سنوات إلا وفقد جده العظيم «عبد المطلب»، وقد اعتصرت وفـاة «عبـد المطلب» قلب رسول اللّه ألماً وحزناً، وكان لها وقع شـديد علـى نفسـه المباركة، حتى أنه بكى لفقده بكاء شديداً وظلّت دموعه تجري من أجله إلى أن وري في لحده، ولم ينس ذكره ابداً !!(١).

كفالة أبي طالب للنبي صلّى اللّه عليه وآله :

سيكون لنا حديثٌ مفصل حول شخصية أبي طالب في فصـل خـاص(٢) وسنثبت هناك إيمانه برسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله بالوثـائق والأدلـة القاطعة، ولكن من المناسب الآن أن نستعرض بعض الحوادث المرتبطـة بفترة كفالته للنبي

---

(١) كتب اليعقوبي في تاريخه : ج ٢ ص ١٠ و١١ من تاريخه حول سيرة عبد المطلب، وأنه كان موحّداً لا وثنياً، وذكر أن الإسلام أمضى الكثير من سننه.

(٢) في حوادث السنة العاشرة.

صلّى اللّه عليه وآله.

لقد تكفل أبو طالب - ولأسباب خاصة - رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله، وتقبل تحمل هذه المسؤولية بفخر واعتزاز، ولأن أبا طالب - مضافاً الـى العلل المشار إليها - كان أخاً لوالد النبي من أم واحدة أيضاً(١) كمـا أنّـه كان معروفاً بجوده وكرمه، ومن هنا أوكلَ «عبد المطلب» أمر كفالة النبي صلّى اللّه عليه وآله حفيده، إليه، وسوف نقص عليك تدريجاً سطوراً ذهبية من تاريخه، تمثل شاهد صدق على خدماته القيمة، وأياديه الجليلة.

يقولون : إن النبي شارك وهو في العاشرة من عمره جنباً إلى جنـب مـع عمه في حرب من الحروب(٢) وحيث أن هذه الحرب وقعت في الأشـهر الحرم لذلك سميت بحرب «الفجار» وقد وردت تفاصيل حروب «الفجار» في التاريخ بشكل مسهب.

سفرةٌ إلى الشام :

لقد جرت العادة ان يسافر تجار قريش الى الشام كل سنة مرة واحدة.

فعزم «ابو طالب» على أن يشارك في رحلة قريش السنوية هذه ذات مرة، وعالج مشكلة ابن اخيه «محمد» الذي ما كان يقدر على مفارقته بأنه قرر أن يتركه في مكة في حراسة جماعة من الرجال، ولكنه سـاعة الرحيـل واجه من ابن اخيه العزيز ما غير بسببه قراره المذكور فقد شاهد «محمداً» وقد اغرورقت عيناه بالدموع لفراق كفيله الحميم «ابي طالب»، فاحدثـت ملامح «محمد» الكئيبة طوفاناً من المشاعر العاطفية في قلب «أبي طالب» بحيث اضطرته إلى أن يرضى

---

(١) السيرة النبوية : ج ١ ص ١٧٩، وامهما هي فاطمة المخزومية.

(٢) لقد كتب اليعقوبي في تاريخه : ج ١ ص ١٥ طبعة النجف أنّ أبا طالب لم يشتركفي هذه الحرب قط، كما لم يسمح لبني هاشم بالمشاركة فيها أيضاً، لأنه كان ظلماً وعدواناً، وقطيعة رحم واستحلالاً للشهر الحرام.

بمشقة اصطحاب «محمد» في تلك الرحلة(١).

لقد كانت سفرة النبي صلّى اللّه عليه وآله هذه التي قام بها بصحبة عمه وكافله «ابي طالب» في الثانية عشرة من عمره، من اجمل وأطرف أسفاره صلّى اللّه عليه وآله وسلّم لأنه صلّى اللّه عليه وآله عبر فيها على : «مدين» و«وادي القرى» و«ديار ثمود» واطّلع على مشاهد الشام الطبيعية الجميلة.

ولم تكن قافلة قريش التجارية قد وصلت إلى مقصدها حتى حدثت في منطقة تدعى «بصرى» قضية غيرت برنامج «ابي طالب» وتسببت في عدوله عن المضي به في تلك الرحلة والقفول الى مكة.

واليك فيما يلي مجمل هذه القضية :

كان يسكن في «بصرى» من نواحي الشام راهب مسيحي يدعى «بحيرا» يتعبد في صومعته، يحترمه النصارى في تلك الديار.

وكانت القوافل التجارية إذا مرت على صومعته توقفت عندها بعض الوقت وتبركت بالحضور عنده.

وقد اتفق أن التقى هذا الراهب قافلة قريش التي كان فيها رسول اللّـه صلّى اللّه عليه وآله، فلفت نظره شخصيةُ «محمـد»، وراح يحـدق فـي ملامحه، وكانت نظراته هذه تحمل سراً عميقاً ينطوي عليه قلبه منذ زمـن بعيد وبعد دقائق من

---

(١) ويذكر «أبو طالب» في ابيات له قصّة هذه السفرة وما جرى فيها من البدء إلى الختام نقتطف منها بعض الأبيات:

إنّ ابن آمِنة النبي محمّداً*عِندي يفوقُ منازل الأولاد**

لما تعلّق بالزمام رحمتُه*والعيسُ قد قلّصن بالازواد**

فارفضّ من عينيّ دمعٌ ذارفٌ*مثل الجمان مُفرّق الأفراد**

راعيتُ فيه قرابة موصولة*وحفظت فيه وصية الأجداد**

وأمرتُه بالسير بين عمومة*بيض الوجوه مصالت أنجاد**

حتى إذا ما القومُ بُصرى عاينوا*لاقوا على شرك من المرصاد**

حبراً فاخبرهم حديثاً صادقاً*عنه وردّ معاشر الحُسّاد**

(تاريخ ابن عساكر : ج ١ ص ٢٦٩ - ٢٧٢ وديوان ابي طالب : ص ٣٣ - ٣٥).

النظرات الفاحصة، والتحديق في وجه النبي صلّى اللّه عليه وآله خرج عن صمته وانبرى سائلاً : أنشدكم باللّه أيكم وليه ؟

فأشار جماعة منهم الى «أبي طالب» وقالوا : هذا وليه.

فقال «أبو طالب» : إنه ابن أخي، سلني عما بدا لك.

فقال «بحيرا» : إنه كائن لابن أخيك هذا شأن عظيم، نجده في كتبنا ومـا روينا عن آبائنا، هذا سيد العالمين، هذا رسولُ رب العالمين، يبعثه رحمـة للعالمين. إحذر عليه اليهود لئن رأوه وعرفوا منه ما أعرف ليقصدن قتله(١).

هذا وقد اتفق اكثر المؤرخين على أن النبي صلّى اللّه عليه وآله لم يتعـد تلك المنطقة، وليس من الواضح أن عمه «أبا طالب» بعثه الى مكـة مـع أحد، (ويستبعد أن يكون عمه قد رضي بمفارقتـه منـذ أن سـمع تلـك التحذيرات من الراهب بحيرا)، أم أنه اصطحبه بنفسه إلى مكة، وانثنى عن مواصلة سفره الى الشام(٢).

وربما قيل أنه تابع - بحذر شديد - سفره الى الشام مع ابن اخيه «محمد».

أكذُوبةُ المُستشرقين :

لقد آلينا على أنفسنا في هذا الكتاب ان نشير إلـى أخطـاء المستشرقيـن وغلطاتهم بل وربما أكاذيبهم، واتهاماتهم الباطلة، وشُبههم الواهية ليتضـح للقراء الكرام الى أي مدى يحاول هذا الفريق إرباك أذهان البسطـاء مـن الناس، وبلبلة عقولهم حول قضايا الإسلام !!

إن قضية اللقاء الذي تم - في بصرى - بين النبي صلّى اللّه عليـه وآلـه والراهب «بحيرا» لم تكن سوى قضية بسيطة، وحادثة عابرة وقصيرة، إلا أنها وقعت في ما بعد ذريعة بأيدي هذه الزمـرة (المستشـرقين) فراحـوا يصرون أشد اصرار على أن

---

(١) روى تاريخ الطبري : ج ٢ ص ٣٢ و٣٣، والسيرة النبوية : ج ١ ص ١٨٠ - ١٨٣ هذه القصّة بتفصيل أكبر وقد اختصرناها هنا تمشياً مع حجم هذا الكتاب.

(٢) السيرة النبوية : ج ١ ص ١٨٢ و١٨٣.

ما أظهره رسولُ اللّه صلّى اللّه عليه وآله من تعاليم رفيعة سامية بعد ٢٨

عاماً، واستطاع بها أن يحيي بها تلك الأُمة الميتة قد تلقاها من الراهب «بحيرا» في هذه السفرة. ويقولون : إن «محمداً» بما تمتع به مـن قـوة ذاكرة، وصفاء نفس ودقة فكر، وعظمة روح وهبته اياها يد القدر، أخذ من الراهب «بحيرا» في لقائه به، قصص الانبياء السالفين والاقوام البائدة مثل عاد وثمود، وكثيراً من تعاليمه الحيوية.

ولا ريب في أن هذا الكلام ليس سوى تصور خيالي لا يتلاءم ولا ينسجـم مع حياته صلّى اللّه عليه وآله، بل وتكذبه الموازين العقلية، واليك بعـض الشواهد على هذا :

١ - لقد كان «محمد» صلّى اللّه عليه وآله باجماع المؤرخين أُمياً، لم يتعلم القراءة والكتابة، وكان عند سفره الى الشام، ولقائه ب«بحيرا» لم يتجـاوز ربيعه الثاني عشر بعد، فهل يصدق العقل - والحال هـذه - أن يستطيـع صبي لم يدرس ولم يتعلّم القراءة والكتابة ولم يتجاوز ربيعه الثاني عشـر ان يستوعب تلك الحقائق من «التوراة» و«الإنجيل»، ثم يعرضها - فـي سن الاربعين - على الناس بعنوان الوحي الالهي والشريعة السماوية ؟!

إن مثل هذا الأمر خارج عن الموازين العادية، بل ربما يكون من الأُمـور المستحيلة لو أخذنا بنظر الإعتبار حجم الإستعداد البشري.

٢ - إن مدة هذا اللقاء كانت أقل بكثير من أن يستطيع محمد صـلّى اللّـه عليه وآله في مثل تلك الفترة الزمنية القصـيرة أن يستوعـب «التـوراة» و«الانجيل»، لأن هذه الرحلة كانت رحلة تجارية ولم يستغـرق الـذهاب

والاياب والاقامة اكثر من أربعة أشهر، لأن قريشاً كانت تقوم في كـل سنة برحلتين، في الصيف إلى «اليمن»، وفي الشتاء إلى «الشام»، ومع هذا لا يظن أن تكون الرحلة برمتها قد استغرقت اكثر من اربعة أشـهر، ولا يستطيع اكبر علماء العالم واذكاهم أن يستوعب في مثل هذه المدة القصيرة جداً محتويات ذينك الكتابين، فضلاً عن صبي لم يدرس، ولم يتعلم القراءة والكتابة من احد.

هذا مضافاً إلى أنه لم يكن يصاحب صلّى اللّه عليه وآله ذلك الراهب كـل تلك الاشهر الاربعة بل ان اللقاء الذي وقع إتفاقاً في أحد منازل الطريق لم يستغرق سوى عدة ساعات لا اكثر.

٣ - إن النّص التاريخي يشهد بأن «ابا طالب» كان ينوي اصطحاب النبي صلّى اللّه عليه وآله إلى الشام، ولم يكن مقصده الأصلي «بصرى» بل إن «بصرى» كان منزلاً في أثناء الطريق تستريح عنـده القوافـل التجاريـة أحياناً، ولفترة جداً قصيرة.

فكيف يمكن في مثل هذه الصورة ان يمكث رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله في تلك المنطقة، ويشتغل بتحصيل علوم «التوراة» و«الانجيل» ومعارفهما ؟ سواء قلنا بأن «ابا طالب» أخذه معه الى الشام، أو عاد بـه مـن تلـك المنطقة إلى مكة او أعاده بصحبة أحدٍ الى مكة ؟!

وعلى كل حال فان مقصد القافلة ومقصد «ابي طالب» لم يكن «بصـرى»

ليقال : ان القافلة اشتغلت فيها بتجارتها، بينما اغتنم «محمد» الفرصـة واشتغل بتحصيل معارف العهدين.

٤ - إذا كان محمد صلّى اللّه عليه وآله قد تلقى أُمـوراً ومعـارف مـن الراهب المذكور اذن لاشتهر ذلك بين قريش حتماً، ولتناقل الجميـع خبـر ذلك بعد العودة إلى مكة.

هذا مضافاً إلى أن النبي صلّى اللّه عليه وآله نفسه ما كـان يستطيـع أن يدعي أمام قومه في ما بعد بأنه أُمي لم يدرس كتاباً، ولا تلمذ على أ حد، في حين أن النبي الأكرم صلّى اللّه عليه وآله افتتح رسالته بهذا العنـوان، ولم يقل أحد، يا محمد كيف تدعي بأنك لم تقرأ ولم تدرس عند احـد وقـد درست عند راهب «بصرى» وتلقيت منه هذه الحقائق الناصعة وانت فـي الثانية شعره من عمرك ؟

لقد وجه مشركو مكة جميع انواع الإتهام إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليـه وآله، وبالغوا في البحث عن أية نقطة ضعف في قرآنه يمكن أن يتـذرعوا بها لتفنيد دعوته، حتى أنهم عندما شاهدوا النبي صلّى اللّه عليه وآلـه ذات مرة عند

«مروة» يجالس غلاماً نصرانياً استغلوا تلك الفرصة وقـالوا : لقـد أخـذ «محمد» كلامه من هذا الغلام، ويروي القرآن الكريم مزعمتهم هذه بقوله :

(ولقد نعلم أنّهم يقولون إنّما يعلمه بشر ِلسان الّذي يلحدون إليـه أعجمـي وهذا ِلسان عربي مبين)(١).

ولكن القرآن الكريم لم يتعرض لذكر هذه الفريـة قـط كمـا أن قريشـاً المجادلين المعاندين لم يتذرعوا بها أبداً، وهذا هو بعينه دليلٌ قاطع وقـوي على أن هذه الفرية من افتراءات المستشرقين في عصرنا هذا، ومن نسـج خيالهم !!

٥ - إن قصص الانبياء والرسل التي جاءت في القرآن الكريم على وجـه التفصيل تتعارض وتتنافى مع ما جاء في التوراة والانجيل.

فقد ذُكِرت قصص الأنبياء واحوالهم في هذين الكتابين بصورة مشينة جداً، وطُرحت بشكل لا يتفق مع المعايير العلمية والعقلية مطلقـاً، وان مقايسـة عاجلة بين هذين الكتابين من جانب وبين القرآن الكريم من جانـب آخـر تثبت بأن قضايا القرآن الكريم ومعارفه لم تتخذ من ذينك الكتابين بحـال، ولو أن النبي محمداً صلّى اللّه عليه وآله قد اكتسب معارفـه ومعلوماتـه حول الانبياء والرسل من العهدين لجاء كلامه مزيجاً بالخرافات والأوهام(٢).

٦ - إذا كان راهب «بصرى» يمتلك كل هذه الكمية من المعلومات الدينية والعلمية التي عرضها رسولُ اللّه صلّى اللّه عليه وآله، فلماذا لم يحظَ هـو بأي شيء من الشهرة، ولماذا ترى لم يرب غير «محمد» فـي حيـن أن

معبده كان مزار الناس ومقصد القوافل ؟!

٧ - يعتبر الكتاب المسيحيون «محمداً» صلّى اللّه عليه وآله رجلاً أمينـاً صادقاً، والآيات القرآنية تصرح بأنه صلّى اللّه عليه وآله لم يكن على علم مسبق

---

(١) النحل : ١٠٣.

(٢) تتجلى هذه الحقيقة أكثر فاكثر إذا ما قارنّا بين مواضيع القرآن الكريم، وبين ما جاء في نصوص العهدين (التوراة والإنجيل) وقد تصدى بعض الكتاب الإسلاميين لمثل هذه المقارنة، وقد تعرضنا لها ايضاً في بعض دراساتنا.

أصلاً بقصص الأنبياء والأُمم السابقين، وأن معلوماته في هذا الصعيد لـم تحصل لديه إلا عن طريق الوحي.

فقد جاء في سورة «القصص» الآية (٤٤) هكذا : (وما كُنتَ بجانِب الغربي إذ قضينا إلى موسى الأمر وما كُنتَ مِن الشّاهِدين).

وجاء في سورة «هود» الآية (٤٩) بعد نقل قصة نوح : (تِلك مِـن أنبـاء الغيب نُوحيها إليك ما كُنتَ تعلمها أنت ولا قومك مِن قبل هذا).

إن هذه الآيات توضح أن النبي صلّى اللّه عليه وآله لم يكن على علم أبـداً بهذه الحوادث، والوقائع.

وهكذا جاء في الآية (٤٤) من سورة «آل عمران» : (ذٰلِك مِن أنباء الغيبِ نُوحيه إليك وما كُنتَ لديهم إذ يلقُون أقلامهم أيهم يكفلُ مريم، ومـا كُنـتَ لديهم إذ يختصِمون).

إن هذه الآية وغيرها من الآيات العديدة تصرح بأن هذه الأخبـار الغيبيـة وصلت إلى النبي صلّى اللّه عليه وآله عن طريق الوحي فقط، وهو لم يكن على علم بها مطلقاً.

نظرةٌ إجمالية إلى التوراة الحاضِرة :

إن هذا الكتاب السماوي تورط في تناقضات عجيبة في بيان قصص الأنبياء والمرسلين لا يمكن نسبتها إلى الوحي مطلقاً، وها نحن نأتي هنا بنماذج في هذا المجال من التوراة ليتضح لنا أن النبي صلّى اللّه عليه وآله لو كان قد أخذ قضايا القرآن الكريم من ذلك الراهب فلماذا لا يحتوي هـذا الكتـاب العظيم على تلك الأضاليل التي انطوى عليها «التوراة» و«الانجيل».

واليك بعض ما جاء حول الأنبياء والمرسلين في «التوراة» و«الانجيـل» ونقارن ذلك بما جاء في القرآن الكريم ليتضح مدى الفرق بيـن الكتابيـن (العهدين، والقرآن).

* * *

{ ٢٣٧ }

١ - داود عليه السلام :

جاء في التوراة : «إن داود رأى من على السطح امرأة تستحـم، وكانـت المرأة جميلة المنظر جداً، فأرسل داود وسأل عن المرأة، فقال واحد : إنها امرأة أُوريا فأرسل داود رسلاً وأخذها فدخلت اليه، فاضطجع معها وهـي مطهرة من طمثها ثم رجعت الى بيتها، وحبلت المرأة، فأرسلت وأخـبرت داود وقالت : إني حبلى، فأرسل داود إلى يؤاب يقول : اجعلوا أوريا فـي وجه الحرب الشديدة(١)، وارجعوا من ورائه فيضرب ويمـوت... فلمـا سمعت امرأة أوريا أنه قد مات أُوريا رجلُها ندبت بعلهـا، ولمـا مضـت المناحة أرسل داود وضمها إلى بيته وصارت له إمرأة، وولدت لـه إبنـاً، واما الأمر الذي فعله داود فقبح في عيني الرب» !!(٢).

هكذا تصف التوراة النبي الكريم داود، وترميـه بالزنـا، واكـراه امـرأة محصنة على خيانة زوجها !!

بينما يصف القرآن الكريم النبي داود عليه السلام بأفضـل الاوصـاف اذ يقول (في الآية ١٥ و١٦ من سورة النمل) :

(ولقد آتينا داود وسليمان عِلماً وقالا ألحمد للّه الّذي فضلنا على كثير مِـن عِبادِهِ... وقال يا أيها النّاس علمنا منطِق الطير وأُوتينا مِن كـل شـيء إن

هذا لهو الفضل المبين).

٢ - النبي سليمان عليه السلام :

تقول «التوراة» عن النبي العظيم سليمان عليه السلام :

١ - «وداود الملك ولد سليمان من التي لأُوريا» !!(٣).

أي ان سليمان النبي الكريم - والعياذ باللّه - هو ابن زنا !!

---

(١) أي في مقدمة الجيش المحارب.

(٢) العهد القديم (التوراة) : صموئيل، الثاني الاصحاح الحادي عشر ٣ إلى ٢٧.

(٣) إنجيل متّى : الاصحاح الأول ٦.

٢ - وأحب الملِك سليمان نساء غريبة... مِن الذين قال عنهم الرب لبنـي اسرائيل : لا تدخلون إليهم، وهم لا يدخلون إليكم لأنّهم يميلون قلوبكم وراء آلهتهم، فالتصق سليمان بهؤلاء بالمحبة، وكانت له سبع مئة مـن النسـاء السيدات، وثلاث مئة من السراري، فأمالت نساؤه قلبه وكان فـي زمـان

شيخوخة سليمان ان نساءه أملن قلبه وراء آلهة أُخرى، ولم يكن قلبـه كاملاً مع الرب الههِ كقلب داود ابيه، فذهب سليمان وراء عشتُورت إلاهة الصيد ونين، وملكوم رجس العمونيين، وعمل سليمان الشـر فـي عينـي الرب، ولم يتبع الرب تماماً كداود أبيه، فغضب الرب على سليمان لأن قلبه مال عن الرب إله إسرائيل» !!!(١).

إن سليمان - حسب هذه التعابير التوراتية - يعشق النسـاء الاجنبيـات، ويتقرب اليهن بصنع أصنام لهن. ويعبدها معهن، ويرتكب الشرور التـي أغضبت الرب !!

بينما يقول القرآن الكريم عن سليمان عليه السلام (ولقد آتينا داود وسليمان عِلماً)(النمل : ١٦).

ويقول : (ولِسليمان الريح عاصِفة تجري بأمره إلى الأرض الّتي باركنـا فيها، وكنا بِكُل شيء عالِمين)(الأنبياء : ٨١).

إنه نبي عظيم اختاره اللّه تعالى لوحيه، واصطفاه لأداء رسالاته.

٣ - يعقوب عليه السلام :

إن «التوراة» تصف النبي العظيم يعقوب عليه السلام بأنه رجـل كـذّاب مخادع، أخذ النبوة من أبيه بالمكر والخداع، «فعِندما شاخ اسحاقُ وكلّـت

عيناه عن النظر دعا عيسو إبنه الاكبر، وطلب منـه أن يصطـاد لـه صيداً، ويصنع له طعاماً جيداً حتى يباركه، ويعطيه النبوة، ولكن يعقـوب (ابن إسحاق من رفقة

---

(١) التوراة : الملوك الأول الاصحاح ١١ العبارات ١ : ١١.

زوجته الأخرى) بادر إلى صنع طعام لذيذ لأبيه وتظاهر بأنه عيسو، لابساً ثياب عيسو، وقطعاً من جلود جديي المعزى على عنقه لأن عيسـو كـان مشعراً وكان يعقوب املس الجلد، فبارك اسحاق ابنه يعقوب ومنحه النبوة، وبعد ذلك قدم عيسو من الصيد، فعرف اسحاقُ بانه خُدِع، وأن يعقوب أخذ منه النبوة بالمكر، فارتعد اسحاقٌ ارتعاداً عظيماً جداً وقال لعيسو متأسفاً : قد جاء أخوك بمكر، وأخذ بركتك» !!(١).

هذا هو حال يعقوب في لسان «التوراة» المحرفة !!

وأما القرآن الكريم فانه يقول عن هذا النبي الطاهر :

(ووهبنا له إسحاق ويعقُوب كُلاًّ هدينا مِن قبلُ ومِن ذريته داود وسـليمان وأيوب ويوسف وموسى وهارون وكذلِك نجزي المحسِنين)(الأنعام : ٨٤).

ويقول تعالى أيضاً :

(واذكُر عِبادنا إبراهِيم واسحاق ويعقُوب أُولي الأيـدي والأبصـار. انـا أخلصناهم بِخالِصة ذكرى الدار. وإنّهم عِندنا لمِن المصطفيـن الأخيـار) (ص : ٤٥ - ٤٧).

٤ - إبراهيم عليه السلام :

تقول «التوراة» عن إبراهيم عليه السلام إنّه لما أراد أن يدخل مصر قـال لِزوجته سارة : إني قد علمتُ أنك إمرأة حسنة المنـ ظر، فيكـون إذا رآك المصريون أنهم يقولون : هذه إمرأته، فيقتلونني ، ويستبقونكِ، قولي إنـك أُختي، ليكون لي خير بسببكِ وتحيا نفسي من أجلِكِ.

وكذلك فعلت سارة وأُخذت إلى بيت فرعون، فصنع إلى إبرام خيراً

---

(١) سفر التكوين : الاصحاح السابع والعشرون : ١ الى ٤٦، وقد ذكرنا هذه القصّة من التوراة بتلخيص.

بسببها، وصار له غنم، وبقر، وحمير، وعبيد، وإماء، وأُتن، وجمال، ولما

عرف فرعون - في ما بعد - ان سارة زوجة ابراهيم، وليـس أختـه عاتبة قائلاً : لماذا لم تخبرني إنها إمرأتك، لماذا قلت : هي أختـي حـ تى أخذتها لي لتكون زوجتي والآن هو ذا إمرأتك، خذها واذهب»(١).

إن ابراهيم الخليل عليه السلام في وصف التوراة رجـلٌ كـذاب، يكـذب ويحتال.

أما القرآن الكريم فيصف هذا النبي الجليل بـأعظم الأوصـاف، ويعتـبره أعظم الأنبياء اذ يقول عنه انه:

١ - حنيف موحد للّه : «ولكِن كان حنِيفاً» (آل عمران : ٦٧).

٢ - إمام الناس : «إنّي جاعِلُك لِلنّاسِ إماماً» (البقرة : ١٣٤).

٣ - مسلِم : «ولكِن كان حنِيفاً مسلِماً» (آل عمران : ٦٧).

٤ - حليم : «إن إبراهيم لأواه حليم» (التوبة : ٨٤).

٥ - امة كامِلة بمفرده : «إن إبراهيم كان أُمة» (النحل : ١٢٠).

٦ - أواه يخشى اللّه : «إن إبراهيم لأواه» (التوبة : ٨٤).

٧ - مصطفى : «لمن المصطفين الأخيار» (ص : ٤٨).

٨ - ذو قلبٍ سليم : «إذ جاء ربه بِقلبٍ سليمٍ» (الصافات : ٤٨).

٥ - المسيح عليه السلام :

إن عيسى - حسب رواية الإنجيل - يحتقر أمه، ويزدري بها، فذات يـوم جاء إخوته وأمه ووقفوا خارجاً وأرسلوا يدعونه، وكان الجمع جالساً حوله، فقالوا له «هو ذا امك وإخوتك خارجاً يطلبونك، فأجابهم قائلاً : من أمـي وإخوتي ؟ ثم نظر حوله إلى الجالِسين وقال : ها أمي وإخوتي، لأن مـن يصنع مشيئة اللّه هو أخي وأختي وأمي» !!(٢)

---

(١) سفر التكوين : الاصحاح الثاني عشر ١ - ٢٠.

(٢) إنجيل مرقس : الاصحاح الثالث ٣١ - ٣٥.

إنه يقول هذا الكلام عن أمه التي وصفها القرآن الكريم بأن اللّـه تعالـى اصطفاها على نساء العالمين(١).

إنه يفضل تلاميذه الذين لم يؤمنوا به في قلوبهم ذرة من خردل، والذين خذلوه ليلة الهجوم عليه من جانب اليهود(٢) - كما يقول الانجيل - علـى أُمه الصديقة.

كما إن الانجيل يقول : إن المسيح حول الماء الى الخمر في عرس(٣) بل يقول إنه عليه السلام : شرب الخمر(٤)، والحـال أن الإنجيـل يصـرح بحرمة الخمر في مواضع عديدة.

هذا هو «عيسى» النبي الطاهر وحواريوه حسب رواية الانجيل !!(٥).

أما القرآن الكريم فيقول عنه غير ما يقوله «الانجيل» وإليك بعض ما جاء في الكتاب العزيز حول «المسيح» عليه السلام.

قال اللّه تعالى : (وآتينا عِيسى بن مريم البينات وأيـدناه بـروح القُـدس) (البقرة : ٧٨).

وقال تعالى أيضاً : (إنّما المسيح عيسى بن مريم رسـول اللّـه وكلمتـه) (النساء : ١٧١).

ويكفي في عظمة المسيح عليه السلام وعلو شأنه انه عليه السلام كلّم الناس في المهد صبياً وقال : (إنّي عبد اللّه آتاني الكتاب وجعلني نبياً. وجعلنـي مباركاً أين ما كُنتُ وأوصانِي بِالصلاة والزكاةِ مادمتُ حيا!. وبراً بوالِدتي

ولم يجعلني

---

(١) آل عمران : ٤٢.

(٢) انجيل متّى : الاصحاح السابع والعشرون ١ - ٦ انظر كيف وافق يهوذا الاسخريوطي وهو أحد الحواريين مع المتآمرين ضدّ المسيح، وأيضاً راجع نفس السفر : الاصحاح السادس والعشرين، وراجع انجيل متّى : الاصحاح العاشر ايضاً.

(٣) إنجيل يوحنا : الاصحاح الثاني ١ - ١١.

(٤) إنجيل لوقا : الاصحاح الأول ١٥ وغيره.

(٥) على أنّ خرافات التوراة والانجيل لا تنحصر في ما ذكرناه هنا، وللتوسع راجع : أنيس الأعلام تأليف فخر الإسلام، والهدى الى دين المصطفى للعلامة البلاغي.

جباراً شقِياً. والسلام علي يوم ولدتُ ويوم أموتُ ويوم أُبعثُ حيـاً. ذلِـك عِيسى بن مريم قول الحق الّذي فيه يمترون) (مريم : ٣٠ - ٣٤).

هذه هي مواقف القرآن الكريم من الأنبياء الكرام، والرسل العظام، وتلـك هي مواقف «التوراة» و«الانجيل» المشينة، المسيئة الى شخصية سـفراء اللّه مبلّغي رسالاته، فكيف يعقل ان يكون القرآن الكريم مقتبساً مـن تلـك الكتب وبينهما بعد المشرقين ؟!

ثم لو أن النبي صلّى اللّه عليه وآله كان قد اطّلع على هذه القضايا والقصص قبل إخباره بنبوته فلماذا لم يرشح منها شيء في أحاديثه قبل الرسالة وقد عاش بين قومه طويلاً.

قال اللّه سبحانه في معرض الرد والجواب على اقتراح المشركين على النبي صلّى اللّه عليه وآله بأن يأتي لهم بقرآن غير الذي جاء به :

(قُل لو شاء اللّه ما تلوتُه ولا أدريكُم به فقد لبِثتُ فِيكُم عمراً مِن قبله أفلا تعقِلُون)(١).

فالآية تؤكد على أن النبي صلّى اللّه عليه وآله كان لابثاً في قومه، ولم يكن تالياً لسورة من سور القرآن، أو آياً من آياته، فكل ما أخبر به هو مما أوحى به اللّه تعالى إليه بعد ان بعثه بالرسالة(٢).

---

(١) يونس : ١٦.

(٢) للتوسّع راجع مفاهيم القرآن : ج ٣ ص ٣٢١ - ٣٢٣.

٨ ـ فترة الشَباب في حياة النبيّ الاكرم

يجب ان يكون قادة المجتمع أقوياء شجعان، لا يرهبون أحداً، ولا يخـافون شيئاً، يمتلكون قوة روحية كبرى، ويتمتّعون بصبر عظيم. وإرادة قويـة، صلبة.

فكيف يستطيع الضعفاء والجبناء والمترددون، وضـعاف النفـوس قيـادة المجتمع، والخروج به من المآزق والمشاكل، وكيف يستطيعون أن يقاوموا اعداءهم ويحفظوا كيانهم وشخصيتهم من عدوان هذا او ذاك ؟!

إن لعظمة القائد الروحية، ولقواه البدنية والنفسية تأثيراً عظيماً وعجيباً في أتباعه وأنصاره، فعندما اختار الإمام امير المؤمنين عليـه السـلام أحـد اصحابه المخلصين لولاية «مصر» كتب إلى أهل «مصـر» المظلوميـن الذين ذاقوا الأمرين على أيدي ولاتهم السابقين كتاباً ذكر فيه شجاعة هـذا الوالي الجديد، الروحية وقدرته النفسية الفائقة، وإليك فيمـا يلـي بعـض الفقرات من ذلك الكتاب الذي يعكس الشروط والمواصفات الواقعيـة فـي القائد :

«أما بعد فقد بعثتُ اليكم عبداً مِن عباد اللّه لا ينام أيام الخوف، ولا ينكُـل عن الأعداء ساعات الروع، أشد على الفُجار من حريق النّار، وهو مالـك بن الحارث أخو مذحج، فاسمعوا له وأطيعوا أمره فيما طابق الحق، فإنـه سيفٌ مِن

سيوف اللّه ، لا كليلُ الظبة، ولا نابي الضريبة»(١).

رسولُ اللّه وقدرتُه الروحية :

لقد كانت آثار الشجاعة، والقوة باديةً في جبين عزيز قريش منـذ طفولتـه وصباه، ففي الخامسة عشرة من عمره الشريف شارك في حرب هاجـت بين قريش من جهة، وقبيلة هوازن من جهة أُخـرى، وتـدعى «حـرب الفجار»، وقد كان في هذه الحرب يناول أعمامه النبل.

فها هو «ابن هشام» ينقل عن النبي صلّى اللّه عليه وآله أنّه قال : «كُنـتُ أُنبلُ على أعمامِي»(٢).

إن مشاركته صلّى اللّه عليه وآله في العمليات الحربية في مثل هذه السـن تكشف عن شجاعته صلّى اللّه عليه وآلـه وقدرتـه الروحيـة الكـبرى، وتساعدنا على أن ندرك مغزى ما قاله أمير المؤمنين علي بن ابي طالـب عليه السلام في حق النبي الكريم صلّى اللّه عليه وآله : «كُنّـا اذا احمـر البأس إتّقينا برسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله وسلّم، فلم يكُن أحد مِنّا أقرب إلى العدو مِنه»(٣).

وسوف نشير - وبعون اللّه عند ذكر جهاد المسلمين للكفار والمشركين -

إلى نظام العسكرية الاسلامية، وكيفية جهاد المسلمين وقتالهم لأعدائهم التي تمت بأجمعها بتوجيه من النبي صلّى اللّه عليه وآله، وهو في نفسه من الابحاث الشيقة في تاريخ الإسلام.

حروب الفجار :

إن الحديث بتفصيل عن هذه الوقائع وعن تكتيكات هذه الحوادث التاريخية

---

(١) نهج البلاغة : قسم الرسائل، الرقم ٣٨.

(٢) السيرة النبوية : ج ١ ص ١٨٦، وقد قال ابن الأثير في النهاية بعد نقل هذا الحديث وضبط الكلمة «انبل» مشدّدة «أُنبِّل» : «اذا ناولته النبل يرمي» راجع مادّة نبل.

(٣) نهج البلاغة : فصل في غريب كلامه الرقم ٩.

خارج عن إطار هذه الدراسة، بيد أننا - مع ذلك - نعمد إلى بيان أسباب هذه الحروب التي شارك في إحداها رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله بناء على رواية بعض المؤرخين وحوادثها على نحو الاجمال بغية اطلاع القارئ الكريم.

كانت العرب تقضي عامها كله بالقتال والاغارة، وقد تسبب هذا الوضع في اختلال حياتهم، واضطراب أمورهم، ولأجل هذا كانوا يحرمون القتال ويتوقفون عنه في أربعة أشهر من كل عام (هي شهر رجب، ذو القعدة، ذو الحجة، محرم) ليتسنى لهم - فـي هـذه المـدة - أن يقيمـوا أسـواقهم، ويستغلّوها بالكسب والتجارة والبيع والشراء(١).

ولهذا كانت أسواق «عكاظ» و«مجنّة» و«ذو المجاز» تشهد طـوال هـذه الاشهر الحرام اجتماعات كبرى وتجمعات حافلة وحاشدة، كان يلتقي فيهـا العدو والصديق جنباً الى جنب، يتبايعون، ويتفاخرون.

فقد كان شعراء العرب المشهورون يلقون قصائدهم في هذه الاجتماعـات الكبرى، كما يلقي كبار خطباء العرب وفصحاؤهم خطباً قوية، وأحاديـث في غاية الفصاحة والبلاغة، وكان اليهود والنصارى والوثنيون يعرضـون معتقداتهم في هذه المناسبات من دون خوف او وجلٍ.

ولكن هذه الحرمة قد هتكت أربع مرات في تاريخ العرب، وتقاتلت القبائلُ العربية فيما بينها في هذه الأشهر الحرم، ولهذا سـميت تلـك الحـروب بحروب «الفجار»، وفي ما يلي نشير إليها على نحو الاجمال :

الفِجار الأول :

ووقعت الحرب فيها بين قبيلتي «كنانة» و«هوازن» وجاء في سبب نشوب

(١) يُستفاد من قوله تعالى في الآية ٣٦ من سورة التوبة : (إنّ عِدّة الشّهور عِند اللّه اثنا عشر شهراً في كِتابِ اللّه يوم خلق السّماواتِ والأرض مِنها أربعةٌ حرُم) أن تحريم القتال في هذه الأشهر الأربعة كان ذا جذور دينية، وكانت العرب الجاهلية تحترم هذه الأشهر اتباعاً لسُنّة «إبراهيم الخليل» عليه السّلام.

هذه الحرب أن رجلاً يدعى «بدر بن معشر» كان قد أعد لنفسه مكاناً في سوق «عكاظ» يحضر فيه، ويذكر للناس مفاخره فوقف ذات مرة شاهراً سيفه يقول : أنا واللّه أعز العرب فمن زعم أنه أعز منّي فليضربها بالسيف.

فقام رجلٌ من قبيلة أُخرى فضرب بالسيف ساقه فقطعها، فاختصم الناس وتنازعت القبيلتان، ولكنهما اصطلحتا من دون أن يقتل أحد(١).

الفِجار الثّاني :

وكان سببه أن فتية من قريش قعدوا إلى امرأة من «بني عامر» وهي جميلة، عليها برقع، فقالوا لها: إسفري لننظر إلى وجهك، فلم تفعل، فقام غلام منهم، فجمع ذيل ثوبها إلى ما فوقه بشوكة فلما قامت انكشف جسمها، فضحكوا، فصاحت المرأة قومها، فأتاها الناس، واشتجروا حتى كاد ان يكون قتالٌ، ثم اصطلحوا، وانفضوا بسلام.

الفجار الثالث :

وسببه أن رجلاً من «كنانة» كان عليه دَين لرجل من «بني عامر»، وكان الكناني يماطل، فوقع شجار بين الرجلين، واستعدى كل واحد منهما قبيلته، فاجتمع الناس، وتحاوروا حتى كاد يكون بينهم القتالُ، ثم اصطلحوا.

الفجار الرابع :

وهي الحرب التي - قيل أنه - شارك فيها النبي الكريم صلّى اللّـه عليـه وآله.

ولقد ادعى البعض أنه صلّى اللّه عليه وآله كان يومـذاك فـي الخامسـة عشرة، او الرابعة عشرة من عمره.

---

(١) ولقد كان ممّا أزاله الإسلام ومحاه هذا التفاخر الجاهلي المقيت، وستعرف هذا في الابحاث القادمة.

وقال بعض : انه كان في العشرين من عمره وحيث أن هذه الحـرب قـد استمرت أربع سنوات. لهذا يمكن أن تكون جميع هذه الاقوال صحيحة(١).

وقيل في سببه : أن «النعمان بن المنذر» ملك الحيرة كان يبعث الى سوق «عكاظ» في كل عام بضاعة في جوار رجل شريف من أشراف العـرب، يجيرها له حتى تباع هناك، ويشتري بثمنها من أقمشة «الطائف» الجميلـة المزركشة مما يحتاج إليه، فأجارها «عروة الرجال الهوازني» فـي تلـك السنة، ولكن «البراض بن قيس الكناني» انزعج لمبادرة «عروة» الى ذلك، فشكاه عند «النعمان بن المنذر» ولم يجد اعتراضه وشكواه، فحسد علـى «عروة» حسداً شديداً، فتربص به حتى غدر به في أثناء الطريق، وبذلـك لطّخ يده بدم هوازني.

وكانت قريش يومذاك حليف كنانة، وقد اتفق وقوع هذا الأمر يوم كانـت العرب مشغولة بالكسب والتجارة في سوق عكاظ، فأخبر رجل قريشاً بمقتل الهوازني على يد الكناني، ولهذا عرفت قريش وحليفتها بنو كنانة بالأمـر قبل هوازن، وأسرعوا في الخروج من «عكاظ» وتوجهـوا نحـو الحـرم (والحرم هو اربعة فراسخ من كل جانب من مكة، وكانت العـرب تحـرم القتال في هذه المنطقة) ولكن هوازن علمت بذلك فلاحقت قريشاً وحليفتهـا فوراً، وادركتهم قبل الدخول في الحرم فوقع بينهم قتال، ولما جـن الليـل كفّوا عن الحرب فاغتنمت «قريش» وحليفتُها فرصـة الليـل، وواصـلت حركتها باتجاه الحرم المكي وبذلك نجت من خطر العدو.

ومنذ ذلك اليوم كانت تخرج قريش وحليفتها من الحرم بين الفينة والاخرى وتقاتل هوازن، وقد شارك النبي - صلّى اللّه عليه وآله في بعـض تلـك الأيام مع أعمامه على النحو الذي مر بيانه.

وقد استمر الامر على هذه الحال مدة أربع سنوات، حتى ان وضـعَت نهاية

---

(١) التاريخ الكامل : ج ١ ص ٣٥٨ و٣٥٩، السيرة النبوية : ج ١ ص ١٨٤ الهامش، تاريخ الخميس: ج ١ ص ٢٥٩.

لهذه الحرب الطويلة بدفع قريش لهوازن دية القتلى الذين كـانوا يزيـدون على قتلى قريش على يد هوازن(١).

وقد أسلفنا أن تحريم القتال في الأشهر الحرم كانت له جذور دينية، وحيث أن حرب «الفجار» استمرت أربع سنوات فيمكن أن يكون لمشاركة النبـي صلّى اللّه عليه وآله فيها وجه وجيه وهو الدفاع، خاصة انه لما سئل صلّى اللّه عليه وآله عن مشهده يومئذ فقال : «ما سرني أنّي أشهده، إنّهم تعـدوا على قومي عرضوا (اي قريش) عليهم (اي على هوازن) أن يدفعوا إليهـم البراض صاحِبهم (اي الذي قتل عروة) فأبوا»(٢).

ويحتمل أن تكون مشاركته صلّى اللّه عليه وآله في غير الأشهر الحرم بناء على استمرار هذه الحروب مدة أربعة اعوام، وإنما سميت مع ذلك بالفجار لأن بدايتها وافقت الأشهر الحرم لا أنّها وقعت بتمامها في الأشهر الحرم.

وبذلك لا يبقى مجال لأن تُستبعد مشاركة النبي صلّى اللّه عليه وآله في بعض أيام تلك الحرب.

حِلفُ الفُضول :

لقد كان في ما مضى ميثاقٌ وحلـفٌ بيـن الجـرهميين يـدعى بحلـف «الفُضول»، وكان هذا الحلف يهدف الى الدفاع عن حقـوق المظلـومين، وكان المؤسسون لهذا الحلف هم جماعة كانت اسماؤهم برمتها مشتقة مـن لفظة الفضل، واسماؤهم - كما نقلها المؤرخ المعروف «عماد الدين ابـن كثير» - هي عبارة عن : «فضل بن فضالة»، و«فضل بـن الحـارث»، و«فضل بن وداعة»(٣)، وحيث أن الحلف الذي عقدته جماعة من قريـش فيما بينها كان متحداً في الهدف «وهو الدفاع عن حقوق المظلومين» مـع حلف «الفضول» لذلك سمي هذا الاتفاق

---

(١) سيرة ابن هشام : ج ١ ص ١٨٤ - ١٨٧، الأغاني : ج ٢٢ ص ٥٦ - ٧٥.

(٢) الأغاني : ج ٢٢ ص ٧٣.

(٣) البداية والنهاية : ج ١ ص ٢٩٠.

وهذا الحلف بحلف «الفُضول» أيضاً.

فقبل البعثة النبوية الشريفة بعشرين عاماً دخل رجلٌ من «زبيد» في مكـة في شهر ذي القعدة، وعرض بضاعة له للبيع فاشتراها منه «العاص بـن وائل»، وحبس عنه حقه، فاستعدى عليه الزبيدي قريشاً، وطلب منهـم أن ينصروه على العاص، وقريش آنذاك في انديتهم حول الكعبة، فنادى بأعلى صوته :

يا آل فِهر لمظلوم بضاعتُه*ببطن مكة نائي الدار والنفَر**

ومُحرمٌ أشعثٌ لم يقض عُمرتَه*يا للرِّجال وبين الحجر والحجَر**

إن الحرام لِمن تمّت كرامتُه*ولا حرام لِثوب الفاجر القذر**

فأثارت هذه الأبيات العاطفية مشاعر رجال من قريش، وهيجت غـيرتهم، فقام «الزبير بن عبد المطّلب» وعزم على نصرته، وأيده في ذلك آخرون، فاجتمعوا في دار «عبد اللّه بن جدعان» وتحالفوا وتعاهدوا باللّه ليكونن يداً واحدة مع المظلوم على الظالم حتى يؤدى إليه حقه ما أمكنهم ذلك ثم مشوا إلى «العاص بن وائل» فانتزعوا منه سلعة الزبيدي فدفعوها اليه.

وقد أنشد الزبير بن عبد المطلب في ذلك شعراً فقال :

إن الفضُول تعاقدُوا وتحالفوا*ألا يقيم ببطن مكّة ظالمُ**

أمرٌ عليهِ تعاقدُوا وتواثقُوا ***فالجارُ والمُعترُّ فيهم سالمُ

وقال أيضاً :

حلفت لنعقدن حِلفاً عليهم*وإن كُنّا جميعاً أهل دار**

نسمّيه «الفُضُول» إذا عقدنا*يعُزُّ به الغريبُ لِذي الجوار**

ويعلمُ من حوالي البيتِ أنّا*اباة الضيم نمنعُ كُلَّ عار(١)**

وقد شارك رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله، في هذا الحلف الـذي ضـمن حقوق المظلومين وحياتهم، وقد نُقِلت عنه صلّى اللّه عليه وآلـه عبـارات كثيرة يشيد فيها بذلك الحلف ويعتز فيها بمشاركته فيه وهـا نحـن ننقـل حديثين منها في

---

(١) البداية والنهاية : ج ١ ص ٢٩٠.

هذا المقام.

قال صلّى اللّه عليه وآله :

«لقد شهدتُ في دار عبد اللّه بن جدعان حلفاً لو دعيتُ بـه فـي الإسـلام لأجبتُ».

كما أن ابن هشام نقل في سيرته أن النبي صلّى اللّه عليه وآله وسلّم كـان يقول في ما بعد عن هذا الحلف : «ما أحب أن لي بِه حمر النِعم».

ولقد بقي هذا الحلف يحظى بمكانة واحترام قويين في المجتمـع العربـي والإسلامي حتى أن الأجيال القادمة كانت ترى من واجبها الحفـاظ عليـه والعمل بموجبه، ويدل على هذا قضيةٌ وقعت في عهد إمارة «الوليـد بـن عتبة» الأموي(١) على المدينة.

فقد وقعت بين الإمام الحسين بن علي عليه السلام وبين أمير المدينة هـذا منازعة في مال متعلّق بالحسين عليه السلام، ويبدو أن «الوليـد» تحامـل على الحسين في حقه لسلطانه، فقال له الإمام السبط الذي لم يرضخ لحيف قط، ولم يسكت على ظلم أبداً :

«أحلِفُ باللّه لتنصِفنّي مِن حقّي، أو لآخُذن سيفي ثم لأقُومن فـي مسجـد رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله ثم لأدعون بِحلفِ الفضول»(٢).

فاستجاب للحسين فريقٌ من الناس منهم «عبد اللّه بن الزبير»، وكرر هـذه

العبارة وأضاف قائلاً : وأنا أحلِفُ باللّه لئن دعا به لآخُذن سـيفي ثُـم لأقُومن معه حتى ينصف مِن حقّهِ أو نموت جميعاً.

وبلغت كلمة الحسين السبط عليه السلام هذه إلى رجال آخرين كـالمسورة بن مخرمة بن نوفل الزهري» و«عبد الرحمان بن عثمان» فقالا مثل مـا قال «ابن الزبير»، فلما بلغ ذلك «الوليد بن عتبة» أنصف الحسيـن عليـه السلام من حقه حتى رضي(٣).

---

(١) من قبل عمّه معاوية.

(٢) السيرة الحلبية : ج ١ ص ١٣٢.

(٣) البداية والنهاية : ج ٢ ص ٢٩٣.

٩ ـ من فترة الشباب الى مزاولة التجارة

يحمل القادة الالهيون العظماء وأصحاب الرسالات السماوية على كواهلهـم مسؤوليات كبرى، ومهام عظمى تلازم - في الأغلب - التعرض للمتاعب والمصاعب، والعذاب، وتحمل الأذى، بل وربما التعرض للقتل والاغتيال، وكلما كبرت الاهداف، عظمت المشاكل، والمتاعب.

وعلى هذا الاساس، فان نجاح القادة الرساليين يتوقف على مدى صـبرهم واستقامتهم في وجه الاتهامات والمضايقات، وفي وجـه الأذى والعـذاب، لأن الصبر والتحمل في جميع مراحل الجهاد والعمل هو الشرط الاساسـي للوصول الى المقصود، والى تحقيق الهدف المنشود والغاية المطلوبة.

من هنا ليس لقائد حقيقي أن يخشى كثرة العدو، وليس له ان ينسحـب، أو يضعف لقلّة الاتباع والمؤيدين وبالتالي ليس له أن يقلق للنوائـب فتخـور عزيمته، او ترخو إرادته، مهما عظمت حلق البـلاء واشـتدت، ومهمـا تزايدت، أو تواترت.

إنّنا نقرأ في تاريخ الأنبياء وقصصهم أموراً يعسر على الانسـان العـادي هضمها، ويصعب تصورها.

فعن نوح النبي عليه السلام نقرأ أنه دعا قومه تسعمائة وخمسين عاماً، ولم

تنتج هذه الدعوة الطويلة المضنيةُ سوى قلة من المـؤمنين والمؤيديـن الذين لم

يتجاوز عددهم الواحد والثمانين، وهذا يعني أنه لم يوفق في كل اثني عشر عاماً الا لهداية شخص واحد.

إن إرادة الصبر وقوة التحمل، والتصبر تظهر لدى الإنسان شيئاً فشيئاً، فلا بد أن تتلاحق حوادثُ صعبةٌ، ولا بد أن يمر المرء بنوائب مزعجة حتـى تأنس روحه بالامور الثقيلة، والقضايا الصعبة.

لقد قضى رسولُ اللّه صلّى اللّه عليه وآله وسلّم شطراً من حياته قبل البعثة في رعي الغنم في الصحاري والقفار، ليكون بذلك صبوراً في تربية الناس الذين سيكلف بقيادتهم وهدايتهم، وليستسهل كل صعب في هذا المجال.

إن ادارة المجتمع البشري من أصعب الأُمور التي تواجه القادة، ورجـال الاصلاح والمقدرة على الإدارة هذه لا تسنح ولا تتهيأ لأحد إلا بعد مزاولة الأُمور الصعبة، وممارسة الأعمال الشاقة، وربما يكون قيام النبي صـلّى اللّه عليه وآله برعي الغنم من هذا الباب، ولهذا جاء في الحديث:

«ما بعث اللّه نُبياً قط حتّى يسترعيه الغنم ليعلّمه بذلك رعية النّاس»(١).

لقد قضى النبي صلّى اللّه عليه وآله شطراً من عمره الشريف في هذا المجال، وينقل كثير من أرباب السير والمؤرخين هذه العبارة عنه صـلّى اللّه عليه وآله :

«ما مِن نبي إلا وقد رعى الغنم» قِيل : وأنت يا رسول اللّه ؟

فقال : «أنا رعيتُها لأهل مكّة بِالقراريط»(٢).

إن شخصية عظيمة يفترض فيها أن تواجه - في المستقبـل - أشخاصـاً عنودين كأبي جهل وأبي لهب، وأن تصنع ممن انحطت أفكارهم حتى أنهم سجدوا لكل حجر ومدر، أفراداً لا يخضعون لأي شيء سوى ارادة الحـق ومشيئته، لابد أن تتسلح قبل ذلك بسلاح الصبر، وتتجهز بـأداة التحمـل، وتتزود مسبقاً بقدرة الاستقامة على طريق الهدف، وهذا لا يكون إلا بتعويد النفس على هذه

---

(١) سفينة البحار : مادّة نبأ.

(٢) السيرة النبوية لابن هشام : ج ١ ص ١٦٦.

الصفات، وحملها على مشاق الاعمال.

سبب آخر لرعي الغنم :

ويمكن أن نذكر هنا سبباً آخر أيضاً وهو ان رجلاً حـر النفـس والعقـل كرسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله تجري في شراييـنه وعروقه دماء الغـيرة والشجاعة كان يشق عليه ان يشاهد كل ذلك الظلم والحيـف الـذي كـان يمارسه طغاة مكة، وعتاة قريش وزعماؤها الظالمون القساة بحق الضعفاء، والمحرومين، وكذا كان يشق عليه ان يرى تظاهرهم بالعصيان والفسـوق في حرم اللّه، وعند بيته المعظم.

إن اعراض سكّان مكة عن عبادة اللّه الواحد الحق، وطوافهم حـول تلـك الأصنام الخاوية هي - بلا ريب - أسوأ واقبح ما يكون في نظر الرجـل الفاهم، والعاقل العالم، واثقل ما يكون عليه.

من هنا رأى النبي صلّى اللّه عليه وآله أن يقضي ردحاً من الـزمن فـي الصحاري والقفار وعند سفوح الجبال التي كانت يومئذ بعيدة بطبيعة الحال عن تلك المجتمعات الفاسدة وأحوالها وأوضاعها، ليستريح (أو يتخلـص) بعض الشيء من آلامه الروحية الناشئة مِن رؤية تلك الأوضاع المزريـة، والأحوال المشينة.

على أن هذا الأمر لا يعني أن للرجل المتقي أن يسكت على الفساد والظلم، ويقر عليهما.

ويفرق بين حياته وحياة الآخرين ويعتزل عنهم ويتخذ موقف اللامبالاة تجاه الأوضاع المنحرفة، والاحوال الشاذة، بل ان النبي صلّى اللّـه عليـه وآله لما كان مأموراً من جانب اللّه سبحانه بالسكوت والانتظار، لانه لـم تكن ظروف «البعثة» والهداية قد توفرت وتهيأت بعد لذلك اتخذ صلّى اللّه عليه وآله مثل هذا الموقف.

* * *

سبب ثالث :

ولقد كان هذا العمل (أي الاشتغال برعي الاغنام في البراري والقفار وعند السهول وسفوح الجبال) فرصة جيدة لأن يتمكن النبي صلّى اللّه عليه وآله من النظر في خلق السماوات والتطلع في النجـوم والكواكـب وأحوالهـا وأوضاعها، وبالتالي الامعان في الآيات الأنفسية والآفاقية التي هي جميعاً من آيات وجود اللّه تعالى، ومن مظاهر قدرته وحكمته وعلمه وإرادته.

ان قلوب الأنبياء والمرسلين مع أنها منورة بمصابيح المعرفـة المشرقـة ومضاءة بأنوار الايمان والتوحيد منذ بدء فطرتها، وخلقتها، ولكنهم مع ذلك لا يرون أنفسهم في غنىً عن النظر في عالم الخلق، والتفكر فـي الآيـات الالهية، اذ من خلال هذا الطريق يصلون إلى أعلـى مراتـب الايمـان، ويبلغون اسمى درجات اليقين، وبالتالي يتمكنون من الوقوف على ملكـوت السماوات والأرضين.

إقتراح أبي طالب :

لقد دفع وضع (محمد) المعيشي الصعب «أبا طالب» سيد قريش وزعيمها الذي كان معروفاً بالسخاء وموصوفاً بالشهامة، وعلو الطبع، وإباء النفـس إلى ان يفكر في عمل لابن أخيه، كيما يخفف عنه وطأة ذلك الوضع.

ومن هنا اقترح على ابن أخيه «محمد» العمل والتجارة بـأموال «خديجـة بنت خُويلد» التي كانت امرأة تاجرة، ذات شرف عظيـم، ومـال كثـير، تستأجر الرجال في مالها أو تضاربهم اياه بشيء تجعله لهم منه.

فقد قال أبو طالب للنبي صلّى اللّه عليه وآله : يا ابن أخي هذه خديجة بنت خويلد قد انتفع بمالها اكثر الناس وهي تبحث عن رجل أمين، فلو جئتهـا فوضعت نفسك عليها لأسرعت اليك، وفضلتك على غيرك، لما يبلغها عنك من طهارتك.

ولكن إباء رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله وعلو طبيعته، منعاه من الإقدام

بنفسه على هذا الأمر من دون سابق عهد، ولهذا قال صلّى اللّه عليه وآلـه وسلّم لعمه : فلعلّها أن ترسل إلي في ذلك، لأنّها تعرف بأنـه المعـروف بالأمين بين الناس.

فبلغ «خديجة» بنت خويلد، ما دار بين النبي وعمـه «أبـي طالـب»، فبعثت إليه فوراً تقول له : إنّي دعاني الى البعثة اليك ما بلغني من صدق حديثك وعظم أمانتك، وكرم أخلاقك، وأنا اعطيك ضعف ما أُعطي رجـلاً من قومك وابعثُ معك غلامين يأتمران بأمرك في السفر.

فاخبر رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله عمه بذلك فقال له ابو طالب : «إن هذا رزقٌ ساقه اللّه إليك»(١).

هل عمِل النبي أجيراً لخديجة :

وهنا لا بد من التذكير بنقطة في هذا المجال وهي :

هل عمل النبي صلّى اللّه عليه وآله وسلّم أجيراً في أموال خديجة، أم أنـه قد عمل في تجارتها بصورة أُخرى كالمضاربة، وذلك بأن تعاقد النبي مع خديجة على أن يتاجر بأموالها على أن يشاركها في ارباح تلك التجارة ؟

ان مكانة البيت الهاشمي، وإباء النبي الأكرم صلّى اللّه عليه وآله، ومناعة طبعه، كل تلك الأُمور والخصال توجب أن يكون عملُ النبي فـي أمـوال خديجة قد تم بالصورة الثانية (أي العمل في تجارتها على نحو المضاربـة لا الإجارة)، وتؤيد هذا المطلب امور هي :

أولاً : انه لا يوجد في اقتراح أبي طالب أية اشـارة ولا أي كـلام عـن الإجارة، بل قد تحاور أبو طالب مع إخوته (أعمام النبي) في هذه المسألـة من قبل وقال : «امضوا بنا إلى دار خديجة بنت خويلد حـتى نسألهـا ان

تعطي محمداً مالاً يتجر به»(٢).

---

(١) بحار الأنوار : ج ١٦ ص ٢٢، السيرة الحلبية ج ١ ص ١٣٢ و١٣٣، الكامل في التاريخ : ج ٢ ص ٢٤.

(٢) بحار الأنوار : ج ١٦ ص ٢٢.

ثانياً : ان المؤرخ الأقدم المعروف باليعقوبي كتب تاريخه : ان النبي مـا كان أجيراً لأحد قط(١).

ثالثاً : ان الجنابذي صرح في كتابه «معالم العترة» بأن «خديجة» كانـت تضارب الرجال في مالها، بشيء تجعله لهم منه (اي من ذلك المال او من ربحه)(٢).

* * *

تهيأت قافلة قريش التجارية للسفر الى الشام، وفيها أموال «خديجة» أيضاً، في هذه الاثناء جعلت «خديجة» بعيراً قوياً وشيئاً من البضاعة الثمينة تحت تصرف وكيلها (اي النبي صلّى اللّه عليه وآله) وامرت غلاميها (ميسـرة وناصحاً) اللذين قررت ان يرافقاه صلّى اللّه عليه وآله، بان يمتثلا أوامره، ويطيعاه، ويتعاملا معه بأدب طوال تلك الرحلة، ولا يخالفاه في شيء(٣).

وأخيراً وصلت القافلة إلى مقصدها واستفاد الجميع في هذه الرحلة التجارية أرباحاً، إلا أن النبي صلّى اللّه عليه وآله ربح اكثر من الجميع، كما أنه ابتاع أشياء من الشام لبيعها في سوق «تهامة».

ثم عادت تلك القافلة التجارية إلى «مكة» بعد ذلك المكسب الكبير، والحصول على الربح الوفير.

ولقد تسنّى لفتى قريش «محمد» أن يمر - للمرة الثانية في هذه السفرة - على ديار عاد وثمود.

وقد حمله الصمتُ الكبير الذي كان يخيم على ديار واطلال تلك الجماعة العاصية المتمردة في نقلة روحانية الى العوالم الأخرى اكثر فاكثر، هذا مضافاً إلى أن هذه الرحلة جددت خواطره وذكرياته في السفرة الأولى، فقد تذكّر يوم طوى مع عمه «ابي طالب» هذه الصحاري نفسها وهذه القفار ذاتها، وما كان يحظى

---

(١) تاريخ اليعقوبي : ج ٢ ص ٢١.

(٢) بحار الأنوار ج ١٦ ص ٩ نقلاً عن معالم العترة.

(٣) قالت خديجة لهما : إعلما أنني قد أرسلتُ اليكما أميناً على أموالي وأنّه أمير قريش وسيّدها، فلا يدٌ على يده، فإن باع لا يُمنع وإن ترك لا يؤمر وليكُن

كلامُكما له بلطف وأدب ولا يعلو كلامكما على كلامه، بحار الأنوار : ج ١٦ ص ٢٩.

فيها من عمه من الحدب والعناية.

وعندما اقتربت قافلة قريش إلى «مكة»، وصارت عند مشارفهـا، التفـت «ميسرة» غلام خديجة، الى النبي صلّى اللّه عليه وآله وقال : «يا محمـد لقد ربحنا في هذه السفرة ببركتك ما لم نربح في اربعين سـنة، فاسـتقبل بخديجة وأبشرها بربحنا» فأخذ النبي باقتراح ميسرة، وسبق القافلة العائـدة في الدخول الى مكة، وتوجه نحو بيت «خديجة» بينما كانت خديجة جالسة في غرفتها، فلما رأت النبي مقبلاً عليها، نزلت من منظرتهـا وركضـت نحوه واستقبلته، وأدخلته في غرفتها، فخبرها رسول اللّه صلّى اللّه عليـه وآله بما ربحوا، ببيان جميل، وكلام بليغ، فسرت «خديجة» بذلك سـروراً عظيماً، ثم قدم «ميسرة» في الأثر، ودخل عليها، وأخبرها بكـل مـا رآه وشاهد من النبي صلّى اللّه عليه وآله في تلك السفرة من الكرامة والخـير، والخُلق العظيم، والخصال الكريمة، ومن الأُمور التي كانت برمتهـا تـدل على عظمة شخصيته صلّى اللّه عليه وآله، وسمو خصاله(١)، ومن جملة ما حدثها به ميسرة هو أنه لما وقع بين النبي صلّى اللّه عليه وآلـه وبيـن رجل تلاح وجدال في بيع قال له ذلك الرجل : إحلف باللات والعزى، فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله : ما حلفتُ بهما قط، وإني لأمر فـاعرض عنهما(٢).

وحدثها أيضاً بأنه لما مر ببصرى نزلا في ظل شـجرة ليستريحـا فقـال راهب كان يعيش هناك لما رأى النبي يستريح في ظل تلك الشجـرة - :

«ما نزل تحت هذه الشجرة قط إلا نبي» سأل عن اسمه، فأخبره ميسرة باسمه فقال : «هو نبي وهو آخر الأنبياء، إنه هو هو ومنزل الانجيل، وقد قرأت عنه بشائر كثيرة»(٣).

---

(١) الخرايج : ص ١٨٦، بحار الأنوار : ج ١٦ ص ٥.

(٢) الطبقات الكبرى : ج ١ ص ١٣٠ وفي بحار الأنوار : ج ١٦ ص ١٨ : انه صلّى اللّه عليه وآله قال : إليك عني ثكلتك أُمّك فما تكلّمت العربُ بكلمة اثقل عليّ من هذه الكلمة.

(٣) بحار الأنوار : ج ١٦ ص ١٨، الطبقات الكبرى : ج ١ ص ١٣٠، الكامل لابن الأثير : ج ٢ ص ٢٤ و٢٥.

خديجة زوجةُ الرسول الأُولى :

حتى قبل ذلك اليوم لم تكن حالة النبي صلّى اللّه عليه وآلـه الاقتصاديـة ووضعه المالي يحسد عليه، فقد كان بحاجة إلى مساعدة عمه «أبي طالب» المالية، ولم يكن شغله على النحو الذي يكفي لضمان نفقاته، مـن جانـب، وتمكينه من اختيار زوجة وشريكة حياة وتكوين عائلة، من جانب آخر.

ولكن هذه السفرة إلى الشام وبخاصة على نحو الوكالة والمضاربـة فـي أموال امرأة جليلة، معروفة في قريش (أعني خديجة) ساعدت والـى حـد

كبير على تثبيت وضعه الاقتصادي وتقوية بنيته المالية.

ولقد اعجبت «خديجة» بعظمة فتى قريش وسمو أخلاقه، ومقدرته التجارية حتى أنها أرادت أن تعطيه زيادة على ما تعاقدا عليه، تقديراً له، واعجاباً به، ولكنه اكتفى بأخذ ما تقرر في البداية ثم توجه إلى بيت عمه «أبي طالب» وقدم كل ما أخذه من «خديجة» الى عمه «أبي طالب» ليوسع به على أهله.

ففرح «أبو طالب» بما عاين من ابن اخيه، وبقية أبيه «عبد المطلب»، وأخيه «عبد اللّه» وأغرورقت عيناه بالدموع، وسر بما حقق من نجاح وما حصل عليه من ربح من تلك التجارة سروراً كبيراً، واستعد أن يعطيه بعيرين يسافر عليهما ويتاجر، وراحلتين يصلح بهما شأنه، ليتسنى له بأن يحصل على ثروة ومال يعطيه لعمه ليختار له زوجة.

في مثل هذه الظروف بالذات عزم رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله عزماً قاطعاً على أن يتخذ لنفسه شريكة حياة ويكون أُسرة، ولكن كيف وقع الاختيار على «خديجة» التي سبق لها أن رفضت كل طلبات الزواج التي تقدم بها كبار الاثرياء والشخصيات القرشية مثل «عقبة بن أبي معيط»، و«أبي جهل» و«أبي سفيان» للزواج بها ؟؟!، وماذا كانت العلل التي جمعت هذين الشخصين غير المشابهين، من حيث مستوى الحياة، والثراء ؟ وكيف ظهرت تلك الرابطة القوية، وتلك العلاقة المعنوية العميقة، والألفة والمحبة بينهما إلى درجة أن

«خديجة» سلام اللّه عليها وهبت كل ثروتها للنبي صلّى اللّه عليـه وآلـه لينفقها في نشر الإسلام، وإعلاء كلمة الحق، وإرساء قواعد التوحيد، وبث الدين الجديد، وأصبحت تلك الدار المفخمة التي كانت تزينهـا الكراسـي المرصعة، والستر المطرزة، المصنوعة مـن أغلـى الأقمشـة الهنديـة، والإيرانية، ملجأ للمسلمين، وملتقى لانصار الرسالة ؟!!

لا بد من البحث عن جذور هذه الحوادث في تاريخ حياة «خديجة» نفسها، فان من المسلّم والبديهي أن هذا النوع من الفداء، والتفاني والإيثار لم يكن ثابتاً ليتحقق ما لم يكن لها جذور معنوية وطاهرة.

إن صفحات التاريخ لتشهد بأن هذا الزواج كان ناشئاً من إيمان «خديجـة» بتقوى عزيز قريش وفتاها الامين «محمد» وطهره، وحبها الشديـد لعفتـه وكرم أخلاقه، ولهذا قال النبي الاكرم صلّى اللّه عليه وآله في حقها :

«أفضل نساء الجنة أربع : خديجة...»(١).

إنها أول إمرأة آمنت برسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله.

فقد قال علي أمير المؤمنين عليه السلام في خطبته التي يشير فيهـا إلـى غربة الإسلام في مبدأ البعثة النبوية الشريفة :

«لم يجمع بيتٌ واحِد يومئذٍ في الإسلام غير رسول اللّه وخديجة وأنـا ثالِثُهما»(٢).

ويكتب «إبن الأثير» قائلاً : إن عفيفاً الكندي كان إمرأً تاجراً قدم مكة أيام الحج فرأى رجلاً قام تجاه الكعبة يصلّي ثم خرجت امرأةٌ تصلّي معه، ثـم خرج غلام فقام يصلي معه، فمضى يسأل العباس عم النبي عـن هـؤلاء، وعن هذا الدين، فقال العباس :

---

(١) خصال الصدوق : ج ١ ص ٩٦ وغيره.

(٢) الكامل : ج ٢ ص ٣٧، شرح نهج البلاغة لابن ابي الحديد المعتزلي الشافعي : ج ١٣ ص ١٩٧ - ٢٠١.

هذا محمد بن عبد اللّه ابن أخي زعم أن اللّه ارسله، وهذه امرأته خديجـة آمنت به، وهذا الغلام علي بن أبي طالب آمن به، وأيم اللّه ما أعلم علـى ظهر الأرض أحداً على هذا الدين إلا هؤلاء الثلاثة(١).

وينبغي هنا أن نعطي لمحة عن مكانة خديجة في الإسـلام تكميـلاً لهـذه الدراسة.

خديجة في أحاديث الرسول صلّى اللّه عليه وآله :

لقد اكتسَبَت «خديجةُ» بفضل إيمانها العميق بالرسالة المحمدية، وتفانيها في سبيل الاسلام، وبسبب حرصها العجيب على حياة صاحب الرسالة وسلامته، وعملها المخلص على انجاح مهمته، ومشاركتها الفعالة، في دفع عجلة الدعوة الى الامام، ومشاطرتها للنبي في اكثر ما تحمله من محن واذى بصبر واستقامة وحب ورغبة.

لقد اكتسبت خديجة بفضل كل هذا وغيره مكانة سامية في الإسلام، حتى ان النبي ذكرها في أحاديث كثيرة وأشاد بفضلها، ومكانتها وشرفها على غيرها من النساء المسلمات المؤمنات، وذلك ولا شك ينطوي على اكثر من هدف.

فمن جملة الأهداف التي ربما توخاها النبي صلّى اللّه عليه وآله من الاشادة بخديجة سلام اللّه عليها الفات نظر المرأة المسلمة الى القدوة التي ينبغي أن تقتدي بها في حياتها وسلوكها في جميع المجالات والأبعاد، والظروف، والحالات.

هذا مضافاً إلى ما يمكن أن تقدمه المرأة وهي نصف المجتمع (إن لم تكن اكثره أحياناً) من دعم جدي للرسالة، مادياً كان أو معنوياً.

وفيما يلي نأتي ببعض الأحاديث الشريفة التي تعكس مكانة خديجة، ومقامها، ومدى إسهامها في نصرة الإسلام ودعم دعوته، وإرساء قواعده.

١ - عن أبي زرعة عن ابي هريرة يقول قال رسول اللّه صلّى اللّـه عليه (وآله) :

---

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد : ج ١٣ ص ٢٢٥ و٢٢٦.

«أتاني جبرئيل عليه السلام فقال يا رسول اللّه هذه خديجة قد أتتك ومعهـا آنية فيها ادام أو طعام أو شراب، فاذا هي أتتك فاقرأ عليها السلام من ربها ومنّي، وبشرها ببيتٍ في الجنة من قصب لا صخب فيه ولا نصبٍ»(١).

٢ - عن عائشة قالت : ما غِرتُ على امرأة ما غِرتُ على خديجة، ولقـد هلكت قبل أن يتزوجني بثلاث سنين، لما كنتُ اسمعه يذكرها، ولقد أمـره ربه عز وجلّ ان يبشرها ببيت من قصب في الجنة، وإن كان ليذبح الشـاة ثم يهديها الى خلائلها (اي خليلاتها وصديقاتها)(٢).

٣ - وعن عائشة أيضاً قالت ما غِرت على نساء النبي صلّى اللّـه عليـه (وآله) وسلّم إلا على خديجة، واني لم أدركها، (قالت) : وكان رسول اللّه صلّى اللّه عليه (وآله) وسلّم إذا ذبح الشاة فيقول : أرسلوا بها الى اصدقاء خديجة قالت : «أي عائشة» فاغضبتُه يوماً فقلت : خديجة !! فقال رسـول اللّه صلّى اللّه عليه وآله وسلّم : «اني قد رزقت حبها»(٣).

٤ - ومن هذا القبيل ما كان يقوم به رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآلـه مع صاحبات خديجة من الاحترام لهن والاحتفال بهن :

فقد وقف صلّى اللّه عليه وآله وسلّم على عجوز فجعل يسألها، ويتحفاهـا، وقال :

«ان حسن العهد من الايمان، انها كانت تأتينا أيام خديجة»(٤).

٥ - وروي عن انس قال كان النبي صلّى اللّه عليه (وآله) إذا أُتي بهديـة قال : «إذهبوا بها إلى بيت فلانة فانها كانت صديقة لخديجة إنهـا كانـت تحب خديجة»(٥).

---

(١) صحيح مسلم : ج ٧ ص ١٣٣، مستدرك الحاكم : ج ٣ ص ١٨٤ و١٨٥ بطرق متعددة صحيحة على شرط الشيخين.

(٢) و(٣) صحيح مسلم : ج ٧ ص ١٣٤، ومثلها في صحيح البخاري : ج ٥ ص ٣٨ و٣٩.

(٤) شرح نهج البلاغة لابن ابي الحديد : ج ١٨، ص ١٠٨.

(٥) سفينة البحار : ج ١ ص ٣٨٠ (خدج).

٦ - روى مجاهد عن الشعبي عن مسروق عن عائشة قالـت : كـان رسول اللّه صلّى اللّه عليه (وآله) وسلّم لا يكاد يخرج من البيت حتى يذكر خديجة فيحسن الثناء عليها، فذكرها يوماً من الايام فادركتني الغيرة فقلت : هل كانت إلا عجوزاً فقد أبدلك اللّه خيراً منها، فغضب حتى اهـتز مقـدَم شعره من الغضب، ثم قال : «لا واللّه ما أبدلني اللّه خيراً منها، آمنت بي إذ كفر الناس، وصدقتني وكذّبني الناس وواستني فـي مالهـا اذ حرمنـي الناس ورزقني اللّه منها أولاداً إذ حرمني أولاد النساء» قالت عائشة فقلت في نفسي : لا أذكرها بسيئةٍ ابداً(١).

٧ - عن يعلى بن المغيرة عن ابن ابي رواد قال : دخل رسولُ اللّه صلّى اللّه عليه (وآله) وسلّم على خديجة في مرضها الذي ماتت فيه، فقال لها :

«يا خديجة أتكرهين ما أرى منك، وقد يجعل اللّه في الكُره خيراً كثيراً، أما علمت أن اللّه تعالى زوجني معك في الجنة مريم بنت عمران، وكلثم أُخت موسى وآسية امرأة فرعون...»(٢).

٨ - عن عكرمة عن ابن عباس قال خطّ رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآلـه أربع خطط في الأرض وقال : أتدرون ما هذا ؟ قلنا : اللّه ورسولُه أعلم، فقال رسولُ اللّه صلّى اللّه عليه وآله : «أفضل نساء الجنة أربع : خديجـة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد، ومريم بنت عمران وآسية بنـت مزاحـم امرأة فرعون»(٣).

٩ - عن أنس جاء جبرئيل الى النبي صلّى اللّه عليه (وآله) وعنده خديجة

فقال : إن اللّه يقرئ خديجة السلام فقالت : إن اللّه هو السلام، وعليك السلام، ورحمة اللّه وبركاته(٤).

١٠ - عن أبي الحسن الأول (الكاظم) عليه السلام قال قال رسـول اللّـه صلّى

---

(١) اسد الغابة : ج ٥ ص ٤٣٨، ورواها مسلم أيضاً : ج ٧ ص ١٣٤، وكذا البخاري : ج ٥ ص ٣٩ وقد حذفا آخرها من : فغضب حتى.. الى آخر الرواية.

(٢) السيرة الحلبية : ج ١ ص ٣٤٧، وأسد الغابة : ج ٥ ص ٤٣٩.

(٣) الخصال للصدوق : ج ١ ص ٩٦، كما في بحار الأنوار : ج ١٦ ص ٢.

(٤) المستدرك على الصحيحين : ج ٣ ص ١٨١٦.

اللّه عليه وآله : «إن اللّه اختار من النساء اربعاً : مريم وآسية وخديجـة وفاطمة»(١).

١١ - عن ابي اليقظان عمران بن عبد اللّه عن ربيعة السعدي قال أتيـت حذيفة بن اليمان وهو في مسجد رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآلـه وسـلّم فسمعتُه يقول : قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله وسلّم يقول :

«خديجةُ بنتُ خويلد سابقةُ نساء العالمين إلى الايمان باللّه وبمحمد (صـلّى اللّه عليه وآله)»(٢).

١٢ - عن عروة قال قالت عائشة لفاطمة رضي اللّه عنها بنت رسول اللّه صلّى اللّه عليه (وآله) وسلّم : ألا ابشرك أني سمعت رسول اللّه صلّى اللّه عليه (وآله) يقول :

«سيدات نساء أهل الجنة أربع : مريم بنت عمران، وفاطمة بنت رسـول اللّه صلّى اللّه عليه (وآله) وسلّم، وخديجة بنت خويلد وآسية»(٣).

١٣ - عن أبي عبد اللّه (الصادق) عليه السلام قال : دخل رسـول اللّـه صلّى اللّه عليه وآله وسلّم منزله، فاذا عائشة مقبلة على فاطمة تصايحهـا وهي تقول : واللّه يا بنت خديجة، ما ترين إلا أن لأُمِكِ علينا فضلاً، وأي فضل كان لها علينا ؟! ما هي إلا كبعضنا، فسمع صلّى اللّه عليـه وآلـه مقالتها لفاطمة، فلما رأت فاطمة رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآلـه بكـت، فقال : ما يبكيك يا بنت محمد ؟! قالت : ذكرت أُمي فتنقصتهـا فبكيـتُ، فغضب رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله، ثم قال :

«مَه يا حميراء، فان اللّه تبارك وتعالى بارك فـي الـودود الولـود، وأن خديجة رحمها اللّه ولدت مِنّي طاهِراً، وهو عبد اللّه وهو المطهر وولـدت منّي القاسم، وفاطمة، ورقية، وأُم كلثوم، وزينب، وأنت ممن أعقـم اللّـه رحمه فلم تلدي

(١) الخصال : ج ١ ص ٩٦، كما في البحار : ج ١٦ ص ٢.

(٢) و(٣) المستدرك على الصحيحين : ج ٣ ص ١٨٤ - ١٨٦ ووردت روايات بمضمون ذيل الحديث في صحيح مسلم : ج ٧ ص ١٣٣.

شيئاً»(١).

أجل هذه هي «خديجة بنت خويلد» شرفٌ وعقلٌ، وحب عميق لرسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله، ووفاء وإخلاص، وتضحية بالغالي والـرخيص فـي سبيل الإسلام الحنيف.

هذه هي «خديجة» أول من آمنت باللّه ورسوله، وصدقت محمداً فيما جاء به عن ربه، من النساء، وآزره، فكان صلّى اللّه عليه وآله لا يسمـع مـن المشركين شيئاً يكرهه من رد عليه، وتكذيب له الا فرج اللّه عنه بخديجـة التي كانت تخفف عنه(٢)، وتهون عليه ما يلقى من قومه، بما تمنحه مـن لطفها، وعطفها، وعنايتها به صلّى اللّه عليه وآله، في غايـة الاخـلاص والود والتفاني.

ولهذا كان رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله يحبها حباً شديداً ويجلّها ويقدرها حق قدرها(٣)، ولم يفتأ يذكرها، ولم يتزوج عليها غيرها حتى رحلت وفاء

لها، واحتراماً لشخصها ومشاعرها، وكان يغضـب إذا ذكرهـا احـد بسوء، كيف وهي التي آمنت به اذ كفر به الناس، وصدقته اذ كذّبه الناس، وواسته في مالها اذ حرمه الناس.

ولهذا أيضاً كانت وفاتها مصيبة عظيمة أحزنت رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله وسلّم ودفعته إلى أن يسمي ذلك العام الذي توفي فيه ناصراه وحامياه، ورفيقا آلامه (زوجته هذه : خديجة بنت خويلد وعمـه المـؤمن الصامـد الصابر ابو طالب عليهما السلام) بعام الحداد، او عام الحزن(٤) وان يلزم بيته ويقلّ الخروج(٥)،

---

(١) الخصال : ج ٢ ص ٣٧ و٣٨، كما في بحار الأنوار : ج ١٦، ص ٣.

(٢) اعلام النساء لعمر رضا كحالة : ج ١ ص ٣٢٨.

(٣) اعلام النساء : ج ١ ص ٣٣٠.

(٤) تاريخ اليعقوبي : ج ٢ ص ٣٥، وقد روي عنه صلّى اللّه عليه وآله أنه قال بهذه المناسبة : «اجتمعت على هذه الأُمة مصيبتان لا أدري بأيهما أنا أشدّ جزعاً» المصدر نفسه، وراجع تاريخ الخميس : ج ١ ص ٣٠١ نقلاً عن سيرة مغلطاى.

(٥) السيرة الحلبية : ج ١ ص ٣٤٧، المواهب اللدنية حسب نقل تاريخ الخميس : ج ١ ص ٣٠٢ وفيه إضافة : ونالت قريش منه ما لم تكن تنال.

وأن ينزل صلّى اللّه عليه وآله عند دفنها في حفرتها، ويدخلها القبر بيده، في الحجون(١).

عن ابن عباس في حديث طويل في زواج فاطمة الزهراء عليها السلام بعلي عليه السلام اجتمعت نساء رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله، وكان يومئذٍ في بيت عائشة ليسألنّه أن يدخل الزهراء على (علي) عليه السلام فاحدقن به وقلن : فديناك بآبائنا وأُمهاتنا يا رسول اللّه قد اجتمعنا لأمر لو أن «خديجة» في الأحياء لقرت بذلك عينُها.

قالت أُم سلمة : فلما ذكرنا «خديجة» بكى رسولُ اللّه صلّى اللّه عليه وآله ثم قال : «خديجة واين مثل خديجة، صدقتني حين كذّبني الناس ووازرتني على دين اللّه وأعانتني عليه بمالها، إن اللّه عز وجلّ أمرني أن ابشر خديجة ببيت في الجنة من قصب (الزمرد) لا صخب فيه ولا نصب»(٢).

لقد كانت خديجة من خيرة نساء قريش شرفاً، واكثرهن مالاً، واحسنهن جمالاً وأقواهن عقلاً وفهماً وكانت تدعى في الجاهلية بالطاهرة لشدة عفافها وصيانتها(٣) ويقال لها : سيدة قريش(٤)، وكان لها من المكانة والمنزلة بحيث كان كل قومها وسراة أبناء جلدتها حريصين على الاقتران بها(٥)، وقد خطبها - كما يحدثنا التاريخ - عظماء قريش وبذلوا لها الأموال، وممن خطبها «عقبة بن ابي معيط» و«الصلت بن ابي يهاب» و«ابو جهل» و«ابو سفيان» فرفضتهم جميعاً، واختارت رسول اللّه - وهي في سن الأربعين وهو صلّى اللّه عليه وآله في الخامسة والعشرين - وهي تمتلك تلكم الثروة الطائلة، وهو صلّى اللّه عليه وآله لا يمتلك من حطام الدنيا إلا الشيء اليسير اليسير، رغبة في الاقتران به ولما عرفت فيه من

كرم الأخلاق، وشرف النفس، والسجايا الكريمة والصفات العالية، وهي ما كانت تبحث عنه في حياتها وتتعشقه واذا بتلك المـرأة الغنيـة الثريـة العائشة في

---

(١) السيرة الحلبية : ج ١ ص ٣٤٦.

(٢) بحار الأنوار : ج ٤٣ ص ١٣١ نقلاً عن كشف اليقين.

(٣) و(٤) و(٥) السيرة الحلبيّة : ج ١ ص ١٣٧.

أفضل عيش تصبح في بيت زوجها الرسول صلّى اللّه عليـه وآلـه تلـك الزوجة المطيعة الخاضعة، الوفية المخلصة، وتسارع الى قبـول دعوتـه، واعتناق دينه بوعي وبصيرة وارادة منها واختيار، وهي تعلم ما ينطـوي عليه ذلك من مخاطر ومتاعب، وتجعل كل ثروتها فـي خدمـة العقيـدة والمبدأ، وتشاطر زوجها آلامه، ومتاعبه، وترضى بـأن تـذوق مـرارة الحصار في شعب أبي طالب ثلاث سنوات وفي سن الرابعة أو الخامسـة والستين. وهي مع ذلك تواجه كل ذلك بصبر وثبات(١)، ودون أن يذكـر عنها تبرم او توجع.

هذا مضافاً إلى أنها كانت تعامل رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله بأدب تام يليق بمقام الرسالة والنبوة، على العكس من غيرها من بعض نساء النبـي اللائي كنَ ربما يثرن سخطه وغضبه، ويؤذينه في نفسه وأهله.

واليك فيما يأتي بعض ما قاله عنها كبار الشخصيات، والمـؤرخين ممـا يكشف عن عظيم مكانتها عند المسلمين أيضاً، قال امير المؤمنين علي بن ابي طالب عليه السلام :

«كنتُ أول من أسلم، فمكثنا بذلك ثلاث حجج وما على الأرض خلقٌ يصلّي ويشهد لرسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله بما أتاه غيري، وغير ابنة خويلـد رحمها اللّه وقد فعل»(٢).

وقال محمد بن اسحاق : كانت خديجة أول من آمن باللّه ورسوله وصدقت بما جاء من اللّه، ووازرته على أمره فخفف اللّه بذلك عن رسـول اللّـه، وكان لا يسمع شيئاً يكرهه من رد عليه وتكذيب له فيحزنه ذلك إلا فـرج اللّه ذلك عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله بها اذا رجـع إليهـا تثبتُـه، وتخفّف عنه، وتهون

---

(١) شرح نهج البلاغة لابن ابي الحديد : ج ١٤ ص ٥٩ قال : خديجة بنت خويلد وهي عند رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله محاصرة في الشِعب.

(٢) بحار الأنوار : ج ١٦ ص ٢ ومثله في روايات متعددة في شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد : ج ٤ ص ١١٩ و١٢٠.

عليه امر الناس حتى ماتت رحمها اللّه(١).

وعنه أيضاً : أن «خديجة بنت خويلد» و«ابا طالب» ماتا في عام واحـد، فتتابع على رسول اللّه عليه وآله هلاك خديجة وابي طالب وكانت خديجـة وزيرة صدق على الإسلام، وكان رسول اللّه يسكن اليها(٢).

وقال أبو امامة ابن النقاش : ان سبق خديجة وتأثيرها فـي اول الإسـلام ومؤازرتها ونصرتها وقيامها للّه بمالها ونفسها لم يشركهـا فيـه احـد لا عائشة ولا غيرها من أُمهات المؤمنين(٣).

وقد جاء في المنتقى : ان رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله عندما أُمِر بـأن يصدع بالرسالة صعد على الصفا، وأخبر الناس بما أمره اللّه به فرماه أبو جهل قبحه اللّه بحجر فشج بين عينيه، وتبعه المشركون بالحجارة فهـرب حتى أتى الجبل، فسمع علي وخديجةٌ بذلك فراحا يلتمسانه صلّى اللّه عليـه وآله وهو جائع عطشان مرهق، ومضت خديجة تبحث عنه في كل مكـان في الوادي وهي تناديه بحرقة وألم، وتبكي وتنحب، فنظر جبرئيـل إلـى خديجة تجول في الوادي فقال : يا رسول اللّه ألا ترى إلى خديجـة فقـد أبكت لبكائها ملائكة السماء ؟ أُدعها اليك فاقرأها مني السلام وقل لها : إن اللّه يقرئك السلام، ويبشّرها أن لها في الجنة بيتاً من قصب لا نصب فيـه ولا صخب فدعاها النبي صلّى اللّه عليه وآله والدماء تسيلُ من وجهه على الارض وهو يمسحها ويردها، وبقي رسول اللّه وصلّى اللّه عليـه وآلـه، وعلي وخديجة هناك حتى جَن الليلُ فانصرفوا جميعاً ودخلت بـه خديجـةُ منزلها، فأقعدته على الموضع الذي فيه الصخرة واظلّته بصخرة من فـوق رأسه، وقامت في وجهه تستره ببردها وأقبل المشركون يرمونه بالحجارة، فاذا جاءت من فوق رأسه صخرة وقته الصخرة، واذا رموه مِن تحته وقته

الجدران الحيط، وإذا رمي من بين يديه وقته خديجة رضي اللّه عنهـا بنفسها، وجعلت تنادي يا معشر قريش ترمى الحرةُ

---

(١) بحار الأنوار : ج ١٦، ص ١٠ - ١٢.

(٢) نفس المصدر.

(٣) تاريخ الخمس في أحوال أنفس نفيس : ج ١ ص ٢٦٦.

في منزلها ؟ فلما سمِعوا ذلك انصرفُوا عنه، وأصبح رسولُ اللّه صلّى اللّه عليه وآله، وغدا إلى المسجد يصلّي(١).

ولقد بلغ من خضوعها لرسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله وحبها له أنها بعد أن تم عقد زواجها برسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله قالت له صـلّى اللّـه عليه وآله : «إلى بيتك، فبيتي بيتك، وأنا جاريتك»(٢).

وجاء في السيرة الدحلانية بهامش السيرة الحلبية : ولسبقها إلـى الإسـلام وحسن المعروف جزاها اللّه سبحانه فبعث جبرئيل الى النبي صـلّى اللّـه عليه وآله وهو بغار حراء وقال له : اقرأ عليها السلام من ربهـا ومـني، وبشرها ببيت في الجنة من قصب لا صخب فيه ولا نصب، فقالت : هـو السلام ومنه السلام وعلى جبرئيل السلام، وعليك يا رسول اللّـه السـلام

ورحمة اللّه وبركاته، وهذا من وفور فقهها رضي اللّـه عنهـا حيـث جعلت مكان رد السلام على اللّه الثناء عليه ثم غايرت بين ما يليق به وما يليق بغيره، قال ابن هشام والقصب هنا اللؤلؤ المجوف، وابدى السهيلـي لنفي النصب لطيفة هي انه صلّى اللّه عليه وآله لما دعاها الـى الايمـان أجابت طوعاً ولم تحوجه لرفع صوت ولا منازعة ولا نصب بـل ازالـت عنه كل تعب، وآنسته من كل وحشة، وهونت عليه كل عسير فناسـب ان تكون منزلتها التي بشرها بها ربها بالصفة المقابلة لفعلها وصورة حالهـا رضي اللّه عنها واقراء السلام من ربها خصوصـية لـم تكـن لسواهـا، وتميزت أيضاً بأنها لم تسؤه صلّى اللّه عليه وآله وسلّم ولم تغاضبه قـط، وقد جازاها فلم يتزوج عليها مدة حياتها وبلغت منه ما لم تبلغه امرأة قـط من زوجاته(٣).

افتخار اهل البيت بخديجة عليها السّلام :

وما يدل على سمو مقامها وعلو منزلتها أن اهل البيت عليهم السلام طالما

---

(١) بحار الأنوار : ج ١٨ ص ٢٤٣.

(٢) بحار الأنوار : ج ١٦ ص ٤ نقلاً عن الخرائج والجرايح ص ١٨٦ و١٨٧.

(٣) السيرة الحلبية : ج ١ ص ١٦٩ الهامش.

افتخروا بأن خديجة منهم، وانهم من خديجة وقـد كـانوا يعـتزون بهـا، ويشيدون بمكانتها :

فقد خطب معاوية بالكوفة حين دخلها والحسن والحسين عليهمـا السـلام جالسان تحت المنبر فذكر علياً عليه السلام فنال منه ثم نال من الحسن فقام الحسين عليه السلام ليرد عليه فأخذه الحسن بيده وأجلسه ثم قام فقال :

«أيها الذاكِر علياً أنا الحسن وأبي علي وأنت معاويةُ وأبوك صخر وأمـي فاطمة وأمك هند وجدي رسول اللّه وجدك عتبةُ بن ربيعة وجدتي خديجـة وجدتُك قتيلة فلعن اللّه أخملنا ذكراً وألأمنا حسباً وشرنا قديماً وحديثاً. فقال طوائفُ من أهل المسجد : آمين(١).

وقيل : ان «الحسين» عليه السلام ساير «أنس بن مالك» فاتى قبر خديجة فبكى ثم قال : إذهب عنّي قال «أنس»، فاستخفيتُ عنه فلما طال وقوفُه في الصلاة سمعته يقول :

يا ربِّ يا ربِّ أنت مولاهُ*فارحم عُبيداً إليك ملجاهُ**

يا ذا المعالِي عليك مُعتمدي*طُوبى لِمن كُنت انت مولاهُ**

طُوبى لِمن كان خادِماً أرقاَ*يشكُو إلى ذِي الجلال بلواهُ**

الى آخر الابيات(٢).

هكذا كان اهل البيت النبوي - اقتداء برسول اللّه صلّى اللّه عليـه وآلـه يحترمون خديجة ويكرمونها لما كان لها من شخصية عظيمة ولما اسـدته الى الإسلام والى رسول الإسلام من خدمات لا تنسى على مر الدهور.

ان بيان ونقل الاحاديث والروايات، وكذا الاقوال التي وردت فـي شـأن خديجة والحديث عن شخصيتها ومكانتها ومدى إسهامها في انجاح ونصرة الدعوة المحمدية خارج عن امكانية هذه الدراسة، ونطاقها، لذلك نكتفي بهذه الالماعة

---

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد المعتزلي : ج ١٦، ص ٤٦ و٤٧.

(٢) بحار الأنوار : ج ٤٤ ص ١٩٣ نقلاً عن عيون المحاسن.

العابرة تاركين الكلام باسهاب حولها إلى مجال آخر.

ولنعد إلى تبين الأسباب الظاهرية والباطنية لزواجها من رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله وسلّم.

العلل الظاهرية والحقيقية وراء زواج خديجة بالنبيّ صلّى اللّه عليه وآله :

إن الانسان المادي الذي ينظر الى كل ما يحيط به من خلال المنظار المادي، ويفسره تفسيراً مادياً قد يتصور (وبالاحرى يظن) أن «خديجة» كانت امرأة تاجرة تهمها تجارتها، وتنمية ثروتها، ولأنها كانت بحاجة ماسة الى رجل أمين قبل أي شيء، لذلك وجدت ضالتها في محمد الصادق الامين صلّى اللّه عليه وآله فتزوجت منه، بعد أن عرضت نفسها عليه ومحمد صلّى اللّه عليه وآله هو الآخر حيث انه كان يعلم بغناها وثروتها، قبل بهذا العرض رغم ما كان بينه وبينها من فارق في السن كبير.

ولكن التاريخ يثبت أن ثمة أسباباً وعللاً معنوية لا مادية هي التي دفعت بخديجة للزواج بأمين قريش وفتاها الصادق الطاهر.

واليك في ما يأتي شواهدنا على هذا الامر :

١ - عندما سألت «خديجة» ميسرة عما رآه في رحلته من فتى قريش «محمد» فخبرها ميسرة بما شاهد ورأى من «محمد» في تلك السفرة، وبما سمعه من راهب الشام حوله أحست «خديجة» في نفسها بشوق عظيم ورغبة شديدة نحوه كانت نابعه من اعجابها بمعنوية محمد صلّى اللّه عليه وآله وكريم خصاله، وعظيم أخلاقه، فقالت من دون إرادتها : «حسبك يا ميسرة، لقد زدتني شوقاً إلى محمد صلّى اللّه عليه وآله، إذهب فانت حر لوجه اللّه، وزوجتك وأولادك ولك عندي مائتا درهم وراحلتان» ثم خلعت

عليه خلعة سنية(١).

ثم إنها ذكرت ما سمعته من «ميسرة» لورقة بن نوفل وكان من حكماء

---

(١) بحار الأنوار : ج ١٦، ص ٥٢.

العرب : فقال ورقة : «لئن كان هذا حقاً يا خديجة إن محمداً لنـبي هـذه الامة»(١).

٢ - مر النبي صلّى اللّه عليه وآله يوماً بمنزل «خديجة بنت خويلد» وهي جالسة في ملأ من نسائها وجواريها وخدمها وكان عندها حبر من أحبـار اليهود، فلما مر النبي صلّى اللّه عليه وآله نظر إليه ذلك الحبر وقال : يـا خديجة مري من يأتي بهذا الشاب، فأرسلت اليه من أتى به، ودخل مـنزل «خديجة»، فقال له الحبر : إكشف عن ظهرك فلما كشف له قال الحـبر : هذا واللّه خاتم النبوة فقالت له خديجة : لو رآك عمه وأنت تفتّشـه لحلّـت عليك منه نازلة البلاء وان أعمامه ليحذرون عليه من أحبار اليهود.

فقال الحبر : ومن يقدر على «محمد» هذا بسوء، هذا وحق الكليم رسـولُ الملك العظيم في آخر الزمان، فطوبى لمن يكون له بعلاً، وتكون له زوجة وأهلاً فقد حازت شرف الدنيا والآخرة.

فتعجبت «خديجة»، وانصرف «محمد» وقد اشتغل قلب «خديجـة» بنـت خويلد بحبه فقالت : أيها الحبر بمَ عرفت محمداً انه نبي ؟

قال : وجدتُ صفاته في التوراة انه المبعوثُ آخر الزمان يموت أبوه وامه، ويكفله جده وعمه، وسوف يتزوج بامرأة من قريش سيدة قومهـا وأمـيرة عشيرتها، وأشار بيده الى خديجة فلما سمعت «خديجة» ما نطق به الحبـر تعلق قلبها بالنبي صلّى اللّه عليه وآله فلما خرج من عندها قال : إجتهـدي ان لا يفوتك «محمد» فهو الشرف في الدنيا والآخرة(٢).

٣ - لقد كان ورقة بن نوفل (وهو عم خديجة وكان من كُهان قريش وقـد قرأ صحف «شيث» عليه السلام وصحف «إبراهيم» عليه السـلام وقـرأ التوراة والانجيل وزبور «داود» عليه السلام) يقول دائماً: سيبعَثُ رجلٌ من قريش في آخر

---

(١) السيرة النبوية : ج ١ ص ١٩١، السيرة الحلبية : ج ١ ص ١٣٦.

(٢) بحار الأنوار : ج ١٦، ص ٢٠ و٢١ نقلاً عن كتاب الأنوار لأبي الحسن البكري.

الزمان يتزوج بامرأة من قريش تسود قومها (أو تكون سيدة قومها، وأميرة عشيرتها)، ولهذا كان يقول لها : «يا خديجة سوف تتصلين برجل يكـون

أشرف أهل الأرض والسماء»(١).

هذه قضايا ذكرها بعض المؤرخين، وهي منقولةٌ ومثبتة في طائفة كبـيرة من الكتب التاريخية، وهي بمجموعها تدل على العلل الحقيقيـة والباطنيـة لرغبة خديجة في الزواج برسول اللّه صلّى اللّه عليـه وآلـه، وإن هـذه الرغبة كانت ناشئة من اعجاب «خديجة» بأخلاق فـتى قـريش الأميـن، ونبله، وطهارته، وعظيم سجاياه وخصاله، وحبها لهذه الأُمور، وليس هناك أي أثر في علل هذا الزواج لامانة «محمد» وكونه أصلح من غيره لهـذا السبب للقيام بتجارة «خديجة».

كيف تمت خِطبةُ خديجة ؟

من المسلّم به أن اقتراح الزواج جاء من جانب «خديجة» نفسها أولاً، حتى أن ابن هشام(٢) نقل في سيرته : ان «خديجة» لما أخبرها ميسـرة بمـا أخبرها به بعثت إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله فقالت له : «يا ابـن عم إني قد رغبتُ فيك لقرابتك وسطتك (اي شرفك ومكانتك) في قومـك، وأمانتك وحسن خلقك، وصدق حديثك» ثم اقترحت عليه أن تتزوج به.

ويعتقد اكثر المؤرخين أن «نفيسة بنت علية» بلّغت رسالة «خديجة» إلـى النبي صلّى اللّه عليه وآله على النحو التالي :

قالت: لرسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله : «يا محمد ما يمنعك أن تتزوج... ولو دعيت الى الجمال والمال والشرف والكفاءة الا تجيب ؟

فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله : فمن هي ؟

فقالت خديجة، فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله : وكيف لـي بـذلك، فقالت : علي، فذهبت الى خديجة فأخبرتها، فأرسلت خديجة إلى رسول اللّه صلّى

---

(١) بحار الأنوار : ج ١٦، ص ٢١.

(٢) السيرة النبوية : ج ١ ص ١٨٩ و١٩٠.

اللّه عليه وآله بوكيلها «عمرو بن اسد»(١) لتحديد ساعة من اجل مراسـم الخطبة في محضر من الاقارب(٢).

فشاور النبي صلّى اللّه عليه وآله أعمامه وفي مقدمتهم «أبو طالب»، ثـم عقدوا مجلساً فخماً حضره كبار وجوه قريش، ورؤساؤها فخطـب «أبـو طالب»، وبعد ان حمد اللّه واثنى عليه وصف إبن أخيه محمداً بقوله :

«ثم إن ابن أخي هذا محمد بن عبد اللّه لا يوزَن به رجلٌ إلا رجح به شرفاً ونُبلاً وفضلاً وعقلاً، وإن كان في المال فإن المال ظِل زائلٌ، وأمر حائـلٌ

وعاريةٌ مسترجعة، وله في خديجة رغبةٌ ولها فيه رغبةٌ، والصداق ما سألتم عاجله وآجله مِن مالي، ومحمد من قد عرفتُم قرابته».

وحيث أن «ابا طالب» تعرض في خطبته لـذكر قـريش، وبـني هاشـم وفضيلتهم، ومنزلتهم بين العرب، لذلك تكلّم «ورقة بن نوفل بن اسد» الذي كان من أقارب خديجة(٣) وقال في خطبة له : «لا تنكُر العشيرة فضلكُم، ولا يرد أحد من الناس فخركم وشرفكُم وقد رغبنا في الإتصـال بحبلكـم وشرفكُم»(٤).

ثم أجري عقد النكاح ومهرها النبي صلّى اللّه عليه وآله أربعمائـة دينـار وقيل أصدقها عشرين بكرة(٥).

---

(١) المعروف ان والد خديجة توفي في حرب الفجار ولهذا قام بالايجاب من قبلها عمها عمرو بن اسد ولهذا لا يصح ما ذكره بعض المؤرخين من أنّ خويلد (والد خديجة) امتنع من تزويجها لرسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله في بداية الأمر، ثم رضي بذلك نزولاً عند رغبة خديجة.

(٢) تاريخ الخميس : ج ١ ص ٢٦٤.

(٣) المعروف أنّ ورقة كان عمّاً لخديجة ولكن هذا موضع نقاش لأنّ «خديجة بنت خويلد بن اسد» وورقة بن نوفل بن اسد فيكونان اولاد عمومة أي أنّه ابن عم خديجة وهي بنت عمّه. ولذلك جاء في بعض المصادر وصفه ب«ابن عمّها» (تاريخ الخميس : ج ١ ص ٢٨٢) وراجع قبله السيرة النبوية لابن هشام : ج ١، ص ٢٠٣.

(٤) بحار الأنوار : ج ١٦ ص ١٦، مناقب آل أبي طالب : ج ١ ص ٣٠، السيرة الحلبية : ج ١ ص ١٣٩، تاريخ الخميس : ج ١ ص ٢٦٤.

(٥) السيرة الحلبية : ج ١ ص ١٣٩.

عمر خديجة عند زواجها بالنبي صلّى اللّه عليه وآله :

المعروف المشهور أن خديجة عليها السلام تزوجت من رسول اللّه صـلّى اللّه عليه وآله وهي في سن الأربعين وأنها ولدت قبل عام الفيـل بخمسـة عشر عاماً.

وذكر البعض أقل من ذلك أيضاً.

وذكرَ أنها تزوجت قبل النبي صلّى اللّه عليه وآله برجلين أولهما «عتيـقُ بن عائذ» ثم من بعده ابو هالة التميمي اللّذين توفي كلٌ منهما بعيد زواجـه بخديجة(١).

---

(١) ربما يُشكَّك في أن تكون خديجة عليها السّلام قد تزوجت قبل رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله بأحد وهي التي امتنعت عن كل من خطبها ورام تزويجها من سادات قريش واشرافها. راجع الاستغاثة : ج ١، ص ٧٠.

١٠ ـ من الزواج الى البعثة

تُعتبر فترةُ الشباب من أهم وأخطر الفترات في حياة الإنسـان ففـي هـذه الفترة تبلغ الغريزة الجنسية نضجها وكمالها، وتصبح النفس البشرية لعبـة في أيدي الأهواء ويغلب طوفان الشهوة على فضاء العقل، ويغطّي الظـلام سماء التفكير، وتشتد حاكمية الغرائز المادية، وتتضـاءل شـعلة العقـل، وتترائى أمام عيون الشباب بين الحين والآخر، وصباحاً مسـاء صـروح عظيمة من الآمال الخيالية.

ولو ملك الإنسان - في مثل هذه الفترة - شيئاً من الثروة، لتحولت حياتـه إلى مسألة في غاية الخطورة فالغرائز الحيوانية، وصحة المزاج من جهـة والامكانات المادية والمالية من جهة أُخرى تتعاضدان وتغرقان المرء فـي بحر من الشهوات، والنزوات، وتهيئان له عالِماً بعيداً عـن التفكـير فـي المستقبل.

ومن هنا يصف المربون العلماء تلك الفترة الحساسة بأنها الحد الفاصل بين الشقاء والسعادة، والفترة التي قلما يستطيع شاب أن يرسم لنفسه فيها مساراً معقولاً، ويختار لنفسه طريقاً واضحاً على أمل الحصول علـى الملكـات الفاضلة، والنفسية الرفيعة الطاهرة التي تحفظه عن أي خطر متوقـع(١). حقاً إن كبح جماح

---

(١) والى هذه الحقيقة اشار الإمام جعفر الصادق عليه السّلام بقوله :

إنّ الفراغ والشباب والجدة*مَفسدة للمرء أي مفسدة**

{ ٢٧٦ }

النفس، وزمها وحفظها مِن الإنزلاق في مهاوي الشهوات، والنزوات فـي مثل هذه الفترة لهو أمر جد عسير، ولو أن الانسان حرم من تربية عائليـة صحيحة مستقيمة كان عليه أن ينتظر مصيراً سيئاً، ومستقبلاً فـي غايـة البؤس والشقاء.

فترةُ الشبابِ في حياة رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله :

ليس من شك في ان فتى قريش «محمداً» صلّى اللّه عليه وآله كان يتمتـع في أيام شبابه بصحة جيدة، وقوة بدنية عالية، وكان شجاعاً قويـاً، لأنّـه صلّى اللّه عليه وآله قد تربى في بيئة حرة بعيدة عن ضوضـاء الحيـاة، وفتح عينيه في عائلة اتصـف جميـع أفرادهـا واعضائهـا بالشجاعـة والفروسية، هذا من جانب، ومن جانب آخر كان يمتلك ثـروة «خديجـة» الطائلة فكانت ظروفُ الترف، والعيش الشهواني متوفرة له بشكل كامـل، ولكن كيف ترى استفاد من هذه الامكانات المادية؟

هل مد موائد العيش واللذة وشارك في مجالس السهـر والسمـر واللهـو واللعب، واطلق العنان لشهوته، وفكر في إشباع غرائزه الجنسية كغيره من شباب ذلك العصر، وتلك البيئة الفاسدة؟

أم أنّه اختار لنفسه منهجاً آخر في حياته، واستفاد من كل تلك الإمكانات في سبيل تحقيق حياة زاخرة بالمعنوية، الأمر الذي تبدو ملامحه بجلاء لمـن تتبع تلك الفترة الحساسة من تاريخه.

ان التاريخ ليشهد بأنه صلّى اللّه عليه وآله كان يعيش كما يعيش أي رجل رجلٍ عاقلٍ لبيبٍ وفاضلٍ رشيدٍ، وأنه طوى تلك السنوات الحساسـة مـن حياته كأحسن ما يكون، بعيداً عن العبث والترف والضياع والانزلاق إلـى الشهوات والانسياق وراء التوافه.

بل ان التاريخ ليشهد بأنه كان اشد ما يكون نفوراً مـن اللهـو، والعبـث، والترف والمجون فقد كانت تلوح على محياه دائماً آثار التفكّـر والتأمـل، وكثيراً ما كان يلجأ الى سفوح الجبال او الكهوف والمغارات للابتعاد عـن الجو الإجتماعي الموبوء في مكة، يلبث هناك أياماً يتأمل فيها فـي آثـار القدرة الإلهية،

وفي عظمة الصنع الالهي، الرائع البديع.

احاسيسه ومشاعره الإنسانية في فترة الشباب :

ولقد وقعت في احدى أسواق مكة ذات يوم حادثة هيجت مشاعره الانسانية

وحركت عواطفه واحاسيسه، فقد رأى مقامراً قد خسر بعيره وبيته، بل بلغ الأمر به أن استرقه منافسه عشرة أعوام.

وقد آلمت هذه القصة المأساوية فتى قريش «محمداً» بشدة، الى درجة أنّـه لم يعد يحتمل البقاء في «مكة» ذلك اليوم فغادرها من فوره وذهـب الـى الجبال المحيطة بمكة ثم عاد بعد هزيع من الليل.

لقد كان رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله ينزعج بشدة لهذه المشاهد المحزنة والاوضاع المأساوية، وكان يتعجب من ضعف عقول قومـه، وانحطـاط مداركهم.

ولقد كان بيت «خديجة» قبل زواج النبي صلّى اللّه عليه وآله بهـا مـلاذاً للفقراء وكعبة لآمال المساكين والمحرومين، وبعد أن تزوج النـبي صـلّى اللّه عليه وآله بها لم يطرأ على وضع ذلك البيت أي تغيير من جهة الانفاق والبذل.

ففي سنين الجدب والقحط التي كانت تضرب مكة وضواحيها بين الحيـن والآخر ربما قدمت «حليمة السعدية» مكـة لـتزور ولـدها الرضـاعي «محمداً» فكان النبي صلّى اللّه عليه وآله يكرمها ويحترمها، ويفرش رداءه تحت أقدامها، ويصغي لكلامها بعناية ولطف، وفـاء لجميلهـا، وعرفانـاً لعواطفها وأمومتها.

فقد روي أن «حليمة» قدِمت على رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله مكة بعد

تزوجه خديجة، فشكت إليه جدب البلاد وهلاك المواشي فكلم رسـولُ اللّه صلّى اللّه عليه وآله «خديجة» فأعطتها بعيراً واربعين شاة، وانصرفت الى أهلها موفورة، مسرورة.

وروي أيضاً انه استأذنت «حليمة» عليه ذات مرة فلما دخلت عليه قـال : «أُمي أُمي» وعمد إلى ردائه فبسطه لها فقعدت عليه(١).

---

(١) السيرة الحلبية : ج ١ ص ١٠٣.

أولاد خديجة :

لا ريب في أن وجود الأولاد في الحياة العائلية مما يقوي أواصر الوشيجة الزوجية، ويعمق جذُورها، ويمنح الجو العائلي بهـاء، ورونقـاً، وجمـالاً خاصاً.

ولقد أنجبت «خديجةُ» لرسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله سـتة مـن الأولاد اثنين من الذكور، أكبرهما «القاسم» ثم «عبد اللّه» اللّذان كانا يـدعيان ب: «الطاهر» و«الطيب» واربعة من الإناث.

كتب ابن هشام يقول في هذا الصدد : أكبر بناته رقية ثم زينب ثـم أم كلثوم، ثم فاطمة.

فأما الذكور من أولاده صلّى اللّه عليه وآله فماتوا قبل البعثة، وأما بناتـه فكلهن أدركن الإسلام(١).

ورغم أن النبي صلّى اللّه عليه وآله قد عرف بصبره وجلده في الحـوادث والنوائب فربما انعكست احزانه القلبية فـي قطـرات دموعـه الساخنـة المنحدرة على خديه الشريفتين في موت أولاده.

ولقد بلغ به الحزن والغم لموت ولده «إبراهيم» من زوجته مارية القبطيـة حداً لم يحدث لغيره من أولاده، إلا أنّه رغم ذلك الحزن الآخذ مـن قلبـه مأخذاً لم يفتر لسانه عن حمد اللّه وشكره حتى أن اعرابياً اعترض عليـه صلّى اللّه عليه وآله لما وجده يبكي على ولده قائلاً : أولم تكن نهيت عـن البكاء اجابه بقوله :

«انما هذا رحمة، ومن لا يرحم لا يرحم»(٢).

حدس لا أساس له من الواقع !!

لقد كتب الدكتور هيكل في كتابه : «حياة محمد» يقول : «لا ريب أن

(١) مناقب ابن شهراشوب : ج ١ ص ١٤٠، قرب الأسناد : ٦ و٧، الخصال : ج ٢ ص ٣٧، بحار الأنوار : ج ٢٢ ص ١٥ - ١٥٢. وقد ذكر البعض للنبيّ صلّى اللّه عليه وآله اكثر من ولدين، يراجع تاريخ الطبري : ج ٢ ص ٣٥، بحار الأنوار : ج ٢٢ ص ١٦٦.

(٢) بحار الأنوار : ج ٢٢ ص ١٥١.

خديجة عند موت كل واحد منهما (اي ولدي النبي : القاسم وعبد اللّه) فـي الجاهلية توجهت إلى آلهتها الاصنام تسألها ما بالها لم تشملهـا برحمتهـا وبرها»(١).

إن هذا الكلام لا يستند إلى أي دليل تاريخي، وليس هو بالتالي إلا حـدسٌ باطل، وإدعاء فارغ ليس له من منشأ إلا ان أغلبية أهل ذلك العصر كانوا عبدة أوثان، فلا بد ان خديجة كانت على منوالهم !!

في حين ان رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله كان يبغض الأصنام والأوثان من بداية شبابه، وقد اتضح موقفُه منها أكثر في سفرته الى الشام في أموال خديجة يوم قال لمن استحلفه باللات والعزى : «اليك عني، فمـا تكلمـت العرب بكلمةٍ أثقل علي من هذه».

مع ذلك كيف يمكن القولُ بأن امرأة لبيبة عاقلة لم يكن شدةُ حبها وشـغفها

بزوجها موضع شك، أن تتوجه عند موت ولديها إلى الاصـنام التـي كانت ابغض الأشياء عند زوجها، وخاصة أن حبها لزوجها «محمد» وبل إقدامها على الزواج منه انما كان بسبب ما كان يتحلـى بـه مـن ايمـان ومعنوية، وصفات فاضلة، وملكات اخلاقية عالية، فهي قد سمعت عنه بأنه آخر نبي، وأنه خاتم المرسلين، فكيف والحال هذه يمكن ان يحتمل احد انها - مع هذا الاعتقاد - بثت شكواها وحزنها الى الاوثان والاصنام ؟؟!

دعِي رسول اللّه : زيد بن حارثة :

عند الحجر الاسود أعلن رسول اللّه (صلّى اللّه عليه وآله) عن تبنيه له... ذلك هو زيد بن حارثة.

وكان «زيدٌ» ممن سباه العرب من حدود الشام، وباعوه في أسـواق مكـة رقيقاً لأحد أقرباء «خديجة» يدعى «حكيم بن حزام»، ولكن لا يعرف كيف انتقل إلى «خديجة» في ما بعد ؟

---

(١) حياة محمّد : ص ١٢٨.

يقول هيكل في كتابه «حياة محمد» في هذا الصدد «لقد ترك موتُ ولـدي رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله في نفس النبي أثراً عميقاً حتى إذا جـيء

بزيد بن حارثة يباع طلب الى «خديجة» أن تبتاعه ففعلت ثـم اعتقـه وتبناه»(١).

ولكن اكثر المؤرخين يقولون : ان «حكيم بن حزام» قـد اشـتراه لعمتـه «خديجة بنت خويلد»، وقد أحبه رسولُ اللّه صلّى اللّه عليه وآلـه وسـلّم لذكائه وطهره، فوهبته «خديجة» له عند زواجه صلّى اللّه عليه وآله منها.

ففتش عنه والده «حارثة» حتى عرف بمكانه في مكة، فقدمها، ودخل على النبي صلّى اللّه عليه وآله، فطلب منه صلّى اللّه عليه وآله أن يأذن لزيـد ليرحل معه إلى موطنه، فدعاه رسولُ اللّه صلّى اللّه عليه وآله وخيره بين المقام معه صلّى اللّه عليه وآله والرحيل الى موطنه مع أبيه، فاختار المقام مع رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله لما وجد من خلقه، وحنانـه، ولطفـه العظيم فلما رأى رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله وسلم ذلك اخرجـه الـى الحجر وأعتقه ثم تبناه على مرأى من الناس ومسمع قائلاً: «يا من حضـر اشهدوا أن زيداً ابني»(٢).

بدايةُ الخِلاف بين الوثنيّين :

لقد أوجدت البعثة النبويةُ خلافاً واختلافاً كبيراً في أوساط قريش وفرقـت صفوفهم، غير أن هذا الاختلاف قد وجدت أسـبابه وعواملُـه، وظهـرت بوادره وعلائمه قبل البعثة المباركة.

فقد أبدى جماعةٌ من الناس في الجزيرة العربية استياءهم من دين العـرب

وانكروا عقائدهم الباطلة، وطالما كانوا يتحدثون عن قرب ظهور النبي العربي الذي يتم علىيديه إحياء التوحيد.

وكان اليهود يتوعدون أهل الاصنام بالنبي صلّى اللّه عليه وآله ويقولون :

---

(١) حياة محمّد : ص ١٢٨.

(٢) الاصابة : ج ١ ص ٥٤٥ و٥٤٦، أُسد الغابة : ج ٢ ص ٢٢٥ و٢٢٦.

ليخرجن نبي فليكسرن أصنامكم(١).

وكتب ابن هشام يقول : كان اليهود يقولون للعرب : إنه قد تقارب زمـان نبي يبعث الآن نقتلكم معه قتل عاد وارم.

وكتب يقول أيضاً : وكانت الاحبار من اليهود، والرهبان مـن النصـارى والكهان من العرب قد تحدثوا بأمر رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآلـه قبـل مبعثه.

هذه الكلمات تُصور انقضاء عهد الوثنية في نظرهم إلى درجة أن بعـض القبائل أجابت النبي صلّى اللّه عليه وآله لما بعـث، ودعـاهم الله، بينمـا

احجمت اليهود عن الايمان به وبرسالته وبقيت على كفرها وجحودهـا لنبوته التي طالما بشرت بها.

وقد نزل فيهم قولُه تعالى :

(ولما جاءهم كتابٌ مِن عندِ اللّه مصدقٌ لِما معهم وكانوا مِن قبلُ يستفتِحون على الّذين كفروا فلما جاءهم ما عرفُوا كفروا به فلعنةُ اللّه على الكافِرين)(٢)(٣).

أعمدةُ الوثنيّة تهتز :

ولقد شهد أحد أعياد قريش حادثاً غريباً كان في نظر العقـلاء وأصـحاب الفكر الثاقب منهم بمثابة جرس إنذار اذن باقتراب سقوط دولـة الـوثنيين، وإنهيار صروح الوثنية وعبادة الأصنام، وانقراضها.

فقد اجتمعت قريش يوماً في عيد لهم عند صنم من أصنامهم كانوا يعظمونه وينحرون له، ويعكفون عنده، فتنحى أربعةٌ ممن عرفـوا بـالعلم ناحيـة، وأخذوا يتحدثون سراً، وأخذوا ينتقدون عبادة الأوثان والأصنام، وما عليـه قومهم من فساد العقيدة.

فقال بعضهم لبعض : واللّه ما قومكم على شيء، لقد اخطأوا دين أبيهم

---

(١) بحار الأنوار : ج ١٥ ص ٢٣١.

(٢) السيرة النبوية : ج ١ ص ٢٢١.

(٣) البقرة : ٨٩.

إبراهيم !! ما حجرٌ نُطيف به لا يسمع ولا يبصر، ولا يضر ولا ينفع، يـا قوم التمسوا لأنفسكم ديناً...

وكان هؤلاء الأربعة هم :

١ - «ورقة بن نوفل» الّذي اختار النصرانية بعد أن طالع كُتُبها، واتصل بأهلها.

٢ - «عبيد اللّه بن جحش» الذي أسلم عند ظهور الإسلام، ثم هاجر مـع المسلمين إلى الحبشة.

٣ - «عثمان بن الحويرث» الذي قدم على قيصر ملك الروم، فتنصر.

٤ - «زيد بن عمرو بن نفيل» الذي اعتزل الأوثان، وقال : اعبد رب إبراهيم(١).

إن ظهور مثل هذا الاستنكار والجحد للأوثان والوثنية لا يعـني أبـداً أن دعوة رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله كانت تعقيباً لدعوة هـذه الجماعـة، واستمراراً لها !!

كيف يمكن أن نعتبر دعوة رسول اللّه العالمية مع ما انطوت عليـه مـن أهداف كبرى، واستندت اليه من معارف وأحكام لا تُحصى، ردة فعل لمثل هذا الحادث الصغير وتعبيراً عن مثل هذا الاستنكار المحدود ؟

إن الحنيفية وهي سنّة إبراهيم ودينه لم تكن قد محِيت كلياً في الحجاز بعـد أيام بعثة رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله بل كان هناك لا يـزال بعـض الأحناف (وهم الذين كانوا على دين إبراهيم عليه السلام) منتشـرين فـي أنحاء الجزيرة العربية، إلا أن ذلك لا يعني أنّهم كانوا قادرين على التظاهر بعقيدتهم بين الناس، أو قيادة حركة، أو تربية أفراد علـى نهجهـم، أو أن توجهاتهم التوحيدية كانت من القوة بحيث تستطيع أن تكون مصدر إلهـام لقيم ومعارف وتعاليم وأحكام لِشخصية مثل رسول الإسلام «محمد» صلّى اللّه عليه وآله وسلّم.

فلم ينقل عن هؤلاء سوى بعض الإعتقادات المعدودة المحدودة مثل الاعتقاد

---

(١) السيرة النبوية : ج ١ ص ٢٢٥.

بالمعاد واليوم الآخر، وشيء بسيط من البرامج الأخلاقية، وحتى ما نقـل عنهم من أبيات توحيدية لا يمكن تأكيد انتسابها إليهم، وان لم يمكـن نفـي ذلك أيضاً(١).

فهل يمكن والحال هذه أن نعتبر الثقافة الإسـلامية العظيمـة، والمعـارف العقلية العالية، والقوانين والتشريعـات المفصلـة، والانظمـة الأخلاقيـة والسياسية والإقتصادية الإسلامية، الشاملة الكاملة، كنتيجة لمتابعة أُولئـك النفر المعدود من «الأحناف» الموحدين المنتشرين في انحاء مختلفة مـن بلاد الحجاز الذين كانت جل عقائدهم تتألف من مجرد الاعتقاد بوجود اللّه، واليوم الآخر وقضية أو قضيتين من قضايا الأخلاق ؟!

نموذج آخر عن ضعف قريش :

لم يكن يمضي على عمر فتى قريش اكثر من خمس وثلاثين عامـاً يـوم واجه إختلافاً كبيراً بين قريش، فأزال بحكمته ذلك التخاصم، ولقد كشفـت هذه الحادثة عن مدى الإحترام الذي كان فتى قريش «محمد» يحظـى بـه لدى قريش، كما وتكشف عن قوة اعتقادهم بصدقه وأمانته.

واليك تفصيل هذه الحادثة :

إنحدر سيلٌ رهيب من جبال مكة المرتفعة نحو بيت اللّه المعظّم «الكعبـة المقدسة» فلم يسلم من هذا السيل بيت في مكة حتى الكعبة المعظمة، التـي تصدعت جدرانُها تصدعاً كبيراً بفعل ذلك السيل.

فعزمت قريشٌ على بحديد تلك البنية المعظمة، ولكنها تهيبت ذلك، وترددت في هدم الكعبة، فأقدم «الوليد بن المغيرة» وهدم ركنين منها على شيء من الخوف، فانتظر أهلُ مكة أن يحل به أمرٌ، ولكنهم لما رأوا «الوليـد» لـم يصبه

---

(١) ولقد نقل ابن هشام في كتابه : السيرة النبوية : ج ١ ص ٢٢٢ - ٢٣٢ طائفة من الأبيات والقصائد التوحيدية هذه، والتي جاء في مطلع إحداها ما أنشده زيدُ بن عمرو بن نفيل :

أربّاً واحِداً أم ألفُ ربٍّ ***أدِينُ اذا تُقيمت الأُمور ؟

عزلتُ اللات والعزّى جميعاً*كذلِك يفعل الجلدُ الصبُور(البصير)**

غضب من الآلهة، اطمأنوا إلى أنه لم يرتكب قبيحاً، وأنه عمـل مـا فيـه رضى آلهتهم، فاقدموا جميعاً على هدم ما تبقى مـن الكعبـة، واتفـق أن تحطّمت سفينة قادمة من «مصر» في تجارة لرومي عند مينـاء «جـدة» بفعل الرياح والعواصف، فعلمت بذلك قريش، وأرسلت رجـالاً يبتـاعون

أخشابها ليستخدموها في بناء الكعبة المعظمة، وأوكلوا أمر نجارتها إلى نجار قِبطي محترف كان يقطن «مكة».

ولما ارتفعت جدران الكعبة إلى قامة الرجل، وآن الأوان لوضع الحجر الأسود في محله من الركن وقع الاختلاف بين زعماء قريش، وتنازعوا في من يتولّى وضع الحجر الاسود في مكانه.

وتحالفت قبيلة «بني عبد الدار» مع «بني عدي» على أن يمنعوا من أن ينال هذا الفخار غيرهم، وعمدوا إلى اناء مملوء بالدم فوضعوا أيديهم فيه تأكيداً لذلك الميثاق.

من هنا تأخرت عملية البناء وتوقّفت خمسة أيام بلياليها، وكاد أن تنشب بينهم حربٌ دامية، وربما طويلة، فقد اجتمعت طوائف مختلفة من قريش في المسجد الحرام وهي تنتظر حادثة خطيرة، فعمد - في الأخير - شيخ من شيوخ قريش يدعى «أبو أُمية بن مغيرة المخزومي» من زعماء قريش وقال : يا معشر قريش، إجعلوا بينكم فيما تختلفون فيه أول من يدخل من باب هذا المسجد(١) يقضي بينكم فيه، فقبلوا برأيه اجمع، فكان اول داخل عليه فتى قريش «محمد» صلّى اللّه عليه وآله فلما رأوه قالوا: هذا الأمين، رضينا، هذا محمد.

فقال صلّى اللّه عليه وآله : هلم الي ثوباً، فأخذ الحجر ووضعه فيه ثم قال : «لتأخذ كل قبيلة بناحية من الثوب، ثم ارفعوه جميعاً»

ففعلوا حتى إذا بلغوا في موضعه من الركن وضعه صلّى اللّـه عليـه وآله هو بيده مكانه، وبهذا حال دون وقوع حوادث دامية كـادت أن تقـع بسبب تنازع قريش، واختلافها، وحلّ الوفاق محل الشقاق بعد أن رضـي الكل بحكمه.

---

(١) وفي رواية : أول من يدخل باب الصفا.

وإلى قضية التحكيم هذه يشير «هبيرة بن أبي وهب» في أبيات صـورت هذه الحادثة التاريخية الكبرى، اذ قال :

تشاجرَتِ الأحياء في فصل خطةٍ*جرت بينـهم بالنحس مِن بعد أسعد**

تلاقوا بـها بالبُغض بعد مودّة*وأوقد نـاراً بينـهم شرّ موقد**

فلما رأينا الأمر قد جدّ جدُّه*ولم يبق شيء غيرُ سل المـهند**

رضينا وقلنا العدل أولُ طالع*يجيء من البطحاء من غير موعد**

ففاجأنا هذا الامينُ محمّدٌ*فقلنا رضينا بالأمين محمّد**

بخير قريش كلِها أمس شيمة*وفي اليوم مع ما يُحدثُ اللّه في غد**

فجاء بأمر لم ير الناس مثلَه*أعمّ وأرضى في العواقب والبَدِ**

وتلك يدٌ منهُ علينا عظيمةٌ*يروبُ لها هذا الزمان ويعتدي(١)**

أمين قريش يكفُلُ عليّاً :

أجدبت مكةُ وضواحيها سنة من السنين، وقل فيها الماء، وأصابت النـاس أزمة شديدة، وكان أبو طالب عليه السلام كثير العيال، فعزم رسول اللّـه صلّى اللّه عليه وآله على أن يساعد عمه أبا طالب، ويخفف عنـه عـبء العيال، فانطلق الى عمه العباس وقال له : «إن أخاك أبا طالب كثير العيال وقد أصاب الناس ما ترى من هذه الأزمة، فانطلق بنا إليه فلنخفّـف مـن عياله آخذ من بنيه رجلاً وتأخذ أنت رجلاً».

فكفل العباس جعفراً، وكفل رسولُ اللّه صلّى اللّه عليه وآله وسلّم علياً عليه السلام.

يقول أبو الفرج الاصفهاني المؤرخ المعروف في هذا الصدد :

---

(١) السيرة النبوية : ج ١ ص ١٩٢ - ١٩٩ وفروع الكافي : ج ٤ ص ٢١٧ و٢١٨، والجدير بالذكر أنهم قالوا عند تجديد بناء الكعبة : «يا معشر قريش لا تدخلوا في بنيانها مِن كسبكم إلا طيّباً، لا يدخلُ فيها مهر بغيّ، ولا بيع ربا، ولا مظلمة أحد للناس» (البداية والنهاية : ج ٢ ص ٣٠١) ولا شك أنّ هذه من بقايا تعاليم الأنبياء التي بقيت بينهم ولم تمح بالمرة.

وكان رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله أخذ «علياً» من أبيه وهو صغير في سنة اصابت قريشاً وقحط نالهم، وأخذ حمزة جعفراً وأخذ العباس طالباً ليكفوا أباهم مؤونتهم ويخففوا عن ثقلهم، وأخذ هو (أي ابو طالب) عقيلاً لميله كان اليه فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله :

«اخترتُ من اختار اللّه لي عليكم : علياً»(١).

إن هذه الحادثة وإن كانت في ظاهرها تعني ان رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله أقدم على هذا الأمر ليساعِد عمه أبا طالب في تلك الازمة، لكن الهدف الأعلى والأخير كان أمراً آخر وهو أن : يتربى علي عليه السلام في حجر النبي، ويغتذي من مكارم اخلاقه ويتبعه في كريم افعاله.

ولقد اشار الإمام علي عليه السلام نفسه الى هذا الموضوع بقوله :

«ولقد عِلمتُم موضعِي مِن رسول اللّه صلّى اللّه عليهوآله بالقرابةِ القريبة والمنزلةِ الخصيصة وضعني في حجره وأنا ولدٌ يضمني إلى صدره ويكنفُني في فِراشِه... ولقد كُنتُ أتبعه اتّباع الفصِيل أثر امه يرفع لِي في

كُل يوم مِن أخلاقِهِ علماً ويأمرني بالإقتداء به»(٢).

ايمان النبي وآبائه وكفلائه قبل الإسلام :

تدل الدلائل التاريخية، القوية، فضلاً عن الأدلة العقلية والمنطقية علـى أن النبي الاكرم صلّى اللّه عليه وآله لم يعبد غير اللّه تعالى منذ ولد من أُمه، والى أن رحل الى ربه، بل وكان كفلاؤه مثل عبد المطلب وأبـي طالـب مؤمنون موحدون هم أيضاً.

ايمان جده عبد المطّلب :

وأما عبد المطلب كفيل النبي الاول فلا ننسى أنه عندما قصد «أبرهة» هدم

---

(١) مقاتل الطالبيين : ص ٢٦، الكامل في التاريخ : ج ١ ص ٣٧، السيرة النبوية : ج ١ ص ٣٤٥ - ٣٤٧ باب (ذكر أن علي بن أبي طالب رضي اللّه عنه اول ذكر أسلم).

(٢) نهج البلاغة : الخطبة ١٩٢.

الكعبة في جيش الفيل، نزل في جوف الليل الى الكعبة وأخذ بحلقة بابهـا

يدعو اللّه ويقول مناجياً اللّه سبحانه:

«اللّهم أنيس المستوحشِين، ولا وحشة معك فالبيتُ بيتُك، والحرم حرمـك والدار دارك، ونحن جيرانُك، انك تمنع عنه ما تشاء، ورب الـدار أولـى بالدار».

ثم أنشأ يقول :

يا ربّ لا أرجُو لهُم سِواكا*يا ربِّ فامنع مِنهُمُو حِماكا**

إن عدُوّ البيت من عاداكا*إمنعهُمُو أن يُخربوا فناكا (١)**

وهذا يكشف بوضوح عن ايمان عبد المطلب باللّه تعالى، وتوكلـه عليـه سبحانه، وانه كان الرجل الموحد الذي لا يلتجئ في المصائب والمكاره إلى غير كهف اللّه، ولا يعرف الا باب اللّه على عكس ما كانت الوثنية عليـه فان قومه كانوا يستغيثون بالاصنام المنصوبة حول الكعبة.

ومما يدل على ايمانه ايضاً توسله لكشف غمته باللّه سبحانه فقـد تتابعـت على قريش سنون جدب ذهبت بالأموال، واشرفت الانفس واجتمعت قريش لعبد المطلب، وعلوا جبل ابي قبيس ومعهم النبي صلّى اللّه عليـه وآلـه محمد وهو غلام فتقدم عبد المطلب وقال : لا هم (اي اللّهم) هؤلاء عبيدك وإماؤك وبنو امائك، وقد نزل بنا ما ترى، وتتابعت علينـا هـذه السنـون

فذهبت بالظلف والخف والحافر، فاشرفت على الانفس فأذهـب عنـا الجدب، وائتنا بالحياء والخصب، فما برحوا حتى سالت الأودية، وفي هذه الحالة تقول رقيقة :

بشيبة الحمد اسقى اللّه بلدتنا*وقد عدمنا الحيا واجلوّذ المطر**

إلى أن تقول :

مبارك الأُم يستسقى الغمام به*ما في الانام له عدل ولا خطر**

---

(١) راجع القصة ومصادرها في ص ١٦١ من هذا الكتاب، ولعبد المطلب مواقف أُخرى مشابهة، وعديدة، راجع بصددها مفاهيم القرآن : ج ٥ ص ١٣٦ - ١٤٠.

والى هذه الواقعة يشير ابو طالب في قصيدة أولها :

ابونا شفيع الناس حين سقوا به*من الغيث رجاس العشير بكور**

ونحن ـ سنين المحل ـ قام شفيعنا*بمكة يدعو والمياه تغور(١)**

وقد نقل الشهرستاني هذه الواقعة في كتابه «الملل والنحل» قال : ومما يدل على معرفته (أي عبد المطلب) بحال الرسالة وشرف النبوة ان اهـل مكة لما أصابهم ذلك الجدب العظيم، وامسك السحاب عنهم سنتين أمر ابـا طالب ابنه، ان يحضر المصطفى محمداً صلّى اللّه عليه وآله فاحضره ابو طالب، وهو رضيع في قماط، فوضعه على يديه واستقبل الكعبة، ورمـاه الى السماء، وقال : يا رب بحق هذا الغلام، ورماه ثانياً وثالثاً وكان يقول : بحق هذا الغلام اسقنا غيثاً مغيثاً دائماً هطلاً، فلم يلبـث سـاعة أن طبـق السماء وجه السماء وأمطر، حتى خافوا على المسجد، وقال ايضاً : وببركة ذلك النور كان عبد المطلب يأمر أولاده بترك الظلم والبغي، ويحثهم علـى مكارم الاخلاق، وينهاهم عن دنيات الأمور.

وكان يقول في وصاياه : «انه لن يخرج من الدنيا ظلومٌ حتى ينتقم اللّه منه وتصيبه عقوبة»، الى ان هلك رجل ظلوم حتف انفه لم تصبه عقوبة، فقيل لعبد المطلب في ذلك، ففكر وقال : ان وراء هذه الدار داراً يجـزى فيهـا المحسن باحسانه ويعاقب فيها المسيء باساءته(٢).

ان توسل عبد المطلب باللّه سبحانه وتوليه عن الاصنام والاوثان، والتجاءه إلى رب الارباب آية توحيده الخالص، وايمانه باللّـه وعرفانـه بالرسـالة الخاتمة، وقداسة صاحبها، فلو لم يكن له الا هذه الوقائع لكفت في البرهنـة على ايمانه باللّه، وتوحيده له.

وقد اعترف المؤرخون لعبد المطلب بهذا فقد قال اليعقوبي : «ورفض عبد المطلب عبادة الاوثان والاصنام، ووحد اللّه عز وجلّ ووفى بالنذر، وسـن سنناً نزل القرآن باكثرها، وجاءت السنة الشريفة من رسول اللّه صلّى اللّه

عليه وآله

---

(١) السيرة الحلبية : ج ١ ص ١٣١ - ١٣٣.

(٢) الملل والنحل : ج ٢ ص ٢٤٨ و٢٤٩.

بها، وهي الوفاء بالنذر، ومائة من الابل فـي الديـة، وان لا تنكـح ذاتُ محرم، ولا تؤتى البيوت من ظهورها وقطع يد السارق، والنهي عن قتـل الموؤودة، وتحريم الخمر، وتحريم الزنا، والحد عليـه، والقرعـة، وان لا يطوف احد بالبيت عرياناً، واضافة الضيف وان لا ينفقوا اذا حجوا الا من طيب اموالهم، وتعظيم الاشهر الحرم، ونفي ذوات الرايات(١).

هذا وعن أُم أيمن «رضي اللّه عنها» قالت : كنتُ أحضن النبي صلّى اللّه عليه وآله (اي اقوم بتربيته وحفظه)، فغفلت عنه يوماً فلـم ادر الا بعبـد المطلب قائماً على رأسي يقول «يا بركة».

قلت : لبيك.

قال : أتدرين اين وجدتُ إبني ؟

قلت : لا ادري.

قال : وجدته مع غلمان قريباً من السدرة، لا تغفلي عن ابني، فـان أهـل الكتاب يزعمون انه نبي هذه الأمة، وأنا لا آمن عليه منهم(٢).

وكان عبد المطلب لا يأكل طعاماً الا يقول علـي بـابني (اي احضـروه) ويجلسه بجنبه، وربما اقعده على فخذه، ويؤثره بأطيب طعامه.

ثم انه لما بلغ أجله اوصى إلى ابي طالب برسول اللّه وقال له : قد خلّفـت في ايديكم الشرف العظيم الذي تطؤون به رقاب الناس وقال له أيضاً :

أوصيك يا عبد منافٍ بعدي*بمفرد بعد ابيه فرد**

فارقهُ وهو ضجيع المهد*فكنت كالأُم له في الوجد**

تدنيه من أحشائها والكبد*فانت من أرجى بنيَّ بعدي**

لدفع ضيم أو لشدّ عقدٍ(٣)

هذا هو عبد المطلب، وتعوذه ببيت اللّه الحرام، ومواقفه بين قومه، وكلماته في

---

(١) تاريخ اليعقوبي : ج ٢ ص ٩ في بعض ما عدّه المؤرخ المذكور نظر.

(٢) سيرة زيني دحلان بهامش السيرة الحلبية : ج ١ ص ٦٤.

(٣) تاريخ اليعقوبي : ج ٢ ص ١٠.

المبدأ والمعاد وعطفه وحنانه على رسول الإسلام، واهتمامه برسالة خاتـم النبيين، وهي بمجموعها من اقوى الشواهد على توحيده، وايمانـه باللّـه، واعترافه برسالة الرسول الكريم.

إيمان كفيله وعمه أبي طالب :

وهكذا كان حال كفيل النبي صلّى اللّه عليه وآله الثاني أبي طالـب عليـه السلام، فان له مواقف بارزة وكثيرة قبل البعثة النبوية وبعدها تكشف عـن عمق إيمان شيخ الاباطح، وتوحيده.

ومن تلك المواقف استسقاؤه برسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله في صباه :

فقد اصاب مكة قحطٌ شديدٌ في سنة من السنين فطلبت قريش مـن «أبـي طالب» أن يستسقي لها فخرج ومعه غلامٌ - وهو رسول اللّه صـلّى اللّـه عليه وآله - كأنه شمس دجن تجلّت عنها سحابة قتماء وحولـه أغيلمـةٌ، فأخذه «أبو طالب» فألصق ظهره بالكعبة، ولاذ الغلام باصبعه (أي أشـار بها إلى السماء) وما في السماء قزعة، فأقبل السحاب من ها هنا وها هنا،

وأغدق، واغدودق وانفجر له الوادي، واخصب البادي والنادي.

ففي ذلك يقول ابو طالب - في مدح رسول اللّه - :

وابيضُ يُستسقى الغمامُ بوجهه*ثمالُ اليتامى عِصمةٌ لِلأرامِلِ**

يلُوذُ به الهُلاكُ مِن آل هاشِم*فهُم عِنده في نعمةٍ وفواضِل**

وميزانُ عدل لا يخيسُ شعيرة*ووزّانُ صِدق وزنُه غير هائل(١)**

وكل هذا يعرب عن توحيد كفيلي رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله الخالص، وايمانهما باللّه تعالى، ولو لم يكن لهما إلا هذين الموقفين لكفياهما دليلاً وبرهاناً على كونهما مؤمنين موحدين.

---

(١) شرح البخاري للقسطلاني : ج ٢ ص ٢٢٧، المواهب اللدنية : ج ١ ص ٤٨، السيرة الحلبية : ج ١ ص ١٢٥، وللتوسع راجع الغدير : ج ٧ ص ٣٤٥ و٣٤٦، وقد ذكرنا مواقف ابي طالب الايمانية عند البحث عن شخصيته فراجع.

كما ان ذلك يدل ايضاً على أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله نشأ وترعرع ونما في بيتٍ كانت الديانة السائدة فيه هي توحيد اللّه، وعبادته

وحده ورفض الاصنام والاوثان.

إيمان والدي النبي الاكرم :

لقد نقلت عن عبد اللّه والد رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله كلمات وابيـات تدل على ايمانه ومن ذلك ما نقله اهل السـير عنـدما عرضـت فاطمـة الخثعمية نفسها عليه فقال رداً عليها :

أما الحرامُ فالممماتُ دونـه*والحِلّ لا حِلّ فاستبينُه**

يحمي الكريمُ عرضه ودينـه*فكيف بالأمر الذي تبغينـه(١)**

وقد روي عن النبي الاكرم صلّى اللّه عليه وآله انه قال : «لم أزل أُنقـل من أصلاب الطاهرين الى أرحام الطاهرات» ولعل فيه ايعازاً إلى طهـارة آبائه وامهاته من كل دنس وشرك(٢).

واما الوالدة فيكفي في اثبات ايمانها ما رواه الحفاظ عنها عند وفاتها فانهـا (رضي اللّه عنها) خرجت مع النبي صلّى اللّه عليه وآله وهو ابن خمس أو ست سنين ونزلت بالمدينة تزور أخوال جده وهم بنو عـدي بـن النجـار ومعها ام ايمن «بركة» الحبشية، فاقامت عندهم، وكان الرسول بعد الهجرة يذكر اموراً حدثت في مقامه ويقول : «ان أُمي نزلت في تلك الدار، وكان قوم من اليهود يختلفون وينظرون إلي فنظر الي رجل من اليهود فقال : يا غلام ما اسمك ؟ فقلت : أحمد، فنظر الى ظهري، وسمعته يقول: هذا نبي

هذه الأمة، ثم راح الى اخوانه فاخبرهم فخافت أمي علي فخرجنا مـن المدينة، فلما كانت بالابواء توفيت ودفنت فيها.

وروى ابو نعيم في دلائل النبوة عن اسماء بنت رهم قالت : شهدت آمنة أم النبي صلّى اللّه عليه وآله في علتها التي ماتت بها، ومحمد عليه السـلام غلام يفع

---

(١) السيرة الحلبية : ج ١ ص ٤٦.

(٢) سيرة زيني دحلان بهامش السيرة الحلبية : ج ١ ص ٥٨.

(اي يافع) له خمس سنين عند رأسها فنظرت الى وجهه وخاطبته بقولها :

إن صحّ ما أبصرتُ في المنام*فانت مبعوثٌ الى الانام**

فاللّه انهاك عن الاصنام*ان لا تواليها مع الاقوام**

ثم قالت : كل حي ميت وكل جديد بال، وكل كبير يفنى، وانا ميتة وذكري باق وولدتُ طهراً.

وقال الزرقاني في شرح المواهب نقلاً عن جلال الدين السيوطي تعليقاً على قولها : وهذا القول منها صريح في انها كانت موحدة اذ ذكرت دين ابراهيم عليه السلام، وبشرت ابنها بالاسلام من عند اللّه، وهل التوحيد شيء غير هذا، فان التوحيد هو الاعتراف باللّه وانه لا شريك له، والبراءة من عبادة الاصنام(١).

ونلفت نظر القارئ الكريم هنا إلى ما قاله المرحوم الشيخ المفيد في كتابه «اوائل المقالات» في هذا الصدد :

اتفقت الإمامية على أن آباء رسول اللّه من لدن آدم إلى عبد اللّه بن عبد المطلب مؤمنون باللّه عز
وجلّ موحدون له، واحتجوا في ذلك بالقرآن والاخبار قال اللّه عز وجلّ : «الذي يراك حين تقوم وتقلبك في الساجدين»(٢).

ثم إن هنا سؤالين هما :

١ - هل كان صلّى اللّه عليه وآله قبل البعثة موحداً ؟

٢ - بِماذا وبأي دين كان يتعبد صلّى اللّه عليه وآله قبل البعثة ؟

واليك الحديث في هاتين الجهتين :

ايمان النبي باللّه وتوحيده قبل البعثة :

إن الدلائل التاريخية - بالاضافة إلى البراهين العقلية والكلامية - تدل على انه - صلّى اللّه عليه وآله - كان قبل ان يبعثه اللّه بالإسلام، مؤمناً باللّه، موحداً إياه، لم يعبد وثناً قط، ولم يسجد لصنمٍ أبداً، وان ذلك من المسلمات.

---

(١) الاتحاف للشبراوي : ص ١٤٤ سيرة زيني دحلان بهامش السيرة الحلبية : ج ١ ص ٥٧.

(٢) اوائل المقالات : ص ١٢ و١٣.

وهذا الامر وان كان أمراً مسلّماً وواضحاً كوضوح الشمس إلا اننا نذكـر بعض ما جاء في التاريخ الثابت الصحيح ليقترن ذلك الاتفاق بأصح الدلائل التاريخية :

اما بغضه للأصنام وتجنبه للاوثان وما يكون من هذا القبيل فإليك بعض ما ذكره التاريخ الصحيح في هذا المجال :

١ - جاء في حديثٍ طويلٍ : ان النبي صلّى اللّه عليه وآله لما تم له ثلاث سنين قال يوماً لوالدته (لمرضعته) حليمة السعدية : مالي لا أرى أخـوي

بالنهار، قالت له : يا بني انّهما يرعيان غُنيمات.

قال : فما لي لا أخرج معهما، قالت له : أتحب ذلك ؟ قال : نعـم، فلمـا أصبح محمد دهنتُه (تقول حليمة) وكحلته وعلّقتُ في عنقه خيطاً فيه حِرزٌ يماني، فنزعه ثم قال لأُمه :

«مهلاً يا اماه فإن معي من يحفظي»(١).

٢ - روي ان «بحيرا» الراهب قال للنبي صلّى اللّه عليه وآله في سـفرته الاولى مع عمه أبي طالب الى الشام : يا غلام اسألك بحق اللات والعزى الا أخبرتني عما اسألك، فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله :

«لا تسألِني باللات والعزى فواللّه ما ابغضتُ شيئاً بغضهما» قال الراهب : باللّه الا أخبرتني عما أسألك عنه، قال صلّى اللّه عليه وآله : سلني عما بدا لك(٢).

٣ - روي أنه قد وقع بين النبي صلّى اللّه عليه وآله وبين رجل تلاح فـي سفرته الثانية الى الشام للتجارة بأموال خديجة مع غلامها «ميسرة» بعد أن باع صلّى اللّه عليه وآله سلعته، فقال له الرجل : إحلِف باللات والعـزى، فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله :

---

(١) المنتقى، الباب الثاني من القسم الثاني - للكازروني كما في البحار : ج ١٥، ص ٣٩٢.

(٢) الطبقات الكبرى : ج ١ ص ١٥٤، السيرة النبوية : ج ١ ص ١٨٢.

«ما حلفتُ بهما قط، وإنّي لأمر فأُعرض عنهما».

وفي رواية أُخرى :

«إليك عني ثكلتك امك فما تكلمت العرب بكلمة اثقل علي من هذه الكلمة».

فقال الرجل : القولُ قولك. ثم قال لميسرة : هذا واللّه نبي(١).

واما عبادته للّه تعالى فقد أجمع المؤرخون على أنه صلّى اللّه عليه وآلـه كان يخلو بحراء كل عام أشهراً يعبد فيه اللّه تعالى.

وقد قال الامام أمير المؤمنين علي بن ابي طالب عليه السـلام فـي هـذا المجال :

«ولقد كان يجاور في كل سنة بحراء، فأراه ولا يراه غيري»(٢).

حتى أن جبرئيل وافاه بالرسالة في ذلك المكان، وفي تلك الحال.

وقد صرح بهذا أصحاب الصحاح الستة أيضاً اذ قالوا :

«وكان يخلو بحراء فيتحنّثُ فيه، وهو التعبد في الليالي ذوات العدد»(٣).

كما ان الإمام امير المؤمنين عليه السلام وصف هذا المقطع من حياة النبي صلّى اللّه عليه وآله بقوله:

«ولقد قرن اللّه به صلّى اللّه عليه وآله من لدن أن كان فطيماً أعظم ملـك من ملائكته يسلك به طريق المكارم، ومحاسن أخلاق العالم، ليله ونهاره»(٤).

وجاء في الأخبار ان رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله حج قبل البعثة حجات عديدة وكان يأتي بمناسكها على وجه صحيح بعيداً عن أعين قريش.

قال الإمام الصادقُ عليه السلام : في حديث ابن أبي يعفور :

«حج رسولُ اللّه صلّى اللّه عليه وآله عشر حجات مستتراً في كُلها»(٥).

وفي رواية : عشرين حجة(٦).

---

(١) الطبقات الكبرى : ج ١ ص ١٥٦، بحار الأنوار : ج ١٦، ص ١٨.

(٢) نهج البلاغة : قسم الخطب، الخطبة ١٩٢.

(٣) صحيح البخاري : ج ١ ص ٢، صحيح مسلم باب الايمان، مسند أحمد : ج ٦، الحديث ٢٣٣.

(٤) نهج البلاغة : قسم الخطب الخطبة رقم ١٩٢.

(٥) و(٦) وسائل الشيعة : ج ٨، ص ٨٨ أبواب وجوب الحج.

والسبب في هذا الاستتار هو أن قريشاً كانت قد اسقطت بعـض مناسـك الحج، والعمرة، فكانت تؤدي الحج بصورة غير صحيحة وربمـا غـيرت أشهر الحج احياناً لبعض الاعتبارات السياسية والمادية، وهو مـا سـمي بالنسيء وقد مر بيانه(١).

ان هذه الوقائع وغيرها - وهي ليست بقليلة اصدق دليل على إيمانه صلّى اللّه عليه وآله، وتوحيده، اذ كيف يمكن أن يتنكب مثل هذه الشخصية التي نشأت وترعرعت في ذلك البيت الطاهر، وقرن اللّه به ملكاً يتولاه بالتربية والهداية عن جادة التوحيد.

ثم أن مما لا ريب فيه أن الرسول الخاتم صلّى اللّه عليه وآله هو أفضـل من جميع الأنبياء والمرسلين بنص القرآن الكريم.

وقد صرح القرآن بان بعض الانبياء بلغوا درجة النبوة فـي الصغـر، أو الصبا، ونزلت عليهم الكتب في تلك الفترات.

فمثلاً يقول القرآن الكريم عن يحيى بن زكريا : «يا يحيى خُذ الكِتاب بقوة وآتيناه الحكم صبِياً»(٢).

ثم يقول عن «عيسى بن مريم» عندما كان في المهد وكان وجوه القوم من بني اسرائيل قد استنكروا ولادته من غير أب، وطلبوا من «مريم البتول» ان توضح لهم الامر، وتبين لهم كيف حملت بعيسـى ؟!! فأشـارت الـى المسيح عليه السلام أن كلموه وهو آنذاك في المهد لم يمض على ولادتـه سوى أيام معدودات، فنطق المسيح بفصاحة كبيرة وقال :

(إنّي عبد اللّه آتاني الكِتاب وجعلِني نبياً. وجعلِني مباركاً أيـن مـا كُنـتُ وأوصاني بالصلاة والزكاةِ ما دمتُ حياً)(٣).

لقد بين وليد «مريم» للناس أُصول دينه وفُروعـه فـي فـترة الطفولـة والرضاعة، وأعلن لهم عن توحيده وايمانه باللّه سبحانه.

---

(١) راجع الصفحة ٨٣ و٨٤ من هذا الكتاب.

(٢) مريم : ١٢.

(٣) مريم : ٣٠ و٣١.

فهل يرضى ضميرك أيها القارئ الكريم أن يكون «يحـيى» و«المسيـح» عليهما السلام مؤمنين معلنين عن توحيدهما، وإيمانهما منـذ طفولتهمـا، وصباهما، ويكون أفضل الأنبياء والمرسلين، وأشرف الخلق أجمعين إلـى سِن الأربعين على غير إيمان، وتوحيد، مع أنه صلّى اللّه عليه وآله كـان مشتغلاً بالتعبد في جبل «حراء» عند نزول ملاك الوحي عليه لأول مرة ؟

واليك بعض ما قاله المؤرخون، والعلماء في هذا المجال اسـتكمالاً لهـذا المبحث :

قال ابن هشام : كان رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله يجاور ذلك الشهر من كل سنة يطعم من جاءه من المساكين فاذا قضى رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله جواره من شهره ذلك كان أول ما يبدأ به اذا انصرف مـن جـواره الكعبة، قبل أن يدخل بيته، فيطوفُ به سبعاً أو ما شاء اللّه من ذلـك، ثـم يرجع الى بيته حتى اذا كان الشهر الذي أراد اللّه تعالى به فيه ما أراد من كرامته من السنة التي بعثه اللّه تعالى فيها، وذلك الشهر شـهر رمضـان، خرج رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله الى «حراء» كما كان يخرج لجواره

ومعه اهله حتى اذا كانت الليلة التي اكرمه اللّه فيها برسـالته ورحـم العباد بها جاءه جبرئيل عليه السلام بامر اللّه تعالى(١).

وقال العلامة المجلسي : قد ورد أخبار كثيرة انه صلّى اللّه عليه وآله كان يطوف، وانه كان يعبد اللّه في حراء، وانه كان يراعي الآداب المنقولة من التسمية والتحميد عند الاكل وغيره، وكيف يجوز ذو مسكة من العقل على اللّه تعالى ان يهمل افضل انبيائه اربعين سنة بغير عبادة ؟ والمكابرة فـي ذلك سفسطة(٢).

فايمان النبي صلّى اللّه عليه وآله وسلّم، وتوحيده قبل البعثـة، اذن، أمـرٌ مسلّمٌ لا شبهة فيه، ولا غبار عليه.

ولكن بعض الكُتاب من المسيحيين ومن تبعهم، من المستشرقين وغـيرهم، أبوا إلا أن ينتقصوا النبي الاكرم صلّى اللّه عليه وآله فادعوا ضلالـه قبـل البعثة ،

---

(١) السيرة النبوية : ج ١ ص ٢٣٦.

(٢) بحار الأنوار : ج ١٨، ص : ٢٨.

وإنه كان على غير إيمان، أو توحيد، واستدلّوا لزعمهم الباطل هذا بما توهموا أنه يدلّ على دعواهم من الآيات القرآنية، وأبرزها الآيات التالية :

١ - (ألم يجدك يتيماً فآوى. ووجدك ضالاً فهدى)(١).

٢ - (وثيابك فطهر. والرجز فاهجر)(٢).

٣ - (وكذلِك أوحينا إليك روحاً مِن أمرنا ما كُنتَ تدري مـا الكِتـاب ولا الإيمان ولكِن جعلناه نُوراً نهدي بِهِ من نشاء مِن عِبادنا وإنّك لتهدي إلـى صِراط مستقيم)(٣).

٤ - (قُل لو شاء اللّه ما تلوتُه عليكُم ولا أدريكُم بِهِ فقد لِبثتُ فِيكُم عمراً مِن قبله أفلا تعقِلُون)(٤).

٥ - (وما كُنت ترجو أن يلقى إليك الكِتاب إلا رحمة مِن ربك)(٥).

لقد استدل المستشرقون ومن لفّ لفهم ومن سبقهم او لحقهم من المخطّئـة بهذه الآيات على ضلال النبي صلّى اللّه عليه وآله قبـل البعثـة، وسـلب الايمان عنه، ولكنها لا تدل على ما يريدون، ولاجل تسليط الضوء علـى مقاصدهم نبحث عنها واحدة واحدة.

الآيةُ الأولى : الهداية بعد الضلالة

ذكر المفسرون لقوله تعالى : (ووجدك ضالاً فهدى) الذي يشعـر بهدايـة النبي صلّى اللّه عليه وآله بعد الضلالة احتمالات عديـدة، فـي معـرض الاجابة على استدلال من استدل به لاثبات ضلال النبي صلّى اللّـه عليـه وآله قبل البعثة ولكن الحق ان يقال : أن الضال يستعمل في عرف اللغـة في موارد :

١ - الضالّ : من الضلالة ضد الهداية والرشاد.

٢ - الضالّ : من ضلّ البعير اذا لم يعرف مكانه.

---

(١) الضحى : ٦ و٧.

(٢) المدّثر : ٤ و٥.

(٣) الشورى : ٥٢.

(٤) يونس : ١٦.

(٥) القصص : ٨٦.

٣ - الضالّ : من ضلّ الشيء اذا ضؤل وخفي ذكره.

وتفسير الآية بأي واحدة من هذه المعاني لا يثبت ما يدعيه الذين يتمسكون بها لاثبات ضلال النبي صلّى اللّه عليه وآله قبل البعثة.

أما المعنى الأول فهو المقصود في كثير من الآيات قال سـبحانه : (غيـر المغضوب عليهم ولا الضالّين)(١).

لكن الضلالة على نوعين :

النوع الأول ما تكون الضلالة فيه أمراً وجودياً في النفس يوجـب ظلمـة النفس ومنقصتها، مثل الكفر والشرك والنفاق، والضلالة بهذا المعنى قابلة للزيادة والنقصان قال سبحانه : (إنّما النسِيء زيادةٌ في الكُفر)(٢).

النوع الثاني ما تكون الضلالة فيه أمراً عدمياً، وذلك عندما تكون النفـس فاقدة للرشاد، وعندئذ يكون الإنسان ضالاً بمعنى أنه غير واجدٍ للهداية من عند نفسه، وذلك كالطفل الذي أشرف على التمييز وكاد أن يعرف الخيـر والشر، ويميز بين الصلاح والفساد فهو آنذاك ضال بمعنى أنه غير واجـد للنور الذي يهتدي به في سبل الحياة لا بمعنى كينونة ظلمة الكفر والفسـق في نفسه وروحه.

والمراد من الضالّ في قوله تعالى (ووجدك ضالاً فهدى) لو كـان مـا يضادد الهداية فهو يهدف الى النوع الثاني، فيكون المعنى انك فـي ابـان عمرك كنت غير واجدٍ للهداية من عند نفسك فهداك اللّه إلى اسباب السعادة وعرفك عوامل الشقاء، وهو اشارة إلى قانون الهي عام في حيـاة البشـر انبياء وانـاساً عاديين، وهو ان هداية كل إنسان بل كل ممكن مكتسبة مـن اللّه قال سبحانه : (قال ربنا الّذي أعطى كُل شيء خلقَه ثم هدى)(٣).

وعلى هذا الاساس فالآية تهدف إلى ذكر النعم التي انعم اللّه بها على نبيه الحبيب منذ ان استعد لها فآواه بعد ما صار يتيماً، وأفاض عليه الهداية بعد ما كان

---

(١) الفاتحة : ٧.

(٢) التوبة : ٣٧.

(٣) طه : ٥٠، وراجع الآيات : ٢ و٣ من سورة الأعلى و٤٣ من سورة الأعراف و ٧٨ من سورة الشعراء وغيرها.

فاقداً لها بحسب ذاته، وبحكم طبيعته، ويعود زمن هذه العناية الربانية بنبيه إلى مطلع حياته، واوليات عمره وايام صباه بقرينة ذكر ذلك بعد الايـواء الذي تحقق باليتم، وتم بجده عبد المطلب فوقع في كفالته إلى ثمانية سنين، ويؤيد ذلك قولُ امام المتقين علي بن ابي طالب عليه السلام : «ولقد قـرن اللّه به صلّى اللّه عليه وآله من لدن أن كان فطيماً أعظم ملكٍ من ملائكتـه يسلك به طريق المكارم، ومحاسن أخلاق العالم ليله ونهاره»(١).

وصفوة القول أن المراد بكونه ضالاً هو أن لازم كون النبي ممكناً بالذات هو كونه فاقداً في ذاته لكل كمال وجمال، مفاضاً عليه كل جميل من جانب اللّه تعالى وهذا هو اشارة إلى مقتضى التوحيد الافعالي وايـن هـذا مـن الضلالة المساوقة للكفر أو الشرك أو الفسق والعصيان ؟!

ثم ان من المحتمل ان تكون الضلالة في الآية مأخوذة من «ضلّ الشيء اذا لم يعرف مكانه» وفي الحديث «الحكمة ضالّة المـؤمن» أي مفقودتـه، لا ضد الهداية والرشاد، فيكون الضالّ بهذا المعنى منطبقاً على ما نقله أهـلُ السير والتواريخ عن ما جرى للنبي صلّى اللّه عليه وآله في ايام صباه يوم ضلّ في شعاب مكة، وهو صغير فمن اللّه عليه اذ رده الى جده، وقصتـه معروفة في كتب السير والتاريخ(٢) ولولا رحمة اللّـه سـبحانه لادركـه الهلاك ومات عطشاً أو جوعاً فشملته العناية الالهية.

أو أن تكون الضلالة في الآية مأخوذة من «ضلّ الشيء اذا خفي وغاب عن الأعين» فالانسان الضال هو الإنسان المخفي ذكره، المنسي اسـمه لا يعرفه إلا القليل من الناس، ولا يهتدي كثير منهم إليه.

ولو كان هذا هو المقصود، كان معناه حينئذٍ انه سبحانه رفع ذكره، وعرفه

---

(١) نهج البلاغة : من الخطبة ١٧٨ والمسمّاة بالقاصعة ص ١٨٢.

(٢) لاحظ السيرة الحلبية : ج ١ ص ١٣١ وغيره، وفي هذه القصة يروي عن حيدة بن معاوية العامري سمعت شيخاً يطوف بالبيت وهو يقول :

يا ربّ ردّ راكبي محمّداً*أردده ربّي واصطنع عندي يدا**

للناس بعدما كان خاملاً ذكره منسياً اسمه.

ويؤيد هذا الاحتمال قوله سبحانه في سورة الانشراح التي نزلت لتحليل ما ورد في سورة الضحى قائلاً :

(ألم نشرح لك صدرك. ووضعنا عنك وزرك. الذي أنقض ظهرك. ورفعنا لك ذِكرك)(١).

فرفع ذِكره في العالم عبارة عن هداية الناس اليه، ورفع الحواجـز بينـه وبينهم.

وعلى هذا فالمقصود من «الهداية» هو هداية الناس اليـه لا هدايتـه بعـد ضلال، فكأنه قال : فوجدك ضالاً، أي خاملاً ذكرك، باهتاً اسمك، فهـدى الناس اليك، وسير ذكرك في البلاد.

والى ذلك يشير الإمام الرضا عليه السلام على ما في خـبر ابـن الجهـم بقوله : «قال اللّه عز وجلّ لنبيه محمد صلّى اللّه عليه وآله : (ألم يجـدك يتيماً فآوى) يقول : «ألم يجدك» وحيداً فآوى إليك الناس «ووجدك ضالاً» يعني عند قومك «فهدى» أي هداهم إلى معرفتِك»(٢). قال الاستاذ الشيـخ محمد عبده في هذا المجال :

لقد بغضت إليه (أي الى رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله) الوثنيةُ من مبـدأ عمره فعاجلته طهارةُ العقيدة، كما بادره حسن الخليقة، وما جاء في الكتاب من قوله : «ووجدك ضالاً فهدى» لا يفهم منه أنه كان على وثنيـةٍ قبـل الاهتداء إلى التوحيد، أو على غير السبيل القويم، قبل الخلق العظيم حـاش للّه، إن ذلك لهو الإفك المبين(٣).

الآية الثانية : الامر بهجر الرجز

استدلّوا بقول اللّه تعالى «والرجز فاهجر» على وجود ارضية لعبادة الصنم

---

(١) الإنشراح : ١ - ٤.

(٢) بحار الأنوار : ج ١٦ ص ١٤٢.

(٣) رسالة التوحيد للشيخ محمّد عبده : ص ١٣٥ و١٣٦.

والوثن في شخصية رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله وذلك بتفسير الرجـز بالصنم، والوثن، ويتضح بطلان هذا الادعاء والاسـتنباط اذا أمعنـا فـي معاني واستعمالات هذه اللفظة في الكتاب العزيز.

ان الرجز استعمل في القرآن الكريم في معان ثلاثة : العـذاب، القـذارة، الصنم.

وقد استعمل الرجز (بكسر الراء) في تسع موارد في القرآن الكريم، وقـد أريد منه في جميعها العذاب إلا في مورد واحد : وهـي : البقـرة - ٥٩، والاعراف ١٣٤ (وجاءت اللفظة فيها مرتين) و١٣٥ و١٦٢ والانفـال - ١١ وسبأ - ٥ والجاثية - ١١ والعنكبوت - ٣٤.

وجاء الرجز - بضم الراء - مرة واحدة وهي الآية التي نحن بصددها هنا (١).

وهذه الآية لا تدل على ما ذهب إليه الذين يزعمون بان رسول اللّه صـلّى اللّه عليه وآله كان على غير التوحيد قبل البعثة.

واليك بيان هذا الموضوع مفصلاً :

١ - ان الرجز لو كان بمعنى «العذاب» دلّت الآية على هجر ما يستلـزم العذاب، فيكون الخطاب حينئذٍ مسوقاً من باب التعليم، ومن بـاب «ايـاك أعني واسمعي يا جارة»، فيكون ظاهر الأمر هو مخاطبة النبي صلّى اللّه عليه وآله ونهيه عما يستلزم العذاب، وارادة تعليم الأُمة مثـل قـول اللّـه تعالى في خطابه للنبي «فلا تكونن ظهيراً للكافرين»(٢). وقوله تعـالى : «لئن أشركت ليحبطن عملُك»(٣) فكما لا تدلّ الآية على وجـود أرضـية الشرك في شخصية النبي صلّى اللّه عليه وآله، كذلك لا تدل الآيـة علـى وجود أرضية التعرض للعذاب في شخصية رسول اللّه صلّى اللّـه عليـه وآله.

٢ - إن الرجز لو كان بمعنى (القذارة) وهي تنقسم الى ماديـة ومعنويـة فيحتمل ان يكون المراد بناء على المعنى الأول اشارة إلى مـا ورد فـي الروايات من

---

(١) المدّثر:٥.

(٢) القصص : ٨٦.

(٣) الزمر : ٦٥.

أن ابا جهل جاء بشيء قذر، وأمر رجلاً من قريش بالقائه علـى النـبي، ففعل، فأمر اللّه نبيه بتطهير ثوبه من الدنس.

ويحتمل ان تكون الآية دعوة إلى اجتناب الصفات الذميمة بناء علـى ارادة المعنى الثاني للفظة الرجز فتكون الآية تعليماً للناس على النمط السابق، فلا تدل على اتصاف النبي الاكرم صلّى اللّه عليه وآله بها.

٣ - الرجز بمعنى الصنم، لنفترض أن المقصود منه في الآية هو الصنم، لكن لا بمعنى أنه وضع لذاك المعنى، وإنّما وضع اللفظُ لمعنى جامع يعـم الصنم والخمر والازلام لاشتراك الجميع في كونها رجزاً، ولأجـل ذلـك وصِف الجميع في مورد آخر بالرجس فقال تعالى : (إنّما الخمر والميسـر والأنصاب والأزلام رجس مِن عمل الشّيطان فاجتنِبوه)(١).

ولكن يجاب عن هذا أيضاً بأن النبي يوم نزلت الآية لم يكن عابداً للوثن بل كان مشمراً عن ساعد الجد لتحطيم الاصنام ومكافحة عبدتها، فلا يصح أن يخاطب من هذا شأنّه بهجر الاصنام إلا على السبيل الذي أشرنا اليه، وهو توجيه الخطاب إلى النبي وإرادة الأُمة به لكون هذا النوع من الخطاب أبلغ في التأثير، لأنه سبحانه اذا خاطب أعز الناس اليه بهذا الخطـاب فغـيره

أولى به.

الآية الثالثة : عدم علمه بالكتاب والايمان

قوله سبحانه : (وكذلِك أوحينا إليك روحاً مِن أمرنا ما كُنـت تـدري مـا الكِتاب ولا الإيمان ولكِن جعلناه نُوراً نهدي بِه من نشاء مِن عبادِنا وإنّـك لتهدِي إلى صِراط مستقيمٍ)(٢).

زعم جماعة دلالة هذه الآية - والعياذ باللّه - على أن النبي صـلّى اللّـه عليه وآله كان فاقداً للايمان قبل الايحاء اليه.

لكن حياته الشريفة المشرقة بالإيمان، والتوحيد، تفنّد تلك المقالة، فالتاريخ

---

(١) المائدة : ٩٠.

(٢) الشورى : ٥٢.

يشهد على انه صلّى اللّه عليه وآله كان منذ بداية عمره إلى أن لاقى ربـه مؤمناً موحداً وذلك امر لا شك فيه، ولا شبهة تعتريه، وقد اجمع على ذلك أهلُ السير والتاريخ، وحتى أن الاحبار والرهبان كانوا معترفين بانه نبـي

هذا الأمة، وخاتم النبيين، وكان يسمع تلك الشهادات منهم في فـترات خاصة في «مكة» و«يثرب» و«بصرى» و«الشام»(١) وغيرهـا، فكيـف والحال هذه يمكن ان يكون غافلاً عن الكتاب الذي ينزل اليـه، أو يكـون مجانباً للإيمان بوجوده سبحانه، وتوحيده، والتاريخ المسلم الصحيح يؤكّـد على عدم صدق ذلك الاستظهار من الآية الحاضرة.

فلا بد إذن من الإمعان في مفاد الآية كما لا بد - فـي تفسيرهـا - مـن الاستعانة بالآيات الواردة في ذلك المساق.

بعث النبي الاكرم صلّى اللّه عليه وآله لهداية قومه أولاً، وهدايـة جميـع الناس ثانياً، بالآيات والبينات، ونخص بالـذكر منهـا : القـرآن الكريـم (معجزته الكبرى الخالدة) الذي بفصاحته أخرس فرسان الفصاحة، وقـادة الخطابة، وببلاغته قهر ارباب البلاغة وملوك البيان، وخلب عقولهم، وقـد دعاهم الى التحدي والمقابلة، فلم يكن الجواب منهم إلا اثارة الشكوك والتهم حوله، وحول ما جاء به، وعدم المعارضة بمثل القرآن قط.

فتارة قالوا : بانه يعلّمه بشر، وأُخرى بأنه إفك افتراه، واعانه عليـه قـوم آخرون وثالثة : بأنه أساطير الاولين، قد اكتتبها فهي تُمـلـى عليـه بكـرة وأصيلاً، قال سبحانه رداً على هذه التهم التي أشرنا إليها : (قُل نزلَه روح القُدس مِن ربك بِالحق لِيثَبت الّذين آمنُوا وهدى وبشرى لِلمسلِميـن. ولقـد نعلم أنهم يقُولُون إنّما يعلمه بشر لسان الّذي يلحِدون إليه أعجمي وهذا لسان عربي مبِين)(٢).

وقال سبحانه : (وقال الّذين كفروا إن هذا إلا إفك افتراه وأعانه عليهِ

---

(١) راجع السيرة النبوية والسيرة الحلبية وبحار الأنوار.

(٢) النحل : ١٠٢ و١٠٣.

قوم آخرون فقد جاؤوا ظُلماً وزوراً. وقالُوا أساطير الأولين اكتتبها فهـي تُملى عليهِ بكرةً وأصيلاً. قُل أنزله الّذي يعلم السر في السماواتِ والأرضِ إنّه كان غفُوراً رحيماً)(١).

والآية المبحوثة بصدد بيان هذا الأمر، وانه وحي سماوي لا افك إفـتراه، ولهذا بدأ كلامه بلفظة : «وكذلك أوحينا إليك» أي كما أنه سبحانه أوحـى إلى سائر الانبياء باحدى الطرق الثلاثة التي بينها في الآية المتقدمة، أوحى إليك أيضاً روحاً من امره، وليس هذا كلامك وصنيعك، بل كـلام ربـك وصنيعه.

هذا مجمل الكلام في الآية ولاجل رفع النقاب عن مرماها نقدم اموراً تسلط الضوء على الآية :

الأول : ان المراد من الروح في الآية هو القرآن وسمي روحاً لانه قـوام

الحياة الأخروية، كما ان الروح في الإنسان قوام الحياة الدنيوية، ويؤيد ذلك امور :

أ - ان محور البحث الأصلي في سورة الشورى هو : الوحـي والآيـات الواردة فيها البالغ عددها (٥٣) آية تبحث عن ذلك المعـنى بالمباشـرة او بغيرها.

ب - الآية التي تقدمت على تلك، تبحث عن الطرق التي يكلم بها سـبحانه انبياءه ويقول : (وما كان لِبشر أن يكلمه اللّه إلا وحياً أو مِن وراء حِجاب أو يرسِل رسولاً فيوحي بإذنهِ ما يشاء إنّه علي حكيم)(٢).

ج - انه سبحانه بدأ كلامه في هذه الآية بلفظة : «وكذلك» أي كما أوحينا إلى من تقدم من الانبياء كذلك أوحينا اليك باحدى تلك الطرق «روحاً مـن أمرنا» ووجه الاشتراك بينه وبين النبيين هو الوحي المتجلـي فـي نبينـا بالقرآن وفي غيره بوجه آخر.

كل ذلك يؤيد ان المراد من الروح في الآية المبحوثة هو القـرآن الملقـى اليه.

نعم وردت في بعض الروايات ان المراد منه هو روح القدس، ولكنـه لا ينطبق على ظاهر الآية، لان الروح بحكم كونه مفعولاً ل: «أوحينا» يجب ان

---

(١) الفرقان : ٤ - ٦.

(٢) الشورى : ٥١.

يكون شيئاً قابلاً للوحي حتى يكون موحى، وروح القدس ليس موحى بـل هو الموحي (بالكسر) فكيف يمكن أن يكون مفعولاً ل: «أوحينا»، ولأجلـه يجب تأويل الروايات إن صحت اسنادها.

الثاني : إن هيئة «ما كنت» أو «ما كان» تُستعمل في نفي الإمكان والشأن قال سبحانه : (وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن اللّه)(١) وقال عز اسمه : (وما كان المؤمنُون لِينفِروا كافّةً)(٢).

وعلى ضوء هذا الاصل يكون مفاد قوله «ما كُنت تدري مـا الكتـاب ولا الايمان» أنه لولا الوحي ما كان من شأنك أن تدري الكتاب ولا الإيمـان، فان وقفت عليهما فانّما هو بفضل الوحي وكرامته.

الثالث : أن ظاهر الآية هو أن النبي الاكرم صلّى اللّه عليه وآله كان فاقداً للعلم بالكتاب، والدراية بالكتاب، وانما حصلت الدراية بهما في ظل الوحي وفضله فيجب إمعان النظر في الدراية التي كان النبي فاقداً لها قبل الوحي وصار واجداً لها بعده، فما تلك الدراية وذاك العلم ؟

فهل المراد هو العلم بنزول الكتاب اليه اجمالاً والايمان بوجوده وتوحيـده سبحانه، او المراد العلم بتفاصيل ما في الكتاب، والاذعان بها كذلك ؟

لا شك انه لا سبيل الى الأول لأن علمه - اجمالاً - بانه ينزل إليه الكتاب، أو ايمانه بوجود اللّه سبحانه كانا حاصلين قبل نزول الوحي اليه، ولم يكن العلم بهما مما يتوقف على الوحي، فان الأحبار والرهبان كانوا واقفين على نبوته ورسالته ونزول الكتاب اليه في المستقبل إجمالاً، وقد سـمع منهـم النبي صلّى اللّه عليه وآله في فترات مختلفة : أنه النبي الموعود في الكتب السماوية، وانه خاتم الرسالات والشرائع، فهل يصح أن يقـال أن علمـه صلّى اللّه عليه وآله بنزول كتاب عليه إجمالاً كان بعد بعثته وبعد نـزول الوحي، أو انه كان متقدماً عليه وعلى بعثته، ومثلُه الإيمان باللّه سـبحانه، وتوحيده، اذ لم يكن الإيمان باللّه امراً

---

(١) آل عمران : ١٤٥.

(٢) التوبة : ١٢٢.

مشكلاً متوقفاً على الوحي، وقد كان الاحناف في الجزيرة العربيـة ومـن جملتهم رجال البيت الهاشمي موحدين مؤمنين مع عدم نزول الوحي اليهم.

فيتعين الاحتمال الثاني وهو أن العلم التفصيلي بمضامين الكتاب ومـا فيه من الاصول والتعاليم ثم الايمان والاذعان بتلك التفاصيل كانا متوقفين على نزول الوحي، ولولاه لما كان هناك علم بها، ولا ايمان.

وبعبارة أُخرى : إن العلم والإيمان بالامور السمعية التي لا سـبيل للعقـل إليها - مثل المعارف والاحكام والقصص ومجادلات الانبياء مع المشركين والكفار، وما نزل بساحة أعدائهم من إهلاك وتدمير، لا يحصلان إلا مـن طريق الوحي حتى قصص الامم السالفة وحكاياتهم لتطرق الوضع والدس الى كتب القصاصين، والصحف السماوية النازلة قبل القرآن.

* * *

تفسير الآية بآية أُخرى :

إن الرجوع إلى ما ورد في هذا المضمار من الآيات يوضح المـراد مـن عدم درايته بالكتاب أولاً، والإيمان ثانياً.

أما الأول : فيقول سبحانه : (تِلك مِن أنباء الغيب نُوحيها إليك مـا كُنـت تعلمها أنت ولا قومك مِن قبل هذا فاصبِر إن العاقِبةَ لِلمتقيـن)(١) فالآيـة صريحة في أن النبي صلّى اللّه عليه وآله لم يكن عالماً بتفاصيل الأنبـاء، وقد وقف عليها من جانب الوحي، فعبر عن عدم وقوفه عليها في هذه الآية بقوله : «ما كُنتَ تعلُمها انت ولا قومك» وفي تلك الآية بقوله : «ما كُنـتَ تدري ما الكِتاب» والفرق هو ان «الكتاب» أعم من «أنباء الغيب» والأول يشتمل على الانباء وغيرها، وأما «الانباء» فانها مختصة بالقصص، والكل

مشتركان في عدم العلم بهما قبل الوحي والعلم بهما بعده.

---

(١) هود : ٤٩.

واما الثاني فقوله سبحانه : (آمن الرسولُ بما أُنزل إليهِ مِن ربه والمومنُون كل آمن باللّه وملائكتِه ورسلِه لا نفرق بين أحدٍ من رسلِه وقـالُوا سـمِعنا وأطعنا غُفرانك ربنا وإليك المصير)(١) فقوله : «آمن الرسولُ بِما أُنـزل إليه» صريح في أن متعلّق الإيمان الحاصل بعد الوحي، هو الإيمان «بمـا أُنزل إليه» أعني تفاصيل الكتاب في المجالات المختلفة، لا الإيمان باللّـه وتوحيده وعندئذ يرتفع الابهام في الآية التي تمسكت بها المخطئـة ومـن ينسبون عدم الإيمان باللّه وتوحيده إلى النبي قبل البعثة، ويتبين أن متعلـق الإيمان المنفي في قوله : «ولا الإيمان» هو «ما أُنزل». لا الايمان بالمبدأ وتوحيده.

والحاصل إن هنا شيئاً واحداً هو : «الايمان بمـا أُنـزل مـن المعـارف والاحكام والانباء» فقد نفي عنه في الآية المبحوث عنها لكونها ناظرةً الى فترة ما قبل البعثة، واثبت له في الآية الأُخرى لكونها ناظرة إلى ما بعـد البعثة.

قال الطبرسي : «ما كُنت تدري ما الكتاب» ما القرآن ولا الشرائع ومعالم

الايمان(٢).

وقال الفخر الرازي : المراد من الايمان هو الاقرار بجميع ما كلّف اللّـه تعالى به، وانه قيل النبوة ما كان عارفاً بجميع تكاليف اللّه تعالى بل انـه عارفاً باللّه... ثم قال : صفات اللّه تعالى على قسمين : منها مـا تمكـن معرفته بمحض دلائل العقل، ومنها مـا لا تمكـن معرفتـه الا بالدلائـل السمعية، فهذا القسم الثاني لم تكن معرفته حاصلة قبل النبوة(٣).

وقال العلامة الطباطبائي في الميزان : ان الآية مسوقة لبيان ان ما عنـده صلّى اللّه عليه وآله الذي يدعو إليه انما هو من عند اللّه سبحانه لا من قِبل نفسه، وإنما أُوتي ما أُوتي من ذلك بالوحي بعد النبوة، فالمراد بعدم درايته بالكتاب هو عدم علمه بما فيه من تفاصيل المعارف الاعتقادية والشرائـع العملية، فان ذلك هو الذي أُوتي العلم به بعد النبوة والوحي، والمراد مـن عدم درايته الإيمان عدم تلبسه

---

(١) البقرة : ٢٨٥.

(٢) مجمع البيان : ج ٣ ص ٨٨ و٨٩.

(٣) مفاتيح الغيب : ج ٧ ص ٤١٠.

بالالتزام التفصيلي بالعقائد الحقة والأعمال الصالحة، وقد سمي العمـل ايماناً في قوله تعالى : (وما كان اللّه لِيضيع إيمانَكُم)(١) والمراد الصلوات التي اتى بها المؤمنون إلى بيت المقدس قبل النسخ وتحويل القبلة، والمعنى ما كان عندك قبل وحي الروح علم الكتاب بما فيه من المعارف والشرائع ولا كنت متلبساً به بما انت متلبس به بعد الوحي من الالـتزام التفصيلـي والاعتقادي وهذا لا ينافي كونه مؤمناً باللّه، موحداً قبل البعثة صالحاً فـي عمله، فان الذي تنفيه الآية هو العلم بتفاصيل ما في الكتاب والالتزام بهـا اعتقاداً وعملاً، لا نفي العلم والالتزام الاجماليين بالايمان باللّه، والخضوع للحق(٢).

الآية الرابعة : عدم رجائه إلقاء الكتاب اليه

قال تعالى : (وما كُنتَ ترجو أن يلقى إليك الكِتاب إلا رحمةً مِن ربك فـلا تكُونن ظهيراً لِلكافِرين)(٣).

استدلّوا بأن ظاهر الآية نفي علمه بالقاء الكتاب إليه، فلم يكن النبي راجيـاً لذلك واقفاً عليه.

أقول : ان توضيح مفاد هذه الآية يتوقف على إمعان النظر فـي الجملـة الاستثنائية اعني قوله : «الا رحمة مِن ربك» حتى يتضح المقصود، وقـد ذكر المفسرون في توضيحها وجوها ثلاثة نأتي بها :

١ - إن «إلا» استدراكية، وليست استثنائية فهي بمعنى «لكن» لاسـتدراك

ما بقي من المقصود، وحاصل معنى الآية : «ما كنت يا محمد ترجـو فيما مضى أن يوحي اللّه إليك ويشرفك بإنزال القرآن عليك، إلا أن ربـك رحمك، وانعم به عليك واراد بك الخير» نظير قوله سبحانه : (وما كنـت بِجانِب الطور إذ نادينا ولكِن رحمةً مِن ربك)(٤) أي ولكن رحمة من ربك خصصك به وهذا هو المنقول

---

(١) البقرة : ١٤٣.

(٢) الميزان : ج ١٨ ص ٨٠.

(٣) القصص : ٨٦.

(٤) القصص : ٤٦.

عن الفراء(١).

وعلى هذا لم يكن للنبي صلّى اللّه عليه وآله أي رجاء لالقاء الكتاب إليـه، وانما فاجأه الالقاء لأجل رحمة ربه.

ولكن لا يصار إلى هذا الوجه إلا اذا امتنع كون الاستثناء متصـلاً لكـون الانقطاع على خلاف الظاهر.

٢ - ان يكون «إلا» للاستثناء لا للاستدراك وهو متصل لا منقطع، ولكن المستثنى منه جملة محذوفة معلومة من سياق الكـلام، وهـو كمـا فـي الكشاف : «وما القى اليك الكتاب إلا رحمة من ربـك»(٢) أي لـم يكـن لالقائه عليك وجه إلا رحمة ربك، وعلى هذا الوجه أيضاً لا يعلم انه كـان للنبي صلّى اللّه عليه وآله رجاء لالقاء الكتاب عليه وان كـان الاسـتثناء متصلاً.

وهذا الوجه بعيد أيضاً لكون المستثنى منه، محذوفاً مفهوماً من الجملة على خلاف الظاهر وانما يصار إليه اذا لم يصح ارجاعه إلـى نفـس الجملـة الواردة في نفس الآية كما سيبين في الوجه الثالث.

٣ - أن يكون «إلا» استثناء من الجملة السابقة عليه اعني قولـه : «ومـا كنت ترجو» ويكون معناه : ما كنت ترجو القـاء الكتـاب عليـك إلا أن يرحمك اللّه برحمة فينعم عليك بذلك، فتكون النتيجة : ما كنت ترجـو إلا على هذا (٣).

فيكون هنا رجاء منفياً، ورجاء مثبتاً، أما الأول فهو رجاؤه بحادثة نـزول الكتاب على نسج رجائه بالحوادث العادية، فلم يكن ذاك الرجاء موجوداً.

واما رجاؤه به عن طريق الرحمة الالهية فكان موجوداً فنفي أحد الرجائين لا يستلزم نفي الآخر، بل المنفي هو الأول، والثابت هو الثاني وهذا الوجه هو الظاهر المتبادر من الآية.

وقد سبق منّا أن جملة «ما كنت» وما اشبهه ، تستعمل في نفي الامكان،

---

(١) مجمع البيان : ج ٤ ص ٢٦٩، مفاتيح الغيب : ج ٦ ص ٤٠٨.

(٢) الكشاف : ج ٢ ص ٤٨٧ و٤٨٨.

(٣) مفاتيح الغيب : ج ٦ ص ٤٩٨.

والشأن، وعلى ذلك يكون معنى الجملة : لم تكن راجيـاً لأن يلقـى اليـك الكتاب، وتكون طرفاً للوحي، والخطاب الا من جهة خاصة، وهي أن تقع في مظلة رحمته وموضع عنايته، فيختارك طرفاً لوحيه، ومخاطباً لكلامه، فالنبي بما هو انسان عادي لم يكن راجياً لأن ينزل اليه الوحي، ويلقى اليه الكتاب، وبما انه صار مشمولاً لرحمته وعنايته، وصار انساناً مثالياً، قابلاً لتحمل المسؤولية، وتربية الأُمة، كان راجياً به، وعلى ذلك فالنفي والاثبات غير واردين على موضع واحد.

وبهذا خرجنا بفضل هذا البحث الضافي أنه صلّى اللّه عليه وآله كان إنساناً مؤمناً موحداً عابداً للّه ساجداً قائماً بالفرائض العقلية والشرعية مجتنباً عن المحرمات عالماً بالكتاب ومؤمناً به إجمالاً وراجياً لنزوله إليه إلى أن بعث لانقاذ البشرية عن الجهل، وسوقها إلى الكمال.

الآية الخامسة : لو لم يشأ ما تلوته

قال سبحانه : (قُل لو شاء اللّه ما تلوتُه عليكُم ولا ادريكُم بهِ فقد لِبثتُ فِيكُم عمراً مِن قبِله أفلا تعقِلُون)(١)، والآية تؤكد أن النبي صلّى اللّه عليه وآله كان لابثاً في قومه، ولم يكن تالياً لسورة من سور القرآن، أو آية من آياته وليس هذا شيئاً ينكره القائلون بالعصمة، فقد اتفقت كلمتهم على أن النبـي صلّى اللّه عليه وآله وقف على ما وقف عليه من آي الذكر الحكيـم مـن جانب الوحي، ولم يكن قبله عالماً به واين هذا من قول المخطئة من نفـي الايمان منه قبلها.

وان اردت الاسهاب في تفسيرها فلاحظ الآية المتقدمة، فترى فيها اقتراحين للمشركين وقد اجاب القرآن عن أحدهما في الآية المتقدمة وعن الآخر في نفس هذه الآية واليك نصها : (قال الّذين لا يرجون لِقاءنا ائتِ بِقُرآن غير هذا أو بدله قُل ما يكُون لِي أن أُبدلُه مِن تِلقاء نفسي إن أتّبع إلا ما يوحـى الي إني أخافُ إن عصيتُ ربي عذاب يومٍ عظيمٍ)(٢).

---

(١) يونس : ١٦.

(٢) يونس : ١٥.

اقترح المشركون على النبي أحد الأمرين :

١ - الإتيان بقرآن غير هذا مع التحفظ على فصاحته وبلاغته.

٢ - تبديل بعض آياته مما فيه سب لآلهتهـم وتنديـد بعبـادتهم للاوثـان والاصنام.

فأجاب عن الثاني في نفس الآية بان التبديل عصيان للّه، وانه يخافُ مـن مخالفة ربه، ولا محيص له إلا إتباع الوحي من دون أن يزيد فيه او ينقص عنه.

واجاب عن الأول في الآية المبحوث عنها بان ذلك أمر غـير ممكـن لأن القرآن ليس من صنعي وكلامي حتى أذهب به وآتي بآخر، بل هو كـلام اللّه سبحانه وقد تعلقت مشيئته بتلاوتي، ولو لم يشأ لما تلوتـه عليكـم ولا ادراكُم به، والدليل على ذلك أني كنت لابثاً فيكم عمراً من قبل فما تكلمـت بسورة أو بآية من آياته، ولو كان القرآن كلامي لبادرت إلى التكلم به، أيام معاشرتي السابقة معكم في المدة الطويلة، المديدة.

قال العلامة الطباطبائي في تفسير الآية : إن الأمر فيه إلى مشيئة اللّـه لا إلى مشيئتي، فانما أنا رسول ولو شاء اللّه ان ينزل قرآناً غير هذا لأنزل، أو لم يشأ تلاوة هذا القرآن ما تلوتُه عليكم، ولا أدراكم به فاني مكثت عمراً من قبل نزوله، ولو كان ذلك الي وبيدي لبادرتُ اليه قبل ذلك وبدت مـن ذلك آثار ولاحت لوائحه(١).

فكيف يمكن والحال هذه أن يكون مجانباً للإيمان باللّه وتوحيده، لاهياً عـن عبادته وتقديسه.

هذا وفي هذا المجال حديث واسع اكتفينا مِنه بهذا القدر، ومن أراد التوسع أن يراجع الجزء الخامس من مفاهيم القرآن ص ١٣٥ - ١٩١.

وأما الكلام في الجهة الثانية وهي : أنه بماذا وبأي دينٍ كان يتعبد رسـول اللّه صلّى اللّه عليه وآله قبل البعثة، فقد وقع ذلك محطاً للبحث بين العلماء، وحيث انه لا ينطوي على فائدة كبرى، بعد أن تبين أنه كان قبل البعثة

---

(١) الميزان : ج ١٠ ص ٣٦، ولاحظ المنار : ج ١١ ص ٣٢٠.

مؤمناً، موحداً، يعبد اللّه، فإنّه يكفي أن نعرف أنه كان صلّى اللّه عليه وآله يلتزم بما ثبت له أنه شرع اللّه تعالى... وبما يؤدي إليه عقلـه الفطـري السليم، وأنه بالتالي كان مؤيداً مسدداً، وأنه كان أفضل الخلق واكملهم خلقاً، وخلقاً، وعقلاً، وانه كان يعمل حسب ما يلهم سواء اكان مطابقاً لشرع مـا قبله أم مخالفاً وأن هاديه وقائده منذ صباه إلى ان بعث هو نفس هاديه بعد البعثة(١).

---

(١) وللتوسّع والوقوف على الآراء المختلفة في هذا المجال راجع الجزء الخامس من مفاهيم القرآن : ص ١٣٥ - ١٩١.

قبل فهرس بعد

١١ ـ بدء الوَحي

ان التاريخ الإسلامي يبدأ في الحقيقة من يوم بعثة الرسول صلّى اللّه عليه وآله بالرسالة، والتي وقعت على أثره حوادث خاصة.

ويوم بعث النبي الاكرم صلّى اللّه عليه وآله لهداية الناس، ودوى في سمعه الشريف نداء «إنك لرسول اللّه» الصادر عن ملاك الوحي ألقيـت علـى كاهله مسؤولية كبرى وثقيلة جداً، على نمط الوظيفة الهامة التي ألقيت على كاهل من سبقه من الانبياء والرسل صلوات اللّه عليهم أجمعين.

منذ ذلك اليوم اتضح هدف أمين قريش، أكثر فأكثر، وتجلت خطته اكثـر فأكثر.

ونحن نرى من اللازم قبل شرح الحوادث الأولى الواقعة عنـد البعثـة ان نعطي بعض الايضاحات حول مسألتين :

١ - وجوب بعث الأنبياء.

٢ - دور الانبياء في اصلاح المجتمع.

لقد أودع اللّه تعالى في كيان كُلّ كائن مـن الكائنـات أدوات تكاملـه، وجهزه - لسلوك هذا الطريق - بالوسائل المتنوعة، والأجهـزة المختلفـة اللازمة.

ولنأخذ مثلاً : نبتة صغيرة، فان ثمة عوامل كثيرة تتفاعل فـي مـا بينهـا وتعمل

لتحقيق التكامل فيها.

ان جذور كل نبتة تعمل اكبر قدر ممكن لامتصاص العناصـر الغذائيـة، وتلبية احتياجات النبتة، وتوصل العروق والقنوات المختلفة، عصـارة مـا تأخذه من الارض إلى جميع الاغصان والاوراق.

إننا لو درسنا جهاز (وردة) لرأيناه اكثر مدعاة للاعجـاب وأشـد اثـارة للتعجب من تركيب بقية النباتات.

فللكأس وظيفة توفير الغطاء اللازم للاوراق الناعمة اللطيفة في الوردة.

وهكذا الحال بالنسبة الى بقية الأجهزة في «الوردة» مما أُنيط إليها مسؤولية الحفاظ على كائن حي، وضمان رشده ونموه، فإنها جميعاً تقوم بوظائفهـا المخلوقة لها بأحسن شكل، وأفضل صورة.

ولو أننا خطونا خطوات اكثر وتقدمنا بعض الشـيء لدراسـة الأجهـزة العجيبة في عالم الأحياء، لرأينا أنها جميعاً وبدون اسـتثناء مـزودة بمـا يضمن بلوغها الى مرحلة الكمال المطلوب لها.

وإذا أردنا أن نصب هذا الموضوع في قالب علمي لوجب أن نقـول : ان الهداية التكوينية، التي هي النعمة المتجلّية في عالم الطبيعة، تشمـل كـل موجودات هذا العالم من نبات، وحيوان وانسان.

ويبين القرآن الكريم هذه الهداية التكوينية الشاملة بقوله :

(ربنا الّذي أعطى كُلّ شيء خلقه ثُم هدى)(١).

فانّه يصرح بأن كل شيء في هذا الكون من الذرة إلى المجرة ينعم بهـذا الفيض العام، وان اللّه تعالى بعد أن قدر كل موجود وكائن، بين له طريق تكامله، ورقيه، وهيأ لكل كائن مِن تلك الكائنات ما يحتاج إليه في تربيتـه ونموه، وهذه هي (الهداية التكوينية العامة) السائدة على كل ارجاء الخليقة دونما استثناء.

---

(١) طه : ٥٠.

ولكن هل تكفي هذه الهداية الفطرية، التكوينية لكائن مثل الإنسان، اشـرف الموجودات، وافضل ما في هذه الخليقة ؟!

بكل تأكيد : لا.

لأن للإنسان حياة أُخرى غير الحياة المادية، تشكل اساس حياته الواقعيـة، ولو كان للإنسان حيادة مادية جافّة فقط مثلما لعالم النباتات، والحيوانـات، لكفت العواملُ والعناصر المادية في تكامله، والحال أن للإنسان نوعين من الحياة، يكمن في تكاملهما معاً رمز سعادة الإنسان ورقيه.

ان الإنسان الأول، ونعني به انسان الكهوف والحيـاة البسيطـة والفطـرة السليمة التي لم يطرأ على جبلته أي إعوجاج لم يكن بحاجة إلى ما يحتـاج اليه الإنسان الإجتماعي من التربية والهداية.

ولكن عندما خطى الإنسان خطوات أبعد من ذلك، وبدأ الحياة الاجتماعية، وسادت على حياته فكرة التعاون والعمل الجماعي بـرزت فـي روحـه ونفسيته سلسلة من الانحرافات نتيجة للاحتكـاك الاجتمـاعي، وغيـرت الخصال القبيحة والافكار الخاطئة صفاتِه الفطرية، وبالتالي اخرج المجتمع من حالة التوازن !

إن هذه الانحرافات حملت خالق الكون على أن يرسل إلى البشرية رجـالاً أفذاذاً صالحين يتولّون تربية البشر، وليقوموا بتنظيم برنـامج المجتمـع،

والتخفيف من المفاسد الناشئة - بصـورة مباشـرة - عـن النزعـة الاجتماعية لدى الإنسان، وليضيئوا - بمشاعل الوحي المشّعة المنـيرة - طريق السعادة والخير للانسانية في جميع المجالات والابعاد.

إذ لا نقاش في أن الحياة الاجتماعية والعيش بصورة جماعية مـع كونـه مفيداً، ينطوي على مفاسد لا تُنكر، ويجر إلى انحرافات كثـيرة لا تقبـل الترديد.

ولهذا بعث اللّه سبحانه رجالاً مصلحين، وهداة مرشدين يعملـون - قـدر الامكان - على الحد من الانحرافات والمفاسد، ويضعون عجلة المجتمع - بتنظيم القوانين الواضحة والانظمة الحكيمة - على الطريـق الصحيـح، ويضمنون دورانها

وحركتها في المسار المستقيم.

وقد يستفاد هذا الامر - بوضوح - من قوله تعالى :

(كان النّاس امة واحِدةً فبعث اللّه النّبيين مبشرين ومنذرين وأنـزل معهـم الكِتاب بِالحق لِيحكُم بين النّاس في ما اختلفُوا فيه)(١).

دور الانبياء في اصلاح المجتمع :

ان الذي يتصوره الناس عادة هو أن الانبياء مجرد معلّمين إلهيين بعثوا لتعليم البشرية.

فكما يتعلم الطفل خلال حركته التعليمية ابتداء من الابتدائية ومروراً بالمتوسطة وانتهاء بالجامعة دروساً معينة ومواضيع خاصة على ايدي الاساتذة والمعلمين، كذلك يتعلم الناس في مدرسة الانبياء أموراً خاصة، ويكتسبون معارف معينة، وتتكامل أخلاقهم وصفاتهم وخصالهم الاجتماعية جنباً الى جنب مع اكتسابهم المعرفة والعلم على أيدي الأنبياء والمرسلين.

ولكننا نتصور ان مهمة الانبياء ووظيفتهم الاساسية هي (تربية) المجتمعات البشرية لا تعليمها، وان اساس شريعتهم لا ينطوي على كلام جديد، وانه ما لم تنحرف الفطرة البشرية عن مسارها الصحيح، وما لم تلفها غشاوات الجهل والغفلة لعرفت وادركت خلاصة الدين الالهي، وعصارتها، في غير ابهام، ولا خفاء.

على أن هذه الحقيقة قد أشار اليها قادة الإسلام العظماء.

فقد قال امير المؤمنين عليه السلام في نهج البلاغة عن هدف الانبياء :

«أخذ على الوحي ميثاقهم، وعلى تبليغ الرسالة أمانتهم... ليستأدوهم ميثاق فِطرته، ويذكروهم منسي نِعمته، ويحتجوا عليهم بالتبليغ، ويثيروا لهم دفائن العقول»(٢).

---

(١) البقرة : ٢١٣.

(٢) نهج البلاغة : قسم الخطب، الخطبة رقم ١.

مثالٌ واضح في المقام :

اذا قلنا : ان وظيفة الانبياء في تربية الناس واصلاح نفوسهم هي وظيفـة البستاني في تربية شجيرة من الشجرات، أو قلنا : أن مثل الأنبياء في قيادة التوجهات الفطرية البشرية وهدايتها، مثل المهندس الذي يستخرج المعادن الثمينة من بطون الاودية والجبال، لم نكن في هذا القول مبالغين.

وتوضيح ذلك ان النبتة، أو الشجيرة الصغيرة تحمل من بداية انعقاد حبتها الأولى كل قابليات النمو، والرشد، فاذا توفر لها الجو المناسب للنمو، دبت الحياة والحركة في كل أجزائها، واستطاعت بفعل جذورها القوية واجهزتها المتنوعة وفي الهواء الطلق، والضوء اللازم، من أن تقطع أشواطاً كبـيرة من التكامل، والنمو.

فمسؤولية البستاني في هذه الحالة تتركز في امرين :

١ - توفير الظروف اللازمة لتقوية جذور تلك النبتة لكي تظهر القوى المودعة في تلك النبتة أو الشجيرة، وتخرج من حيز القـوة إلـى مرحلـة الفعلية، والتحقق.

٢ - الحيلولة دون تعرض تلك الشجرة أو النبتة للانحرافـات والآفـات، وذلك عندما تتجه القوى الباطنية صوب الوجهة المخالفة لسعادتها، وتسلك طريقاً ينافي تكاملها.

ومن هنا فان مسؤولية البستاني ووظيفته ليست هي (الإنمـاء) بـل هـي (المراقبة) وتوفير الظروف اللازمة ليتهيأ لتلك الشجرة والنبتـة أن تـبرز كمالها الباطني.

لقد خلق اللّه سبحانه البشر وأودع في كيانه طاقـات متنوعـة، وغرائـز كثيرة، وعجن فطرته وجبلّته بالتوحيد، وحب معرفة اللّه، وحـب الحـق والخير، والعدل والانصاف، كما وأودع فيه غريزة السعي والعمل.

وعندما تبدأ خمائر هذه الامور وبـذورها الصالحـة المودوعـة بالعمـل والتفاعل في كيان الإنسان تتعرض في الجو الاجتماعي لِبعض الانحرافات بصورة قهرية،

فغريزة العمل والسعي تتخذ شيئاً فشيئاً صفة الحرص والطمـع، وغريـزة

حب السعادة والبقاء تتخذ صورة الانانية، وحـب الجـاه والمنصـب، ويتجلى نور التوحيد والإيمان في لباس الوثنية وعبادة الأصنام.

في هذه الحالة يعمل سفراء اللّه الى البشرية : (الانبيـاء والرسـل) علـى توفير ظروف الرشد والنمو الصحيح لتلك الغرائز وتلك القوى والطاقـات في ضوء الوحي، والبرامج الصحيحة المستلهمة من ذلك المنبـع الالهـي الهادي، ويقومون بالتالي بتعـديل انحرافـات الغرائـز، والوقـوف دون تجاوزها حدودها المعقولة المطلوبة.

ولقد قال امير المؤمنين في ما مر من كلامه : إن اللّه أخذ - فـي مبـدأ الخلق - ميثاقاً يدعى «ميثاق الفطرة».

فما هو ترى المقصود من ميثاق الفطرة هذا ؟

إن المقصود من هذا الميثاق هو : أن اللّه تعالى بخلقه وايداعـه الغرائـز المفيدة في الكيان الإنساني، وبمزج الفطرة البشريـة بعشـرات الأخـلاق الطيبة والسجايا الصالحة يكون قد أخذ من الإنسان ميثاقاً فطرياً بأن يتبـع خصال الخير، ويأخذ بالغرائز الطّيبة الصالحة.

فاذا كان منح جهاز البصر (العين) للإنسان هو نوع من اخذ الميثاق مـن الإنسان بان يتجنب المزالق، ولا يقع في البئر، فكذلك ايداع حس التـدين، وغريزة الانجذاب الى اللّه، وحب العدل، في كيانه هو الآخر نوع من اخذ الميثاق منه بأن يظل مؤمناً باللّه، موحداً إياه، عادلاً، منصفاً، محباً للخيـر

والحق.

وإن وظيفة الأنبياء هي أن يحملوا الناس على العمـل بمقتضـي ميثـاق الفطرة، وبالتالي فان مهمتهم الأساسية الحقيقية هي تمزيق اغشية الجهـل وتبديد سحب الغفلة التي قد ترين على جوهرة الفطـرة المطعمـة بنـور الايمان، فتمنعها من الاشراق على وجود الإنسان، وتحرم الإنسـان مـن هدايتها.

ومن هنا قالوا : إن أساس الشرائع الالهية يتألف من الامور الفطرية، التي فطر الإنسان عليها.

وكأن صرح الكيان الإنساني (جبلٌ) اختفت بين ثنايا صخوره وفي بطونـه احجار كريمة كثيرة ومعادن ذهبية ثمينة، فالوجود الإنساني هو الآخر قـد أودعت فيه فضائل وعلوم، ومعارف وخصال، واخلاق متنوعة.

فعندما يغور الانبياء والمهندسون الروحيون في أعماق نفوسنا وذواتنا وهم يعلمون جيداً أن نفوسنا معجونة بطائفة من الصفـات والسجايـا النبيلـة والمشاعر والاحاسيس الطيبة، ويعملون على اعادة نفوسنا - بتعاليم الدين وبرامجه - الى جادة الفطرة المستقيمة السليمة فانهم في الحقيقة يذكّروننـا بأحكام فطرتنا، ويسمعوننا نداء ضمائرنا، ويلفتونها إلى الصفـات، والـى الشخصية المودوعة فيها.

تلك هي رسالة الانبياء، وذلك هو عملهم الاساسي، وهذا هو دورهم فـي اصلاح النوع الإنساني، أفراداً وجماعات.

أمين قريش في غار حراء :

يقع جبل «حِراء» في شمال «مكة» ويستغرق الصعود إلى غار حراء مدة نصف ساعة من الزمان.

ويتألف ظاهر هذا الجبل من قطع صخرية سوداء، لا يرى فيهـا أي أثـر للحياة أبداً.

ويوجد في النقطة الشمالية من هذا الجبل غار يمكن للمرء أن يصل اليـه ولكن عبر تلك الصخور، ويرتفع سقف هذا الغار قامـة رجـل، وبينمـا تضيء الشمس قسماً منه، تغرق نواح أُخرى منه في ظلمةٍ دائمةٍ.

ولكن هذا الغار يحمل في رحابه ذكريات كثيرة عن صاحب له طالما تردد عليه، وقضى ساعات بل وأياماً وأشهراً في رحابه... ذكريـات يتشـوق الناس - وحتى هذا الساعة - الى سماعها من ذلك الغار، ولذلك تجدهـم يسارعون إلى لقائه كلّما زاروا تلك الديار، متحملين في هذا السبيـل كـل عناء، للوصول إلى رحابه، لكي يستفسروه عما جرى فيـه عنـد وقـوع حادثة : «الوحي» العظيمة وليسألون عما تحتفظ به ذاكرتـه مـن تاريـخ رسول الإنسانية الاكبر مما جرت

حوادثه في ذلك المكان التاريخي، العجيب.

ويتحدث ذلك الغار هو الآخر اليهم بلسان الحال ويقول : ها هنـا المكـان الذي كان يتعبد فيه عزيز قريش وفتاها الصادق الامين.

وها هنا قضى ليالي وأياماً عديدة وطويلة قبل ان يبلغ مرتبة الرسالة، فـي عبادة اللّه، والتأمل في الكون، وفي آثار قدرة اللّه وعظمته.

أجل، لقد اختار محمد صلّى اللّه عليه وآله ذلك المكان البعيد عن ضـجيج الحياة، للعبادة والتحنث، فكان يمضي جميع الايام من شهر رمضان فيـه، وربما لجأ إليه في غير هذا الشهر أحياناً أُخرى، إلى درجـة أن زوجتـه الوفية كانت إذا لم يرجع إلى منزلها، تعرفُ أنه قد ذهب إلى «غار حراء» وأنه هناك مشتغل بالعبادة والتحنث والاعتكاف. وكانت كلّما أرسلت إليـه أحداً وجده في ذلك المكان مستغرقاً في التأمل والتفكير، او مشتغلاً بالعبادة والتحنث.

لقد كان صلّى اللّه عليه وآله قبل أن يبلغ مقام النبوة، ويبعث بالرسالة يفكر - اكثر شيء - في أمرين :

١ - كان يفكر في ملكوت السماوات والارض، ويرى في ملامح كل واحد

من الكائنات التي يشاهدها نور الخالق العظيم، وقدرته، وعظمته وعلمه، وقد كانت تفتح عليه من هذا السبيل نوافذ من الغيب تحمل الى قلبه وعقله النور الالهي المقدس.

٢ - كان يفكر في المسؤولية الثقيلة التي ستوضع على كاهله.

إن اصلاح المجتمع في ذلك اليوم على ما كان عليه من فساد عريق وانحطاط عريض، لم يكن في نظره وتقديره بالامر المحال الممتنع. ولكن تطبيق مثل هذا البرنامج الاصلاحي لم يكن في نفس الوقت أمراً خالياً من العناء والمشاكل، من هنا كان يفكر طويلاً في الفساد في حياة المجتمع المكّي وما يراه من ترف قريش، وكيفية رفع كل ذلك واصلاحه.

لقد كان صلّى اللّه عليه وآله حزيناً لما يرى من قومه من فساد العقيدة المتمثل في الخضوع للأوثان الميتة، والعبادة للأصنام الخاوية الباطلة، ولطالما

شوهدت آثار ذلك الحزن على محياه، وملامح وجهه الشريف، ولكن لما لم يكن مأذوناً بالافصاح بالحقائق، لذلك كان يتجنب ردع الناس عن تلك المفاسد، ومنعهم عن تلك الانحرافات.

بدء الوحي :

لقد امر اللّه ملكاً من ملائكته بأن ينزل على امين قريش وهو في غار حراء ويتلو على مسمعه بضع آيات كبداية لكتاب الهداية والسعادة، معلناً بذلك تتويجه بالنبوة، ونصبه لمقام الرسالة.

كان ذلك الملك «جبرئيل»، وكان ذلك اليوم هو يوم المبعث النبوي الشريف الذي سنتحدث عن تاريخه في المستقبل.

ولا ريب أن ملاقاة الملك ومواجهته أمر كان يحتاج إلى تهيؤ خاص، وما لم يكن محمد صلّى اللّه عليه وآله يمتلك روحاً عظيمة، ونفسية قوية لم يكن قادراً قط على تحمل ثقل النبوة، وملاقاة ذلك الملك العظيم.

أجل لقد كان «أمين قريش» يمتلك تلك الروح الكبرى، وتلك النفس العظيمة وقد اكتسبها عن طريق العبادات الطويلة، والتأمل العميق الدائم، الى جانب العناية الالهية.

ولقد روى أصحاب السير والتاريخ انه رأى رؤى عديدة قبل البعثة كانت تكشف عن واقع بين واضح وضوح النهار(١).

ولقد كانت الذّ الساعات وأحبها عنده بعد كل فترة، تلك الساعات التي يخلو فيها بنفسه، ويتعبد فيها بعيداً عن الناس.

ولقد قضى على هذا الحال مدة طويلة حتى أتاه - في يوم معين - ملك عظيم بلوح نصبه أمامه وقال له : «إقرأ»، وحيث أنه صلّى اللّه عليه وآله كان أُمياً لم يدرس أجاب الملك بقوله : «ما أنا بقارئ».

---

(١) صحيح البخاري : ج ١ كتاب العلم ص ٢٢، بحار الأنوار : ج ١٨ ص ١٩٤.

فاحتضنه ذلك الملك، وعصره عصرة شديدة، ثم طلب منه أن يقرأ فأجابه بالجواب الأول.

فعصره الملك ثانية عصرة شديدة وتكرر هذا العمل مرات ثـلاث احـس بعدها رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله في نفسه أنه قادر على قراءة ما في ذلك اللوح، فقرأ ساعتها تلك الآيات التي تشكل - في الحقيقـة - ديباجـة كتاب السعادة البشرية، واساس رقيها.

لقد قرأ صلّى اللّه عليه وآله وسلّم قوله تعالى :

(إقرأ باسمِ ربك الّذي خلق. خلق الإنسان مِن علقٍ. إقرأ وربـك الأكـرم. الّذي علم بِالقلم. علّم الإنسان ما لم يعلم)(١).

وبعد أن انتهى جبرئيل من أداء مهمته التي كُلف بها من جانـب اللّـه تعالى، وبلّغ الى النبي تلكم الآيات الخمس، انحدر رسول اللّه صـلّى اللّـه عليه وآله من جبل حراء، وتوجه نحو منزل خديجة(٢).

ولقد أوضحت الآيات المذكورة برنامج النبي صلّى اللّه عليه وآله اجمـالاً، وبينت وبشكل واضح ان اساس الدين يقوم على القراءة والكتابـة، والعلـم والمعرفة، واستخدام القلم.

ظاهرة القضايا الغيبيّة في منظار الماديّين :

لقد تسبب التقدم العظيم والمتزايد الذي تحقق في ميدان العلوم الطبيعية في سلب الكثير من العلماء القدرة على فهم وادراك القضايا المعنوية والخارجة عن اطار العلوم الطبيعية وبالتالي أدى الى تحديد وتضييق آفـاق الفكـر عندهم.

فاذا بهم اصبحوا يتصورون أن الوجود يتلخص في هذا الكون المادي، وانه ليس في الوجود من شيء سوى المادة وان كل ما لا يمكن تفسيره وتبريره بالقوانين والقواعد المادية فهو أمر باطل، ومن نسج الخيال !!

---

(١) العلق : ١ - ٥.

(٢) السيرة النبوية : ج ١ ص ٢٣٦ و٢٣٧.

إن هذا الفريق - لتسرعه في اصدار الحكم في الأمور المتعلقة - بالغيـب وقضايا ما وراء الطبيعة، وحصر أدوات المعرفـة بـالحس والتجربـة - انكروا عالم الوحي، بحجة أن الحس والتجربة لا يقودانهم إلى ذلك العالم، ولا يخبرانهم عن مثل تلك الموجودات، فلكونها بالتالي لا تخضع لمبضـع التشريح، ومجهر الإختبار أنكروها بـالمرة، وكانـت النتيجـة أن أدوات المعرفة المعروفة (الحس والتجربة) حيث انها لا تهدي إلى عالم مـا وراء المادة فاذن لا وجود خارجي لذلك العالم ولحقائقه أبداً !

إن هذا النمط من التفكير نمط جد ضيق ومحدود، مضافاً الى انـه يتسـم بالغرور والغطرسة، فهو من باب «استنتاج عدم الوجود من عدم الوجدان» في خطوة متعجلة فجة !!

فما دامت هذه الحقائق التي يعتقد بها الالهيون المؤمنون باللّـه لا يمكـن التوصل اليها عن طريق الادوات الفعلية المتعارفة بينهم للادراك والمعرفة فهي اذن لا اساس لها من الواقع !!

ان الذي لا شك فيه هو : ان الماديين لم يدركوا مقالة العلماء الالهيين حتى في مسألة اثبات الصانع الخالق فكيف بالعوالم الأُخرى لما فوق الطبيعـة، ولو أن الفريقين تحاوروا في جو علمي مناسبٍ، بعيـداً عـن الأغـراض والعصبيات، لكان من المتوقع ان تزول الفواصل بين الماديين والالهييـن في أقرب وقت، وأين يرتفع هذا الاختلاف الذي قسم العلماء إلى فريقيـن

على طرفي نقيض.

لقد اقام المؤمنون الموحدون عشرات الأدلة والبراهين القاطعة على وجود اللّه تعالى، واثبتوا بأن هذه العلوم الطبيعية هي نفسها تقودنا إلـى الخالـق العالم القادر، وان هذا النظام العجيب السائد في ظواهر الكائنات الطبيعيـة وبواطنها لدليل قاطع، وبرهان ساطع على وجود مبدع هـذا النظـام، وأن جميع أجزاء هذا الكون المادي، من ذراته الى مجراته، يسير وفق قوانيـن دقيقة متقنة، ولا تستطيع الطبيعة الصماء العمياء ابداً أن تكون مبتكرة لهذا النظام البديع، ومبدعة لهذا الترتيب الدقيق.

وهذا هو بنفسه برهان «نظام الوجود» أو (برهان النظم) الذي ألّف العلماء الالهيون الموحدون حوله عشرات الكتب والدراسات.

وحيث ان (برهان النظم) هذا مما يفهمه جميع الناس على مختلف مراتبهم ومداركهم، لذلك ركزت عليها الكتب الاعتقادية دون سواها، وسـلك كـلُ واحد من العلماء طريقاً معيناً وخاصاً لتقريره، وبيانه، كما ودرست الأدلة والبراهين الأُخرى التي لا تتسم بمثل هذه الشمولية، في الكتب، والمؤلفات الفلسفية والكلامية بصورة مفصلة ومبسوطة.

إن للعلماء الالهيين بيانات وأدلة في مجال (الروح المجردة)، وعوالم مـا وراء الطبيعة (الميتافيزيقيا) نشير إلى بعضها هنا :

الروح المجردة :

إن الاعتقاد بالروح من القضايا الشائكة الطبيعة الـتي اسـتقطبت اهتمـام العلماء وشغلت بالهم بشدة.

فهناك فريقٌ - ممن اعتاد أن يخضِع كل شيء لمبضع التشـريح - ينكـر وجود (الروح)، ويكتفي بالاعتقاد بالنفس ذات الطابع المـادي، والعاملـة ضمن نطاق القوانين الطبيعية فقط.

ووجود «الروح» والنفس غير المادية (اي المجردة المستقلة عن المادة) من القضايا التي عولجت ودورست من قِبل المؤمنين باللّه، والمعتقدين بالعالـم الروحاني، بصورة دقيقة، وعميقة.

فهم أقاموا شواهِد عديدةً على وجود هذا الكائن (غير المادي) وهـي أدلـة وبراهين لو تم التعرف عليها والنقاش حولها في جو علمي هادئ مع الأخذ بنظر الاعتبار ما يقوم عليه منطق الالهيين - في هذا المجال - من قواعد وأُسس، لأدى ذلك إلى التصديق الكامل بها.

على أن ما يقوله الالهيون في مجالات أُخرى مشابهة مثـل (الملائكـة) و (الوحي) و(الإلهام) يقوم هو الآخر على الأساس الـذي شـيدوه ومهـدوه وبرهنوا

عليه قبل ذلك بالأدلة المحكمة، المتقنة(١).

ظاهرة الوحي عِند الماديّين :

يعتبر الاعتقاد بالوحي أساساً لجميع الرسالات، والأديان السماوية، وتقـوم هذه الظاهرة (ظاهرة الوحي) على أن الذي يوحى اليه يمتلك روحاً قويـة تقدر على تلقي المعارف الالهية من دون واسطة، أو بواسطة ملـك مـن الملائكة.

ويلخص العلماء المختصون تعريفهم للوحي على النحو التالي : «الوحـي تعليمه تعالى من اصطفاه مِن عِباده كُل ما أراد اطلاعه عليه مـن ألـوان الهداية والعِلم ولكِن بطريقة خفيةٍ غير معتادة للبشر».

ولكن الماديين - كما قلنا - لم يستطيعوا هضم هذه الحقيقة، وادراك هـذه الظاهرة على حالها، وصورتها الغيبية بسبب ما ذكرنـاه مـن منهجهـم ونظرتهم إلى الأمور والكائنات فذهبوا في تفسير ظاهرة الوحي - التي هي كما اسلفنا من قضايا الغيب ومن عوالم ما فوق الطبيعة - مذاهب مختلفـة ترجع برمتها إلى الرؤية المادية للوجود.

واليك أبرز هذه التفاسير المادية لظاهرة الوحي الغيبية :

أبرز النظريات المادية لظاهرة الوحي :

١ - قالوا : الوحي هو القدرة الفكرية، والنفسية والعقليـة الـتي تحصـل للإنسان بسبب التمرينات والرياضات الروحية التي على اثرها تنفتح عليه أبواب من الغيب، فيخبر عن امور طالما تتفق مع الواقع على نحـو مـا يحصل للمرتاضين الهنود(٢).

فالانبياء بسبب اعتزالهم للمجتمع - على غرار ما يفعـل المرتاضـون - وإقبالهم

---

(١) ولقد جاء تفصيل هذه البراهين والأدلّة في الكتب الفلسفية مثل : «الإشارات» و«الأسفار».

ولقد اشرنا إلى بعض هذه الأدلّة في كتاب (اللّه خالق الكون) فراجع.

(٢) وهم الذي يمارسون عملية اليوجا.

على الرياضة الروحية يحصل لهم المقـدرة علـى الإخبـار بالغائبـات، والكائنات الخفية على غيرهم.

والجواب على هذه النظرية هو : أن دراسة حالات المرتاضين تكشف لنا عن أنهم طالما يخطأون في إخباراتهم أخطاء فاضحة، بينما لم يعهد من نبي أنه أخطأ في إخباراته، وإنباءاته.

هذا اولاً.

وثانياً : ان ما يفعله المرتاضون لا ينطوي على أية أهداف اصلاحية علياً للمجتمع البشري، بل غاية همهم هو : عرض الافعال العجيبة على النـاس وربما تسلية المتفرجين، بينما يهدف الأنبياء إلـى إصـلاح المجتمعـات البشرية وقيادتها إلى ذرى الكمال والتقدم.

وثالثاً : ان المرتاضين لا يثقون بما يخبرون به، كما لم يعرف إلى الآن أن أحداً منهم طلع على المجتمع البشري ببرنامج كامل وشامل للحياة البشرية الفردية والاجتماعية، بينما نجد الأنبياء يخبرون الناس بما أُمروا به وهـم على إيمان كامل، ويقين ثابت منه، هذا الى جانب أنهم يحملون الى البشرية برامج اجتماعية وحيوية جامعة الاطراف، كاملة الأبعاد، رفيعة الأهـداف، عميقة الغايات، ترجع اليها كلُّ فضيلة وكل خير تعرفه المجتمعـات الـى الآن.

ورابعاً : ان أعمال المرتاضين وما تحصلُ لهم من قوى وينفتح عليهم من آفاق، محدودة، بينما لا تقف طاقاتُ الانبياء وآفاق علومهم، وأبعاد أعمالهم عند حد.

فلا يمكن أبداً تفسير وتعليل ظاهرة (الوحـي) ومـا يحصـل للرسـل والانبياء على اثره من أمور تتخطى حـدود العـالم المـادي المحـدود، بالرياضة الروحية التي يمارسها المرتاضون وما يحصل لهم على أثرهـا من امور.

٢ - قالوا : ان (الوحي) نوع من النبوغ، او أنه ناشئ مـن النبـوغ، وأن الانبياء هم نوابغ اجتماعيون لا أكثر.

وقد شرحوا نظريتهم هذه قائلين : بأن نظام الخليقة قد ربى فـي أحضانـه نوابغ

صالحين، اهتدوا بفعل نبوغهم الفكري الرفيع الى أفكار وقيم رفيعة ودعوا مجتمعاتهم إلى الأخذ بها، والسير على هديها، لتحقيق الخير والعدالة، فكان لهم بذلك اكبر نصيب في إرشاد البشرية الى سعادتها، فكل ما طرحوه من أفكار، وكل ما عرضوه على تلك المجتمعات باسم الدين او القانون ليسـت - في الحقيقة - سوى نتيجة ما تمتعوا به مِن نبوغ، وفكـر خـارق، ولا علاقة له بعالم آخر غير هذا العالم المادي المألوف.

وقالوا : وان مما يساعد على تقوية هذا النبوغ أمور ابرزها :

الحب، التعرض للظلم الطويل، الطفولة وما يكتنفها من ضـعف وعجـز،

الوحدة، السكوت، التربية الأولى، والعيش في صـورة الأفليـة ومـا يرافقها من ظروف إجتماعية غير مؤاتية.

فان جميع هذه الأمور أو بعضها تدفع بالشخص الى الانطوائية، والتفكيـر والتأمل، للاهتداء الى مخرج من المشاكل والصعوبـات، ومخلـص مـن الظروف الصعبة، والأحوال الشاقة.

ويُجاب على هذه النظرية بأن أصحاب هذه النظرية حكمـوا علـى هـذه القضية على أساس موقف اتخذوه سلفاً فهم حصروا الأشياء فـي المـادة والامور المادية ثم فسروا ما يرتبط بعالم الغيب بذلك، فجاء تفسيرهم لهذه الظاهرة الغيبية تفسيراً مادياً، غفلة منهم عن ان مثل هذا التفسير والتعليـل لا يليق بظاهرة (الوحي) التي تجسد أعلى قضية في سلّم الحقائق العلميـة والفلسفية، ويرجع اليها أعظم القوانين والبرامج للسعادة البشرية.

نحن لا ننكر أن لما ذكروه من العوامل تأثيراً في تقوية عملية «التفكـير» لدى الانسان إلى درجة ايجاد ما يسمى بظاهرة النبوغ لديه، إلا أنه لا يمكن أن يوجد مثل هذا الامر نبياً خضعت جميع النوابغ البشرية لعظمة تعاليمـه التي أتى بها طوال أربعة عشر قرناً.

نبياً لم تزل ما جاء به من معارف عقلية وفلسفية، وقوانين تـرتبط بعالـم الطبيعة وبالنظام الاجتماعي وآداب السلوك تحافظ على قوتهـا، وعمقهـا وأصالتها ولمعانها

كل المحافظة رغم كل ما احرزه البشر في ضوء نشاطه الفكري والعقلـي من تقدم، في المعارف والعلوم.

هذا مضافاً الى أن نسبة هؤلاء الأنبياء جميع ما عرضوه على المجتمعات البشرية إلى العالم الآخر واصرارهم على أنها من جانب اللّه تعالى وليست من نسيج افكارهم يناقض نظرية هذه الطائفة، التي تفسر النبوة بالنبوغ.

لنقرأ معاً الآية التي يقول اللّه تعالى فيها حاكياً عن رسول الإسلام محمـد صلّى اللّه عليه وآله :

(إن أتّبع إلا ما يوحى إلي)(١).

أو يقول سبحانه :

(إن هو إلا وحي يوحى)(٢).

٣ - يقولون : إن الوحي هو ظهور الشخصية الكامنة في النبي وايحاؤهـا لما ينفعه وينفع قومه المعاصرين له، اليه.

وربما قالوا : إن معلومات «محمد» وأفكاره وآماله ولّدت لديه إلهاماً فاض من عقله الباطن أو نفسه الخفية على محيلته السامية، وانعكس اعتقاده على بصره فرأى الملك ماثلاً له وهو يتلو على سمعه ما حدث به بعد ذلك.

وتوضيح هذه النظرية هو : ان لكل إنسان شخصيتين :

١ - الشخصية الظاهرة العادية وهي التي تخضع للحواس الخمس وتعمـل بها.

٢ - الشخصية الباطنية وهي التي تعمل عندما تتعطل الحواس، ويتعطـل الشعور الظاهري :

وهذه الشخصية هي التي تحرك جميع أعضاء الجسم الانسـاني الـتي لا تخضع لارادته كالكبد والقلب، والمعدة وغيرها، كما انها هي مصدر الكثير من الإلهامات الطيبة في الظروف الحرجة.

ثم قالوا : وهذه الشخصية الباطنية قد اصبحت مدركة بالحس، فان المنوم

---

(١) الأنعام : ٥٠.

(٢) النجم : ٤.

مغناطيسياً يظهر بمظهر من العقل الراجح، والفكر الثاقب والنظر البعيـد، ويقوم بما لا يقوم به في حالته العادية.

وقد انتهى هؤلاء الماديون من خلال تحقيقاتهم وتجاربهم إلى : ان شخصية الإنسان الباطنية ارقى من شخصيته العادية، وإن ما يتوصل اليه الإنسـان من أفكار عالية رفيعة جداً، وما قد يتمتع به من روح قوية هو من مظاهر هذه الشخصية وفعاليتها.

فقالوا : وان هذه الشخصية هي التي تنفث في روح الأنبياء ما يعتبرونـه وحياً من اللّه، وقد تظهر لهم متجسدة فيحسبونها من ملائكة اللّـه هبطـت عليهم من السماء !!!

فالوحي عند هؤلاء الباحثين في الروح على الاسلوب التجريبي لا يكـون بنزول ملك من السماء على الرسول فيبلغه كلاماً عن اللّه بل يكـون فـي تجلي روح الإنسان عليه بواسطة شخصيته الباطنة فتعلمه ما لم يكن يعلم، وتهديه الى خير الطرق لهداية نفسه وترقية أُمته(١).

ولكن هذه النظرية هي الأُخرى تنبع من الغُرور العلمي الذي أصاب هـذا النمط من العلماء الّذين يحاولون تفسير كل ظواهر هذا العـالم بالتفسيـر

المادي، وهو لا شك ينشأ من عِلمهم المحدود القاصر عن إدراك حقائق الوجود.

إننا لا نشك في وجود ما يسمى بالشخصية الباطنية لدى الإنسان فهو مما سبق الى كشفه والتنويه به الفلاسفة الإسلاميون من قبل ولكن كيف وعلى أي أساس حق لهؤلاء ان يفسروا ظاهرة (الوحي الالهي) والنبوة بهذا الامر ؟

هذا أولاً

وثانياً : ان تجلي الشخصية قلّما يحدث في الاشخاص الأصحاء، بل هو يحدث في الاغلب عند المتعبين القلقين، والسكارى، والمصابين بالهزيمة والنكسة، لأن نافذة (اللاوعي) عند غيرهم من الاصحاء تنسد بسبب اشتغالهم الشديد بقضايا الحياة اليومية وهمومها، ولا يبقى للشخصية الباطنية مجال للنشاط والفعالية، كما

---

(١) دائرة معارف القرن العشرين لفريد وجدي : ج ١٠ مادّة وحي.

هو العكس عند المتعبين والسكارى والمرضى الذين يقل اهتمامهم بالحياة اليومية فيترك (الوعي) مكانه للاوعي، وتترك الشخصية الظاهرية المعطّلة

مكانها للشخصية الباطنية.

ولذلك نجد بين آلاف العلماء والمفكرين مفكراً أو عالماً واحداً اتفق له في بداية عمره أن اهتدى بصورة لا شعورية إلى فكرة خاصة او نظرية معينة من دون سابق تفكير او استدلال قائم على الشعور.

وخلاصة القول أن تجلّي الشخصية الباطنية في الحياة الانسانية قضية نادرة جداً، وهي لا تحدث إلا في ظروف خاصة مثل : المنامات والاحلام وغيرها من التحولات الحياتية التي تقلل من توجه الانسان الى العالم الخارجي وتصرفُ التفاته وتوجهه الى الشخصية الباطنية.

ولكن هذه الحالة وهذه الشرائط (اي الغفلة عن هموم الحياة اليومية الخارجية) لم تحصل للانبياء قط.

فالنبي الأكرم محمد صلّى اللّه عليه وآله كان طوال (٢٣ سنة) وهي أعوام الرسالة، مشتغلاً كل الاشتغال بقضايا الحياة اليومية، فالنشاطات السياسية والتبليغية وقضايا الدعوة والقيادة كانت تهيمن على كل توجهه واهتمامه وتملأ عقله وروحه ونفسه.

فالكثير من آيات الجهاد ترتبط بساحات القتال والجهاد، وهذا يعني انه كان مشدوداً بروحه وعقله كله إلى تلك الأُمور.

وثالثاً : ان هذه النظرية يمكن أن تصدق على نبوة الانبياء، لـو كـان هؤلاء الأنبياء أفراداً متعبين، منهزمين، منتكسين، مرضى، معتزلين عـن الحياة ليقال حينئذٍ ان هذه الحالات والظروف مهدت لانقطاعهم - عليهـم السلام - عن هموم الحياة، وقضاياها، وبالتالي مهدت لفعاليـة الشخصيـة الباطنية وعملها.

ولكن تاريخ الانبياء يشهد بوضوح لا إبهام فيه، بانهم كانوا - طيلة حياتهم الرسالية - رجالاً مجاهدين، لا يهمهم إلا اصـلاح المجتمعـات وقيـادة الجماعات وحل المشكلات الاجتماعية، ورفع مستويـات النـاس معنويـاً وفكرياً، وكانوا

يعملون لتحقيق هذه الأهداف ليل نهار، بلا سأم ولا ملـل، ولا تعـب ولا نصب.

فكيف يمكن القول والحال هذه بان الشخصية الباطنية تجلّت لديهم واوحت اليهم بحقائق وقيم وافكار؟

إن تفسير (الوحي الالهي) الذي يلقى الى الانبياء ويكشف لهـم عـن أدق الحقائق وارفعها، وأعظم المناهج واكملها، بتجلّي الشخصية الباطنية، ناشئ من اعتقاد هذا الفريق من العلماء بأصالة المادة، أو بعبارة اخرى : حصر الوجود في المادة، ومن هنا حاولوا إلباس كل شيء حتى الامور المعنويـة والغيبية : اللباس المادي، واغلقوا على أنفسهم باب عوالم الغيب، وعمدوا

إلى التفتيش عن علة مادية حتى لظـاهرة (الوحـي) الـتي لا تُقـاس بمقاييس العالم المادي.

هذا مضافاً إلى أن تفسير (الوحي الالهي) عـن طريـق نظريـة تجلّـي الشخصية الباطنية، وخاصة في شأن رسول الإسلام «محمد» صلّى اللّـه عليه وآله وسلّم يواجه اشكالات ومؤاخذات أُخرى تجعل هذه النظرية فـي عداد الاساطير !!

وإن ابرز هذه الاشكالات الواردة على هذه النظرية فـي م جال رسـول الإسلام صلّى اللّه عليه وآله هي : أن هذه النظرية ليست رأياً جديداً وتهمة جديدة توجه إلى نبوة رسول الإسلام.

فان نظرية «الشخصية الباطنية، والوحي النفسي الـذاتي» هـي نظريـة متبلورة ومتقدمة لتهمة (الجنون والصرع) التي كان يرمي بهـا العـرب الجاهليون رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله وسلّم !!

فقد كان المشركون في بدء الدعوة يقولون : ان ما يقوله «محمد» وما يتكلم به ليس إلا أفكاره القلقة المضطربة الناشئة عن خياله، وان القرآن هي تلك الأفكار المضطربة التي تسربت إلى فضاء عقله مـن دون ارادة منـه ولا اختيار !!

لنستمع الى القرآن الكريم وهو ينقل عنهم هذا الاتهام :

(بل قالُوا أضغاثُ أحلام)(١).

---

(١) الأنبياء : ٥.

ولكن القرآن الكريم يرد على هذه المزعمة الواهية بقوله :

(والنّجم إذا هوى. ما ضلّ صاحِبكُم وما غوى. وما ينطِقُ عن الهـوى. إن هو إلا وحي يوحى. علّمه شديد القُوى)(١).

ان القرآن الكريم يشجب في هذه الآيات المنتظمة انتظاماً رائعاً وبديعاً هذه المزعمة (أي مقولة أن القرآن وليد الخيال لدى محمد)، ويرد الأمر إلـى الوحي الالهي، والتوجيه الرباني العلوي.

إن نظرية الوحي النفسي وتجلّي الشخصية الباطنية التي طلع بها الماديون في عصرنا ما هي في الحقيقة إلا غطاء لمزعمة المشركين وتهمة الجنون، والخيال التي سبق أن رمى بها أعداء الرسالة الاسلامية ومعارضوها النبي صلّى اللّه عليه وآله وسلّم تلك التهمة التي يذكرها القرآن الكريم بقوله :

(وقالُوا يا أيها الّذي نُزل عليه الذكر إنّك لمجنُون)(٢).

وهي تهمة كان يوجهها المعارضون دائمـاً إلـى المصلحيـن وأصـحاب الرسالات(٣) وقد اتخذت هذه التهمة صبغة علمية جديدة، وتبلـورت فـي نظرية : «الوحي النفسي، وتجلّي الشخصية الباطنية». ان القرآن الكريـم يرد على هذه المزاعم والتصورات الباطلة حول عملية الوحـي ومسألـة النبوة ويرد على نسبة الكهانة وما شابه ذلك كالخبر المنقول عن اهل السير بمحاولة القاء النبي نفسه من شاهق في بداية الوحي الـذي يشبـه نسبـة الجنون اليه صلّى اللّه عليه وآله، اذ يقول تعالى :

(إنّه لقولُ رسول كريم. ذي قوة عند ذي العرش مكين. مطاع ثم أمين. وما صاحِبكُم بِمجنُون. ولقد رآه بالأُفق المبين. وما هو بِقول شـيطان رجيـم. فاين

---

(١) النجم : ١ - ٥.

(٢) الحجر : ٦، وأيضاً راجع الآيات التالية : سبأ : ٨، الصافّات : ٣٦، الدخان : ١٤، الطور : ٢٩، القلم : ٢، التكوير : ٢٢.

(٣) اذ يقول القرآن في هذا الصدد : (كذلِك ما أتى الّذين مِن قبلِهم مِن رسُولٍ إلا قالُوا ساحِرٌ أو مجنُونٌ. أتواصوا بهِ بل هُم قومٌ طاغُون) (الذاريات : ٥٢ و٥٣).

تذهبون إن هو إلا ذكر للعالمين. لِمن شاء مِنكُم أن يستقيم)(١).

بهذا البيان تبين بطلان هذا التفسير وجميع التفاسير الأُخرى التي تحـاول إعطاء (الوحي) طابعاً مادياً مألوفاً، شأنه شأن غيره من الظواهر الغيبيـة، ونحن استكمالاً لهذا البحث نشير إلى ما هو الحقُ في هذا المجال، مما يؤيد الواقع والعقل والدين :

ظاهرةُ الوحي في منظار العقل والدين :

لا شك أن حياة كل فرد من افراد الإنسان تبدأ من «الجهـل» ثـم يأخـذ الإنسان بالدخول في مجال العلم شيئاً فشيئاً، الى ان تنفتح عليه بالتدريـج نوافذُ على الواقع الخارج عن ذهنه.

فيبدأ الإنسان بالتعرف على الحقائق عن طريق الحواس الظاهرية، ثم على أثر التكامل في جهازه العقلي والفكري يهتدي الى الحقائق الخارجـة عـن مجال الحس واللمس، فيغدو عقلانياً استدلالياً، ويقف علـى طائفـة مـن الحقائق الكلية والقوانين العلمية.

وربما يظهر بين أفراد النوع الإنساني أصحاب نفوس عالية يقفـون عـن طريق الالهام ومن خلال بصيرة خاصة على حقائق وأُمور لا يهتدى اليها حتى عن طريق الاستدلال والبرهنة !

ومن هنا قسم العلماء ادراك البشر الى ثلاثة أنواع : «إدراك العامـة» «إدراك المفكرين وأرباب الاستدلال» «إدراك العرفاء واصحاب البصائـر والنفوس الكبرى».

وكأن أصحاب الظاهر يستعينون على اكتشاف الحقيقة بالحس، والمفكرين يستعينون بالاستدلال والبرهنة، وأصحاب البصـائر والمعرفـة بالإلهـام والاشراق وبالفيض عليهم من العالم الأعلى.

---

(١) التكوير : ٢٠ - ٢٨.

ان النوابغ في مجال الأخلاق، وان عقول العلماء الخلاقة، وأفكار الفلاسفة العظيمة كلها تؤيد وتشهد بأن ما يحصلون عليه، وما يطلعون بـه علـى المجتمع البشري مما لم يعرفوه من قبل ما هي الا شرارات مضيئة وملهمة تخطر لهم، ثم يعمدون إلى تنميتها وبلورتهـا بالتجربـة، أو بالاسـتدلال والبرهنة والتأمل.

قنواتُ المعرفة الثلاث :

من هذا الكلام نستنتج أن أمام بني البشر ثـلاث طـرق للوصـول الـى مقاصده، فالطريق الأول يستفيد منه جماهير الناس غالباً، بينمـا يستفيـد

طائفة خاصة منهم من الطريق الثاني، ولا يستفيد من الطريق الثالـث إلا أفراد معدودون قلةٌ تكاملت عقولُهم، وتسامت أرواحهم. وهي كالتالي :

١ - الطريق التجريبي والحِسي، والمقصود منه ذلك القسم من الإدراكات والمعلومات الواردة الى محيط الذهن البشري عن طريق الحواس الظاهرية كالمرئيات، والمشمومات والمطعومات وغيرها مما يستقـر فـي محيـط إدراكنا بواسطة الأجهزة المختصة بها.

وقد استطاع البشر اليوم، وبفضل اختراع التلسكوبـات والميكروسـكوبات واجهزة التلفاز والراديو ان يقدم خدمة كبرى للبشرية في مجال الإدراكات الحسية ويمهد لمزيدٍ من سيطرتها على البعيد والقريب.

٢ - الطريق التعقلي الإستدلالي : فان المفكرين يتوصلون الى كشف طائفة من القوانين الكلية الخارجة عن الحس عن طريق عملية التفكير والتأمـل وتشغيل جهاز العقل، وإقامة سلسلة من المقدمات البديهية الواضحة، وبذلك يمكن الوصول إلى قمم المعرفة والكمال العلمي.

إن انكشاف القوانين العلمية الكلية، والمسائل الفلسفية، والمعارف المرتبطة بصفات اللّه وأفعاله سبحانه والقضايا المطروحة في علم العقيدة والأديـان ناشئ برمته من جهاز العقل، وحركتـه، ونـاتج مـن عمليـة التفكـير، والإستدلال المذكورة.

٣ - طريق الإلهام : وهذا هو الطريق الثالث لمعرفة الحقائق، وهو فـوق

الحس والتعقل.

إنه نوع جديد من المعرفة ونمط متميز من إدراك الحقائق، ليس محالاً من وجهة نظر العلم وان كان يصعب على أصحاب الاتجاه المادي القبول بـه لكونه طريقاً غير حسي ولا تعقّلي.

وأما من جهة الأُصول العِلمية فلا مجال لإنكاره، ولا مـبرر لعـده مـن المحالات.

إن طريق التعرف على حقائق الكون الخارج عن الـذهن - فـي منهـج الماديين، وأصحاب النزعة المادية - ينحصر في قناتين لا أكـثر، وهمـا اللّذان سبق ذكرهما، في حين أن هناك - حسب نظرة الأديـان والشرائـع الكبرى وحسب نظرة الفلاسفة والعرفاء الالهيين - قناة ثالثة أيضاً.

بل إن هذا الطريق الثالث - كما أسلفنا في مسألة الوحي - أكثر واقعيـة، وأقوى أسساً، وأوسع آفاقاً عند من يدعون الرسالة، والنبوة من جانب اللّـه سبحانه، وإن نفوس أُولئك الأشخاص لتبدو أكثر صفاء وطراوةً بفضل هذا الطريق، وفي ضوء هذه القناة.

وكلّما حصل إرتباطٌ بين اللّه، وبين فرد من أفراد النوع الإنساني على نحو خاص ألقيت الحقائق في وجوده من دون توسط الحواس الظاهريـة، وإعمال الفكر، واستخدام جهاز العقل.

وهذا النوع من الإلقاء يسمى حيناً بالالهام، وبالاشراق حيناً آخر.

ولكن كلما نتج من إرتباط الإنسان بما وراء الطبيعة سلسلة مـن التعاليـم العامة والأنظمة والبرامج الشاملة أُطلِق على هذا النوع من الإلقاء عنـوان (الوحي)، وسمي الآتي بها (ملك الوحي) والآخذ لها (نبياً).

هذا وقد يوجب الإلهام الثقة والاطمئنان للملهم إليه، ولكنّه لا يمكن أن يكون مبعث الإطمئنان والثقة عند الآخرين(١).

---

(١) وانما قلنا «قد» أي يمكن أن يوجب الاطمئنان ولم نقطع بذلك لأنّ مصدر هذه الالهامات =

من هنا اعتبر العلماء «الوحي» الطريق المطمئنة الوحيدة الـى المعرفـة العامة... الوحي الذي ينزل على الانبياء الذين ثبتـت نبـوتهم بالدلائـل القاطعة، من المعجزة وغيرها.

أنواع الوحي واصنافه :

إن في مقدور الروح الانسانية بسبب ما تملك مـن كمـالات أن تتصـل بالعوالم الروحانية من الطرق المختلفة، ونحن هنا نشير الى هذه الطـرق التي جاء ذكرها في أحاديث قادة الإسلام وائمته، باختصار :

١ - تارة يتلقى الحقائق السماوية العليا على نحو الالهام، فيتخذ مـا يتـم إلقاؤه في النفس عبر هذا الطريق حكم (العلوم البديهية) الـتي لا يتطـرق اليها أي ريب وشك.

٢ - وقد يسمع عبارات وكلمات من جسم معين (كالجبل والشجرة) كسماع موسى عليه السلام كلام اللّه من الشجرة.

٣ - وربما تنكشف الحقائق له في عالم الرؤيا انكشاف النهار.

٤ - وقد ينزلُ عليه ملك من جانب اللّه بكلام خاص.

وقد نزل القرآن الكريم على النبي الاكرم صلّى اللّه عليه وآله مـن هـذا الطريق، وقد صرح القرآن الكريم نفسه بهذا عند قوله تعالى : (نزل بـهِ الروح الأمين على قلبك لِتكُون مِن المنذرين. بِلسان عربي مبِينٍ)(١).

أساطير مختلفة :

لقد كتب المؤرخون والكتاب عن حياة كثير مـن الشخصيـات العالميـة، وضبطوا كل

ليست معلومة وواضحة، ولا يمكن الاعتماد على مطلق الواردات القلبية والفجائية التي لا تستند الى أُصول معلومة.

وبعبارة أُخرى : يجب الفصل والتمييز بين الإلهامات الرحمانية والالقاءات الشيطانية بواسطة الموازين العقلية والشرعية.

(١) الشعراء : ١٩٣ - ١٩٥، وقد أُشير في سورة الشورى الآية ٥١ الى هذه الطرق الأربع جميعها.

ما جل او دق في هذا المجال، وربما تحملوا عنـاء الـرحلات الطويلـة والأسفار الشاقة لتكميل دراساتهم، وكتاباتهم.

غير أن التاريخ لا يعرف شخصية مثل رسول اللّه صلّى اللّه عليـه وآلـه وسلّم ضبطت تفاصيل سيرته الدقيقة، واهتم اتباعه وأصحابه ومحبوه بكل شاردة وواردة في حياته الشريفة.

إن هذا الولع الشديد بتسجيل كل شيء - مهما صغر - من حيـاة النبـي

الاعظم صلّى اللّه عليه وآله وسيرته العطرة كما ساعد علـى ضـبط جميع الجزئيات والتفاصيل في هذا المجال، تسبب في بعض الموارد فـي إلصاق بعض الزوائد بحياة النبي الاكرم وشخصيته العظيمة، الطاهرة.

ومثل هذا لا يبعد عن المحبين الجهلاء فكيف بالأعداء الألداء العارفين.

من هنا يتعين على كل مؤلفٍ يكتب عن سيرة شخصية من الشخصيات أن لا يغفل عن مبدأ (الحذر والإحتياط) في تحليله لحوادثها، وقضاياها، فـلا يغفل عن تقييم كل ما جاء حولها من روايات وقصص في ضوء الموازين التاريخية الدقيقة.

واليك بقية ما جرى في واقعة نزول (الوحي) في حراء :

بقية حادثة نزول الوحي :

استنارت نفس رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله، وروحـه الكـبرى بنـور «الوحي» المبارك، وتعلّم كل ما ألقى عليه ملك الوحي فـي ذلـك اللقـاء العظيم، وانتقشت تلك الآيات الشريفة في صدره حرفاً حرفاً، وكلمة كلمة.

وقد خاطبه نفس ذلك الملك بعد تلاوة تلكم الآيات بقوله :

يا محمد... أنت رسولُ اللّه... وأنا جبرئيل.

وقيل : انه صلّى اللّه عليه وآله سمع هذا النداء عند نزوله من غار حـراء وقد اضطرب رسولُ اللّه صلّى اللّه عليه وآله، لهذين الحدثين، اضـطرب لعظمة المسؤولية الكبرى التي أُلقيت على كاهله.

وكان هذا الاضطراب طبيعياً بعض الشيء، وهو لا ينافي بـالمرة يقينـه صلّى اللّه عليه وآله، وإيمانه بصدق ما أُنزل عليه لأن الروح مهما بلغـت من العظمة والسمو والقوة والصلابة، ومهما كانت قـوة ارتباطهـا بعالـم الغيب، وبالعوالم الروحانية العليا فانّها عندما تواجه لأول مرة ملكاً لم تره من قبل، وذلك في مثل المكان الذي التقى النبي (فوق الجبـل) لا بـد أن يحصل لها مثل هذا الاضطراب، ولهذا زال ذلك الاضطراب عن رسـول اللّه صلّى اللّه عليه وآله في ما بعد.

ثم إن الاضطراب والتعب الشديد قد تسببا في أن يتوجه النبي صلّى اللّـه عليه وآله إلى بيت «خديجة» عليها السلام، وعندما دخل بيتهـا ووجـدت على ملامحه آثار الاضطراب والتفكير سألته عما جرى له، فحدثها بكل ما سمع ورأى وقص عليها ما كان من أمر جبرئيل معها، فعظّمت «خديجةُ» سلام اللّه عليها، أمره، ودعت له، وقالت : إبشر فواللّه لا يخزيك اللّه أبداً.

ثم إن النبي صلّى اللّه عليه وآله الذي كان يشعر بالجهـد والتعـب قـال لزوجته الوفية «خديجة» : دثّريني... دثريني.

خديجة تذهب إلى ورقة بن نوفل :

لقد تحدثنا في الصفحات الماضية عن «ورقة» وقلنا أنّه كان ممن تنصـر وقرأ الكتب وسمع من أهل التوراة والانجيل وكان ابن عم خديجة.

فعندما سمعت «خديجة» زوجة النبي صلّى اللّه عليه وآله ما سمعته منـه انطلقت إلى «ورقة» لتخبره بما سمعته من زوجها الكريم، وشرحت له كل شيء مما جرى له مع جبرئيل.

فقال «ورقة» في جواب ابنة عمه : إن ابن عمك لصادق... وإن هذا لبدء النبوة، وإنه ليأتيه الناموس الاكبر (اي الرسالة والنبوة)(١).

---

(١) الطبقات الكبرى : ج ١ ص ١٩٥.

إن ما ذكرناه الى هنا هو في الحقيقة ملخّص الروايات التاريخية المتواترة التي وصلت إلينا، والتي دونت في جميع الكتب.

بيد اننا نلاحظ بين ثنايا هذه الحادثة أُموراً لا تتفق مع ما نعرفه من أنبيـاء

اللّه ورسله العظام، كما أنها لا تتفق مع ما قرأناه إلى الآن عن حيـاة هذا النبي العظيم صلّى اللّه عليه وآله.

وما سنذكره الآن من هذه الزوائد إما يجب اعتباره من قبيـل الاسـاطير التاريخية، أو أن علينا تأويله بنوع من التأويل.

وإنا لنعجب قبل كل شيء من المفكّر المصري الدكتور «هيكل» كيف سمح لنفسه وهو الذي تحدث في مقدمة كتابه عن مشكلة تسرب الاساطير الـى التاريخ النبوي، وقال : بأن هناك من دس في السيرة النبوية، عن عداوة أو جهل، بعض الاكاذيب.

ولكنه مع ذلك ينقل هنا أُموراً لا أساس لها من الصحة أبـداً، فـي حيـن اعطى فريقٌ من علماء الشيعة - كالمرحوم الطبرسي - ملاحظات مفيـدة في هذا الصعيد.

وإليك في ما يلي بعض هذه الاساطير والقضايا المختلفة (على أنها لم تكن جديرة بالاشارة أبداً لولا أن بعض المحبين الجهلاء، والأعـداء الأذكيـاء ذكروها في كتبهم، وكرروها في دراساتهم).

١ - قالوا : إن النبي صلّى اللّه عليه وآله عندما دخل منزل خديجة، كـان يفكّر في نفسه : لعلّ بصره خدعه، أو انه كاهن، او فيه جنون !!

ولكن لما قالت له خديجة : «إن اللّه لا يفعل بك ذلك يا ابن عبد اللّـه، إنك تصدق الحديث، وتؤدي الأمانة، وتصلُ الرحم» اطمـأن، وزال عنـه الشك والتردد، وألقى على «خديجة» نظر شكر ومودة، ثم طلب أن ينزمل، فزمل فنام !!(١).

---

(١) الطبقات الكبرى : ج ١ ص ١٩٥، حياة محمّد : ص ١٣٤.

٢ - يقول الطبري وغيره من مؤرخي السيرة : ان النبي صلّى اللّه عليـه وآله لما سمع نداء يقول : «يا محمد أنت رسول اللّه» أصابَه خوفٌ شـديد حتى أنه هم بأن يطرح نفسه من أعلى الجبل، فتبدى لـه (ملـك الوحـي) ومنعه عن ذلك !!!

٣ - ثم إن النبي صلّى اللّه عليه وآله ذهب ليطوف بالكعبة بعد ذلك اليوم، فرأى «ورقة بن نوفل» وشرح لورقة ما جرى له مع جبرئيل، فقـال لـه ورقة :

«والذي نفسي بيده، إنّك لنبي هذه الأُمة، وقد جاءك الناموس الأكبر الـذي جاء موسى ولتُكذبنّه، ولتوذينّه ولتخرجنّه ولتقاتلنه» فأحس «محمد» بـأن ورقة يصدقه، فاطمأن(١).

بطلان هذه المزاعم :

إن الذي نتصوره هو أن جميع هذه القصص مختلقة من الاساس، وقد دست في التاريخ والتفسير عن قصدٍ وهدف، أو دخلت فيهما عن غير ذلك.

وذلك :

أولاً : لأننا لتقييم هذه المزاعم يجب ان نلقي نظرة فاحصة إلى تاريخ الأنبياء الماضين وسيرهم.

إن القرآن الكريم قص علينا قضاياهم، وسيرهم، وقد وردت في هذا المجال روايات وأخبار كثيرة.

وإننا لا نجد أي أثر لمثل هذه القصص المشينة في حياة أي واحدٍ منهم.

إن القرآن الكريم يقص علينا قصة بدء نزول (الوحي) على «موسى» بشكل كاملٍ ويبين جميع التفاصيل في قصته عليه السلام ولا يذكر أي شيء من الخوف، والارتعاش، والوحشة والفزع، بحيث يحدث نفسه بالإنتحار على أثر سماع الوحي !! مع أن أرضية الخوف والفزع في مجال «موسى» كانت متوفرة

(١) السيرة النبوية : ج ١ ص ٢٣٨.

أكثر، لأنه سمع في ليلة ظلماء وهو في صحراء خالية نداء مـن الشجـرة يخبره بأنه نبي مرسلٌ.

ولكن موسى - كما يصرح القرآن الكريم، بهذه الحقيقـة - حـافظ علـى هدوئه، وسكونه، وعندما خاطبه اللّه تعالى بقوله : «أن ألق عصاك» القاها من فوره، وكان خوفه من ناحية العصا التي تبدلت إلى ثعبان مخيـف، لا من جهة الايحاء اليه.

فهل يمكن، أو يجوز لنا أن نقول : كان «موسى» لحظة الوحي اليه مطمئناً هادئاً ساكناً، ولكن أفضل الانبياء والمرسلين اضطرب عند سـماع كـلام الملك، وفزع الى درجة فكّر في طرح نفسه من أعلى الجبل ؟! هل هـذا كلام معقول ؟!

لا ريب أن روح محمد صلّى اللّه عليه وآله ما لم تكن مهيأة مـن جميـع الجهات وبصورة كاملة لتلقّي السر الالهي (النبوة) لا يمكن أن يمن عليـه الرب الحكيم بمنصب النبوة، ويختاره لمقام الرسالة، لأن الهدف الجوهري من ابتعاث الرسل، وارسال الانبياء هو هداية الناس وارشادهم.

ومن كان كذلك من حيث ضعف الروح ووهن النفس بهـذه المرتبـة بحيث يحدث نفسه بالإنتحار خوفاً(١) وفزعاً كيف يمكن ان ينفذ الى نفوس الناس ويؤثر فيهم ؟!

ثانياً : كيف يمكن أن يطمئن موسى بمجرد سماعه للنداء الالهي إلى أنـه صادر من جانب اللّه، فطلب من ربه من فوره أن يجعـل أخـاه هـارون وزيراً له لأنه أفصح منه قولاً(٢) بينما لا يطمئن سيد المرسلين وخاتمهـم ؟!

ثالثاً : لقد كان «ورقة» مسيحياً حتماً، ولكنه عنـدما أراد أن يزيـل عـن «محمد» الشك والإضطراب ذكر نبوة «موسى» عليه السلام وقـال : قـد جاءك الناموس الذي جاء موسى(٣).

---

(١) كما نقل هيكل في كتابه : «حياة محمّد».

(٢) طه : ٢٩.

(٣) السيرة النبوية : ج ١ ص ٢٣٨ وقد نقل المرحوم المجلسي هذه العبارة عن المنتقى. ولكنه بلفظة =

ألا يدل هذا على أن ثمة يداً اسرائيلية وراء هذه الحبكة هي التي صـاغت هذه القصة واختلقتها في غفلةٍ عما كان يدين به «ورقة» بطلُ القصة ؟!

كل هذا بغض النظر عن أن مثل هذه الأُمور تتنافى والعظمة التي نعهدها من النبي صلّى اللّه عليه وآله، ولا تنسجم معها أبداً، ويبدو أن كاتب «حياة محمد» أدرك الى درجة ما خرافية هذه القصة ولذلك نجده ينقل بعض مواضيعها بعد جملة : «كما يقولون».

وقد حارب ائمةُ الشيعة هذه الاساطير بكل قوة، وأبطلوها برمتها.

فعندما يسأل زرارة الإمام الصادق عليه السلام مثلاً : كيف لم يخف رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله فيما يأتيه من قِبل اللّه ان يكون مما ينزغ به الشيطان ؟

قال الإمام عليه السلام : «إن اللّه إذا اتخذ عبداً ورسولاً، أنزل عليه السكينة والوقار فكان يأتيه من قِبل اللّه عز وجلّ مثل الذي يراه بعينه»(١).

ويقول العلامة الشيعي الكبير المرحوم الطبرسي في تفسيره، في هذا الصدد :

«إن اللّه لا يوحي الى رسوله إلا بالبراهين النيرة والآيات البينة الدالّة على أن ما يوحى إليه إنما هو من اللّه تعالى، فلا يحتاج إلى شيء سواها ولا يفزع، ولا يفرق»(٢).

«عيسى» أيضاً ولكن لا وجود لذلك في صحيح البخاري وسيرة ابن هشام اللذين هما الأساس لهذه الامور.

(١) بحار الأنوار : ج ١٨ ص ٢٦٢ وفي الكافي : ج ١ ص ٢٧١ نظيره.

(٢) مجمع البيان : ج ١٠ ص ٣٨٤.

قبل فهرس بعد

١٢ ـ متى نزل الوحي أولاً ؟

لقد تعرض يوم مبعث رسول الإسلام صلّى اللّه عليه وآله للاختلاف مـن حيث التعيين والتحديد فهو مثل يوم ولادته ويوم وفاته صلّى اللّه عليه وآله غير مقطوع به، من وجهة نظر المؤرخين وكُتّاب السيرة النبوية.

فلقد اتفق علماء الشيعة على القول بان رسول اللّه صلّى اللّه عليـه وآلـه بعِث بالرسالة في السابع والعشرين من شهر رجب، وأن نـزول الو حي عليه قد بدأ من ذلك اليوم نفسِه.

بينما اشتهر عند علماء السنّة أن رسول الإسلام قد أُوتي هذا المقام العظيم في شهر رمضان المبارك.

ففي ذلك الشهر الفضيل كُلف «محمد» صلّى اللّه عليه وآله من جانب اللّه تعالى بهداية الناس، وبعث بالرسالة.

ولما كانت الشيعة تشايع عترة النبي صلّى اللّه عليـه وآلـه وأهـل بيتـه الصادقين، وتعتقد بصحة ما يرونه ويقولون به اتباعاً لقول رسـول اللّـه صلّى اللّه عليه وآله فيهم، في حديث الثقلين : «إنهما لن يفترقـا» فانهـم اتبعوا - في تحديد يوم المبعث النبوي الشريف - القول المأثور - بنقـل صحيح - عن عترة النبي المطهرين في

هذا المجال.

فقد روي عن أبناء الرسول وعترته الطاهرة أن عظيم هذا البيـت وسـيده (اي النبي) قد بعِث في السابع والعشرين من شهر رجب، وهم فـي ذلـك حجة.

ولهذا لا يمكن الشك والتردد في صحة هذا القول وثبوته(١).

نعم غاية ما يمكن الاستدلال به على القول الآخر هـو تصـريح القـرآن الكريم نفسِه بأن آيات القرآن نزلت في شهر رمضان، وحيث أن يوم بعثة النبي صلّى اللّه عليه وآله كان هو بنفسه يوم بدء نزول الوحي، والقـرآن عليه، لهذا يجب القول بان يوم البعثة الشريفة انما كان في نفـس الشهـر الذي نزل فيه القرآن الكريم : أي شهر رمضان المبارك.

واليك فيما يأتي الآيات التي تدل على أن القرآن الكريم نـزل فـي شـهر رمضان :

١ - «شهر رمضان الّذي أُنزل فيه القرآن»(٢).

٢ - (حم. والكِتاب المبين. إنّا أنزلناه في ليلةٍ مباركة)(٣) وتلك الليلة هي

ليلة القدر التي قال عنها سبحانه : (إنّا أنزلناه في ليلةِ القدر. ليلةُ القدر خير مِن الفِ شهر)(٤).

ما أجاب به علماء الشيعة :

ولقد أجاب محدثو الشيعة ومفسروهم عن هذا الاستدلال بطـرق مختلفـة نذكر طائفة منها هنا :

الجواب الأول :

إن الآيات المذكورة إنّما تدل على أن القرآن نزل فـي شـهر رمضـان وبالذات في ليلة مباركة منه هي «ليلة القدر»، ولكنها لا تتعـرض لذكـر محلّ نزول هذه

---

(١) راجع بحار الأنوار : ج ١٨ ص ١٨٩.

(٢) البقرة : ١٨٥.

(٣) الدخان : ١ - ٣.

(٤) القدر : ١ و٣.

الآيات، وأنها أين نزلت ؟ وهي بالتالي لا تدل أبداً ومطلقاً على أنها نزلت في تلك الليلة على قلب رسول اللّه ؟

فيحتمل أن يكون للقرآن نزولات متعددة إحداها نزول القرآن على رسـول اللّه تدريجاً.

والآخر نزوله الدفعي من اللوح المحفوظ الى البيت المعمور(١).

وعلى هذا فما المانع من ان تكون بعض آيات القرآن (من سورة العلق) قد نزلت على النبي صلّى اللّه عليه وآله في السابع والعشـرين مـن شـهر رجب. ثم نزل القرآن بصورته الجمعية الكاملة في شهر رمضان من مكان معين أسماه القرآن باللوح المحفوظ، إلى موضع آخر عبر عنه في بعـض الروايات بالبيت المعمور.

ويؤيد هذا الرأي قولُ اللّه تعالى في سورة الدخان : «إنّا أنزلناه فـي ليلـةٍ مباركةٍ» فان هذه الآية - بحكم رجوع الضمير فيها الى الكتاب - تصرح بأن الكتاب العزيز بأجمعه نزل في ليلةٍ مباركةٍ (في شهر رمضان)، ولا بد ان يكون هذا النزول غير ذاك النزول الذي تحقق في يوم المبعث الشريف، لأن في يوم المبعث لم تنزل سوى آيات معدودة لا اكثر.

وخلاصة الكلام هي ان الآيات التي تصرح بـنزول القـرآن فـي شـهر رمضان في ليلة مباركة (ليلة القدر) لا يمكن أن تدل على أن يوم المبعـث

الذي نزلت فيه بضع آيات أيضاً كان في ذلك الشهر نفسه، لأن الآيات المذكورة تدل على أن مجموع القرآن لا بعضه قد نزل في ذلك الشهر، في حين لم تنزل في يوم المبعث سوى آيات معدودة كما نعلم.

وفي هذه الصورة يحتمل أن يكون المراد من النزول الجمعي للقرآن هـ و نزول مجموع الكتاب العزيز في ذلك الشهر من «اللوح المحفـوظ» إلـى «البيت المعمور».

وقد روى علماء الشيعة والسنة روايات وأخباراً بهذا المضمون، وبخاصة

---

(١) للتعرف على معنى اللوح المحفوظ راجع كتب التفسير.

الاستاذ الأزهري محمد عبد العظيم الزرقاني الذي أورد روايات عديدة في هذا الصدد في كتابه(١).

الجواب الثاني :

وهو أمتن الاجوبة والردود على هذا القول.

فقد بذل الاستاذُ الطباطبائي جهداً كبيراً لتوضيحه وبيانه في كتابه القيم، واليك خلاصته :

يقول العلامة الطباطبائي : إن قول اللّه تعالى إنا أنزلناه في شهر رمضان، المقصود منه هو نزول حقيقة القرآن على قلب النبي صلّى اللّه عليه وآله، لأن للقرآن مضافاً الى وجوده التدريجي، واقعية اطلع اللّـه تعـالى نبيـه العظيم عليها في ليلة معينةٍ من ليالي شهر رمضان المبارك(٢).

وحيث أن النبي الاكرم صلّى اللّه عليه وآله كان قد عرف من قبل بجميـع القرآن الكريم لذلك نزلت الآية تأمره بان لا يعجل بقرائته حـتى يصـدر الأمر بنزول القرآن تدريجاً اذ يقول تعالى : (ولا تعجل بِالقُرآن مِن قبلُ أن يقضى إليك وحيه)(٣).

وخلاصة هذا الجواب هي : أن للقرآن الكريم وجوداً جمعياً علمياً واقعيـاً وهو الذي نزل على الرسول الكريم صلّى اللّه عليه وآله مرة واحدة فـي شهر رمضان، وآخر وجوداً تدريجياً كان بدء نزوله على النبي صلّى اللّه عليه وآله في يوم المبعث، واستمر تنزله الى آخر حياته الشريفة على نحو التدريج.

الجواب الثالث : التفكيك بين نزول القرآن والبعثة

إن للوحي - كما أوضحنا ذلك في مبحث أنواع الوحي اجمالاً - مراتب

(١) مناهل العرفان في علوم القرآن : ج ١ ص ٣٧.

(٢) الميزان : ج ٢ ص ١٤ - ١٦.

(٣) طه : ١١٤.

ومراحل، يتمثل أولُ مراتبه في الرؤيا الصادقة التي رآها رسولُ اللّه صلّى اللّه عليه وآله.

والمرتبة الأُخرى تمثلت في سماعة للنداء الغيبي الالهي من دون وسـاطة ملك.

وآخر تلك المراتب هو أن يسمع النبي كلام اللّه من ملك يبصـره ويـراه، ويتعرف عن طريقه على حقائق العوالم الأُخرى.

وحيث أن النفس الانسانية لا تستطيع في الوهلة الاولـى تحمـل مراتـب (الوحي) جميعها دفعة واحدة بل لا بد أن يتحملها تدريجاً، لهذا يجب القول بأن النبي صلّى اللّه عليه وآله وسلّم قد سمع يوم المبعث (اليـوم السابـع والعشرون من شهر رجب) النداء السماوي الذي يخبره بأنه رسول اللّـه، فقط ولم تنزل في مثل هذا اليوم أية آية قط، وقد استمر الأمر علـى هـذا

المنوال مدة من الزمان. ثم بعد مدة بدأ نزول القرآن الكريم على نحـو التدريج ابتداء من شهر رمضان.

وخلاصة هذا الجواب هي أن ابتعاث الرسول صلّى اللّه عليه وآله بالرسالة في شهر رجب لا يلازم نزول القرآن في ذلك الشهر حتماً.

وعلى هذا الاساس ما المانع من ان يبعث رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله في شهر رجب، وينزل القرآن الكريم في شهر رمضان من نفس ذلك العام ؟

ان هذه الاجابة وإن كانت لا توافق كثيراً من النصـوص التاريخيـة (لأن كثيراً من المؤرخين صرحوا بأن الآيات الخمس من سورة العلق نزلت في يوم المبعث نفسه) إلا أن هناك - مع ذلك - روايات ذكرت قصة البعثـة بسماع النبي صلّى اللّه عليه وآله وسلّم للنداء الغيبي، ولم تذكر شيئاً عـن نزول قرآن أو آيات، بل هي تشرح الواقعة على النحو التالي إذ تقول :

في ذلك اليوم سمع رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله ملكاً يقول له : يا محمد إنّك لرسول اللّه، وجاء في بعض الأخبار أنه سمع هذا النداء، فقـط، ولـم تذكر شيئاً عن مشاهدة الملك.

وللمزيد من التوضيح، والتوسع يراجع «البحار» في هذا المجال(١).

(١) بحار الأنوار : ج ١٨ ص ١٨٤ و١٩٠ و١٩٣ و٢٥٣، الكافي : ج ٢ ص ٤٦٠، تفسير العيّاشي : ج ١، =

على أن هذه الاجابة تختلف عن الإجابة الرابعة التي تقول بأن مبعث النبي صلّى اللّه عليه وآله كان في شهر رجب، وكان نزولُ القرآن الكريم بعد انقضاء الدعوة السرية التي استغرقت ثلاثة أعوام.

الانبياء والبشارة برسول اللّه :

وينبغي - استكمالاً لهذا الفصل من التاريخ النبوي - ان نلفت نظر القارئ الكريم الى ان الرسالة المحمدية المباركة، مما بشر به جميع الانبياء المتقدمين زمنياً على خاتم الانبياء والمرسلين محمد صلّى اللّه عليه وآله.

ولقد اشار القرآن الكريم إلى ذلك اذ قال اللّه تعالى :

(وإذ أخذ اللّه ميثاق النّبيين لما آتيتُكُم مِن كِتاب وحِكمةٍ ثُم جاءكُم رسولٌ مصدقٌ لِما معكُم لتُؤمِنُن به ولتنصرنّه قال ءأقررتُم وأخذتُم على ذلِكُم إصري قالُوا أقررنا قال فاشهدوا وأنا معكُم مِن الشّاهِدين)(١).

وهذه الآية وإن كانت تكشف عن أصل عامٍ وكلّي وهو : وجوب تصديق

إتباع النبي السابق للنبي اللاحق، إلا أن المصداق الأتم لها هو رسـول الإسلام الكريم.

فيظهر من هذه الآية أن اللّه تعالى أخذ الميثاق المؤكد من جميع الانبياء أو من أصحاب الشرائع منهم أن يؤمنوا برسالة محمد صلّى اللّه عليه وآلـه، ويدعوا أتباعهم إلى تصديقه واتباعه ونصرته.

روى الفخر الرازي عن امير المؤمنين علي عليه السلام :

«إن اللّه تعالى ما بعث آدم عليه السلام ومن بعده مـن الانبيـاء عليهـم الصلاة والسلام إلا أخذ عليهم العهد لئن بعث محمد وهو حي ليؤمنن بـه ولينصرنه»(٢).

ومما يؤيد هذا ان القرآن دعا اهل الكتاب إلى بيان ما قرأوه ووجدوه في

ص ٨٠، وهذا الجواب لا ينسجم فقط مع ما رواه البخاري من أنّ بعثة النبي رافقت نزول آيات من سورة العلق عليه.

(١) آل عمران : ٨١.

(٢) مفاتيح الغيب : ج ٢ ص ٥٠٧.

كتبهم حول رسول الإسلام للناس من دون كتمان واليك فيما يأتي طائفة من الآيات المصرحة بهذا الأمر :

١ - قال اللّه تعالى :

(وإذ أخذ اللّه ميثاق الّذين أُوتوا الكِتاب لَتُبيننّه للنّاس ولا تكتُمونَـه فنبـذُوه وراء ظُهورهم واشتروا به ثمناً قَلِيلاً فبِئس ما يشترون)(١).

٢ - قال تعالى :

(إن الّذين يكتُمون ما أنزل اللّه مِن الكِتابِ ويشترون بِه ثمناً قليلاً أُولئك ما يأكُلُون في بطُونهم إلا النّار، ولا يكلمهم اللّه يوم القِيامةِ ولا يزكّيهم ولهـم عذاب أليم)(٢).

٣ - وقال تعالى :

(الّذين آتيناهم الكِتاب يعرفُونه كما يعرفُون أبناءهم وإن فريقاً مِنهم ليكتمون الحقّ وهم يعلمون)(٣).

٤ - وقال سبحانه :

(الّذين يتّبِعون الرسول النبي الأُمِي الّذي يجدونه مكتُوباً عِندهم في التوراةِ والإنجيل يأمرهم بِالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحِل لهم الطيباتِ ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال الّتي كانت عليهم فالّذين آمنُوا بِه وعزروه ونصروه واتّبعوا النور الّذي أُنزل معه أُولئك هم المفلِحون)(٤).

ان القرآن الكريم يصرح بجلاء ان السيد المسيح (عليه السلام) اخبر عن رسول الإسلام ورسالته اذ يقول تعالى :

(وإذ قال عيسى بن مريم يا بني إسرائيل إنّي رسولُ اللّه إليكُم مصدقاً لِما بين يدي مِن التوراة ومبشراً بِرسول يأتي مِن بعدي اسمه أحمد فلما جاءهم

---

(١) آل عمران : ١٨٧.

(٢) البقرة : ١٧٤.

(٣) البقرة : ١٤٦.

(٤) الاعراف : ١٥٧.

ِبالبيناتِ قالُوا هذا سحر مبين)(١).

كما يتحدث القرآن الكريم عن أهل الكتاب الذين تنكروا لرسالة النبي محمد صلّى اللّه عليه وآله عندما بعث وقد كانوا من قبل يخبرون عنه ويطلبـون النصر به على اعدائهم اذ قال سبحانه :

(ولما جاءهم كِتاب مِن عِندِ اللّه مصدقٌ لِما معهم وكانُوا مِن قبلُ يستفتِحون على الّذين كفروا فلما جاءهم ما عرفُوا كفروا بِه فلعنةُ اللّه على الكافِرين)(٢).

بل ويخبرنا القرآن الكريم بأن إبراهيم عليه السلام يوم أحلّ زوجته وولـده اسماعيل بارض مكة دعا قائلاً :

(ربنا وابعث فيهم رسولاً مِنهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكِتاب والحِكمـة ويزكيهم إنّك أنت العزيز الحكيم)(٣).

وقد انطبقت هذه الأوصاف على رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله إذ يصفه القرآن الكريم بقوله :

(لقد من اللّه على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولاً مِن أنفُسِهم يتلُو عليهم آياتِه ويزكّيهم ويعلمهم الكتاب والحِكمة وإن كانُوا مِن قبلُ لفي ضلال مبينٍ)(٤).

محمد خاتم الانبياء :

واستكمالاً لهذا البحث ينبغي أيضاً أن نشير إلى أبرز ناحية في رسالة النبي محمد صلّى اللّه عليه وآله ونبوته وهي مسألة الخاتمية.

فان القرآن الكريم صرح في آيات عديدة بكون رسول اللّه محمد صلّى اللّه عليه وآله خاتم النبيين، وشريعته خاتمة الشرائع، فلا نبي بعده، ولا رسالة بعد رسالته.

---

(١) الصف : ٦.

(٢) البقرة : ٨٩.

(٣) البقرة : ١٢٩.

(٤) آل عمران : ١٦٤.

وها نحن ندرج ابرز الآيات الواردة في هذا المجال :

١ - قال تعالى :

(ما كان محمد ابا أحد مِن رجالِكُم ولكِن رسول اللّه وخاتم النبيين وكان اللّه بِكُل شيء عليماً)(١).

٢ - قال سبحانه :

(تبارك الّذي نزل الفُرقان على عبدِه ليكون للعالمين نذيراً)(٢).

٣ - وقال سبحانه :

(وأُوحي إلي هذا القرآن لأُنذِركُم بِه ومن بلغ)(٣).

٤ - وقال تعالى :

(وما أرسلناك إلا كافّةً لِلنّاس بشيراً ونذيراً ولكِن أكثر النّاس لا يعلمـون)(٤).

والآياتُ الثلاث الأخيرة تفيد بأن رسالة النبي محمد صلّى اللّه عليه وآلـه عامة وعالمية وأبدية لأنه في غير هذه الحالة وفي غير هذه الصورة لـن يكون نبياً للناس كافة، وللعالمين جميعاً. ولن يكون نذيراً لقومه ولمن بلغه نداؤه.

هذا وقد صرح النبي صلّى اللّه عليه وآله نفسه في أحاديث كثـيرة بهـذا الموضوع وهو الصادق المصدق.

فعن ابي هريرة قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله :

«أُرسلتُ إلى الناس كافة وبي خُتِم النبيون»(5).

---

(١) الأحزاب : ٤٠.

(٢) الفرقان : ١.

(٣) الانعام : ١٩.

(٤) سبأ : ٢٨.

(٥) الطبقات الكبرى : ج ١ ص ١٢٨.

١٣ ـ ما سبَقني أحدٌ

أولُ من آمن بالنبي من الرجال والنساء :

لقد انتشر الإسلام في العالم بصورة تدريجية، ويوصف الذين بادروا الـى الإيمان بالرسالة الإسـلامية والمساعـدة علـى نشرهـا قبـل غيرهـم ب«السابقين».

وقد كان السبق الى الإيمان برسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله فـي صـدر الإسلام معياراً للفضل ولهذا يجب أن ندرس هذا الموضـوع فـي ضـوء المصادر الصحيحة، ونتعرف على من سبق إلى الإيمان بالرسالة الإسلامية من الرجال، ومن النساء.

ومن النساء : «خديجة»

إن من المسلم به تاريخياً أن «خديجة» كانت أول امرأة آمنت برسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله، ولم يخالف في هذا أحد(١)، ونحن هنا ننقل مستنـداً تاريخياً مهماً واحداً ذكره المؤرخون نقلاً عن إحدى زوجات النبي صـلّى اللّه عليه وآله، مكتفين به رعايةً للاختصار.

تقول عائشة : ما غرتُ على نساء النبي صلّى اللّه عليه وآلـه إلا علـى

«خديجة» وإنّي لم أدركها، وقد كان رسولُ اللّه صلّى اللّه عليه وآله لا يكاد يخرج

---

(١) السيرة النبوية : ج ١ ص ٢٤٠.

من البيت حتى يذكر «خديجة» فيحسن الثناء عليها، فذكرها يوماً من الايام فأدركتني الغيرة، فقلت : هل كانت إلا عجوزاً فقد أبدلك اللّه خيراً منهـا، فغضب حتى اهتز مقدم شعره من الغضب ثم قال :

«لا واللّه ما أبدلني اللّه خيراً منها، آمنت بي إذ كفر الناس، وصـدقتني اذ كذّبني النّاس، وواستني في مالها اذ حرمني الناس ورزقني اللّه منـا اولاداً اذ حرمني اولاد الناس»(١).

ومما يدل أيضاً على سبق خديجة في الإيمان برسول اللّه كل نساء العالـم جمعاء ما جرى في قضية بدء الوحي، ونزول القرآن، لأن النبي صلّى اللّه عليه وآله عندما انحدر من غار «حراء» واخبر زوجته «خديجـة» بمـا جرى له واجه - رأساً - ايمان زوجته به وقبولهـا لكلامـه، وتصديقهـا برسالته، تصريحاً وتلويحاً.

هذا مضافاً الى أنها كانت قد سمعت من قبل أخباراً تتعلق بنبوته ومستقبل

رسالته من كهنة العرب وأهل الكتاب، وهذه الأخبار وامانة فتى قريش وصدقه الذي اشتهر به هي التي دفعت بها إلى أن تتزوج بالفتى الهاشـمي (محمد).

أقدم الرجال اسلاماً : «علي»

إن المشهور المقارب للمتفق عليه بين المؤرخين، سنة وشـيعة، هـو أن «علياً» كان اول من آمن برسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله من الرجال.

ونرى في مقابل هذا القول المشهور أقوالاً أُخر نادرة قد نقل ناقلوهـا مـا يخالفها أيضاً.

فمثلاً يقال : إن زيد بن حارثة ربيب رسول اللّه وابنه بالتبني، أو أبو بكر كان أول من أسلم، ولكن دلائل عديدة (نذكر بعضهـا هنـا علـى سـبيل الاختصار) تشهد على خلاف هذين القولين.

---

(١) صحيح مسلم، ج ٧ ص ١٣٤، صحيح البخاري : ج ٥ ص ٣٩، اسد الغابة لابن الأثير الجزري : ج ٥ ص ٤٢٨، بحار الأنوار : ج ١٦ ص ٨.

واليك بعض هذه الدلائل :

١ - علي تربى في حجر النبي

لقد تلقى علي عليه السلام تربيته في حجر رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله وسلّم ونشأ وترعرع في بيته منذ طفولته، وكان النبي صلّى اللّه عليه وآله يجتهد في تربيته والعناية به كالوالد الرحيم.

قال عامة المؤرخين وكُتّاب السيرة بالاتفاق : إن قريشاً أصـابتهم أزمـةٌ شديدةٌ (قبل بعثة النبي) وكان أبو طالب ذا عيال كثير، فقال رسـول اللّـه صلّى اللّه عليه وآله للعباس عمه، وكان من أيسر بني هاشم : يا عباس إن أخاك أبا طالب كثير العيال، وقد أصاب الناس ما ترى من هـذه الأزمـة فانطلق بنا إليه فلنخفّف من عياله، آخذ من بنيه رجلاً وتأخذ انـت رجـلاً فنكفهما عنه، فقال العباس : نعم، فانطلقا حتى اتيا أبا طالب فقالا له : إنـا نريد أن نخفّف عنك من عيالك حتى ينكشف عن الناس ما هم فيه (إلى ان قال :) فأخذ رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله علياً فضمه اليه، وأخذ العباس جعفراً فضمه إليه فلم يزل علي مع رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله حتـى بعثه اللّه تبارك وتعالى نبياً فاتبعه علي رضي اللّه عنه وآمن بهِ وصـدقه(١).

في هذه الصورة يجب أن نقول بأن علياً عليه السلام انتقل إلى بيت النبـي وهو دون الثامنة، لأن الغرض من أخذ النبي إياه من أبيه «أبي طالب» هو التخفيف عن كاهل زعيم مكة (أبي طالب)، ومن الواضح أن صبياً في مثل هذا السن (دون الثامنة) مضافاً إلى أن فصله عن والديه أمـر فـي غايـة الصعوبة، لن يكون لأخذهِ وتكفّلِهِ أي أثر هام في وضع أبيه «أبي طالـب»

المعيشي.

وعلى هذا يجب أن نفترض له عليه السلام عمراً يكون لأخذه فيه من قِبل النبي تأثيراً معتداً به في وضع أبيه الإقتصادي والمعيشي.

---

(١) السيرة النبوّية : ج ١ ص ٢٤٦، البداية والنهاية : ج ٢ ص ٢٥.

فكيف يمكن القول - والحال هذه - أن أباعد عن البيت النبوي مثل «زيـد بن حارثة» وغيره اطّلعوا على أسرار الوحي، بينما جهل ابن عـم النبـي صلّى اللّه عليه وآله واقرب الناس اليه، والذي كان معه في اكثر الأوقـات بما أتى به صلّى اللّه عليه وآله وما نزل عليه.

إن غرض النبي صلّى اللّه عليه وآله من تربية الإمام علي وتكفّله إياه كان الى حد كبير هو أداء ما أسدى إليه أبو طالب من خدمات، ولم يكـن ثمـة شيء أحب الى رسول اللّه من أن يهدي أحداً إلى الصراط المستقيم، فكيف يمكن أن يقال - والحال هذه - أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله حـرم ابن عمه الذي كان يتمتع بذكاء باهر وضمير يقظ، من هذه النعمة الكبرى.

إن من الأفضل أن نسمع هذا الأمر من لسان «علي» نفسه، فقد بين عليـه السلام في الخطبة القاصعة منزلته من رسول اللّه صلّى اللّه عليـه وآلـه

وسلّم وقربه اليه هكذا :

«ولقد عِلمتم موضعي من رسول اللّه بالقرابة القريبة، والمنزلة الخصيصة، وضعني في حجره وأنا وليد، يضمني إلى صدره، ويكنُفني فـي فراشـه، ويمسني جسده، ويشمني عرفه (عرقه)... ولقد كنتُ أتّبعه اتباع الفصيـل إثر أُمه، يرفع لي في كل يوم من أخلاقه علماً ويأمرني بالإقتداء به، ولقـد كان يجاورني في كل سنة بحراء فأراه ولا يراه غيري، ولم يجمـع بيـتٌ واحد يومئذ في الاسلام غير رسول اللّه، وخديجة وأنا ثالثهمـا أرى نور الوحي والرسالة وأشم ريح النبوة»(١). وجاء في تاريخ الطبري عن ابـن اسحاق قال : كان اول ذكر آمن برسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله وصـلّى معه وصدق بما جاءه من عند اللّه «علي بن ابي طالب» عليه السلام وهو يومئذ ابن عشر سنين، وكان مما انعم اللّه به على علي بن ابي طالب عليه السلام انه كان في حجر رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله

---

(١) نهج البلاغة : جِ ٢ ص ١٨٢، وفي هذه الخطبة نفسها يقول : اللّهم إني أوّل من أناب وسمِعَ واجابَ لم يسبقني إلا رسول اللّه بالصلاة.

قبل الإسلام(١).

٢ - علي وخديجة يقيمان الصلاة مع النبي :

ينقل ابن الاثير في «أسد الغابة»، وابن حجر في «الإصابة» عند ترجمـة «عفيف الكندي» وكثير من علماء التاريخ القصة التالية عنه، بأنه قال :

كنت إمرأً تاجراً فقدمتُ «منى» أيام الحج، وكان العباس بن عبد المطلـب امرأً تاجراً فأتيته أبتاع منه وأبيعه، قال : فبينا نحن إذ خرج رجلٌ من خباء يصلّي فقام تجاه الكعبة ثم خرجت امرأة قامت تصلّي، وخرج غلام يصلّي معه، فقلت : يا عباس ما هذا الدين، إن هذا الدين ما ندري به ؟ فقال : هذا محمد بن عبد اللّه يزعم أن اللّه أرسله وأن كنوز كسرى وقيصر سـتُفتح عليه، وهذه امرأته «خديجة بنت خويلد» آمنت به وهذا الغلام ابـن عمـه «علي بن أبي طالب» آمن به قال عفيف : فليتني كنت رابعهم(٢).

وهذه الواقعة ينقلها ويرويها حتى الذين يقصرون في رواية فضائل الإمـام علي وكتابتها، وفي امكان القارئ الكريم ان يقف على هـذه القصـة فـي المصادر التالية على وجه التفصيل.

٣ - أنا الصِديق الأكبر :

تلاحظ هذه العبارة ونظائرها كثيراً، في خطب الإمام علي عليـه السـلام وكلماته فهو يكرر العبارات التالية بكثرة :

«أنا عبد اللّه، وأخو رسول اللّه، وأنا الصِديقُ الأكبر، لا يقولُها بعـدي إلا كاذب مفتر، ولقد صلّيتُ مع رسول اللّه قبل الناس بسبع سِنين، وأنـا أول

من

---

(١) تاريخ الطبري : ج ٢ ص ٥٧.

(٢) الإصابة : ج ٢ ص ٤٨٠، تاريخ الطبري : ج ٢ ص ٥٧. الكامل : ج ٢ ص ٣٧ و ٣٨، اعلام الورى : ص ٢٥، اسد الغابة : ج ٣ ص ٤١٤.

صلّى معه»(١).

٤ - أولكم إسلاماً : علي

ولقد وردت أحاديث متواترة عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله وبتعابير متنوعة قال فيها :

«أولُكم وارداً علي الحوض، أولُكم إسلاماً علي بن أبي طالب»(٢).

وعندما يدرس المنصف المحايد هذه الاحاديث، يقطع بأسبقية الإمام علـي إلى الإسلام، وتقدمه على غيره في الإيمان بالدعوة المحمدية، ولا يختـار القولين الآخرين اللّذين لا يذهب إليهما إلا الأقلية.

فإن ما يناهز الستين شخصاً من الصحابة والتابعين يؤيدون القـول الأول (أي ان علياً أولُ القوم إسلاماً وأقدمهم إيماناً) وحتى الطبري نفسه الـذي شكّك في هذا القول، واكتفى بنقله دون اختياره وتأكيده، روى في ج ٢ ص ٦٠ بأن «ابن سعد» سأل اباه قائلاً : أكان أبو بكر أولكم إسلاماً، فقال : لا ولقد أسلم قبله اكثر من خمسين.

ومن غريب الأمر ان مؤرخاً كبيراً كابن كثير يتنكر لهذه الحقيقة الساطعة فقد ذكر في ج ٧ ص ٣٣٤ من كتابه «البداية والنهاية» حـديثاً صـحيحاً بإسناد الإمام أحمد الترمذي في إسلام أمير المؤمنين وأنّه أول مـن أسـلم وصلّى ثم أردفه بقوله : وهذا لا يصح. ومن أي وجه كان روي عنه، وقد ورد في أنّه أول من أسلم من هذه الأُمة أحاديثٌ كثـيرةٌ لا يصـح منهـا شيء... إلخ.

وقد تصدى العلامة المحقق الاميني رحمه اللّه للـرد علـى هـذا المقـال بالتفصيل ونظراً لأهمية ما كتبه العلامة الاميني وما احتـوى عليـه مـن نصوص تاريخية نسرده هنا مع ما فيه من تكرار بسيط لبعض ما ذكرناه.

---

(١) خصائص النسائي : ص ٣ وسنن ابن ماجه : ج ١ ص ٥٧، مستدرك الحاكم : ج ١ ص ١١٢، تاريخ الطبري : ج ٢ ص ٥٦ وغيرها.

(٢) يراجع مصادر هذا الحديث فيالغدير : ج ٣ ص ٢٢٠.

يقول العلامة الاميني :

نُسائل هذا الرجل، لِم لا يصح شيء منها من أي وجه كـان ؟! والطـرق صحيحةٌ، والرجال ثقاتٌ، والحفّاظ حكموا بصحته، وأرباب السير أطبقـوا عليه، وكان من المتسالم عليه بين الصحابة الأولين والتابعين لهم بإحسان.

ونحن لو نقتصر على كلمتنا هذه يحسبها القارئ دعوى مجردة لدى ابـن كثير (أعاذنا اللّه عن مثلها) وتخفى عليه جلية الحال فيهمنا ذكر نزر ممـا يدل على المدعى وإن لم يسعنا ايراد كثير منه روماً للإختصار.

النصوص النبوية :

١ - قال صلّى اللّه عليه وآله : أولكم وارداً - وروداً - علـى الحـوض أولكم إسلاماً علي بن أبي طالب.

أخرجه الحاكم فـي المستـدرك ٣ ص ١٣٦ وصـححه م - والخطيـب البغدادي في تاريخه ج ٢ ص ٨١ ويوجد فـي الاسـتيعاب ٢ ص ٤٥٧. شرح ابن أبي الحديد ٣ ص ٢٥٨.

وفي لفظ : أول هذه الأُمة وروداً على الحوض أولها إسلاماً علي بن أبـي طالب، رضي اللّه عنه. السيرة الحلبية ١ ص ٢٨٥. سيرة زيني دحلان ١

ص ١٨٨ هامش الحلبية.

وفي لفظٍ : أول الناس وروداً على الحوض أولهم إسلاماً علـي بـن أبـي طالب مناقب - الفقيه إبن المغازلي. مناقب الخوارزمي.

٢ - قال صلّى اللّه عليه وآله لفاطمة : زوجتك خير أُمتي أعلمهم علمـاً، وأفضلهم حلماً وأولهم سلماً. راجع ما مر ص ٩٥.

٣ - قال صلّى اللّه عليه وآله لفاطمة : إنّه لأول أصـحابي إسـلاماً. أو : أقدم أُمتي سلماً. حديث صحيح راجع ص ٩٥.

٤ - أخذ صلّى اللّه عليه وآله بيد علي، فقال : إن هذا أول من آمن بـي، وهذا أول من يصافحني يوم القيامة، وهذا الصديق الأكبر. راجع الجـزء الثاني

ص ٣١٣، ٣١٤.

٥ - عن أبي أيوب قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله : لقد صـلّت الملائكة علي وعلى علي سبع سنين لأنا كنّا نصلّي وليس معنا احد يصلّي غيرنا.

مناقب الفقيه ابن المغازلي باسنادين م - أسـد الغابـة ٤ : ١٨ ومناقـب الخوارزمي وفيه : ولِم ذلك يا رسول اللّه ؟ قال : لم يكن معي من الرجال غيره. كتاب الفردوس للديلمي. شرح إبن أبي الحديد عن رسالة الاسكافي ٣ ص ٢٥٨. فرائد السمطين الباب ٤٧.

٦ - إبن عباس قال: قال النبي صلّى اللّه عليه وآله : إن اول من صـلّى معي علي. فرائد السمطين الباب ٤٧ بأربع طرق.

٧ - معاذ بن جبل قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله : يا علـي ! اخصمك بالنبوة ولا نبوة بعدي، وتخصم الناس بسبع ولا يجاحدك فيه أحد من قريش، أنت أولهم ايماناً باللّه، وأوفاهم بعهد اللّه، وأقومهم بأمر اللّـه. الحديث. (حلية الأولياء ١ ص ٦٦).

٨ - أبو سعيد الخدري قال : قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله لعلّي - وضرب بين كتفيه - : يا علي لك سبع خصال لا يحاجك فيهن أحد يـوم القيامة، أنت أول المؤمنين باللّه ايماناً، وأوفاهم بعهد اللّه، وأقومهم بأمـر اللّه. الحديث. (حلية الأولياء ١ ص ٦٦).

٩ - من حديث أبي بكر الهذلي وداود بن أبي هند الشعبي عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله انّه قال لعلي عليه السلام : هذا أول مـن آمـن بـي وصدقني وصلّى معي. شرح إبن أبي الحديد ٣ ص ٢٥٦.

١٠ - إن أبا بكر وعمر خطبا فاطمة فردهما رسول اللّه صـلّى اللّـه عليه وآله وقال : لم أُومر بذلك. فخطبها علي فزوجه إياها وقـال لهـا : زوجتك أقدم الأُمة إسلاماً. روى هذا الحديث جماعةٌ من الصحابة منهـم : أسماء بنت عميس وأُم أيمن وإبن عباس وجابر بن عبد اللّه. شرح إبن أبي الحديد ٣ ص ٢٥٧.

كلمات امير المؤمنين عليه السلام :

١ - قال عليه السلام : أنا عبد اللّه، وأخو رسول اللّـه، وأنـا الصديـق الأكبر، لا يقولها بعدي إلا كاذب مفتري، ولقد صلّيت مع رسول اللّه قبـل الناس بسبع سنين، وأنا أول من صلّى معه.

إسناده من طريق إبن أبي شيبة والنسائي وإبن ماجة والحاكم والطبري(١) صحيح رجاله ثقات، راجع الجزء الثاني من كتابنا ٣١٤.

٢ - قال عليه السلام : أنا أول رجل أسلم مع رسول اللّه صلّى اللّه عليـه وآله.

أخرجه أبو داود بإسناده الصحيح كما في شرح إبن أبـي الحديـد ٣ ص ٢٥٨.

٣ - قال عليه السلام : أنا أول من أسلم مع النبي صلّى اللّه عليه وآله.

أخرجه الخطيب البغدادي في تاريخه ٤ ص ٢٣٣.

٤ - قال عليه السلام أنا أول من صلّى مع رسول اللّه صلّى اللّـه عليـه وآله.

أخرجه أحمد، والحافظ الهيثمي في «مجمع الزوائد» وقال : رجاله رجـال الصحيح غير حبة العرني وقد وثق. وأخرجه أبو عمرو في الإستيعاب ٢ ص ٤٥٨. وابن قتيبة في «المعارف» ص ٧٤ من طريق أبي داود عـن شعبة عن سلمة بن كهيل عن حبة عنه عليه السـلام. والإسـناد صـحيح رجاله ثقاتٌ.

٥ - قال عليه السلام أسلمت قبل أن يسلم النّاس بسبع سـنين. الريـاض النضرة ٢ من ١٥٨.

٦ - قال عليه السلام : عبدت اللّه مع رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله سبع سنين قبل أن يعبده أحد من هذه الأُمة. مستدرك الحاكم ٣ ص ١١٢.

٧ - قال عليه السلام : عن حكيم مولى زاذان قال : سمعت علياً يقـول : صلّيت قبل النّاس سبع سنين، وكنّا نسجد ولا نركع، وأول صـلاة ركعنـا فيها صلاة العصر، شرح إبن أبي الحديد ٣ ص ٢٥٨.

(١) في تاريخه ٢ ص ٢١٣.

٨ - قال عليه السلام : عبدت اللّه قبل أن يعبد أحد من هذه الأمة خمـس سنين. الإستيعاب ٢ ص ٤٤٨. الرياض النضـرة ٢ ص ١٥٨. السـيرة الحلبية ١ ص ٢٨٨.

٩ - قال عليه السلام : آمنت قبل الناس سبع سنين. خصائص النسائي ص ٣.

١٠ - قال عليه السلام : ما أعرف أحداً من هذه الأمة عبد اللّه بعد نبينـا غيري، عبدتُ اللّه قبل أن يعبده أحد من هذه الأمة تسع سنين. خصائـص النسائي ص ٣.

١١ - من خطبة له عليه السلام يوم صفين : وابن عم نبيكم معكـم بيـن أظهركم يدعوكم إلى طاعة ربكم، ويعمل بسنّة نبيكم صلّى اللّه عليه، فـلا سواء من صلّى قبل كل ذكر لم يسبقني بصلاتي مع رسول اللّـه. كتـاب نصر ص ٣٥٥. شرح إبن أبي الحديد ١ ص ٥٠٣.

١٢ - قال عليه السلام : اللهم لا أعرف عبداً من هذا الأمة عبـدك قبلـي

غير نبيك (قاله ثلاث مرات) ثم قال : لقد صلّيت قبل أن يصلّي الناس. وفي لفظ : قبل أن يصلي أحد. أخرجه أحمد، أبو يعلى، البزاز، الطبراني، الهيثمي في المجمع ٩ ص ١٠٢. وقال : إسناده حسـن. شـيخ الإسـلام الجويني في الفرائد الباب ٤٨.

١٣ - من كتاب له عليه السلام كتبه إلى معاوية : ان أولى النّـاس بأمـر هذه الأُمة قديماً وحديثاً أقربها من رسول اللّه، وأعلمها بالكتاب، وأفقههـا في الدين، وأولها إسلاماً، وأفضلها جهاداً. كتاب صفين لابن مـزاحم ص ١٦٨ ط مصر.

١٤ - في حديث عنه عليه السلام : لا واللّه إن كنت أول من صدق به فلا أكون أول من كذب عليه. المحاسن والمساوئ ١ ص ٣٦. تاريخ القرماني هامش الكامل لابن الأثير ١ ص ٢١٨.

١٥ - قال عليه السلام : بعث رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله يوم الإثنين وأسلمت يوم الثلاثاء.

مجمع الزوائد ٩ ص ١٠٢. تاريخ القرماني ١ ص ٢١٥. الصواعق ٧٢. تاريخ الخلفاء للسيوطي ١١٢. إسعاف الراغبين ١٤٨.

١٦ - من كتاب كتبه عليه السلام إلى معاوية : ان محمداً صلّى اللّه عليه

وآله لما دعا إلى الإيمان باللّه والتوحيد كنّا أهل البيت أول من آمن به ؟ وصدق بما جاء به، فلبثنا أحوالاً مجرمة (أي كاملة) وما يعبد اللّه فـي ربع ساكن من العرب غيرنا. كتاب صفين لابن مزاحم ص ١٠٠.

١٧ - قال عليه السلام يوم صفين مخاطباً أصحاب معاوية : ويحكـم أنـا أول من دعا إلى كتاب اللّه، وأول من أجاب إليه. كتاب نصر ص ٥٦١.

١٨ - قالت معاذة بنت عبد اللّه العدوية : سمعت علي بن أبي طالب على منبر رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله يقول : أنا الصديق الأكبر آمنت قبل أن يؤمن أبو بكر، وأسلمت قبل أن يسلم أبو بكر. راجع الجزء الثاني ص ٣١٤.

١٩ - قال عليه السلام في خطبة خطبها في معسكر صفين : أتعلمـون أن اللّه فضل في كتابه السابق على المسبوق، وأنه لم يسبقني اللّه ورسوله أحد من الأُمة ؟ قالوا : نعم. راجع الجزء الأول ص ١٩٥.

٢٠ - قال عليه السلام صلّيت مع رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله ثـلاث سنين قبل أن يصلّي معه أحد من النّاس. أخرجه أحمد باسنادين.

٢١ - قال عليه السلام يوم الشورى في حديث أسلفناه : أمنكم أحد وحـد اللّه قبلي ؟ قالوا : لا. أمنكم أحد صلّى القبلتين غيري ؟ قالوا : لا. راجـع ج ١ ص ١٥٩ - ١٦٣، وهذه الفقرة من الحديث عدها إبن أبي الحديد مما استفاضت به الروايات.

٢٢ - مر في الجزء الثاني ص ٢٥ في أبيات له عليه السلام كتبهـا إلـى معاوية :

سبقتكمُ إلى الإسلام طرّا*غلاماً ما بلغت أوان حلمي**

٢٣ - ذكر إبن طلحة الشافعي في مطالب السؤل ص ١١ له عليه السلام :

أنا أخو المصطفى لا شكّ في نسبي*به رُبيت وسبطاه هما ولدي**

صدّقته وجميع النّاس في بُهم*من الضّلالة والإشراك والنكد**

قال : قال جابر : سمعت علياً ينشد بهذا ورسول اللّه يسمع : فتبسم رسول اللّه وقال : صدقت يا علي.

كلمة الإمام السبط الحسن عليه السلام :

٢٤ - من خطبة للامام الحسن عليه السلام في مجلـس معاويـة قولـه : أنشدكم اللّه أيها الرهط، أتعلمون أن الذي شتمتموه منذ اليوم صلّى القبلتين كلتيهما ؟ وأنت يا معاوية بهما كافر، تراها ضلالة، وتعبد اللات والعـزى غواية، وأنشدكم اللّه هل تعلمون أنّه بايع البيعتين كلتيهمـا : بيعـة الفتـح

وبيعة الرضوان ؟ وأنت يا معاوية بإحداهما كافر، وبـأخرى ناكـثٌ. وأنشدكم اللّه هل تعلمون أنّه أول الناس ايماناً ؟ ! وإنّك يا معاوية وأبـاك من المؤلّفة قلوبهم - شرح إبن أبي الحديد ٢ ص ١٠١.

٢٥ - وفي خطبة له عليه السلام مرت في ج ١ ص ١٩٨ : فلما بعث اللّه محمداً للنبوة، واختاره للرسالة، وأنزل عليه كتابه ثم أمره بالدعاء إلى اللّه، فكان أبي أول من استجاب للّه ولرسوله، وأول من آمـن وصـدق اللّـه ورسوله صلّى اللّه عليه وآله وقد قال اللّه في كتابه المـنزل علـى نبيـه المرسل : «أفمن كان على بينة من ربه ويتلوه شاهد منه» فجـدي الّـذي على بينة من ربه، وأبي الذي يتلوه وهو شاهد منه.

رأي الصحابة والتابعين في أول من أسلم

١ - انس بن مالك قال : نُبئ (بعث) النبي صلّى اللّه عليه وآله يوم الإثنين وأسلم علي يوم الثّلاثاء. وفي لفظ له : بعث رسول اللّه صلّى اللّـه عليـه وآله يوم الإثنين وصلّى علي يوم الثّلاثاء.

أخرجه الترمذي في جامعه ٢ ص ٢١٤. الطبراني. الحاكم في المستدرك ٣ ص ١١٢. إن عبد البر في الإستيعاب ٣ ص ٣٢. إبن الأثير في جامع الأُصول كما في تلخيصه تيسير الوصول ٣ ص ٢٧١. الجويني في فرائد السمطين الباب

٤٧. وأوعز إليه العراقي في التقريب ١ ص ٨٥. ويوجد في شـرح إبـن أبي الحديد ٣ ص ٢٥٨. تذكرة السبط ٦٣. السراج المنير شرح الجامـع الصغير ٢ ص ٤٢٤. شرح المواهب ١ ص ٢٤١.

٢ - بريدة الأسلمي قال : أُوحي إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله يـوم الإثنين وصلّى علي يوم الثلاثاء. أخرجه الحاكم في المستدرك ٣ ص ١١٢ وصححه هو وأقره الذهبي.

٣ - زيد بن أرقم قال : أول من أسلم مع رسول اللّه علي بن أبي طالب.

تاريخ الطبري بإسنادين صحيحين رجالهما ثقات. مسند أحمد ٤ ص ٣٦٨. مستدرك الحاكم ٤ ص ٣٣٦ وصححه هو وأقره الذهبي. الكامـل لابـن الأثير ٢ ص ٢٢.

٤ - زيد بن أرقم قال : أول من صلّى مع رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله علي.

أخرجه أحمد والطبراني كما في مجمع الهيثمي ٩ ص ١٠٣ وقال : رجال أحمد رجال الصحيحين. أبو عمرو في الإستيعاب ٢ ص ٤٥٩.

٥ - زيد بن أرقم قال : أول من آمن باللّه بعد رسول اللّه صلّى اللّه عليه

وآله علي بن أبي طالب. الإستيعاب ٢ ص ٤٥٩.

٦ - عبد اللّه بن عباس قال : أول من صلّى علي.

جامع الترمذي ٢ ص ٢١٥. تاريخ الطبري ٢ ص ٢٤١ بإسناد صـحيح. الكامل لإبن الأثير ٢ ص ٢٢. شرح إبن أبي الحديد ٣ ص ٢٥٦.

٧ - عبد اللّه بن عباس قال : لعلي أربع خصال ليست لأحـد : هـو أول عربي، وأعجمي صلّى مع رسول اللّه صلّى اللّه عليـه وآلـه. مستـدرك الحاكم ٣ ص ١١١. الإستيعاب ٢ ص ٤٥٧.

٨ - عبد اللّه بن عباس قال مجاهد : إنّه قال : أول من ركع مـع النبـي صلّى اللّه عليه وآله علي بن أبي طالب فنزلت فيه هذه الآيـة : وأقيمـوا الصلاة وآتوا الزكاة واركعوا مع الراكعين. تذكرة السبط ٨.

٩ - عبد اللّه بن عباس قال في خطبة له : إن ابن آكلة الأكباد قد وجد من طعام أهل الشام أعواناً على علي بن أبي طالب إبـن عـم رسـول اللّـه وصهره وأول ذكر صلّى معه.

كتاب صفين لابن مزاحم ٣٦٠. شرح إبن أبي الحديد ١ ص ٥٠٤. جمهرة الخطب ١ ص ١٧٥.

١٠ - عبد اللّه بن عباس قال : فرض اللّه تعالى الإستغفار لعلي في القرآن على كلّ مسلم بقوله تعالى : (ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان). فكل من أسلم بعد علي فهو يستغفر لعلي. شرح إبن أبي الحديد ٣ ص ٢٥٦.

١١ - عبد اللّه بن عباس قال : أول من أسلم علي بن أبي طالب.

الإستيعاب ٢ ص ٤٥٨. مجمع الزوائد ٩ ص ١٠٢.

١٢ - عبد اللّه بن عباس قال : كان علي أول من آمن من الناس بعد خديجة رضي اللّه عنهما.

الإستيعاب ٢ ص ٤٥٧ وقال : قال أبو عمرو رضي اللّه عنه : هذا إسناد لا مطعن فيه لأحد لصحته وثقة نقلته. وصححه الزرقاني في شرح المواهب ١ ص ٢٤٢.

١٣ - كان إبن عباس بمكّة يحدث على شفير زمزم ونحن عنده فلما قضى حديثه قام إليه رجلٌ فقال : يابن عباس ؟ إنّي امرؤ من أهل الشام من أهل حمص إنّهم يتبرؤون من علي بن أبي طالب رضوان اللّه عليه ويلعنونه. فقال : بل لعنهم اللّه في الدنيا والآخرة وأعد لهم عذاباً مهيناً. أَلبعد قرابته من رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله ؟ وإنّه لم يكن أول ذكران العالمين ايماناً باللّه ورسوله ؟ وأول من صلّى وركع وعمل بأعمال البر ؟ قال

الشامي : انّهم واللّه ما ينكرون قرابته وسابقته غير انّهم يزعمون أنّـه قتل الناس. الحديث. المحاسن والمساوئ للبيهقي ١ ص ٣٠.

١٤ - عفيف قال : جئت في الجاهلية إلى مكّة وأنا أُريد أن ابتاع لأهلـي من ثيابها وعطرها فأتيت العباس بن عبد المطلب وكان رجلاً تاجراً فأنـا عنده جالس

حيث أنظر إلى الكعبة وقد حلقت الشمس في السماء فارتفعت وذهبـت إذ جاء شاب فرمى ببصره إلى السماء ثم قام مستقبل الكعبة ثم لـم البـث إلا يسيراً حتّى جاء غلام فقام على يمينه، ثم لم يلبث إلا يسيراً حتّـى جـاءت إمرأةٌ فقامت خلفهما، فركع الشاب فركع الغلام والمرأة، فرفع الشاب فرفع الغلام والمرأة، فسجد الشاب فسجد الغلام والمرأة فقلت : يا عباس ؟ أمـر عظيم. قال العباس : أمر عظيم، أتدري من هذا الشاب ؟ قلت : لا. قال : هذا محمد بن عبد اللّه إبن أخي. أتدري من هذا الغلام ؟ هذا علـي إبـن أخي. أتدري من هذه المرأة ؟ هذه خديجة بنت خويلد زوجته، ان إبن أخي هذا أخبرني ان ربه رب السماء والأرض أمره بهذا الدين الذي هو عليـه، ولا واللّه ما على الأرض كلّها أحد على هذا الدين غير هؤلاء الثلاثة.

خصائص النسائي ٣. تاريخ الطبري ٢ ص ٢١. الرياض النضرة ٢ ص ١٥٨. الإستيعاب ٢ ص ٤٥٩. عيون الأثر ١ ص ٩٣. الكامل لإبن الاثير ٢ ص ٢٢. السيرة الحلبية ١ ص ٢٨٨.

١٥ - سلمان الفارسي قال : أول هذه الأُمة وروداً على نبيها الحوض أولها إسلاماً علي بن أبي طالب رضي اللّه عنه.

الإستيعاب ٢ ص ٤٥٧. مجمع الزوائد ٩ ص ١٠٢ وقال : رجاله ثقـات. وعده الإسكافي في رسالته على العثمانية. وأبو عمرو فـي الإسـتيعاب. والعراقي في شرح التقريب ١ ص ٨٥. والقسطلاني في المواهـب ١ ص ٤٥ ممن روى أن علياً أول من أسلم.

١٦ - أبو رافع قال : صلّى النبي صلّى اللّه عليه وآله أول يـوم الاثنيـن وصلّت خديجة آخره وصلّى علي يوم الثّلاثاء من الغد.

أخرجه الطبراني كما في شرح المواهب ١ ص ٢٤٠. عيون الأثر ١ ص ٩٢. وتجده وسابقه في الرياض النضرة ٢ ص ١٥٨. شـرح إبـن أبـي الحديد ٣ ص ٢٥٨.

١٧ - أبو رافع قال : مكث علي يصلّي مستخفياً سبع سنين وأشهراً قبل أن يصلّي أحد. أخرجه الطبراني. الهيثمي في المجمع ٩ ص ١٠٣. الجوينـي في

الفرائد ب ٤٧.

١٨ - أبو ذر الغفاري، عد ممن روى ان علي بن أبي طالب أول من أسلم.

الإستيعاب ٢ ص ٤٥٦. التقريب وشرحه ١ ص ٨٥. المواهب اللدنيـة ١ ص ٤٥.

١٩ - خباب بن الأرت قال : رأيت علياً يصلّي قبل الناس مع النبي وهـو يومئذ بالغ مستحكم البلوغ. رسالة الإسكافي. وعد ممن روى ان علياً أول من أسلم في الاستيعاب ٢ ص ٤٥٦. والمواهب اللدنية ١ ص ٤٥.

٢٠ - المقداد بن عمرو الكندي، ممن روى ان علياً أول من أسلم كما في الإستيعاب ٢ ص ٤٥٦. والتقريب وشرحه ١ ص ٨٥. والمواهب اللدنيـة ١ ص ٤٥.

٢١ - جابر بن عبد اللّه الأنصاري، قال : بعث النبي صلّى اللّه عليه وآله يوم الإثنين وصلّى علي يوم الثّلاثاء. الطبري ٢ ص ٢١١. الكامل لابـن الأثير ٢ ص ٢٢. شرح إبن أبي الحديد ٣ ص ٢٥٨، وعده أبـو عمـرو والعراقي والقسطلاني ممن روى ان علياً أول من أسلم.

٢٢ - أبو سعيد الخدري روى إن علي بن أبي طالب أول من أسلم.

الإستيعاب ٢ ص ٤٥٦. شرح التقريب ١ ص ٨٥. المواهب اللدنية ١ ص

٢٣ - حذيفة بن اليمان قال : كنّا نعبد الحجارة ونشرب الخمر وعلي مـن أبناء أربع عشرة سنة قائم يصلّي مع النبي ليلاً ونهاراً، وقـريش يومئـذ تسافه رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله ما يذب عنه إلا علي. شرح إبن أبي الحديد ٣ ص ٢٦٠.

٢٤ - عمر بن الخطّاب قال عبد اللّه بن عباس : سـمعت عمـر وعنـده جماعةٌ فتذاكروا السابقين إلى الإسلام فقال عمر : أما علي فسمعت رسول اللّه يقول فيه ثلاث خصال : لوددت أن تكون لي واحدة منهـن، وكانـت أحب إلي مما طلعت عليه الشمس، كنت أنا وأبو عبيدة وأبو بكر وجماعـة من أصحابه إذ ضرب النبي صلّى اللّه عليه وآله على منكب علي رضـي اللّه عنه فقال له : يا علي ؟ أنت أول

المؤمنين ايماناً، وأول المسلمين إسلاماً، وأنت منّي بمنزلة هـارون مـن موسى.

رسالة الإسكافي. مناقب الخوارزمي. شرح إبن أبي الحديد ٣ ص ٢٥٨.

٢٥ - عبد اللّه بن مسعود قال : أول حديث علمته من أمر رسـول اللّـه صلّى اللّه عليه وآله أنّي قدمت مكّة مع عمومة لي (وذكـر مثـل حديـث

عفيف المذكور ص ٢٢٦) رسالة الإسكافي.

٢٦ - أبو أيوب الأنصاري، أخرج الطبراني عنه انّه قـال : أول النـاس إسلاماً علي بن أبي طالب. شرح التقريب ١ ص ٨٥. شرح الزرقـاني ١ ص ٢٤٢.

٢٧ - أبو مرازم يعلى بن مرة، عده الزرقاني في شرح المواهـب ١ ص ٢٤٢ ممن قال : إن علياً اول الناس إسلاماً.

٢٨ - هاشم بن عتبة المرقال قال : أنت يا أمير المؤمنين ! أقرب النـاس من رسول اللّه رحماً، وأفضل الناس سابقة وقـدماً. كتـاب نصـر ١٢٥. جمهرة الخطب ١ ص ١٥١.

٢٩ - في كلام لهاشم بن عتبة يوم صفين : ان صاحبنا هو أول من صلّى مع رسول اللّه، وأفقهه في دين اللّه، وأولاه برسول اللّه.

كتاب نصر ٤٠٣. تاريخ الطبري ٦ ص ٢٤. الكامل لابن الأثـير ٣ ص ١٣٥. وقال هاشم يوم صفين :

مع ابن عمّ أحمد المعلّى*فيه الرّسول بالهدى استهلا**

أوّل من صدّقه وصلّى*فجاهد الكفّار حتى أبلى(١)**

٣٠ - مالك بن الحارث الأشتر قال في خطبة له : معنا إبـن عـم نبينـا وسيف من سيوف اللّه علي بن أبي طالب، صلّى مع رسول اللّه لم يسبقـه إلى الصلاة ذكر، حتّى كان شيخاً لم يكن له صبوة ولا نبوة ولا هفوة، فقيه في دين اللّه، عالم بحدود اللّه.

كتاب نصر ٢٦٨. شرح إبن أبي الحديد ١ ص ٤٨٤. جمهرة الخطب ١

---

(١) كتاب صفين لابن مزاحم : ٣٧١ ط مصر.

ص ١٨٣.

٣١ - عدي بن حاتم قال في خطبة له مخاطباً معاوية : ندعوك إلى أفضل الأُمة سابقة، وأحسنها في الإسلام آثاراً.

كتاب نصر ٢٢١. تاريخ الطبري ٦ ص ٢. شرح إبن أبي الحديـد ١ ص ٣٤٤. وفي لفظ إبن الأثير في الكامل ٣ ص ١٢٤ : ان ابن عمـك سـيد المسلمين أفضلها سابقةً.

٣٢ - عدي بن حاتم قال في خطبة أُخرى له : إن كان له «لعلي» عليكـم فضل فليس لكم مثله فسلّموا وإلا فنازعوا عليه، واللّه لئن كان إلى العلـم بالكتاب والسنّة ؟ انّه لأعلم الناس بهما. ولئن كان إلى الإسلام ؟ إنّه لأخـو نبي اللّه والرأس في الإسلام. الإمامة والسياسة ١ ص ١٠٣.

٣٣ - محمد بن الحنفية قال سالم بن أبي الجعد قلت له : أبو بكـر كـان أولهم إسلاماً ؟ ! قال : لا. الاستيعاب ٢ ص ٤٥٨. إذا ثبت أن أبا بكر لم يكن أول الناس إسلاماً فعلي عليه السلام هو المتعين سبق إسلامه.

٣٤ - طارق بن شهاب الأحمسي في كلام له : ثم قلت : ادع علياً وهـو

أول المؤمنين ايماناً باللّه وابن عم رسول اللّه صلّى اللّه عليـه وآلـه ووصيه، هذا أعظم، الحديث. شرح إبن أبي الحديد ١ ص ٧٦.

٣٥ - عبد اللّه بن هاشم المرقال قال في خطبة له : يا أيهـا النّـاس ! ان هاشماً جاهد في طاعة إبن عم رسول اللّه، وأول من آمن به، وأفقههم فـي دين اللّه. كتاب نصر ٤٠٥.

٣٦ - عبد اللّه بن حجل قال : يا أمير المؤمنين ! أنت أولنا ايماناً، وآخرنا بنبي اللّه عهداً. الإمامة والسياسة ١ ص ١٠٣، كتاب نصر.

٣٧ - أبو عمرة بشير بن محصن قال في جمـع مـن أصـحاب علـي ومعاوية : إن صاحبي أحق البرية كلّها بهذا الأمر فـي الفضـل والديـن والسابقة في الإسلام والقرابة من رسول اللّه. كتاب نصر ٢١٠.

٣٨ - عبد اللّه بن خباب بن الأرت قال إبن قتيبـة : إن الخارجـة الّتـي خرجت

على علي بينما هم يسيرون فإذا هم برجل يسوق إمرأته على حمـار لـه فعبروا إليه الفرات فقالوا له : من أنت ؟ قال : أنا رجل مؤمن، قالوا : فما تقول في علي بن أبي طالب ؟ قال : أقول : إنّـه أمـير المـؤمنين وأول المسلمين ايماناً باللّه ورسوله. قالوا : فما اسمك ؟ قال : وأنا عبد اللّه بـن

خباب بن الأرت صاحب رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآلـه. الإمامـة والسياسة ١ ص ١٢٢.

٣٩ - عبد اللّه بن بريدة قال : أول الرجال إسلاماً علي بن أبي طالب ثـم الرهط الثلاث : أبو ذره وبريدة وابن عم لأبي ذر. أخرجه محمد بن إسحق المدني في الجزء الأول من المغازي.

٤٠ - محمد بن أبي بكر كتب إلى معاوية كتاباً منه : فكان أول من أجاب وأناب، وصدق ووافق، وأسلم وسلم أخوه وابن عمه علي بن أبي طالب - الى أن قال - : أول الناس إسلاماً، وأصدق الناس نية - إلى قوله - يا لك الويل ! تعدل نفسك بعلي وهو وارث رسول اللّه ووصيه وأبو ولده، وأول الناس له اتباعاً، وآخرهم به عهداً، يخبره بسره، ويشركه في أمره. نصـر في كتاب صفين ١٣٣.

٤١ - عمرو بن الحمق قال لعلي : أحببتك لخصال خمس : انّك إبن عـم رسول اللّه، وأول من آمن به. وفي لفظ : وأسبق النّاس إلى الإسلام، أبـو الذرية التي بقيت فينا من رسول اللّه، وأعظم رجل من المهاجرين سـهماً في الجهاد. كتاب صفين ١١٥. جمهرة الخطب ١ ص ١٤٩.

٤٢ - سعيد بن قيس الهمداني يرتجز في صفين بقوله(١) :

هذا عليٌّ وابن عمِّ المصطفى*أوّل من أجابه ممّن دعا**

هذا الإمام لا يُبالي من غوى

٤٣ - عبد اللّه بن أبي سفيان قال مجيباً الوليد(٢):

وإنّ وليّ الأمر بعد محمّدٍ*عليّ وفي كلِّ المواطن صاحبه**

---

(١) شرح النهج لابن ابي الحديد : ج ١٣ ص ٢٣٢ وفيه «أول من أجابه فيما روى».

(٢) رسالة الاسكافي، وذكرهما الحافظ الكنجي في الكفاية ص ٤٨ للفضل بن العبّاس.

وصيُّ رسول اللّه حقّاً وصنوه*وأوّل من صلّى ومن لان جانبه**

٤٤ - خزيمة بن ثابت الأنصاري عده العراقي في شرح التقريب ١ ص ٨٥، والزرقاني في شرح المواهب ١ ص ٢٤٢ ممن قال بأن علياً أول الناس إسلاماً. وقالا : أنشد المرزبان له في علي :

أليس أوّل من صلّى لقبلتكم*وأعلم النّاس بالقرآن والسنن ؟ ؟**

وذكر له الإسكافي في رسالته كما في شرح إبن أبي الحديد ٣ ص ٢٥٩ :

وصيُّ رسول اللّه من دون أهله*وفارسه مذ كان**

في سالف الزمن

وأوّل من صلّى من الناس كلّهم*سوى خيرة النسوان واللّه ذو المنن**

وذكرهما له الحاكم في المستدرك ٣ ص ١١٤، وذكر قبلهما :

إذا نحن بايعنا عليّاً فحسبنا*أبو حسن ممّا نخاف من الفتن**

وجدناه أولى النّاس بالنّاس أنّه*أطبّ قريش بالكتاب وبالسنن(١)**

٤٥ - كعب بن زهير، ذكر الزرقاني في شرح المواهب ١ ص ٢٤٢. من قصيدة يمدح بها أمير المؤمنين عليه السلام :

إنّ عليّاً لميمون نقيبته*بالصّالحات من الأفعال مشهورُ**

صهر النبيِّ وخير النّاس كلّهُم*فكلّ من رامه بالفخر مفخورُ**

صلّى الصلاة مع الأُمِّي أوّلهم*قبل العباد وربُّ الناس مكفورُ(٢)**

٤٦ - ربيعة بن الحرث بن عبد المطلب، ذكر جمع من الأعلام له أبياتـاً وذكرها آخرون لغيره وهي:

ما كنت أحسب انّ الأمر منصرف*عن هاشم ثمّ منها عن أبي حسن**

أليس أوّل من صلّى لقبلتهم ؟!*وأعلم النّاس بالآيات والسنن ؟!**

وآخر النّاس عهداً بالنبيِّ؟*ومن جبريل عون له في الغسل والكفن؟**

---

(١) ولهذه الابيات بقية توجد في الفصول المختارة ٢ ص ٦٧.

(٢) في النسخة تصحيف ذكرناها صحيحة.

مَن فيه ما فيهمُ ما تمترون به ؟!*وليس في القوم ما فيه من الحسن**

ماذا الذي ردَّكم عنه ؟! فنعلمه*ها إنّ بيعتكم من أوّل الفتنِ**

وذكر الإسكافي في رسالته البيتين الأولين منها ونسبهما إلى أبي سفيان بن حرب بن أُمية بن عبد شمس حين بويع أبو بكر. شرح إبن أبي الحديـد ٣ ص ٢٥٩.

٤٧ - الفضل بن أبي لهب قال رداً على قصيدة الوليد بن عقبة :

ألا انّ خير النّاس بعد محمّدٍ*مهيمنه التاليه في العرف والنكر**

وخيرته في خيبر ورسوله*بنبذ عهود الشرك فوق أبي بكر**

وأوّل من صلّى صنو نبيِّه*وأوّل من أردى الغواة لدى بدر**

فذاك عليٌّ الخير من ذا يفوقه ؟!"*أبو حسن حلف القرابة والصهر**

٤٨ - مالك بن عبادة الغافقي حليف حمزة بن عبد المطلب قال :

رأيت عليّاً لا يلبّث قرنه*إذا ما دعاه حاسراً أو مسربلا**

فهذا وفي الإسلام أوّل مسلم*وأوّل من صلّى وصام وهلّلا**

٤٩ - أبو الأسود الدؤلي يهدد طلحة والزبير بقوله :

وإنّ علياً لكم مصحرُ*يماثله الأسد الأسودُ**

أما انّه أوّل العابدين*بمكّة واللّه لا يُعبدُ(١)**

٥٠ - جندب بن زهير كان يرتجز يوم صفين بقوله :

هذا عليٌّ والهدى حقّاً معه*يا ربّ فاحفظه ولا**

تضيِّعه

فإنّه يخشاك ربّي فارفعه***نحن نصرناه على من نازعه

صهر النبيِّ المصطفى قد طاوعه***أوّل من بايعه وتابعه(٢)

٥١ - زفر بن يزيد(٣) بن حذيفة الأسدي قال :

فحوطوا عليّاً فانصروه فإنّه***وصيُّ وفي الإسلام أوّل أوّل

---

(١) رسالة الاسكافي كما شرح ابن ابي الحديد : ٢ ص ٢٥٩.

(٢) كتاب نصر بن مزاحم : ٤٥٣.

(٣) في بعض المصادر : زفير بن زيد.

وإن تخذلوه والحوادث جمّة***فليس لكم عن أرضكم متحوّل(١)

٥٢ - النجاشي بن الحارث بن كعب قال :

فقل للمضلّل من وائل***ومن جعل الغثَّ يوماً سمينا

جعلت ابن هند وأشياعه*نظير عليٍّ أما تستحونا ؟!**

إلى أوّل النّاس بعد الرسول*أجاب النبيّ من العالمينا**

وصهر الرّسول ومن مثله*إذا كان يوم يشيب القرونا ؟!(٢)**

٥٣ - جرير بن عبد اللّه البجلي قال :

فصلّى الإله على أحمد*رسول المليك تمام النعم**

وصلّى على الطهر من بعده*خليفتنا القائم المدّعم**

عليّاً عنيت وصيّ النبيّ*يجالد عنه غواة الأُمم**

له الفضل والسبق والمكرمات وبيت النبوّة لا المهتضم**

٥٤ - عبد اللّه بن حكيم التميمي قال :

دعانا الزبير إلى بيعة*وطلحة من بعد أن أثقلا**

فقلنا : صفقنا بايماننا*فإن شئتما فخذا الأشملا**

نكثتم عليّاً على بيعة*وإسلامه فيكمُ أوّلا**

٥٥ - عبد الرحمن بن حنبل (جعل) الجمحي حليف بني الجمح قال :

لعمري لئن بايعتم ذا حفيظة*على الدين معروف العفاف موفّقا**

عفيفاً عن الفحشاء أبيض ماجداً*صدوقاً وللجبّار قدماً مصدِّقاً**

أبا حسن فارضوا به وتبايعوا*فليس كمن فيه يرى العيب منطقا**

عليٌّ وصيُّ المصطفى ووزيره*وأوّل من صلّى لذي العرش واتّقى(٣)**

٥٦ - أبو عمرو عامر الشعبي الكوفي قال : أول من أسلم مـن الرجـال علي بن أبي طالب وهو إبن تسع سنين. رسالة الإسكافي كما في شرح ابن أبي

---

(١) رسالة الاسكافي كما في شرح ابن ابي الحديد : ٣ ص ٢٥٩.

(٢) كتاب صفين لنصر بن مزاحم : ٦٦.

(٣) كفاية الطالب الحافظ الكنجي : ٤٨.

الحديد ٣ ص ٢٦٠.

٥٧ - أبو سعيد الحسن البصري قال : علي أول من أسلم بعـد خديجـة. أخرجه أحمد عن عبد الرزاق عن معمر عن قتادة عنه. ورواه الإسـكافي في رسالته عن عبد الرزاق كما في شرح إبن أبي الحديد ٣ ص ٢٦٠.

وقال الحجاج للحسن وعنده جماعة من التابعين وذكر علي بن أبي طالب : ما تقول أنت يا حسن ؟ فقال : ما أقول ؟ هو : أول من صلّى إلى القبلـة، وأجاب دعوة رسول اللّه. وان لعلي منزلة من ربه وقرابة من رسوله، وقد سبقت له سوابق لا يستطيع ردها أحد. الحجاج غضباً شـديداً وقـام عـن سريره فدخل بعض البيوت.

وقال رجل للحسن : ما لنا لا نراك تثني على علي وتقرظه ؟ قال كيف ؟! وسيف الحجاج يقطر دماً، انّه أول من أسـلم، وحسبكـم بـذلك. رسـالة الإسكافي كما في شرح إبن أبي الحديد ٣ ص ٢٥٨.

٥٨ - الإمام محمد بن علي الباقر قال : أول من آمن باللّه علي بن أبـي طالب وهو إبن إحدى عشرة سنة. شرح إبن أبي الحديد ٣ ص ٢٦٠.

٥٩ - قتادة بن دعامة الأكمة البصري قال : علي أول مـن أسـلم بعـد خديجة. أخرجه أحمد كما سمعت، والقسطلاني عده ممن قـال بـه فـي المواهب ١ ص ٤٥، وأقره الزرقاني في شرحه ١ ص ٢٤٢.

٦٠ - محمد بن مسلم المعروف بابن شهاب(١) عـده القسطلانـي فـي

المواهب ١ ص ٤٥، وأقره الزرقاني في شرحه ١ ص ٢٤٢ من القائلين بأن علياً أول من أسلم.

٦١ - أبو عبد اللّه محمد بن المكندر المدني قال : علي اول من أسلم. تاريخ الطبري ٢ ص ٢١٣. الكامل لابن الأثير ٢ ص ٢٢.

٦٢ - أبو حازم سلمة بن دينار المدني قال : علي أول من أسلم. تاريخ الطبري ١ ص ٢١٣. الكامل لابن الأثير ٢ ص ٢٢.

---

(١) نسبة الى جد جده.

٦٣ - أبو عثمان ربيعة بن أبي عبد الرحمن المدني قال : علي أول من أسلم، تاريخ الطبري ٢ ص ٢١٣. الكامل لابن الأثير ٢ ص ٢٢.

٦٤ - أبو النضر محمد بن السائب الكلبي قال : علي أول من أسلم، أسلم وهو إبن تسع سنين. تاريخ الطبري ٢ ص ٢١٣. الكامل لابن الأثير ٢ ص ٢٢.

٦٥ - محمد بن اسحاق قال : كان أول ذكر آمن برسول اللّه صلّى اللّه

عليه وآله وصلّى معه وصدقه بما جاءه من عند اللّه علـي بـن أبـي طالب وهو يومئذ إبن عشر سنين(١) وكان مما أنعم اللّه به على علي بـن أبي طالب انّه كان في حجر رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله قبل الإسلام.

وقال : وذكر بعض أهل العلم أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله كـان إذا حضرت الصلاة خرج إلى شعاب مكّة وخرج معه علي بن أبـي طالـب، مستخفياً من عمه أبي طالب وجميع أعمامه وسائر قومه فيصلّيان الصلوات فيها، فإذا أمسيا رجعا فمكثا كذلك ما شاء اللّه أن يمكثا، ثم إن أبا طالـب عثر عليهما يوماً وهما يصليان فقال لرسول اللّه صلّى اللّه عليـه وآلـه : يابن أخي ما هذا الدين ؟ الحديث.

تاريخ الطبري ٢ ص ٢١٣. سيرة إبن هشام ١ ص ٢٦٤، ٢٦٥. سـيرة إبن سيد الناس ١ ص ٩٣. الكامل لابن الأثير ٤ ص ٢٢. شرح إبن أبـي الحديد ٣ ص ٢٦٠. السيرة الحلبية ١ ص ٢٨٧.

٦٦ - جنيد بن عبد الرحمن قال : أتيت من حوران إلـى دمشـق لآخـذ عطائي فصلّيت الجمعة ثم خرجت من باب الدرج فإذا عليه شيخ يقال له : أبو شيبة القاص يقص على الناس ، فرغّب فرغبنا، وخوف فبكينـا، فلمـا انقضى حديثه قال : اختموا مجلسنا بلعن أبي تراب. فلعنوا أبا تراب عليه السلام فالتفت إلي من على يميني فقلت له : فمن أبو تراب ؟ فقال : علـي بن أبي طالب إبن عم رسول اللّه، وزوج إبنته، وأول النّاس إسلاماً، وأبـو الحسن والحسين. فقلت : ما أصاب هذا القاص ؟ ! فقمت إليـه وكـان ذا وفرة فأخذت وفرته بيدي وجعلت ألطم وجهه

(١) في الكامل لابن الاثير : ٢ ص ٣٢. احدى عشرة سنة. نقلاً عن ابن اسحاق.

وأبطح برأسه الحائط، فصاح فاجتمع أعوان المسجد فوضعوا ردائي في رقبتي وساقوني حتّى دخلوني على هشام بن عبد الملك وأبو شيبة يقدمني فصاح يا أمير المؤمنين ؟ قاصك وقاص آبائك وأجدادك أتى إليه اليوم أمر عظيم. قال : من فعل لك ؟ فقال : هذا. فالتفت إلي هشام وعنده أشراف النّاس فقال: يا أبا يحيى ؟ متى قدمت ؟ فقلت : أمس وأنا على المصير إلى أمير المؤمنين فادركتني صلاة الجمعة فصلّيت وخرجت إلى باب الدرج فإذا هذا الشيخ قائم يقص فجلست إليه فقرأ فسمعنا، فرغّب من رغّب، وخوف من خوف، ودعا فأمنا، وقال في آخر كلامه : اختموا مجلسنا بلعن أبي تراب، فسألت من أبو تراب ؟ فقيل : علي بن أبي طالب، أول الناس إسلاماً، وإبن عم رسول اللّه، وأبو الحسن والحسين، وزوج بنت رسول اللّه. فواللّه يا أمير المؤمنين ؟ لو ذكر هذا قرابة لك بمثل هذا الذكر ولعنه بمثل هذا اللعن لأحلات به الذي أحلات، فكيف لا أغضب لصهر رسول اللّه وزوج إبنته ؟ ! فقال هشام : بئس ما صنع. تاريخ ابن عساكر ٣ ص ٤٠٧.

هذه جملةٌ من النصوص النبوية، والكلام المأثورة عن أمير المؤمنين والصحابة والتابعين في أن علياً أول من أسلم : وهي تربو على مائة كلمة، أضف إليها ما مر ج ٢ ص ٢٧٦ من أن أمير المؤمنين سباق هذه الأُمة.

واشفع الجميع بما أسلفناه ج ٢ ص ٣٠٦ من أنّه صلوات اللّـه عليـه صديق هذه الأُمة، وهو الصديق الاكبر.

فهل تجد عندئذ مساغاً لمكابرة إبن كثير تجاه هذه الحقيقة الراهنة وقولـه : وقد ورد في أنّه أول من أسلم. إلخ ؟!؟! فإذا لا يصح مثل هذه فما الّـذي يصح ؟ وإن كان لا يصح شيء منها فما قيمة تلك الكتب المشحونة بها ؟! كلا، إنّها كلمة هو قائلها ومن ورائهم برزخٌ إلى يوم يبعثون.

وأنت ترى الرجل يزيف هذه الكلم والنصوص الكثيرة الصحيحـة بحكـم الحفّاظ الأثبات بكلمة واحدة قارصة، ويعتمد في إثبات أي أمر يروقه فـي تاريخه على المراسيل والمقاطيع والآحاد، ونقل المجاهيل وأفناء الناس(١).

---

(١) الغدير : ج ٣ ص ٢١٩ - ٢٣٩.

مناظرة بين المأمون واسحاق :

ولقد دارت بين المأمون العباسي وإسحاق وهو من العلمـاء المشهوريـن حوار طريف في هذا المجال ينقله ابن عبد ربه في كتابه «العقد الفريـد» نذكر هنا خلاصته :

قال المأمون : يا إسحاق أي الأعمال كان أفضل يوم بَعث اللّه رسوله ؟

إبن إسحاق : الإخلاص بالشهادة.

المأمون : أليس السبق إلى الإسلام ؟

ابن إسحاق : نعم.

المأمون : إقرأ ذلك في كتاب اللّه يقول : (والسـابقون السـابقون أُولئـك المقربون) إنّما عني من سبق إلى الاسلام، فهل علمت أحداً سبق علياً إلى الإسلام ؟

إبن إسحاق : إن علياً أسلم وهو حديث السن لا يجوز عليه الحكم وأبو بكر أسلمَ وهو مستكمل يجوز عليه الحكم.

وهنا أمسك المأمون بزمام الكلام وقال :

أخبرني عن إسلام علي حين أسلم لا يخلو من أن يكون رسولُ اللّه صـلّى اللّه عليه وآله دعاه إلى الإسلام، أو يكون إلهاماً من اللّه ؟

قال إسحاق : بل دعاه رسول اللّه الى الإسلام.

قال المأمون : يا إسحاق هل يخلو رسول اللّه حين دعاه الى الإسلام من ان يكون دعاه بأمر من اللّه أو تكلّف ذلك من نفسه.

ثم قال : يا اسحاق لا تنسب رسول اللّه إلى تكلّف فإن اللّه يقول : (وما أنا مِن المتكلّفين).

فإذا دعاه بأمر اللّه وليس من صفة الجبار - جل ذكره - أن يكلف رسـله دعاء من لا يجوز عليه حكم، أفتراه في قياس قولك يا إسحاق ؟ أن علياً أسلم صبياً لا يجوز عليه الحكم قد تكلّف رسولُ اللّه صلّى اللّه عليه وآلـه من دعاء

الصبيان ما لا يطيقون(١).

وعلى هذا الاساس يجب اعتبار ايمان علي عليه السلام ايماناً صحيحاً ثابتاً لم يقلّ عن إيمان الآخرين أهميةً وقيمة بل هو افضل مصداق لقوله تعالى : (والسابقون السابقون أُولئك المقربون)، هو الإمام علي بن أبي طالب.

قضيةُ «إنقطاع الوحي» :

لقد أضاءت روح النبي صلّى اللّه عليه وآله ونفسه الشريفة واستنارت بنور الوحي، ودفعه ذلك الى التأمل والتفكير في الوظيفة الكبرى والثقيلة التـي جعلها اللّه على كاهله، وخاصة عندما خاطبه اللّه تعالى بقوله :

(يا أيها المدثر. قُم فأنذِر. وربك فكبر)(٢).

وهنا طرح المؤرخون وبخاصة الطبري الّـذي لا يخلـو تاريخـه مـن الاساطير الاسرائيلية قضية باسم «انقطاع الوحي» فقالوا : إن رسول اللّـه بعد أن رأى ذلك الملك وسمع منه الآيات الأُولى من القرآن الكـريم بقـي ينتظر نزول خطاب آخر من جانب اللّه تعالى، ولكن دون جدوى، فهو لم ير ذلك الملك الجميل بعد ذلك، ولا أنه سمع النداء الغيبي مرة أُخرى على غرار ما رأى وسمع في بدء نزول الوحي.

ولو كان لانقطاع الوحي في بداية عهد الرسالة (الذي ادعاه هؤلاء) حقيقة فما هو سوى النزول التدريجي للقرآن ليس إلا.

وقد تعلّقت المشيئة الالهية اساساً بأن ينزل الوحي على رسول اللّه تدريجاً، لا دفعةً واحدةً وذلك لمصالح معينة، وحيث أن الأمر في بدء الوحي كـان على أوله وفي بدايته، لذلك لم ينزل الوحي الالهي بعد المرة الأُولى فوراً، ولكن حمِل هذا على «انقطاع الوحي» ولم يكن لا انقطاع الوحي ولا أيـة مسألة أُخرى من

(١) العقد الفريد : ج ٥ ص ٣٥٢ طبعة بيروت دار الكتب العلمية وج ٥ ص ٩٤ طبعة لجنة التأليف القاهرة.

(٢) المدثر : ١ - ٣.

هذا القبيل.

وحيث أن هذه المسألة قد تذرع بها الكُتّاب المغرضون لـذلك ينبغـي أن نعطيها بعض الاهتمام ليتضح أن ما أُدعي من انقطـاع الوحـي، قضيـةٌ فارغةٌ عن الحقيقة ولذلك لا صحة لتطبيق الآيات القرآنية عليها.

ولتوضيح هذا الأمر ننقل هنا نص ما كتبه الطبري ونقله في تاريخه، ثـم نعمد بعد ذلك الى نقده.

يكتب الطبري في هذا الصدد قائلاً : لما أبطأ جبرئيل على رسـول اللّـه صلّى اللّه عليه وآله وجزع جزعاً شديداً قالت له خديجة : ما أرى ربك إلا قد قلاك، فأنزل اللّه عز وجلّ قوله : (والضحى. واللّيـل إذا سـجى. مـا ودعك ربك وما قلى. وللآخرة خير لك مِن الأُولى. ولسوف يعطِيك ربـك فترضى. ألم يجدك يتيماً فآوى. ووجدك ضالاً فهـدى. ووجـدك عائـلاً فأغنى. فأما اليتيم فلا تقهر. وأما السائل فلا تنهر. وأما بِنعمَةِ ربك فحدث) (١).

ولقد أوجد نزولُ هذه الآيات سروراً عظيماً لدى خديجة عليهـا السـلام، وعلمت بأن ما قالته حول رسول اللّه لا أساس له من الصحة(٢).

أسطورة وليس تاريخاً !

إن ذاكرة التاريخ تحفظ وتتذكر جيداً تاريخ حياة السيدة خديجة.

إن خديجة التي كانت أخلاق محمد الفاضلة وخصالـه المجيـدة، وافعالـه الحميدة ماثلة امام عينيها والتي كانت تؤمن بعدل ربها كيـف يجـوز ان تسيء الظن باللّه تعالى وبنبيه الكريم، العظيم الشأن ؟

إن مقام النبوة ومنصب الرسالة، والسفارة الالهية لا يعطى إلا لمن يملـك طائفةً من الصفات النبيلة والخصال الرفيعة، وما لم يتصف شخص النبـي صلّى اللّه عليه وآله هذه الصفات العليا، وما لم تتوفر فيه مثل هذه الشرائط الخاصة

---

(١) الضحى : ١ - ١١.

(٢) تاريخ الطبري : ج ٢ ص ٤٨.

والمواصفات المعينة لم يمنح له ذلك المنصب قط. وتقع العصمة والسكينة القلبية، والاعتماد والتوكل في طليعة هذه الخصال والمواصفات، ومع هذه الأوصاف والخصال يستحيل أن يدور في خلده مثـل تلـك التصـورات الخاطئة. ولقد قال العلماء : إن المسيرة التكاملية عند الانبياء تبدأ من فترة الطفولة والصبا، فان الغشاوات والحجب تبدأ تتساقط وتنقشع الواحدة تلـو الأُخرى منذ ذلك الوقت، ويستمر ذلك حتى تصل الاحاطة العلمية لديهم حد الكمال فلا يشكّون في شيء يرونه أو يسمعونه أبـداً، ومـن حـاز هـذه المراتب لا يمكن أن يتطرق الشك والحيرة والتردد الى قلبهوعقله مطلقاً.

إن آيات سورة «الضحى» وخاصة عبارة (ما ودعك ربك وما قلى) تفيـد فقط بأن هناك من قال مثل هذه العبارة للنبي الاكرم صلّى اللّه عليه وآله، وأما من هو قائلها ؟ وكم تركت هذه العبارة مِن تأثير في نفسية النبي صلّى اللّه عليه وآله وروحيته فهي ساكتة عن كل ذلك ؟

وذهب بعض المفسرين إلى أن قائلها هم بعض المشركين، ولهذا الاحتمال لا تكون جميع الآيات مرتبطة ببدء الوحي، لأنه لا أحـد غـير «علـي» و«خديجة» كان يعرف في بدء البعثة بنزول الوحي، ليتسنّى له أن يعترض على رسول اللّه، ويعيره بانقطاع عنه بعد ذلك، فإن أمر المبعث والرسالة - كما سنقول ذلك فيما بعد - بقي خافياً على أكثر المشركين لمدة ثلاثـة أعوام تماماً، فهو لم يكن مكلّفاً بابلاغ رسالته إلى عامة الناس، إلى أن نزل قولُه تعالى : (فاصدع بما تؤمر) الذي أمره اللّه فيه بالجهر بأمر رسـالته لعامة الناس بلا استثناء.

إختلافُ المؤرخين في مسألة «انقطاع الوحي» :

لم يرد في القرآن الكريم أي ذكر مطلقاً لمسألة (انقطاع الوحي) بل لم ترد به إشارة أيضاً، إنما نلاحظها في كتب السيرة والتفسير فقط، ويختلف كُتّاب السيرة والمؤرخون في علة (انقطاع الوحي) هذا، ومدته اختلافـاً كبـيراً يجعلنا لا نعتمد على أي واحد منها، وها نحن نشير اليها بشكل ما :

١ - ان اليهود سألوا رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله عن اصحاب الكهف، وعن الروح، وعن قصة ذي القرنين فقال عليه الصلاة والسلام : سأُخبركم غداً، ولم يستثن، فاحتبس عنه الوحي(١).

بناء على هذا لا يمكن ان نربط هذه المسألة ببدء الوحـي ومطلـع عهـد الرسالة لان اتصال علماء اليهود واحبارهم مع النبي صلّى اللّه عليه وآلـه عن طريق قريش وسؤالهم اياه حول هذه الأُمور الثلاثة، وقع فـي حـدود السنة السابعة من البعثة يوم توجه وفد من قريش إلى المدينة ليسألوا علماء اليهود عن صحة ما جاء به رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله، فاقترح اليهود عليهم ان يسألوا النبي عن تلك الأُمور الثلاثة(٢).

٢ - قالت خولة وهي امرأة كانت تخدم رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله أن جروأ دخل البيت فدخل تحت السرير فمات، فمكث نبي اللّه صلّى اللّه عليه وآله أياماً لا ينزلُ عليه الوحي، فلما خرج رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله من البيت كنست خولة تحت السرير فاذا جرو ميت فأخذته والقتـه خلـفَ

الجدار فأنزل الله تعالى هذه السورة ولما نزل جبرئيل سأله النبي صلّى الله عليه وآله عن التأخر فقال: «أما علمت أنّا لا ندخلُ بيتاً فيه كلـب ولا صورةٌ»(٣).

٣ - إن المسلمين قالوا : يا رسول الله، ما لك لا ينزلُ عليـك الوحـي ؟ فقال : «وكيف ينزلُ علي وأنتم لا تقصون أظفـاركم ولا تأ خذون مـن شواربكم» ؟(٤) فنزل جبرئيلُ بهذه السورة.

٤ - اهدى عثمان الى النبي صلّى الله عليه وآله عنقود عنب وقيل عِـذق تمر فجاء سائلٌ فأعطاه ثم اشتراه عثمان بدرهم فقدمه اليه صلّى الله عليه وآله ثانياً ثم عاد السائل فأعطاه وهكذا ثلاث مرات فقال صلّى الله عليـه وآله : ملاطفاً لا غضبان : أسائلٌ أنت يا فلان أم تاجر ؟ فتـأخر الوحـي أياماً فاستوحش فنزلت

---

(١) روح المعاني : ج ٣٠ ص ١٥٧، السيرة الحلبية : ج ١ ص ٣١٠ و٣١١.

(٢) السيرة النبوية : ج ١ ص ٣٠٠ و٣٠١.

(٣) تفسير القرطبي : ج ١٠ ص ٨٣ و٧١، السيرة الحبية : ج ١ ص ٣٤٩.

(٤) نفس المصدر.

السورةُ(١).

٥ - إن جرواً لأحد نساء النبي صلّى اللّه عليه وآله أو أحد أقربائه حـال دون نزول الوحي عليه(٢).

٦ - إن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله لما سأل جبرئيل عن تأخّر الوحي قال جبرئيل، لا املِك من نفسي شيئاً إنّما أنا عبد مأمور(٣).

ثم ان هناك أقوالاً أُخرى يمكن الحصول عليها من مراجعة التفاسير(٤).

ولكن الطبري نقلَ وجهاً آخر تمسكَ به المغرضون والمرضى من الكُتّـاب واعتبروه دليلاً على طروء الشك على قلب رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله وهو أن الوحي انقطع عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآلـه بعـد حادثـة (حراء) فقالت خديجة للنبي صلّى اللّه عليه وآله : ما أرى ربـك إلا قـد قلاك !!

فنزل الوحي يقولُ :

(ما ودعك ربك وما قلى)(٥).

ومما يدل على أهداف هذا النوع من الكُتّاب، المريضة، أو عدم تتبعهم واستقصائهم، أنهم تمسكوا من بين جميع الأقوال بهذا الاحتمال، واستندوا إليه للحكم على شخصية كرسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله الذي لم ير في حياته أي أثر للشك والحيرة مطلقاً.

وإننا مع ملاحظة النقاط التالية يمكننا أن نقف على بطلان هذا الاحتمال وتفاهته :

١ - لقد كانت السيدة خديجة من النساء اللواتي أحببن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله حباً صادقاً وعميقاً، فهي التي وقت لزوجها حتى النفس الأخير،

---

(١) تفسير روح المعاني : ج ٣٠ ص ١٥٧.

(٢) غرائب القرآن في هامش تفسير الطبري : ج ٣٠ ص ١٠٨.

(٣) تفسير ابو الفتوح الرازي : ج ١٢ ص ١٠٨.

(٤) مجمع البيان : ج ١٠ تفسير سورة والضحى.

(٥) تفسير الطبري : ج ٣٠ ص ١٤٨.

ووقفت ثروتها الطائلة لتحقيق أهدافه، وكانت في عام البعثة قد قضت

خمسة عشر عاماً من حياتها الزوجية، ولم تر خديجة طوال هذه الفترة من زوجها إلا التقوى والطهر ولم تلمس منه إلا كـرم الصفـات ونبـل الاخلاق فقد كانت من المصدقين له صلّى اللّه عليه وآلـه مـن أول يـوم وكانت تراعي نهاية الأدب في تكليمها معه وعشرتها اياه صلّى اللّه عليـه وآله فكيف تتكلم مثل هذه المرأة المؤمنة الوفية، مع زوجها بغليظ القـول، وتوجه له مثل هذه الكلمة غير المهذبة، بل والجارحة ؟؟!

٢ - إن آية : (ما ودعك ربك وما قلى) لا تدل على أن «خديجة» قالـت مثل هذا الكلام لرسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله، بل غاية ما تفيـده هـذه الآية هي أن مثل هذا الكلام قد وجه الى رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآلـه، وأما من هو القائل، ولماذا قال هذا الكلام ؟ فليس ذلك معلوماً.

٣ - إن ناقل هذه الرواية يصف «خديجة» تارة بأنهـا طمأنـت النـبي، وسكّنت من روعه إلى درجة أنها منعته عن الإنتحار، ولكنه يصفها تـارة أُخرى بانها قالت له : بأن اللّه عاداه وقلاه، ألا ينبغي هنا أن نقول : «كن ذكوراً ثم اكذب» ؟!

٤ - إذا كان الوحي قد انقطع بعد حادثة جبل (حراء) ونزول بضع آيـات من سورة «العلق» إلى أن نزلت سورة «الضحى»، يتوجب - فـي هـذه الصورة - ان تكون سورة «الضحى» ثاني سورة مـن حيـث الترتيـب التاريخي لنزول السور في حين أن تاريخ نزول الآيات والسور القرآنيـة يفيد أنها السورةُ الحاديةُ عشرة من سور القرآن الكريم. لأن فهرس السور القرآنية حسب نزولها هو كالتالي :

١ - العلق.

٢ - القلم.

٣ - المزمل.

٤ - المدثّر.

٥ - تبت (المَسَد).

٦ - التكوير.

٧ - الاعلى.

٨ - الانشراح.

٩ - والعصر.

١٠ - والفجر.

١١ - والضحى(١).

نعم إنفرد اليعقوبي من بين المؤلفين باعتباره سورة الضحى - في تاريخه -(٢) السورة الثالثة من حيث تاريخ النزول، وحتى هذا الرأي لا ينسجـم مع القصة المذكورة (انقطاع الوحي).

الإختلاف في مدة انقطاع الوحي :

لقد تعرض تحديد مدة انقطاع الوحي بشكله المزعوم لإبهام كبير، فقد ذكر ذلك بصور مختلفة في التفاسير والأقوال التالية هي :

٤ أيام.

١٢ يوماً.

١٥ يوماً.

١٩ يوماً.

٢٥ يوماً.

٤٠ يوماً.

ولكن بعد دراسة فلسفة النزول التدريجي للقرآن الكريم سنرى أن انقطـاع الوحي وتوقفه لم يكن حدثاً إستثنائياً، لأن القرآن الكريم أعلن منذ أول يوم أن المشيئة الالهية تعلّقت بأن ينزل القرآن بصورة تدريجيـة، منجمـة إذ يقول تعالى :

(وقُرآناً فرقناه لِتقرأه على مكثٍ)(٣).

---

(١) تاريخ القرآن للزنجاني : ص ٥٨.

(٢) تاريخ اليعقوبي : ج ٢ ص ٣٣.

(٣) الاسراء : ١٠٦.

ويكشفُ القرآن النقاب - في موضع آخر - عن سر نزول القرآن تدريجاً إذ قال :

(وقال الّذين كفروا لولا نُزل عليه القُرآن جملةً واحِدة كذِلك لِنُثبت بِهِ فؤادك ورتّلناه ترتيلاً)(١).

ومع ملاحظة طريقة نزول الآيات والسور القرآنية هذه يجب أن لا يتوقع نزولُ الآيات كل يوم وكلّ ساعة، وأن ينزل جبرئيل على النبي على الدوام، ويأتي إليه بالآيات دون انقطاع، بل إن الآيات القرآنية كانت تنزل على رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله في فواصل زمنية مختلفة وفقاً للاحتياجات، وبحسب الأسئلة المطروحة على النبي، ولأسرار أُخرى في النزول التدريجي شرحها علماء الإسلام(٢).

وفي الحقيقة لم يكن هناك ما يسمى بانقطاع الوحي، بل كل ما كان في الأمر هو أنّه لم يكن ثمة ما يوجب النزول الفوري، والمتلاحق للوحي.

---

(١) الفرقان : ٣٢.

(٢) راجع للوقوف على هذه المسألة معالم الحكومة الإسلامية : ص ١٢٢ - ١٢٤.

١٤ ـ الدَعوَةُ السِرِّيَّة ودَعوَةُ الأقربين

إستمر النبي صلّى اللّه عليه وآله يدعو إلى دينه سِراً مدة ثلاثة أعوام. فهو في هذه السنوات عمد إلى بناء الكوادر واعدادها بدل توجيه الـدعوة إلـى عامة الناس، فإن اعتبارات معينة في ذلك الوقت كانت توجب أن لا يجهر بدعوته ولا يعلِن عن رسالته، ويكتفي بالاتصالات الفردية السرية ويدعـو أشخاصاً معينين إلى دينه.

وقد كانت هذه الدعوة السرية هي السبب في أن ينجذب الى الدين الإسلامي جماعة من الناس، وتواجه دعوته صلّى اللّه عليه وآله منهم بالقبول، وقـد سجل التاريخ أسماء هؤلاء السابقين الذين آمنوا برسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله وسلّم، في هذه الفترة من عهد الرسـالة، وتـاريخ الإسـلام، واليـك بعضهم:

١ - السيدة خديجة بنت خويلد (زوجة النبي).

٢ - علي بن أبي طالب عليه السلام.

٣ - زيد بن حارثة.

٤ - الزبير بن العوام.

٥ - عبد الرحمان بن عوف.

٦ - سعد بن أبي وقاص.

٧ - طلحة بن عبيد اللّه.

٨ - أبو عبيدة الجراح.

٩ - أبو سلمة.

١٠ - الأرقم بن أبي الارقم.

١١ - عثمان بن مظعون.

١٢ - قدامة بن مظعون.

١٣ - عبد اللّه بن مظعون.

١٤ - عبيدة بن الحارث.

١٥ - سعيد بن زيد.

١٦ - خباب بن الأرتّ.

١٧ - أبو بكر بن أبي قحافة.

١٨ - عثمان بن عفان.

وغيرهم من الذين قبلوا دعوة النبي، وآمنوا بنبوته في هذه الفترة(١).

ولقد كان أقطاب قريش وأسيادها منهمكين - طيلة هذه الاعوام الثلاثـة - في لهوهم ومجونهم، ومع أنهم كانوا قد عرفوا بعض الشيء عـن دعـوة النبي السرية إلا أنّهم لم يظهروا أية ردة فِعل تجاهها، ولم يقوموا بشـيء ضدها.

ولقد كان رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله وسلّم في هذه السنوات التي تعتبر فترة صباغة الفرد يخرج مع بعض أتباعه إلى شعاب مكة للصـلاة فيهـا بعيداً عن أنظار قريش.

واتفق أن رآهم بعض المشركين في ما كانوا يصلّون في شـعب مـن شعاب مكة، واستنكروا عملهم هذا، وأدى ذلك إلى منازعة عـابرة بينهـم وبين المشركين جرح على أثرها أحد المشركين على يدي «سعد بن أبـي وقاص» احد المسلمين، ومن هنا قرر رسول اللّه صلّى اللّه عليـه وآلـه اتخاذ بيت «الأرقم بن أبي الأرقم» محلاً

---

(١) السيرة النبوية : ج ١ ص ٢٤٥ و٢٦٢.

للعبادة بدل شعاب مكّة، ليستطيع القيام فيه بالتبليغ والعبادة بحرية وأمـان، بعيداً عن أعين المشركين(١).

ولقد كان «عمار بن ياسر» و«صهيب بن سنان» الرومـي ممـن آمنـوا برسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله في ذلك البيت(٢).

دعوةُ الأقربين :

يشرع العقلاء من الناس من اصحاب البرامج الواسعة والمشاريع الكـبرى اعمالهم الكبرى - عادة - من بدايات صغيرة ونقاط محددة، فـإذا حقّقـوا نجاحاً في هذه البدايات بادروا الى توسيع نطاق نشاطهم فوراً، وهكذا جنباً الى جنب مع النجاحات التي يحقّقونها في كل خطوة يوسعون دائرة العمل،

ويجتهدون في تحقيق المزيد من النجاح، والتكامل لما هم بصدده.

ولقد سأل أحد الشخصيات زعيماً في دولة كبـيرة مـن الـدول الكـبرى المعاصرة : ما هو سر نجاحكم في الاعمال الإجتماعية وما هو الأمر الذي يساعدكم على النجاح في مشاريعكم ؟

فأجابه ذلك الزعيم قائلاً : ان طريقة عملنا نحن الغـربيين تختلـف عـن طريقتكم انتم أهل الشرق، فنحن دائماً نخطّطُ لمشاريع كبرى ونبـدأ مـن مكان صغير، وبعد إحراز النجاح نعمد إلى توسـيع نطـاق العمـل، واذا اكتشفنا في منتصف الطريق خطأ برنامجنا غيرنا أسلوب عملنـا، وعدلنـا إلى طريقة أُخرى، وبدأنا بعمل آخر.

أما أنتم الشرقيون فتدخلون ساحة العمل في برامجكم الكبرى مـن مكـان كبير، وتبدأون من نقطة واسعة، وتحاولون تطبيق مشروعكم جملة واحدة، فاذا واجهتم في خلال العمل طريقاً مسدودة لم يكن في إمكانكم ان ترجعوا من

---

(١) تاريخ الطبري : ج ٢ ص ٦١.

(٢) هذا البيت كان عند جبل الصفا، وكان معروفاً إلى مدة ب: «دار الخيزران» أُسد الغابة : ج ٤ ص ٤٤، السيرة الدحلانية بهامش السيرة الحلبية : ج ١ ص ١٩٢، السيرة الحلبية : ج ١ ص ٢٨٣.

منتصف الطريق إلا بتحمل خسائر كبرى فادحة.

هذا مضافاً إلى أن أنفسكم كأنها قد عجنت بالعجلة ولذلك تودون قطف ثِمار جهودكم ونتيجة عملكم في الحال دونما صبر وترقّب وانتظار، وهذه هـي بنفسها طريقة تفكير إجتماعية خاطئة، من شأنها أن تجعل الإنسـان أمـام طُرق مسدودة كثيرة وغريبة.

هذا ما قاله ذلك الغربي.

ولكن الذي نتصوره ونعتقده نحن هو : أن هذه الطريقـة مـن التفكـير لا ترتبط لا بالشرق ولا بالغرب، بل هي ميزة العقلاء الاذكياء مـن النـاس، فانهم يعتمدون هذا الأسلوب لانجاح مهامهم، وتحقيق مقاصدهم.

ولقد اتبع قائد الإسلام الاكبر الرسول الاعظم صلّى اللّه عليه وآلـه هـذه الطريقة في عمله الرسالي فركّز جهده على الدعوة السرية إلى دينه مـدة ثلاثة أعوام من دون تعجل، وكان يعرض دينه على كل من وجـده أهـلاً للدعوة، ومستعداً من الناحية الفكرية للتبليغ.

فرغم أنّه كان يهدف الى تشكيل دولة عالمية كبرى ينضوي تحت لوائهـا (لواء التوحيد) جميع أفراد البشرية، إلا أنه لم يعمد إلى الدعوة العامة طيلة هذه الأعوام الثلاثة، بل لم يوج الدعوة الخاصة حتى إلى أقاربه، إنّما اكتفى بالاتصال الشخصي بمن وجده مؤهلاً وصالحاً للدعوة، ومستعـداً لقبـول

الدين، حتى انّه استطاع في هذه الأعوام الثلاثة أن يكسب فريقـاً مـن الأتباع من الذين اهتدوا إلى دينه وقبِلُوا دعوته.

وقد كان زعماء قريش - كما اسلفنا - منهمكين طوال هذه الأعوام الثلاثة في اللذّة والهوى وكان فرعون «مكة» وطاغيتها : «أبو سفيان» وجماعته كلما سمِعوا بالدعوة اطلقوا ضحكة استهزاء وقالوا لانفسهـم : إنّهـا أيـام وتنطفئ بعدها شعلة الدعوة هذه فوراً تماماً كما انطفأت من قبـل دعـوة «ورقة» و«امية» (اللّذين أخذا يحبذان الى العرب التوجه نحـو المسيحيـة ونبذ الوثنية بعد أن قرءا الانجيل والتوراة) وبالتالي لن يمر زمـان حتـى ينسى هذا الأمر، ويغدو خبراً بعد أثر، بل

لا شيء يذكر.

بهذا التصور، وبهذه العقلية واجهت زعامة «مكة» دعوة النبي في البداية، ولهذا لم يقم زعماء قريش خلال هذه السنوات الثلاث بأي عملٍ عدائي ضد رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله، بل ظلّوا ينظرون إليه بنظـر الإحـترام، ويراعون معه قواعد الأدب والسلوك، وكان النبي هو أيضـاً لا يتعـرض لأصنامهم وآلهتهم في هذه الأعوام الثلاثـة بسـوء ولا يتناولهـا بالنقـد والاعتراض بصورة علنية، بل كان مركّزاً جهده على الاتصال الشخصي بذوي البصائر من الأشخاص وهدايتهم إلى دينه الحنيف.

ولكن منذ أن بدأ النبي دعوة الأقربين وأخذ ينتقد وثنيتهم، ويذكر أوثانهـم

بسوء ويعترض على تصرفاتهم اللاإنسانية أصبح حديث الألسن. ومنـذ ذلك اليوم أيضاً بدأت يقظة قريش، وعرفوا أمر محمد يختلف عـن أمـر «ورقة» و«أُمية» اختلافاً بيناً وان المبين الدعوتين فرقاً كبيراً، ولهذا بدأت المعارضة والمخالفة السرية والعلنية، لدعوة النبي.

وقد بدأ النبي صلّى اللّه عليه وآله بكسر جدار الصمت بدعوة أقربائه إلـى دينه ثم شرع بعد ذلك بدعوة الناس أجمعين.

على أنه ما من شك في أن الاصلاحات العميقة التي يراد لها ان تترك أثراً في جميع شؤون الناس وكل مناحي حياتهم، وتغير مسير المجتمع تحتـاج قبل أي شيء إلى قوتين :

١ - قوةُ البيان، بأن يستطيع الداعية والمصلح بيان الحقائق التي جاء بهـا من أفكاره الخاصة، أو ما تلقّاه عن طريق آخر الى الناس باسلوب جذاب، يأسر القلوب، ويسحر العقول.

٢ - القوةُ الدفاعيةُ التي يستطيع تشكيل خطّ دفاعي منها عنـد التعـرض لهجوم الأعداء والخصوم، وفي غير هذه الصورة ستنطفئ شعلة الـدعوة ويفشل المصلح في خطاه الأُولى.

ولقد كان البيان لدى رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله في أعلى مرتبة من

الكمال فكان قادراً كأقوى خطيب على بيان تعاليم دينه للناس في غاية الفصاحة والبلاغة. ولكنه كان يفتقر في الأيام الأولى من دعوته إلى عنصر (القوة الثانية)، أي (القوة الدفاعية)، الرادعة الحامية، لأنه استطاع في السنوات الثلاث الأولى من رسالته أن يضم إلى دعوته قرابة أربعين شخصاً، وذلك في الظروف السرية الشديدة، ولا ريب ان تلك القلة القليلة من الاتباع لم تكن قادرة على أن تتولّى مسؤولية الدفاع عن النبي صلّى اللّه عليه وآله، وحماية رسالته.

من هنا عمد رسولُ اللّه صلّى اللّه عليه وآله - وبهدف تحصيل القوة الدفاعية المطلوبة وتشكيل النواة المركزية إلى دعوة أقربائه إلى دينه قبل التوجه بالدعوة الى عامة الناس، ليتمكّن من هذا الطريق أن يزيل النقص من جهة عدم وجود القوة الثانية، ويكون منهم سياجاً قوياً يحفظه، ويحفظ رسالته من الأخطار المحتملة.

على أن فائدة هذه الدعوة كانت على الأقل دفع أبناء عشيرته إلى الدفاع عنه بدافع القربى والرحم على فرض انهم لم يؤمنوا برسالته، ولم يقبلوا دعوته.

هذا مضافاً إلى انه صلّى اللّه عليه وآله كان يعتقد ان أي إصلاح وتغيير لا بد أن يبدأ من إصلاح الداخل وتغييره، فما لم يستطع الإنسان من إصلاح أبنائه وأقربائه وردعهم عن قبائح الأفعال لا يمكن لدعوته أبداً أن تؤثر في الأجانب والأبعدين، لأن المناوئين سيعترضون عليه لدعوته في هذه الحالة، ويشيرون إلى أفعال أبنائه وعشيرته.

من هنا أمره اللّه تعالى بأن يدعو عشيرته الأقربين إذ خاطبه قائلاً :

(وأنذر عشيرتك الأقربين)(١).

كما أنه خاطبه بصدد دعوة الناس عامة بقوله :

(فأصدع بما تُؤمر وأعرض عن المشركين. إنّا كفيناك المستهزئين)(٢).

---

(١) الشعراء : ٢١٤.

(٢) الحجر : ٩٤ و٩٥.

كيفية دعوة الأقربين :

كانت طريقة رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله في دعوة عشيرته الأقربين طريقة جميلة وذكية جداً، فقد تجلّت في ذلك حقيقة أوضحت اسرار هذه الدعوة في ما بعد اكثر فأكثر.

فان المفسرين كتبوا عند قوله تعالى : (وانذر عشيرتك الاقربين) وكذا الأغلبية القريبة للاجماع من المؤرخين أن اللّه أمر نبيه صلّى اللّـه عليـه وآله بأن ينذر عشيرته الأقربين ويدعوهم إلى دينه ورسالته فأمر رسـول اللّه صلّى اللّه عليه وآله علي بن أبي طالب الذي كان آنذاك فـي ربيعـه الثالث عشر أو الخامس عشر بأن يعد طعاماً ولبناً، ثم دعا صلّى اللّه عليه وآله خمساً وأربعين رجلاً من سراة بني هاشم ووجوههم، وعزم علـى أن يبوح لضيوفه ويكشف لهم من امر رسالته في خلال تلك الضيافة إلا أنه - وللأسف - ما أن أنتهوا من الطعام حتى بادر أبو لهـب فتكلّـم بكلمـات سخيفة قبل أن يتحدث النبي صلّى اللّه عليه وآله مما جعـل الجـو غيـر مناسب لأن يطرح النبي صلّى اللّه عليه وآله موضوع رسـالته عليهـم، فانفض المجلس دون تحقيق هذا الغرض.

ولما كان من غد أمر النبي علياً عليه السلام باعداد الطّعام واللّبن ثانيـة، وكرر دعوة تلك الجماعة، إلى ضيافة أُخرى، وبعد أن فرغوا من الطعـام تكلّم رسولُ اللّه صلّى اللّه عليه وآله فقال :

«إن الرائد لا يكذب أهله واللّه الّذي لا إله إلا هو إنّي رسولُ اللّـه إليكُـم خاصة وإلى النّاس عامة واللّه لتموتُن كما تنامون ولتُبعثُن كما تستيقظُـون ولتُحاسبن بِما تعملُون وإنها الجنّة أبداً والنّار أبداً».

ثم قال :

«يا بني عبد المطّلِب انّي واللّه ما أعلَم شاباً في العرب جاء قومه بأفضـل

مما جئتُكُم به، انّي قد جِئتُكم بِخير الدنيا والآخِرة وقد أمرني اللّه عـز وجلّ أن ادعوكُم إليه فأيكُم يؤمن بي ويؤازرني على هذا الأمـر علـى أن يكون أخي و

وصيي وخليفتي فِيكم» ؟

ولما بلغ النبي صلّى اللّه عليه وآله إلى هذه النقطة - وبينما أمسك القـوم وسكتُوا عن آخرهم اذ كان كلُ واحد منهم يفكر في يؤولُ إليه هذا الامـر العظيم، وما يكتنفه من أخطار - قام «علي» عليه السلام فجأة، وهو آنذاك في الثالثة أو الخامسة عشرة من عمره، وقال وهو يكسر بكلماته الشجاعة - جدار الصمت والذهول - :

أنا يا رسول اللّه أكون وزيرك على ما بعثَك اللّه».

فقال له رسولُ اللّه صلّى اللّه عليه وآله : إجلس، ثم كرر دعوتـه ثانيـة وثالثة وفي كل مرة يحجم القوم عن تلبية مطلبه، ويقوم «علي» ويعلن عن استعداده لمؤازرة النبي، ويأمره رسولُ اللّه بالجلوس حتى إذا كـان فـي المرة الثالثة أخذ رسول اللّه بيده والتفت الى الحاضـرين مـن عشيرتـه الاقربين وقال :

«إن هذا أخي ووصيي وخليفتي فيكُم (أو عليكُم) فاسمعوا له، وأطِيعوا».

فقام القوم يضحكون، ويقولون لأبي طالب «قد أمـرك أن تسمـع لابنـك وتطيع وجعله عليك أميراً»(١).

إن ما كتبناه هو - في الحقيقة - خلاصـةٌ لحـديث مفصـل رواه اكثـر المفسرين والمؤرخين بعبارات مختلفة، ولم يشكّك في صحته أحـد، بـل اعتبروه من مسلّمات التاريخ، الا «ابن تيمية» الذي اتخذ موقفاً خاص من أهل بيت النبي صلّى اللّه عليه وعليهم أجمعين.

خِيانةٌ تاريخيةٌ وجِنايةٌ أدبية !!

إن تحريف الحقائق وقلبها، أو إخفاء الوقائع لهو حقاً من أوضح مصاديق

---

(١) تاريخ الطبري : ج ٢ ص ٦٢ و٦٣، تاريخ الكامل : ج ٢ ص ٤٠ و٤١، مسند أحمد : ج ١ ص ١١١، وشرح نهج البلاغة لابن ابي الحديد : ج ١٣ ص ٢١٠ و ٢١١.

الخيانة والجناية.

ولقد سلك فريق من الكُتّاب المتعصبين عبر التاريخ للاسـف مثـل هـذا

الطريق المقبوح، وأسقطوا مؤلّفاتهم العلمية بارتكابهم خطيئة التحريف في جملة من الحقائق، من الاعتبار، وهم يخالون ان عملهم قادر على ان يبقي الحقائق في هالة الإهمال والغموض.

إلا أن أمر هؤلاء قد انكشف مع انقضاء الزمن، وتكامل العِلم، ودفع بفريق من أهل التحقيق والإنصاف الى أن يمزقوا بأطراف اقلامهم حجب الزيف والتحريف ويظهروا الوقائع والحقائق على حقيقتها.

واليك في ما يأتي بعض هذه الخيانات :

١ - لقد ذكر محمد بن جرير الطبري (المتوفى عام ٣١٠ هجري) في تاريخه حادثة دعوة الأقربين بشكل مفصل وعلى النحو الذي مر على القارئ الكريم.

بيد أنه حرف في تفسيره(١) وكتم، فهو عند تفسير قوله تعالى : «وأنذِر عشِيرتك الأقربين» يذكر كلّ ما ذكره في تاريخه، ولكنه يغير ويبدل في قول رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله حيث يقول : «على أن يكون أخي ووصيي وخليفتي»، فهو يكتب في تفسيره هكذا : «على أن يكون كذا وكذا».

ولا ريب ان في تغيير عبارة «أخي ووصيي وخليفتي عليكم (أوفيكم) إلى : «كذا وكذا» غرضاً مريضاً، وهو بالتالي خيانة تاريخية فاضحة.

على أن الطبري لم يكتف بهذا القدر من التغيير في كلام رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله، بل غير حتى في الجملة التي تعقبتها وهي قوله صلّى اللّـه عليه وآله بعد أن قام علي عليه السلام للمرة الثالثة وأعلن عـن اسـتعداده لمؤازرة النبي بعد إحجام القوم وسـكوتهم : «إن هـذا أخـي ووصـيي وخليفتي» حيث أبدلها بعبارة : «إن هذا أخي وكذا وكذا» !!!

إن على المؤرخ أن يكون حراً وشهماً في كتابة الحقائق وروايتها، فيثبتها

---

(١) تفسير الطبري : ج ١٩ ص ٧٤.

ويرويها كما هي، بكل شجاعة، وحيدة.

ولا ريب ان الذي دفع بالطبري إلى أن يرتكب مثل ذلك التبديل والتغييـر هو تعصبه المذهبي، فهو لا يعتبر الإمام علياً خليفة رسول اللّه بلا فصل، وحيث أن تينك الكلمتين : «خليفتي ووصيي» تصرحان بخلافـة «علـي» للنبي ووصايته بلا فصل لذلك يغير ويبدل حتى ينتصر لمذهبه بالتحريـف في شأن نزول هذه الآية أيضاً.

٢ - ولقد فعل ابن كثير (المتوفى عام ٧٣٢) نظير هذا فـي تاريخـه(١)

وكذا في تفسيره (ج ٣ ص ٣٥١) وسلك نفس الطريق الذي سـلكه - من قبل - سلفُه الطبري ضارباً عرض الجدار مبدأ أمانة النقل !!!

ونحن لا نعذر ابن كثير في عمله هذا أبداً، لأنه قد اعتمد - فـي رواياتـه التاريخية - في تاريخه وتفسيره معاً - تاريخ الطبري، لا تفسيره، ولا شك أنّه قد مر على هذه القصة في تاريخ الطبري، ولكنّه مع ذلك حـاد عـن الطريق السوي فأعرض عن نقل رواية التاريخ - في هذه الحادثة - وعمد - بصورة غير متوقعة - الى نقل رواية التفسير !!!

٣ - والأغرب من تينك الخيانتين ما ارتكبه - في عصرنـا الحاضـر - وزير المعارف المصرية الأسبق الدكتور «هيكل» في كتابه «حياة محمد»، وفتح بعمله باب التحريف في وجه الجيل الحاضر.

والعجب ان «هيكل» هاجم - في مقدمته - جماعـة المستشـرقين بشـدة وانتقدهم بعنف لتحريفهم الحقائق التاريخية، واختلافهم لبعض الوقائع فـي حين لم يقصر عنهم في هذا السبيل فهو :

أولاً : نقل الواقعة المذكورة (دعوة الاقربين المعروفة بحادثة يوم الدار أو حديث بدء الدعوة) في الطبعة الأُولى من كتابه المذكور بصورة مبتـورة ومقتضبة جداً واكتفى من الجملتين الحساستين بذكر واحـدة منهمـا فقـط وهي : قولُ النبي مخاطباً

---

(١) البداية والنهاية : ج ٢ ص ٤٠.

الحضور في ذلك اليوم : «من يؤازرني يكون أخِي ووصـيي وخلِيفتِـي» بينما حذف بالمرة الجملة التي قالها رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله لِعلـي بعد أن قام للمرة الثانية وأعلن موآزرته للنبي وهي قوله صلّى اللّه عليـه وآله : «إن هذا أخي ووصيي وخلِيفتي» !!!

ثانياً : انّه خطى في الطبعات الثانية والثالثة والرابعة، خطوة أبعـد حيـث حذف كلتا الجملتين معاً وبهذا قد وجه ضربة كبرى إلى قيمتـه ككاتـب. وقيمة كتابه، كدراسة تاريخية !!

النبوة والإمامة توأمان :

إن الاعلان عن وصاية علي عليه السلام وخلافته في مطلع عهد الرسـالة وبداية أمر النبوة يفيد - بقوة ووضوح - ان هذين المنصبين ليسا بأمريـن منفصلين، ففي اليوم الّذي يعلِن فيه رسولُ اللّه عن رسالته ونبوته، يعيـن خليفته ووصيه من بعده، وهذا يشهد - بجلاء - بـأن النبـوة والإمامـة يشكلان قاعدة واحدة، وأن هذين المنصبين إن هما الا كحلقتين متصلتين لا يفصل بينهما شيء.

كما أن هذه الحادثة تكشف - من جانب آخر عن مدى الشجاعة الروحيـة

التي كان يتحلّى بها الإمام امير المؤمنين «علي بن ابي طالب» عليـه السلام، حيث قام - في مجلس أحجم فيه الشيوخ الدهاة والسادة المجربون عن قبول دعوة النبي صلّى اللّه عليه وآله خوفاً وتهيبـاً - وأعلـن بكـل شجاعة مؤازرته للنبي، واستعداده للتضحية في سبيل دينه ورسـالته هـو آنذاك غلام في ربيعه الثالث أو الخامس عشر، وما حابى أعداء الرسـالة ولا ماشاهم كما فعل المصلحون من الساسة والزعماء المتخوفـون علـى مصالحهم ومراكزهم آنذاك !!!

صحيح ان «علياً» عليه السلام كان في ذلك اليوم أصغر الحاضرين سـنّاً إلا أن معاشرته الطويلة للنبي قد هيأت قلبه لتقبل الحقائق التي تردد شيوخ القوم في قبولها، بل عجزوا عن دركها وفهمها !!

ولقد اعطى ابو جعفر الإسكافي حق الكلام في هذا المجال اذ قال :

فهل يكاف عملُ الطعام، ودعاء القوم صغير غير مميز، وغِر غير عاقل، وهل يؤتمن على سر النبوة طفل... وهل يدعى في جملة الشيوخ والكهول إلا عاقل لبيب، وهل يضع رسولُ اللّه صلّى اللّه عليه وآله يده فـي يـده، ويعطيه صفقة يمينه بالأُخوة والوصية، والخلافة، الا وهو أهل لذلك، بالغ حد التكليف، محتمل لولاية اللّه، وعداوة أعدائه، وما بال هذا الطفـل لـم يأنس بأقرانه ولم يلصق بأشكاله، ولم ير مع الصبيان في ملاعبهـم بعـد اسلامه، وهو كأحدهم في طبقته كبعضهم في معرفته، وكيف لم ينزع إليهم في ساعة من ساعاته بل ما رأيناه الا ماضياً على اسلامه، مصممـاً فـي أمره، محققاً لقوله بفعله، قد صدق اسلامه بعفافه وزهده، ولصق برسـول

اللّه صلّى اللّه عليه وآله من بين جميع من حضرته فهو أمينه وأليفـه في دنياه وآخرته(١).

---

(١) شرح نهج البلاغة لابن ابي الحديد : ج ١٣ ص ٢١٥ و٢٩٥.

١٥ ـ الدعوة العامّة

كان قد انقضى ثلاث سنوات على بدء البعثة يوم عمد رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله الى دعوة الناس عامة بعد دعوة عشيرية الاقربين.

فقد استطاع خلال السنوات الثلاث الأُولى من عمر الدعوة أن يهدي - من خلال الاتصالات السرية - مجموعة من الاشخاص إلى الإسلام ولكنّه دعا هذه المرة وبصوت عالٍ عامة الناس إلى دين التوحيد.

فقد وقف ذات يوم على صخرة عند جبل الصفا ونادى بصوت عال : يـا صباحاه (وهي كلمة كانت العرب تطلقها كلّما أحست بخطر، أو بلغها نبـأ مرعبٍ فكانت هذه الكلمة بمثابة جرس الخطر)(١) فلفت نداء النبي صـلّى اللّه عليه وآله هذا نظر الناس فاجتمع حوله جماعـة مـن أبنـاء القبائـل المختلفة وقالوال له : ما لَك ؟

فقال صلّى اللّه عليه وآله : أرأيتكم إن أخـبرتكم أن العـدو مصبحكـم أو ممسيكم ما كنتم تصدقونني ؟

---

(١) قال الجزري في النهاية : ج ٢ ص ٢٧١ : صعد النبي صلّى اللّه عليه وآله على الصفا وقال : يا صباحاه، هذه كلمة يقولها المستغيث، وأصلها إذا صاحوا

للغارة لانهم اكثر ما كانوا يغيرون عند الصباح ويسمّون يوم الغارة يوم الصباح، فكأن القائل : يا صباحاه يقول : قد غشينا العدو.

قالوا : بلى.

قال : فاني نذير لكم بين يدي عذاب شديد.

ثم قال : إنما مثلي ومثلكم رجل رأى العدو فانطلق يريد أهلـه فخشـي أن يسبقوه إلى أهله فجعل يهتف : واصباحاه(١).

ولقد كانت قريش تعرف عن دينه بعض الشيء، قبل هذا ولكنهـا تملّكهـا الخوفُ هذه المرة، وهي تسمع ذلك الانذار القوي فبادر أحد قادة الكفر إلى تبديد تلك المخاوف فوراً إذ قال لرسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله : تباً لك، ألهذا دعوتنا ؟، وتفرق على أثرها الناس.

الثباتُ والإستقامة على طريق الهدف :

إن نجاح أي شخص مرهونٌ بأمرين :

الأول : الايمان بالهدف.

والثاني : الاستقامة والثبات والسعي الدائب لتحقيق ذلك.

إن الإيمان هو المحرك الباطني والقوة الخفية التي تجر الإنسان شاء أم لم يشأ نحو الغاية التي يتوخاها، وتسهل عليه الصعاب، وتدعوه إلـى العمـل الدائب لتحقيق مقصوده، لأن شخصاً كهذا يعتقد إعتقاداً قوياً بأن سـعادته، ومجده يتوقّفان على ذلك.

وبعبارة أُخرى : إذا آمن انسان بأن سعادته ومجده يتوقفان علـى تحقيـق هدف معين فانه سيندفع بقوة الإيمان نحو تحقيق ذلك الهدف، متجاوزاً كل الصعاب، ومتحدياً كل المشكلات في ذلك السبيل.

فالمريض الذي يرى شفاءه في شراب دواء مر مثلاً سيستهل شُربه.

والغواص الذي يعتقد إعتقاداً جازماً بأن ثمة دررأً غالية الثمن تحت أمواج البحر سيلقي بنفسه في قلب تلك الأمواج دونما خوف أو وجل، ليخرج منها بعد

---

(١) السيرة الدحلانية بهامش السيرة الحلبية : ج ١ ص ١٩٤.

دقائق ظافراً بأغلى الجواهر.

بينما إذا كان المريض أو الغواص يشك في عمله، أو يعتقد بعدم فائدتـه، فإنّه لن يقدم عليه قط واذا ما أقدم فان عمله سيكون حينئذٍ مقروناً بالجهـد والعناء.

فقوة الإيمان اذن هي التي تذلّل كل مشكل، وتسهل كلّ صعب.

غير أنه لا ريب في أن الوصول إلى الهدف لا يخلو من مشكلات وموانع، فلا بد من السعي لرفع تلك الموانع، وإزالة تلكم المشكلات.

وقد قيل قديماً : أن مع كل وردة أشواك، فكيف يمكن قطف وردة دون أن تُدمى أنامل القاطف بالأشواك المحيطة بها ؟؟

هذا وقد بين القرآن الكريم هذه المسألة (وهي ان رمـز السعـادة هـو : الإيمان بالهدف والثبات في طريق تحقيقه) في جملة قصيرة اذ قال :

(إن الّذين قالُوا ربنا اللّه ثُم استقاموا تتنزلُ عليهم الملائكة أن لا تخافُوا ولا تحزنُوا وأبشروا بِالجنةِ الّتي كُنتُم تُوعدون)(١).

ثباتُ النبي صلّى اللّه عليه وآله وصبرُهُ :

لقد أدت إتصالاتُ النبي صلّى اللّه عليه وآله الخاصة. قبل الدعوة العامـة، وجهوده الكبرى بعد الجهر بالدعوة، إلى ظهور وتكوين صف مرصـوص من المسلمين في وجه صفوف الكفر، والوثنية.

فالّذين دخلُوا سراً في حوزة الإسلام والإيمان قبل الدعوة العامـة تعرفـوا على المسلمين الجدد الذين لبوا داعي الإسلام بعد إعلان الرسالة، وشـكّل القدامى والجدد جماعة قوية متعاطفة متحابة، وكان ذلـك بمثابـة إنـذار لأوساط الكفر والشرك والوثنية، أربكها وجعلها تشعر بالخطر.

على أن ضرب نهضة ناشئة والقضاء عليها كان أمراً سهلاً لقريش، ولكن الذي أرعب قريشاً ومنعها من توجيه مثل هذه الضربة هي أن أفراد هذه

---

(١) فُصّلت : ٣٠.

الجماعة، وعناصر هذه النهضة لم يكونوا من قبيلة واحدة، ليمكن مواجهتها وضربها بكلّ قوة، بل إنتمى من كل قبيلة إلى الإسلام، عدد من الأفـراد، ومن هنا لم يكن إتخاذ أي قرار حاسم بحقّهم أمراً سهلاً وبسيطاً.

من هنا قرر سادة قريش وكبراؤها - بعد تداول الأمر في ما بينهـم - أن

يبدأوا بالقضاء على أساس هذه الجماعة، ومحرك هذا الحزب، والداعي إلى هذه العقيدة بمختلف الوسائل فيحاولوا ثنيه عن دعوته بالاغراء والتطميع تارة ويمنعوا من انتشار دينه بالتهديد والايذاء تارة أُخرى.

وقد كان هذا هو برنامج قريش وموقفها من الدعوة طيلة عشر سنوات وهي المدة المتبقية من سنوات البعثة من الفترة المكية، الى ان قررت بالتالي قتله، ولكنه استطاع ان يبطل مؤامرتهم بالهجرة إلى المدينة قبل أن يتمكنوا من القضاء عليه.

ولقد كان «أبو طالب» آنذاك زعيم بني هاشم ورئيسها المطلق، وكان رجلاً طاهر القلب عالي الهمة، شجاعاً، كريماً، وكان بيته ملجأ دافئاً للمحرومين والمستضعفين، وملاذاً أميناً للفقراء والأيتام، وكان يتمتع في المجتمع العربي - علاوة على رئاسة مكة وبعض مناصب الكعبة - بمكانة كبرى ومنزلة عظيمة، وحيث أنّه كان كفيلاً لرسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله بعد وفاة جده «عبد المطلب»، لذلك حضر سادة قريش بصورة جماعية(١) عنده وقالوا له :

«يا أبا طالب إن ابن أخيك قد سب آلهتنا، وعاب ديننا، وسفّه أحلامنا وضلّل آباءنا، فأما أنت كفّه عنّا، وإما أن تخلّي بيننا وبينه».

ولكن «أبا طالب» قال لهم قولاً رفيقاً وردهم رداً جميلاً حكيماً، فانصرفوا عنه.

بيد أن نفوذ الإسلام وانتشاره كان يتزايد باستمرار، وكانـت جاذبيـة الدين المحمدي، وبيان القرآن البليغ يساعدان على ذلك، فيترك اثـره فـي الناس،

---

(١) ادرج ابن هشام في سيرته : ج ١ ص ٢٦٤ و ٢٦٥ اسماءهم بالتفصيل.

وخاصة في الأشهر الحرم حيث تفد الحجيج على مكة من مختلف أنحـاء الجزيرة، وكان النبي صلّى اللّه عليه وآله يعرض دينـه عليهـم، فكانـت أحاديثه الجذّابة، وكلماتة البليغة، ودينُه المحبب تؤثر في قلوب كثير منهم، فيميلون إلى الإسلام ويقبلون دعوة الرسول.

وهنا أدرك طغاة مكة وفراعنتها أن «محمداً» قد بدأ يفتح له مكاناً في قلوب جميع القبائل، وأصبح له انصار وأتباع في كثير منها، مما دفعهـم مـرة أُخرى إلى الحضور عند «أبي طالب» حاميه الوحيد، وتـذكيره بالإشـارة والتصريح بالاخطار المحدقة باستقلال المكّيين وعقائـدهم نتيجـة نفـوذ الإسلام وانتشاره فقالوا له أجمع :

يا أبا طالب، إن لك سنّاً، وشرفاً، ومنزلة فينا، وإنّا قد استنهيناك مِن ابـن اخيك فلم تنهه عنّا، وإنا واللّه لا نصبر على هذا من شتم آبائنـا، وتسفيـه أحلامنا وعيب آلهتنا، حتى تكفه عنّا، أو ننازله وإياك في ذلك حتى يهلـك

أحد الفريقين.

فأدرك حامي الرسول الوحيد - بذكائه وفطنته - أن عليه أن يصبر أمـام جماعة ترى وجودها، ومصالحها في خطر، من هنا عمد إلـى مسالمتهـم وملاطفتهم، ووعد بأن يبلغ ابن اخيه «محمد» كلامهم. وقـد كـان هـذا محاولة من «أبي طالب» لتسكين غضب تلك الجماعة الغاضـبة وإطفـاء ثائرتهم، وتهدئة خواطرهم، ليتم معالجة هذه المشكلة - بعد ذلك - بطريقة أصح، وأفضل.

ولهذا أقبل - بعد خرج تلك الجماعة من عنده - على إبن اخيه، وذكر لـه ما قال له القوم، وهو يريد - بذلك ضمناً - إختبار إيمان «محمد» بهدفـه، فكان الرد العظيم، والجواب الخالد الذي يعتبر من أسطع وألمع السطور في حياة قائد الإسلام الاكبر «محمد» رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله، حيـث قال لعمه بعد أن سمع مقالة قريش :

«يا عم، واللّه لو وضعوا الشمس في يميني، والقمر في يساري، علـى أن أترك هذا الأمر حتى يظهره اللّه، أو اهلك فيه، ما تركتُه».

ثم اغرورقت عيناه الشريفتان بدموع الشوق والحب للهدف، وقام وذهب

من عند عمه.

وكان لتلك الكلمات الصادقة النافذة أثر عجيب في نفس زعيم مكة وسيدها الوقور بحيث نادى ابن اخيه، وأظهر له استعداده الكامل للوقف الى جانبه، والحدب عليه رغم كل المخاطر، والمتاعب التي كانت تكمن له اذ قال :

«إذهب يا ابن أخي فقُل ما أحببتَ فوالله لا أُسلمك لِشيء أبداً».

قريش تمشي إلى أبي طالب للمرة الثالثة :

لقد أقلق انتشار الإسلام المتزايد قريشاً، ودفعها إلى التفكير في حيلة، فاجتمع أشراقها وسادتها للتشاور مرة أُخرى وقالوا :

لعل كفالة أبي طالب لمحمد هي التي تدفعه إلى الدفاع عنه وحمايته والوقوف الى جانبه في دعوته، فكيف لو مشوا إليه بأجمل فتيان مكة، وطلبوا منه أن يأخذه بدل «محمد» ويسلّمه اليهم ليروا فيه رأيهم، ولهذا مشوا الى أبي طالب بعمارة بن الوليد بن المغيرة فقالوا له :

يا أبا طالب هذا عمارةُ بن الوليد أنهد فتى في قريش وأجملُه، فخذه فلك عقلُه ونصره، واتخذه ولداً فهو لك، وأسلِم إلينا ابن أخيك هذا، الّذي فرق جماعة قومك، وسفّه أحلامهم فنقلته، فانما هو رجل برجل !!

فأجابهم أبو طالب وهو مستاء من هذه المساومة الظالمة :

«هذا واللّه لبئس ما تسومونني ! أتعطوني إبنكم أغذُوه لكم، واعطيكم ابني تقتلونه، هذا واللّه ما لا يكون أبداً».

فقال «المطعم بن عدي بن نوفل» : واللّه يا أبا طالب لقد أنصفك قومـك، فما أراك تريد أن تقبل منهم شيئاً.

فأجابه أبو طالب قائلاً : واللّه ما أنصفوني ولكنّك قد أجمعـت خُـذلاني، ومظاهرة القوم علي فاصنع ما بدا لك(١).

---

(١) تاريخ الطبري : ج ٢ ص ٦٧ و٦٨، السيرة النبوية لابن هشام : ج ١ ص٢٦٦ و٢٦٧.

قريش تحاولُ تطميع رسول اللّه !

ولما علمت قريش بأنه لا يمكن ارضاء «أبي طالب» بخذلان ابـن اخيـه «محمد»، فهو وإن كان لا يتظاهر بالإسلام، إلا أنه يكن لابن أخيـه، وداً عميقاً، ومحبة كبرى من هنا قرروا بأن يتركوا مفاوضته، إلا أنهم فكّـروا في خطة أُخرى وهي أن يحاولوا إثناء النبي عن المضـي فـي دعوتـه بتطميعه بالمناصب، والهدايا، والأموال والفتيات الجميلات، ولهـذا مشـوا

الى بيت «أبي طالب» ودخلوا عليه ومحمد جالس إلـى جنبـه فتكلّـم متكلمهم وقال : يا محمد انا بعثنا اليك لِنُكلمك، فانا والله لا نعلم رجلاً من العرب أدخل على قومه ما ادخلت على قومك لقد شتمت الآبـاء، وعيبـت الدين، وسببت الآلهة، وسفهت الاحلام، وفرقت الجماعة ولم يبق امر قبيح الا أتيته فيما بيننا وبينك فان كنت انما جئت بهذا الحديث تطلب بـه مـالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون اكثر مالاً، وان كنت انما تطلب الشـرف فينا فنحن نسودك ونشرفك علينا، وان كان هذا الذي يأتيك تابعاً من الجـن قد غلب عليك بذلنا أموالنا في طبك.

فقال ابو طالب لرسول الله صلّى الله عليه وآله أي ابن أخي ما بال قومك يشكونك، يزعمون انك تشتم آلهتهم وتقول وتقول ؟

فتكلم رسول الله صلّى الله عليه وآله وقال : يا عم أُريـدهم علـى كلمـة واحدة يقولونها تدين لهم بها العرب وتؤدي اليهم بها العجم الجزية.

ففزعوا لكلمته، ولقوله فقال القوم كلمة واحدة : نعم وأبيك عشراً.

قالوا : فما هي، فقال أبو طالب : وأي كلمة هي يا ابن أخي ؟

قال : «لا اله الا الله».

فكان هذا الرد مفاجأة قوية لذلك الفريق الذي يأمل في صرف النبي صـلّى

اللّه عليه وآله عن هدفه، ولهذا قاموا فزعين ينفضـون ثيـابهم وهـم يقولون : «أجعلَ الآلهة إلهاً واحداً إن هذا لشيء عجاب»(١).

---

(١) السيرة الحلبية : ج ١ ص ٣٠٣، تاريخ الطبري : ج ٢ ص ٦٥ و٦٦.

نماذج من إيذاء قُريش وتعذيبها للمسلمين :

يوم صدع رسولُ اللّه صلّى اللّه عليه وآله بما أُمر، وجهر بدعوته للنـاس وأيس سادة قريش من قبوله لأي اقتراح من إقترا حاتهم بعـدما سـمعوه يقول : «واللّه لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يسـاري علـى أن أترك هذا الأمر حتى يظهره اللّه أو أهلك دونه ما تركتُه» بدأ في الحقيقـة واحداً من أشد فصول حياته، واكثرها متاعب ومصاعب، لأن قريشاً كانت لا تزال إلى ذلك الوقت تراعي حرمته وتحترمه، وتسيطر على أعصابها، ولكنها عندما فشلت في خططها لجره إلى مساومتها اضطرت إلى تغييـر نهجها وأسلوبها معه لتقف دون إنتشار دينه مهما كلّف من الثمن مستفيـدة في هذا السبيل من كل الوسائل الممكنة.

من هنا قرر سادة قريش بالاجماع أن يتوسلوا بسلاح الاستهزاء والسخرية، والإيذاء والتهديد، بهدف صرفه عن المضي في دعوته(١).

ولا يخفى أن المصلح الذي يفكر في هداية العالم البشري كله يجب ان يتزود بقدر كبير من الصبر والتحمل، أمام جميع المشكـلات والمتاعـب، والمكاره والشدائد ليتغلب عليها شيئاً فشيئاً، كما كان دأب كل المصلحيـن الآخرين.

ونحن هنا نورد طرفاً من أذى قريش لرسول اللّه وأتباعه ليتضـح مـدى صبر النبي صلّى اللّه عليه وآله وثباته، واستقامته على طريق الدعوة.

ولقد كان رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله يتمتع - مضافـاً إلـى العامـل الروحي والمعنوي الباطني الذي كان يساعده من الداخل أعـني الإيمـان والصبر والإستقامة والثبات - بعامل خارجي تولّى حراسته وحمايته وذلك حماية بني هاشم، وعلى رأسهم أبو طالب له صلّى اللّه عليه وآلـه، لأنـه عندما عرف «ابو طالب» بعزم قريش القاطع على إيذاء إبن أخيه (محمد) دعا بني هاشم عامة، وطلب منهم جميعاً حماية النبي صلّى اللّه عليه وآله والقيام دونه، فلبوا نداء سيدهم، وأجابوه

---

(١) راجع لمعرفة ابرز من كان يؤذي النبيّ والمسلمين المحبر : ص ١٥٧ و١٦١.

إلى ما دعاهم من حماية رسول اللّه وحراسته بعض بدافع الإيمان وآخـر بدافع الرحم، الا «أبو لهب» ورجلان آخران انضموا الى اعـداء النبـي

صلّى اللّه عليه وآله ولكن هذا السياج الدفاعي لم يقدر - مع ذلـك - على صيانته صلّى اللّه عليه وآله من بعض الحوادث المـرة، لأن قريشـاً ألحقت به الأذى، وأنزلت به مكروهاً، كلما وجدته وحيداً بعيداً عن أعيـن حماته.

وإليك فيما يأتي بعض النماذج من ذلك الأذى :

١ - مر «أبو جهل» برسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله عند الصفـا، فـآذاه وشتمه ونال منه ببعض ما يكره من العيب لدينه، والتضعيف لأمره، فلـم يكلّمه رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله ومولاة لعبد اللّه بـن جـدعان فـي مسكن لها تسمع ذلك، ثم انصرف عنه، فعمد إلى ناد مـن قـريش عنـد الكعبة، فجلس معهم، فلم يلبث «حمزة بن عبد المطلب» رضي اللّه عنه أن أقبل متوشحاً قوسه راجعاً من قنص له، وكان صاحب قنص يرميه ويخرج له، وكان إذا رجع من قنصه لم يصل إلى أهله حتى يطوف بالكعبة، وكان إذا فعل ذلك لم يمر على ناد من قريش إلا وقف وسلّم وتحدث معهم، وكان أعز فتى في قريش، وأشد شكيمة.

فلما مر بالمولاة، وقد رجع رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله إلى بيته قالت له : يا أبا عمارة (وتلك هي كنيته) لو رأيت ما لقي ابن أخيك محمد آنفـاً من أبي الحكم بن هشام (وتعني أبا جهل) : وجده ها هنا جالساً فآذاه وسبه، وبلغ منه ما يكره، ثم انصرف عنه ولم يكلمه محمد صلّى اللّه عليه وآله.

فغضب «حمزة» لذلك، فخرج يسعى ولم يقف على أحد معِداً لأبي جهل إذا

لقيه أن يوقع به.

فلما دخل المسجد نظر إليه جالساً في القوم، فأقبل نحوه، حتى إذا قام على رأسه رفع القوس فضربه بها فشجه شجة منكرة، ثم قال : «أتشتمه وأنـا على دينه أقول ما يقول. فرد ذلك علي إن استطعت».

فقامت رجال من بني مخزوم إلى «حمزة» لينصروا «أبا جهل» فقال أبـو جهل :

دعوا أبا عمارة فاني قد سببتُ ابن أخيه سباً قبيحاً(١). وبهذا منـع «أبـو جهل» الذي كان ممن يدرك خطورة مثل هذه المواقف من وقـوع شـجار وقتال.

إن التاريخ الثابت والمسلّم يشهد بأن وجود رجال ذوي بـأس وقـوة بيـن صفوف المسلمين مثل «حمزة» الذي أصبح في ما بعد مـن كبـار قـادة الإسلام، قد كان له أثر كبير في حفظ الإسلام، والحفاظ على حياة الرسول صلّى اللّه عليه وآله ودعم جماعة المسلمين، وتقوية جناحهم، فهـذا ابـن الاثير(٢) يقول عن حمزة : لما اسلم حمزة عرفت قريش أن رسول اللّـه صلّى اللّه عليه وآله قد عز وامتنع فكفوا عما كانوا يتناولون منه.

من هنا أخذت قريش تفكّر في إعداد خطط أُخرى لمواجهة قضية الإسـلام

والمسلمين، سنذكرها في المستقبل.

هذا ويرى بعض المؤرخين مثل ابن كثير الشامي(٣) على أن ردود فعـل إسلام «أبي بكر» و«عمر» وأثرهما لم تكن بأقلّ من تأثير إسلام «حمزة»، وان الدين قوي جانبه باسلام هذين الرجلين، وكسب المسلمون بذلك القـوة والحرية في العمل والتحرك، والحقيقة انه لا شك في انه لكل فرد تـأثيره في تقوية ودعم الإسلام، إلا أنه لا يمكن - القولُ بحال بأن تـأثير إسـلام الشيخين كان يعدل تأثير إسلام «حمزة»، فإن «حمزة» ما ان سـمع بـأن قريشاً أساءت إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله الا وتوجه، من دون أن يعرج على أحد، إلى المسيء وانتقم منه في الحال أشد انتقام، ولم يجـرؤ أحد على الوقوف في وجهه ومنع المسيء منه، ومن غضبه وانتقامه، بينما يكتب ابن هشام في سيرته عن «أبي بكر» امراً يكشف عن أن «أبا بكـر» يوم دخل في صفوف المسلمين لم يكن قادراً على حماية نفسه، ولا علـى الدفاع عن النبي صلّى اللّه عليه وآله. واليك نص الواقعة :

مر رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله ذات يوم على جماعة من قريش وهـم جلوس عند الحجر، فوثبوا إليه وثبة رجل واحد، وأحاطوا به يقولون : أنت الذي تقول :

---

(١) السيرة النبوية : ج ١ ص ٢٩١ و٢٩٢، تاريخ الطبري : ج ٢ ص ٧٢.

(٢) الكامل لابن الاثير : ج ٢ ص ٥٦.

(٣) البداية والنهاية : ج ٢ ص ٢٦ و٣٢.

كذا وكذا، لما كان يقول من عيب آلهتهم ودينهم فيقول رسول اللّه صـلّى اللّه عليه وآله : نعم أنا الذي أقولُ ذلك، فأخذ رجلٌ منهم بمجمـع ردائـه (وهم يقصدون قتله) فقام «أبو بكر» دونه وهو يبكي ويقول: أتقتلون رجلاً يقول ربي اللّه ؟ فانصرفوا عنه (ولم يقتلوه لأمر رأوه)، فرجع رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله إلى منزله، ورجع «أبو بكر» يومئذ وقد صدعوا فرق رأسه(١).

إن هذه الرواية التاريخية اذا دلّت على مشاعر الخليفة تجاه النبي صلّى اللّه عليه وآله إلا أنها تدل قبل أي شيء على عجزه وضعفه.

إنه يدل على أنه لم يملك ذلك اليوم لا أية مقدرة بدنية وروحيـة، ولا أيـة مكانة اجتماعية تُرهب، وحيث أن إلحاق الأذى بشخص رسول اللّه صـلّى اللّه عليه وآله كان ينطوي - في نظر قريش ذلك على عواقب لا تحمد - لذلك تركوا رسول اللّه، ووجهوا ضربتهم إلى رفيقه وصدعوا فرق رأسه.

ولو أنك قارنت بين هاتين الحادثتين وقايست بين موقف «حمزة» الشجـاع وموقف الخليفة الأول هذا لاستطعت أن تقضي بسهولة بأن عزة الإسـلام وقوة المسلمين، وتعزيز موقفهم، وخوف الكفار كان يعود إلى إسـلام أي واحد من ذينك الرجلين ؟

هذا وستقرأ في القريب العاجل كيفية إسلام «عمر». وسترى بأن إسلامه - كاسلام صديقه - لم يزد هو الآخر من قدرة المسلمين الدفاع ية، وأنهـم بالتالي لم يعتزوا باسلامه.

فيوم أسلم «عمر» كاد أن يقتل لولا «العاص بن وائل السهمي» لأنه هـو الذي خاطب الذين قصدوا قتل «عمر» قائلاً : رجلٌ اختار لنفسه أمراً فماذا تريدون منه ؟ أترون بني عدِي بن كعب يسلمون لكم صاحبهم هكذا، خلوا عن الرجل»(٢).

---

(١) السيرة النبوية : ج ١ ص ٢٨٩ و٢٩٠، وقد ذكر الطبري في تاريخه : ج ٢ ص ٧٢ قصة صدع رأس أبي بكر بالتفصيل فراجع.

(٢) السيرة النبوية : ج ١ ص ٣٤٩.

إن هذه العبارة التي قالها «العاص» لانقاذ الخليفة الثاني من أيـدي الذيـن اجتمعوا على قتله تفيد - بوضوح - أن الخوف من قبيلة «عمر» هو الذي كان وراء تركهم إياه وعدم قتله، وقد كان دفاع القبائل عن أبنائهـا سـنة فطرية وعادة متعارفة يومذاك وكان يتسـاوى فيهـا الكبـير والصغـير، والشريف والوضيع.

أجل إن بني هاشم هم كانوا - في الواقع - الحصن الحقيقي للمسلمين، وقد كان القسط الأكبر من هذا الأمر يتحمله «أبو طالب» وذووه، وإلا فان الاشخاص الآخرين الذين كانوا ينضمون إلى صفوف المسلمين لـم يكـن لديهم القدرة على الدفاع عن أنفسهم، فكيف بالدفاع عن الإسلام وجماعـة المسلمين ليقال : أن المسلمين اعتزوا بهم ؟

أبو جهل يكمنُ لرسول اللّه :

لقد أغضب تقدم الإسلام المطرد قريشاً بشدة فلم يمر يوم دون أن يبلغهم نبأ عن انضمام واحد من أفراد قريش الى صفوف المسلمين ولأجل هـذا راح مرجل الغضب والحنق على النبي صلّى اللّه عليه وآله يغلي في نفوسـهم، فهذا فرعون مكة «أبو جهل» يقول لقريش في مجلس من مجـالسهم : يـا معشر قريش إن محمداً قد أبى إلا ما ترون من عيب ديننا، وشتم آبائنـا، وتسفيه أحلامنا، وشتم آلهتنا، وإني أُعاهِد اللّه لأجلسن له غداً بحجـر مـا أطيق حمله فإذا سجد في صلاته فضختُ به رأسه.

فلما كان من غد أخذ «أبو جهل» حجراً كما وصف ثم جلس لرسول اللّـه صلّى اللّه عليه وآله ينتظره، وغدا رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله علـى عادته ووقف للصلاة بين الركن اليماني والحجر الأسـود، وغـدت تلـك الجماعة من قريش فجلست في أنديتها تنتظر ما ابو جهل فاعل، فلما سجد رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله احتمل «أبو جهل» الحجر، ثم أقبل نحوه، حتى إذا دنا منه رجع منهزماً منتقعاً لونه، مرعوباً وقذف الحجر من يـده، فقامت إليه رجال من قريش وقالوا له : ما لك يا أبا الحكم ؟ فقال بصـوت ضعيف يطفح بالخوف والرعب : قمت إليه

لأفعل به ما قلتُ لكم البارحة فلما دنوتُ منه عرض لي دونه ما لا رأيـتُ مثله حياتي، فتركتُه !!(١).

إنه ليس من شك في أن قوة غيبية أدركت رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله بأمر اللّه تعالى في تلك اللحظة، وصورت ذلك المنظر الرهيب وحفظـت رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله كما وعده تعالى وعداً لا خلاف فيه اذ قال : (إنّا كفيناك المستهزئين)(٢).

وهناك نماذج كثيرة من أذى قريش لشخص رسول اللّه صلّى اللّـه عليـه وآله سجلها التاريخ في صفحاته، وقد عقد «ابن الأثير»(٣) فصلاً خاصـاً لهذا الموضوع ذكر فيه أسماء أعداء رسول اللّه صلّى اللّـه عليـه وآلـه الألداء، في مكّة، وبين أنواع ما كانوا يؤذُون به النبي صلّى اللّه عليه وآله، وما قد مر ذكره في الصفحات السابقة ما هو إلا أمثلة على ذلك، فقد كـان صلّى اللّه عليه وآله يواجه في كل يوم نوعاً خاصاً من الأذى، والمضايقة.

فقد روي أن النبي صلّى اللّه عليه وآله كان يطوف ذات يوم فشتمه «عقبة بن أبي معيط» وألقى عمامته في عنقه، وجره من المسجد، فأخذوه من يده، خوفاً من بني هاشم(٤).

ابو لهب يؤذي رسول اللّه :

ولقد تعرض رسولُ اللّه صلّى اللّه عليه وآله لأذى لا مثيل له من جانـب عمه «أبي لهب» وزوجته «أم جميل» وقد كان رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله يجاورهم، فلم يألوا جهداً في إزعاجه وإيذائه فكم من مرة ومرة ألقيـا الرماد

---

(١) السيرة النبوية : ج ١ ص ٢٩٨ و٢٩٩.

(٢) الحجر : ٩٥.

(٣) الكامل في التاريخ : ج ٢ ص ٤٧ كما وعقد المجلسي رحمه اللّه في البحار : ج ١٨ باباً خاصاً بعنوان :

«باب المبعث واظهار الدعوة وما لقي صلّى اللّه عليه وآله من القوم» راجع من صفحة ١٤٨ الى صفحة ٢٤٣.

(٤) السيرة الحلبية : ج ١ ص ٢٩٣ نظيره.

والتراب على رأسه الشريف وثيابه. وكم من مرة نشرت أم جميل الشـوك على طريقه، أو جمعته خلف باب بيته لتؤذيه عند الخروج.

ولا شك ان معارضة انسباء النبي واقربائه لدعوته المباركة، وايذاؤهم اياه كان اكثر ايلاماً لنفسه الشريفة، واشد وقعاً عليها، حتى اننا نجـد القـرآن

يخص أبا لهب باللعن ويسميه بصورة خاصة مما يكشـف عـن هـذه الحقيقة اذ يقول :

(تبت يدا أبي لهبٍ وتب. ما أغنى عنه ماله وما كسبٍ. سيصلى نـاراً ذاتَ لهبٍ. وامرأتُه حمالةَ الحطبِ. في جِيدها حبل مِن مسدٍ)(١).

صبر النبي صلّى اللّه عليه وآله واستقامته :

ولكن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله كان يواجه كل ذلك الأذى وما شابهه من التحججات التي سنشير اليها بصبر عظيم، وثبات تتعجب منه الجبـال الشماء، وذلك اولاً إيماناً منه برسالته.

إيذاء المسلمين وتعذيبُهم !

يرجع تقدم الإسلام في مطلع عهد الرسالة إلى عوامل منها : ثبات رسـول اللّه صلّى اللّه عليه وآله نفسه، وثباتُ أتباعه وأنصاره.

ولقد تعرفنا - في ما سبق - على أمثلة ونماذج من ثبات قائـد الإسـلام الاكبر وصبره، واستقامته في ما لقي من أذىً ومضايقة.

على أن ثبات أنصاره واتباعه الذين آمنوا في مكّة (مركز الحكومية الوثنية

آنذاك) هو الآخر مما يدعو إلى الإعجاب ويستحق الاحترام. وسـنذكر صمودهم وثباتهم في حوادث ما بعد الهجرة في محله.

وأما هنا فنسلّطُ الضوء على حياة عدد من أتباع رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله القدامى الذين تحملوا أشد أنواع العذاب وكانوا يعيشون فـي المحيـط المكي

---

(١) المسد : ١ - ٥.

حيث لم يكن ملجأ لهم يلجؤون اليه، وهاجروا منه لأغراض الدعوة والتبليغ بعد أن تحملوا شيئاً كثيراً من الإيذاء والتعذيب علـى أيـدي المشركيـن والوثنيين القساة.

١ - بلال الحبشي :

كان أبواه ممن أُسروا في الجاهلية وجيء بهم من الحبشـة إلـى جزيـرة العرب ثم الى مكة.

وأما بلال الذي اصبح في ما بعد مؤذن النبي صلّى اللّه عليه وآله فقد كان

غلاماً ل«أُمية بن خلف» الذي كان من أشد أعداء النبي صلّى اللّه عليه وآله.

وحيث أن عشيرة النبي صلّى اللّه عليه وآله تولّتِ الدِفاع عنه صلّى اللّـه عليه وآله وحمايته ولم يمكن لأُمية إلحاق الأذى برسول اللّه صـلّى اللّـه عليه وآله عمد الى تعذيب غلامه بلال الذي أسلم، أمام الناس، بأشد أنواع الأذى والتعذيب إنتقاماً، وتشفياً.

فقد كان يطرح بلالاً عارياً على الأحجار والصخور الملتهبة في الهـاجرة، ويضع صخرة على صدره ثم يقول له : لا تزال هكذا حتى تموت أو تكفر بمحمد، وتعبد اللات والعزى، فيقول وهو في ذلك البلاء والمحنة الشديدة : أحد أحد(١).

ولقد أثار ثباتُ هذا الغلام الأسود وجلده وصبره على أذى سيده، إعجـاب الآخرين، حتى أن «ورقة بن نوفل» مر عليه وهو يعذّب بذلك وهو يقول : أحد أحد، أقبل على «أُمية» ومن يصنع به ذلك من «بني جمح» فيقـول : احلف باللّه لئن قتلتموه على هذا لاتخذنّه حناناً (أي لأجعلن قـبره متبركـاً ومزاراً)(٢).

وربما زاد «أُمية» من تعذيبه لبلال فربط حبلاً بعنقـه وتـرك الصبيـان يديرون به في الأزقة والسكك(٣).

---

(١) السيرة النبوية : ج ١ ص ٣١٧ و٣١٨.

(٢) السيرة النبوية : ج ١ ص ٣١٨.

(٣) الطبقات الكبرى لابن سعد : ج ٣ ص ٢٣٣.

وقد أُسر «أُمية» وابنه في معركة «بـدر» وكانـا أول مـن أُسِـرا مـن المشركين، ولم يوافق بعض المسلمين على قتلهما ولكن بلالاً قال : «رأس الكفر أُمية بن خلف لا نجوتُ إن نجا». وأدى إصرار بلال على قتلهما إلى قتل أُمية وابنه جزاء أعمالهما الظالمة.

٢ - آلُ ياسر رمز الصمود والمقاومة !

كان «عمار» ووالده من السابقين الى الإسلام فهم أسلموا يوم كان رسـول اللّه صلّى اللّه عليه وآله يلتقي بأصحابه ويدعو الى الإسـلام فـي بيـت «الارقم بن أبي الارقم»، وعندما عرف المشركون بانضمامهم إلى صفوف المسلمين عمدوا إلى إيذائهم وتعذيبهم ولم يألوا جهداً في ذلك أبداً.

فقد كان المشركون يخرجون «عماراً» واباه «ياسراً» وأُمه «سميه» فـي وقت الظهيرة الى رمضاء مكة ليقضوا ساعات طويلة تحت أشعة الشمـس الحارقة، وفوق الرمال الملتهبة والصخور المتّقدة كأنها الجمرات.

وقد تكرر هذا العذاب مرات عديدة حتى أودى بحياة «ياسر» فقضى نحبه على تلك الحال.

وقد خاشنت زوجتُه «سمية» أبا جهل وكلمته في زوجها بغليظ القول، فطعنها اللعين برمح في قلبها فقضت - هي الأُخرى - نحبها، وكانا أول شهيدين في الإسلام(١).

وقد ألم رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله ما شاهده من حالهما وهما يعذّبان بأشد أنواع العذاب فقال لهما ولوليهما «عمار» وهو يصبرهم، والدموع تنحدر على خديه :

(صبراً آلَ ياسِر فان موعدكم الجنة)(٢).

---

(١) بحار الأنوار : ج ١٨ ص ٢٤١ والسيرة الحلبية : ج ١ ص ٣٠٠، السيرة الدحلانية بهامش السيرة.

(٢) السيرة الحلبية : ج ١ ص ٣٠٠، السيرة الدحلانية بهامش السيرة الحلبية : ج ١ ص ٢٣٨ و٢٣٩.

وبعد أن قضى والداً «عمار» نحبهما تحت التعذيب بالغ المشركون القساة في تعذيب «عمار» وإيذائه والتنكيل به، وأخذوا يعذّبونه على نحو ما كانوا

يعذّبون به بلالاً، وهم يقصدون قتله، وإلحاقه بأبويه !! أو يتبرأ من دين النبي صلّى اللّه عليه وآله، فاضطر الى أن يعطيهم ما يريـدون ويظهـر الرجوع عن الإسلام، إبقاء على نفسه، وتقية منهم فتركوه، وانصرفوا عن قتله، ولكنه سرعان ما ندم على فعله من التظاهر بترك الإسلام وتأثّم مـن ذلك فجاء إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله وهو يبكي، فقال له النبي : كيف تجد قلبك ؟ قال : مطمئن بالايمان قال : ان عادوا فعد، فنزلت الآيـة التالية في ايمان عمار : (إنّما يفتري الكذِب الذين لا يؤمنُون بِآيـاتِ اللّـه وأُولئك هم الكاذِبون من كفر بِاللّه من بعدِ إيمانِه إلا من أُكره وقلبه مطمئن بالإيمان)(١) (٢).

هذا وروي أن أبا جهل حينما قصد تعذيب «آل ياسر» وكانوا أضعف مـن بمكة أمر بسوطٍ ونارٍ ثم سحبوا عماراً وأبويه على الأرض، فكان يكـوي بطرف السيف والخنجر المحمى بالنار المشتعلة أبدانهم، ويضربهم بالسوط ضرباً شديداً.

وقد تكرر هذا العمل القاسي كثيراً حتى استشهد «ياسر» وزوجته «سمية» على أثر ذلك التعذيب المرير، ولكن دون أن يفتئا حتى النفس الآخر عـن مدح رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله والاشادة بدينه.

ولقد أثار هذا المنظر المؤلم مشاعر فتيان من قريش فأقدموا - رغم عدائهم للإسلام ومشاركتهم لغيرهم من المشركين في بغـض الرسـول - علـى تخليص «عمار» الجريح المنهك عذاباً من براثن «أبي جهل» ليتمكن مـن مواراة أبويه الشهيدين.

٣ - عبدُ اللّه بن مسعود :

تشاور المسلمون في ما بينهم في مقرهم السري في من يجهر بالقرآن على مسامع قريش، في المسجد الحرام لأنها لم تسمع منه شيئاً إذ قالوا : واللّـه ما سمِعت قريش

---

(١) النحل : ١٠٥ و١٠٦.

(٢) الدّر المنثور : ج ٤ ص ١٣٢ عند تفسير الآيتين المذكورتين.

هذا القرآن يجهر لها قط فمن رجل يسمِعهموه ؟

فأبدى «ابن مسعود» استعداده للقيام بهذه العملية الجريئة، وتلاوة القـرآن على مسامع قريش في المسجد الحرام بصوت عالٍ.

فقالُوا : إنّا نخشاهم عليك، إنّما نريد رجلاً له عشيرة يمنعونه من القوم إن أرادوه.

قال : دعوني فان اللّه سيمنعني.

ثم غدا «ابن مسعود» حتى أتى المقام في وقت الضحى وقريش في أنديتها

حتى قام عند المقام ثم قرأ: «بِسم اللّه الرحمن الـرحيم» رافعـاً بهـا صوته، «الرحمان علّم القرآن» وهكذا استمر يقرأ بقية آيات تلك السـورة المباركة.

فارعبت عبارات القرآن الفصيحة القوية قلوب سراة قريش، ولكي يمنعـوا من تأثير هذا النداء الالهي العظيم قاموا إليه جميعاً وجعلوا يضربونه فـي وجهه، وجعل هو يقرأ حتى بلغَ منها ما شاء اللّه أن يبلغ ثـم عـاد إلـى اصحابه وقد أدمِي وجهه وجسمه، وهو مسرور لإسماع قريش كتاب اللّـه تعالى وآياته المباركة(١).

إن الّذين صمدوا في أشد الأيام وأصعبها في مطلع عهد البعثة من المسلمين الأوائل لا شك اكثر ممن ذكرنا اسماءهم إلا أننا اكتفينا بهذا القدر رعايـة للاختصار.

٤ - أبو ذر : أول المجاهدين بالإسلام

كان «أبو ذر» رابع أو خامس من أسلم(٢)، وعلى هذا فهـو مـن الذيـن أسلموا في الأيام الأُولى من بزوغ شمس الإسلام وطلوع فجره، فإذن هـو من السابقين إلى الإسلام.

وقد صرح القرآن الكريم بأن للذين سبقوا إلى الإيمان برسول اللّه في بدء

(١) السيرة النبوية : ج ١ ص ٣١٤.

(٢) أُسد الغابة : ج ١ ص ٣٠١، الإصابة : ج ٤ ص ٦٤، الإستيعاب : ج ٤ ص ٦٢.

بعثته وبالتالي فإن للسابقين عند اللّه تعالى مكانة عظيمة، ومقاماً لا يضاهى إذ قال تعالى :

(والسابِقُون السابِقُون. أُولئك المقربون)(١).

وقال تعالى فيهم أيضاً:

(والسابِقُون الأولُون مِن المهاجرين والأنصار والّـذين اتّبعـوهم بإحسـان رضي اللّه عنهم ورضوا عنه وأعد لهم جنّاتٍ تجري تحتها الأنهار خالِدين فيها أبداً ذلِك الفوز العظِيم)(٢).

وقال تعالى كذلك في من آمن قبل فتح مكة وفضلهم، ومكـانتهم المعنويـة المتفوقة على من أسلم بعد إعتزاز الإسلام، واشتداد أمره، وقيـام دولتـه يعني أنّهم ليسوا سواء:

(لا يستوي مِنكُم من أنفقَ مِن قبل الفتحِ وقاتلَ أُولئك أعظم درجةً مِن الّذين

أنفقُوا مِن بعد وقاتلُوا...)(٣).

أجل هذه هي مكانة السابقين في الإسلام وكان «ابو ذر» منهم.

هذا مضافاً إلى أنّه يعد أول من نادى بالإسلام على رؤوس الأشهاد وفـي الملأ من قريش.

فيوم اسلم «أبو ذر» كان رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله يدعو الناس إلـى الإسلام سراً، ولم تتهيأ بعد ظروفُ الجهر بالدعوة إلى هذا الدين، فان أتباع الإسلام والمؤمنين به لم يتجاوز عددهم في ذلك اليوم عدد الأصابع هـم : النبي صلّى اللّه عليه وآله وخمسة ممن آمنُوا به، وقبلـوا دعوتـه، ومـع ملاحظة هذه الإعتبارات والظروف لم يكن بد - حسب الظاهر - مـن أن يخفي «أبو ذر» إسلامه، ويعود إلى قبيلته من دون أن يعرف به أحد فـي مكة.

ولكن روح «أبي ذر» الطافحة بالإيمان والحماس أبت ذلك، وكأنه قد خُلِق لينهض في كل زمان ومكان ضد الظلم والطغيان، ويرفع عقيدته في وجه

---

(١) الواقعة : ١٠ - ١١.

(٢) التوبة : ١٠٠.

(٣) الحديد : ١٠.

الباطل وأهله، ويكافح الانحراف والاعوجاج أياً كان مصدره، وصـاحبه. وأي باطل اكبر من أن يطأطِئ الناس أمام أصنامٍ مصنوعة مـن الحجـر، ويخضعوا أمام أوثان منحوتة من الخشب لا تضر ولا تنفع، ولا تعطي ولا تمنع، ويسجدوا لها ويتخذوها آلهة دون اللّه الخالِق الكبير المتعال ؟؟

إنّه ليس في وسع «أبي ذر» أن يتحمل هذا المشهد البغيض المقرف !!

من هنا قال لرسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله بعد أن مكث في مكـة قليـلاً وقرأ شيئاً من القرآن : يا نبي اللّه ما تأمرني ؟

قال : ترجع الى قومك حتى يبلُغك أمري.

فقال له : والذي نفسي بيده لا أرجع حتى أصرخ بالإسلام في المسجد.

قال : اني اخاف عليك أن تقتل.

قال : لا بد منه وإن قُتِلتُ.

ثم دخل المسجد فنادى بأعلى صوته : أشهد أن لا الـه إلا اللّـه، وأن محمداً عبده ورسوله(١).

إن التاريخ الإسلامي يشهد بأن هذا النداء كان أول نداء تحـدى جـبروت قريش وشركها، وقد اطلقته حنجرة رجل غريب لا حامي له في مكـة ولا نصير، ولا قوم ولا قريب.

وقد وقع ما توقّعه رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله فما أن دوى صوت ابي ذر في المسجد حتى قام اليه رجال قريش، وهجموا عليه من كـل جانـب وضربوه بشدة حتى صرع فأتاه العباس بن عبد المطلب فأكب عليـه فـي محاولة لانقاذه من الموت - بطريقة لطيفة - وقال : قتلتم الرجل يا معشر قريش انتم تجار وطريقكم على غفار، فتريدون ان يقطع الطريق، فأمسكوا عنه.

ونجحت محاولة «العباس» الانقاذية، وكفّت قريش عن ابي ذر.

---

(١) حلية الأولياء : ج ١ ص ١٥٨ و١٥٩، الطبقات الكبرى : ج ٤ ص ٢٢٥، الاستيعاب : ج ٤ ص ٦٣، الاصابة : ج ٤ ص ٦٤، الدّرجات الرفيعة : ص ٢٢٨.

ولكن أبا ذر الشاب الشجاع، والطافح بالحيوية والحماس عاد اليوم الثانـي

فصنع مثل ما صنعه في اليوم الاول فضربوه حتى صرع، فأكب عليه العباس، وقال لهم مثل ما قال في أول مرة فأمسكوا عنه.

ولا شك في انه لو لم يكن العباس لما نجى أبو ذر من مخالف المشركيـن في اغلب الظن، ولكن أبا ذر لم يكن بذلك الرجل الذي يتراجع عن هدفـه بسرعة، ولهذا بدأ جهاده من جديد.

ففي يوم رأى امرأة تطوف بالبيت، وتدعو ساف ونائلة (وهمـا صـنمان لقريش) وتسألهما ان يقضيا لها حاجاتها، فانزعج أبو ذر من جهـل تلـك المرأة، ولكي يفهمها بانها تدعو صنمين لا يضران ولا ينفعـان بل ولا يشعران قال : أنكحي أحدهما الآخر. فغضبت المرأة لقول ابـي ذر فـي الصنمين، وتعلقت به وقالت : انت صابئ، فجاء فتية من قريش فضربوه، وجاء ناس من بني بكر فانقذوه منهم(١).

قبيلةُ غِفار تعتنق الإسلام :

لقد أدرك رسول الإسلام صلّى اللّه عليه وآله قابليـات تلميـذه وناصـره الجديد، وصلابته الخارقة في مكافحة الباطل، ولكن حيث ان الوقت لم يكن يحين بعد للدخول في مواجهة ساخنة مع المشركين لهذا أمره رسول اللّـه صلّى اللّه عليه وآله بان يلحق بقومه، ويدعوهم إلى الإسلام، قـائلاً لـه : «إلحق بقومك فاذا بلغك ظهوري فأتني».

فعاد ابو ذر إلى قومه، وأخذ يدعوهم الى الإسلام ويكلمهم عن النبي صلّى

اللّه عليه وآله، ويدعوهم الى نبذ الاصنام وعبادة اللّه الواحد، والتخلق بالاخلاق الرغيبة.

فاسلم أبواه، أولاً، ثم اسلم نصف رجال قبيلته «غفار» ثـم اختـار البقيـة الإسلام بعد هجرة النبي الى المدينة، ثم تبعتها قبيلة «أسلم» حيـث وفـدوا على

---

(١) الطبقات الكبرى : ج ٤ ص ٢٢٣.

رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله واعتنقوا الإسلام.

ثم التحق ابو ذر بعد معركة بدر وأُحد برسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله في المدينة وأقام فيها(١).

وربما كان إيذاء المشركين للمسلمين المؤمنين برسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله يتخذ طابع التهديد والترهيب وممارسة الضغط النفسي والاقتصـادي والاجتماعي.

فقد كان أبو جهل إذا سمع بالرجل قد اسلم له شرف ومنعة أنّبه وأخـزاه،

وقال له : تركت دين أبيك وهو خير منك، لنُسفهن حلمـك، ولنفيلـن رأيك، ولنضعن شرفك.

وإن كان تاجراً قال له : لنكسدن تجارتك، ولنهلكن مالك.

وإن كان ضعيفاً ضربه، وأغرى به(٢).

وروي أيضاً أن «خباب بن الارت» صاحب رسول اللّه صلّى اللّه عليـه وآله كان قيناً بمكة يعمل السيوف وكان قد باع من «العاص بـن وائـل» سيوفاً صنعها له حتى كان له عليه مال، فجاءه يتقاضاه، فقال يا خبـاب : أليس يزعم «محمد» صاحبكم هذا الذي أنت على دينه أن في الجنـة مـا ابتغى أهلُها من ذهب وفضة أو ثياب أو خدم، قال خباب : بلـى، قـال : فأنظِرني الى يوم القيامة يا خباب حتى أرجع الى تلـك الـدار، فأقضيـك هنالك حقك فواللّه لا تكون وصاحبك يا خباب اشر عند اللّه مني (٣).

أعداء النبي الألداء :

إن للتعرف على أعداء رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله وخصومه الالداء، ومواقفهم دوراً هاماً في تحليل جملة من حوادث التاريخ الإسـلامي التـي وقعت

---

(١) الطبقات الكبرى : ج ٤ ص ٢٢١ و٢٢٢ و٢٢٦، الدرجات الرفيعة : ص ٢٢٥، و ٢٢٦ وص ٢٢٩ و٢٣٠.

(٢) السيرة النبوية : ج ١ ص ٣٢٠.

(٣) السيرة النبوية : ج ١ ص ٣٥٧.

بعد الهجرة النبوية.

ونحن نكتفي هنا بادراج اسماء طائفة منهم ونذكر شيئاً من خصوصياتهم.

١ - «أبو لهب» : عم النبي صلّى اللّه عليه وآله، وقد كان جاراً له صلّى اللّه عليه وآله، وهو الّذي لم يفتأ لحظة واحدة عن تكذيب رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله وايذاء المسلمين.

٢ - «الأسود بن عبد يغوث» وكان أحد المستهزئين وكان إذا وجد مسلماً فقيراً لا يحميه أحد قال مستهزءاً : هؤلاء ملوك الأرض الذين يرثون ملك كسرى (١).

ولم يمهله أجلُه ليرى بأم عينيـه كيـف ورث المسلمـون أرض كسـرى وقيصر، ووطأوا عرشهما.

٣ - «الوليد بن المغيرة» شيخ قريش وحكيمها الذي كان يملك ثروة هائلة، وسوف نتحدث عنه وعن موقفه من رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله في الفصل القادم.

٤ - «أُمية» و«أُبي» ابنا خلف، وقد مشى «أُبي» هذا بعظم رميم الى رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله ذات يوم ففتّه في يده ثم نفخه نحو النبي وقال : أتزعم أن ربك يحيي هذا بعد ما ترى (أو بعد ما رم) ؟ فنزل قولُ اللّه تعالى : (قُل يحيِيها الّذي أنشأها أول مرة وهو بِكُل خلقٍ عليم)(٢).

وقد قتل إبنا خلف هذان في بدر.

٥ - «أبو الحكم بن هشام» الذي سماه المسلمون لعناده وتعصبه الجاهل ضد الإسلام بأبي جهل، وقد قُتل هو الآخر في بدر أيضاً.

٦ - «العاص بن وائل» وهو والد «عمرو بن العاص»، وهو الذي وصف رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله بالأبتر.

---

(١) السيرة الحلبية : ج ١ ص ٣١٨.

(٢) بحار الأنوار : ج ١٨ ص ٢٠٢، السيرة النبوية : ج ١ ص ٣٦١ و٣٦٢.

٧ - «عقبة بن أبي معيط» الذي كان من ألد أعداء النبي صلّى اللّه عليه وآله، وأشد خصومه بغضاً له صلّى اللّه عليه وآله، وكان لا يألو جهداً في مضايقة المسلمين ولا يترك فرصةً تمر دون إيذائهم (١).

هؤلاء هم بعض أعداء رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله المبالغين في معاداته، وهناك غيرهم كأبي سفيان ممن ذكر المؤرخون خصوصياتهم كاملة في مؤلفاتهم، وقد أعرضنا عن إدراجهم بأجمعهم هنا رعاية للاختصار.

عمر بن الخطاب يعتنق الإسلام :

لقد كان إسلام كل واحد من الذين أجابوا دعوة الرسول صلّى اللّه عليه وآله نابعاً من سبب معين.

فربما أدت حادثة صغيرة إلى أن يعتنق فرد أو فريق الإسلام، وينضموا إلى صفوف المسلمين.

وقد اتّسم السبب الذي آل الى إسلام عمر - من بين جميع تلكم الاسباب والعلل - بطرافة تقتضي التوقف عنده في هذه الدراسة التاريخية التحليلية.

على أن التسلسل التاريخي، والتنظيم الوقائعي لاحداث الإسلام وان كان يقتضي منا ان نأتي على ذكر هذه الحادثة بعد هجرة صحابة النبي صـلّى اللّه عليه وآله الى الحبشة، إلا أن الحديث حيث دار هنا حول صحابة النبي وكيفية اسلامهم ومواقفهم ناسب أن نشير هنا إلى كيفيـة إسـلام الخليفـة الثاني.

يقول ابن هشام : كان اسلام عمر - في ما بلغني - أن أُخته بنت الخطاب وكانت عند «سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل» وكانت قد أسـلمت وأسـلم بعلُها «سعيد بن زيد»، وهما مستخفيان باسلامهما من عمر (وهؤلاء هـم كلُ من اسلم من آل الخطاب) وكان خباب بن الأرت يختلف الـى فاطمـة بنت الخطاب يقرئها القرآن.

---

(١) الكامل في التاريخ : ج ٢ ص ٤٧ و٥١، وراجع أيضاً : أُسد الغابة، والاصابة والاستيعاب وغيرها.

وكان «عمر» الذي كانت بينه وبين المسلمين علاقات جداً سـيئة(١) قـد أزعجه ما أصاب المجتمع المكي من تشتت وفرقة، وما لحق بقريش مـن المتاعب إثر ظهور الإسلام، من هنا عزم على أن يقضي على علـة هـذا الأمر باغتيال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله والفتك به.

فخرج يوماً متوشحاً سيفه يريد رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله ورهطاً من

أصحابه وقد ذكروا له أنهم قد اجتمعوا في بيتٍ عند الصفا وهم قريـب من أربعين ما بين رجال ونساء، ومع رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله عمه «حمزة» بن عبد المطلب و«ابو بكر» و«علي بن ابي طالب» في رجـال من المسلمين يحفظونه ويحرسونه.

يقول «نعيم بن عبد اللّه» وقد كان صديقاً حميماً لعمر : لقيت عمر وهـو متوشح سيفاً ويريد مكاناً فقلتُ له : أين تريد يا عمر ؟

فقال : أُريد محمداً هذا الصابئ الذي فرق في أمر قريش، وسفّه أحلامهـا وعاب دينها، وسب آلِهتها، فأقتُله.

فقال له نعيم : واللّه لقد غرتك نفسك من نفسك يا عمر، أترى بـني عبـد مناف تاركيك تمشي على الأرض وقد قتلتَ محمداً أفلا ترجع إلـى اهـل بيتك فتقيم أُمرهم ؟

قال : وأي أهل بيتي ؟

قال : ختنُك وابن عمك «سعيد بن زيد» واختك «فاطمة بنت الخطاب» فقد واللّه أسلما، وتابعا محمداً على دينه فعليك بهما.

فأغضب هذا النبأُ عمر بشدة فانصرف عن الهدف الذي كان يرمـي اليـه وعاد من توه إلى بيت أُخته، فدخل على أُخته وختنه وعندهما «خباب بـن

الأرت» معه صحيفة فيها سورة «طه» يقرئُهما إياها، فلما سمعوا حس «عمر» تغيب «خباب» في مخدع لهم، أو في بعض البيت، واخفت «فاطمة بنت

---

(١) راجع السيرة النبوية : ج ١ ص ٣٤٢ - ٣٤٦.

الخطاب» الصحيفة، وكان «عمر» قد سمع حين دنا الى البيت قراءة «خباب» عليهما، فلما دخل قال : «ما هذه الهينمة(١) التي سمعت ؟

قالا له : ما سمعت شيئاً.

قال : بلى والله، لقد أُخبِرتُ انكما تابعتما محمداً على دينه.

وبطش بختنه «سعيد بن زيد» فقامت إليه اختُه «فاطمة بنت الخطاب» لتكفّه عن زوجها فضربها فشجها.

فلما فعل ذلك قالت له اخته وختنُه : نعم قد اسلمنا وآمنّا بالله ورسوله، فاصنع ما بدا لك.

فلما رأى «عمر» ما بأُخته من الدم ندم على ما صنع، فارعوى ورجع، وقال لأُخته : اعطيني هذه الصحيفة التي سمعتكم تقرأون آنفاً أنظر ما هذا الذي جاء به محمد ؟.

فلما قال ذلك قالت له أُخته : إنّا نخشاك عليها. قال : لا تخافي وحلف لها بآلهته ليردنّها إذا قرأها، اليها.

فلما قال ذلك طمعتِ في اسلامه، فقالت : يا أُخي، إنك نجس على شركك وانّه لا يمسها إلا الطاهر، فقام «عمر» فاغتسل، فأعطته الصحيفة وفيها آيات من سورة «طه» هي :

(طه. ما أنزلنا عليك القُرآن لِتَشقى. إلا تذكرةً لِمن يخشى. تنزيلاً مِمن خلق الأرض والسماواتِ العلى. الرحمن على العرش استوى. له ما في السماواتِ وما في الأرض وما بينهما وما تحتَ الثرى. وإن تجهر بالقول فانّه يعلُم السِر وأخفى)(٢).

ولقد تركت هذه الآياتُ المحكمة الفصيحة البليغة تأثيراً شديداً في نفس عمر فقال : ما احسن هذا الكلام ؟

وقرر الرجلُ، الذي كان قبل ثوان عدو الإسلام الأول، أن يغير موقفه،

---

(١) الهينمة صوت كلام لا يُفهم.

(٢) طه : ١ - ٨.

فتوجه من توه إلى البيت الذي ذكر له أن فيه رسول اللّه صلّى اللّه عليـه وآله وجماعة من أصحابه وهو متوشح سيفَه، فضرب عليهم الباب، فلمـا سمِعوا صوته قام رجل مِن أصحاب رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله فنظر من خلل الباب فرآه متوشحاً السيف فرجع الى رسول اللّه صلّى اللّه عليـه وآله وهو فزع وأخبر النبي صلّى اللّه عليه وآله بما رأى، فقال حمـزة : فائذن له، فان جاء يريد خيراً بذلناه له، وإن كان يريد شراً قتلناه بسيفه.

فقال رسولُ اللّه صلّى اللّه عليه وآله : إئذ له، فأذِن له الرجل، ونهض إليه رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله حتى لقيه في الحجرة، فأخذ حجزته (وهو موضع شد الإزار) أو بمجمع ردائه ثم جبذَه جبذةً شديدة، وقال : ما جـاء بك يابن الخطاب فواللّه ما أرى تنتهي حتى ينزل اللّه بك قارعة ؟

فقال عمر : يا رسول اللّه جئتك لاؤمن باللّه وبرسوله وبما جاء من عنـد اللّه.

وهكذا اسلم «عمر» عند رسول اللّه وأصحابه وانضـوى إلـى صـفوف المسلمين.

ثم ان ابن هشام روى رواية أُخرى في كيفية اسـلام عمـر مـن أراد الوقوف عليها راجعها في السيرة النبوية(١).

---

(١) السيرة النبوية : ج ١ ص ٣٤٣ - ٣٤٦.

١٦ ـ رأي قريش في القرآن

ان البحث حول حقيقة الاعجاز القرآني أمر خارج عن اطار هدفنا في هذا الكتاب فذلك متروك إلى الكتب الإعتقادية والكلامية.

ولكن الأبحاث التاريخية تهدينا الى أن القرآن الكريم كان من أكبر وأقـوى اسلحة الرسول الاكرم صلّى اللّه عليه وآله بحيث خضع أمـام فصاحتـه البالغة وحلاوة كلماته وقوة آياته، وعباراته، اساتذة الفصاحـة والبلاغـة وأمراء البيان والكلام، وعمالقة الكتابة والخطابـة. واعـترفوا بـرمتهم، وقضهم وقضيضهم بأن القرآن الذي جاء به محمد يحتل أعلى مكان فـي الفصاحة والبلاغة، وأن مثل هذا الحديث لم يعرفه البشر ولـم يعهـد لـه التاريخ الانساني نظيراً.

فلقد كانت جاذبية «القرآن الكريم» وتأثير حديثه بحيث ترتعد عند اسـتماع آياته فرائص أعدى اعدائه، وربما انهارت قواه، فبقي مدة طويلة، لا يقوى على حِراك، ولا يملك فعل شيء.

وفيما يلي نذكر بعض النماذج في هذا المجال :

حكم الوليد في القرآن :

كان «الوليد بن المغيرة» ممن يرجع اليه العرب لحـل الكثـير مـن مشاكلها،

وكان ذا سن، وثروة كبيرة فيهم.

وعندما واجهت قريش مشكلة ظهور الإسلام وانتشاره في القبائـل مشـى فريق منهم إلى الوليد يلتمسون منه حلاً لهذا الأمر الذي بات يهـدد كيـان الزعامة المكية الجاهلية، وطلبوا منه أن يبين رأيه فـي القـرآن الكريـم وقالوا : هل هو سِحر ام كهانة ام حديث قد حاكه بنفسه.

فاستنظرهم «الوليد» ليعطي رأيه فيه بعد أن يسمع شيئاً من القرآن، فأتـى الى الحجر حيث كان يجلس النبي، ويتلو القرآن، فقال : يا محمد أنشدنـي شعرك.

فقال النبي صلّى اللّه عليه وآله : ما هو بشعر، ولكنّه كلام اللّه الـذي بـه بعث أنبياءه ورسله.

فقال : أُتلُ علي منه، فقرأ عليه رسول اللّه :

«بسم اللّه الرحمن الرحيم».

فلما سمع : الرحمان، استهزأ فقال : تدعو إلـى رجـل باليمامـة يسمـى بالرحمان ؟ قال. لا، ولكني أدعو إلى اللّه وهو الرحمان الرحيم ثم افتتـح سورة «حم السجدة» فلما بلغ إلى قوله تعالى :

(فان أعرضوا فقل أنذرتُكُم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود).

وسمعه الوليد، فاقشعر جلده، وقامت كل شعرة في رأسه ولحيته، ثـم قـام ومضى إلى بيته ولم يرجع الى قريش.

فقالت قريش : يا ابا الحكم صبا ابو عبد شمس إلى دين محمد، أما تراه لم يرجع الينا وقد قبل قوله، ومضى إلى منزله.

فاغتمت قريش من ذلك غماً شديداً وغدا عليه ابو جهل فقال : يا عم نكّست رؤوسنا وفضحتنا.

قال : وما ذاك يا ابن أخي ؟

قال : صبوت الى دين محمد.

قال : ما صبوتُ واني على دين قومي وآبائي، ولكني سمعت كلاماً صعباً

تقشعر منه الجلود فقال أبو جهل : أشِعر هو ؟

قال : ما هو بشعر.

قال : فخطب هي ؟

قال : لا وان الخطب كلام متصل، وهذا كلام منثـور، لا يشبـه بعضـه بعضاً، له طلاوة.

قال : فكأنه هي ؟

قال : لا.

قال : فما هو؟

قال : دعني افكر فيه.

فلما كان من الغد، قالوا : يا ابا عبد شمس ما تقول ؟ قال : قولـوا : هـو سحر فانه أخذ بقلوب الناس فأنزل اللّه سبحانه فيه :

(ذرني ومن خلقتُ وحيداً. وجعلت له مالاً ممدوداً. وبنيـن شُـهوداً) الـى قوله : (عليها تِسعة عشر)(١) (٢).

* * *

نموذَج آخر :

كان «عتبة بن ربيعة» من كبراء قريش واشرافها، ويوم أسـلم «حمـزة» وأصبح أصحاب رسول اللّه يزيدون ويكثرون اغتمت قريش كلّها، وخشي زعماء المشركين ان ينتشر الإسلام اكثر من هذا فقال عتبة وهو جالس في نادي قريش يوماً، ورسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله جالس فـي المسجـد وحده : يا معشر قريش ألا أقوم الى «محمد» فاكلّمه وأعرض عليه اُموراً لعلّه يقبل بعضها فنعطيه أيها شاء ويكف عنا ؟

---

(١) المدثر : ١١ - ٣٠.

(٢) بحار الأنوار : ج ١٧ ص ٢١١ و٢١٢، إعلام الورى بأعلام الورى : ص ٤١ و٤٢.

فقالوا : بلى يا أبا الوليد قم اليه فكلّمه.

فقام إليه «عتبة» حتى جلس الى رسول اللّه صلّى اللّـه عليـه وآلـه، فقال : يا ابن أخي إنك منّا حيث ما قد علمت من الشـرف فـي العشـيرة والمكان في النسب، وانك قد أتيت قومك بأمر عظيم فرقت بـه جماعتهـم وسفّهت به أحلامهم، وعبت به آلهتهم، ودينهم، وكفّرت به من مضى مـن آبائهم، فاسمع مني أعرض عليك أموراً تنظر فيها لعلّك تقبل منها بعضها، فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله قل يا أبا الوليد اسمع.

قال : يا ابن أخي إن كنت إنّما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون اكثرنا مالاً، وان كنت تريد به شـرفاً سـودناك علينا حتى لا نقطع أمراً دونك، وإن كنت تريد به ملكاً ملّكناك علينـا، وإن كان هذا الذي يأتيك رئياً (وهو ما يتراءى للناس من الجن) تراه لا تستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الطب، وبذَلنا فيه أموالنا حتى نُبرئك منه فإنه ربما غلب التابع على الرجل حتى يداوي منه، حتى إذا فرغ «عتبة»، ورسـول اللّه صلّى اللّه عليه وآله يستمع منه قال : أقد فرغت يا أبا الوليد ؟ قـال : نعم قال : فاسمع منّي، قال : إفعل، قال :

(بِسم اللّه الرحمن الرحيم. حم. تنزيل مِن الرحمن الرحيم. كِتاب فُصلـت آياتُه قُرآناً عربياً لِقوم يعلمون. بشيراً ونذيراً فـأعرض اكـثرهم فهـم لا يسمعون. وقالُوا قُلُوبنا في أكنّةٍ مِما تدعونا إليهِ)(١).

ثم مضى رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله فيها يقرؤها عليه، فلما سـمعها منه «عتبة» أنصت لها وألقى يديه خلف ظهره معتمداً عليهما يسمع منـه ويبقي على هذا مدة من الزمن صامتاً وكأنه قد سلِب قدرة النطق، ثم انتهى رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله الى السجدة فسجد ثم قال:

«قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت فأنت وذاك».

---

(١) فصلت : ١ - ٥.

فقام «عتبة» الى أصحابه وقد تغيرت ملامحه فقال بعضهم لبعض : نحلف باللّه لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذي ذهب به !! فلما جلـس إليهـم قالوا : ما وراءك يا أبا الوليد ؟

قال : ورائي اني قد سمعتُ قولاً واللّه ما سمعت مثله قط، واللّه مـا هـو بالشعر، ولا بالسحر، ولا بالكهانة، يا معشر قريش، أطيعوني واجعلوهـا بي، وخلّوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه فاعتزلوه، فواللّه ليكونن لقولـه هذا الذي سمعتُ منه نبأ عظيم، فان تصِبه العرب فقد كفيتموه بغيركم، وان يظهر على العرب فملكه ملكُكُم، وعزه عزكم، وكنتم أسعد الناس به.

فانزعجت قريش من مقالة «عتبة» هذا وسخرت به وقالت : سحرك واللّه يا أبا الوليد بلسانه !!

قال : هذا رأيي، فاصنعوا ما بدا لكم(١).

هذان نموذجان من رأي كبار فصحاء العرب في العهد الجاهلي، في القرآن الكريم.

على أن هناك أمثلة ونماذج أُخرى كثيرة في هذا المجال.

تحججاتُ قريش العجيبة :

اجتمع «عتبة بن ربيعة»، و«شيبة بن ربيعة» و«أبو سفيان بـن حـرب»، و«النضر بن الحارث»، و«أبو البختري»، و«الوليد بن المغيرة»، و«ابـو جهل» و«العاص بن وائل» وغيرهم بعد غروب الشمس عند ظهر الكعبة، ثم قال بعضهم لبعض : إبعثوا الى «محمد» فكلمـوه، وخاصـموه حتـى تعذروا فيه، فبعثوا إليه، فجاءهم رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآلـه سـريعاً وهو يظن أن قد بدا لهم فيما كلمهم فيه بداء وانهم قد غيروا مواقفهم، وكان يحب رشدهم وهدايتهم حتى جلس إليهم.

---

(١) السيرة النبوية : ج ١ ص ٢٩٣ و٢٩٤.

فقالوا له : يا محمد إنّا قد بعثنا إليك لنكلّمك، وانّا واللّه ما نعلم رجلاً مـن العرب أدخل على قومه مثل ما أدخلت على قومك لقد شتمت الآباء، وعبت

الدين، وشتمت الآلهة... ومضوا يعددون أُموراً من هـذا القبيـل ثـم اقترحوا عليه أُموراً ذكرها اللّه تعالى بتمامها في الآية ٩٠ إلـى ٩٣ مـن سورة الإسراء حيث يقول حاكياً عن لسانهم :

«وقالُوا لن نُؤمن لك حتى

١ - تفجر لنا مِن الأرض ينبوعاً.

٢ - أو تكون لك جنّة مِن نخِيلٍ وعنب فتُفجر الأنهار خِلالها تفجيراً.

٣ - أو تُسقط السماء كما زعمت علينا كِسفاً.

٤ - أو تأتي باللّه والملائكة قبيلاً.

٥ - أو يكُون لك بيت مِن زخرف.

٦ - أو ترقى في السماء ولن نؤمن لِرقيك حتّى تُنزل علينا كِتاباً نقرؤه» !!

* * *

وحيث أن مضمون هذه الآيات هو عدم تلبية النبي لِمطالبِ قُـريش حيـث قال : «قُل سبحان اللّه ربي هل كُنتُ إلا بشراً رسـولاً» قـد تـذرع بـه

المستشرقون للايقاع بالرسالة المحمدية لذلك نعمد هنا إلى توضيح مفاد هذه الآيات والعلل المنطقية لعدم تلبية النبي مطالب قريش ومقترحاتهم.

الجواب : إن الأنبياء لا يأتون بالمعاجز في كـل ظـرف وزمـان، فـإن للاعجاز شروطاً خاصة لم تتوفر في هذه الاقتراحات، وهذه الشروط هي :

أولاً : أن لا تكون المعجزة من الأُمور المستحيلة التي لا يمكن تحقّقها، فإن مثل هذه الأُمور خارجة عن إطار القدرة، ولا تتعلق بها مشيئة اللّه تعالـى ولا مشيئة أي صاحب إرادة مطلقاً.

وعلى هذا الأساس إذا طلب الناس من النبي أمراً محالاً، فقولـه طلبهـم بعدهم الاهتمام من قبل النبي لم يكن ذلك دليلاً على إنكار صدور المعجزة على أيدي الأنبياء قط.

وهذا الشرط لم يكن متوفراً في بعض مقترحـات المشـركين المـذكورة (المقترح الرابع) فانهم طلبوا من النبي صلّى اللّه عليه وآله ان يأتي لهـم باللّه سبحانه وتعالى ليقابلوه وجهاً لوجه، ويروه جهرة ومن قريب، ورؤية اللّه تعالى امر محال، لأن رؤيته تستلزم أن يكون سبحانه محدوداً بالزمان والمكان، وأن يكون جسماً وذا لون وصورة وهو تعالى منزه عن المـادة ولوازم المادية.

بل حتى مقترحهم الثالث لو كان المقصود منه أن تسقط السماء عليهم (لا أن تسقط قطعة من الصخر على رؤوسهم وتقتلهم) فان ذلك هو أيضاً من المحالات إذ أن المشيئة الالهية تعلّقت بان يفعل اللّه هذا في نهاية العالم، والنبي صلّى اللّه عليه وآله كان قد أخبر المشركين بهذا الأمر أيضاً كما يدل عليه قولُهم : «كما زعمت».

إن إنهدام المنظومة الشمسية وتبعثر النجوم وتساقطها وإن لم يكن في حد ذاته بالأمر المحال، ولكنّه - حسب المشيئة الإلهية الحكيمة وإرادته النافذة القاضية بأن يستمر النوع البشري، ويصل إلى مرحلة الكمال - يعد محالاً، ولا يمكن أن يفعل حكيم خلاف ما يقتضيه هدفه وغايته.

ثانياً: حيث أن الغاية المنشودة من اقتراح وطلب الإعجاز هو أن يستدِلّ به على صدق دعوى النبي، وصحة انتسابه الى اللّه، وبالتالي يكون بدافع تحصيل سند على ارتباطه بالعالم ما فوق الطبيعة، لذلك فان أي اقتراح ومطالبة بالمعجزة لا تتوفر فيها هذه الصفة يعني على فرض أن يلبي النبي طلبهم ويأتي لهم بالمعجزة لا يكون ذلك دليلاً على ارتباطه بعالم الغيب، فحينئذٍ لا معنى ولا موجب لأن يقوم النبي بما لا يرتبط بشؤونه ولا يخدم هدفه.

وقد كانت بعض مقترحات المشركين المذكورة من هذا النوع، وذلك مثل تفجير ينبوع من الأرض، أو أن تكون له جنّة من نخيل وعنب، أو أن يكون له بيت من زخرف وذهب، فان مثل هذه الأُمور لا تدل على نبوة من يمتلكها إذ ما اكثر الذين يمتلكون واحدة من هذه الأشياء وليسوا مع ذلك بأنبياء، بل ربما يملكون اكثر من ذلك، ومع ذلك لا يشم فيهم رائحة

الايمان فضلاً عن النبوة.

فاذا لم ترتبط هذه الأشياء بمقام النبوة، ولا تكون دليلاً على صـدق مـن يدعيها كان الإتيان بها أمراً لغواً وعبثاً تعالى عنه مقام النبوة، وجلّت عنه منزلة الأنبياء.

وقد يقال : إن هذه الاشياء(١) لا تدل على صدق دعوى النبي إذا حصلت عن طريق الأسباب العادية، ولكنّها لو حصلت بصورة غـير عاديـة ولا متعارفة كانت ولا شك من المعاجز الالهية، ودلت علـى صـدق النبـي وصحة دعواه.

ولكن الظاهر أن هذه فكرة باطلة لأن المشـركين كـانوا يهـدفون مـن اقتراحاتهم هذه أن يكون النبي صاحب مال وثروة، فقد كانوا يستبعدون أن يكون نبي اللّه ورسولُه فقيراً لا يملك شيئاً من الـثروة والمـال، وكـانوا يعتقدون ان الوحي الالهي يجب أن ينزل على رجل غني ذي طول وحول، ولذلك قالوا مستغربين ومستنكرين :

(وقالُوا لولا نُزل هذا القُرآن على رجلٍ مِن القريتين عظِيمٍ)(٢) ؟!!

أي لماذا لما ينزل هذا القرآن على رجل ثري من مكة أو الطائف.

ومما يدلّ على أن الهدف كان هو أن يملك النبي مثل هذه الأمور بـأي طريق كان، ولو بالطريق العادي أنهم كانوا يريدون هذه الاشـياء للنبـي نفسه إذ قالوا :

(أو يكون لك بيت مِن زخرفٍ)(٣).

وبعبارة أُخرى : كانوا يقولون إذا أنت لا تمتلك بستاناً أو بيتاً مـن ذهـب فاننا لن نؤمن لك !!

ولو كان الهدف هو أن يحصل هذان الأمران بواسطة القدرة الغيبية لم يكن وجه حينئذٍ لقولهم : ما لم يكن «لك» بيت من زخرف، فاننا نؤمن بك بـل كان يكفي أن يقولوا : إذا لم تحدِث وتوجد بيتاً وجنّة فاننا لن نؤمن لك.

---

(١) أي الامور الثلاثة المقترحة الينبوع والجنة والبيت من ذهب.

(٢) الزخرف : ٣١.

(٤) الاسراء : ٩٣.

أما قولهم في مطلع اقتراحاتهم : «تُفجر لنا مـن الأرض ينبوعـاً» فـان

مقصودهم لم يكن هو أن يستخرج لهم بالاعجاز ينبوعاً لينتفعوا به، بل يفعل ذلك لكي يؤمنوا به.

ثالثاً : ان المقصود من المعجزة هو الاهتداء في ضوئها إلى صحة دعوى النبي وصدق مقاله، والإيمان بمنصبه، والإعتقاد بمقامه، وعلى هذا إذا كان بين المقترحين للمعجزة من يكون الاتيان له بالإعجاز سبباً لإيمانه بالنبي، فحينئذٍ كان الاتيان بالمعجزة وتلبية اقتراحه أمراً مستحسناً، وغير مقبـوح عقلاً.

أما إذا كان المقترحون يقترحون عناداً ولجاجاً، أو يطلبون ما يطلبونه لهواً وتسليةً كما يفعل الناس مع السحرة والمرتاضين فان منزلة الأنبياء أجلّ - حينئذٍ - من أن يلبي مثل هذه المقترحات، ويستجيب لمثل هذه المطالـب، وقد كانت بعض إقتراحات المشركين من هذا النمط.

فان مطالبتهم بأن يصعد النبي الى السماء، أو أن ينزل من السمـاء كتابـاً يقرأونه لم يكن بهدف إكتشاف الحقيقة لأنهم لو كانوا ممن يهدف الوصول الى الحقيقة فلماذا لم يكتفوا بمجرد صعوده الى السماء بل كانوا يصـرون على أن يضم أمراً آخر إلى عروجه وصعوده (وهو أن ينزل معه كتاباً) !!

ثم انه يستفاد من آيات أُخرى، غير هاتين الآيتيـن ايضـاً، أنهـم كـانوا سيعاندون، ويصرون على كفرهم حتى بعد نزول الكتاب عليهم من السماء كما يصرح بذلك قوله تعالى :

(ولو نزلنا عليك كِتاباً في قِرطاس فلمسوه بِأيدِيهم لقالَ الّذين كفروا إن هذا إلا سِحر مبِين)(١).

فمن غير المستبعد أن يكون الكتاب المنزلُ في قرطاس إشارة إلى إقـتراح المشركين الذي جاء ضمن آيات سورة الاسراء أي قولهم : (أو ترقى فـي السماء ولن نُؤمن لِرقيك حتّى تُنزل علينا كِتابـاً نقـرأه)(٢) فقـال اللّـه سبحانه : حتّى لو

---

(١) الانعام : ٧.

(٢) الإسراء : ٩٣.

فعلنا لهم ذلك لكفروا، واحجموا عن الإيمان.

رابعاً : إن طلب المعجزة إنّما هو لأجل أن يستتبع الاتيـان بهـا الإيمـان بالرسالة والانضمام الى صفوف المؤمنين، فاذا كانت نتيجةُ المعجزة هـي إباء المقترحين استلزم ذلك نقض الغرض المنشود من المعجزة، وانتفـاء فائدتها.

فاذا كان المقصود من سقوط السماء عليهم، هو نزول الصخور السماويـة

لابادتهم فان هذا الطلب لا يتفق أبداً مع هدف الإعجاز وهو من أوضح مصاديق نقض الغرض.

وبالتالي ينبغي أن نذكّر بنقطة وهي : أن النبي صلّى اللّه عليه وآله - على خلاف ما تصور المستدلّون بهذه الآية على نفي أية معجزة لرسول الإسلام - لم يصف نفسه بالعجز وعدم القدرة على الاتيان بـالمعجزة بـل أفـاد بقوله : (سبحان ربي هل كُنتُ إلا بشراً رسولاً)(١) أمرين :

١ - تنزيه اللّه، فهو بقوله : «سبحان ربي» نزه اللّه تعالى عن كل عجـز ونقص كما نزهه عن الرؤية ووصفه بالقدرة على كل شيء ممكن.

٢ - محدودية قدرة النبي، إذ بقوله صلّى اللّه عليه وآله : «هل كُنـتُ إلا بشراً رسولاً» أفاد بأنه امرؤ مأمور لا أكثر وأنه مطيع لأمر اللّه وإرادتـه فهو يأتي بما يريد ربه، والأمر إلى اللّه كله، وليس للنبي أن يلبي أي طلبٍ واقتراحٍ بارادته.

وبعبارة أُخرى : ان الآية ركّزت في مقام الجواب على طلبهم بعد تنزيـه اللّه عن العجز والرؤية على كلمتي : «البشر والرسول» والهدف هو انه : إذا أنتم قد طلبتم هذه الأُمور منّي من جهة إنني بشر، كان طلبكم هذا طلباً غير صحيح، لأن هذه الأُمور تحتاج إلى قدرة الهية.

وإن طلبتموها منّي من جهة اني نبي رسول فان النبي والرسول ما هو إلا إمرؤ مأمور ينفعلُ ما يأذن به اللّه، وليس له ان يفعل ما يشـاء هـو دون

إرادة اللّه تعالى.

---

(١) الإسراء : ٩٣.

وبهذا اتضح أن هذه الآيات لا تدل على ما استدل به النافون لمعاجز النبي الاكرم صلّى اللّه عليه وآله وسلّم.

وكان مما تحججت به قريش على رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآلـه انّهـم قالوا :

لو كان محمد نبياً لشغلته النبوةُ عن النساء ولأمكنه جمع الآيات (اي لأتتـه الآيات دفعة واحدة) ولأمكنه منع الموت عن أقاربه ولما مات أبو طالـب وخديجة فنزل قولُه تعالى :

(ولقد أرسلنا رسلاً مِن قبلِك وجعلنا لهم أزواجاً وذُرية وما كان لِرسول أن يأتي بآية إلا بِاذن اللّه لِكل أجلٍ كِتاب. يمحو اللّه ما يشاء ويثبت وعِنده أُم الكِتاب. وإن ما نرينك بعض الّذي نعدهم أو نتوفينّك فإنّما عليـك البـلاغُ وعلينا الحِساب).

وبذلك رد عليهم (١) (٢).

الدوافع وراء معاداة قريش وعنادهم :

هذا القسم هو احدى النقاط الجديرة بالدراسة في تاريخ الإسلام، لأن المرء قد يسائل نفسه : لماذا ترى كانت قريش تعارض رسول اللّه صـلّى اللّـه عليه وآله أشد المعارضة رغم أنها كانت تعتبره الصادق الأمين ولم تعهـد منه انحرافاً أو خطأ قط وكانت تسمع كلامه الفصيح البليـغ الـذي يأسـر القلوب، وربما شاهدوا حدوث بعض الخوارق للعادة، الخارجة عن حـدود القوانين الطبيعية على يديه.

إن لهذا التمرد والمعارضة الى علة او علل عديدة هي :

١ - حسدهم للنبي صلّى اللّه عليه وآله وسلّم :

لقد عارض رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله وخالفه فريق ممـن عارضـه بسبب

---

(١) الرعد : ٣٨ - ٤٠.

(٢) بحار الأنوار : ج ١٩ ص ١٧ عن المناقب.

حسدهم له، فقد كانوا يتمنون أن يكونوا هم صاحب هذا المنصب، وصاحب هذه المنزلة.

فقد قال المفسرون عند قوله تعالى : (وقالُوا لولا نُزل هذا القُـرآن علـى رجلٍ مِن القريتين عظيمٍ)(١) أن «الوليد بن المغيرة» قال : أيـنزل علـى محمد وأُترك وأنا كبير قريش وسيدها ويترك «ابو مسعود عمرو بن عمير الثقفي» سيد ثقيف ونحن عظيما القريتين فأنزل اللّه تعالى فيه الآية(٢).

وروي انه قال : واللّه لو كانت النبوة حقاً لكنتُ أولى بها منك لأنِني اكبـر منك سناً وأكثر منك مالاً(٣).

وكان «أُمية بن أبي الصلت» من الذين كانوا يقولون هـذا الكـلام حـول رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله وكان يتمنى كثيراً أن ينال هو هذا المقـام ويخظى بهذا المنصب العظيم، ولم يتبع رسول اللّه صلّى اللّه عليـه وآلـه الى آخر حياته، وكان يؤلّب الناس عليه.

وقد سأل «الاخنس بن شريق» - وهو من أعداء رسول اللّه - أبا جهـل يوماً : يا ابا الحكم ما رأيك فيما سمعتَ من «محمد» ؟

فقال : ماذا سمعتُ، تنازعنا نحن وبنو عبـد منـاف الشـرف، أطعمـوا

فأطعمنا، وحملوا فحملنا، وأعطوا فأعطينـا حـتى إذا تجاذبنـا علـى الركب، وكنا كفرسي رهان، قالوا : منّا نبي يأتيه الوحي من السماء، فمتى تدرك مثل هذه، واللّه لا نؤمن به أبداً ولا تصدقه(٤).

هذه النماذج تُظهر الحسد الذي كان يحول بين زعماء قريش وساداتها وبين إتّباع رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله وتصديقه، فعتوا على اللّـه وتركـوا أمره عياناً، ولجوا فيما هم عليه من الكفر، وهناك نماذج وأمثلـة أُخـرى سجلتها صفحات التاريخ أعرضنا عن إدراجها هنا.

---

(١) الزخرف : ٣١.

(٢) السيرة النبوية : ج ١ ص ٣٦١.

(٣) بحار الأنوار : ج ١٨ ص ٢٣٥.

(٤) السيرة النبوية : ج ١ ص ٣١٥ و٣١٦.

٢ - معارضة الدعوة الإسلامية لشهواتهم :

وكان لهذا العامل الأثر الاكبر في عتو قريش ومعارضتها لـدعوة النبـي صلّى اللّه عليه وآله لأنهم كانوا أصحاب لهو ولعب، وفسق ومجون، ومثل

هؤلاء الذين أمضوا سنوات عديدة على هذا النحـو، دون ان يقيدهـم شيء من الحدود والقيود، وجدوا دعوة النبي صلّى اللّه عليه تخالف عادتهم القديمة، وكان ترك مثل تلك العادة التي تتفق مع أهوائهم ورغباتهم النفسية أمراً يلازم النصب والعناء والجهد.

٣ - الخوف مِن عقُوبات اليوم الآخر :

إن سماع آيات العذاب التي تنذر الفسقة والظالمين وتوعـدهم بالعقوبـات الثقيلة ارعب قلوبهم، وأقلق نفوسهم بِشدة.

فعندما كان رسولُ اللّه صلّى اللّه عليه وآله يتلو الآيات المتعلّقة بيوم القيامة وأوضاعه، وقضاياه في الاجتماعات والاماكن العامة، كان يحـدث بذلـك ضجةً كبرى في أوساطِهم، فيهدم مجالس لهوهم، وأُنسهم.

إن العربي الذي كان يسلح نفسه بكل ما استطاع من سلاح ليدفع عن نفسه أي خطر محتمل، ويعمد الى ممارسة القرعة ويتعاطى الانصاب والازلام ليحصل على لقمة عيشه، ويتفأل بالأحجار، ويتطيـر ويتشـاءم بـالطيور ويستدل بحالاتها على حوادث وقعت أو تقع، لم يكن على استعداد لأن يهدأ من دون ان يحصل على ضمان بعدم التعرض لما يخبر عنه «محمد» من عذاب وعقاب !!

من هنا كانوا يحاربون النبي صلّى اللّه عليه وآلـه ويخالفونـه حـتى لا يسمعوا وعده ووعيده.

واليك بعض الآيات التي كانت تقلق بشدة نفوس المترفين من قريش :

(فإذا جاءت الصاخّةُ. يوم يفر المرء مِن أخيه. وأُمـه وأبيـهِ. وصـاحِبته وبنيه. لِكُل امرئ مِنهم يومئذٍ شأن يغنيه)(١).

---

(١) عبس : ٣٣ - ٣٧.

وبينما كانوا يمدون موائد اللهو والشراب في ظـلال الكعبـة ويحتسـون كؤوس الخمر كانوا فجأة يسمعون هذه الآية :

(كُلّما نضِجت جلُودهم بدلناهم جلُوداً غيرها لِيذُوقوا العذاب)(١).

فتلقي في نفوسهم رعباً عجيباً، وينتابهم الاضطراب الشديد حتى أنهم كانوا يلقون بكؤوس الخمر جانباً ويتملكهم خوف شديد لم يعرفوا له مثيلاً.

٤ - الخوفُ مِن القبائل العربية المشركة :

قال «الحارث بن نوفل بن عبد مناف» لرسول اللّه صلّى اللّه عليه وآلـه :

انا لنعلم أن قولك حق ولكن يمنعنا أن نتبع الهدى ونؤمن بك مخافة أن يتخطفنا العرب من أرضنا (إن تركنا الوثنية التي تدين بها ويعتبروننا سدنة لأوثانها) ولا طاقة لنا بها. فنزل قوله تعالى يرد عليهم :

(وقالُوا إن نتبِع الهدى معك نُتَخطف مِن أرضنا أولم نُمكن لهم حرماً آمِناً يجبى إليه ثمراتُ كُل شيء رزقاً مِن لدنّا)(٢) (٣).

وهكذا كان تخوف قريش من العرب إن هي تركت ما كان عليه العرب من الوثنية والشرك أحد الاسباب لعتوهم وإعراضهم عن قبول الدعوة الإسلامية.

طائفة مِن إعتراضات المشركين :

وربما اعترض المشركون على النبي صلّى اللّه عليه وآله قائلين : إن هذه الارض ليست بأرض الانبياء، وإنما ارض الأنبياء الشام فآت الشام(٤).

وكان اكثر المشركين يقولون - وذلك بوحي من اليهود - لماذا لا ينزل القرآن على «محمد» دفعة واحدة كالتوراة والانجيل فحكى القرآن الكريم إعتراضهم

---

(١) النساء : ٥٦.

(٢) القصص : ٥٧.

(٣) بحار الأنوار : ج ١٨ ص ٢٣٦.

(٤) بحار الأنوار : ج ١٨ ص ١٩٨.

هذا بنصه اذ قال :

(وقال الّذين كفروا لولا نُزل عليهِ القُرآن جملةً واحِدةً).

ثم قال تعالى رداً على إعتراضهم هذا :

(كذلِك لِنُثبت بِهِ فُؤادك)(١).

إن القرآن يهتم بهذا الإعتراض، ويوضح مسألة «النزول التدريجي» للقرآن الكريم ويقطع الطريق على المستشرقين المغرضين ومن حـذى حـذوهم، بمنطقه المحكم، وبيانه القوي.

وها نحن نعمد هنا الى إعطاء شيء من التوضيح لهذه المسألة ايضاً :

القُرآن والنزولُ التدريجي :

إن التاريخ القطعي لنزول القرآن وكذا مضامين آيات سوره تشهد بأن آيات القرآن الكريم وسوره نزلت تدريجاً.

فبمراجعة فاحصة لأوضاع مكة، والمدينة يمكن تمييز المكـي مـن هـذه الآيات عن مدنيها.

فالآيات التي تتحدثُ عن مكافحة الشرك والوثنية ودعوة الناس الـى اللّـه الواحد، والإيمان باليوم الآخر مكية، بينما تكون الآيات التي تـدور حـول الأحكام وتحث على الجهاد والقتال مدنية، ذلك لأن الخطـاب فـي البيئـة المكية كان موجهاً الى المشركين عبدة الأوثان الذين كانوا ينكرون توحيـد اللّه، واليوم الآخر، فهنا تكون الآيات التي تتحدث حول هذا الموضوع قـد نزلت في هذه البيئة.

في حين كان الخطاب في المدينة المنورة موجهاً إلى المؤمنين باللّه، والى جماعة اليهود والنصارى، وكان الجهاد والقتال في سبيل إعلاء كلمة اللّـه هو الأعمال المهمة التي بدأها رسولُ اللّه صلّى اللّه عليه وآله وواصلها في هذه البيئة، من هنا تكون الآيات التي تتضمـن الحـديث حـول الاحكـام والفروع والقوانين، ويدور

---

(١) الفرقان : ٣٢.

الحديث فيها أيضاً حول عقائد اليهود والنصارى ومواقفهم وتتضمن الحث - كذلك - على الجهاد والقتال والتضحية في سـبيل اعـلاء كلمـة اللّـه وإعزاز دينه، آيات مدنية.

إن كثيراً من الآيات ترتبط إرتباطاً وثيقاً بالحوادث التي وقعت فـي زمـن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله، وهذه الحوادث هي التي تشكّل ما يسمـى بشأن أو أسباب النزول التي يكون الوقوفُ عليها موجباً لفهم مفاد الآيـة، وإتضاح مفادها، فان وقوع هذه الحوادث كان سبباً لـنزول آيـات فيهـا بالمناسبة.

على أن بعض الآيات الأُخرى نزلت جواباً على أسـئلة النـاس، ولرفـع حاجاتهم في المجالات المختلفة.

والبعض الآخر منها نزلت لبيان المعارف والأحكام الالهية.

ولهذه الاسباب يمكن القولُ بان القرآن الكريم نزل على رسول اللّه صـلّى اللّه عليه وآله تدريجاً لتدرج موجبات النزول.

وقد صرح القرآن والكريم بهذا الامر أيضاً في بعض المواضع اذ قال :

(وقُرآناً فرقناه لِتقرأه على النّاسِ على مكثٍ)(١).

وهنا ينطرح هذا السؤال وهو : لماذا لم تنزل آياتُ القـرآن كلهـا علـى رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله جملة واحدة، ودفعة واحدة كما حدث ذلك للتوراة والإنجيل من قبل ؟!

إن هذا السؤال لم يكن جديداً بل طرحه أعداء النبي صلّى اللّه عليه وآلـه ومعارضوه في عصر الرسالة في صورة الاعتراض أيضاً حيـث كـانوا يقولون :

(لولا نُزل عليهِ القُرآن جملةً واحِدة)(٢).

ويمكن تقرير وشرح هذا الاعتراض على نحوين :

١ - إذا كان الإسلام ديناً إلهياً، وكان القرآن كتاباً سماوياً منزلاً من جانب اللّه على رسوله، فلا بد أن يكون ديناً كاملاً، ومثل هذا الدين الكامل

---

(١) الاسراء : ١٠٦.

(٢) الفرقان : ٣٢.

يجب أن ينزل بواسطة ملائكة الوحي على رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله جملة واحدة من دون تدرج ولا توقف في نزول الآيات، اذ لا مـبرر ولا داعي لأن ينزل دين كامل من جميع الجهات، مكمل من حيـث الأُصـول والفروع والتشريعات والواجبات والسنن، على نحو التدريج في ٢٣ عاماً، ولمناسبات مختلفة.

وحيث أن القرآن نزل منجماً، وبصورة متفرقة متناثرة، وعقيب طائفة من الأسئلة، أو وقوع حوادث وطروء حاجات في أزمنة مختلفة يمكن الحـدس بان هذا الدين لم يكن كاملاً من حيث الأُصول والفروع، وهو يتدرج فـي التكامل ومثل هذا الدين الناقص الذي يسير نحو كمالـه خطـوة خطـوة وبالتدريج لا يصح أن يوصف بالدين الالهي.

٢ - إن آيات القرآن والتاريخ القطعي والمسلّم للتوراة والإنجيل والزبـور تحكي جميعها عن أن هذه الكتب السماوية أُعطيت إلى المرسلين بها فـي ألواح مكتوبة مدونة، فلما لم ينزل القرآن الكريم على هذا الغـرار، كـأن ينزل القرآن على «محمد» في لوح مكتوب كما نزل التوراة فـي الـواح مكتوبة ؟!

وحيث أن المشركين لم يكونوا يعتقدون بهذه الكتب السماوية قط، ولم يكن لهم علم مسبق بكيفية نزولها، لذا يمكن القولُ بان مقصـودهم مـن هـذا الاعتراض كان هو الشكل الأول من هذا التوضيح، والذي يتلخص في أنه لماذا لم ينزل ملائكة الوحي آيات القرآن على رسول اللّه صلّى اللّه عليـه

وآله جملة واحدة، بل نزلت هذه الآيات عليه صلّى اللّه عليه وآله فـي فواصل زمنية متفاوتة، وبمناسبات وحسب وقائع مختلفة متدرجة ؟!

الأسرار المنطقية للنزول التدريجي للقرآن :

ولقد كشف القرآن القناع - في معرض الرد على إعتراض المشركين هذا - عن حِكَم وأسرار النزول التدريجي للقرآن الكريم.

واليك توضيح هذا القسم الذي اشار اليه الكتاب العزيز بعبـارة مقتضبـة قصيرة :

١ - إن الرسول الاكرم صلّى اللّه عليه وآله يتحمل مسؤوليات كبرى، وان شخصية كهذه من الطبيعي ان يواجه مشاكل ومتاعب باهضة وصعبة، ولا ريب أن تلك المشاكل والمتاعب توجب الكلل، وانخفاض مستوى النشـاط مهما كانت الروح التي يتمتع بها الشخص عظيمة، وقوية، في مثـل هـذه الحالة يكون تجديد الارتباط بالعالم الأعلى، وتكرر نزول الملك من جانب اللّه تعالى باعثاً على تجدد النشاط، وعاملاً قوياً في بثّ القـوة والحمـاس والمعنوية الفاعلة في نفس النبي وروحه، وبالتالي فان العنايـة والمحبـة الالهية الممتدة لنبيه ورسوله إنما تتجدد لتكرر نزول الوحي عليه صلّى اللّه عليه وآله من جانبه تعالى.

وقد أشار القرآن إلى هذه الحقيقة النفسية الكبرى اذ قال :

(كذِلك لِنُثبت بِه فُؤادك)(١).

٢ - ويمكن ان تكون الجملةُ المذكورة ناظرة الى جهة أُخرى وهـي : ان المصالح التربوية والتعليمية تقتضي أن يتنزل القرآن الكريم علـى نحـو التدريج ويلقى الى الناس على هذا الشكل أيضاً وذلك لان النـبي الاكـرم صلّى اللّه عليه وآله معلّم الأُمة، وطبيبها الروحي الذي بعِث الـى النـاس بالوصفات الالهية لتعليمهم، وهـدايتهم ومعالجـة أمراضـهم وأدوائهـم الاجتماعية والخلقية، والفكرية، وكُلف بأن يطبق هذه الوصفات في حياتهم العملية، ومثل هذا يتطلب التدرج لينفع الدواء - حينئذٍ - وتنجع المعالجةُ.

إن أفضل وأنجح أساليب التربية هو أن يمتزج الجانب العملـي بالجانـب النظري في أية محاولة تربوية، وأن يطبق كل ما يدرسه الاستاذ بصـورة عملية تطبيقية، ويعطي لما يلقيه من معلومات، صبغة تحقيقيـة، ويتجنّـب بشدة إتصاف أفكاره وآراءه بالطابع النظري البحت.

فلو أن الاستاذ المتخصص في الطب اكتفى بالقاء جملة مـن المعلومـات الكلية والأُسس العامة من الطب على طلابه في الصـف حـرم النتائـج المتوخّاة والغايات

---

(١) الفرقان : ٣٢.

المطلوبة من تعليم الطب، بشكل كامل.

أما إذا قرن الاستاذ درسه النظري بالإرشاد العملي وطبق ما ألقاه وبينه من أفكار ومعلومات في هذا المجال على جسم مريض راقد أمام الطلبة فانـه سيحصل على نتائج أحسن، ويساعد الطلبة على فهم افضل للمـواد التـي درسوها في هذا المجال.

فلو أن الآيات القرآنية الكريمة قد نزلت جملةً واحدة (والحال أن المجتمـع الإسلامي لم يكن يحتاج الى كثير منها) كان القرآن - حينئذٍ - فاقداً لهـذه المزية التربوية الهامة التي أشرنا إليها قريباً في مثال تدريس الطب.

ان بيان الآيات التي يشعر الناس في انفسهم بعـدم الحاجـة الـى اخذهـا وتعلّمها، لا يترك التأثير الباهر في القلوب، بينما إذا نزل ملائكة الوحـي بآيات القرآن حسب حاجات الناس التي يشعرون فيها بضـرورة تعلّمهـا لتضمنها الأحكام والأُصول والفروع التي يحتاجون إليها فانه لا شك يكون لها في هذه الحالة تأثير أحسن وأقوى في قلوب الناس. كما سـيكون لهـا ترسخ اكبر في نفوسهم، وسيظهر الناس من انفسهم إستعداداً اكـبر لاخـذ ألفاظها ومعانيها، وفوق كل ذلك سيشعرون بنتائج هذه التعاليم عند تعليـم النبي إياها لهم، وعندئذ تتحقق المقولة التربوية التي أشرنا إليها في ما سبق وهي اقتران كلام المربي بالنتيجة لأن النظريات إتخذت طابعاً عملياً، ولـم تكن مجرد نظريات لا ترتبط بالواقع.

ولكن يبقى هنا سؤال آخر وهو : إذا كان نزولُ القرآن قد تحقّق على نحو التدريج وتبعاً للاحتياجات والحوادث المختلفة، فان ذلك يستلـزم انفصـام العلاقات والروابط بين الآيات والسور، وهذا ينتج أن لا يهتم الفكر البشري بتعلّم وحفظ معارفها لتبعثرها، وتباعد أزمنتها وغياب علاقاتها، ولكن لـو نزل القرآن جملة واحدة وتلاه ملائكة الوحي على رسول اللّه دفعة واحـدة لروعيت الروابطُ والعلاقات بين قضايا الوحي ولتضاعفت رغبـةُ النـاس واستعدادهم لأخذها وحفظها ؟

ولقد أجاب القرآن الكريم أيضاً على هذا السؤال إذ قال : صحيح أن آيات القرآن الكريم نزلت على نحو التـدريج تبعـاً لطائفـة مـن المقتضيـات والموجبات إلا أن هذا النزول التدريجي لا يمنع ابداً من تـرابط مطالبـه، وارتباط مواضيعه بعضها ببعض، فان اللّه تعالى أفاض على هذه الآيـات انسجاماً وترابطاً خاصاً يمكن الإنسان من تعلمها وضـبطها وحفظهـا إذا أعطى الموضوع قليلاً من الإهتمام إذ قال تعالى:

(ورتّلناه ترتيلاً)(١).

أي إنّنا أعطينا آيات القرآن نظاماً معيناً وترتيباً خاصاً.

أسرار أخرى لِنُزول القرآن تدريجاً :

٣ - لقد واجه رسولُ اللّه صلّى اللّه عليه وآله في فترة رسـالته ونبوتـه فئات مختلفة من الناس : كالوثنيين، واليهود والمسيحيين الذين كان لكل فئة منهم دينٌ خاص، وعقائد وتصورات خاصة حول المبدأ والمعاد، وغيرهما من المعارف العقلية.

وقد كانت اللقاءات المختلفة هذه توجب أن يعمد الوحي الالهي إلى توضيح وبيان عقائد هذه الفئات (وإن لم يكن مطلوباً ومقترحاً من قبلهـم) ويقيـم الأدلة والبراهين على بطلانها، وزيفها، هذا من جانب.

ومن جانب آخر كانت هذه اللقاءات في أزمنة متفاوتة، وأوقـات مختلفـة، لهذا لم يكن بد من أن ينزل الوحي الالهي تدريجاً، وفي الأوقات المختلفة، ويتصدى لبيان بطلان تلك العقائد والتصـورات ويجيـب علـى شـبهات المخالفين، واعتراضاتهم.

وربما كانت توجب هذه المواجهاتُ العقائدية إلى أن يطرحوا على النبـي صلّى اللّه عليه وآله بعض الاسئلة إمتحاناً واختباراً له وكان على النبي أن

---

(١) الفرقان : ٣٢.

يجيب عليها، وحيث أن هذه الاسئلة كانت تطرح في أوقات مختلفـة، لهذا لم يكن مناص من أن ينزل الوحي الالهي فـي الأوقـات والأزمنـة المختلفة، وعلى نحو التدريج.

هذا مضافاً الى أن حياة النبي نفسها كان حياة ثورة، ووقائع، وكان النبـي يواجه باستمرار أحداثاً وقضايا يجب توضيح حكمها، وبيان المنهج فيها من جانب الوحي الالهي.

وربما كان الناس أنفسهم يواجهون في حياتهم اليوميـة حـوادث وأمـوراً يرجعون فيها الى النبي صلّى اللّه عليه وآله يطلبون منه الحكم الالهي فيها ويسألونه عما يجب إتخاذه من الموقف الشرعي في تلك الحـوادث ومـا يشابهها.

وحيث أن هذه الحوادث، وما يترتب عليها من تساؤلات كانت تقـع فـي اوقات مختلفة، وبمرور الزمن، لذلك لم يكن بد أيضاً من ان ينزل الوحـي الالهي بالتدريج ليجيب على هذه الأسئلة أولاً بأول.

وقد أشار القرآن الكريم إلى هذه النقاط، وإلى أُخرى غيرهـا فـي قولـه تعالى :

(ولا يأتُونك بمثل إلا جِئناك بِالحق وأحسن تفسيراً)(١).

٤ - إن للنزول التدريجي للقرآن وراء كل ذلك سراً آخر، وعلة أُخرى غفلوا عنها، ألا وهي : هداية الناس وتوجيه أنظارهم إلى منشأ هذا الكتاب، وأن القرآن ليس الا كتاباً سماوياً، ووحياً إلهياً لا غير، ولا يمكن أن يكون من نسج العقل البشري، لأن القرآن نزل خلال (٢٣ عاماً) عـبر طريـق طويل من أنواع الحوادث والوقائع المسرة والمحزنة، المقرونـة بالنصـر والهزيمة، والنجاح والإخفـاق، ولا شـك أن هـذه الحـالات المختلفـة، والاحاسيس والمشاعر المتنوعة المتباينة، تترك أثـراً عميقـاً فـي نفـس الإنسان، وروحه وعقله، ولا يمكن لإنسان واحد أن يتكلم بكلام من نـوع واحد، وبنبرة واحدة، في حالتين

---

(١) الفرقان : ٣٣.

نفسيتين متضادتين، فالكلام الصادر في حال الفرح والابتهاج والمسرة من اللسان او القلم، يختلف من حيث الفصاحة والبلاغة وجمال اللفظ وعمـق المعنى اختلافاً بارزاً عن الكلام الصـادر فـي حـال الحـزن والتعـب، والاخفاق، والهزيمة.

بينما لا يوجد أي شيء من الاختلاف من حيث الألفاظ والمعاني بين آيات القرآن الكريم مع أنّها نزلت على رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله وهو يمر بحالات مختلفةٍ من الحزن والسـرور والاخفـاق والانتصـار والسـراء والضراء، والعسر والرخاء، والجهد والنشاط، بل نجد تلك الآيـات علـى

نمط ونسق واحدٍ من القوة والفصاحة والبلاغة، وجمال اللفظ وعمـق المعنى بحيث يستحيل على أي بشر بلغَ ما بلغ أن يعارض آية من آياته أو سورة من سوره، وكأن القرآن الكريم كمية من الفضة المائعة خرجت من الأتون جملة واحدة لا يوجد بين آياتها أي شيء من التفاوت والاختـلاف، أو كأنّه جوهرة واحدة أولها كآخرها وآخرها كأولها.

ولعلّ الآية التالية التي تنفي أي نوع من أنواع الإختلاف فـي القـرآن اذ تقول : (ولو كان مِن عِندِ غير اللّه لوجدوا فيه إختِلافاً كثـيراً)(١) اشـارة الى هذا السر.

إن المفسرين اعتبروا هذه الآية ناظرة إلى نفي الاختلاف والتناقض بيـن مفاهيم الآيات ومفاداتها، ومقاصدها، في حين لا تنفي هذه الآية مجرد هذا النوع من الاختلاف بل تقدس القرآن المجيد وتنزهه مـن جميـع انـواع الاختلاف والتناقض الذي هو من لوازم العمل والانتاج البشري.

---

(١) النساء : ٨٢.

١٧ ـ الى الحبشة

الهجرة الاولى

تُعتبر هجرة فريق من المسلمين الى أرض الحبشة دليلاً بارزاً على إيمانهم واخلاصهم العميق لدينهم ولربهم، وذلك لأن فريقاً من الر جال والنسـاء يقررون - وبهدف الحفاظ على عقيـدتهم والتخلـص مـن أذى قريـش ومضايقتها والحصول على مكان آمن يقيمون فيه شعائرهم بحرية ويعبدون اللّه الواحد - مغادرة (مكة)، العربية التي ترزح تحت ظلام الوثنية، فـلا يمكن أن يرفعوا نداء التوحيد عالياً في أية نقطة من نقاطهـا، ولا يمكنهـم اقامة احكام الدين الحنيف فيها من دون خـوف أو وجـل، وبعيـداً عـن الارهاب، ويفكرون، ويفكرون، وأخيراً يقودهم التفكير إلـى أن يفـاتحوا رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله بهذه المسألة، ويطلبوا في ذلك رأي النبـي الذي يقوم دينه على مبدأ : (إن أرضي واسعة فإياي فاعبدون)(١).

لقد كان رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله يعرف أوضاع المسلمين المؤلمـة جيداً، فقد كان هو يحظى بحماية بني هاشم، وكـان الفتيـان الهاشـميون يحمونه ويحفظونه

---

(١) العنكبوت : ٥٦.

من كل اذى، ولكن الذين آمنوا به من الإماء والعبيد، ومن ليست لهم حماية من الأحرار المستضعفين الذي كانوا يشكلون عدداً كبيراً مـن المسلميـن السابقين كان يتعرضون لشتى صنوف العذاب والايذاء والمضايقـة مـن قريش التي لم تألُ جهداً، ولم تدخر وسعاً، ولم تفوت فرصـةً ولا وسـيلةً لالحاق العنت والأذى بالمؤمنين برسول اللّه صلّى اللّه عليـه وآلـه، ولا يستطيع صلّى اللّه عليه وآله منعهم من ذلك.

وقد كان زعماء كل قبيلة يعمدون - للمنع من نشوب أي صِدام بين القبائل - الى تعذيب من اسلم من ابناء قبيلتهم، وايذائه والتنكيل به، وقـد مـرت عليك نماذج وامثلة من أذى قريش وتعذيبها القاسي للمسلمين.

لهذه الأسباب عندما طلب أصحاب النبي صلّى اللّه عليه وآله رأيـه فـي الهجرة من مكة قال في جوابهم :

(لو خرجتُم إلى أرض الحبشة فان بِها مِلكاً لا يظلَم عِنده أحد وهـي أرض صِدق حتى يجعلَ اللّه لكُم فرجاً مما أنتُم فيهِ)(١).

أجل ان مجتمعاً صالحاً يتسلّم زمام الأمر فيه رجل صالح عـادل نمـوذج مصغّر من جنّة عدن بالنسبة الى المسلمين المضطهدين في بلادهم بسبـب عقيدتهم، وهو ما كان يريده ويتمناه أصحاب رسول اللّه صلّى اللّه عليـه وآله ليتمكنوا من القيام بشعائر دينهم فيه في جو من الطمأنينة والامن.

ولقد كان لكلام رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله أثر قوي في نفـوس تلـك الثلة المؤمنة الباحثة عن ارض تعبد فيها اللّه في أمان، بحيث لـم يمـض زمان إلا وقد شدت رحالها وغادرت مكة ليلاً في غفلـة مـن الاجانـب (المشركين) مشاة وركباناً، متجهةً نحو جدة، للسفر عبر مينائها الى ارض الحبشة.

وكان هذا الفريق يتألف من عشر أو خمسة عشر شخصاً بينهم أربعة من

---

(١) السيرة النبوية : ج ١ ص ٣٢١، تاريخ الطبري : ج ٢ ص ٧٠، وبحار الأنوار : ج ١٨ ص ٤١٢ نقلاً عن مجمع البيان للطبرسي.

النسوة المسلمات(١).

والآن يجب أن نرى لماذا لم يذكر رسولُ اللّه صـلّى اللّـه عليـه وآلـه للمسلمين مناطقَ أُخرى للهجرة اليها، وانما ذكر الحبشة فقط.

ان سر هذا الاختيار يتضح إذا درسنا أوضاع الجزيرة العربية وغيرها من المناطق آنذاك.

ان الهجرة الى المناطق العربية التي كـان سـكانها مـن المشركيـن والوثنيين قاطبة كان أمراً محفوفاً بالخطر، فان المشركين كانوا سيمتنعون عن قبول المسلمين في أرضهم إرضاء لقريش أو وفاء وتعصباً لدين الآباء (الوثنية).

وكذلك المناطق التي كان يقطنها المسيحيون أو اليهود، من الجزيرة العربية فلم تكن تصلح لهجرة المسلمين إليها هي الأُخرى لان تينك الطائفتين كانتا تتقاتلان فيما بينهما في صراع مذهبي وطائفي، فلم تكن الأوضاع لتسمـح بأن يدخل طرف ثالث في حلبة الصراع، هذا مضافاً إلى أن ذينك الفريقين (اليهود والنصارى) كانا يحتقران العنصر العربي أساساً، فكيـف يمكـن الهجرة الى مناطقهم والتعايش معهم ؟!

أما «اليمن» فقد كان تحت سيطرة الحكم الإيرانـي الملكـي، ولـم تكـن السلطاتُ الإيرانية آنذاك لتسمح باقامة المسلمين في ربوع «اليمـن»، لمـا عرف من نقمتها فيما بعد على الدعوة الاسلامية الى درجة انه لما وصلت رسالة النبي صلى اللّه عليه وآله الى «خسرو برويز» كتب الـى عاملـه على اليمن فوراً «احمل إلي هذا الذي يذكر أنه نبي، وبدأ اسمه قبل اسمي، ودعاني إلى غير ديني»(٢) !!.

وكذلك كانت «الحيرة» تحت الاستعمار والنفوذ الايراني كاليمن.

وأما «الشام» فقد كانت بعيدة عن «مكة المكرمة»، هذا مضافـاً الـى ان «اليمن» و«الشام» كانتا سوقين لقريش، وكانت تربط قريشاً بسكان هاتيـن

المنطقتين روابط وعلاقات وثيقة، فاذا كان المسلمون يلجـأون إليهمـا أخرجوا منهما

---

(١) تاريخ الطبري : ج ٢ ص ٧٠.

(٢) بحار الأنوار : ج ٢٠ ص ٣٨٢.

بطلابٍ من قريش، تماماً كما طلبت من ملك الحبشة مثل هذا الطلب، ولكنه رفض طلبهم.

وقد كانت الرحلة البحرية - في تلك الآونة - وبخاصـة برفقـة النسـاء والاطفال رحلة شاقة جداً، من هنا كانت هـذه الهجـرة، وتـرك الحيـاة والمعيشة في الوطن دليلاً قوياً على إخلاص أولئـك المهـاجرين لدينهـم وعمق ايمانهم به، وصدقه.

ولقد كان ميناء «جدة» آنذاك ميناء تجارياً عامراً كما هو عليه الآن، ومن حسن الاتفاق أن هذه الثلة المهاجرة قد وصلت الى هذا الميناء في الوقـت الذي كانت فيه سفينتان تجاريتان على أهبة الاقلاع، والتوجه نحو الحبشة، فبادر المسلمون إلى ركوبها والسفر عليها دون تلكّؤ خشية لحاق قريش بهم والقبض عليهم، لقاء نصف دينار عن كل راكب.

وكان ذلك في شهر رجب في السنة الخامسة من مبعث رسول اللّه(١).

ولما عرف المشركون بهجرة بعض المسلمين أمروا جماعةً من رجالهـم بملاحقة اولئك المهاجرين واعادتهم الى مكـة فـوراً، ولكـن المسلميـن المهاجرين كانوا قد غادروا شواطئ «جدة» قبل أن يدركهم الطلب(٢).

ومن الواضح أن ملاحقة مثل هذه الثلة التي لم تلجأ إلى أرض الغـير إلا لأجل الحفاظ على عقيدتها والفرار من الفتنة لنموذج بارز من عتو قريش وعنادها.

فاولئك المهاجرون مؤمنون تركوا الأهل والوطن، واغمضوا الطرف عـن المال، والتجارة، وخرجوا يطلبون أرضاً نائية يمارسون فيهـا شـعائرهم بحرية، ومع ذلك لا يكف عنهم زعماء مكة وجبابرتها وطغاتها !!

اجل ان رؤساء «دار الندوة» بمكة واقطابها كانوا يعلمون جيداً أسرار هذه

---

(١) بحار الأنوار : ج ١٨ ص ٤١٢ نقلاً عن مجمع البيان للطبرسي.

(٢) السيرة النبوية : ج ١ ص ٣٢١ - ٣٢٣.

الهجرة وآثارها من خلال بعض القرائن والمؤشرات، ولذلك كانوا يرددون فيما بينهم أموراً سنذكرها في ما بعد.

هذا والجدير بالذكر أن اعضاء هذا الفريق المهاجر لم يكونوا مـن قبيلـة واحدة بل كان كل واحد من هؤلاء العشرة ينتمي الى قبيلة خاصة.

الهجرة الثانية الى الحبشة :

ثم انه وقعت بعد هذه الهجرة هجرة أخرى، وكان في مقدمـة المهاجريـن هذه المرة «جعفر بن أبي، طالب»، ابن عم رسول اللّه صلّى اللّـه عليـه وآله.

ولقد تمت الهجرة الثانية في منتهى الحريـة، لأن المسلميـن المهاجريـن استطاعوا في هذه الهجرة ان يصطحبوا معهم نساءهم وأولادهم، بحيث بلغ عدد المسلمين في أرض الحبشة هذه المرة (٨٣).

هذا إذا لم نحص من ولد في أرض الحبشة لهم، والا كان العدد اكثر مـن هذا الرقم.

ولقد وجد المسلمون المهاجرون ارض الحبشة كما وصفها رسـولُ اللّـه صلّى اللّه عليه وآله لهم : منطقة عامرة، وبيئة آمنة حرة، تصلح لأن يعبد

فيها اللّه تعالى بحرية وأمان.

تقول «أم سلمة» التي تشرفت بالزواج من رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله في ما بعد، عن تلك الارض : لما نزلنا أرض الحبشة جاورنا بهـا خيـر جار النجاشي، أمنّا على ديننا، وعبدنا اللّه تعالى، لا نؤذى، ولا نسمع شيئاً نكرهه.

كما أنه يستفاد مما قاله بعض اولئك المهاجرين من الشعر في الحبشة، انهم أمنوا بأرض الحبشة، وحمدوا جوار النجاشي، وعبدوا اللّه لا يخافون على ذلك أحداً.

ونحن نكتفي هنا بادراج بعض الأبيات من قصيدة مطولة أنشأها «عبد اللّه بن الحارث» في هذا الصدد :

يا راكباً بلّغن عنّي مُغلغلة(١)*من كان يرجُو بلاغ اللّه والدّينِ**

كلَّ امرئ مِن عِباد اللّه مضطهدٍ*ببطنِ مكّة مقهور ومفتونِ**

أنّا وجدنا بلاد اللّه واسعةً*تُنجِي مِن الذُّلِّ والمخزاة والهون**

فلا تُقيموا على ذُلِّ الحياة وخز*ي في الممات وعيب غير مأمون(٢)**

ويقول ابن الاثير : وكان مسيرهم (الى الحبشة) في رجب سنة خمس مـن النبوة وهي السنة الثانية من اظهار الدعوة فاقاموا شعبان وشهر رمضـان وقدموا في شوال سنة خمس من النبوة، وكان سبب قدومهم الى النبي صلّى اللّه عليه وآله انه بلغهم ان قريشاً اسلمت فعاد منهم قوم وتخلّف قوم(٣).

هذا ويمكن للقارئ الكريم أن يقف على تفاصيل هذا القسـم فـي السـيرة النبوية لابن هشام(٤).

قريش توفد رجالاً لاسترداد المسلمين :

عندما بلغ قريشاً وزعماء «مكة» ما أصبح فيه المسلمون المهاجرون مـن أمن وحرية، وما حصلوا عليه من حسن الجوار والطمأنينة والراحة فـي أرض الحبشة ثارت ثائرة الحسد والغيظ في قلوبهم، وتوجسوا خيفـة مـن نفوذ المسلمين في الحبشة لأن أرض الحبشة قد أصـبحت قاعـدة قويـة للمسلمين، وكانت الزعامةُ المكيةُ تتخوفُ من أن يجـد أنصـار الإسـلام واتباعه منفذاً إلى بلاط النجاشي زعيم الاحباش ومِلكهم، ويميلوا قلبه نحـو الإسلام، ويكسبوا تاييده للمسلمين، فيؤول الامر إلى أن يعبئ جيشاً كبـيراً للقضاء على حكومة المشركين الوثنيين في شبه الجزيرة العربية، وعندهـا تكون الكارثة.

فاجتمع أقطاب «دار الندوة» مرة أُخرى للتشاور في الأمر، فإستقر رأيهـم على أن يبعثوا إلى البلاط الحبشي من يقدم إلى النجاشي ووزرائه وقـواده

هدايا

---

(١) المُغلغلَة : الرسالة ترسل من بلد الى بلد.

(٢) السيرة النبوية : ج ١ ص ٣٥١ - ٣٥٣.

(٣) الكامل في التاريخ : ج ٢ ص ٥٢ و٥٣.

(٤) السيرة النبوية : ج ١ ص ٣٥٤ - ٣٦٢.

مناسبة يستميلونهم بها ليستطيعوا من هذا الطريق التأثير على النجاشي ثـم يتسنّى لهم بعد ذلك ان يقنعوه بضرورة إخراج المسلمين المهـاجرين مـن أرضه أن يتهموهم عنده بالسفاهة والجهل، وابتداع ديـن جديـد منكـر، والإرتداد عن دين الآباء والاجداد !!

ولكي تتحقق خطتهم هذه على أحسن وجه ويصلوا عن طريقها إلى أفضل النتائج اختاروا من بينهم رجلين ماكرين اصبح احدهما في ما بعـد مـن دهاقنة السياسة وهما : «عمرو بن العاص»، و«عبد اللّه بن ابي ربيعـة» وقال لهما كبير المؤتمرين في ذلك الدار : إدفعا إلى كل بطريق هديته قبل أن تكلّما النجاشي فيهم، ثم قدما إلى النجاشي هداياه، ثم سلاه أن يسلّمهـم إليكما قبل أن يكلمهم.

فخرج موفدا قريش حتى قدما على النجاشي بعد أن تلقّيا هذه التعليمات.

وهناك في الحبشة دفعا الى كل بطريق من بطارقة النجاشي وقادة جيشـه ووزرائه هديته، وقالا لكل بطريق منهم :

إنه قد ضوى(١) إلى بلد الملك منّا غِلمان سفهاء، فارقوا دين قومهم، ولـم يدخلوا في دينكم، وجاؤوا بدين مبتدع لا نعرفه نحن ولا انتم، وقد بعثنا الى الملِك لنكلّمه في أمرهم أشرافُ قومهم ليردهم اليهم فاذا كلّمنا الملك فيهـم، فأشيروا عليه بأن يسلّمهم إلينا، ولا يكلّمهم، فان قومهم أبصر بهم، واعلـم بما عابوا عليهم.

فابدى أولئك البطارقة والقادة والـوزراء الطـامعون الجهلـة اسـتعدادهم لمساعدة الرجلين في إنجاح مهمتهم.

ولما كان من غد دخلا على النجاشي وقدما هداياهما اليه فقبلها منهما ثـم كلّماه فقالا له :

أيها الملك إنه قد ضوى إلى بلدك منا غِلمان سفهاء، فارقوا دين قومهم ولم

---

(١) ضوى أيّ لجأ وأتى ليلاً.

يدخلوا في دينك، وجاؤوا بدين ابتدعوه لا نعرفه نحن ولا أنت، وقد بعثنـا إليك فيهم أشراف قومهم من آبائهم وأعمامهم وعشائرهم لتردهم اليهم، فهم أبصر بهم واعلم بما عابوا عليهم وعاتبوهم فيه.

وما أن انتهى موفدا قريش من الكلام إلا وقالت بطارقته حوله : صدقا أيها الملك، قومهم أبصر بهم، وأعلم بما عابوا عليهم فأسلمهم إليهما، فليرداهـم الى بلادهم وقومهم.

فغضب النجاشي وكان رجلا حكيماً عادلاً وقال : لاها اللّه، إذن لا أُسلمهم إليهما، ولا يكاد قوم جاوروني، ونزلوا بلادي واختاروني على من سـواي حتى أدعوهم فاسألهم عما يقول هذان في أمرهم فان كانوا كمـا يقـولان أسلمتُهم اليهما، ورددتُهم الى قومهم، وان كانوا على غير ذلك منعتُهم منهما واحسنتُ جِوارهم ما جاوروني.

ثم ارسل الى أصحاب رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله المهـاجرين الـى الحبشة فدعاهم من غير أن يعلمهم بما يريد منهم، فحضروا عنده، وكـانوا قد قرروا أن يكون متكلمهم وخطيبهم : «جعفر بن أبي طالب» وقـد قِلـق بعض المسلمين لما قد سيقوله «جعفر» عند الملك، وبماذا سيكلّمه ويجيبه، فسألوه عن ذلك فقال لهم جعفر : أقول واللّه ما علّمنا، وما امرنا به نبينـا صلّى اللّه عليه وآله كائناً في ذلك ما هو كائن.

فالتفت النجاشي الى «جعفر» وسأله قائلاً :

ما هذا الدين الذي فارقتم فيه قومكم، ولم تدخلوا (به) في ديني ولا في دين أحدٍ من هذه الملل ؟

فقال جعفر بن أبي طالب :

«أيها الملك، كنّا قوماً أهلَ جاهلية نعبد الأصنام، ونأكـلُ الميتـة، ونأتـي الفواحش، ونقطع الارحام، ونسيء الجوار، ويأكلُ القوي منّـا الضعيـف، فكنّا على ذلك حتى بعث اللّه الينا رسولاً منا، نعرف نسبه وصدقه، وأمانته وعفافه، فدعانا الى اللّه لنوحده ونعبده، ونخلع ما كنّا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من

الحجارة والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الـرحم، وحسن الجوار، والكف عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش، وقـول الزور، وأكل مال اليتيم، وقذف المحصنات. وأمرنا أن نعبد اللّه وحده، لا نشرك به شيئاً، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيـام فصـدقناه وآمنّـا بـه، واتّبعناه على ما جاء به من اللّه، فعبدنا اللّه وحده فلم نشـرك بـه شـيئاً، وحرمنا ما حرم علينا، وأحللنا ما أحلّ لنا، فعدا علينـا قومنـا، فعـذّبونا، وفتنونا عن ديننا، ليردونا إلى عبادة الاوثان من عبادة اللّـه تعـالى، وان نستحل ما كنّا نستحل من الخبائث، فلما قهرونا وظلمونا وضـيقوا علينـا،

وحالوا بيننا وبين ديننا، خرجنا إلى بلادك، واخترناك على من سواك، ورغبنا في جوارك، ورجونا أن لا نظلم عندك ايها الملك».

فأثّرت كلمات جعفر البليغة، وحديثه العذب تأثيراً عجيباً في نفس النجاشي بحيث اغرورقت عيناه بالدموع، وقال لجعفر: هل معك مما جاء به عـن اللّه من شيء ؟

فقال جعفر : نعم فقال له النجاشي : فاقرأه علي، فقرأ عليه جعفر آيات من مطلع سورة مريم، واستمر في قراءته، وبذلك بين نظـرة الإسـلام إلـى «مريم» عليها السلام وطهارة جيبها، والى مكانة المسيح عليـه السـلام، وعظمة شأنه، وجليل مقامه، فبكى النجاشي حتى اخضلّت لحيتُه بالـدموع وبكت اساقفتُه(١) حتى بلّوا مصاحفهم بها حين ما سمعوا ما تـلاه جعفـر عليهم حول مريم والمسيح عليهما السلام.

وبعد صمت قصير ساد ذلك المجلس قال النجاشي :

«إن هذا والذي جاء به عيسى ليخرج من مشكاة واحدة» وهـو يقصـد أن القرآن والإنجيل كلام اللّه وأنهما شيء واحد.

ثم التفت الى موفدي قريش وقال لهما بنبرة قوية : انطلقـا فـلا واللّـه لا أسلمهم إليكما ولا يكادون، فخرجا من عنده.

(١) الاساقفه، جمع اسقف : علماء النصارى.

وعند المساء تكلم «عمرو بن العاص» - وكان إمرأً خداعاً ماكراً - مـع رفيقه «عبد اللّه بن ربيعة» في الامر، وقال له : واللّه لآتينّه غداً عنهم بما استأصل به حضراءهم (وهو يعني أنه سيأتي بحيلةٍ تقضي علـى جـذور المهاجرين بالمرة) ولأُخبرنّه أنهم يزعمون أن عيسى بن مريم عبـد. (أي على خلاف ما يعتقد النصارى في المسيح).

فنهاه «عبد اللّه» عن ذلك وقال : لا تفعل، فان لهم أرحامـاً، وان كـانوا خالفونا، ولم ينفع نهي عبد اللّه له.

ولما كان من الغد دخلا على النجاشي مرة أُخـرى فقـال لـه «عمـرو» متظاهراً هذه المرة بالدفاع عن عقيدة النصارى وهي دين الملـك واهلـه، ومنتقداً رأي المسلمين:

أيها الملك، إنهم يقولون في «عيسى بن مريم» قولاً عظيماً، فارسل إليهـم فسلهم عما يقولون فيه.

فارسل النجاشي اليهم ليسألهم عنه، وهو الملك المحنّك الذي لا يأخذ الأُمور على ظواهرها، ومن غير تحقيق ودراسة، فأدرك المسلمون بفطنتهم أنـه

سيسألهم هذه المرة عن موقفهم من المسيح عليه السلام فاتفقوا أن يكون «جعفر» متكلمهم وخطيبهم وعندما سألوه عما سيجيب به الملك قال : أقول والله ما قال الله، وما جاءنا به نبينا.

فلما دخلوا على النجاشي قال لجعفر بن ابي طالب : ماذا تقولون في عيسى بن مريم ؟

فقال جعفر : نقول فيه الذي جاءنا به نبينا صلّى الله عليه وآله : هو عبـد الله ورسوله وروحه وكلمته القاها الى مريم العذراء البتول.

فسر النجاشي لكلام جعفر ورضي به وقال : هذا والله هو الحق، والله ما عدا عيسى بن مريم ما قلتَ.

ولكن حاشيته لم ترض بهذا الكلام ولم تقبل بما قاله الملك، ولكنّه لم يعبـأ بهم، وأيد مقالة المسلمين، ومنحهم الحرية الكاملة، والأمان الكامـل قائـلاً لهم :

اذهبوا فانتم آمنوان في أرضي من سبكم غُرم، من سبكم غُرم، ما أُحب أن لي دبراً من ذهب وإني آذيتُ رجلاً منكم.

ورد على موفدي قريش هداياهما قائلاً لهما : «ردوا عليهما هداياهما فـلا

حاجة لي بها، فواللّه ما أخذ اللّه مني الرشوة حين رد علي ملكي فآخذ الرشوة فيه، وما أطاع الناس في فأُطيعهم فيه».

فخرج مبعوثا قريش مقبوحين مردوداً عليهما ما جاءا به يجـران اذيـال الخيبة(١).

* * *

وينبغي ان نسجل هنا موقفاً آخر من مواقف ابي طالب في تأييد المسلمين، ونصرة الدين الحنيف.

فقد أرسل «أبو طالب» أبياتاً للنجاشي يحثه على الدفع عـن المهاجريـن وحسن جوارهم وتلك الابيات هي :

ألا ليتَ شِعري كيف في النأي جعفر*وعمرو**
واعداء العدو : الأقاربُ ؟

وهل نالت افعال(٢) النجاشيّ جعفراً*وأصحابه أو**
عاق ذلك شاغبُ ؟

تعلّم، أبيتَ اللعنَ، انك ماجد*كريم فلا يشقى لديك**
المجانبُ

تعلّم بان اللّه زادك بسطةً*وأسباب خير كلّها بك**
لازب

وأنك فيض ذو سجال غزيرة*ينالُ الأعادي نفعُها**
والاقارب(٣)

العودةُ من الحبشة :

قلنا في ما مضى أن المجموعة الأُولى من المهاجرين رجعت من الحبشـة الى مكة لأنباء بلغتها عن إسلام قريش عامـة وانضوائهـا تحـت رايـة الإسلام. حتى إذا دنوا من «مكة» بلغهم أن ما كانوا تحدثوا به من إسـلام مكة كان باطلاً،

---

(١) السيرة النبوية : ج ١ ص ٣٣٨، إمتاع الاسماع : ص ٢١ بحار الأنوار : ج ١٨ ص ٤١٤ و٤١٥.

(٢) إحسان.

(٣) السيرة النبوية : ج ١ ص ٣٣٣ و٣٣٤.

فلم يدخل منهم الى «مكة» إلا قليل دخلوها مستخفين أو في جوار بعـض الشخصيات القرشية بينما عاد الأكثرون من حيث جاؤوا.

وكان ممن دخل «مكة» بجوارِ «عثمان بن مظعون» الذي دخلها بجـوار «الوليد بن المغيرة»(١) ولكنه كان يشاهد ما فيه أصحاب رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله من البلاء، والعذاب وهو يغدو ويروح في امان فتألّم لذلـك ولم تطِق نفسه تحمل هذا الفَرق وقال : واللّه إن غـدوي ورواحـي آمنـاً

بجوار رجل من أهل الشرك، وأصحابي وأهلُ ديني يلقَون من البـلاء والأذى في اللّه ما لا يصيبني لنقص كبير في نفسي. فمشى الى «الوليد بن المغيرة» ورد عليه جواره ليواسي المسلميـن ويشـاركهم فـي آلامهـم ومتاعبهم وقال : يا أبا عبد شمس وفت ذِمتُك، قد رددتُ إليك جوارك.

قال : لِم يابن أخي ؟ لعلّه آذاك أحد من قومي ؟

قال : لا ولكني أرضى بجوار اللّه ولا أُريد أن أستجير بغيره.

فقال الوليد له : إذن فاردد علي جواري علانية كما أجرتُك علانيةً.

فانطلقا فخرجا حتى أتيا المسجد، فقال «الوليد» مخاطباً من حضـر مِـن قريش : هذا عثمان قد جاء يرد علي جواري.

قال : صدق، قد وجدتُه وفياً كريم الجوار ولكنّي قد احببتُ أن لا اسـتجير بغير اللّه، فقد رددتُ عليه جواره(٢).

ثم لم يمض شيء مِن الوقت حتى دخلَ المسجد «لبيد» وكان شاعراً متكلماً بارزاً من شعراء العرب ومتكلّميها ووقف في مجلس من قريش ينشدهـم و«عثمانبن مظعون» جالس معهم فقال مِن جملة ما قال شعراً :

ألا كلُّ شيء ما خلا اللّه باطلُ

فقال عثمان بن مظعون : صدقت فقال لبيد :

---

(١) السيرة النبوية : ج ١ ص ٣٦٩.

(٢) السيرة النبوية : ج ١ ص ٣٧٠.

وكلُّ نعيم لا محالة زائلُ

قال عثمان : كذبت، نعيم الجنة لا يزول فاستثقل «لبيد» تكـذيب عثمـان وتحديه له في ذلك الجمع فقال : يا معشر قريش واللّه مـا كـان يـؤذى جليسكم، فمتى حدث هذا فيكم ؟؟

فقال رجل مِن القوم : إن هذا سفيه في سفهاء معه، قد فارقوا ديننـا فـلا تجدن في نفسك من قوله.

فرد عليه «عثمان» حتى تفاقم الأمر بينهما فقام إليه ذلك الرجلُ فلطم عينه فخضرها (واصابها)، والوليد بن المغيرة قريب يرى ما بلغ عثمان فقال : أما واللّه يا ابن أخي إن كانت عينُك عما أصابها لغنية لقد كنت فـي ذمـة منيعة (وهو يريد أنك لو بقيت في ذمتي وجواري لما اصابك ما أصابك).

فقال عثمان راداً عليه : بل والله إن عيني الصحيحة لفقيرة الى مِثل ما أصاب أُختَها في الله، واني لفي جوار من هو أعز منك، وأقدر يا أبا عبد شمس.

فقال له الوليد : هلم يا ابن أخي إن شئت فعد إلى جـوارك، فقـال ابـن مظعون : لا(١).

وكانت هذه صورة رائعة من صور كثيرة لصمود المسلمين، وتفانيهم فـي سبيل العقيدة، وإصرارهم على النهج الذي اختـاروه، ومواسـاة بعضهـم لبعض في أشد فترة من فترات التاريخ الإسلامي.

وفد مسيحي لتقصي الحقائق يدخل مكة :

قدم على رسول الله صلّى الله عليه وآله وهو بمكة عشرون رجـلاً مـن النصارى حين بلغهم خبره من الحبشة، مبعوثين من قِبل أساقفتها لتقصـي الحقائق بمكة، والتعرف على الإسلام. فوجدوا رسول الله فـي المسجـد، فجلسوا إليه، وكلّموه وسألوه عن مسائل، ورجال من قريش فيهـم «أبـو جهل» في أنديتهم حول الكعبة.

---

(١) السيرة النبوية : ج ١ ص ٣٧٠ و٣٧١.

فلما فرغوا من مسألة رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله عما أرادوا دعاهم - صلّى اللّه عليه وآله - إلى اللّه عز وجلّ وتلا عليهم آيـات مـن القـرآن الكريم، فكان لها من التأثير البالغ في نفوسهم بحيث عندما سمعوها فاضت أعينهم من الدمع، ثم استجابوا له وآمنوا به وصدقوه، بعدما عرفوا منه ما كان يوصف في كتابهم (الانجيل) من أمره.

فلما قاموا عنه، ورأت قريش ما نتج عنه ذلك اللقاء استثقله «ابو جهـل» فقال للنصارى الذين اسلموا معترضاً وموبخاً : خيبكُم اللّه مِن ركبٍ بعثكُم من وراءكم من أهل دينكم ترتادون لهم لتأتوهم بخبر الرجل فلـم تطمئـن مجالسكم عنده حتى فارقتُم دينكُم وصدقتموه بما قال، ما نعلم ركباً أحمـق مِنكُم.

فأجابه اولئك بقولهم : سلام عليكم لا نُجاهِلكم، لنا ما نحن عليه، ولكم مـا أنتم عليه، لم نأل أنفسنا خيراً(١).

وبذلك الكلام الرفيق الجميل ردوا على فرعون مكة الذي كـان يبغـي - كسحابة داكنة - حجب أشعة الشمس المشرقة، وحالوا دون وقوع صِدام.

قريش توفد إلى يهود يثرب للتحقيق :

لقد أيقظ وفد نصارى الحبشة الى مكة وما نجم عن لقائهم برسـول اللّـه صلّى اللّه عليه وآله قريشاً ودفعهم الى تكوين وفد يتألف من : «النضر بن

الحارث» و«عقبة بن ابي معيط» وغيرهما وإرسالهم إلى أحبار يهـود المدينة ليسألونهم عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله ودينه.

فقال أحبار اليهود لمبعوثي قريش : سلوا محمداً عن ثلاث نأمركم بهـن، فإن أخبركم بهن فهو نبي مرسل، وان لم يفعل فالرجلُ متقول، فروا فيـه رأيكم، سلوه :

١ - عن فتية ذهبوا في الدهر الأول (يعنون بهم أصحاب الكهف) ما كان

---

(١) السيرة النبوية : ج ١ ص ٣٩٠ و٣٩٣ وقد نزلت في هذا الشأن الآيات ٥٢ الى ٥٥ من سورة القصص.

من امرهم، فانه قد كان لهم حديث عجيب.

٢ - وعن رجل طواف (يعنون به ذا القرنين) قد بلـغ مشـارق الأرض ومغاربها ما كان نبؤه وخبره ؟

٣ - وعن الروح ما هي ؟

فاذا أخبركم بذلك فاتبعوه، فانه نبي، وان لم يفعل، فهو رجـل متقـول فاصنعوا في أمره ما بدا لكم.

فعاد وفد قريش الى «مكة» ولما قدموها قالوا لقريش ما سمعوه من أحبار اليهود.

فجاؤوا إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله وطرحوا عليه الاسئلة الثلاثـة السالفة. فقال رسولُ اللّه صلّى اللّه عليه وآله : انتظر في ذلك وحياً.

ثم نزل الوحي يحملُ الى رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله الأجوبة المطلوبة على تلك الاسئلة.

وقد ورد الجواب عن السؤال عن الروح في الآية ٨٥ من سورة الإسراء.

وأُجيب على السؤالين الآخرين عن أصـحاب «الكهـف» وذي القرنيـن بتفصيل في سورة «الكهف» ضمن الآيات ٩ - ٢٨ والآيات ٧٣ - ٩٣.

وقد وردت تفصيلاتُ هذه الإجابات التي أجاب بها رسول اللّه صلّى اللّـه عليه وآله على أسئلتهم في كتب التفسير.

ولا بد هنا من أن نُذكر القارئ الكريم بنقطة مفيدة وهي أن المـراد مـن

«الروح» في سؤال القوم ليس هو الروح الإنسانية بل كان المراد هـ و جبرئيل الأمين، (بقرينة أن المقترحين الاصليين لهذه الأسئلة : هم اليهـ ود وكانوا يكرهون الروح الامين، ويعادونه)، وهو أمر مبحوث في محلّه من كتب التفسير.

---

(١) السيرة النبوّية : ج ١ ص ٣٠٠ - ٣٠٢.

١٨ ـ الأسلحةُ الصَديئة والاساليب الفاشلة

نظّم أسياد قريش صفوفهم لمكافحة عقيدة التوحيد، بعد أن أدركـوا عقـم المواقف المبعثرة من هذا الدين وأهله.

فقد حاولوا في بداية الأمر أن يثنُوا رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآلـه عـن المضي في مواصلة دعوته، وذلك بتطميعه بالمال والجاه وما شابه ذلـك، ولكن لم يحصلوا من ذلك على شيء، فقد خيب ذلـك الرجـلُ المجاهـد ظنونهم فيه، وبدد آمالهم في إثنائه عن هدفه بكلمته الخالدة المدوية : «واللّه لو وضعوا الشمس في يميني، والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر بما فعلتُ» وهو يعني ان تمليكه العالم كلّه لا يثنيه عن هدفه ولا يصرفـه عن تحقيق ما نُدِب اليه، وارسل به.

فعمدوا الى سلاح آخر هو التهديـد والأذى، والتنكيـل بـه وباصـحابه وانصاره، ولكنهم واجهوا صموده وصمود أنصاره واصحابه، وثباتهم الذي ادى إلى انتصار المؤمنين في هذا الميدان، وخيبة المشركين وهزيمتهم.

وقد بلغَ من ثبات المسلمين على الطريق أنهم أقدموا على مغادرة الـوطن، وترك الأهل والعيال، والهجرة إلى الحبشة فراراً بدينهم إلى اللّه، وسـعياً وراء نشره وبثه في غير الجزيرة من الآفاق.

ولكن رغم إخفاق أسياد قريش المشركين في جميـع هـذه الجبهـات والميادين

وعجزهم عن استئصال شجرة التوحيد الفتية، وفشل جميع الأسلحة التـي استخدموها للقضاء على الدين الجديد وأهله، لم تنته محاولاتهم الإجهاضية بل عمدوا هذه المرة إلى استخدام سلاح جديد حسبوه أمضى من سوابقه.

وهذا السلاح هو سلاح الدعاية ضد رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله، لانـه صحيح أن ايذاء وتعذيب جماعة المؤمنين في «مكة» تمنع غـيرهم مـن سكان «مكّة» من الإنضواء إلى الإسـلام إلا ان الحجيـج الـذين كـانوا يسافرون الى مكة في الأشهر الحرم وكانوا يلتقون رسول اللّه صلّى اللّـه عليه وآله في جو من الأمن والطمأنينة خلال تلك المواسم كانوا يتـأثّرون بدعوة النبي صلّى اللّه عليه وآله ويتزعزع اعتقادهم بالأوثان على الأقـل، إن لم يؤمنوا بدينه، ولم يستجيبوا لدعوته، ثم إنهم كـانوا ينقلـون رسـالة الإسلام وانباء النبي صلّى اللّه عليه وآله إلى مواطنهم، ومنـاطِقهم وكـان ينتشر بذلك اسم رسول اللّه، وأنباء دينه في شتّى مناطق الجزيرة العربية، وكان هذا هو بنفسه ضربة قوية توجه إلى صرح الوثنية في مكة، وعاملاً قوياً في انتشار عقيدة التوحيد، وسطوع أمره.

من هنا اتخذ سادةُ قريش أُسلوباً آخر، قاصدين بذلك الحيلولة دون انتشـار الإسلام، واتساع رقعته، وقطع علاقة المجتمع العربي به.

واليك فيما يأتي بيان تفاصيل هذا الاسلوب، وهذه الخطة :

١ - الاتّهاماتُ الباطلة :

يمكن التعرف على شخصية أي واحد وتقييمها من خلال مـا يرميـه بـه اعداؤُه من شتائم وسباب، وما يكيلون له من اتهامات ونسب، فـان العـدو يسعى دائماً الى أن يتهم خصمه بنوع من انـواع التهـم ليضِـل النـاس، ويصرفهم عنه، وليتمكن بما يحوكُه حوله من أراجيف وأباطيل الحط مـن شأنه في المجتمع واسقاطه من الانظار والأعين.

ان العدو الذكي يسعى دائماً إلى ان ينسب إلى منافسه ما يصدقه ولو فئـة خاصة من الناس على الاقل، ويوجب شكّهم في صـدقه، ويتجنـب تلـك النسب

التي لا تصدق في شأنه، ولا تناسب اخلاقه وافعاله المعروفـة عنـه، ولا تمسه بشكلٍ من الأشكال، لأنه سوف لا يجني في هذه الحالة إلا عكس مـا يقصد، وخلاف ما يريد.

ومن هنا يستطيع المؤرخُ المحققُ أن يتعرف على الشخصية الواقعية لمـن يدرسه، وعلى مكانته الإجتماعية، وأخلاقه وسجاياه ولو من خلال ما ينسبه الأعداء إليه، وما يكيلون له مـن أكاذيـب وإفـتراءات، ونسـب باطلـة

واتهامات، لأن العدو الذي لا يخاف أحداً لا يقصر في كيل كل تهمـة تنفعه وتخدم غرضه إلى الطرف الآخر، ويستخدم هذا السلاح (أي سـلاح الدعاية) ما استطاع، وما ساعدته معرفتُه بالظروف، ودرايته بالفرص.

فاذا لم ينسب إليه أي شيء من تلك النسب الباطلة فان ذلك إنما هو لأجـل طهارة جيبه، ونقاء صفحته، وتنزه شـخصيته عـن تلـك النسـب، ولأن المجتمع لم يكن ليعبأ بها ولم يصدقها في شأنه.

ولو أننا تصفّحنا اوراق التاريخ الإسلامي لرأينا أن قريشاً مع ما كانت تكن من عداء، وتحمِلُ من حِقد على رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله، وكانـت تسعى بكل جهدها أن تهدم صرح الإسلام الجديد الظهور، وأن تحطّ مـن شأن مؤسسه وبانيه لم تستطع مع ذلـك أن تستفيـد مـن هـذا السـلاح، وتستخدمه كاملاً.

فقد كانت تفكّر في نفسها : ماذا تقول في حق رسول اللّه ؟ ومـاذا تـرى تنسب اليه ؟؟

هل تتهمه بالخيانة المالية وها هم جماعة منهم قد ائتمنوه على أموالهم ؟! (١) كما أن حياته الشريفة طوال الاربعين سنة الماضية جسدت امانته امام الجميع، فهو الامين بلا منازع ؟

هل تتهمه بالجري والانسياق وراء الشهوة واللّذة ؟ وكيف تقول في حقـه مثل هذا الكلام مع أنه بدأ حياته الشبابية بالتزويج بزوجة كبيرة السن الـى

درجة

---

(١) بحار الأنوار : ج ١٩ ص ٦٢.

ما، وبقي معها حتى لحظة انعقاد هذه الشورى في «دار النـدوة» بهـدف الدعاية ضده، ولم يعهد منه زلّة قدم في هذا السبيل قط ؟!

وبالتالي بماذا تتهم محمداً الصادق الأمين، الطاهر العفيف، وأية تهمة ترى يمكن أن تُصدق في حقه، أو يحتمل الناس صدقها في شأنه ولو بنسبة واحد في المائة ؟

لقد تحير سادة «دار الندوة» وأقطابها في كيفية استخدام هذا السلاح، سلاح الدعاية ضد رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله وسلّم، فقرروا في نهاية الأمر أن يطرحوا هذا الأمر على صنديد من صناديد قريش ويطلبوا رأيه فيـه، وهو «الوليد بن المغيرة» وكان ذا سن فيهم، ومكانة، فقال لهم :

يا معشر قريش، إنه قد حضر هذا الموسم وان وفود العرب ستقدم عليكـم فيه، وقد سمعوا بأمر صاحبكم هذا فاجمعوا فيه رأياً واحـداً، ولا تختلفـوا فيكذّب بعضكم بعضاً، ويرد قولُكم بعضه بعضاً.

قالوا : فأنت يا أبا عبد شمس فقل وأقم لنا رأياً نقول به.

قال : بل أنتم قولوا أسمَع.

قالوا : نقول كاهن.

قال : لا واللّه ما هو بكاهن، لقد رأينا الكُهان فما هو بزمزمة الكـاهن ولا سجعه.

قالوا : فنقول : مجنون.

قال : ما هو بمجنون، لقد رأينا الجنون وعرفنـاه فمـا هـو بخنقـه، ولا تخالجه، ولا وسوسته.

قالوا : فنقول : ساحر.

فقال : ما هو بساحر لقد رأينا السحار وسحرهم فما هو بنفثهم ولا عقدهم.

وهكذا تحيروا في ما ينسبون إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله.

وأخيراً اتفقوا على أن يقولوا : أنه ساحر جاء بقول هو سِحر يفرق به بين المرء وابيه وبين المرء وأخيه، وبين المرء وزوجته وبين المرء وعشيرته.

ويدل عليه ما أوجده من الخلاف والإنشقاق والتفرق بين أهل مكة الّذين

كان يضرب بهم المثل في الوحدة والاتفاق(١).

وقد ذكر المفسرون في تفسير سورة «المدثر» هذه القصة بنحو آخر فقالوا : لما أُنزل على رسول اللّه «حم تنزيلُ الكِتاب...» قام الى المسجد و«الوليد بن المغيرة» قريب منه يسمع قراءته فلما فطن النبي صلّى اللّه عليه وآله وسلّم لاستماعه لقراءته، أعاد قراءة الآية، فتركت الآية في نفس الوليد تأثيراً شديداً فانطلق إلى منزله، ولم يخرج منه أياماً، فسخرت منه قريش وقالت : صبأ - واللّه - الوليد ثم مشى رجال من قريش اليه وسألوه رأيه في قرآن محمد، واقترح كل واحد منهم أمراً، ولكنه رد عليها بالنفي جميعاً فقالت قريش إذن ما هو ؟ فتفكر «الوليد» في نفسه ثم قال : ما هو إلا ساحر أما رأيتموه يفرق بين الرجل وأهله، وولده ومواليه، فهو ساحر وما يقوله سحر يؤثر(٢).

ويرى المفسرون أن الآيات التالية في شأنه إذ يقول اللّه تعالى :

(ذرني ومَن خلقتُ وحيداً. وجعلتُ له مالاً ممدوداً. وبنينَ شهوداً. ومهـدتُ له تمهيداً. ثُم يطمع أن أزيد. كلا انّه كان لآياتِنا عنيداً. سارهقُه صـعوداً. إنّه فكّرَ وقدر. فقُتِل كيف قدر. ثُم نظر. ثُم عبسَ وبسر. ثُم أدبر واستكبر. فقال إن هذا سِحر يؤثَر... (الى قوله :) فما لهم عن التذكِرة معرضـين. كأنّهم حمر مستنفِرة. فرت مِن قسورَة)(٣).

* * *

الإصرار في نسبة الجنون اليه صلّى اللّه عليه وآله وسلم :

يعتبر إتصاف النبي الاكرم صلّى اللّه عليه وآله وسلم واشتهاره بين الناس بالصدق والامانة وغيرها من مكارم الأخلاق منذ شـبابه مـن مسلّمـات التاريخ.

وهو بالتالي أمر اعترف به حتى أعداؤه الالداء، فقد دانوا بفضله، وأقروا

---

(١) السيرة النبوّية : ج ١ ص ٢٧٠.

(٢) مجمع البيان : ج ١٠ ص ٣٨٦ و٣٨٧.

(٣) المدثر : من ١١ - ٥١.

بأخلاقه الكريمة وسجاياه النبيلة، دون تلكؤ، ولا إبطاء.

وقد كان من أوصافه الحسنة البارزة ان جميـع النـاس كـانوا يدعونـه «الصادق» «الامين» وكانوا يثقون بأمانته ثقة كبرى(١) حتى أن المشركين كانوا يودعون ما غلى من أموالهم عنده، واستمر هذا الأمر حتى عشـرة أعوام بعد دعوته العلنية.

وحيث أن دعوته صلّى اللّه عليه وآله قد ثقلت على المعاندين فاجتهدوا في أن يصرفوا عنه الناس بما ينسبون اليه من بعض النسب التي توجب سوء الظن به، ومن ثم إفشال دعوته، وحيث أنهم كـانوا يعلمـون أن النسـبَ الأُخرى مما لا يقيم لها المشركون وزناً، لأنها أُمور بسيطة في نظـرهم، من هنا رأوا بأن يتهموه بالجنون، والزعم بان ما يقوله ويقرؤه ما هـو إلا من نسج الخيال، ومن أثر الجنون الذي لا يتنافى مع الزهـد، والأمانـة، وذلك تكذيباً لدعوته.

ثم عملت قريش على إشاعة هذه النسبة، واتخذت وسائل عديـدة ومـاكرة لترويجها وبثّها بين الناس.

ومن شدة مكرهم ومراءاتهم أنّهم كانوا يتخذون موقف المتسائـل المحايـد فيطرحون هذه التهمة في قالب الشك، والترديد اذ يقولون :

(أفترى على اللّه كذِباً أم بهِ جِنّة)(٢).

وهذه هي بعينها الحيلةُ الشيطانية التي يتوسل بها ويتستر وراءهـا أعـداء الحقيقة دائماً عندما يريدون تكذيب المصلحين العظام، وإسقاط خطواتهـم وأفكارهم من الاعتبار، والحطّ من شأنها وأهميتها.

ويشير القرآن أيضاً إلى أن هذا الاسلوب الماكر الذميم لم يكـن مختصـاً بالمعارضين في عهد الرسالة المحمدية، بل كان المعارضون في الأعصر الغابرة أيضاً يتوسلون بهذا السلاح لتكذيب الرسـل، والانبيـاء إذ يقـول عنهم :

---

(١) بحار الأنوار : ج ١٩ ص ٦٢ عن عبيد اللّه بن ابي رافع : كانت قريش تدعو محمّداً صلّى اللّه عليه وآله في الجاهلية الامين وكانت تستودعه وتستحفظه أموالها وأمتعتها، وكذلك كلُ من كان يقدم مكة من العرب في الموسم، وجاءته النبوة والرسالة والامر كذلك.

(٢) سبأ : ٨.

(كذلك ما أتى الّذين مِن قبلِهم مِن رسـول إلا قـالُوا سـاحِر أو مجنُـون أتواصوا بِه بل هم قوم طاغُون)(١).

وتحدث الاناجيلُ الحاضرة هي الأُخرى عن ان المسيح عليه السلام عند ما وعظ اليهود قالوا : إن فيه شيطاناً، فهو يهذي فلماذا تسمعون اليه ؟!(٢).

ومن المسلّم والبديهي أن قريشاً لو كان في مقدورها أن تتهم رسول اللّـه الصادق الأمين صلّى اللّه عليه وآله بغير هذا الاتهام وتنسب إليه غير هذه النسبة لما تأخرت عن ذلك، ولكن حياة النبي صلّى اللّه عليه وآله المشرقة خلال الاربعين سنة الماضية، وسوابقه اللامعة في المجتمع المكي وغيـر المكي كانت تحول دون أن ينسبوا اليه شيئاً من تلـك النسـب القبيحـة، الذميمة.

لقد كانت «قريش» مستعدة لأن تستخدم أي شيء - مهما صـغر - ضـد رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله.

فمثلاً عندما وجده أعداء الرسالة يجلس إلى غلام مسيحي يدعى «جـبر» عند المروة، انطلقوا يستخدمون هذا الأمر ضده صلّى اللّه عليه وآله فوراً فقالوا : واللّه ما يعلم محمداً كثيراً مما يأتي به الا «جبر» النصراني.

فرد عليهم القرآن الكريم بقوله :

(ولقد نعلم أنّهم يقُولُون إنّما يعلمه بشَر ِلسان الّذي يلحِدون إليـه أعجمـي وهذا ِلسان عربي مبِين)(٣).

(وقد جاءهم رسول مبين ثُم تولُوا عنه وقالُوا معلّمٌ مجنُون)(٤).

القرآن يرد على جميع الاتهامات :

وربما نسبوا اليه صلّى اللّه عليه وآله الكهانة، والكاهن هـو مـن يتصـل بعناصر من الجن(٥) أو الشياطين ويتلقى منهم اخبـاراً حـول الماضـي والمستقبل،

---

(١) الذاريات : ٥٢ و٥٣.

(٢) انجيل يوحنا : الفصل ١٠ الفقرة ٢٠، والفصل ٧ الفقرة ٤٨ و٥٢.

(٣) النحل : ١٠٣.

(٤) الدخان : ١٣ و١٤.

(٥) الجن كائن من الكائنات ومخلوق من مخلوقات اللّه تعالى وقد اخبر به القرآن الكريم في مواضع =

وكان هذا موجوداً قبل الإسلام كما ترويه كتب السير والتواريخ(١).

وقد رد القرآن الكريم على هذه المقالة وهذا الزعم اذ قال تعالى :

(ولا بِقول كاهِنٍ قليلاً ما تذكّرون)(٢) كما رد ايضاً تهمة السحر، والكذب

والافتراء والشعر إذ قال تعالى وهو يصف المتهميـن تـارة بالكفـر وأخرى بالظلم :

(وعَجِبوا أن جاءهم منذر مِنهم وقال الكافِرون هذا ساحِر كذّاب)(٣).

وقال تعالى : (وقالَ الظالِمون إن تتّبِعون إلا رجلاً مسحوراً)(٤).

وقال سبحانه متعجباً مِنهم : (قالُوا إنّما أنت مِن المسحرين)(٥).

وقال تعالى : (وقالُوا يا أيها الّذي نُزل عليهِ الذِكر إنّك لمجنُون)(٦).

وقال سبحانه : (وما صاحِبكُم بِمجنُونٍ)(٧).

وقال عز وجلّ : (فذكر فما أنت بِنعمةِ ربك بِكاهِنٍ ولا مجنُونٍ)(٨).

وقال تعالى : (قالُوا إنّما أنت مفتَر بل أكثرهم لا يعلَمون)(٩).

وقال تعالى : (أم يقُولُون افتراه قُل فأتوا بِعَشر سورٍ مِثلِه)(١٠).

وقال سبحانه : (وقال الّذين كفروا إن هذا إلا إفك افتراه وأعانه عليهِ قـوم

آخرون فقد جاؤوا ظُلماً وزوراً)(١١).

وقال سبحانه : (أفتَرى على اللّه كَذِباً أم بِهِ جِنّة)(١٢).

وقال تعالى : (أم يقُولُون شاعِر نتربَص بِهِ ريبَ المنُون)(١٣).

وقال تعالى : (وما علّمناه الشّعر وما ينبغي له إن هو إلا ذكر وقرآن مبين)(١٤).

وربما وصفوا القرآن بانه اضغاث احلام فردهم سبحانه بقوله:

(بل قالُوا أضغاثُ أحلامٍ بل افتراه بل هوَ شاعر)(١٥).

عديدة كما سميت احدى السور باسم الجن.

(١) راجع : بلوغ الارب في معرفة أحوال العرب : ج ٣ ص ٢٦٩ باب علم الكهانة والعرافة.

(٢) الحاقة : ٤٢.

(٣) ص : ٤.

(٤) الفرقان : ٨.

(٥) الشعراء : ١٥٣.

(٦) الحجر : ٦.

(٧) التكوير : ٢٢.

(٨) الطور : ٢٩.

(٩) النحل : ١٠١.

(١٠) هود : ١٣.

(١١) الفرقان : ٤.

(١٢) سبأ : ٨.

(١٣) الطور : ٣٠.

(١٤) يس : ٦٩.

(١٥) الانبياء : ٥.

وهكذا نجدهم ذهبوا في استخدام سلاح الاتهام والتشويش على الشخصيـة المحمدية والرسالة الإسلامية كل مذهب، فمرة وصفوه بانه كاهن وأُخـرى بانه ساحر وثالثة بانه مسحور، ورابعة بانه مجنون وخامسة با نه معلـم وسادسة بانه كذاب وسابعة بانه مفتري وثامنة بانه مفتري او مجنون على

سبيل الترديد وتاسعة بانه شاعر وعاشرة بأن ما يقولـه مـا هـو الا أضغاث احلام.

٢ - فكرةُ معارضةِ القرآن :

لم يجدِ استخدام سلاح الإتهام ضد رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله نفعـاً، ولم تأتِ بالثمار التي كان يتوخاها المشركـون منـه، لأن النـاس كـانوا يدركون بفطنتهم وفراستهم أن للقرآن جاذبية غريبة، وأنهـم لـم يسمعـوا كلاماً حلواً، وحديثاً عذباً مثله.

ان لكلماته من العمق والعذوبة بحيث يتقبلها كلُّ قلب، وتسكن اليهـا كـل نفس.

من هنا لم ينفع اتهام قريش لرسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله بالجنون وبأن ما يقوله إن هو الا من نسج الخيال، ونتائج الجنون، شـيئاً، فقـررت أن تخطّط لتدبير آخر ظناً منهم بأن تنفيذه سـيصرف النـاس عنـه، وعـن الاستماع إلى كتابه، ألا وهو : معارضة القرآن الكريم.

فعمدت إلى «النضر بن الحارث» وكان من شياطين قريش، وممـن كـان يؤذي رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله وينصب له العداوة، وكان قد قضى شطراً من حياته في الحيرة بالعراق وتعلّم بها أحاديـث ملـوك الفـرس واحاديث «رستم» و«إسفنديار» وقصصهـم، وحكايـاتهم، وأسـاطيرهم، وطلبوا منه أن يجمع الناسَ ويقص عليهم من تلكم الأسـاطير والحكايـات

يلهي بها الناس عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله، ويصـرفهم عـن الإصغاء إلى القرآن الكريم !!

فكان إذا جلس رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله مجلساً فذكّر النـاس فيـه باللّه، وحذر قومه ما أصاب من قبلهم من الأمم مـن نقمـة اللّـه، خلفـه «النضر» في مجلسه

اذا قام صلّى اللّه عليه وآله ثم قال : أنا واللّه يا معشر قريش أحسن حديثاً منه فهلم إلي، فأنا أُحدثكم أحسن من حديثه.

ثم يحدثهم عن ملوك الفرس و«رستم» و«اسفنديار» ثم يقول :

بماذا محمد أحسن حديثاً مني وما حديثه إلا أساطير الأولين اكتتبهـا كمـا اكتتبتُها ؟(١).

وقد كانت هذه الخُطة حمقاء جداً إلى درجة أنها لم تدم إلا عدة ايام لا اكثر حتى أن قريشاً سأمت من أحاديث «النضر» وسرعان ما تفرقت عنه.

وقد نزل في هذا الشأن آيات هي :

(وقالُوا أساطير الأولينَ اكتتبها فهي تملى عليهِ بكرةً وأصِيلاً. قُل أنزلُه الّذي يعلَم السر في السماواتِ والأرض إنّه كان غفُوراً رحيماً)(٢).

* * *

تحججات صبيانية وجاهلية :

وربما جسدوا معارضتهم للدعوة المحمدية في صورة تحججات ومجادلات جاهلية ومآخذ سخيفة اخذوها على رسول اللّه ورسالته، تنـم عـن تكبـر وجهل، وعناد ولجاج طبعوا عليه.

وها نحن نذكر ابرزها :

أ - لماذا لم ينزل القرآن على ثري من اثرياء مكة أو الطائف ؟!

قال تعالى حاكياً قولهم :

(لولا نُزل هذا القرآن على رجلٍ مِن القريتين عظِيم)(٣).

ب - لماذا لم يرسل اليهم ملائكة ولماذا هو بشر ؟!

قال تعالى عنهم :

(وما منعَ النّاس أن يؤمِنُوا إذ جاءهم الهدى إلا أن قالُوا أبعث اللّه بشراً

---

(١) السيرة النبوية : ج ١ ص ٣٠٠ و٣٥٨.

(٢) الفُرقان : ٥ و٦.

(٣) الزخرف : ٣١.

رسولاً)(١).

وقال تعالى حاكياً عنهم أيضاً :

(وقالُوا ما لِهذا الرسول يأكُلُ الطّعامَ ويمشي فِي الأسواق)(٢).

ج - انّه يدعو الى خلاف ما كان عليه الآباء، من الدين والعقيدة والسلوك ؟

يقول عنهم سبحانه :

(وإذا قِيلَ لهم تعالَوا إلى ما أنزَلَ اللّه وإلى الرسول قالُوا حسبنا ما وجدنـا عليه آباءنا أوَلَو كان آباؤُهم لا يعلمون شيئاً ولا يهتدون)(٣).

د - تبديل الآلهة بالهٍ واحدٍ.

قال اللّه عنهم :

(وعجِبوا أن جاءهم منذِر مِنهم وقال الكافِرون هذا ساحِر كـذّاب. أجعـلَ الآلِهَةَ إلهاً واحِداً إن هذا لِشَيء عجاب)(٤).

ه - القول بحشر الاجساد وتجدد الحياة في يوم القيامة.

قال تعالى عنهم :

(وقالُوا ءإذا ضللنا فِي الأرض ءإنّا لَفِي خلقٍ جدِيدٍ)(٥).

و - لماذا ليس عنده مثل ما كان لدى موسى مـن المعجـزات كالثعبـان المنقلب من العصا، وقد توصل المشركون إلى هذا النمط من الاعـتراض بسبب اتصالهم بأحبار اليهود.

يقول اللّه عنهم :

(فلما جاءهم الحق مِن عِندِنا قالُوا لولا أُوتي مِثلُ ما أُوتي موسى)(٦).

ز - لماذا ليس معه ملك يرى ويشاهد ويحضر معه في كل مقام ومشهد.

قال تعالى :

(وقالُوا لولا أُنزلَ عليهِ ملَك)(٧).

---

(١) الاسراء : ٩٤.

(٢) الفرقان : ٧.

(٣) المائدة : ١٠٤.

(٤) ص : ٤ و٥.

(٥) السجدة : ١٠.

(٦) القصص : ٤٨.

(٧) الانعام : ٨.

مقترحات عجيبة ومطاليب غريبة :

وكان المشركون اذا نفدت تحججاتهم واعتراضاتهم الواهية، وقوبلوا بردود قوية وقاطعة عليها عمدوا إلى طرح مقترحات سخيفة على رسـول اللّـه صلّى اللّه عليه وآله في سياق معارضتهم لدعوتـه ونـورد هنـا ابـرز الاقتراحات ليعرف القارئ الكريم مدى معاناة النبي الكريم صلّى اللّه عليه وآله من قومه :

لقد اقترحوا عليه :

١ - ان يعبد اصنامهم سنة ويعبدوا إلهه سنة أُخرى وجعلوا ذلـك شـرطاً لايمانهم بدعوته !!

فأنزل اللّه تعالى في ردهم بسورة «الكافرون» :

(بسم اللّه الرحمن الرحيم. قُل يا أيها الكافِرون لا أعبد ما تعبدون. ولا أنتُم عابِدون ما أعبد. ولا أنا عابِد ما عبدتُم. ولا أنتُم عابِدون ما أعبـد. لكُـم دِينكُم ولِي دين).

٢ - تبديل القرآن، فقد دفع نقد القرآن الكـريم للوثنيـة، والازراء علـى

الاصنام، دفعهم إلى ان يطلبوا من النبي صلّى اللّه عليه وآله ان يأتـي لهم بقرآن آخر لا يحتوي على شجب عبادة الاوثان والازدراء بالاصـنام، وابطالها.

قال اللّه تعالى عن فعلهم هذا :

(وإذا تُتلى عليهم آياتُنا بينات قال الّذين لا يرجون لِقاءنا ائتِ بِقُرآن غيـر هذا أو بدله)(١).

فرد اللّه عليهم بقوله :

(قُل ما يكُون لِي أن أُبدله مِن تِلقاء نفسي إن اتّبع إلا ما يوحى إلـي إنـي أخافُ إن عصيتُ ربي عذاب يومٍ عظيمٍ)(٢).

٣ - مطاليب مادية عجيبة !!

---

(١) و(٢) يونس : ١٥.

وقد عمدوا - بسبب عنادهم وعتوهم - الى المطالبة بأُمور لا ترتبط بهداية

الناس، مثل مطالبته بان يفجر لهم ينـابيع، او يسقـط السمـاء علـى رؤوسهم قطعاً، أو يصعد إلى السماء، أو يأتي باللّه سـبحانه وتعـالى، أو غير ذلك من الاقتراحات والمطاليب التي كانت إما مستحيلة في نفسهـا او تناقض غرض الدعوة !!

قال اللّه حاكياً عنهم ذلك :

(وقالُوا لن نُؤمِن لكَ حتّى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً. أو تكُون لكَ جنّـة مِن نخيلٍ وعنب فتُفجر الأنهارَ خِلالها تفجِيراً. أو تأتِيَ بِاللّـه والملائكـةِ قبيلاً. أو يكُون لك بيت مِن زخرفٍ أو ترقى في السماء)(١).

صبر النبي واستقامته وثباته :

ولقد قابل رسولُ اللّه صلّى اللّه عليه وآله كل هذه التحججات الايذائية وما طرح مِن الاقتراحات المستحيلة بصبر عظيم وثبات هائـل، ايمانـاً منـه بدعوته، وحرصاً على ابلاغ رسالته، وبفعل التأييد الالهي من جانب.

يقول اللّه تعالى في هذا الصدد :

١ - (فاصبِر كما صبرَ أولُو العَزم مِن الرسل ولا تستعجِل لهم)(٢).

٢ - (واتّبِع ما يوحى إليك واصبِر حتّى يحكُم اللّه وهو خير الحاكِمين)(٣).

٣ - (واصبِر وما صبرك إلا بِاللّه ولا تحزن عليهِم)(٤).

٤ - (واصبِر نفسَك مع الّذين يدعون ربهم بِالغداة والعَشِي)(٥).

٥ - (فاصبِر لِحكم ربك ولا تكُن كصاحِب الحوت)(٦).

٦ - (واصبِر على ما يقُولُون واهجرهم هجراً جمِيلاً)(٧).

* * *

---

(١) الاسراء : ٩٠ - ٩٣.

(٢) الاحقاف : ٣٥.

(٣) يونس : ١٠٩.

(٤) النحل : ١٢٧.

(٥) الكهف : ٢٨.

(٦) القلم : ٤٨.

(٧) المزمل : ١٠.

معاجز النبي لم تنحصر في القرآن :

وبالمناسبة لابد أن نذكر أن المشركين ومن حـذى حـذوهم مـن الكفـار والمعارضين للرسالة الإسلامية كانوا يطالبون رسول اللّه صلّى اللّه عليـه وآله بمعاجز وآيات لا بدافع الرغبة في الايمان بدعوته بل بدافع اللا جاج والعناد، وإلا فان معاجز النبي لم تنحصر في الكتاب العزيـز، فقـد اتـى رسول اللّه بآيات ومعاجز كثيرة أُخرى غير القرآن، كان كل واحد منهـا يكفي للاقتناع برسالته، والايمان بصحة دعواه.

فالقرآن نفسه يشير الى أبرز هذه المعاجز وهي :

١ - شقّ القمر

فقط طلب المشركون من النبي صلّى اللّه عليه وآله ان يشق لهـم القمـر نصفين حتى يؤمنوا به، فلما فعل ذلك لهم باذن اللّه كفروا به وقـالوا انـه سحر !!

يقول اللّه تعالى :

(إقتربتِ الساعَةُ وانشق القمر. وإن يروا آية يعرضـوا ويقُولُـوا سِـحر مستمِر)(١).

٢ - المعراج

ان العروج برسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله والذي سـيأتي مفصـلاً هـو الآخر معجزة من معاجزه القوية، وقد نطق بها القرآن بقوله :

(سبحان الّذي أسرى بِعبدِهِ ليلاً مِن المسجِدِ الحرام إلى المسجِـد الأقصـى الّذي باركنا حولَه لِنُرِيَه مِن آياتِنا إنّه هو السمِيع البصير)(٢).

---

(١) القمر : ١ و٢.

(٢) الاسراء : ١.

٣- مباهلة أهل الباطل

ان تقدم رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله مع مَن خرج بهم إلـى المباهلـة، واحجام النصارى عن مباهلته، معجزة أُخرى من معاجزه صلّى اللّه عليه

وآله وقد تحدث القرآن الكريم عن هذه القضية اذ قال :

(فَمَن حاجك فِيهِ مِن بعدِ ما جاءكَ مِن العلم فقل تعالُوا ندع أبناءنا وأبناءكُم ونِساءنا ونِساءكُم وأنفُسَنا وأنفُسَكُم ثُم نبتهل فنجعل لعنَةَ اللّه على الكاذِبِينَ)(١).

وستأتي قصة المباهلة على نحو التفصيل في حوادث السنة العاشـرة مـن الهجرة.

٤ - الاخبار بالمغيبات

فقد كان رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله يخبر عن أُمور غائبة كما يقـول اللّه سبحانه حاكياً عنه :

(وأُنبئكُم بِما تأكلون وما تَدخِرون في بيوتكُم)(٢).

هذا وقد أخبرت الاخبار والاحاديث عن معاجز كثيرة لرسول اللّـه غيـر القرآن الكريم.

---

(١) آل عمران : ٦١.

(٢) آل عمران : ٤٩، وقد اشار القرآن الكريم إلى موارد أُخرى من هذه القبيل.

فقد اخبر عن غلبة الروم بعد سنين : قال تعالى :

(الم. غُلِبَتِ الرُّومُ. في أدنى الأرضِ وهُم مِن بعدِ غلَبِهم سيغلِبُون. في بِضعِ سِنين. للّه الأمرُ مِن قبلُ ومِن بعدُ ويومئذٍ يفرحُ المُؤمِنين)(الروم : ١ - ٤).

واخبر عن هلاك ابي لهب قال تعالى :

(تبَّت يدا أبي لهبٍ وتبّ..الخ).

وأخبر عن هزيمة المشركين في بدر قال سبحانه :

(سيهزم الجمع ويولون الدبر)(القمر : ٤٥).

ومن هذه المعاجز ما ذكره الامام امير المؤمنين علّي بن أبي طالب - كما في نهج البلاغة - حول سؤال المشركين من النبي صلّى اللّه عليه وآله قلع شجرة بعروقها وجذورها ولما فعل ذلك وقال يا أيتها الشجـرة ان كنـت تؤمنين باللّه واليوم الآخر، وتعلمين أني رسول اللّه فانقلعي بعروقك حتـى تقفي بين يدي باذن اللّه.

فانقلعت بعروقها ولها دوي عجيب ووقفت بين يدي رسول اللّه صلّى اللّـه عليه وآله ولكنهم كذّبوا وقالوا ساحر كذاب، علواً واستكباراً.

وقد صرح الامام في كلامه هذا أن النبي صلّى اللّه عليه وآله أخبرهم بانهم

لا يؤمنون وان ظهرت لهم المعجزة التي طلبوها، وان فيهم من يطرح في القليب (في معركة بدر) وان منهم من يحـزب الأحـزاب (لمعركـة الخندق)(١).

اصرار النبي على هداية قريش :

بل كان النبي صلّى اللّه عليه وآله يحـرص علـى هـدايتهم وارشـادهم وايقاظهم. فقد كان زعيم المسلمين وقائدهم يعلم جيداً بأن اعتقـاد أغلبيـة الناس بالأوثان ما هو الا أمر نابع من تقليد الآباء، والجدود، أو اتباع أسياد القبيلة وكبرائها، وهو بالتالي لا يستند إلى جذور في أعماق الناس وأُسـس في عقولهم ونفوسهم.

من هنا فان أي انقلاب يحصل ويحدث في اوساط السادة والكـبراء بـأن يؤمن أحدهم مثلاً كان كفيلاً بأن يحلّ الكثير من المشاكل.

من هنا كان ثمة إصرار كبير على جر «الوليد بن المغيرة» الذي أصـبح ابنه «خالد» في ما بعد من قادة الجيش الاسلامي والمشاركين في الفتـوح الاسلامية إلى صف المؤمنين بالرسالة المحمدية، لأنّه كان أسن مـن فـي قريش واكثرهم نفوذاً، وأعلاهم شخصية، وكان يدعى حكيم العرب، وكانت العرب تحترم رأيه إذا اختلفت في أمر.

---

(١) نهج البلاغة : قسم الخطب الرقم ١٩٢.

وقد كلّمه رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله ذات يوم في ذلك وقد طمع فـي اسلامه، فبينا هو في ذلك إذ مر به «ابن أُم مكتوم»، فكلم رسولُ اللّه صلّى اللّه عليه وآله وجعل يستقرئه القرآن فشق ذلك منه على رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله حتى أضجره، وذلك أنّه شغله عما كـان فيـه مـن أمـر «الوليد»، وما طمع فيه من إسلامه، فلما أكثر عليه انصرف عنه عابسـاً وتركه، فنزل قوله تعالى :

(عبس وتولّى. أن جاءه الأعمى. وما يدريك لعلّه يزكى. أو يذّكر فتنفعـه الذكرى. أما من استغنى. فأنت له تصدى. وما عليك ألا يزكّى. وأما مـن جاءك يسعى. وهو يخشى فأنت عنه تلهى. كلا إنّها تذكِرَة)(١) (٢).

وقد فنّد علماء الشيعة ومحقّقوهم هذه الرواية التاريخية، واستبعدوا صدور مثل هذا السلوك عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله الـذي امتدحَـه رب العالمين بالخلق العظيم، ووصفه بالرأفة بالمؤمنين، وقـالوا : ليـس فـي الآيات ما يدل على أن الذي عبس وتولّى هو رسول اللّه صلّى اللّه عليـه وآله وسلّم.

وقد روي عن الامام الصادق عليه السلام أن المراد رجل من بني أُميـة، فإنّه عبس وتولّى عند ما حضر «ابن ام مكتوم» الأعمى عند رسول اللّـه فنزلت هذه الآيات توبيخاً له(٣).

* * *

٣ - تحريم استماع القرآن

كانت البرامج الواسعة التي دبرها الوثنيون في «مكة» لمكافحة الاسـلام، والحيلولة دون انتشاره بين القبائل والجماعات، تُنفّذ الواحدة تلو الآخـرى، ولكن دون جدوى، ودون ان يكسب اصحابها من ورائها أي نجاح، وايـة نتائج على

---

(١) السيرة النبوية : ج ١ ص ٣٦٣ - ٣٦٤.

(٢) عبس : ١ - ١١.

(٣) مجمع البيان : ج ١٠ ص ٤٣٧، وقد شرح العلامة الطباطبائي في المجلد ٢٠ من تفسير الميزان عند تفسير سورة عبس شأن نزول هذه الآيات بصورة رائعة، وشكل بديع، واثبت بان فاعل عبس ليس رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله، ولا ينافي ذلك توجّه الخطاب في «وما يدريك» اليه صلّى اللّه عليه وآله.

المستوى المطلوب، فقد كانت تلك المؤامرات تفشل في كل مرة، ولا يجني المشركون منها سوى الخيبة والفشل، وسوى النتائج المعكوسة في أغلـب الأحايين.

فقد مارسوا الدعاية ضد رسول اللّه فترة من الزمن ولكن لم يحالفهـم التوفيقُ الكاملُ في ذلك، فقد وجدوا رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله اكثـر ثباتاً واستقامة في طريقه وأشد إصراراً على هدفه، وكانوا يرون بأم أعينهم بأن عقيدة التوحيد في انتشار مستمر ومتزايد، يوماً بعد يوم.

ولهذا قرر سادة قريش وزعماء «مكة» المشركون أن يمنعوا الناس عـن سماع القرآن.

ولكي تتحقق خطتهم هذه وتلبس ثوب الوجود بثّوا جواسيسهم في كل انحاء مكة ومداخلها ليمنعوا من يفد اليها للحج او التجارة من الاتصال بمحمـد، ومنعه بكل صورة ممكنة، عن الاستماع الى القرآن، وأعلن منـاديهم مـا ذكره القرآن عند قوله تعالى :

(وقالَ الّذين كفروا لا تسمعوا لِهذا القُرآن والغوا فِيه لعلّكُم تغلِبون)(١).

لقد كان القرآن اقوى أسلحة النبي صلّى اللّه عليه وآله، فقد القـى رعبـاً عجيباً في نفوس الاعداء واقض مضاجعهم.

وكان اشراف قريش وأسيادها يرون بأم أعينهم كيف أن اعدى أعداء النبي صلّى اللّه عليه وآله (وهو أبو جهل) عندما مشى إليه ليستهزئ به، ويسخر منه، ما ان اسمع آيات من القرآن، إلا وفقد السيطرة على نفسه، ولان قلبه، وأصبح من أصحابه ومؤيديه الأقوياء، ولهذا لم يكن أمام أُولئك الاسياد إلا أن يمنعوا من سماع القرآن منعاً باتا، ويحرموا التحدث الى النبي صـلّى

اللّه عليه وآله تحريماً قاطعاً(٢).

ولهذا كان الرجل منهم إذا أراد أن يسمع من رسول اللّه صلّى اللّه عليـه وآله بعض ما يتلوه من القرآن وهو يصلي استرق السمع دونهم فرقاً منهم، فان رأى أنهم قد عرفوا أنه يستمع منه ذهب خشية أذاهم فلم يستمع(٣).

---

(١) فصّلت : ٢٦.

(٢) و(٣) السيرة النبوية : ج ١ ص ٣١٣ و٣١٤.

واضعو القرار ينقضون قرارهم !!

ولكن من الطريق العجيب أن نفس الذين كانوا يمنعون الناس بشـدة عـن الاستماع إلى القرآن، وكانوا يعدون كل من يتجاهل قرار (تحريم الاستماع الى القرآن) مخالفاً يتعرض للملاحقة والعقاب، نقضوا بعد أيام من إصدار هذا القرار قرارهم وانضموا إلى صفوف المخالفين له في الخفاء.

فاذا بالذين يمنعون من سماع القرآن في العلن، يستمعون اليه في الخفاء ! واليك بعض ما جرى في هذا الصعيد :

خرج «أبو سفيان» و«أبو جهل» و«الاخنس» ليلة ليستمعوا من رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله وهو يصلي من الليل في بيته، فأخذ كـلُ رجـل منهم مجلساً يستمع فيه، وكل لا يعلم بمكان صاحبه، فباتوا يستمعون لـه، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا فجمعهم الطريـقُ فتلاومـوا، وقـال بعضهـم لبعض : لا تعودوا، فلو رآكم بعض سفهائكم لأوقعتم في نفسه شـيئاً ثـم انصرفوا، حتى اذا كانت الليلة الثانيةُ عاد كلُ رجل منهم الى مجلسه، فباتوا يستمعون له، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا، فجمعهم الطريق، فقال بعضهـم لبعض مثل ما قالوا أول مرة، ثم انصرفوا، حتى اذا كانت الليلة الثالثة اخذ كلُ رجل منهم مجلسه، فباتوا يستمعون له، حتى اذا طلع الفجـر تفرقـوا، فجمعهم الطريق، فقال بعضهم لبعض : لا نبرح حتى نتعاهـد ألا نعـود، فتعاهدوا على ذلك. ثم تفرقوا(١).

* * *

٤ - منع الاشخاص من الايمان برسول اللّه

بعد خطة (تحريم الاستماع الى القرآن) بدأوا بتنفيذ خطة أُخرى وهو منع كل قريب وبعيد ممن رغبوا في الإسلام وقدموا إلى مكة ليتعرفـوا علـى النبي، وعلى ما اتى به من كتاب ودين، من الاتصال بالنبي صلّى اللّه عليه وآله.

---

(١) السيرة النبوية : ج ١ ص ٣١٥.

فبثت قريش جواسيسها في الطرق المؤدية إلى مكة ليتصلوا بمن يلقونه من هؤلاء ويبادروا الى منعه من الاتصال برسول اللّه صلّى اللّه عليـه وآلـه وسلّم والايمان برسالته، بشتى الحيل والاساليب.

واليك نموذجين حيين من هذا الامر.

١ - «الاعشى» :

وكان من شعراء العهد الجاهلي البارزين، وكانت قصائده تتناقلها مجالـس السمر القرشية، وتتغنى بها محافل انسهم.

وقد بلغ «الاعشى» في كبره نبأ ما جاء به رسولُ اللّه صلّى اللّه عليه وآله من التوحيد ومن تعاليم الاسلام العظيمة، وكان يعيش في منطقة نائية عـن مكة، حيث لم تصل اليها أشعة الرسالة الاسلامية على وجه التفصيل بعد، ولكن ما قد سمع به من تعاليم الاسلام على نحو الاجمال قد اوجد في نفسه هياجاً خاصاً وحرك مشاعره فأنشأ قصيدة مطولة يمدح فيها رسـولُ اللّـه صلّى اللّه عليه وآله وسلّم ثم خرج الى مكة ليهديها اليه صلّى اللّـه عليـه وآله وهو في نفس الوقت يريد الاسلام.

ورغم ان تلكم القصيدة لا تتجاوز أبياتُها ٢٤ بيتاً، ولكنها تُعد من أفضـل وافصح ما قيل من الشعر في الاسلام، وفي رسول اللّه صلّى اللّـه عليـه وآله في العهد النبوي ويوجد نصها الكامل في ديوان «الأعشى» وقد قـال

فيها وهو يذكر بعض تعاليم الاسلام :

نبيّاً يرى ما لا يرون وذكرُه*أغار لعمري في البلاد وأنجدا**

فاياك والميتات لا تقربنّها*ولا تاخذن سهماً حديداً لتفصدا**

وذا النُصب المنصوب لا تُنسكُنّه*ولا تعبد الأوثان واللّه فاعبُدا**

ولا تقربنّ حُرّة كان سرُّها*عليك حراماً فانكحن او تأبّدا**

وذا الرحم القربى فلا تقطعنّه***لعاقبة، ولا الاسير المقيدا

وسبِّح على حين العشيات والضحى*ولا تحمد الشيطان واللّه فاحمدا**

فلما كان بمكة أو قريباً منها اعترضه جواسيس قريش ورجالها فسألوه عن أمره وقصده فأخبرهم بانه جاء يريد رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله ليسلم، وحيث أنهم كانوا يعرفون بأن «الاعشى» رجل يحب النساء والخمر حبـاً كبيراً لذلك عمدوا إلى الضرب على هذا الوتر لينفّروه من الاسلام، فقـالوا له: يا أبا بصير (وهي كنية الاعشى) إنه يحرم الزنا.

فقال الاعشى : واللّه ذلك لأمر مالي فيه من ارب.

فقالوا له : يا أبا بصير فانّه يحرم الخمر.

فقال الأعشى - وقد صدِم بهذا الخبر - أما هذه فوالله في النفـس منهـا لعلالات، ولكني منصرف فاتروى منها عامي هذا، ثـم آتيـه فأُسـلم !! فانصرف فمات في عامه ذلك، ولم يعد الى رسول الله صلّى الله عليه وآله (١).

٢ - الطُفيل بن عَمرو الدوسي :

وهو الشاعر العربي الحكيم العـذب اللسـان، صـاحب النفـوذ والكلمـة المسموعة في قبيلته.

يروى انه قدم «مكة» ورسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم بها، وكانـت قريش تخشى ان يتصل بالنبي صلّى الله عليه وآله فيسلم.

ومن البديهي أن اسلام رجل مثله كان مما يشق على قريش جـداً ولهـذا مشى إليه رجال منهم وقالوا له - محذرين اياه من رسول الله صلّى اللّـه عليه وآله - :

يا طُفيل، إنك قدمت بلادنا، وهذا الرجلُ الذي بين أظهرنا قد اعضل بنـا، وقد فرق جماعتنا، وشتّت أمرنا، وإنما قوله كالسحر يفرق بين الرجل وبين ابيه، وبين الرجل وبين اخيه، وبين الرجل وبين زوجته، وإنا نخشى عليك وعلى قومك ما قد دخل علينا فلا تكلمنّه، ولا تسمعن منه شيئاً.

ففعلت تحذيراتُ قريش فعلتها في نفس الطفيل وهم يكررونها عليه بقوة

---

(١) السيرة النبوية : ج ١ ص ٣٨٦ - ٣٨٨.

وإصرار، حتى انه قرر ان لا يسمع من النبي صلّى اللّه عليه وآله شيئاً، ولا يكلّمه، وحشّى أُذنه - حين غدى الى المسجد للطواف - قطناً، خوفاً من أن يبلغه شيء من قول رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله وهو لا يريد ان يسمعه !!!

يقول الطفيل : فغدوت الى المسجد فاذا رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله قائم يصلي عند الكعبة، فقمتُ منه قريباً فسمعتُ كلاماً حسناً من غير اختيار مني فقلت في نفسي : واثكل أُمي، واللّه اني لرجل لبيب شاعر ما يخفى علي الحسَن من القبيح، فما يمنعني أن اسمع من هذا الرجل ما يقول، فان كان الذي يأتي به حسناً قبلتُه، وان كان قبيحاً تركتُه ؟

فمكثتُ حتى انصرف رسولُ اللّه صلّى اللّه عليه وآله إلى بيته فاتّبعته حتى إذا دخل بيته دخلت عليه فقلت : يا محمد إن قومك قد قالوا لي كذا وكذا للذي قالوا، فواللّه ما برحوا يخوفونني أمرك حتى سردت أُذني بكرسف لئلا اسمع قولك ثم أبى اللّه إلا أن يسمعني قولك فسمعته قولاً حسناً،

فاعرض علي أمرك، فعرض علي رسول اللّه صلّى اللّه عليـه وآلـه الاسلام، وتلا علي القرآن، فلا واللّه ما سمعت قولاً قط أحسن منـه، ولا أمراً أعدل منه، فأسلمتُ وشهدتُ شهادة الحق.

ثم قلت : يا نبي اللّه إني امرؤ مطاع في قومي وأنا راجع إليهم، وداعيهـم إلى الاسلام.

ثم يكتب ابن هشام قائلاً : إن الطفيل لم يزل بارض «دوس» يدعوهم الـى الاسلام حتى هاجر رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله إلى المدينـة ومضـى «بدر» و«أُحد» و«الخندق» فقدم على رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله بمن أسلم معه من قومه وهم سبعون او ثمانون بيتاً ورسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله بخيبر فلحقوا جميعاً برسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله بخيبر، وبقي مع النبي حتى قُبِض صلّى اللّه عليه وآله ثم سار مع المسلمين - فـي زمـن الخلفاء إلى «اليمامة» وشارك في معركتها وقُتِل فيها(١).

---

(١) السيرة النبوية : ج ١ ص ٣٨٢ - ٣٨٥.

١٩ ـ اسطورة الغرانيق

قد يكون بين القراء من يود التعرف على اسطورة «الغرانيق» التي رواها بعض مؤرخي السنّة ومعرفة جذورها كما يود التعرف على الأيادي الخفية التي كانت وراء اختـلاق هـذه الاسـطورة، وأمثالهـا مـن الأكاذيـب، والمفتريات.

كان اليهود وبخاصة أحبارهم ولا يزالون العدو رقم واحد للإسلام.

وقد عمد فريق منهم - مثل «كعب الاحبار» وغـيره - ممـن تـ ظاهروا باعتناق الاسلام إلى تحريف الحقائق باختلاق الأكاذيب وجعـل الأخبـار المفتراة على لسان الانبياء(١).

ولقد أدرج بعض المؤلفين المسلمين بعض هذه المفتريات فـي مؤلفاتهـم وجعلوها في عداد الحديث والتاريخ الصحيح من دون تمحيصها والتحقيق فيها، ثقة بكل من أظهر الاسلام، وتظاهر بالإيمان، وانضم إلى صـفوف المسلمين !!

ولكن اليوم حيث يجد العلماء فرصة اكبر للتحقيق في هـذا النـوع مـن الأحاديث والاخبار، والمنقولات والنصوص وبخاصة بعد أن توفّرت لديهم - بفضل جهود طائفة من المحققين المسلمين القواعد والضـوابط الكفيلـة

بتمييز

---

(١) وهي التي يُطلَق عليها الاسرائيليات وقد أُلّفَت في هذا المجال بعض الكتب.

الحسن عن القبيح، والصحيح عن السقيم، وفرز الحقائق التاريخيـة عـن القصص الخيالية، والروايات الاسطورية.

من هنا لا ينبغي لكاتب مسلم ملتزم أن يعتبر كل ما يـراه فـي مصنّـف تاريخي أو غير تاريخي متقدم أمراً صحيحاً مقطوعاً بسلامته، ويرويه في كتابه من دون دراسة وتحقيق، وتمحيص وتقييم.

ما هي أسطورة الغرانيق ؟!

يقولون : إن «الأسود بن المطلب» و«الوليد بن المغيرة» و«أُمية بن خلف» و«العاص بن وائل» وهم من زعماء قريش واسيادها قالوا لرسـول اللّـه صلّى اللّه عليه وآله :

يا محمد هلم فلنعبد ما تعبد، وتعبد ما نعبد فنشترك نحن وانت في الأمر !!

وقالوا ذلك رفعاً للاختلاف، وتضييقاً لشقّة الخلاف فأنزل اللّه سبحانه سورة الكافرين التي امر فيها نبيه أن يقول في جوابهم :

(لا أعبد ما تعبدون. ولا أنتُم عابِدون ما أعبد).

ومع ذلك كان رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله يرغب في أن يساوم قريشاً ويجاريهم وكان يقول في نفسه : ليت نزل في ذلك أمر يقربنا من قريش.

وذات يوم وبينما كان صلّى اللّه عليه وآله يتلو القرآن عند الكعبة ويقـرأ سورة «النجم» فلما بلغ قوله تعالى :

(أفرأيتُم اللات والعزى. ومناة الثّالِثَة الأُخرى).

أجرى الشيطان على لسانِه الجملتين التاليتين :

(تِلك الغرانِيقُ العلى مِنها الشفاعةُ تُرتَجى)(١).

فقرأهما من دون إختيار، وقرأ ما بعدها من الآيات، ولما بلغ آية السجـدة سجد هو ومن حضر في المسجد من المسلمين والمشركين أمام الاصـنام، إلا

(١) النجم : ١٩ و٢٠.

«الوليد» الذي عاقه كبر سنه عن السجود !!

وفرح المشركون، وارتفعت نداءاتهم يقولون : لقد ذكر «محمـد» آلهتنـا بخير.

وانتشر نبأ هذه المصالحة والتقارب بين رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآلـه والمشركين، المهاجرين الى الحبشة، فعاد على أثرها جماعة منهـم إلـى مكة، ولكنّهم ما أن كانوا على مشارف «مكة» إلا وعرفوا بأن الأمر تغير ثانية، وأن ملك الوحي نزل على النبي وأمره مرة أُخرى بمخالفة الاصنام ومجاهدة الكفار والمشركين، وأخبره بأن الشيطان هو الّذي أجـرى تينـك الجملتين على لسانه، وانه لم يقله وأنه ليس من «الوحي» في شيء أبداً.

وعندئذ نزلت الآيات (٥٢ - ٥٤) من سورة «الحج» التي يقول اللّه تعالى فيها :

(وما أرسلنا مِن قبلِك مِن رسول ولا نبِي إلا إذا تمنّى ألقى الشيطـان فـي أُمنِيتِهِ فينسخُ اللّه ما يلقي الشيطان ثم يحكِم اللّه آياتِهِ واللّه عِلِيم حكيم.

ليجعل ما يلقي الشيطان فِتنةً لِلّذين في قُلُوبهم مرض والقاسيةِ قُلُوبهم، وإن الظّالِمين لَفِي شِقاق بعيد ولِيعلم الّذين أُوتُوا العلم أنّه الحقّ مِن ربك فيؤمنُوا به فتُخبتُ له قلُوبهم وإن اللّه لهادِ الّذين آمنُوا إلى صِراط مستقيم).

هذه هي خلاصة أسطورة «الغرانيق» التي أوردها «الطبري» في تاريخه(١) ويذكرها ويرددها المستشرقون المغرضون بشيء كبير مـن التطويـل والتفصيل !!

محاسبة بسيطة لهذه الاسطورة

لنفترض أن «محمداً» لم يكن نبياً مرسلاً ولكن هل يمكن لأحـد أن ينكـر ذكاءه وحنكته، وفطنته وعقله.

فهل لعاقل فَطِن، محنّك لبيب مثله أن يفعل مثل هذا ؟

ان الذكي اللبيب الذي يجد انصاره يتكاثرون ويتزايدون يوماً بعد يوم

---

(١) تاريخ الطبري : ج ٢ ص ٨٥ و٧٦.

وتقوى صفوفهم اكثر فاكثر بينما تتفرقُ صفوفُ أعدائه ومناوئيه ويتناقص معارضوه وخصومه، هل يقدم في مثل هذه الحالة على عمـل يوجـب ان يسيء الجميع ظنهم به، ويشك الصديق والعدو في أمره ؟!

هل تصدق أنت أيها القارئ الكريم أن رجلاً ترك جميع الأموال والمناصب التي عرضتها قريش عليه، في سبيل دينه الحنيف، وعقيدتـه التوحيـد أن يصبح مرة أُخرى من دعاة الشرك، ومروجي الوثنية ؟؟!

إننا لن نصدق بمثل هذا الاحتمال في حق مصلح أو سياسي عـادي مـن الساسة والمصلحين فكيف برسول اللّه ونبيه العظيم.

رأي العقل في هذه القصة :

١ - إن العقل يحكم بان المرشدين الذين يبعثهم اللّه تعالى الـى البشريـة لهدايتها وارشادها، وتزكيتها وتعليمها مصونون عن أي خطأ وزلل بقـوة (العصمة) التي أُوتوها، اذ لو تعرض مثل هؤلاء الى الخطأ والزلـل فـي أُمور الدين لزالت ثقة الناس بهم وبكلامهم.

يجب علينا ان نقارن بين أمثال هذه القصص، وبين هذا الأصل العقائـدي المنطقي ونعالج بواسطة معتقداتنا القوية المبرهنـة متشابهـات التاريـخ ومعضلاته.

إن من المسلّم أن عصمة رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآلـه كانـت تمنعـه وتحفظه من أي نوع من هذه الحوادث في تبليغ رسالته السماوية.

٢ - إن هذه الاسطورة تقوم أساساً على أن النبي قد تعب من أداء مهمتـه التي ألقاها اللّه سبحانه عليه، وقد شقّ عليه ابتعاد الوثنيين عنه، فكان يبحث عن مخلص من هذا الوضع المتعِب، يكون طريقاً - حسب تصوره - إلى إصلاح وضعهم !!

ولكن العقل يقضي بأن على الانبياء أن يكون صابرين حلماء أكـثر ممـا يتصور، وأن يكونوا مضرب المثل عند الجميع في ذلك، فلا يحدثوا أنفسهم بالتهرب من المسؤولية وترك الساحة مطلقاً، مهمـا اشـتدت الظـروف، وتأزمت

الأحوال.

بينما لو صحت هذه الرواية - الاسطورة لكانت دليلاً على أن بطلَ حديثنا قد فقد عنان الصبر وأفلت منه زمام الثبات والاستقامة وانه بالتالي تعـب وملّ، وضني وكلّ، وهو أمر لا ينسجم مع ما يحكم به العقل السليم في حق الأنبياء، كما لا يتفق كذلك مع ما عهدناه من سوابق رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله ومن مستقبله أبداً.

إن مختلق هذه الاسطورة لم يمر بخاطره وباله أن القـرآن الكـريم شـهد ببطلان هذه القصة، اذ يعد الله تعالى نبيه الكريم، بـأن لا يتسـرب الـى القرآن أي شيء من الباطل إذ قال :

(لا يأتيه الباطِلُ مِن بين يديه ولا مِن خلفِه)(١).

كما وعده أيضاً بأن يصونه عبر جميع أدوار البشرية من أي حادث سـيئ اذ قال سبحانه :

(إنّا نحن نزلنا الذِكر وإنّا له لحافِظُون)(٢).

ومع ذلك كيف يستطيع الشيطان الرجيم عدو الله أن ينتصر على رسـول الله صلّى الله عليه وآله ويسرب الى القرآن شيئاً باطلاً، ويصبح القـرآن الذي تقوم معارفه وتعاليمه على أساس معاداة الوثنية ومحاربتها داعياً الى الوثنية ؟؟!!

إنه لأمر عجيب جداً أن يفتري مختلِقُ هذه الاسطورة أمراً ضد التوحيد في موضع قد كذّبه القرآن قبل هذا المكان بقليل إذ قال الله تعالى :

(وما ينطِقُ عن الهوى. إن هو إلا وحي يوحى)(٣).

فكيف يترك اللّه نبيه - وقد وعده بهذا الوعد - من دون حفيظ، ويسمـح للشيطان بأن يتصرف في قلبه وعقله ولسانه ؟؟

إن هذه الأدلة العقلية إنما تفيد من يكون مؤمناً بنبوة محمد صلّى اللّه عليـه وآله ورسالته.

---

(١) فصّلت : ٤٢.

(٢) الحجر : ٩.

(٣) النجم : ٣ و٤.

واما المستشرقون الذين لا يعتقدون بنبوته، ويعمدون الـى شـرح ونقـل وترديد أمثال هذه الأساطير للحط من شأن دينه ورسالته فلا تكفيهـم هـذه الدلائل، فلا بد أن ندخل معهم في البحث من باب آخر.

تكذيب القصة من طريق آخر

إن النص التاريخي يقول : إن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله قـرأ هـذه

السورة، وكبار قريش واكثرهم من عمالقة الكلام، وأبطـال الفصاحـة والبلاغة العربية حضور في المسجد ومنهم «الوليد بن المغـيرة»، متكلـم العرب ومنطيقها المفوه المعروف بينهم بالذكاء وحصافة العقل والنباهـة، وقد سمعوا جميعاً هذه السورة إلى ختامها حيث سجد الجميع بسجدتها.

فكيف اكتفى هذا الجمع المؤسس للفصاحة والبلاغة الذين كانوا ينقدون كل ما يعرض عليهم نقداً دقيقاً ؟

كيف اكتفوا بتينك الجملتين اللتين امتدحتا آلهتهم، وقـد تضمنـت الآيـات السابقة عليهما، واللاحقة لهما على شتم آلهتهم وتفنيـدها، والازدراء بهـا بصورة صارخة وصريحة ؟!

كيف تصور مختلق هذه الاكذوبة الفاضحة، تلك الجماعة أصـحاب اللغـة العربية وآباءها ونقّاد الكلام المعدودين عند العـرب كلّهـا مـن عمالقـة الفصاحة والبلاغة بلا منازع، والذين كانوا أعرف من غـيرهم باشـارات تلك اللغة، وكناياتها (فضلاً عن تصريحاتها).

كيف اكتفى هؤلاء بتينك العبارتين في امتداح آلهتهم، وغفلوا عما سـبقها ولحقها من الذم لها والطعن الصارخ فيها ؟

إنه لا يمكن قط أن نخدع العاديين من الناس بهاتين الجملتين المحفوفتيـن بكلام مطول يذم عقائدهم وسلوكهم فكيف بمن عرف باللب، والحصافـة، والحكمة والذكاء ؟

وها نحن ندرج هنا الآيات المتعلّقة بالمقام ونترك أصفاراً (وفراغـاً) فـي مكان

الجملتين اللتين أُدعي اضافتهما، ثم نترك للقارئ نفسه أن يقيم بنفسه هـل لتينَك الجملتين مكان بين هذه الآيات (التي وردت في ذم الاصنام والقـدح فيها) : وإليك هذه الآيات :

(أفرأيتُم اللاتَ والعزى. ومناةَ الثالِثةَ الأُخرى...(١) ألكُم الذكر وله الأُنثى. تِلك إذاً قِسمةً ضِيزى. إن هِي إلا أسماء سميتُموها أنتُم وآباؤُكم ما أنـزل اللّه بِها مِن سلطان)(٢).

ثم هل يسمح إنسان عادي لنفسه أن يكفّ عن معاداة نبي هاجم عقائده طيلة عشرة اعوام، وهدر إستقلاله وكيانه، وجر عليه الشقاء بتسفيـه أحلامـه، وشتم آلهته، لعبارات متناقضة وكلام خليط من الذّم الكبير والمدح العابر.

دليل لغَوي على تفنيد هذه الاسطورة

يقول العلامةُ الجليلُ الشيخ محمد عبده : لم يستعمل لفظ الغرانيق في الآلهة أبداً لا في اللغة ولا في الشعر العربي(٣).

و«غرنوق» و«غرنيق» اللذان جاءا في اللغة استعملا في نـوع مـن طيور الماء أو الشاب الجميل، ولا ينطبق أي واحد من هذه المعاني علـى الآلهة.

وقد اعتبر احد المستشرقين يدعى «السير وليم موير» قصة «الغرانيـق» هذه من مسلمات التاريخ واستدل لها بقوله : لم يكن يمضي علـى هجـرة المهاجرين الاول إلى الحبشة اكثر من ثلاثة أشهر يوم صالح محمد قريشاً فعادوا إلى مكة.

إن المسلمين الذين هاجروا إلى تلك الأرض وكانوا يعيشـون فـي أمـن وطمأنينة في جوار النجاشي إذا لم يكونوا يبلغهم نبأ مصالحة النبي لقريش لما عادوا إلى مكة للقاء بذويهم.

فاذن لا بد أن «محمداً» قد تذرع بشيء لمصالحة قريش، والتقرب اليها،

---

(١) مكان الجملتين المزعومتين : تلك الغرانيق.. الى آخرها.

(٢) النجم ١٩ - ٢٣.

(٣) نقله عنه القاسمي في تفسيره : ج ١٢ ص ٥٥ - ٥٦.

وهذا الشيء هو قصة الغرانيق» !!(١).

ولكن يجب أن نسأل هذا المستشرق المحترم :

أولاً : لماذا يجب أن تكون عودة المهاجرين ناشئة عن نبأ صحيح حتماً.

إن النفعيين وذوي الأهواء والأغراض يسعون دائماً إلى بثّ عشرات بـل مئات الأخبار الكاذبة بين جماعتهم لتحقيق مآرب خاصة لهم، فمـا الـذي يمنع من أن نحتمل أن هناك من افتعل خبر مصالحة النبي لقريش بهـدف إرجاع المهاجرين من الحبشة الى «مكة». وقـد صـدق بعـض أولئـك المهاجرين هذا الخبر الكاذب فعادوا إلى أرض الوطن، بينما لـم ينخـذع الآخرون بها وبقوا في الحبشة ولم يعودوا الى مكة ؟؟

ثانياً : لنفترض أن النبي اللّه صلّى اللّه عليه وآله كان يريـد أن يصالـح قريشاً، فهل يكون الطريق إلى السلام والمصالحة منحصراً فـي افتعـال هاتين الجملتين.

ألم يكن إعطاء مجرد وعد مناسب أو مجرد السكوت عن عقائـدهم كافيـاً لتهدئة خواطرهم، واجتذاب قلوبهم نحوه ؟

وعلى كلّ حال فان عودة المهاجرين لا يكون دليـلاً علـى صـحة هـذه

الأُسطورة، كما أن المصالحة، والتقارب غير متوقفين علـى النطـق بهاتين الجملتين.

والأعجب من هذا أن البعض تصور أن الآيات (٥٢ - ٥٤ مـن سـورة الحج) قد نزلت في قصة الغرانيق.

وحيث أن هذه الآيات قد وقعت ذريعة بأيدي المستشرقين ومرتكبي جريمة التحريف في التاريخ، فاننا نعمد هنا إلى توضيح مفاد هذه الآيات، ونبيـن للقارئ بأنها تنظر إلى امر آخر، ولا ترتبط بهذه القصة بتاتاً.

وها هو نص الآيات المشار إليها :

(وما أرسلنا مِن قبلِك مِن رسول ولا نبي إلا إذا تمنّى ألقى الشيطـان فـي أُمنِيتِه فينسخُ اللّه ما يلقي الشيطان ثم يحكِم اللّه آياتِه، واللّه عليم حكيم

---

(١) راجع حياة محمّد : ص ١٦٥ و١٦٦.

ليجعلَ ما يلقِي الشّيطان فِتنَةً لِلذين في قُلُوبِهم مرض والقاسِية قُلُـوبهم وإن الظالِمين لَفِي شِقاقٍ بعيدٍ ولِيعلم الّذين أُوتُوا العِلم أنّه الحق مِن ربك فيؤمنُوا

بهِ فتُخبت له قُلوبهم وأن اللّه لهاد الّذين آمنوا إلى صِراط مستقيمٍ).

والآن يجب أن نبين مفاد الآيات ولنبدأ بالآية الأُولى :

ان الآية الأُولى تذكر بثلاثة أُمور هي :

١ - ان الأنبياء والرسل يتمنون.

٢ - ان الشيطان يتدخّل في تمنياتهم.

٣ - ان اللّه يمحي آثار ذلك التدخّل.

وبتوضيح هذه النقاط الثلاث يتضح مفاد الآية والمراد منها.

واليك توضيح تلكم النقاط الثلاث :

١ - ما هو المقصود من تمني الانبياء والرسل

لقد كان الأنبياء والرسل يحبون هداية أُممهم، ونشر دينهم وتعاليمهم فيهـا، وكانوا يدبرون أُموراً ويخطّطون خططاً لتحقيق أهدافهم هذه، كمـا كـانوا

يتحملون في هذا السبيل كل المتاعب والمصاعب، ويثبتون في جميـع المشكلات والمحن.

ولم يكن رسول الاسلام صلّى اللّه عليه وآله مستثنى عن هذه القاعدة، فقد كان صلّى اللّه عليه وآله يخطط لتحقيق أهدافه كثيراً، ويهيئ مقدمات ويبين القرآن هذه الحقيقة بقوله :

(وما أرسلنا مِن رسول ولا نبي إلا إذا تمنّى).

فاتّضح إلى هنا المراد من لفظ تمنّى ولنشرح الآن النقطة الثانية.

٢ - ما هو المقصود من تدخّل الشيطان ؟

إن تدخل الشيطان يمكن أن يتم على نحوين :

١ - أن يوجد الشك والترديد في عزم الانبياء، ويوحي إليهم بأن هناك

عوائق كثيرة تحول بينهم وبين أهدافهم، ولذلك لن يحـرزوا نجاحـاً فـي تحقيق تلك الأهداف.

٢ - بأن الأنبياء كلما مهدوا لأمر وهياوا له مقدماته، وظهرت منهـم أمارات تدل على أنهم مقِدمون على تنفيذه فعلاً أقام الشيطان ومن تبعه من شياطين الانس العراقيل والموانع في طريقهم، ليمنعوهم من الوصول إلـى غاياتهم.

أما الاحتمالُ الأول فلا ينسجم لا مع الآيات القرآنية الأُخرى ولا مع الآيـة اللاحقة.

أما مِن جهة الآيات الأُخرى فلأن القرآن ينفي بصراحة لا صراحة فوقهـا أنه لا سلطان للشياطين على أولياء اللّه وعبـاده الصـالحين (ولـو بـأن يصوروا لهم بأنهم لن يقدروا على تحقيق آمالهم، وأهدافهم) إذ يقول :

(إن عِبادي ليس لك عليهم سلطان)(١). ويقول أيضاً :

(إنّه ليس له سلطان على الّذين امنُوا وعلى ربهم يتوكّلُون)(٢).

إن هذه الآيات، والآيات الأُخرى التي تنفي سلطان الشيطان على أولياء اللّه وعباده الصالحين، وتأثيره في قلوبهم ونفوسهم لخير شاهد وأفضل دليـلٍ على أن المقصود من تدخّل الشيطان في تمنيات الأنبيـاء ليـس بمعنـى إضعاف عزيمتهم، وإرادتهم وتكبير الموانع والعراقيل في نظرهم.

أما من جِهة الآيات المبحوثة فان الآية الثانية والثالثة تفسر وتشـرح علّـة

التدخّل على النحو الآتي :

إننا نختبر بهذا العمل فريقين من الناس : الفريق الأول : الّذين في قلوبهـم مرض، والفريق الثاني : الذين يؤمنون باللّه واليوم الآخر.

يعني أن تدخل الشيطان في أعمال الأنبياء عن طريق تحريك الناس ضِدهم وضد أهدافهم يوجب مخالفة الفريق الأول ومعارضتهم للانبياء في حيـن يكون الأمر على العكس من ذلك في الفريق الثاني فانه يزيد مـن ثباتهـم وصمودهم.

---

(١) الحجر : ٤٢، الاسراء : ٦٥.

(٢) النحل : ٩٩.

وان بيان أن لتدخل الشيطان في تمنيات الانبيـاء، مثـل هـذين الاثريـن المختلفين (أي يحمل فريقاً على المخالفة وفريقاً آخر على الثبات والصمود) يفيد أن المراد بالتدخل هنا هو المعنى الثاني، يعني ان التدخل يحصل عن طريق تحريك الناس ضدهم، وإلقاء الوساوس في قلوب أعـدائهم، وخلـق الموانع والعراقيل في طريقهم لا أنهم يتصرفون في نفوس الأنبياء وقلوبهم ويضعفون ارادتهم وعزمهم.

إلى هنا اتضح معنى تدخّل الشيطان في تمنيات الانبياء والرسل.

والآن حان الحين لتوضيح المطلب الآخر يعني محو آثار هذا التدخل.

٣ - ما هو المقصود من محو آثار التدخل ؟

اذا كان معنى تدخّل الشيطان هو تحريك الناس وتـأليبهم ضـد الانبيـاء ليمنعوا الأنبياء والرسل من التقدم في أهدافهم، فان محـو آثـار التدخّـل الشيطاني من قبل اللّه - حينئذٍ - يكون بمعنى ان اللّه يدفع عـن أنبيائـه ورسله كيد الشيطان ليتضح الحق للمؤمنين، ويكـون إختبـاراً لمرضـى القلوب كما يقول تعالى في آية أُخرى :

(إنّا لنَنصر رسلَنا والّذين آمنُوا في الحياة الدنيا)(١).

وخلاصة القول : أن القرآن يخبر - في هذه الآيات - عن سنة للّه قديمـة في مجال الأنبياء وهي :

إن تمنّي التقدم في الأهداف وتمنّي التوفيق في هداية الناس هو فعل الانبياء دائماً.

ثم يأتي الدور لتدخّل الشيطان وأتباعه من شياطين الإنس والجن، وذلك بايجاد الموانع والعقبات في طريق الأنبياء والرسل.

ثم يأتي من بعد ذلك حلول المدد الإلهي الغيبي بمحو وفسخ كـلّ التدابيـر الشيطانية المضادة لأهداف الانبياء المعرقلة لتحقيق أمانيهم.

وهذه هي إحدى السنن الالهية الثابتة التي جرت في جميع الأمم السالفة.

---

(١) غافر : ٥١.

إن تاريخ الأنبياء والرسل وقصصهم من نوح وإبراهيم وأنبياء بني إسرائيل وبخاصة موسى وعيسى عليهما السلام، وتاريخ حياة الرسول الاكرم صلّى اللّه عليه وآله خير شاهد على هذا المطلب.

وينبغي إستكمالاً لهذا البحث أن نقول : ولأجل ما ورد على هـذه القصـة الأسطورية من مؤاخذات رفضها وفنّدها بعض المحققين من أهل السنة اذ قال بعد ذكرها على النحو الذي ادرجها الطبري في تاريخه وأرسله ارسال المسلّمات :

(وأهل الأُصول يدفعون هذا الحديث بالحجة).

ومن صححه قال فيه أقوالاً :

منها : ان الشيطان قال ذلك وأذاعه والرسول عليه الصلاة والسـلام لـم ينطق به.

(وذكر وجوهاً أُخرى ثم قال :) والحديث على ما خيلـ ت غـير مقطـوع بصحته(١).

---

(١) راجع هوامش السيرة النبويّة : ج ١ ص ٣٦٤.

٢٠ ـ الحصار الاقتصادي والاجتماعي

إن أبسط وسيلة وأسهلها لضرب الأقليات في أي مجتمع، والقضاء عليهـا هو ما يسمى بالمكافحة السلبية التي تقوم أساساً على اتحاد الأكثرية واتفاقها على مقاطعة الأقلية المتمردة.

إن عكس هذا يحتاج إلى أدوات متعددة مختلفة، لأنه يتطلب مثلاً ان يحمل جماعة من المقاتلين السلاح، وتتوجه نحو الاهداف المطلوبة عبر التضحية بقدر كبير من الأنفس والأموال، وازالة العشرات من الموانع والسواتـر، وهو أمر لا يقدم عليه القادة المحنّكون إلا بعـد توفّـر كـل مستلزمـات المواجهة واتخاذ جميع التدابير اللازمة، والاستعداد الكامـل، وبالتـالي لا يقدمون على هذه الخطوة ما لم تدع الضرورة اليها، وتنحصر الحيلة فـي القتال.

ولكن المكافحة السلبية لا تتوقف على مثل هذه الأُمور، بل تحتاج الى أمر واحد وهو اتفاق الأكثرية.

يعني أن يتفق من يعنيهم الأمر ولهم عقيدة واحدة ويتحالفوا في مـا بينهـم بصدق على أن يقطعوا كل صلاتهم وعلاقاتهم بالأقلية المعارضة، فيحرموا التعامل التجاري معهم ويوقفوا الاتصال العائلي بهم، ولا يشركـوهم فـي اعمالهم الاجتماعية ولا يتعاونوا معهم في أُمورهم الشخصية أيضاً.

في مثل هذه الحالة تضيق الأرض على الأقلية بما رحبت وتغدو الدنيا لهم على سعتها كسجن ضيق وصغير، ويصيرون عرضة للانهيار والسقـوط بأقلّ قدر ممكن من الضغط عليها.

إن الاقلية المخالفة المتمردة ربما تستسلم - في هذه الحالة - وتؤوب مـن منتصف الطريق، وتطيع إرادة الأكثرية.

ولكن أقلية كهذه لا بد أن تكون ممن لا تعود مخالفتها للأكثرية إلـى أمـر عقائدي ولا يكون لانفصالها عن الاكثرية طابع أُصولي مبدأي، كما لو كان خلافها مع الاكثرية مثلاً على تحصيل ثروة أو منصب مهم أو ما شـاكل ذلك.

فان مثل هذا الاقلية اذا أحست بخطر جدي، أو واجهت العـذاب والسجـن والحصار ستتراجع عن مخالفتها وتعود إلى طاعة الاكثرية مؤثـرة اللّـذة العابرة المؤقّتة على اللذة الإحتمالية، لأنها لم تنطلق مـن دوافـع ايمانيـة اصيلة، ولم يكن المحرك لها محركاً روحياً معنوياً.

ولكن الجماعة التي يقوم خلافُها للاكثرية على أساس الإيمان بهدف مقدس، لن تنصاع أبداً لمثل هذه الضغوط، ولن تنثني أمام هذه الرياح والعواصف، ولا يزيدها ضغطُ الحصار الا صلابة وقوة، وإصراراً وعناداً، وترد جميع ضربات العدو بالصبر والإستقامة.

إن صفحات التاريخ البشري تشهد بأن أقوى العوامل لثبات كل أقليـة وصمودها في وجه الأكثرية هو : قوةُ الايمان، وعاملُ الإعتقاد، الذي ربما يؤدي رسالة الثبات والمقاومة ببذل آخر قطرة دم في ساحة المواجهة.

ولنا على هذا عشرات بل ومئات الأمثلة من التاريخ الغابر والحاضر.

قريش تحاصر النبي والمسلمين اقتصادياً واجتماعياً

لقد شقّ على قريش انتشار الإسلام المتزايد وأزعجها نفوذه العجيـب فـي القبائل العربية في مدة غير طويلة بالنسبة إلى عمر الدعوة ولهـذا كانـت تفكر باستمرار في حلّ لهذه المشكلة.

فان اسلام شخصيات ذات أهمية ومكانة كبرى مثل حمزة، وكذا رغبة فتية قريش المتفتحين في الاسلام، وحرية العمـل والتحـرك الـتي اكتسبهـا المسلمون على اثر الهجرة إلى أرض الحبشة، كل ذلـك زاد مـن حـيرة واضطراب الزعامة الجاهلية في مكة، التي زادها حيرة، وانزعاجاً، فشـل جميع مخططاتها الاجهاضية ضد الإسلام والمسلمين، وعدم حصولها على أية نتائج تذكر !!

من هنا فكرت في خطة جديدة، وهي ان تفرض حصاراً اقتصاديـاً قويـاً على النبي والمسلمين تقطع به كل الشرايين الحيوية للمسلمين، وبذلك تحد

من سرعة انتشار الإسلام وتقف دون نفوذه، وبالتالي تخنق بين كماشة هذا الحصار مؤسس هذه العقيدة التوحيدية، وأنصاره.

ولهذا اجتمع زعماء قريش في «دار الندوة» ووقّعوا ميثاقاً كتبه «منصـور بن عكرمة» وعلّقوه في جوف الكعبة، وتحالفوا بان تلتزم قـريش ببنـوده حتى الموت.

ونص هذا العقد على الأُمور التالية :

١ - أن لا يبتاعوا من أنصار النبي صلّى اللّه عليه وآله ولا يبيعوهم شيئاً.

٢ - ان لا ينكحوا اليهم ولا ينكحوهم.

٣ - أن لا يؤاكلوهم ولا يكلّموهم.

٤ - ان يكونوا يداً واحدة على «محمد» وانصاره.

وقد وقّعت على هذه الصحيفة الظالمة القاطعة كل الشخصيات البارزة فـي قريش إلا «مطعم بن عدي» وأعلنت عن سريان مفعوله بكل قوة وإصرار.

فلما علم حامي النبي الاكبر أبو طالب عليه السلام بذلك جمع بني هاشـم

وبني المطلب وحملهم مسؤولية الدفاع عن رسول اللّه صلّى اللّه عليـه وآله والحفاظ على حياته وسلامته، وأمرهم بالخروج من مكـة وبـدخول شعب كائن بين جبال مكة يعرف بشعب أبي طالب فيـه بعـض البيـوت العادية، والسقائف البسيطة جداً، والسكنى في ذلـك الشعـب بعيـداً عـن المجتمع المكّي المشرك.

وعمد الى بث رجال منهم في نقاط مرتفعة للمراقبة والحراسة تحسباً لأي

هجوم مباغت تقوم به قريش(١).

وقد استمر هذا الحصار ثلاثة أعوام كاملة، وبلغ الجهد بالمحاصرين فـي الشعب بحيث ارتفع صراخ الأطفال من الجوع والضـرر، وبلغـت هـذه الصرخات مسامع قساة مكة الا انها لم تؤثر فيهم قط.

كان الشباب والرجال منهم يعيشون على تمرة واحدة طوال اليوم، وربمـا تناصف اثنان تمرة واحدة، ولم يمكنهم الخروج من الشعـب طوال هـذه السنوات الثلاث الا في الاشهر الحرم حيث يسود الأمن كل انحاء الجزيرة العربية.

فاذا حلّ الموسم كانت بنُو هاشم تخرج من الشعب فيشترون ويبيعون ثم يعودون إلى الشعب إلى الموسم الثاني.

وكان النبي صلّى اللّه عليه وآله يستغلّ هو أيضاً تلك المواسم في نشر دينه، والدعوة الى ما أتى به.

وكانت عناصر قريش تحاول مضايقة النبي وأنصاره وتمارس الحصار الاقتصادي عليهم بشكل من الأشكال حتى في هذه المواسم، فكانوا يحضرون عند مواقع البيع والشراء فاذا وجدوا مسلماً يريد أن يبتاع شيئاً اشتروه بثمن أغلى ليمنعوا المسلم منه !!

وكان «أبو لهب» اكثر الناس اصراراً على هذا العمل، فقد كان ينادي في الأسواق : يا معشر التجار، غالوا على أصحاب محمد حتى لا يدركوا معكم شيئاً فقد علمتم مالي ووفاء ذمتي فانا ضامن أن لا خسار عليكم، فيزيدون عليهم في السلعة قيمتها أضعافاً حتى يرجع الرجل المسلم إلى اطفاله وهم يتضاغون من الجوع وليس في يديه شيء يطعمهم به، ويغدو التجار على أبي لهب فيربحهم فيما

---

(١) السيرة النبوية : ج ١ ص ٣٥٠، وتاريخ الطبري : ج ٢ ص ٧٨، وقد كتبت هذه الصحيفة الظالمة في الليلة الأُولى من السنة السابعة للبعثة وعندما عرف ابو طالب بأمرها أنشد قصيدة في ذمهم مطلعها :

ألم تعلموا أنا وجدنا محمّداً*نبياً كموسى خُطَّ في أول الكُتب**

اشتروا من الطعام واللباس !!(١).

وكان «الوليد بن المغيرة» ينادي : أيما رجل منهم وجدتموه عنـد طعـام يشتريه فزيدوا عليه فكانت قريش تباكرهم إلى الاسواق فيشترونها فيغلونها عليهم.

وضع بني هاشم المأساوي في الشعب

لقد بلغ الجهد والجوع بالمحاصرين في الشعب حداً جعلهم يأكلون كل مـا تقع عليه ايديهم من الخبط وورق السمر حتى أن «سعد بن أبي وقـاص» يقول : لقد جعت حتى أني وطئتُ ذات ليلة على شيء رطب فوضعته في فمي وبلعته، وما أدري ما هو الى الآن(٢).

هذا وقد بثّت قريش جواسيسها على الطرق المؤدية إلى الشعب ليمنعوا من إيصال الطعام إلى من فيه فلا يصل إليهم شيء إلا سراً ومستخفى به ممن أراد صلتهم من قريش.

فقد روي أن «حكيم بن حزام» (ابن اخ خديجة) و«أبا العاص بن الربيـع» و«هشام بن عمرو» كانوا يسربون الى «بني هاشم» في الشعب سراً وفي أواسط الليل تحت جنح الظلام، فكان الواحد منهم يحمل قمحاً وتمراً علـى بعير ويأتي به إلى باب الشعب ثم يصيح بها فتدخلُ الشعب ويأكلـه بنـو هاشم.

وربما صادفهم بعض جواسيس قريش، فهموا بقتله، أو سببوا لـه بعـض المتاعب.

فقد روي أن «حكيم بن حزام» خرج يوماً ومعه انسان يحمل طعاماً إلـى عمته خديجة بنت خويلد (زوجة رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله وكانـت معه في الشعب طيلة أعوام الحصار) إذ لقيه «أبو جهل» فقال له : تذهـب بالطعام إلى بني هاشم ؟ واللّه لا تبرح أنت ولا طعامك حتى أفضحك عند قريش بمكة.

---

(١) و(٢) السيرة النبوية : ج ١ ص ٣٣٧ الهوامش.

فقال له أبو البختري - وكان من أعداء الاسلام هو أيضـاً - : تمنعـه أن يرسل إلى عمته بطعام كان لها عنده ؟

فأبى «ابو جهل» أن يدعه إلا أن يأخذه إلـى قـريش، فقـام إليـه «ابـو البختري» بساق بعير فضربه ووطأه وطئاً شديداً(١).

وخلاصة القول، أن قريشاً بالغت في تضييق الحصار على رسـول اللّـه صلّى اللّه عليه وآله ومن تبعه حتى أن من كان يدخل «مكة» من العـرب

كان لا يجسر على أن يبيع من بني هاشم شيئاً ومن باع شيئاً انتهبـوا ماله، وكان «أبو جهل»، و«العاص بن وائل» و«النضر بن الحارث بـن كلدة»، و«عقبة بن أبي معيط» يخرجون إلى الطرقات التي تدخل «مكـة» فمن رأوه معه ميرة وطعام نهوه ان يبيع من بني هاشم شيئاً، ويحذرون إن باع شيئاً منهم نهبوا ماله.

كما وعدوا على من أسلم فاوثقوهم وآذوهم واشتد البلاء عليهـم، وأبـدت قريش لبني عبد المطلب الجفاء.

ولكن لم يستطع كل ذلك أن يفتّ في عضد النبي صلّى اللّه عليه وآله ويقلل من إصراره وثباته على الطريق، ولا مِن اصرار أتباعه وثباتهم وإيمانهم.

وأخيراً تركت صرخاتُ أطفال بني هاشم في الشعب من الجوع والعـري والجهد والضر، وأوضاعهم المأساوية أثرها في نفوس بعض المشركيـن الموقعين على تلك الصحيفة الظالمة، وذلك الميثاق المشؤوم، فندموا علـى إمضائهم لتلك المقاطعة بشدة وصاروا يفكّرون في نقضهـا بشكـل مـن الأشكال.

فمشى «هشام بن عمرو» الى «زهير بن أبي أُمية» (وكان من أحفاد عبـد المطلب من جانب بناته) وقال له وهو يحثه على نقض الصحيفة : يا زهير أقد رضيت أن تأكل الطعام، وتلبس الثياب، وتنكح النساء، وأخوالك حيـث قد علمت لا يباعون ولا يبتاع منهم، ولا ينكحون ولا ينكح إليهم ؟

(١) السيرة النبوية : ج ١ ص ٣٥٤، هذا ويشكّك أحد المحققين في نوايا حكيم بن حزام في هذا العمل، وفي أن يكون قد حصل بدافع الوفاء لوشيجة القربى، بل كان بدافع الربح الاكثر لما ثبت - حسب قوله - من انه كان يحتكر الطعام على عهد رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله.

أما إني أحلِفُ باللّه أن لو كانُوا أخوال أبي الحكم (أي أبي جهل) ثم دعوته الى ما دعاك اليه منهم ما أجابك اليه أبداً ؟

فقال زهير : ويحك يا هشام فماذا أصنع ؟ إنما أنا رجل واحد واللّه لو كان معي رجل آخر لقمتُ في نقضها حتى أنقضها. قال : قد وجدت رجلاً.

قال فمن هو ؟ قال : أنا.

قال له زهير : أبغنا رجلاً ثالثاً. فذهب إلى «المطعم بن عدي» فقال له : يا مطعم أقد رضيت أن يهلك بطنان من بني عبد مناف، وأنت شـاهد علـى ذلك، موافق لقريش فيه! أما واللّه لئن أمكنتُموهم من هذه لتجـدنّهم إليهـا منكم سراعاً ؟

قال : ويحك! فماذا أصنع ؟ انما أنا رجل واحد.

قال : قد وجدت ثانياً.

قال : من هو ؟ قال : أنا.

قال : أبغِنا ثالثاً.

قال : قد فعلتُ.

قال : من هو ؟

قال : زهير بن أبي أُمية.

قال : أبغِنا رابعاً.

فذهب إلى «البختري بن هشام» فقال له نحواً مما قال للمطعم بن عـدي، فقال : وهل من أحد يعين على هذا ؟

قال : نعم.

قال : من هو ؟

قال : «زهير بن أبي أُمية» و«المطعم بن عدي» وأنا معك.

فقال : ابغنا خامساً.

فذهب إلى «زمعة بن الأسود بن المطلب» فكلّمه وذكر له قرابتهم وحقّهـم فقال له : وهل على هذا الأمر الذي تدعوني اليه من أحد ؟

{ ٥٠٦ }

قال : نعم... ثم سمى له القوم الذين وعدوه بالمساعدة علـى نقـض تلـك الصحيفة القاطعة الظالمة.

فاتفقوا على أن يحضروا في أندية قريش في المسجد ويعلِنُوا مخالفتهم لتلك الصحيفة.

فلما أصبحوا غدوا إلى مجلس قريش في المسجد الحرام فأقبل «زهير بـن أبي أُمية» على الناس وقال:

يا أهل مكة أنأكلُ الطعام ونلبس الثياب، وبنو هاشم هلكى لا يباع لهـم ولا يبتاع منهم ؟ واللّه لا أقعد حتى تشقّ هذه الصحيفة القاطعة الظالمة.

فقال أبو جهل وكان في ناحية المسجد : كذبت واللّه لا تُشقّ.

فانتصر زمعة لزهير ورد على أبي جهل قائلاً : أنت واللّـه أكـذب، مـا رضينا كتابها حيث كتبت.

وقال أبو البختري من ناحية مؤيداً موقف زميله : صدق زمعةُ لا نرضـى ما كتب فيها، ولا نقر به.

وقال المطعم بن عدي : صدقتما وكذب من قال غير ذلك، نبرأ إلـى اللّـه منها، ومما كتب فيها.

وقال هشام بن عمرو نحواً من ذلك.

فأحس أبو جهل بأن ذلك كان أمراً مبيتاً مدبراً من قبل فقال :

هذا أمر قُضِي بليل، تُشُوور فيه بغير هذا المكان.

وكان أبو طالب - حسب بعض الروايات التاريخية - جالساً ذلك اليوم في ناحية المسجد، فقام المطعم إلى الصحيفة ليشقّها فوجد (الإرضـة)(١) قـد أكلتها، إلا «باسمك اللّهم» التي صدرت بها تلك الصحيفة وهي جملة كانت قريش تبدأ بها عهودها ورسائلها.

فلما رأى «أبو طالب» ذلك رجع الى الشعب وأخبر رسول اللّه صـلّى اللّه عليه

---

(١) وهي دودة بيضاء شبه النملة وهي آفة كل شيء من خشب أو نبات راجع لسان العرب مادة : ارض.

وآله بما جرى، وعاد المحاصرون في الشعب إلى منازلهم مرة أُخرى بعد المشورة مع «أبي طالب».

ويروي طائفة من المؤرخين أن «خديجة» و«أبا طالب» أنفقـا أموالهمـا برمتها خلال سنوات المحاصرة.

وفجأة نزل ملك الوحي «جبرئيل» على رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله في الشعب، وأخبره بان اللّه قد بعث على صحيفة المشـركين القاطعـة دابـة الأرض فلحست (أو اكلت) جميع ما فيها من قطيعة وظلم وتركت جملـة «باسمك اللّهم» فأخبر رسولُ اللّه أبا طالب بذلك قائلاً يا عم إن ربي اللّه قد سلّط «الإرضة» على صحيفة قريش فلم تدع فيها إسماً هو للّه إلا أثبتتـه فيها، ونفت منه الظلم والقطيعة والبهتان.

فقال أبو طالب : إذن لا يدخلُ عليك أحد(١).

ثم قام ولبس ثيابه، ومشى هو ورسولُ اللّه وشخص آخـر حـتى دخلـوا المسجد على قريش وهم مجتمعون فيه، فلما دنا أبو طالب منهم قاموا إليـه وعظّموه، وتباشروا وظنوا أن الحصر والبلاء حمل أبا طالب على التخلّي عن موقفه، فقالوا له : قد آن لك ان تطيب نفسك عن قتل رجل فـي قتلـه صلاحكم وجماعتكم (أو قد آن لك أن تسلّم إلينا ابن أخيك).

فقال أبو طالب : واللّه ما جئت لهذا، ولكن ابن أخي أخبرني ولم يكذّبني أن اللّه تعالى أخبره أنّه بعث على صحيفتكُم القاطعة دابة فلحست جميـع مـا فيها من قطيعة رحم وظلم وجور وترك اسم اللّه، فهلم صحيفتكم فان كـان حقاً فاتقوا اللّه وارجعوا عما أنتم عليه من الظلم والجور وقطيعة الرحم.

وإن كان باطلاً دفعتُه إليكم فان شئتم قتلتموه، وإن شئتم استحييتموه.

فقالوا : رضينا، وتعاقدوا على ذلك.

---

(١) وإنّما اتخذ مثل هذا الاجراء حتى لا يفشو ذلك الخبر فيبلغ المشركين فيحتالُوا للصحيفة، ويكذّبوا بذلك خبر النبيّ صلّى اللّه عليه وآله.

ثم بعثوا إلى الصحيفة وأنزلوها من الكعبة، وعليها أربعون خاتماً.

فلما أتوا بها نظر كل رجل منهم إلى خاتمه، ثم فكوها فاذا ليس فيها حرف واحد إلا «باسمك اللّهم»، كما اخبرهم بذلك رسول اللّه صلّى اللّـه عليـه وآله.

غير أن هذا لم يوجب هدايتهم بل زادهم شراً وعناداً ورجع بنو هاشم مرة أُخرى إلى الشعب وبقوا محاصرين فيه مدة من الزمن ولم يمكنهم الرجوع الى منازلهم بمكة إلا بعد أن نقضها هشام.

وقد قال «أبو طالب» في مدح هذا (أي نقض الصحيفة القاطعـة والنفـر الذين قاموا بنقضها) قصيدة مطولة جاء في مطلعها.

ألا هل أتى بحريُّنا(١) صنعُ ربّنا*على نأيهم واللّه بالناس أرودُ(٢)**

فيخبرهم أنّ الصحيفة مُزّقت*وان كلُّ ما لم يرضه اللّه مُفسدُ(٣)**

هذه أمثلة ونماذج من ردود الفعل الظالمة والمواقف المناوئة التي اتخذتهـا قريش تجاه الدعوة المحمدية.

على أنه لا يمكن الادعاء القطعي بأن جميع هذه الردود قد وقعـت علـى الترتيب الذي ذكرناه تماماً، ولكن يمكن بمراجعـة النصـوص التاريخيـة تحصيل مثل هذا الترتيب وخاصة أن مسألة انتهاء المحاصرة الاقتصاديـة

قد وقعت في منتصف شهر رجب من السنة العاشرة للبعثة الشريفة.

كما أن أذى قريش وردود فعلها ضد الاسلام والمسلمين وضد رسول اللّـه صلّى اللّه عليه وآله خاصة لم تنحصر في ما ذكرناه في هذه الفصول بـل كان هناك أساليب أُخرى سلكتها قريش لتحطيم شخصية النبي صلّى اللّـه عليه وآله وإضعاف عزيمته مثل وصفهم للنبي صلّى اللّـه عليـه وآلـه بالأبتر.

فقد كان «العاص بن وائل السهمي» إذا ذكر رسول اللّه قال : دعوه، فانّما هو رجل أبتر لا عقب له، لو مات لانقطع ذكره واسترحتم منه.

---

(١) يقصد من هاجر من المسلمين إلى الحبشة في البحر.

(٢) أي أرفقُ.

(٣) السيرة النبوية : ج ١ ص ٣٧٧ - ٣٨٠ وقد أدرج ابن هشام القصيدة بتمامها، فراجع.

فانزل اللّه تعالى في ذلك سورة الكوثر التي يقول فيها :

(بسم اللّه الرحمن الرحيم إنّا أعطيناك الكوثر فصل لِربك وانحر إن شانئك

هو الأبتر).

وقد أخبر بها اللّه نبيه بأنه سيهبه ذرية كثيرة(١).

ولقد كتب العلامة الفخر الرازي في تفسيره لهذه السورة(٢) : المعنى أنـه يعطيه نسلاً يبقون على مر الزمان، فانظر كم قُتِلَ من أهل البيـت ؟ ثـم العالم ممتلئ منهم، ولم يبق من بني أُمية في الدنيا أحد يعبأ به.

ووجه المناسبة أن الكافر شمت بالنبي حين مات أحـد أولاده وقـال : ان محمداً ابتر فان مات مات ذكره، فانزل اللّه هذه السورة على نبيه تسلية له كأنه تعالى يقول : ان كان ابنك قد مات فانا اعطيناك فاطمـة، وهـي وإن كانت واحدة وقليلة، ولكن اللّه سيجعل هذا الواحد كثيراً.

---

(١) السيرة النبوية : ج ١ ص ٣٩٣ وجميع التفاسير.

(٢) مفاتيح الغيب : الجزء الثلاثون سورة الكوثر.

٢١ ـ وَفاة أبي طالب وخديجة الكبرى

في الوقت الذي كنّا نسطّر فيه مواضيع هذا الفصل كان سجن «القطيـف» يضم بين جدرانه شاباً حر الضمير شجاعاً مقداماً لم يكن له من ذنـب إلا أنه الّف كتاباً باسم «أبو طالب مؤمن قريش» يتناول إسلام «أبي طالـب» وإيمانه وإخلاصه مثبتاً كل ذلك من مصادر أهل السنّة(١).

فطلبت منه السلطات القضائية في الحجاز - وفي عصـر يتسـم بحريـة التفكير والبيان والإعتقادِ - بأن يتراجع عن كلامه، وحيث إنه لم يكن ليريد أن ينكر حقيقة اعتقد بها عن قناعة ويقين، حكمت عليـه تلـك السلطـات بالاعدام.

وقد نجا هذا الفتى الشجاع والكاتب الحر من الاعدام اثر جهـود اسـلامية واسعة وخُفّضِت عقوبته الى الحبس المؤبد، الذي خفّض اثر جهود اسلاميةٍ مرة أُخرى الى عقوبة الجلد ثمانين جلدة !!.

وهو الآن يلبث في أحد السجون بانتظـار المصـير المجهـول، اذ علـى المسلمين إما أن يهتموا بالأمر ويطلبوا من السلطات القضائيـة السعوديـة صرف النظر عن

---

(١) والكتاب يقع في ٣٤٠ صفحة طبع بحجم الوزيري وطُبع في بيروت مراراً وقدّم عليه الأديبُ اللبناني المعروف «بولس سلامة» صاحب ملحمة الغدير وملاحم أُخرى.

عقوبته، بل والافراج عنه نهائياً.

وإما أن يفقد هذا الشاب المجاهد الشجاع البريء حياته تحت سـياط تلـك السلطات الجائرة الحاكمة زوراً وقهراً على أرض الحجاز(١) (٢).

لقد سقطت مؤامرة الحصار الاقتصادي ضد النبي صلّى اللّه عليـه وآلـه والمسلمين بفعل إقدام ثلة من ذوي المروءة وأيضاً بفضل صـمود النبـي صلّى اللّه عليه وآله وأصحابه وثباتهم العظيم. وخرج النبي وأنصاره مـن «شِعب أبي طالب» بعد ثلاث سنوات من النفي والعـذاب وعـادوا إلـى منازلهم ظافرين مرفوعي الرؤوس.

وعاد التعامل الاقتصادي مع المسلمين الى ما كان عليه قبـل الحصـار، وكانت أوضاع المسلمين تسير نحو الانتعاش والانفراج شيئاً فشيئـاً، واذا برسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله يفاجأ بحادث مؤلم مر ذلـك هـو وفـاة شخصيةٍ كبرى أحدث فقدانها أثراً سيئاً في نفـوس المسلميـن وبخاصـة المستضعفين منهم.

ولقد كان هذا الأثر عظيماً جداً بحيث لا يمكن قياسه بشيءٍ بالنظر الى تلك

الظروف الحساسة، وذلك لأن نمو أية عقيدةٍ وفكرة إنما يكون في ظل عاملين أساسيين : أحدهما : حرية التعبير، والآخر : القوة الدفاعية التـي تحمي أصحاب تلك العقيدة والفكرة ضد حملات الخصوم التي لا ترحم.

ولقد كان المسلمون - آنذاك - يتمتعون بحرية البيان والتعبـير، ولكنهـم افتقدوا - بسبب الحادث المفاجئ المذكور العامل الجوهـري والمصـيري الثاني يعني : حامي الاسلام والمدافع الوحيد عنه الذي وافته المنية في تلك الايام الحساسة

---

(١) لقد سمّيت أراضي «الحجاز» و«نجد» و«تهامة» باسم عائلة واحدة هي آل سعود، واخيراً حملت هذه المنطقة التي كانت تُعرف وحتى إلى ما يقرب من قرنين بارض الحجاز اسم المملكة العربية السعودية. يا له من استئثار وجرأة على المقدسات !!

(٢) واخيراً نجا هذا الشاب المؤمن والمجاهد الحرّ بفضل جهود علماء الشيعة ومفكّريهم المتضافرة والواسعة النطاق وأُخلي سبيله وقد زار - للاعراب عن شكره - مدينة قم المقدّسة وقد التقينا به أيضاً كما زار اماكن أُخرى لنفس الغرض.

وحرم المسلمون بوفاته من حمايته ودفاعه، ووقايته.

* * *

أجل لقد فقد رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم حاميه العظيم الذي تولى

مهمة كفالته والدفاع عنه، والمحافظة على حياته بصدق واخلاص وجد ورغبة وكان يقيه بنفسه وذويه ويؤثره على نفسه وأولاده وينفق عليه مـن ماله حتى كبر وصار له مال وطول منذ أن كان صلّى اللّه عليه وآله فـي السنة الثامنة من عمره وحتى يوم وفاة ذلك الحامي العظيم، ورسول اللّـه صلّى اللّه عليه وآله في الخمسين من عمره.

لقد فقَد رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله شخصيةً خاطبها عبد المطلب عنـد وفاته بالشعر قائلاً :

أُوصِيك يا عبدَ منافٍ بعدي*بموحد بَعد أبيهِ فردِ**

فأجابه أبو طالب قائلاً : يا أبه لا توصِين بمحمد فانه إبني وابن أخي(١).

ولعلّ رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله قد تذكر في اللحظة التي ظهر فيهـا على جبين ابي طالب عرقُ الموت جميع الحوادث الحلوة والمرة وقال في نفسه :

١ - إن هذا الشخص المسجى على فراش الموت هو عمه الرؤوف الـذي ظلّ يحرسه بالليل والنهار طيلة سنوات الحصار في الشعب، فاذا جاء الليل قام عند رأسه بالسيف يحرسه. ورسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله مضطجع ثم يقيمه من فراشه إذا مضى شطر من الليل ويضجعه في موضـع آخـر ويضجع مكانه ولده «علي بن أبي طالب» حتى لا تغتاله قـريش بعـد أن رصدوا مكانه، وكمنوا له، وكان يفعل أبو طالب ذلك طـوال الليـل كلـه فيفديني بولده «علي» ويقيني به حتى إذا قال له «علي» ليلة:

«يا أبتاه إني مقتول ذات ليلة».

فأجابه أبو طالب بنبرة المتحمس الصبور :

---

(١) عمدة الطالب : ص ٦ وفيه بواحد، المناقب : ج ١ ص ٢١.

إصبرن يا بُنيَّ فالصبرُ أحجى*كُلُّ حيٍّ مصيِرُه لِشُعوبِ**

قد بلوناك والبلاءُ شديد*لِفِداءِ النجِيبِ وابنِ النجيبِ**

فأجابه «علي» بكلام اكثر حلاوةً وعمقاً قائلاً :

أتأمُرُني بالصّبرِ في نصرِ أحمدٍ ؟*ووالله ما قُلتُ الّذي قلتُ جازعاً**

ولكِنّني أحببتُ أن ترَ نُصرتي*وتعلمَ أنّي لم أزل لك طائِعا(١)**

٢ - إن هذا الجثمان الذي فارقته الروح هو جثمان عمي العطوف الـذي شُرد هو وذووه، وعرض نفسه وأهله للبلاء والمحنـة بسبـب الحصـار لأجلي، وأمر بأن يحرسوني ليل نهار، تاركاً زعامته وسيادته، وكلّ شؤُونه

للحفاظ علي والإبقاء على رسالتي وأرسل إلى قريش رسالةً قوية أعلن فيها عن وقُوفه إلى جانبي وانه لن يسلمني ويخذلني ما دام حياً إذ قال :

فلا تحسبُونا خاذِلين مُحمّداً*لذي غُربة مِنّا ولا مُتقرّب**

ستَمنعُه مِنّا يد هاشِميّة*ومركبُها في الناس أخشن مركبِ(٢)**

بعد أن تحقق موت «ابي طالب» ارتفع الصراخ والنحيـب مـن منازلـه وبيوته، واجتمع حول بيته العدو والصديقُ، والقريب والبعيـد، واشـترك الجميع في مراسيم دفنه بقلوب آلمتها الفجيعة به، وقرحها الحزن عليه.

وهل ترى تنتهي آثار وردود فعل وفاة شخصية عظيمة الشأن مثل «ابـي طالب» الذي كان زعيم قريش، وسيد عشيرته بمثل هذه السرعة، والبساطة ؟

كلا بل سيكون لفقدانه اكبر الأثر على مسيرة الدعوة كما سـتعرف ذلـك مستقبلاً.

نماذج من مشاعر أبي طالب

ان التاريخ البشري يحتفظ في صفحاته بأمثلة كثيرة عن مشاعر تبادلها

(١) مناقب ابن شهراشوب : ج ١ ص ٦٤، الحجّة : ص ٧٠، بحار الأنوار : ج ١٩ ص ١ - ١٩.

(٢) بحار الأنوار : ج ١٩ ص ٤.

الأشخاص وعواطف ودية قوية أبداها البعض تجاه بعض تـدور اكثرهـا حول محور الدوافع المادية كالتي تدور حول معيار الجمال أو المال، ولهذا سرعان ما يذهب الحماس وتنطفئُ شعلةُ الحب، ويتضاءل لهيب العاطفـةِ في كيانهم حتى تزول بالمرة ولا يبقى منها شيء أبداً لعـدم ثبـات هـذه الدوافع.

ولكن المشاعر والعواطف التي تنبع من أواصر الايمان بفضائل شخص ما وكمالاتِه الروحية والمعنوية لا تنمحي ولا تتلاشى بسرعة.

وقد كانت مودة «أبي طالب» لمحمد صلّى اللّه عليه وآله وحبه الشديد لـه تنبع من كلا هذين الدافعين.

فقد كان «أبو طالب» يؤمن بمحمد صلّى اللّه عليه وآله ويرى فيـه مـن جانب الانسان الكامل، بل يعتبره في قمة الكمال الانساني، ومن جانب آخر كان «محمد» ابن أخيه، وقد أحلّه ذلك من قلبه محلّ الابن والأخ.

لقد كانت لصفات «محمد» وخصاله المعنوية والأخلاقية، وطهـره مكانـة كبرى في قلب عمه «أبي طالب» إلى درجة أنه كان يصطحبه معـه إلـى المصلّى، ويستقي به أي انه يقسم على اللّه بمقامه أن يـدفع عـن النـاس القحط والجدب وينزل عليهم الغيث، فكانت دعوتُـه تُستجـاب مـن دون تأخير.

فقد نقل كثير من المؤرخين الحادثة التالية :

قحط الناس في «مكة» وحواليها سنةً من السنين، ومنعتِ السماء والأرض بركاتهما عنهم بشكل عجيب، فمشت قريش بعيون باكية إلى «أبي طالب» تطلب منه بالحاح أن يستسقي لهم، وان يذهب الى المصلى ويـدعو ربـه لينزّل عليهم المطر وينقذهم من تلك المحنة الصعبة.

فخرج «أبو طالب» وقد اخذ بيد غلامٍ كأنه شمس دجن تجلّت عنها غمامة فاسند ظهره إلى الكعبة ورفع وجهه نحو السماء وقال : يا رب هذا الغلام اسقنا غيثاً مغيثاً، دائماً هاطلاً.

ويكتب المؤرخون ان السماء كانت صافية لا غيم فيها أبداً ساعة اسـتسقى «أبو طالب» برسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله ولكن مـا ان فـرغ «أبـو طالب» من دعائه

إلا وأقبلت السحاب في الحال، وغطّت سماء «مكـة» ومـا حولهـا مـن المناطق القريبة إليها، وارعدت السماء وأبرقت ثم جرى غيث عظيم سالت به الأودية، وروت القريب والبعيد، وسر به الجميع ورضوا(١).

وقد اشار «أبو طالب» في لاميته المعروفة الى هذه الحادثة.

وقد أنشأ «أبو طالب» تلك القصيدة في أحلك الظروف واشدها، يوم زادت قريش من ضغوطها على حامي الرسول صلّى اللّه عليه وآله ليسلم رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله إليها.

وقد ذكّر فيها «أبو طالب» قريشاً بحادثة الاستسقاء برسول اللّه صلّى اللّـه عليه وآله قبل الاسلام وكيف أنها أُمطرت ببركته، بعد قحط طويل، وجدب مهلك، كاد يبيد الحرث والضرع، وذلك عندما يقول:

وابيض يُستسقى الغمامُ بوجهه*ربيع اليتامى عصمة للأرامل**

تلوذُ به الهُلاك مِن آل هاشم*فهم عندَهُ في نعمة وفواضل**

وقد نقل «ابن هشام» في سيرته(٢) أربعة وتسعين بيتاً من هذه القصيـدة، فيما أورد «ابن كثير» الشامي في تاريخه(٣) إثنين وتستعين بيتاً فقط.

وهي قصيدة في منتهى الروعة والعذوبة، وفي غاية القـوة والجمـال، وتفوق في هذه الجهات كل المعلقات السبع التي كـان عـرب الجاهليـة يفتخرون بها، ويعدونها من ارقى ما قيل في مجال الشعر والنظم.

وقد أورد «ابو هفان العبدي» الجامع لديوان «أبي طالب» مائـة وواحـداً وعشرين بيتاً من هذه القصيدة في ذلك الديوان، ويمكن ان تكون كلّ تلـك القصيدة وتمامها.

ونحن نورد هنا أبياتاً متفرقة من هذه القصيدة مما يتصل منها برسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله بصورة صريحة.

---

(١) بحار الأنوار : ج ١٨ ص ٢ و٣، السيرة الحلبية : ج ١ ص ١١١ - ١١٦، الملل والنحل المطبوع بهامش الفصل في الأهواء والملل : ج ٣ ص ٢٢٥.

(٢) السيرة النبوية : ج ١ ص ٢٧٢ - ٢٨٠.

(٣) البداية والنهاية : ج ٣ ص ٥٢ - ٥٧.

كذِبتُم وبيتِ اللّه نبزى محمّداً*ولما نطاعِن دونه ونناضل(١)**

ونُسلِمُه حتّى نُصرَّعَ دونَه*ونذهَل عن آبنائنا والحلائِل**

لعمري لقد كلّفتُ وجداً بأحمدٍ*وإخوته دأب المحبّ المواصل**

فلا زال في الدنيا جمالاً لأهلها*وزيناً لمن والاه ربُّ المشاكل(٢)**

فمن مثلُه في الناس أيُ مؤمّل*إذا قاسَهُ الحُكام عند التفاضل**

حليم رشيد عادل غير طائش*يُوالي إلهاً ليس عنه بغافِلِ**

لقد علِمُوا أنَّ ابننا لا مكذَّب*لدينا ولا يُعنى بقولِ الأباطِلِ**

فأصبحَ فينا احمد في أُرومة*تقصّر عنه سورة المتطاول(٣)**

حدِبتُ بنفسي دونَه وحميته*ودافعتُ عنه بالذُّرا والكلاكل(٤)**

فأيّدَهُ ربُّ العباد بنصره*وأظهرَ ديناً حقُّه غير باطل(٥)**

التغيير في برنامج السفر

لم يكن يمضي اكثر من إثني عشر ربيعاً من عمر «محمد» بعـد، عندمـا أراد «أبو طالب» التوجه إلى الشام مع قافلة قريش التجارية.

وعندما استعدت القافلة لمغادرة مكة ودق جرس الرحيل، أخذ «محمد» فجأة بزمام الناقة التي كان يركبها عمه وكافله «أبو طالب» بينما اغرورقت عيناه صلّى اللّه عليه وآله بالدموع وقال :

«يا عم إلى من تكلني، لا أب لي ولا أم» ؟.

هذا المشهد المؤثر وبخاصة عندما رأى «أبو طالب» عيني محمد وقد اغرورقت بالدموع، فعل فعلته في نفس العم الكافل الحنون، فانحدرت عبرات العطف من عينيه وقرر من فوره ومن دون سابق تفكير في الموضوع أن يصطحب ابن اخيه «محمداً» معه في هذه الرحلة، ومع أنه لم يحسب لهذا الامر - من قبل -

---

(١) أي نُغلَب عليه.

(٢) المشاكل : العظيمات من الامور.

(٣) السورة : الشدة والبطش.

(٤) الذرا : جمع ذروة وهي اعلى ظهر البعير.

(٥) راجع السيرة النبوية : ج ١ ص ٢٧٢ - ٢٨٠.

أي حساب، فان «أبا طالب» قبل بان يتحمل كل ما يترتب على قراره هذا، فحمله معه على ناقته، وبقي يفكر في أمره، ويدبر شـأنه، ويحافـظ عليه طوال تلك الرحلة، وشهد منه اثناء الطريق كرامات وخوارق، وقـد أنشأ في ذلك قصيدةً موجودةً في ديوان أبي طالب، ومطلع هـذه القصيـدة هو :

إنّ ابن آمنة النبيّ محمّداً*عندي يفوقُ منازل الأولاد(١)**

* * *

الدفاع عن حوزة العقيدة والايمان

ليست هناك قوة تساعد على الثبات والمقاومة، والصمود والاستقامة، مثـل قوة الايمان، فالايمان بالهدف هو العامل القوي وراء تقـدم الانسـان فـي ميدان الحياة، فهو الذي يهضم في نفسه كل الآلام والمتاعب، ويدفع بالمرء الى المضي قدماً في طريق الوصول إلى أهدافه المقدسة، حتى ولو كلفـه ذلك التعرض للموت.

إن الجندي المسلّح بقوةِ الإيمان منتصر لا محالة.

إن الجندي الذي يعتقد بأن الموت في طريق العقيدة هو عين السعادة لا بد أن يحرز النصر.

إن على الجندي - قبل أن يسلّح نفسه بسلاح العصر - أن يتزود في قلبه من طاقة الإيمان بالهدف، ويضيء قلبه بمصباح الاعتقاد بالحقيقة، وحبها، ويجب أن يكون جهاده وصلحه من أجل العقيدة والدفاع عن حوزتها، وكيانها.

إن أفكارنا وعقائدنا نابعة من روحنا، وفي الحقيقة ان فكر الانسان وليد عقله، فكما أن الانسان يحب ولده الجسماني حباً شديداً كذلك يحب أفكاره التي هي ولائد عقله وروحه، بل إن حب الانسان لعقيدته اكثر من حبه

---

(١) ديوان أبي طالب : ص ٣٣ - ٣٥، تاريخ ابن عساكر : ج ١ ص ٢٦٩ - ٢٧٢، الرياض الآنف: ج ١ ص ١٢٠.

لأولاده الجسمانيين، ولهذا فهو يدافع عن عقائده حتى الموت، ويغضي - في سبيل الدفاع عن حوزة العقيدة والحفاظ عليها - عن كل شيء، بينما هو غير مستعد لأن يضحي بنفسه في سبيل الحفاظ على اولاده.

إن حب المرء للمال والمنصب حب محدود، فهو ينساق مع هذا الحب مادام لم يهدد حياته خطر الموت الحقيقي، ولكنّه مستعد لأن يمضي - في سبيل الدفاع عن حياض العقيدة - الى حد الموت، ويؤثر الموت الشريف في سبيل العقيدة على الحياة، ويرى الحياة الحقيقية والواقعية في وجود الرجال المجاهدين، وهو يردد : «إنما الحياة عقيدة وجهاد»(١).

ولنلق نظرة فاحصة على حياة بطل حديثنا (ونعني به المدافع الوحيد عـن الاسلام وحامي الرسول الاوحد في بدايات عهد الرسالة) فماذا كان دافعـه الى هذا الامر، وما الذي كان يحركه في هذا السبيل ؟ واي شـيء كـان وراء مضيه في هذا الطريق الى حافة العدم، والغض عن النفس والنفيس، والمقام، والقبيلة وغير ذلك والتضحية بكل ذلك في سبيل «محمد» صـلّى اللّه عليه وآله وسلّم.

إن من المتيقن أن دافعه الى ذلك لم يكن المحرك المادي، وبالتالي لم يقصد من وراء الدفاع عن ابن اخيه، وحمايته، والحدب عليه، كسب أمر مـادي كتحصيل مال وثروة، لأن النبي صلّى اللّه عليه وآله لم يكن له يومئذ مال، ولا ثروة.

وكما أن مقصود «أبي طالب» لم يكن أيضاً تحصيل مقام، وإحراز مكانـة اجتماعية لأنه كان يملك في ذلك المجتمع أعلى المناصب واهمهـا، فقـد كانت له رئاسة «مكة» والبطحاء، بل هو فقد منصبه وشخصيته الممتـازة ومكانته المنقولة بسبب دفاعه عن «محمد»، وعدم الاستجابة لقومـه فـي تسليمه اليهم، والتخلي عنه لأن دفاعه عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله قد استوجب سخط زعماء عليه، واستياءهم من موقفه، وخـروجهم عـن طاعته، ودفعهم الى التمادي

---

(١) المراد من العقيدة المقدسة هو بطبيعة الحال ما تذوب «الأنا» فيها في التوحيد والايمان باللّه اذ هنا يصدُق قولُه :

في معاداة «بني هاشم» و«أبي طالب» والثورة عليهم !!

تصور باطل

ربما يتصور بعض ضعفاء البصيرة أن علة حدب «أبـي طالـب» علـى رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله والتضحية في سبيله بالنفس والنفيس كانت هي : علاقة القربى، ووشيجة الرحِم، أو بتعبير آخر : إن التعصب القبلي، والعصبية القومية هو الذي دفع بأبي طالب إلى ان يعرض نفسه لكل ذلـك المكروه في سبيل ابن اخيه.

ولكن هذا ليس سوى مجرد تصور باطل لا غير، ويتضح بطلانه بدراسـة مختصرة لأنه لا تستطيع أية وشيجة قربى على أن تـدفع أحـداً إلـى أن يضحي بنفسه في أحد أقربائه الى هذه الدرجة من التضحيـة والمفـاداة، بحيث يقي مثلاً ابن أخيه عليه، ويكون مستعداً لأن يتقطّع ولده بـالسيوف إرباً إرباً دون ابن أخيه.

إن العصبيات القبائلية والعائلية وان كانت تدفع بالانسان حتى الـى حافـة الموت، ولكن لا معنى لان تختص، هذه الحماية الناشـئة عـن العصبيـة العائلية والقبلية الشديدة بفرد واحدٍ، وشخص خاص معين من أفراد العائلة والقبيلة، في حين نجد «أبا طالب» قد قام بكل هذه التضحيـة فـي سـبيل

شخص واحد، وفرد معين (أي النبي)، ولا يفعل مثل هذه فـي سـبيل غيره من أبناء «عبد المطلب» و«هاشم» وأحفادهما ومـن ينتمـي إليهـم بوشيجة القربى ورابطة الرحم.

الدافع الحقيقي لأبي طالب

وعلى هذا الأساس فان المحرك والدافِع الحقيقي لأبي طالب لم يكن أمـراً مادياً ولا الجاه والمنصب، أو التعصب القومي، والعائلي، بل كـان أمـراً معنوياً وأن ضغوط العدو وقوته كانت تدفعه إلى الاستعداد للقيام بأي نوع من أنواع التضحية وذلك الأمر المعنوي هو اعتقاده الراسخ برسول اللّـه صلّى اللّه عليه وآله يعتبر «محمداً» مظهراً كاملاً للفضيلـة والانسانيـة، ويعتبر دينه أفضل برنامج

للسعادة، وحيث أنه كان يحب الحقيقة، ويعشق الكمال والحق، لذلك كـان من الطبيعي أن يدافع عن الحق والحقيقة، وينصرهما بكل وجوده، وبكـل قواه.

وهذا المعنى هو المستفاد من قصائد «أبي طالب» وأشعاره، فهو يصـرح بأن «محمداً» رسول كموسى وعيسى إذ يقول :

لِيَعلَم خِيارُ النّاسِ أنّ مُحمّداً*نبيٌّ كمُوسى والمسيح بن مريم**

أتانا بهَدي مِثل ما أتيا بهِ*فكُلّ بأمرِ اللّهِ يهدِي ويَعصِمِ(١)**

ويقول في قصيدة أُخرى :

ألم تعلَمُوا أنّا وجدنا محمّداً*نبيّاً كمُوسى خطّ في أوّل الكتُب(٢)**

هذا وتعتبر ابياته التي سبق أن أشرنا اليها والمئات من أمثالها ممـا جـاء ذكره في ديوان أبي طالب، وفي ثنايا التاريخ والتفسير والحـديث شـواهد حية وقوية على أن محرك «أبي طالب» الواقعي ودافعه الحقيقي إلى الدفاع عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله كان هو اعتقاده الخـالص، واسـلامه الواقعي ولم يكن له أي دافع آخر سوى الايمان والعقيدة.

ونحن هنا نكشف النقاب عن بعض مواقفه في الدفاع عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله وحمايته بعد اضطلاعه بعبء الرسالة، ونـترك لـك أيهـا القارئ بأن تدقّق في مثل هذه المواقف الفدائية ثم تقضي بنفسك : هل تنبع مثل هذه التضحية، ومثل هذا التفاني، والفداء إلا من الايمان والاعتقاد ؟؟

* * *

لمحات من تضحيات أبي طالب

إجتمع أسياد قريش واشرافها في بيت أبي طالب والنبي صلّى اللّـه عليـه

وآله حاضر، وتبودلت بين الجانبين أحاديث حول رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله

---

(١) مجمع البيان : ج ٧ ص ٣٧، الحجّة : ص ٥٦ - ٥٧، مستدرك الحاكم : ج ٢ ص ٦٢٣ و٦٢٤.

(٢) مجمع البيان : ج ٧ ص ٣٦، وقد نقل ابن هشام في السيرة النبوية : ج ١ ص ٣٥٢ و٣٥٣ خمسة عشر بيتاً من هذه القصيدة.

ودينه وما خلق من مشكلات في مكة، وحاول القرشيون إثناء النـبي عـن دعوته وعمله ولكن دون جدوى فلما يئسوا من الحصول على النتيجة التي كانوا يريدونها نهضوا من مكانهم ليتركوا بيت «أبي طالب»، قال «عقبـة ابن أبي معيط» غاضباً مهدداً : لا نعود إليه أبداً، وما خير من أن نغتـال محمداً !!

فغضب «أبو طالب» من هذه الكلمة، ولكنه مـاذا عسـاه أن يفعـل فهـم ضيوفه، وفي بيته.

واتفق أن خرج النبي صلّى اللّه عليه وآله من البيت في ذلك اليوم ولم يعد، وجاء «أبو طالب» وعمومته الى منزله فلم يجدوه، فجمع فتياناً مـن بنـي هاشم وبني المطلب، ثم قال - وهو يظن ان قريشاً كادت برسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله - : ليأخذ كل واحد منكم حديدة صارمة ثم ليتبعني إذا دخلت

المسجد، فلينظر كل فتى منكم، فليجلس الى عظيم من عظمائهم فيهـم ابن الحنظلية - يعنى أبا جهل - فانه لم يغب عن شر ان كان محمـد قـد قتِل، فقال الفتيان : نفعل فجاء زيد بن حارثة فوجد أبا طالب علـى تلـك الحال فقال : يا زيد أحسست ابن أخي ؟ قال : نعم كنت معه آنفاً.

فقال أبو طالب : لا ادخل بيتي أبداً حتى أراه.

فخرج زيد سريعاً حتى اتى رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله وهو في بيـت عند الصفا ومعه أصحابه يتحدثون فاخبره الخبر، فجاء رسول اللّه صـلّى اللّه عليه وآله إلى أبي طالب فقال : يا ابن أخي : اين كنت ؟ اكنـت فـي خير ؟ قال : نعم، قال : ادخل بيتك، فدخل رسول اللّه صلّى اللّـه عليـه وآله، فلما اصبح أبو طالب غدى على رسول اللّه صلّى اللّه عليـه وآلـه فاخذ بيده فوقف على اندية قريش ومعه الفتيان الهاشـميون والمطلبيـون فقال : يا معشر قريش هل تدرون ما هممتُ به ؟

قالوا : لا، فاخبرهم الخبر، وقال للفتيان اكشفوا عما في ايديكم، فكشفـوا، فاذا كل رجل منهم معه حديدة صارمة. فقال : واللّه لو قتلتموه مـا بقّيـت منكم أحداً حتى نتفانى نحن وانتم، فانكسر القوم وكان اشدهم انكساراً أبـو جهل(١).

---

(١) الطبقات الكبرى : ج ١ ص ١٦٨، الطرائف : ص ٨٥.

لو لاحظت أيها القارئ الكريم هذه الصفحات وغيرها من تـاريخ «أبـي طالب»، ودرست حياته لرأيت كيف ان «أبا طالب» ظـلّ طـوال اثنيـن وأربعين سنة بأيامها ولياليها يحدب على رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآلـه ويدافع عنه، ويحاميه، وبخاصة في السنوات العشر الاخيرة من حياته التي صادفت بعثة رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله ودعوته، فقد أظهر من الدفاع عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله والحرص على حياته، وحماية هدفـه اكثر مما يتصور.

ولقد كان العامل الوحيد الذي دفعه الى مثل هذا الموقف الراسخ العظيم في هذا السبيل هو : عمق الايمان برسول اللّه صلّى اللّه عليه وآلـه، وقـوة الاعتقاد الخالص برسالته.

ولو أننا ضممنا إلى تضحياته الشخصية تضحيات ولده العزيـز «علـي» لأدركنا مغزى البيتين اللذين انشدهما «ابن ابي الحديد» المعتزلي الشافعي إذ قال :

ولولا أبو طالب وابنُه*لما مثُلَ الدِّينُ شخصاً وقاما**

فذاك بمكّة آوى وحامى*وهذا بيَثرب جسَّ الحماما(١)**

قضية ذات بواعث سياسية :

ليس من ريب في أنه لو ثبت عشر هذا القدر من الشواهد الدالّة على اسلام «أبي طالب» وإيمانه بالرسالة المحمدية، لغيره ممن هو بعيد عن قضايـا السياسة، وخارج عن دائرة الحقد والبغض لاتفق الجميع سنةً وشيعةً علـى إسلامه وإيمانه، ولكن كيف ذهب فريق الى تكفير «أبي طالب» مع كلّ هذه الشواهد القوية القاطعة على إيمانه ؟ حتى أن فريقاً من الكتاب ذهب إلى ان بعض الآيات المشعرة بالعذاب نزلت في شأنه.

---

(١) شرح نهج البلاغة : ج ١٤ ص ٨٤ يقول ابن أبي الحديد : صنف بعض الطالبيين في هذا العصر كتاباً في اسلام أبي طالب، وبعثه اليّ، وسألني ان اكتب عليه بخطي نظماً او نثراً اشهد فيه بصحة ذلك، وبوثاقة الأدلة عليه (إلى ان قال) فكتبت على ظاهر المجلد هذه الابيات.

بينما توقّف في هذا الأمر، وذهب أفراد معدودون من علماء السنـة الـى الحكم باسلامه وايمانه، ومنهم «زيني دحلان» مفتي مكة المتوفّـى سـنة ١٣٠٤ من الهجرة.

ولكن الانصاف هو ان يقال : أن الهدف من طرح هذه المسألة والتوقف في ايمان «أبي طالب» أو تكفيره لم يكن إلا الطعن في أبنائه، وبخاصة أميـر المؤمنين الامام علي عليه السلام.

ولقد جر بعض كتّاب السنّة - لتبرير تكفير أبي طالب - هذه المسألة الـى

غير ابي طالب ووسع دائرة التكفير هذه حتى شملت آباء النبي صـلّى اللّه عليه وآله أيضاً حيث ذهب إلى أن أبوي النبي صلّى اللّه عليـه وآلـه ماتا كافرين أيضاً.

ونحن لا يهمنا هنا أن نعلم بأن تكفير والدي النبي صلّى اللّه عليـه وآلـه مخالف لاجماع الامامية والزيدية، وكـذا جماعـة مـن علمـاء السنـة، ومحقّقيهم، إنما الكلام هو حول من اتّهموا ببساطة متناهية حـامي النبـي صلّى اللّه عليه وآله الوحيد والمدافع عنه بلا منازع.

الأدِلّة على إيمان أبي طالب

إن التعرف على عقيدة أحد، ومعرفة نمط تفكيره، يمكن عن ثلاث طـرق هي :

١ - دراسة ما ترك من آثار علمية وأدبية.

٢ - أسلوب عمله، وتصرفاته في المجتمع.

٣ - رأي أقربائه، وأصدقائه غير المغرضين فيه.

ونحن نستطيع أن نتعرف على إيمان «أبي طالب» وعقيدته من خلال هذه

الطرق.

فان أشعار «أبي طالب» تدل بجلاء لا لُبس فيه على ايمانـه وإخلاصـه، وكذا تكون خدماته القيمة في السنوات العشر الاخيرة من عمره شاهداً قوياً على إيمانه العميق.

كما وأن رأي أقربائه المنصفين متفق على أن «أبا طالب» كـان مسلمـاً مؤمناً ولم يقل أحد من أقربائه، في حقه بغير هذا أبداً.

وإليك إثبات هذا الموضوع عن هذه الطرق الثلاث على وجه التفصيل :

آثار أبي طالب العلمية والأدبية

نحن نختار هنا من بين قصائد «أبي طالب» المطولة، بعض الأبيات التـي تثبت ايمانه برسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله، واعتقاده بالاسلام، في غيـر ابهام.

١ ـ لِيَعلَم خِيارُ النّاس أنّ مُحمَّداً*نبيّ كمُوسى والمسيح بن مريم**

أتانا بهدي مِثل ما أتيا به*فكُلّ بأمرِ اللّهِ يهدِي ويعصِمِ(١)**

٢ ـ تمنيتمو أن تقتُلُوهُ وإنّما***أمانيُّكُم هذي كأحلامِ نائِمِ

نبيّ أتاهُ الوحيُ من عِندِ ربّهِ***ومن قال لا يقرع بها سنَّ نادِمِ(٢)

٣ ـ ألم تعلمُوا أنّا وجدنا محمّداً***رسُولاً كمُوسى خُطَّ في أوّلِ الكُتُب

وأنّ عليهِ في العِبادِ محبةً***ولا حيفَ في من خصّهُ اللّه بالحُبّ(٣)

٤ ـ واللّهِ لن يصِلُوا إليكَ بجمعِهم***حتّى أُوسّدَ في التّراب دفينا

فاصدَع بأمرِك ما عليك غضاضة***وابشِر بذاك وقرَّ مِنك عُيُونا

ودعوتني وعلمتُ أنّك ناصِح***ولقد دعوت وكُنت ثمّ أمِينا

ولقد علِمتُ بأن دِينَ مُحمّد***مِن خير أديان البَريّة دينا(٤)

٥ ـ أو تُؤمنوا بكتاب منزل عجب***على نبيّ كمُوسى أو كذِي النون(٥)

٦ ـ لقد علِمُوا أنّ ابننا لا مُكذَّب***لدينا ولا يعني بقولِ الأباطِلِ

فأيّدهُ ربُّ العِبادِ بنصرهِ***واظهر ديناً حقُّهُ غيرُ باطل(٦)

(١) مجمع البيان : ج ٧ ص ٣٧، الحجة : ص ٥٧، مستدرك الحاكم : ج ٢ ص ٦٢٣.

(٢) و(٣) ديوان أبي طالب : ص ٣٢، السيرة النبوية : ج ١ ص ٣٥٣.

(٤) تاريخ ابن كثير : ج ٣ ص ٤٢.

(٥) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد : ج ١٤ ص ٧٤، ديوان أبي طالب : ص ١٧٣.

(٦) السيرة النبوية : ج ١ ص ٢٧٢ - ٢٨٠.

إن كلّ واحدة من هذه المقطوعات الشعرية التي تشكل قسماً صغيراً من قصائد منفصلة لأبي طالب، تشهد بايمانه بدين ابن اخيه «محمد» صلّى اللّه عليه وآله.

وخلاصة القول : أن بيتاً واحداً من هذه الأبيات كاف في اثبات ايمان صاحبها وقائلها، ولو أن أحداً قالها وهو خارج عن فلك الصراعات السياسية، وبعيد عن دوائر التعصبات والأغراض لحكم الجميع - بالاتفاق - باسلام قائلها وايمانه الخالص العميق.

ولكن لما كان «أبو طالب» هو قائلها، وكانت الأجهزة الدعائية في

الحكومات الاموية والعباسية تعمل بكلّ جهدها ضد آل «أبي طالـب» من هنا أبى فريق من الناس أن يثبتوا مِثل هذه الفضيلة الكبرى لأبي طالب عليه السلام.

هذا من جانب.

ومن جانب آخر فان أبا طالب والد «علي» الذي كانت سـلطات الخلفـاء تعمل ضده على الدوام، وتستغل كل الوسائل للحط من شأنه، كان إسـلام أبيه وإيمانه بالرسالة المحمدية يعد فضيلة بارزة من فضائله عليه السـلام في حين أن كفر آباء الخلفاء وشركهم يعد مثلبة توجب الحط من شـأنهم، وقيمتهم.

وعلى كل حال قام جماعة بتكفير أبي طالب رغـم كـل هـذه الأشـعار والأقوال، والمواقف الصادقة، بل لم يكتفوا بذلك، فادعوا نزول آيات مـن القرآن تدل على كفره، وشركه !!!

الطريق الثاني لاثبات إيمان أبي طالب

إن الطريق الثاني للبرهنة والتدليل على إيمان «أبي طالب» هو مواقفه من رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله وكيفية دفاعه وذبه عنه وحمايته له، وحدبه عليه صلّى اللّه عليه وآله وسلّم وما قام به من خدمات جليلـة فـي هـذا الطريق.

ان كل واحدة من هذه الخدمات تستطيع بمفردها ان تكون المرآة الصادقة

التي تعكس فكر «أبي طالب» وعقيدته وما كان يحمله بين جوانحـه مـن إيمان بالرسالة والرسول، واخلاص للّه تعالى.

لقد كان «أبو طالب» هو ذلكم الشخصية التي لم يرض لنفسه بان ينكسـر قلب ابن أخيه لتركه في مكة، واصطحبه معه الـى الشـام فـي الرحلـة التجارية التي سبق ذكرها، رغم الموانع الكثيرة، وفقدان الوسائل اللازمة، ورغم ما ترتب على اصطحابه معه من متاعب.

إن ايمانه بابن أخيه كان عميقاً إلى درجة أنه أخذه الى المصلّى واسـتسقى به، مقسماً به على اللّه تعالى أن يكشف العذاب عن قومه، ويرسل رحمته عليهم، فيستجيب اللّه دعاءه، وينزل عليهم غيثاً وافراً ممرعاً، بقيت قصته في ذاكرة التاريخ.

إنه ذلك الرجل الذي لم يفتأ عن الحفاظ على حياة رسول اللّه صـلّى اللّـه عليه وآله لحظة واحدة، فهو الذي تحمل في سبيله ثلاثة أعوام عجاف من الحصار الاقتصادي والاجتماعي الصعب، مؤثراً العيش في الشعب وفـي شغاف الجبال والوديان القاحلة على زعامة قريش، ورئاسة مكة الـى ان أعيته تلك المحن والمتاعب ففقد بذلك صحته، وانحـرف بـذلك مزاجـه، وتوفّي متأثراً بتلك المتاعب والمصاعب، والمشاق والمحـن بعـد نقـض

الصحيفة، وانتهاء الحصار، والعودة إلى المنازل بأيام معدودة !!

لقد كان إيمان «أبي طالب» برسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله قوياً وراسخاً الى درجة أنه رضي بأن يتعرض كل ابنائه لخطر القتل والاغتيال ليبقى «محمد» ولا يمسه من أعدائه أي سوء، فكان يضجع ولده عليأ في موضعه، حتى إذا أرادوا إغتياله لا يصيبه شيء وهذا يعني أنه كان يقيه بنفسه وبأولاده.

وفوق هذا كلّه استعد في يومٍ من الأيام لأن يقتل كل زعماء قريش وأسيادها انتقاماً لمحمد، وكان من الطبيعي أن يقتل في هذه العملية بنو هاشم كلهم أيضاً(١).

---

(١) راجع الصفحة ٥٢٢ من هذا الكتاب.

وصية أبي طالب عند وفاته

وعند وفاته قال لأولاده :

«أُوصيكم بمحمد خيراً فانّه الأمين في قُريش وهو الجامع لكلّ ما أُوصيكم

به، وقد جاء بأمرٍ قبله الجنان، وانكره اللسان مخافة الشنآن، وأيم اللّـه لكأنّي انظر الى صعاليك العرب، وأهل البر في الاطراف، والمستضعفيـن من الناس، قد أجابوا دعوته، وصدقوا كلمته، وعظّموا أمره فخـاض بهـم غمرات الموت، فصارت رؤساء قريش وصناديدها أذنباً، ودورها خراباً، وضعفاؤها أرباباً، واذا أعظمهم عليه أحوجهم اليه، وأبعدهم منه أحظاهـم عنده..».

ثم ختم وصيته هذه بقوله :

يا معشر قريش كونوا له ولاةً، ولحزبه حماةً، واللّه لا يسلك أحـد منكـم سبيله الا رشد، ولا يأخذ أحد بهديه الا سعد(١).

نحن لا نشك في أن «أبا طالب» كان صادقاً في أُمنيته هـذه لأن خدماتـه الكبرى وتضحياته المتواصلة خلال عشر سنوات من بداية عهد الرسـالة شاهدة على صدق مقاله، كما كان صادقاً في الوعد الذي قطعه على نفسـه لابن أخيه (محمد) في مبدأ البعثة عند ما جمع رسول اللّه صلّى اللّه عليـه وآله أعمامه وعشيرته الأقربين ودعاهم الى الاسلام فقال له أبو طالب :

«أُخرج يا ابن أخي فانّك الرفيع كعباً، والمنيع حزباً، والأعلى أباً.

واللّهِ لا يسلِقُك لسان الا سلقته ألسن حِداد، واجتذَبته سيوفُ حداد.

واللّهِ لتذلّن لك العرب ذل البهم لحاضِنِها»(٢).

* * *

---

(١) السيرة الحلبية : ج ١ ص ٣٥١ و٣٥٢.

(٢) الطرائف تأليف السيد ابن طاووس : ص ٨٥ نقلاً عن كتاب غاية السؤول في مناقب آل الرسول تأليف ابراهيم بن علي الدينوري.

آخر الطرق لاثبات ايمان أبي طالب

ويحسن بنا أخيراً ان نسأل عن أبي طالب وعن ايمانه واخلاصه، اقاربـه غير المغرضين لأن «أهل البيت ادرى بما في البيت».

١ - لما مات أبو طالب جاء علي عليه السلام الى رسول اللّه صلّى اللّـه عليه وآله فآذنه بموته، فتوجع توجعاً عظيماً، وحزن حزناً شديداً، ثم قال له امض فتولّ غسله فاذا رفعته على سريره فاعلمني، ففعل فاعترضه رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله وهو محمـول علـى رؤوس الرجـال : قـال : «وصلتك رحم يا عم، وجزيت خيراً فلقد ربيت وكفلت صغيراً، ونصـرت وآزرت كبيراً».

ثم تبعه الى حضرته، فوقف عليه فقال :

«أما واللّه لاستغفرن لك، ولاشفعن فيك شفاعةً يعجب لها الثقلان»(١).

٢ - روي ان علي بن الحسين عليهما السلام سئِل عن ايمان أبي طالـب. فقال :

«واعجباً! ان اللّه تعالى نهى رسوله ان يقر مسلمة على نكاح كافر، وقـد كانت فاطمة بنت اسد من السابقات إلى الاسلام، ولم تزل تحت أبي طالب حتّى مات»(٢).

٣ - روي عن علي بن محمد الباقر عليهما السلام أنه قال :

«لو وضِع إيمان أبي طالِب في كفّة ميزان، وإيمان هذا الخلق فـي الكفّـة الأُخرى لرجح إيمانه».

ثم قال :

«ألم تعلموا أن أمير المؤمنين علياً عليه السلام كان يأمر أن يحج عن عبد اللّه وأبيه»(٣).

٤ - قال الامام جعفر بن محمد الصادق عليهما السلام :

---

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد : ج ١٤ ص ٧٦.

(٢) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد : ج ١٤ ص ٦٩.

(٣) المصدر السابق : ص ٦٨.

«إن مثل أبي طالِب مثلُ أصحاب الكهف أسروا الإيمان، وأظهروا الشرك فآتاهم اللّه أجرهم مرتين، وأن أبا طالِب أسر الإيمان، وأظهر الشرك، فآتاه اللّه أجره مرتين»(١).

رأي علماء الشيعة في أبي طالب

ولقد اتفق علماء الامامية والزيدية تبعاً لأهل بيت النبي صلّى اللّه عليه وآله على : أن «أبا طالب» كان من أبرز المؤمنين برسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله ولم يخرج من الدنيا إلا بقلب يفيض إيماناً بالاسلام، وإخلاصـاً للّـه تعالى، وحباً للمسلمين، وقد الّفت في هذا المجال كتب ورسائل، ودراسات عديدة، يمكن الوقوف عليها لمن اراد ولمزيد التوسع في هذا المجال يراجع المجلد ٧ ص ٤٠٢ - ٤٠٤ من موسوعة الغدير للعلامة الأميـني طبعـة النجف، أو ج ٧ ص ٣٣٠ - ٤٠٩ طبعة لبنان.

نظرة إلى حديث «الضحضاح»

واستكمالاً لهذا الحديث ينبغي أن نلقي نظرة إلى رواية تشكك في ايمان أبي طالب فقد روى بعض الكتّاب مثل البخاري(٢)، ومسلم عـن رواة نظيـر سفيان بن سعيد الثوري، عبد الملك بن عمير، عبد العزيـز بـن محمـد الدراوردي حديثاً نسبوه إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله انه قال عـن أبي طالب رحمه اللّه :

«وجدتُه في غمرات من النّار فأخرجتُه إلى ضحضاحٍ».

«لعلّه تنفعه شفاعتي يوم القيامة فيجعلُ في ضحضاحٍ من النّار يبلغُ كعبيه، يغلي منه دماغُه»(٣).

إن هذه الرواية وان كانت تكذبها عشرات الأحاديث والروايات الاسلامية،

---

(١) اصول الكافي : ج ١ ص ٤٤٨.

(٢) صحيح البخاري : ج ١ ص ٣٣ و٣٤ من ابواب المناقب.

(٣) صحيح المسلم : كتاب الايمان.

والدلائل القاطعة الساطعة، وتثبت بطلانها وتفاهتها، ولكننا بهدف الوصول إلى مزيد من التوضيح نعمد إلى دراسة أمرين يرتبطين بهذا الحديث.

١ - ضعف أسناد هذه الرواية

إن رواة هذه الرواية - كما اسلفنا - هم عبارة عن سفيان بن سعيد الثوري وعبد الملك بن عمير وعبد العزيز بن محمد الدراوردي الـذين سـندرس أحوالهم واحداً واحداً - في ضوء أقوال علماء الرجال المعترف بهم عنـد اهل السنة - عنهم :

الف : سفيان بن سعيد الثوري

قال أبو عبد اللّه محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي - وهـو مـن علمـاء الرجال عند اهل السنة - في سفيان الثوري : كان يدلّس عن الضعفاء(١).

إن هذا الكلام شاهد قوي على وجود التدليس عند الثوري، وعلى روايتـه عن الضعفاء أو المجهولين، وهو وصف يسقطه عن درجة الاعتبار.

باء : عبد الملك بن عمير

قال عنه الذهبي المذكور : طال عمره وساء حفظُه قال أبو حـاتم : ليـس بحافظ، تغير حفظه، وقال أحمد : ضعيف يغلط، وقال ابن معين : مخلـط وقال ابن خراش : كان شعبة لا يرضاه، وذكر الكوسج عـن احمـد بـن حنبل : انه ضعيف جداً(٢)

فمن مجموع هذه العبارات نعرف ان عبد الملك كان يتصف بصفات عديدة هي أنه :

١ - سيئ الحفظ.

٢ - ضعيف.

٣ - كثير الغلط.

---

(١) ميزان الاعتدال : ج ٢ ص ١٦٩.

(٢) المصدر السابق ج ٢ ص ٦٦٠.

٤ - مخلط.

ومن الواضح ان كل واحدة من الصفات والحالات المـذكورة كافيـة لأن تبطل الاحاديث التي يرويها عبد الملك بن عمير، والحال انه قد اجتمعـت جميع نقاط الضعف هذه في هذا الرجل.

جيم : عبد العزيز بن محمد الدراوردي

ولقد وصفَه علماء الرجال عند اهل السنة بالنسيان، وقلة الحفظ فلا يمكـن الاستناد إلى مروياته.

فقد قال أحمد بن حنبل عنه : إذا حدث من حفظه جاء بأباطيل(١).

وقال أبو حاتم عنه : لا يحتج به(٢).

وقال أبو زرعة أيضاً : سيئ الحفظ(٣). ومن مجموعـة هـذه العبـارات يتضح بجلاء ان الرواة الاصليين لحديث الضحضاح ضعفاء فـي غايـة الضعف، الى درجة لا يمكن الاعتماد على مروياتهم.

٢ - نص حديث الضحضاح يخالف الكتاب والسنة

لقد نُسِب إلى النبي صلّى اللّه عليه وآله في هذه الرواية أنه أخرج أبا طالب

من نار جهنم إلى ضحضاح وبهذا خفّف عنه العذاب، أو أنه صلّى اللّه عليه وآله تمنى أن يشفع له، فيخفّف اللّه عنه العذاب، على حين نفى القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة تخفيف العذاب عن الكفار كما ونفيا شفاعة احد في حقهم.

وعلى هذا الاساس فلو كان ابو طالب كافراً، لم يجز للنبي صلّى اللّه عليه وآله ان يخفف عنه العذاب او يتمنى له الشفاعة في يوم الجزاء.

وبهذا يظهر بطلان محتوى حديث الضحضاح.

واليك فيما يأتي ادلة ما قلناه من الكتاب والسنة :

---

(١) المصدر السابق ص ٦٣٤.

(٢) و(٣) المصدر السابق.

الف : القرآن الكريم

يقول القرآن الكريم في هذا الصدد :

(والّذين كفروا لهم نار جهنم لا يقضى عليهم فيموتُوا ولا يخفّفُ عنهم مِـن عذابِها، كذلِك نجزي كُل كفُور)(١).

ب : السنة النبوية

ان السنة النبوية الطاهرة تنفي أيضاً الشفاعة للكفار، ونـذكر مـن بـاب النموذج بعض تلك الأحاديث :

١ - روى أبو ذر الغفاري عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله انه قال :

«أُعطيت الشفاعة وهي نائلة من أُمتي من لا يشرك باللّه شيئاً»(٢).

٢ - روى أبو هريرة عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله انه قال :

«وشفاعتي لمن شهد أن لا اله الا اللّه مخلصاً، وأن محمداً رسـول اللّـه يصدق لسانُه قلبه، وقلبه لسانَه»(٣).

إن الآيات والروايات المذكورة تثبـت بوضـوح بطـلان نـص حديـث الضحضاح عند من يقول بأن أبا طالب مات كافراً.

ونتيجة البحث أنه تبين مما ذكر ان حديث الضحضاح لا أساس له من الصحة لا من جهة السند والطريق، ولا من جهة المتن والنص، ولا يمكن الاستدلال به.

وبهذا ينهار أقوى حصن يتمسك به البعض للخدشة في ايمان أبي طالـب الثابت المسلّم.

---

(١) فاطر : ٣٦.

(٢) الترغيب والترهيب : ج ٤ ص ٤٣٣.

(٣) المصدر السابق : ص ٤٣٧.

٢٢ ـ المعراج

المعراج في نظر القرآن والسنة والتاريخ

كان الليل يخيم على الافق، ويسود الظلام على كان مكان.

فقد حان الأوان لان ترقد جميع الاحياء في مساكنها، وتستريح في جحورها وأعشاشها، وتغمض الأجفان لبعض الساعات عن مظاهر الطبيعة، لتستعيد نشاطها من أجل العمل في يوم جديدٍ حافلٍ بالنشاط والحركة والسعي.

فذلك قانون الطبيعة في كل ليلٍ ونهارٍ.

ولم يكن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله بمستثـنى عـن هـذا النـاموس الطبيعي. فهو صلّى اللّه عليه وآله مضى ليستريح بعد أن صـلّى صـلاة العتمة أيضاً.

ولكنه فجأةً سمع صوتاً مألوفاً مأنوساً له، وكان ذلك هو صوت أمين الوحي «جبرئيل» وهو يخبره بأن أمامه الليلة سفراً بعيداً ورحلة طويلـة، وانـه سيرافقه في هذه الرحلة الى مختلف نقاط الكون، وسيسافر على متن دابـة فضائية تدعى «البراق».

لقد بدأ رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله رحلته الفضائية العظيمة من بيـت اخت علي بن أبي طالب(١) «أم هاني»، وتوجه على متن تلك الدابة إلـى «بيت

---

(١) مجمع البيان : ج ٦ ص ٣٩٥ و٣٩٦، السيرة النبويّة : ج ١ ص ٣٩٦ - ٤٠٢.

المقدس» في الأردن وفلسطين والذي يسمى «المسجد الأقصـى» أيضـاً، وهبط في تلك النقطة بعد مدة قصيرة جداً، وزار مواضع عديدة من ذلـك المسجد، وتفقّد «بيت لحم» مسقط رأس «السيد المسيح» ومنازل الأنبيـاء وآثارهم ومحاريبهم، وصلّى عند كل محراب من بعض تلـك المحاريـب ركعتين.

ثم بدأ بعد ذلك القسم الثاني من رحلته، حيث عرج من ذلك إلى السماوات العلى، وشاهد النجوم والكواكب، واطّلع على نظام العالم العلوي، وتحـدث مع ارواح الأنبياء، والملائكة السماويين، واطّلع علـى مراكـز الرحمـة والعذاب (الجنة والنار)(١) ورأى درجات أهل الجنة، وأشباح أهل النـار عن كثب، وبالتالي تعرف على أسرار الوجود، ورموز الطبيعـة، ووقـف على سعة الكون، وآثار القدرة الالهية المطلقة، ثم واصل رحلته حتى بلـغ إلى سدرة المنتهى(٢)، فوجدها مسربلة بالعظمة المتناهية والجلال العظيـم وعندها انتهى برنامج رحلته صلّى اللّه عليه وآله، فامر بأن يعود من حيث

أتى، فعاد صلّى اللّه عليه وآله ومر في عودته على بيت المقدس ثانية، ثم توجه منه الى «مكة»، ومر خلال الطريق على قافلة تجارية لقريش وقد ضلّ بعير لهم في البيداء وكانوا يبحثون عنه، ثم وجد فـي رحلهـم قعبـاً مملوءاً من الماء فشرب منه وصب بقيته على الأرض أو غطاه كما كـان بناء على رواية. وترجل عن مركبته الفضائية العجيبة في بيت «أُم هاني» قبيل طلوع الفجر، وأخبرها بالخبر قبل أي أحد، ثم كشف عن هذا الحادث في أندية قريش صباح نفس تلك الليلة.

فاستبعد السامعون قصة المعراج والحركة السريعة هذه، واعتـبروه أمـراً محالاً وانكرته، وفشا هذا الخبر في جميع الأوساط وغضب بسببه أشراف قريش وساداتهم اكثر من غيرهم.

وكعادتها بادرت قريش إلى تكذيب هذه القصة وقالوا : هذا واللّـه الامـر البين

---

(١) مجمع البيان : سورة الاسراء ج ٦ ص ٣٩٥.

(٢) لتوضيح معنى سدرة المنتهى راجع كتب التفسير.

(العجيب المنكر) واللّه إن العير لتطّرد شهراً من مكة الى الشـام مـدبرة، وشهراً مقبلة، أفيذهب ذلك «محمد» في ليلة واحدة ؟

وقالوا : إن صدقت فصف لنا بيت المقدس، فإن فينا من شاهده.

فلم يصف لهم رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله بيت المقدس فحسب بل اخبرهم بكل ما مر به وفعله ورآه في طريق عودته من بيت المقدس إلى «مكّة» وقال : وآية ذلك أنّي مررت على بعير بني فلان بوادي كذا وكذا، وقد ضلّ لهم بعير وقد هموا في طلبه، وشربت من ماء في آنية لهم مغطاة بغطاء وثم غطّيت عليها كما كان، ثم مررتُ على بعير فلان وقد نفّرت لهم ناقة وانكسرت يدها.

فقالت قريش : أخبرنا عن عير قريش.

فقال صلّى اللّه عليه وآله : إنّها الآن في التنعيم (وهو مبدأ الحرم) يتقدمها جمل أورق (أبيض مائل الى السواد) عليه غرارتان وستدخل الآن مكة.

فغضبت قريش من هذه الأخبار القاطعة وقالت : سنعلمن الآن صِدقه أو كِذبه.

ثم لم تمض لحظات إلا وطلعت العير عليهم، وحدثهم أبو سفيان بكل ما أخبرهم به رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله من ضياع بعيرٍ لهم في الطريق وهمهم في طلبه، وأنهم وضعوا ماء مملوءاً فغطوه ولما رجعوا وجدوه مغطى كما غطوه ولكن لم يجدوا فيه ماء.

هذه هي خلاصة ما جاء في كتب التفسير، والتـاريخ، والحـديث حـول المعراج.

وإذا أراد القارئ الكريم أن يقف على تفاصيل أكثر في هذا المجـال فمـا عليه إلا أن يراجع بحار الأنوار باب «المعراج»(١).

هل للمعراج جذور قرآنية ؟

لقد جاء ذكر «المعراج» النبوي وسيره العجيب صلّى اللّه عليه وآله في

---

(١) بحار الأنوار : ج ١٨ ص ٢٨٣ - ٤١٠.

العالم العلوي، والفضاء غير المتناهي في سورتين من القرآن الكريم بشكل واضح وصريح كما واشير اليها في سور أُخرى أيضاً.

ونحن نكتفي هنا باستعراض الآيات التي ذكرت هـذه القضيـة بصـورةٍ واضحةٍ، ونقف عند بعض النقاط الجديرة بالدراسة فيها :

يقول اللّه تعالى في سورة الاسراء :

(سبحان الذي أسرى بِعبدِهِ ليلاً مِن المسجدِ الحرام إلى المسجِـدِ الأقصـى الّذي باركنا حولَه لِنُريه مِن آياتِنا، إنّه هو السميع البصير)(١).

ويستفاد من ظاهر هذه الآية أُمور :

١ - لكي نعلم بأن النبي صلّى اللّه عليه وآله لم يطو تلك المسافات، ولـم يقم برحلته إلى تلك العوالم بقوة بشرية، بل تسنى له كل ذلك بقوة غيبيـة، فبها استطاع أن يطوي تلك المسافات البعيدة في زمن قصير جداً بدأ اللّـه تعالى حديثه عن الاسراء بقوله : «سبحان الّذي» وهو اشارة الى تنزيه اللّه عن كل نقص وعيب.

ولم يكتف بذلك بل وصف نفسه بوضوح بأنه هو تعالى سبب هذه الرحلـة والمسير فيها اذ قال : «أسرى» أي إن اللّه تعالى هو الذي سرى برسـوله صلّى اللّه عليه وآله، وأخذه إلى تلك الرحلة.

وهذه العناية لأجل أن لا يتصور الناس بأن هذه الرحلة تحققت بالوسـائل العادية، وحسب القوانين الطبيعية ليتسنّى لهم إنكارها، إنما تحققت بقـدرة اللّه وعنايته الربوبية الخاصة.

٢ - إن هذه الرحلة تحققت برمتها خلال الليل، ويستفاد هـذا المطلـب -

علاوة على كلمة ليلاً - من كلمة «أسرى» أيضاً لأن العـرب كانـت تستعمل اللفظة المذكورة في السير ليلاً.

٣ - مع أن هذه الرحلة بدأت من بيت «أم هاني» ابنة أبي طالـب، فـإن الآية صرحت بأنها تمت من المسجد الحرام، ولعل هذا لأن العرب كانـت تعتبر

---

(١) الاسراء : ١.

كل مكة حرماً إلهياً، ومن هنا كان كل مكان من مكة يتمتع عندهم بحكـم الحرم والمسجد الحرام، فيكون المراد بالمسجد الحرام هنا مكّـة، ومكّـة والحرم كلها مسجد، فصح أن يقول : «من المسجد الحرام».

وتذهب بعض الروايات إلى أن المعراج كان من نفس المسجد الحرام.

ثم إن هذه الآية وان كانت تصرح بأن المعراج بدأ من «المسجد الحـرام» وانتهى ب: «المسجد الأقصى» إلا أن ذلك لا ينافي أن يكون للنبي صـلّى اللّه عليه وآله رحلة أُخرى إلى العالم العلوي لأن هذه الآية تبين فقط قسماً من هذه الرحلة، وأما القسم الآخر من برنامج هذه الرحلة فتتعرض لذكره آيات في مطلع سورة : «النجم».

٤ - إن النبي صلّى اللّه عليه وآله عرج بجسمه وروحه معاً، لا بـالروح فقط. ويدل على ذلك قوله تعالى «بعبده» الذي يستعمل في «الجسم والروح معاً» ولو كان المعراج بالروح فقط لزم أن يقول: «بروحه».

٥ - إن الغرض من هذا السير العظيم وهذه الرحلة العجيبة هـو إيقـاف النبي صلّى اللّه عليه وآله على مراتب الوجود، وإطلاعـه علـى الكـون العظيم، وهذا ما سنشرحه فيما بعد.

وأما السورة الأُخرى التي تعرض لبيان حادثة المعراج بوضوح وصراحة هي سورة : «النجم».

والآيات التي سندرجها هنا من هذه السورة نزلت على رسول اللّه صـلّى اللّه عليه وآله عندما قال لقريش : «رأيت جبرئيلَ أول ما أُوحي إلي على صورته التي خُلِق عليها» جادلته قريش في ذلك، فنزلتِ الآيـات التاليـة تجيب على اعتراضهم :

(أفَتُمارونَه على ما يرى. ولقد رآه نَزلَةً أُخرى. عِند سِدرةِ المنتهى. عِندها جنةُ المأوى إذ يغشى السدرةَ ما يغشى. ما زاغ البصر وما طغى. لقد رأى مِن آيات ربهِ الكُبرى)(١).

---

(١) النجم : ١٢ - ١٨.

أحاديث المعراج :

روى المفسرون والمحدثون أخباراً وروايات كثيرة حول معـراج النبـي صلّى اللّه عليه وآله وما شاهده في هذه الرحلة العظيمة، ليسـت برمتهـا صحيحة مسلمة مقطوعاً بها.

ولقد قسم المفسر الشيعي الكبير المرحوم «العلامة الطبرسي» هذه الاخبار إلى أصناف أربعة اذ قال:

وتنقسم جملتها إلى أربعة اوجه :

أحدها : ما يقطع على صحته لتواتر الأخبار به، واحاطة العلم بصحته مثل أصل المعراج.

وثانيها : ما ورد في ذلك ما تجوزه العقول ولا تأباه الاصول مثل طوافـه في السماء ورؤيته أرواح الأنبياء وتحدثه معهم ورؤيته للجنة والنار، فنحن نجوزه ثم نقطع على أن ذلك كان في يقظته، دون منامه.

وثالثها : ما يكون ظاهرة مخالفاً لبعض الأُصول، إلا أنه يمكن تأويلها على

وجهٍ يوافق المعقول فالأولى أن نؤوله على ما يطابق الحق والـدليل. مثل أنّه رأى أهل الجنة وأهل النار وتحدث معهما الذي يجـب أن يـؤول فيحمل على انه : رأى أشباحهم وصورهم وصفاتهم.

ورابعها : ما لا يصح ظاهره ولا يمكن تأويله، وهي ما الُصِق وأُلحقَ بهذه الحادثة من الأساطير والخرافات، مثل ما روي من أنه صلّى اللّـه عليـه وآله كلّم اللّه سبحانه جهرةً ورآه وقعد معه على سريره أو سمع صـرير قلمه، ونحو ذلك مما يوجب ظاهره التشبيه والتجسيم واللّه سبحانه يتقـدس عن ذلك كلّه، فالأولى أن لا نقبله(١).

* * *

---

(١) مجمع البيان : ج ٦ ص ٣٩٥.

متى وقعت هذه الحادثة ؟

مع ان أهمية هذه الحادثة العجيبة كانت تستوجـب أن تكـون مضبوطـة التفاصيل من جميع الجهات، إلا أنها تعرضت للاختلاف - مع ذلك - من بعض الجهات ومنها تحديد تاريخ وقوعها.

فقد ادعى كاتبا السيرة المعروفان : «إبن اسحاق» و«ابن هشام» أنها وقعت

في السنة العاشرة من البعثة الشريفة.

وذهب المؤرخ الكبير «البيهقي» إلى أنها وقعت في السنة الثانية عشرة من البعثة.

وذهب آخرون إلى أنها وقعت في أوائل البعثة، بينما قال فريق رابع : أنها وقعت في أواسطها.

وربما يقال في الجمع بين هذه الأقوال : أنه كان لرسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله معارج متعددة.

ولكنّنا نعتقد أن المعراج الذي فُرضت فيه الصلاة وقعت بعد وفاة أبي طالب عليه السلام في السنة العاشرة قطعاً.

لأن من مسلّمات الحديث والتاريخ أن اللّه تعالى أمر نبيه صلّى اللّه عليه وآله في ليلة المعراج أن تصلّي أُمة رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله كلّ يوم وليلة خمس صلوات.

كما أنه يستفاد من ثنايا التاريخ أيضاً أن الصلاة لم تُفرض مادام أبو طالب عليه السلام على قيد الحياة بل فُرضت بعد وفاته، لأنّه حضر عنده - ساعة وفاته - سراة قُريش وأسيادها، وطلبوا منه أن يبت لهم في أمر ابن أخيه «محمد» ويمنعه من فعله، فيعطونه - في قبال ذلك - ما يريد فقال

لهم رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله في ذلك المجلس : نعم كلمة واحدة تعطونيها : «تقولون لا إله إلا اللّه وتخلعون ما تعبدون من دونه»(١).

---

(١) السيرة النبوية : ج ١ ص ٤١٧.

لقد طلب منهم رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله هذا الأمر ولم يطلب منهم شيئاً آخر كالصلاة وغيرها من الفُروع أبداً، وهذا هو بنفسه يدلّ على أنه لم تجب الصلاة حتى ذلك اليوم، وإلا كان الإيمان المجرد عن العمل، والصلاة مفروضة، لا فائدة فيه.

وأما أنه لم يذكر شيئاً عن نبوته ورسالته فلأن الإعتراف بوحدانية اللّه بأمره وطلبه صلّى اللّه عليه وآله اعتراف ضِمني برسالته ونبوته، وفي الحقيقة ان التلفظ بهذه العبارات بأمره يتضمن شهادتين واقرارين : الإقرار باللّهِ الواحد، والإقرار بنبوة رسول الاسلام.

هذا مضافاً إلى أن كُتّاب السيرة ذكروا كيفية إسلام جماعة مثل «الطفيل بن عمرو الدوسي» الذي أسلم قبل الهجرة(١) بأعوام اكتفى النبي صلّى اللّه عليه وآله بالشهادتين، ولم يجر أي حديث عن الصلاة ابداً.

ان هذه الامثلة تكشف عن أن هذه الحادثة (المعراج) التي فُرضت فيها

الصلاة وقعت قبل الهجرة بسنوات.

والذين تصوروا أن المعراج وقع قبل السنة العاشرة مخطئون خطأ كبـيراً لأن النبي صلّى اللّه عليه وآله كان محصوراً في شعب أبي طالـب منـذ السنة الثامنة وحتى السنة العاشرة، ولم يكن وضع المسلمين ليسمح بفرض تكليف زائد (مثل الصلاة) عليهم.

وأما سنوات ما قبل الحصار فعلاوة على ضغوط قريش علـى المسلميـن والتي كانت هي بنفسها مانعاً من فرض الصلاة علـى المسلميـن، كـان المسلمون قلةً معدودين، ولم يكن نور الايمـان، وأُصـول الاسـلام، قـد ترسخت في قلوب ذلك العدد القليل بشكل قوي بعد، ولـذلك يكـون مـن المستبعد أن يكلفوا بأمر زائدٍ مثل الصلاة في مثل ذلك الظرف.

وأما ما ورد في بعض الأخبار والروايات من ان الامام علياً عليه السلام

---

(١) السيرة النبوية : ج ١ ص ٣٨٣.

صلى مع رسول اللّه قبل البعثة بثلاث سنوات، واستمر على ذلـك بعدهـا أيضاً فليس المراد منها الصلوات المحدودة المؤقتـة بوقـت، المشروطـة بشروط خاصة، بل كانت تلك الصلوات عبارة عن عبـادة خاصـة غيـر

محدودة(١)، أو كان المراد منها الصلوات المندوبة والعبـادات غيـر الواجبة.

هل كان المعراج جسمانياً ؟

لقد وقع النقاش والكلام في كيفية معراج النبي صلّى اللّه عليه وآله وأنـه كان روحانياً أو جسمانياً وروحانياً معاً، وقيل في ذلك كلام كثير.

ومع أن القرآن الكريم والأحاديث تشهد بجلاء لا غموض فيه بأن معراجه صلّى اللّه عليه وآله كان جسمانياً(٢)، فقـد أوردت فـي المقـام بعـض الإشكالات والاعتراضات التي منعت البعض عن قبـول هـذه الحقيقـة، وبالتالي دفعتهم الى ارتكاب التأويل، والزعم بأن معراج النبي صلّى اللّـه عليه وآله كان روحانياً، أي بالروح لا بالجسم.

لقد قال هؤلاء : ان روح النبي صلّى اللّه عليه وآله هي التي طافـت فـي تلك العوالم ثم عادت إلى جسد النبي صلّى اللّه عليه وآله مرة أُخرى !!

وذهب جماعة إلى أبعد من ذلك إذ ادعوا بـان جميـع هـذه المشاهـدات والقضايا تمت لرسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله في عالم الرؤيا، فكـل مـا رآه النبي صلّى اللّه عليه وآله أو فعله من الطواف واللقاء والصلاة كانـت رؤيا ورؤيا الأنبياء صادقة !!

على أن أقوال الفريق الأخير من البعد عن الواقع بحيث لا يمكن ذكره في عداد الأقوال والنظريات أبداً، لأن قريشاً بعد أن سمعت من رسول اللّه صلّى

---

(١) للمزيد من التحقيق في تاريخ وجوب الوضوء والصلاة والاذان يراجع الكافي : ج ٣ ص ٤٨٢ - ٤٨٩.

(٢) لقد نقل الفقيه الجليل العلامة الشيعيّ المرحوم الطبرسي في تفسير مجمع البيان إجماع علماء الشيعة على جسمانية المعراج فراجع : ج ٦ ص ٣٩٥.

اللّه عليه وآله ادعاءه بانه سار كل تلك المسافة الطويلة البعيـدة، وطـاف على كل تلك الاماكن المتباعدة العديدة في ليلة واحدة انزعجت بشدة وهبت لتكذيبه حقيقة، الى درجة أن خبر المعراج أصبح حديث الساعة في نوادي قريش واوساطها آنذاك.

ولو كان كل ذلك تحقق للنبي صلّى اللّه عليه وآله في المنام والرؤيـا لمـا كان لتكذيب قريش وانزعاجها واستنكارها معنى، اذ لا موجب للنزاع لـو كان صلّى اللّه عليه وآله يقول : إنّي فعلت تلك الامور، ورأيت كل تلـك المشاهد في الرؤيا والمنام، اذ هو على كل حال رؤيا، وكل شيء - حتـى الأُمور المحالة او المستبعدة جداً - ممكن في عالم الرؤيا.

ومن هنا لا قيمة للقول الأخير أصلاً فلا تستحق المتابعة أصلاً.

ولكن مع الأسف استحسن بعض العلماء المصريين (مثل فريد وجدي) هذا الرأي وسعى في تقويته وتبريره، ونحن نحبذ ان نتركه، وان لا نناقش فيه(١).

ما هو المراد من المعراج الروحاني ؟

لقد عمد فريق ممن عجز عن دفع وحلّ بعض الاعتراضات والاشـكالات الواردة على المعراج الجسماني، إلى تأويل الآيات والأحاديـث، واعتبـر المعراج النبوي معراجاً روحانياً، لا غير.

والمقصود من المعراج الروحاني هو التدبر في مخلوقات اللّه ومصنوعاته، ومشاهدة جلاله وجماله والاستغراق في ذكر الحق، والتفكر فيه، وبالتالـي التخلص من القيود والاغلال المادية، والعلائق الدنيويـة، والعبـور مـن المراتب الامكانية في المراحل الباطنية والقلبية التي يحصل بعد طيها نوع من القرب الخاص الذي لا يمكن وصفه.

فاذا كان المراد من (المعراج الروحاني) هو التفكر في عظمة الحق وسعة

---

(١) دائرة معارف القرن العشرين : ج ٦ ص ٣٢٩ مادة عرج.

الخلق و.. و.. فلا شك أن هذا ليس من مختصات رسول الاسلام صـلّى اللّه عليه وآله بل كان أكثر الأنبياء، وكثير من الأولياء من ذوي البصائـر القوية الطاهرة يمتلكون هذه المرتبة، على حين أن القرآن الكـريم يعتبـر (المعراج) من خصائص رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله ويذكره على انه نوع من الامتياز الخاص به صلّى اللّه عليه وآله.

هذا مضافاً الى ان مثل هذه الحالة (اعني التفكـر فـي عظمـة الخالـق والاستغراق في التوجه الى الحق) كانت تتكرر لرسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله في كل ليلة(١)، والحال ان (المعراج) الذي هو محط الكلام قد وقـع في ليلةٍ معينة.

إن ما دفع بهذا الفريق إلى اتخاذ مثل هذا الموقف من (المعراج)، وآل بهم اختيار هذا الرأي هو فرضية الفلكي اليوناني المعروف «بطليموس» التـي كانت سائدة في الأوساط العلمية في الشرق والغـرب طيلـة ألفـي سـنة بالكامل، والتي أُلّف حولها مئات الكتب، وكانت تعـد حـتى حيـن مـن المسلّمات في مجال العلوم الطبيعية وهي على نحو الاجمال كالتالي :

إن الاجسام في هذا العالم على نوعين : أجسام عنصرية، واجسام فلكية.

والجسم العنصري هي العناصر الأربعة المعروفة : «المـاء، والـتراب،

والهواء، والنار».

وأول كرة تبدو لنا هي كرة التراب وهي مركز العالم، ثم تليها كرة المـاء ثم كرة الهواء، وتأتي بعد كل هذه الثلاثة كرة النار، وكل من هذه الكرات محيطة بالأُخرى، وهنا (اي وعند كرة النار) تنتهي الكرات، وتبدأ الاجسام الفلكية.

والمقصود من الأجسام الفلكية هي الافلاك التسعة التي تقع الواحدة فـوق الاخرى وتحيط الواحدة بالأُخرى على هيئة قشور البصل، وهي متصلـة بعضها ببعض من دون فاصلة بينها وهي غير قابلة للاختراق والالتئام (اي الشق

---

(١) راجع وسائل الشيعة : ج ٧ كتاب صوم الوصال، ص ٣٨٨ قال صلّى اللّه عليه وآله : «إني لست كأحدكم، أني اظل عند ربّي فيطعمني ويسقيني».

والالتحام) والفصل والوصل ولا يستطيع أي شيء من اختراقها والتحـرك فيها بصورة مستقيمة لأن ذلك يستلزم انفصام اجزاء الفلك.

من هنا يكون المعراج الجسماني مستلزماً لأن ينطلق النبي صلّى اللّه عليه وآله من مراكز العالم ويصعد بصورة مستقيمة إلى الأعلى عابراً الكـرات

العنصرية الأربع، ومخترقاً الأفلاك التسعة الواحد تلو الآخـر، بينمـا يستحيل خرق هذه الأفلاك ثم التحامها حسب نظرية بطليموس وفرضـيته الفلكية.

وعلى هذا لا مناص من أن نعتقد بأن المعـراج النبـوي كـان معراجـاً روحانياً، أي ان روحه صلّى اللّه عليه وآله هي التي عرجت حتى لا يمنع أي جسم من عبورها وسيرها وصعودها الى النقطـة المطلوبـة والغايـة المرسومة.

الجواب :

ان هذا الكلام كان مقبولاً وذا قيمة عندما كانت هيئة بطليموس وفرضـيته الفلكية لم تكن بعد قد فقدت قيمتها في الاوساط العلمية وكان هناك من يعتقد بها من صميم فؤاده.

ففي مثل تلك البيئة كان من الممكن التلاعب بالحقائق القرآنيـة، وتأويـل صريح القرآن ونصوص الروايات.

أما الآن فقد فقدت أمثال هذه الفرضيات قيمتها، وظهر للجميع بطلانها، ولم يعد أحد يتحدث عنها، إلا من باب ما يسمى بتاريخ العلوم.

فاليوم وبالنظر الى كل هذه الأجهزة الفلكيـة والآلات الفضائيـة الدقيقـة،

والتلسكوبات العملاقة، وهبوط المركبات الفضائية المتعددة على سطح القمر والمريخ، وعملية القيادة الفضائية علىسطح القمر لم يعد مجال لهذه الفرضيات الخيالية.

فاليوم لا يعتبر العلماء المحقّقون فكرة العناصر الأربعة والفلـك المتّصـل كقشرة البصل إلا جزءاً من الاساطير.

فان العلماء لم يستطيعوا بالآلات العلمية وأجهزة الرصد الدقيقة والعيون

المسلحة من رؤية تلك العوالم التي حاكها وصنعها بطليموس بقوة خيالـه، من هنا فان أية نظرية تقوم على هذا الاساس غير الصحيح تكون عاريـة عن أية قيمة، واعتبار.

نَغمة شاذة :

ولقد طلع مؤسس الفرقة الشيخية(١) «الشيخ احمد الاحسائي» في «الرسالة القطيفية» بنغمة شاذة في هذا الصعيد حيث أراد بابداء طرحـة جديـدة أن يرضي كلا الطرفين (القـائلين بروحانيـة المعـراج النبـوي والقائليـن بجسمانيته) حيث قال : ان النبي صلّى اللّه عليه وآله عرج ببدنه البرزخي (الهورقليائي)(٢) ثم استدل لذلك بقوله :

ان الصاعد كلّما صعد ألقى في كل رتبة من المراتب المذكورة ما فيها، فمثلاً إذا تجاوز كرة الهواء القى ما فيه من الهواء، واذا تجاوز كرة النـار ألقى ما فيه واذا رجع أخذ ماله من كرة النار، واذا وصل الى كرة الهـواء أخذ ماله من الهواء.

ومن هنا فان النبي صلّى اللّه عليه وآله عندما عرج الى السماء القى فـي كل كرة واحداً من تلك العناصر الأربعة في كرته، وعرج ببدن فاقد لهـذه العناصر.

ومثل هذا البدن لا يمكن ان يكون بدناً عنصريـاً، فليـس هـو الا البـدن البرزخي (الذي أسماه الهور قليائي) لا غير(٣).

---

(١) لا شك أن هذه الفرقة وامثالها من الفرق المبتدعة هي من صنائع الاستعمار أو هي مما يؤيده لتنفيذ أغراضه، ومن حسن الحظ أن انتشار الوعي بين أبناء الامة الإسلامية حدَّ من نشاط هذه الفرق حتى انها أصبحت على ابواب الاندثار والانقراض نهائياً.

(٢) وهو البدن البرزخي الذي يشبه البدن الذي يفعل به الانسان الافعال المختلفة في عالم النوم والرؤيا ويقوم بكل نوع من انوع النشاط.

(٣) تقع الرسالة القطيفية ضمن مجموعة تحتوي على ٩٢ رسالة باسم جوامع الكلم التي طبعت عام ١٢٧٣.

ومع هذا التصريح يدّعي البعض - للتستر على خطأ الشيخ وزلته هذه - بأن الشيخ يعتقد بأن المعراج كان جسمانياً عنصرياً، وأنه موافق لرأي المشهور في هذا المجال.

وبهذا - حسب تصوره - أرضى من نفسه كلا الطرفين المذكورين، لأنـه من جانب اعتقد بالمعاد الجسماني، وفي نفس الوقت تخلّص مـن اشـكال «خرق الافلاك والتحامها» لأن نفوذ الجسم البرزخي لا يستوجب أي خرق وانفصال في جدار الفلك.

ولكن هذه النظرية - كما هو واضح لكلّ عالِم متحرٍ للحقيقة، بعيـد عـن العصبية - واضحة البطلان كسابقتها (نظرية المعراج الروحاني)، فمضافاً الى انها مخالفة للقرآن وظاهر الاحاديث، لأنّه - كما أسلفنا - لو عرضنا آية المعراج (من سورة الاسراء) على أي عارف باللغـة، مهمـا كانـت وطلبنا منه رأيه في هذا الصدد لقال : ان مراد القائل هو البـدن الـدنيوي العنصري الذي عبر عنه القرآن بلفظ العبد، في قوله تعـالى : «سـبحان الذي أسرى بعبده»، وليس الهور قليائي الذي لم يكـن يعرفـه المجتمـع العربي، ولا يعرف أمثاله في ذلك اليوم اساساً، في حين أنهم كـانوا هـم المخاطبين في آية المعراج في سورة الاسراء لا غيرهم.

هذا مضافاً الى أن ما دفع بالشيخ الى ارتكاب هذا التأويـل البـارد هـو الاسطورة اليونانية المذكورة حول الفلك، حيث تصورها كحقيقة ثابتة مـن حقائق اللوح المحفوظ، وقد كذبها وفندها كلُّ فلكيي العالم اليوم، وأعلنـوا عن سخافتها.

فلا يجوز لنا أن نقلّدِ تلك الفرضية تقليداً أعمى.

واذا ما رأينا بعض القدماء من المشايخ قال بمثل هذا محسناً الظـن بتلـك الفرضية الفلكية القديمة وأمثالها امكن إعذارهم، لعدم قيام ادلة علمية قوية على خلافها آنذاك.

اما اليوم فلا ينبغي لنا ان نتجاهل الحقائق القرآنية لفرضية ثبت بطلانها في الأوساط العملية.

المعراج وقوانين العلم الحديث :

قد يتصور فريق من الناس أن القوانين الطبيعيـة والعلميـة الحاضـرة لا تتلاءم

مع معراج النبي صلّى اللّه عليه وآله وذلك لأنه :

١ً - يقول العلم الحديث : إن الابتعاد عن الأرض يتطلب التخلّـص مـن جاذبية الأرض، وبعبارة أُخرى ابطال مفعولها.

فان (الكرة) التي نقذفها إلى الأعلى تعود مرة ثانيـة الـى الأرض بفعـل الجاذبية ومهما كررنا قذف الكرة الى الأعلى فانها تعـود وترجـع الـى الأرض أيضاً.

فاذا أردنا أن نبطل مفعول جاذبية الأرض ابطالاً كاملاً بحيـث لا تعـود الكرة المقذوفة الى الأعلى الى الأرض ثانيةً بل تواصـل مسيرهـا إلـى الأعلى فإننا نحتاج لتحقيق هذا الهدف الى جعل سرعة الكرة باتجاه معاكس للأرض تعادل ٠٠٠ / ٢٥ ميل في الساعة.

وعلى هذا فان معنى المعراج هو ان يكون النبي صلّى اللّه عليه وآله قـد خرج من محيط جاذبية الأرض، واصبح في حالة انعدام الوزن.

ولكن ينطرح هنا سؤال وهو : كيف استطاع رسول اللّه صلّى اللّه عليـه وآله ان يطوي بدون وسائل هذه المسافة بمثل هذه السرعة، وهـل البـدن الطبيعي يتحمل مثل هذه السرعة مع عدم توفر الغطاء الواقـي والوسـائل اللازمة، التي تصون الجسم من التبعثر والذوبان بفعل السرعة الفائقة؟

٢ - إن الهواء القابل للاستنشاق غير موجود فوق عدد من الكيلومـترات بعيداً عن سطح الأرض، بمعنى اننا كلما ذهبنا صعداً إلى الطبقات العليـا وابتعدنا عن الأرض أصبح الهواء أرقّ، حتى يغدو غير قابل للاسـتنشاق، وربما نصل اذا واصلنا الصعود إلى الأعلى الى منطقة ينعدم فيها الهـواء اللازم للتنفس بالمرة، فكيف استطاع رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله وبعد طي تلك المسافة الطويلة والبعيدة في أعالي الجو أن يعيش بـدون وجـود الاوكسيجين ؟

٣ً - إن الاشعة الفضائية، والاحجار السماوية والشهب الكثيرة المتطـايرة

إذا اصطدمت بأي جسم أرضي أبادته، وأفنته، ولكنها عندما تصطـدم بالغلاف الغازي المحيط بالأرض تتلاشى وتصبح كالبودر ولا تصل إلـى الأرض، فيكون

الغلاف الغازي في الحقيقة بمثابة درع يقي سكّان الأرض من خطر تلـك القذائف المهلكة.

ومع هذه الحالة كيف تهيأ لرسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله أن يصون نفسه من تلك الاشعة الفضائية، والاحجار السماوية ؟

٤ً - إذا قلّ ضغطُ الهواء على جسم الانسان فزاد أو نقص اختلت حياتـه الطبيعية، فهو يمكنه أن يعيش تحت ضغط معين من الهواء، لا يوجد فـي الطبقات العليا من الجو، فكيف استطاع النبي صلّى اللّه عليه وآله والحـال هذه أن يحافظ على حياته في أعالي الفضاء ؟

٥ً - إن سرعة الحركة التي سار بها النبي صلّى اللّه عليه وآله لا ريـب كانت تفوق سرعة الحركة التي يسير بها النور ومع العلم بأن سرعة النور هي ٣٠٠٠٠٠ كيلومتر في الثانية، ومع العلم أيضاً أنه ثبت فـي العلـم الحديث أنه لا يستطيع أي جسم أن يتحرك بسرعة تفوق سـرعة النـور، فكيف استطاع النبي صلّى اللّه عليه وآله ان يسير بسرعة تفـوق سـرعة النور، ومع ذلك يرجع إلى الأرض سالم الجسم كامله ؟؟

جوابنا :

وجوابنا هو : أننا إذا أردنا أن نناقش هذه المسألة على ضوء القوانين العلمية الطبيعية لتجاوز عدد الاعتراضات والاشكالات ما ذكرناه آنفاً.

ولكننا نقول في جواب هذا الفريق متساءلين : ما هو مقصودكم من توضيح هذه النواميس الطبيعية.

هل تريدون القول بأن السير في العوالم العليا أمر غير ممكن، وممتنع ذاتاً وبالتالي أنه أمر محال.

فاننا نقول - حينئذ - في الجواب على ذلك بان الجهود والتحقيقات العلمية التي بذلها علماء الفضاء في الشرق والغرب قد جعلت هذا الأمر - ولحسن الحظ - أمراً ممكناً، وعادياً، لأن مع اطلاق أول قمر اصطناعي عام (١٩٥٧ م) الى السماء

والذي اسماه علماء الفضاء ب«اسبوتنيك» اتضح أنه يمكن إبطال مفعول جاذبية الأرض بواسطة الصاروخ، كما أن إرسال السفن الفضائية الحاملة لرواد الفضاء من البشر بواسطة الصاروخ أوضح أن ما كان يعده البشر مانعاً من الصعود الى الأعلى في الفضاء، قد أصبح قابلاً لرفعه وإزالته،

والتخلّص منه بيد العلم والتكنولوجيا.

إن البشر استطاع بأدواته وآلاته العلمية والتكنولوجية أن يعالج مشكـلات عديدة في مجال ارتياد الفضاء مثل مشكلة الشهب والنيازك المتطايرة فـي الجو ومشكلة الاشعة الفضائية، ومشكلة إنعدام الغاز اللازم للتنفس و.. و.. وها هو علم ارتياد الفضاء في حال توسع مستمر وان العلماء أصبحوا الآن يثقون بأنهم سرعان ما يتمكنون من مد بساط الحياة والعيش فـي إحـدى الكرات السماوية والسفر إلى إحدى الكواكب كـالقمر والمـريخ بسهولـة كبرى!(١)

إن هذه الأحداث العلمية وهذا التقدم التكنولوجي في مجال ارتياد الفضـاء شاهد قوي على أن هذا العمل أمر ممكن مائة بالمائة، وليس من الأمـور المستحيلة.

واذا كان مقصود المعترضين على المعراج هو انه لا يمكن القيام بمثل هذه الرحلة من دون أجهزة علمية وتكنولوجية، ولم يكن رسول اللّه صلّى اللّـه عليه وآله يملك في تلك الليلة مثل هذه الأجهزة فكيف طوى تلك المسافات وطاف

---

(١) بعد اطلاق الاقمار والسفن الاصطناعية لأوّل مرة يوم الأربعاء ابريل عام ١٩٦١ بدأ الضابط الروسي (٢٧ سنة) جاجارين رحلته الفضائية في سفينة فضائية، وكان أوّل إنسان أقدم على هذه الرحلة الفضائية، وابتعدت سفينته ٣٠٢ كيلومتراً عن سطح الأرض، ودارت دورة واحدة حول الكرة الارضية في

ساعة ونصف.

وبعد ذلك أقدمت أمريكا والاتحاد السوفيتي على ارسال السفن الفضائية إلى الفضاء في محاولة لغزو القمر حتى حطّت «أبولو» الحاملة ل ١١ رائداً فضائياً على سطح القمر لأوّل مرّة، وكان هذا أوّل مرة يحط فيها انسان قدمه على ارض القمر.

وقد تكررت تجربة هذا البرنامج الفضائي فيما بعد مرات ومرات، وكانت ناجحة على الاغلب. وكل هذه الجهود والنتائج تكشف عن أن هبوط الانسان على سطح الكرات والكواكب أمر ممكن، وما يستطيع البشر فعله عن طريق العلم يقدر اللّه خالق البشر على فعله بارادته النافذة.

على جميع تلك العوالم من دون أدنى وسيلة نقلٍ من هذا القبيل ؟

فاننا نقول في معرض الاجابة على اعتراضهم هـذا بـأن جـواب هـذا الاعتراض يتضح من الابحاث التي سبقت منـا حـول معـاجز الأنبيـاء وخصوصاً بحثنا المفصل حول حادثة عام الفيل وهلاك جيش أبرهة العظيم بالأحجار الصغيرة، لأنه من المسلّم أن ما يستطيع البشر فعله عن طريـق الأدوات والآلات العلمية الصناعية يستطيع الأنبياء فعله بعناية اللّه تعالى، وإقداره وبدون الأسباب الظاهرية والخارجية.

لقد عرج رسول الاسلام صلّى اللّه عليه وآله الى السماء بعناية وباقدار اللّه الذي خلق الوجود كله، وأقام هذا النظام البديع برمته، فهو الـذي أعطـى للأرض جاذبيتها، وأعطى للشمس أشعتها وأوجد مختلف طبقات الهـواء، وأنواع الغازات في الجو، ومتى أراد أخذها وانتزاعهـا منهـا، أو كبـح جماحها، ورد عاديتها.

فاذا تحقق معراج النبي الاكرم محمد صلّى اللّه عليه وآله في ظلّ العناية الإلهية فان من المسلّم ان جميع النواميس تخضع أمام قدرته القاهرة، وارادته الغالِبة، وهي طوع إرادته، والسماوات والأرض مطويات بيمينه والجميع في قبضته ورهن اشارته دائماً وأبداً، وفي كل حين وأوان.

وعلى هذا فماذا يمنع من أن يعمل اللّه الذي منح للأرض جاذبيتها، وللأجرام السماوية أشعتها، على إخراج عبده المصطفى بقدرته المطلقة ومن دون الاسباب الظاهرية، من مركز الجاذبية الأرضية، ويصونه من أخطار الاشعة الكونية، وأن يعمد خالق كل هذا القدر الهائل من الاوكسيجين إلى إيجاد الهواء اللازم لنبيه في الطبقات التي ينعدم فيها الهواء، وهذا هو معنى قولهم : «إن اللّه مسبب الأسباب ومعطّلُ الأسباب».

ان أمر المعجزة يختلف ويفترق أساساً عن أمر العلل الطبيعية والقدرة البشرية.

ونحن يجب أن لا نقيس قدرة اللّه المطلقة بقدرتنا المحدودة، فاذا كنّا لا نقدر

على شيء من دون الأسباب لم يصح أن نقول : ان القادر المطلق لا يقدر على مثله من دون الاسباب الطبيعية أيضاً.

إن إحياء الموتى، وقلب العصا إلى ثعبان، وإبقاء يونس حياً في بطن الحوت، وفي قعر البحار، مما صدقته جميع الكتب السماوية ونقلته إلينا لا تقلّ إشكالاً ولا تختلف جواباً عن قصة المعراج النبوي.

وخلاصة القول : ان جميع العلل الطبيعية والموانع الخارجية مسخّرة للّه تعالى خاضعة لارادته، مطيعة لأمره وارادته يمكن تعلقها بكلّ شيء إلا بالأمر المحال، وأما غير ذلك أي ما يكون ممكناً بالذات مهما كان، فانّه قابل لأن يتحقق في ظلّ ارادة اللّه ومشيئته سواء يقدر البشر عليه أم لا يقدر.

على أن حديثنا هذا موجه الى من آمن باللّه، وعرف ربه بصفاته الخاصة به تعالى، وبالتالي آمن باللّه الأزلي على أنّه القادر على كلّ شيء.

الهدفُ من المعراج :

لقد بينت الاحاديث - بعد الآيات - الغرض من المعراج واليك طائفة من هذه الاحاديث.

١ - يقول ثابت بن دينار سألت الامام زين العابدين علي بن الحسين عليه السلام عن اللّه جلّ جلاله هل يوصف بمكان فقال : «تعالى اللّه عن ذلك».

قلت : فلم أسرى بنبيه محمد صلّى اللّه عليه وآله إلى السماء ؟

قال : (ليريه ملكوتَ السماوات وما فيها من عجائب صنعِهِ وبدائع خلقه).

٢ - وقال يونس بن عبد الرحمان قلت لأبي الحسن موسى بن جعفر عليه السلام لأي عِلةٍ عرج اللّه بنبيه إلى السماء ومنها إلى «سدرة المنتهى»، ومنها إلى «حجب النور» وخاطبه وناجاه هناك واللّه لا يوصف بمكان ؟(١).

فقال عليه السلام : «إن اللّه لا يوصفُ بمكان ولا يجري عليه زمان، ولكنّه

---

(١) علل الشرائع : ص ٥٥، البحار : ج ١٨ ص ٣٤٧ و٣٤٨، تفسير البرهان : ج ٢ ص ٤٠٠.

عز وجل أراد ان يشَرف به ملائِكته، وسكان سماواتِهِ، ويكرمهم بمشاهدته، ويريه من عجائب عظمته ما يخبر بهِ بعد هبوطِه، وليس ذلك على ما يقُولُه المشبهون سبحان اللّهِ تعالى عما يصِفُون»(١).

أجل يجب أن يكون لرسول اللّه وخاتم الأنبياء مثل هذا المقام العظيم ومثل

هذه المنزلة السامقة، ليقول للبشرية العائشة في القرن العشرين، والتي أصبحت تفكر في الهبوط على «المريخ» و«الزهرة» وغيرها من الانجـم البعيدة : باننني قد فعلت هذا من دون أية وسيلة، وان ربي قد مـن علـي وعرفني على نظام السماوات والأرض، وأطلعني بقدرته وبعنايتـه علـى أسرار الوجود، ورموز الكون.

---

(١) علل الشرائع : ص ٥٥، البحار : ج ١٨ ص ٣٤٧ و٣٤٨، تفسير البرهان : ج ٢ ص ٤٠٠.

٢٣ ـ سفرة إلى الطائف

انقضت السنة العاشرة بكل حوادثها الحلوة والمرة، فان رسول اللّه صـلّى اللّه عليه وآله فقد في هذا العام حاميه الكبيرين المتفانيين في سبيله، ففـي البداية فقد كبير بني عبد المطلب وسيدهم، والمدافع الوحيـد عـن حـوزة الرسالة الاسلامية، والذاب بالاخلاص عن حيـاض الشريعـة المحمديـة، والشخصية الاولى في قريش اعني «أبا طالب» عليه السلام.

ولم تنمح آثار هذه المصيبة المرة عن خاطر النبي صلّى اللّه عليه وآله بعد إلا وفاجأته مصيبة وفاة زوجته الوفية العزيزة، السيدة خديجة الكبرى التي جددت برحيلها عنه أحزان النبي وآلامه الروحية(١).

لقد حامى أبو طالب ودافع عن النبي صلّى اللّه عليه وآله وحـافظ علـى حياته وسلامته ومكانته، بينما ساعدت خديجة بثروتها الطائلة فـي نشـر الاسلام وقدمت في هذا السبيل خدمات عظيمة لا تنسى.

من هنا سمى رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله تلك السنة بعام الحداد، او

---

(١) جاء في تاريخ الخميس : ج ١ ص ٣٠١ انه قيل بأن «خديجة» توفيت بعد «أبي طالب» بشهر وخمسة أيام، بينما ذهب آخرون مثل ابن الأثير في

الحزن(١).

ومنذ أن توفّى اللّه هذين الحاميين العظيمين والمدافعين القويين عن النبـي صلّى اللّه عليه وآله واجه رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله ظروفاً صـعبة جداً قلما واجهها من قبل.

فقد واجه رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله منذ حلول السنة الحاديـة عشـر جواً مفعماً بالعداء له، والحقد عليه، وصارت الاخطار تهدد حياته الشريفة في كل لحظة، وقد فقد كل الفرص لتبليغ الرسالة وكل امكانات الدعوة الى دينه.

يقول ابن هشام في هذا الصدد : ان «خديجة بنت خويلد» و«أبـا طالـب» هلكا (اي توفيا) في عام واحد فتتابعت على رسول اللّه صلّى اللّـه عليـه وآله المصائب بهلك خديجة وكانت له وزيرة صدق على الاسلام... وبهلك عمه أبي طالب وكان له عضداً، وحرزاً في أمره، ومنعةً وناصـراً علـى قومه وذلك قبل هجرته إلى المدينة بثلاث سنين، فلما هلك أبو طالب نالت قريش من رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله من الأذى ما لم تكن تطمع بـه في حياة أبي طالب حتى اعترضه سفيه من سفهاء قريش فنثر على رأسـه تراباً.

ولما نثر ذلك السفيه على رأس رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله ذلـك التراب دخل رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله بيته والتراب علـى رأسـه، فقامت إليه إحدى بناته فجعلت تغسل عنه التراب وهي تبكي ورسول اللّـه صلّى اللّه عليه وآله يقول لها :

«لا تبكي يا بنية فإن اللّه مانع أباك».

ويقول بين ذلك :

«ما نالت مني قريش شيئاً أكرهه حتّى مات أبو طالب»(٢).

ولأجل تزايد الضغط والكبت هذا قرر النبي صلّى اللّه عليه وآله أن ينتقل

---

(١) تاريخ الخميس : ج ١ ص ٣٠١، السيرة الحلبية : ج ١ ص ٣٤٧.

(٢) السيرة النبوية : ج ١ ص ٤١٥ و٤١٦، بحار الأنوار : ج ١٩ ص ٥ عن إعلام الورى عن محمّد بن اسحاق بن يسار.

من المحيط المكي إلى محيط آخر يتسنى له تبليغ رسالته.

وحيث ان الطائف كانت تعتبر آنذاك مركزاً هاماً، لذلك رأى رسول اللّـه صلّى اللّه عليه وآله ان يسافر لوحـده الـى الطـائف، ويجـري بعـض الاتصالات مع زعماء قبيلة ثقيف وساداتها ويعرض دينه عليهم علّه يحرز نجاحاً ويكسب انصاراً جدداً لرسالته من هذا الطريق.

ولما انتهى صلّى اللّه عليه وآله الى الطائف عمد الى نفَر من قبيلة «ثقيف» هم يومئذ سادة ثقيف واشرافهم، وجلس صلّى اللّه عليه وآله إليهم، ودعاهم إلى اللّه، فلم يؤثر فيهم كلام رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله وقالوا لـه : لئن كنت رسولاً من اللّه كما تقول لأنت أعظم خطراً مـن أن أرد عليـك الكلام، ولئن كنت تكذب على اللّهِ ما ينبغي لي ان اكلمك.

فعرف رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله من ردهم الصبياني أنهم يحـاولون التملص من قبول الدعوة واعتناق الاسلام، فقام صلّى اللّه عليه وآله مـن عندِهم بعد ان طلب منهم أن يكتموا ما جرى في هذا اللقاء خشية أن يعرف سفهاء ثقيف فيتجرأوا عليه ويتخذوا ذلك ذريعة لاستغلال غربته ووحدته، ومن ثم إيذائه، فوعدوه بالكتمان، ولكنهم - وللاسف - لم يحترموا وعدهم هذا الذي أعطوه لرسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله وأغروا بـه سـفهاءهم وعبيدهم، وفجأة وجد رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله نفسه محاطاً بجمـع كبير من اولئك السفهاء يسبونه ويصيحون به حتى اجتمع الناس، وألجـأوه إلى بستان لعتبة وشيبة إبني ربيعة وهما فيه في تلك الساعة، ورجع عنـه من سفهاء ثقيف من كان يتبعه، فعمد إلى ظلٍ فجلس فيه وهـو يتصبـب عرقاً، وقد الحقوا الاذى بمواضع عديدة من بدنه الشريف ورجلاه تسيلان من الدماء، وابنا ربيعة ينظران اليه، ويريان ما لقـي مـن سـفهاء أهـل

الطائف، وقد كانا من أثرياء قريش، يومئذ.

فلما اطمأن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله توجه الى ربه وناجاه قائلاً :

«أللّهم إليك أشكُو ضعفَ قُوتي، وقِلةَ حيلَتي، وهواني على النّاس، يا أرحم الراحِمين، أنت رب المستضعفِين، وأنت ربي، إلى من تكِلُني، إلى

بعيدٍ يتجهمِني ؟ أم إلى عدوٍ ملكتَه أمري ؟

إن لم يكُن بِك علي غضب فلا أُبالِي، ولكِن عافِيتك هِي أوسع لِي.

أعوذُ بِنُور وجهك الذي اشرقت له الظلُماتُ، وصلُح عليهِ أمر الدنيا والآخِرة مِن أن ينزلَ بي غضبك، أو يحِل علي سخطُك.

لك العتبى حتّى ترضى، ولا حولَ ولا قُوةَ إلا بِك»(١).

هذه الكلمات وهذا الدعاء هي استغاثة شخصية عاش خمسين سنة عزيزاً مكرماً في ظلّ حماية من دافعوا عنه بصدق واخلاص ودفعوا عنه كل اذى ولكنه الآن يضيق عليه رحب الحياة حتى يلجأ الى حائط عدوٍ من اعدائه، ويجلس في ظل شجرة، مكروباً موجعاً ينتظر مصيره.

فلما رآه إبنا ربيعة «عتبة وشيبة» وكانا من الوثنيين ومن أعداء الاسـلام، وشاهدوا ما لقي من الأذى والعذاب، رقّا له فدعوا غلاماً لهما نصرانياً من اهل نينوى يقال له «عداس» فقالا له : خذ قطفاً من العنب فضعه في هـذا الطبق ثم اذهب به الى هذا الرجل فقل له يأكل منه، ففعل عداس، ثم أقبـل بالعنب حتى وضعه بين يدي رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله ثم قال لـه : كل، فلما وضع رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله فيه يده قال : «بسم اللّـه الرحمن الرحيم».

فتعجب عداس من ذلك بشدة وقال : واللّه إن هذا الكلام ما يقوله أهلُ هذه البلاد.

فقال له رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله: ومِن أهل أي البلاد أنتَ وما دينك ؟

قال : أنا نصراني، من أهل نينوى.

قال صلّى اللّه عليه وآله : من مدينة الرجل الصالح يونس بن متى.

فقال له عداس : وما يدريك ما (من) يونس بن متى ؟

فقال صلّى اللّه عليه وآله(٢) : ذاك أخي كان نبياً وأنا نبي، أنا رسول اللّه،

(١) السيرة النبوية : ج ١ ص ٤٢٠.

(٢) وفي رواية البحار ج ١٩ ص ٦ جملة اعتراضية هنا : - وكان لا يحقر أحداً أن يبلغه رسالة ربه -.

والله تعالى أخبرني خبر يونس بن متى.

فأكب عداس على رسول الله صلّى الله عليه وآله وقد رأى في كلماته علائم الصدق وآيات الحق، وجعل يقبِل رأسه ويديه، وقدميه، وهما تسيلان من الدماء، وآمن به، ثم عاد بعد الاستئذان منه صلّى الله عليه وآله إلى صاحبيه في البستان.

فتعجب ابنا ربيعة لِما رأياه في غلامهما عداس من الانقلاب الروحي العجيب، وسألاه قائلين : ويلك يا عداس ما لك قبلت رأس هذا الرجل، ويديه وقدميه وماذا قال لك ؟

فاجابهما الغلام قائلاً : يا سيدي ما في الارض شيء خير من هذا، هذا رجل صالح لقد أخبرني بأمرٍ ما يعلمه إلا نبي.

فشق كلام عداس على إبني ربيعة، وقالا له بنبرة الناصح له : ويحك يا

عداس، لا يصرفنّك هذا الرجلُ عن دينك، فان دينَك خير من دينه (١).

النبي صلّى اللّه عليه وآله يعود إلى مكة :

انتهت ملاحقةُ رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله بلجوئه الـى حـائط ابنـي ربيعة، وكان عليه الآن، وبعد أن يئس من خير ثقيف ان يعود إلى مكـة، ولكن عودته إلى مكة لم تكن لتخلو عن مشاكل، لأنه قد فقد نصيره وحاميه ومدافعه الاكبر والاوحد فكان من المحتمل جداً أن يقبض عليه المشركـون ويسفكوا دمه.

فقرر صلّى اللّه عليه وآله ان يبقى في منطقة «نخلـة» (وهـي واد بيـن الطائف ومكة) بعض الوقت.

لقد كان يريد أن يرسل أحداً إلى شخصية من شخصيات قريش يطلب منها ان تجيره حتى يدخل مكة بجوار، ولكنه صلّى اللّه عليه وآله لم يجد مـن يقوم له بهذه المهمة. فترك «نخلة» إلى حراء، وهناك التقى رجلاً خزاعياً وطلب منه أن

---

(١) السيرة النبوية : ج ١ ص ٤١٩ - ٤٢١، بحار الأنوار : ج ١٩ ص ٦ و٧ و٢٢ مع اختلاف يسير.

يأتي «المطعم بن عدي» بمكة، وكان من الشخصيات المكية البارزة ويسأله أن يجير رسول الله ليدخل مكة في أمان من اذى قريش وكيدها.

فدخل الخزاعي مكة، وأبلغ المطعم ما طلبه منه رسول الله صلّى الله عليه وآله فقبل المطعم - رغم كونه وثنياً مشركاً - ان يجير رسول الله صلّى الله عليه وآله فقال للخزاعي : ائته فقل له : إني قد أجرتك فتعال.

فدخل رسول الله صلّى الله عليه وآله مكة ليلاً ونزل في بيت مطعم مباشرة، وبات ليلته هناك، ولما طلعت الشمس من صبيحة غد قال مطعم لرسول الله صلّى الله عليه وآله : لتعلمن قريش بانك في جوارنا، فاصحبنا إلى البيت، ليروا جوارنا.

فاستحسن النبي صلّى الله عليه وآله رأيه فاخذ المطعم وأهلُ بيته السلاح ودخلوا مع النبي صلّى الله عليه وآله في المسجد الحرام، وكان ورودهم في المسجد بهيئة رائعة.

وكان أبو سفيان قد كمن للنبي صلّى الله عليه وآله ليكيد به، فلما رأى هذا المشهد المهيب غضب غضباً شديداً، وانصرف عن ايذاء رسول الله صلّى الله عليه وآله، فجلس المطعم وولده وأختانه واخوه، وطاف رسول الله بالبيت وصلى عنده ثم انصرف إلى منزله(١).

ولم يمض على هذه الحادثة زمان طويل حتى هاجر رسول الله صلّى الله

عليه

---

(١) السيرة النبوية :ج ١ ص ٣٨١، بحار الأنوار : ج ١٩ ص ٧ و٨. ويستبعد بعض المحققين ان يكون رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله قد طلب الجوار من مشرك أو دخل في جوار مشرك، على غرار عدم قبوله الهدية من المشرك وذكر لذلك ادلة ووجوهاً.

ولكن يمكن الاجابة على هذا بأن الاجارة كانت امراً عادياً في ذلك العصر، ولم يكن فيها ما يوجب شيئاً على رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله ولم تستلزم منه عليه.

ثم ما المانع في مثل هذا الجوار لو ترتبت عليه مصالح علياً، كتمكين رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله من الدخول بسلام الى مكة، وتمكّنه من القيام بمهامّه الرسالية، خاصة ان هذا الجوار لم يستغرق إلا يوماً أو بعض يوم وتسنّى بعده لرسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله ترتيب اوضاعه في مواجهة الاخطار التي كانت تتهدده من جانب المشركين بمكة.

وآله من مكة إلى المدينة، وتوفي المطعم في أوائل الهجرة في مكة، ولما بلغ رسول اللّه نبأ موته تذكّر صلّى اللّه عليه وآله إحسانه وجواره، وانشأ حسان بن ثابت شاعر الاسلام شعراً يمدحه فيه تقديراً لخدمته.

وكان رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله يتذكره كثيراً، حتى انه تذكره في واقعة «بدر» التي انهزمت فيها قريش وعادت منكسرة الى مكة بعد أن خسرت كثيراً من رجالها واسر منها عدد كبير، فتذكر مطعم بن عدي ثمة وقال صلّى اللّه عليه وآله :

«لو كان مطعم بن عدي حياً لوهبت له هؤلاء»(١).

نقطة هامة :

إن سفر النبي صلّى اللّه عليه وآله الى الطائف يكشف عن اصـراره فـي اداء رسالته واستقامته وصبره صلّى اللّه عليه وآله كما ان تذكره لإحسان مطعم في المواقع المناسبة يقودنا إلى خصاله الحميدة وسـجاياه الفاضـلة، وخلقه العظيم.

ولكن الاهم من هذا وذاك هو أننا نستطيع من خلال هذا تقييم خدمات أبـي طالب القيمة، ومعرفة اهميتها الكبرى عند رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله، بمقايستها مع ما فعله مطعم.

فان مطعم لم يفعل شيئاً إلا أن اجار رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله وحماه يوماً او بعض يوم.

بينما حدب أبو طالب على رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله ودافـع عنـه وخدمه عمراً كاملاً، ولقي في سبيله من المحن والمتاعب ما لم يلاق مطعم منها ولا شيئاً ضئيلاً.

فاذا كان رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله يعلن عن استعداده للافراج عـن

جميع الاسرى في «بدر» تقديراً لما قام به مطعم من اجـارة بسيطـة قصيرة، فماذا

---

(١) المغازي للواقدي : ج ١ ص ١١٠ ثم قال الواقدي : وكانت لمطعم بن عدي عند النبيّ صلّى اللّه عليه وآله اجارة حين رجع من الطائف، طبقات ابن سعد : ج ١ ص ٢١٠ و٢١٢، البداية والنهاية : ج ٣ ص ١٣٧.

عساه أن يقوم به تجاه ما اسداه إليه عمه وحاميه وكافله الاكبر والأوحد أبو طالب من خدمات طوال اكثر من اربعين عاماً، أنه يجب ان يكون لمثـل هذا الشخص العظيم الذي كفل صاحب الرسالة وقام بشؤونه مدة أربعيـن عاماً بأيامها ولياليها ودافع عنه في السنوات العشر الاخيرة وهي جل عمر الرسالة الاسلامية في الفترة المكية إلى درجة ان عرض راحته وسـلامته بل حياته وحياة أبنائه لخطر الموت دفاعاً عن حياض الرسـالة، وحمايـةً لصرح النبوة، مقاماً عظيماً ومنزلة كبرى عنـد قائـد البشريـة، ومعلـم الانسانية، وهاديها العظيم.

كيف لا، والفرق بين هذين الشخصين كبير، والبون شاسع، فمطعم رجـل وثني مشرك، بينما يعتبر أبو طالب واحداً من كبار الشخصيات الاسلامية العظيمة بلا جدال.

الدعوة في أسواق العرب :

كانت العرب تجتمع - في مواسم الحج - في نقاط مختلفة مثل : «عكاظ» و«المجنة» و«ذي المجاز»، وكان الشعراء والخطباء العـرب البـارعون يقفون في هذه المناطق على أماكن مرتفعة ويلهون فريقاً من النـاس بمـا يلقونه عليهم من خطب وقصائد تدور في الأغلب حول الحرب والقتـال، والتفاخر، والعشق.

وكان رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله شأن كل الأنبياء والمرسلين الذيـن سبقوه يستغلّ هذه الفرصة - كغيرها - لابلاغ رسالة ربه الى الناس، ولم يكن لاحدٍ منعه او الكيد به لحرمة القتال والجدال في الاشهر الحرم.

من هنا كان صلّى اللّه عليه وآله اذا حلّ الموسم وقف على مكان مرتفـع وخاطب الناس قائلاً :

«قُولُوا لا إله إلا اللّه تُفلِحوا وتملكوا بها العرب وتذِل لكُم العجم، وإذا آمنتم كُنتُم مُلوكاً في الجنة»(١).

---

(١) الطبقات الكبرى : ج ١ ص ٢١٦.

دعوة رؤساء القبائل في مواسم الحج :

وكان رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله يلتقي في مواسم الحج في هذه النقاط برؤساء القبائل العربية واشرافها، ويقف على منازلهم منزلاً منزلاً، ويعرض دينه عليهم، ويدعوهم إلى اللّه ويخبرهم أنه نبي مرسل(١).

وربما مشى خلفه عمه «أبو لهب» فاذا فرغ رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله من قوله وما دعا به قال أبو لهب فوراً للناس : يا بني فلان إن هذا إنما يدعوكم أن تسلخوا اللات والعزى من أعناقكم، إلى ما جاء به من البدعة والضلالة، فلا تطيعوه ولا تسمعوا منه.

وقد قدمت جماعة من بني عامر إلى مكّة فدعاهم رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله إلى الاسلام، وعرض عليهم نفسه، فقبلوا أن يعتنقوا الاسلام إلا أنهم اشترطوا عليه أن يكون إليهم خلافته من بعده إذ قالوا : أرأيت إن نحن تابعناك على أمرك ثم أظهرك اللّه على من خالفك أيكون لنا الأمر من بعدك ؟

فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله :

«الأمر إلى اللّهِ يضعه حيثُ يشاء».

فرفضوا اعتناق الاسلام والإيمان باللّه ورسوله.

ثم لما عادوا إلى أوطانهم رجعوا إلى شيخ لهم طاعنٍ في السن لم يقدر أن يحج معهم وكان ذا بصيرة وفهم فحدثوه بما جرى بينهم وبين رسـول اللّه صلّى اللّه عليه وآله وقالوا : جاءنا فتى من قريش مـن بـني عبـد المطلب يزعم أنه نبي يدعونا إلى ان نمنعه(٢) ونقوم معه.

فوضع الشيخ يديه على رأسه ووبخهم على رفضهم لدعوة الرسول وقال :

---

(١) قال ابن هشام : كان صلّى اللّه عليه وآله لا يسمع بقادم يقدم مكة من العرب له اسم وشرف إلا تصدّى له فدعاه الى اللّه وعرض عليه ما عنده.

(٢) أي نحميه.

يا بني عامر والذي نفس فلان بيده ما تقولها اسماعيلي قط(١)، وإنّها لحق، فاين رأيكم كان عنكم ؟ (٢).

ان هذه القضية التاريخية تفيد - في ما تفيد - بان مسألة الخلافة والامامة بعد رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله أمر تنصيصي، تعييني، لا انتخـابي، أي ان تعيين الخليفة بعد رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله يعود إلـى اللّـه تعالى، ولا خيار للناس فيه، وانما عليهم الطاعة والرضا.

---

(١) أي ما ادعى النبوة كاذباً احد من بني اسماعيل.

(٢) السيرة النبوية : ج ١ ص ٤٢٤ و٤٢٥.

قبل فهرس بعد

٢٤ ـ بيعة العقبة

كان (وادي القرى) في ما مضى من الزمن طريق التجارة من اليمن الـى الشام، فكانت القوافل التجارية القادمة من اليمن تدخل وادياً طويلاً يدعـى بوادي القرى بعد العبور بالقرب من مكة، وكانت المناطق الواقعـة علـى طول هذا الوادي مناطق خضراء، ومن هذه المناطق مدينة قديمـة كانـت تدعى ب: يثرب والتي عرفت فيما بعد بمدينة الرسول.

وقد سكن في هذه المدينة منذ اوائل القرن الرابع الميلادي قبيلتا : «الاوس والخزرج» اللتان كانتا من مهاجري عرب اليمن (من القحطانيين).

وكان يعيش الى جانبهم الطوائف اليهودية الثلاث المعروفة : «بنو قريظة» و«بنو النضير» و«بنو قينقاع» الذين كانوا قد هاجروا اليها من شمال شبه الجزيرة العربية واستوطنوها.

وكان يقدم الى مكة كل عام جماعة من عرب يثرب للاشتراك في مراسيم الحج، وكان النبي صلّى اللّه عليه وآله يلتقي بهم في تلك المواسم، ويجري معهم اتصالات.

وقد مهدت بعض هذه اللقاءات للهجرة، وصارت سبباً لتمركز قوى الاسلام المتفرقة، في تلك النقطة.

على ان كثيراً من تلك الاتصالات وان لم تثمر ولم تنطو على أيـة فائـدة فعلية إلا أنها تسببت في أن يحمل حجاج يثرب - لدى عـودتهم - انبـاء ظهور النبي الجديد وينشروه في أوساط المدينة كأهم نبأ من انباء الساعة، ويلفتوا نظر الناس في تلك الديار الى مثل هذا الامر المهم والخطير.

ولهذا نقلنا هنا بعض اللقاءات والاتصالات التي تمت بين رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله وجماعات من اهل هذه المدينة في السنة الحاديـة عشـرة والثانية عشرة والثالثة عشرة من البعثة لتتضح بدراسة هذه المطالب علـة هجرة النبي الاكرم صلّى اللّه عليه وآله من مكة الى يثرب، وتمركز قوى المسلمين في تلك المنطقة.

١ - كان رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله كلما سمع بقادم يقدم مكـة مـن العرب له اسم وشرف تصدى له، ودعاه الى الاسلام وعرض عليـه مـا عنده.

وقد قدم مرة «سويد بن الصامت» فتصدى له رسول اللّه صلّى اللّه عليـه وآله حين سمع به فدعاه الى اللّه والى الاسلام فقال له سويد : فلعلّ الـذي معك مثل الذي معي.

فقال له رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله : وما الذي معك.

قال : مجلة لقمان - يعني حكمة لقمان -.

فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله إعرضها علي فعرضها عليه. فقال له : إن هذا الكلام حسن، والذي معي أفضل من هذا. قرآن انزله اللّه علي هو هدى ونور.

ثم تلا عليه رسولُ اللّه صلّى اللّه عليه وآله القرآن ودعاه الى الاسلام، فقال سويد إن هذا قول حسن وآمن برسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله فقدم المدينة على قومه، فلم يلبث أن قتله الخزرج فيما كان يتلفظ الشهادتين، وكان قتله قبل يوم بعاث(١)(٢).

---

(١) بعاث موضع كانت فيه حرب بين الأوس والخزرج.

(٢) السيرة النبوية : ج ١ ص ٤٢٥ - ٤٢٧.

٢ - قدم «انس بن رافع» مكّة ومعه فتية من بني عبد الاشهل فيهم «ياس بن معاذ» أيضاً، يلتمسون الحلف والنصرة على قومهم من الخزرج، فسمع بهم رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله فأتاهم وجلس اليهم وقال لهم : هل لكم في خير مما جئتم له ؟

فقالوا له : وما ذاك ؟

قال : «أنا رسول اللّه بعثني إلى العباد أدعوهم الى أن يعبـدوا اللّـه ولا يشركوا به شيئاً وأنزل علي الكتاب» ثم ذكر لهم الاسـلام، وتـلا عليهـم القرآن.

فقال أياس بن معاذ وكان غلاماً حدثاً شهماً : أي قوم هذا واللّه خير ممـا جئتم له.

فقد أدرك جيداً أن دين التوحيد يكفُلُ كل حاجاتهم فهو دين شـامل مبـارك لأنه سيصهر الجميع في بوتقة الأُخوة الواحدةِ فتزول عندئذٍ أسباب العـداء والقتال، وبذلك ينهي كل مظاهر الحرب والتنازع، وكلّ مظـاهر الفسـاد والتخريب فهو أفضل من طلب المساعدة العسكرية من قريش التي جـاؤوا من أجلها الى مكة، فآمن برسول اللّه صلّى اللّه عليه وآلـه مـن دون ان يكسب رضا رئيس قبيلته «انس بن رافع» واستئذانه، ولهذا غضب أنـس وأخذ حفنة من تراب البطحاء وضرب بها وجه إياس وقال : دعنا منـك، فلعمري لقد جئنا لغير هذا، فصمتَ اياس وقام رسول اللّه صلّى اللّه عليـه وآله عنهم وانصرفوا الى المدينة، وكانت وقعة بعاث بين الأوس والخزرج ولم يلبث اياس ان هلك، وقد سمعه قوم حضروا عند وفاته يهلّل اللّه تعالى ويكبره ويحمده ويسبحه حتى مات، فما كانوا يشكّون أنه قد مات مسلمـاً، ولقد استشعر الاسلام في ذلك المجلس حين سمع من رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله ما سمع(١).

وقعة بعاث :

كانت وقعة بعاث من الحروب التاريخية بين الأوس والخزرج، ففي هذه

---

(١) السيرة النبوية : ج ١ ص ٤٢٧ و٤٢٨.

الوقعة انتصر الأوسيون على منافسيهم، وأحرقوا نخيل الخـزرجيين، ثـم وقعت بعد ذلك حروب ومصالحات بينهم.

ولم يشترك «عبد اللّه بن أُبي» وهو من أشراف الخزرج في هذه الوقعـة من هنا كان موضع احترام من القبيلتين، وكاد الطرفان يفقدان مقاومتهمـا بسبب تكرر الحروب، وتحمل الخسائر الثقيلة، ولهذا رغب الطرفان فـي عقد صلح بينهما يضع حداً لجميع أشكال العمليـات العسكريـة، والغـزو والاقتتال، والثأر والانتقام، وأصرت القبيلتان على «عبد اللّه بن أُبي» بان يقبل بقيادة عملية المصالحة هذه، بل وأعدوا له تاجاً يتوجونه بـه، حتـى يصبح أميراً في وقتٍ معينٍ، ولكن هذا المشروع تعرض للانهيار والسقوط وواجه الفشل على أثر اعتناق جماعة من الخزرج الاسلام، ففي هذا الوقت بالذات التقى رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله بمكة بستة اشخاص من رجال الخزرج ودعاهم الى الاسلام فآمنوا به، ولبوا دعوته.

تفصيل الحادث :

خرج رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله في الموسم الذي لقيه فيه النفر من الأنصار فعرض نفسه على قبائل العرب كما كان يصنع في كلّ موسم فبينما هو عند العقبة لقي رهطاً من الانصار وكانوا ستة انفار من الخزرج فقال لهم : أمِن موالي اليهود ؟ وهل لكم حلف معهم.

قالوا : نعم.

قال : أفلا تجلسون أكلمكُم ؟

قالوا : بلى.

فجلسوا معه، فدعاهم إلى اللّه عز وجلّ وعرض عليهم السلام وتلا عليهم القرآن، فاحدثت كلمات النبي صلّى اللّه عليه وآله في نفوسهم أثراً عجيباً، ومما ساعد على ذلك أن يهوداً كانوا معهم في بلادهم، وكانوا أهل كتاب وعلم، وكانوا هم أهلَ شرك وأصحاب أوثان، وكان اليهود قد غزوهم في بلادهم،

فكانوا إذا وقع بينهم نزاع وكان بينهم شيء قال اليهود لهم : إن نبياً مبعوث

الآن، قد اظلّ (او أطلّ) زمانه نتبعه فنقتلكم معه قتل عاد وإرم، فكانت اليهود تخبر بخروج نبي من العرب ينشُر التوحيد، وتنتهـي علـى يديـه حكومة الوثنية والشرك، قد قرب ظهوره.

فلما كلم رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله أولئك النفر، ودعاهم إلى اللّه، قال بعضهم لبعض يا قوم : تعلّموا واللّه إنه للنبي الذي توعدكم به يهـود فـلا تسبقنكم اليه.

فاجابوه فيما دعاهم اليه، بان صدقوه وقبلوا منه ما عـرض عليهـم مـن الاسلام، وقالوا : إنا قد تركنا قومنا، ولا قوم بينهم من العداوة والشر مثل ما بينهم، فعسى أن يجمعهم اللّه بك، فسنقدم عليهم فندعوهم الـى أمـرك، ونعرض عليهم الذي أجبناك اليه من هذا الدين، فإن يجمعهم اللّه عليه فـلا رجل اعز منك(١).

بيعة العقبة الأولى :

لقد أثّرت دعوة هؤلاء الستة، الجادة في يثرب تأثيراً حسناً حيث سببت في إسلام فريقٍ من اهل يثرب واعتناقهم عقيدة التوحيد.

فلما كان العام المقبل (أي السنة الثانية عشرة من البعثة) قدم مكة اثنا عشر رجلاً من اهل يثرب، فلقوا رسول اللّه صلّى اللّه عليـه وآلـه بالعقبـة، وانعقدت هناك أول بيعة اسلامية.

وابرز هؤلاء الرجال هم : أسعد بن زرارة، وعبادة بن الصامـت، وكـان نص هذه البيعة - بعد الاعتراف - بالاسلام والايمان باللّه ورسوله هو :

بايعنا رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله على أن لا نشرك باللّـه شـيئاً، ولا نسرق، ولا نزني، ولا نقتل أولادنا، ولا نأتي ببهتان نفتريه من بين أيدينـا وأرجلنا ولا نعصيه في معروف.

---

(١) تاريخ الطبري : ج ٢ ص ٨٦، والسيرة النبوية : ج ١ ص ٤٢٧ و٤٢٨، بحار الأنوار : ج ١٩ ص ٢٥.

فقال لهم رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله : إن وفيتم فلكم الجنة، وان غشّيتم من ذلك شيئاً فامركم إلى اللّه عز وجلّ إن شاء عذّب، وان شاء غفر.

وهذه البيعة اصطلح على تسميتها المؤرخون وكتّاب السيرة ببيعة النسـاء، لأن النبي صلّى اللّه عليه وآله اخذ البيعة من النساء في فتح مكة على هذا النحو(١).

وعاد هؤلاء النفر الى يثرب بقلوب مفعمةٍ بالايمان، مترعة بمحبة رسـول اللّه صلّى اللّه عليه وآله فعمدوا الى نشر الاسلام، وكتبوا الى رسول اللّـه

صلّى اللّه عليه وآله أن يبعث لهم من يعلّمهم الاسلام والقرآن، فبعـث النبي صلّى اللّه عليه وآله لهم «مصعب بن عمير» وأمـره بـان يقرئهـم القرآن، ويعلمهم الاسلام، ويفقّههم في الدين، فكان يسمى المقرئ بالمدينة.

واستطاع هذا المبلّغُ القدير، وهذا الداعية النشيط ان يجمع المسلمين بفضل عمله الدؤوب والحكيم، وتبليغه الصحيح في غياب رسول اللّه صلّى اللّـه عليه وآله، ويؤمهم، ويصلي بهم(٢).

بيعة العقبة الثانية :

لقد أحدث تقدم الاسلام في يثرب هيجاناً كبيراً وشوقاً عجيباً فـي نفـوس المسلمين من أهلها، فكانوا ينتظرون بفارغ الصبر حلول موسـم الحـج، ليقدموا مكة، ويلتقوا برسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله عن كثب، ويظهروا له استعدادهم لتقديم ما يطلب منهم من خدمةٍ وعملٍ، وليستطيعوا توسـيع نطاق البيعة من حيث الكم ومن حيث الكيف.

وأخيراً حلّ موسم الحج فخرجت قافلة كبيرة من أهل يثرب للحـج تضـم خمسمائة نفر فيهم ثلاث وسبعون من المسلمين من بينهم امرأتان، والباقي إما راغبون في الاسلام، واما غير مكترث به، حتى قدموا مكّـة، والتقـوا برسول اللّه

---

(١) والتي جاء ذكرها في الآية ١٢ من سورة الممتحنة.

(٢) السيرة النبوية : ج ١ ص ٤٣٤، بحار الأنوار : ج ١٩ ص ٢٥.

صلّى اللّه عليه وآله فواعدهم رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله بالعقبة للبيعة اذ قال : «موعدكم العقبة في الليلة الوسطى من ليالي التشريف».

فلما كانت الليلة الثالثة عشرة من شهر ذي الحجة وهي التي واعدهم رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله فيها باللقاء، ونام الناس حضر رسول اللّه صـلّى اللّه عليه وآله مع عمه «العباس بن عبد المطلب» قبل الجميـع، وخـرج المسلمون من رحالهم يتسلّلون تسلل القطا مستخفين بعد أن ناموا مع قومهم في رحالهم، ومضى ثلث الليل لكي لا يحسوا بخروجهم، حتى اجتمعوا في الشعب عند العقبة، ولما استقر المجلس بالجميع، كان أول متكلـم هـو : العباس بن عبد المطلب فقال واصفاً منزلة رسول اللّه صـلّى اللّـه عليـه وآله : يا معشر الخزرج - وكانت العرب تسمي هذا الحي من الانصـار الخزرج خزرجها وأوسها - إن محمداً مِنّا حيث قد علمتم، وقد منعناه من قومنا، فهو في عز من قومه، ومنعة في بلده، وإنّه قد أبـى إلا الإنحيـاز اليكم، واللُحوق بكم، فان كنتم ترون أنكم وافون له بمـا دعوتمـوه إليـه، ومانعوه ممن خالفه فأنتم وما تحملتم من ذلك، وإن كنتم ترون أنكم مسلِموه وخاذِلُوه بعد الخروج به إليكم، فمن الآن فدعوه فانه في عِز ومنعـةٍ مـن قومه وبلده.

فقال الحضور : قد سمعنا ما قلت فتكلّم يا رسول اللّه، فخذ لنفسك ولربـك

ما أحببت.

فتكلم رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله فتلا القرآن ودعا إلى اللّه ورغّب في الاسلام، ثم قال : أُبايعكم على أن تمنعوني ممـا تمنعـون منـه نساءكـم وأبناءكم.

فقام البراء بن معرور وأخذ بيد النبي صلّى اللّه عليه وآله وقـال : نعـم والذي بعثك بالحق نبياً لنمنعنك مما نمنع منه أُزرنا(١) فبايعنا يا رسـول اللّه فنحن واللّه

---

(١) الملاحظ في هذه البيعة انها كانت بيعة للدفاع عن النبيّ صلّى اللّه عليه وآله وليس بيعة للجهاد في سبيل اللّه، ولهذا فان رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله لم يقدم على القتال في بدر إلا بعد ان كتب موافقة الانصار ورضاهم.

ابناء الحروب واهل الحلقة (اي السلاح) ورثناها كابراً عن كابر.

فدب في الحضور حماس وسرور عظيم وتعالت الاصوات والنداءات مـن الخزرجيين والتي كانت تعبيراً عن شدة حماسهم، وسرورهم لهذا الأمـر، فقال العباس وهو آخذ بيد رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله.

وفي هذا الاثناء نهض «البراء بن معرور» و«أبو الهيثم بن التيهـان» و«أسعد بن زرارة» من مواضعهم وبايعوا رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله ثم بايعه بقية القوم جميعاً.

وقد قال ابن التيهان عند مبايعته للنبي صلّى اللّه عليه وآله يا رسول اللّـه إن بيننا وبين الرجال (اي اليهود) حبالاً (وعلاقات) وإنا قاطعوهـا، فهـل عسيت إن نحن فعلنا ذلك ثم أظهرك اللّه، أن ترجع إلى قومك وتدعنا ؟

فتبسم رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله ثم قال : «بل الدم الدم، والهدم الهدم احارب من حاربتم واسالم من سالمتم» يعني أنه سيبقى علـى العهـد، ولا يتركهم وكانت العرب تقول عند عقد الحلف : دمي دمك، وهدمي هـدمك، وهي كناية عن البقاء على العهد واحترام الميثاق والحِلف.

ثم ان رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله قال : أخرجوا إلي منكم إثني عشـر نقيباً ليكونوا على قومهم بما فيهم(١).

فأخرجوا منهم اثني عشر نقيباً فقال صلّى اللّه عليه وآله لاولئك النقبـاء : «انتم على قومكم بما فيهم كُفلاء ككفالة الحواريين لعيسى بن مـريم وأنـا كفيل على قومي (يعني المسلمين) فأُبايعكم على أن تمنعوني مما تمنعـون منه نساءكم وأبناءكم».

فقالوا : نعم وبايعوه على ذلك.

وكان النقباء الذين اختيروا لذلك تسعةً من الخزرج وثلاثةً من الأوس وقـد ضبِطَت أسماؤهم وخصوصياتهم في التاريخ.

---

(١) المحبر : ص ٢٦٨ - ٢٧٤.

وبعد أن تمت مراسم البيعة وعدهم رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآلـه بـأن يهاجِر إليهم في الوقت المناسب، ثم ارفض الجمع وعاد القوم إلى رحالهم(١).

أوضاع المسلمين بعد بيعة العقبة :

والآن ينبغي أن نجيب بالتفصيل على السؤال الذي يطرح نفسه هنا وهو : ما الذي دعى أهل يثرب الذين كانوا بعيدين عن مركز ظهور الاسلام إلى ان يستجيبوا لنداء الرسول صلّى اللّه عليه وآله ويأخذوا بتعاليمه اسرع من المكيين مع ما كان بين المكيين وبين رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله مـن القرابة القريبة ؟

وكيف تركت تلك اللقاءاتُ المعدودةُ القصيرةُ بأهل يثرب آثاراً تفوق الآثار التي تركتها الدعوةُ المحمدية خلال ثلاثة عشر عاماً في مكة ؟

إن علة هذا التقدم يمكن اختصارها وحصرها في أمرين :

أولاً : أن اليثربيين جاوروا اليهود سنيناً عديدة وطويلة قبل الاسلام، وكثيراً ما كانوا يتحدثون في مجالسهم وأنديتهم عن النبي العربي الـذي يظهـر، ويأتي بدينٍ جديدٍ.

حتى أن اليهود كانوا يقولون للوثنيين: إن هذا النبي سـيقيم ديـن اليهـود وينشره، ويمحي الوثنية ويقضي عليها بالمرة.

فتركت هذه الكلماتُ أثراً عجيباً في نفوس أهل يثرب، وهيأت قلوبهم لقبول الدين الذي كان يخبر عنه يهود وينتظرونه، بحيث عندما التقـى الانفـار الستة من اهل المدينة الى الايمان برسول اللّه صلّى اللّه عليه وآلـه لأول مرة، بادروا الى

---

(١) بحار الأنوار : ج ١٩ ص ٢٥ و٢٦، السيرة النبوية : ج ١ ص ٤٤١ - ٤٥٠، الطبقات الكبرى : ج ١ ص ٢٢١ - ٢٢٣.

وفي رواية أُخرى في البحار : ج ١٩ ص ٤٧، كما اخذ موسى من بني اسرائيل اثني عشر نقيباً وقد كان هذا العمل النبوي حكيماً جداً لان عامة الناس لا يمكن التعويل والاتكال على التزاماتهم بل لا بد من الاعتماد - ضمناً - على رموز المجتمع ومفاتيحه وهم وجوه القوم وسراتهم.

الايمان به من غير إبطال ولا تأخير بعد أن قال بعضهم لبعض : والله إنّه للنبي الذي توعدكم به يهود فلا تسبقنكم اليه.

ومن هنا فان مما يأخذه القرآن على اليهود هو : أنكم كنتم تهددون الوثنيين بالنبي العربي، وتبشرون الناس بانه سيظهر، وانهم قرأوا أوصافه وعلائمه في التوراة، فلماذا رفضوا الإيمان به لما جاء صلّى الله عليه وآله.

يقول تعالى :

(ولما جاءهم كِتاب مِن عندِ اللّهِ مصدق لِما معهم وكانُوا مِن قبلُ يستفتِحون على الّذين كفروا، فلما جاءهم ما عرفُوا كفروا بِهِ، فلعنَةُ اللّهِ على الكافِرين)(١).

ثانياً : إن العامل الأخير الذي يمكن اعتباره دخيلاً في التأثير في نفوس اليثربيين وسرعة إقبالهم على الإسلام وتقبلهم لدعوة النبي صلّى الله عليه وآله هو التعب والارهاق الذي كان اهل يثرب قد أُصيبوا به من جراء الحروب الطويلة الدامية فيما بينهم والتي استمرت مائة وعشرين عاماً والتي انهكتهم وكادت أن تذهب بما تبقّى من رمقهم، وجعلتهم يملّون الحياة، وينفقدون كلّ أملٍ في تحسن الأحوال والاوضاع.

وإن مطالعة وقعة «بعاث» وهي - حرب وقعت بين الأوس والخزرج - وحدها كفيلة بأن تجسد لنا الوجه الواقعي الذي كان عليه سكان تلك الديار.

ففي هذه الوقعة انهزم الاوسيون على يد الخزرجيين، فهربوا الى «نجـد»، فعيرهم الخزرجيون بذلك، فغضب «الحضير» سيد الأوس، لذلك غضبـاً شديداً، فطعن فخذه برمحه لشدة انزعاجه وغضبه، وترجـل عـن فرسـه وصاح بقومه قائلاً : واللّه لا أقوم من مكاني هذا حتى أُقتل!! فأوقد صمود «الحضير» وثباته نار الحمية والغيرة واشعل روح الشهامة والبسالة فـي قومه، فقرروا الدفاع عن حقهم مهما كلفهـم الامـر، فقـاتلوا أعداءهـم مستميتين، والمستميت منتصر لا محالة، فانتصر

---

(١) البقرة : ٨٩.

الأوسويون المغلوبون، هذه المرة، وهزموا الخزرج هزيمة نكراء واحرقت مزارعهم ونزل بهم ما نزل على يد الاوسيين!!(١).

ثم تتابعت الحروب والمصالحات بعد ذلك، وكانت القبيلتان تتحملان في كل مرة خسائر كبرى، جعلتهم يواجهون عشرات المشاكل التي حولت حياتهم الى حياة مضنية متعبة جداً.

من هنا لم تكن كلتا القبيلتين راضيتين على أوضاعهما، وكانتا تبحثان عن مخلص مما هما فيه، من الحالة السيئة، وتفتشان عن نافذة أمل، ومخـرج

من تلك المشاكل.

ولهذا وجد الخزرجيون الستة ضالّتهم المنشودة عندما التقوا - ولاول مرة - رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله وسمعوا منه مـا سـمعوا، فتمنّـوا أن يضعوا به حداً لاوضاعهم المتردية إذ قالوا له : عسى أن يجمعهم اللّه بك فان جمعهم اللّه بك فلا رجلَ أعز منك.

كانت هذه هي بعض الأسباب التي دعت اليثربيين إلى تقبل الاسلام بشوقٍ ورغبةٍ وحماس.

ردود فعل قريش تجاه بيعة العقبة :

كانت قريش تغطّ في نوم عميق وكانت تتصور بانها قد حدت مـن تقـدم الاسلام في مكة وانه قد بدأ يتقهقر ويسير باتجاه السقوط والاندحار، وأنـه لن ينقضي زمان إلا وتنطفئ جذوة الاسلام وتخمد شعلته، وتنمحي آثاره.

وفجأة استيقظت على دوي بيعة العقبة الثانية التي كانت بمثابة انفجار قلبت كل المعادلات، وأسقطت كل تصورات قريش الساذجة، وذلك عندما عرف زعماء الوثنيين بأن ثلاثاً وسبعين شخصاً من اليثربيين عقدوا ليلـة أمـس وتحت جنح الظلام بيعة مع رسول اللّه صلّى اللّه عليـه وآلـه علـى أن يدافعوا عنه كما

(١) الكامل في التاريخ : ج ١ ص ٤١٧ و٤١٨.

يدافعون عن أبنائهم وأهليهم.

فأحدث هذا النبأ خوفاً عجيباً في قلوب قادة قريش وسادة مكـة المشركيـن المتغطرسين، لانهم أخذوا يقولون مع أنفسهم : لقد وجـد المسلمـون الآن قاعدة قوية في قلب الجزيرة العربية، وانه يخشى أن يجمع المسلمون كـل طاقاتهم المبعثرة فيها، ويعملون معاً على نشر دينهم، وبث عقيدتهم، وحينئذ ستواجه الوثنية في مكة خطراً جدياً، يهددها في الصميم.

ولهذا بادرت قريش إلى الاتصال بالخزرجيين صبيحة تلك الليلـة وقـالوا لهم : يا معشر الخزرج انه قد بلغنا أنكم قد جئتم إلى صاحبنا تستخرجونه من بين أظهرنا، وتبايعونه على حربنا، إنه واللّهِ ما من حي مـن العـرب أبغض إلينا أن تنشب الحرب بيننا وبينهم، منكم.

فحلفَ المشركون من أهل يثرب لقريش أنه ما كان من هذا شـيء، ومـا علموه، وقد صدقوا لأنهم لم يعلموا بما جرى في العقبة. فان قافلة اليثربيين كانت تضم خمسمائة شخص، تسلّلَ منهم ثلاث وسبعون فقط الـى العقبـة وبقية الناس نيام لا يعلمون بشيء.

فأتتقريش إلى «عبد اللّه بن أبي بن سلول» فسألوه عما جرى في ليلـة العقبة، فأنكر ذلك وقال : إن هذا الأمر جسيم، ما كان قومي ليتفوتوا علي بمثل هذا (أي يعملوه من دون مشورتي) وما علمته كان، فنهـض رجـال قريش من عنده ليتابعوا تحقيقهم حول الحادث.

فعرف المسلمون الذين حضروا ذلك المجلس وبايعوا رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله بفشو أمرهم، وانكشاف سرهم، ولهذا قال بعضهم لبعض : مـا دمنا لم نُعرف بعد فلنخرج من مكة فوراً قبل ان يظفر المشركـون بنـا، ولهذا أسرعوا في الخروج من مكة والتوجه الى المدينة، فزاد ذلـك مـن سوء ظن قريش وعززت شكوكهم حول البيعة، وعرفوا بانـه قـد كـان، فخرجوا في طلب جميع اليثربيين، ولكنهم لم يتنبهوا لذلك إلا بعد خـروج قافلة اليثربيين من حدود مكة، والمكيين، ولم تظفر قريش إلا بسعـد بـن عبادة.

غير أن ابن هشام يرى بأنّهم ظفروا بنفرين هما : «سـعد بـن عبـادة» و«المنذر بن عمر»، وكان كلاهما من النقباء الاثني عشر.

وأما «المنذر» فاستطاع أن يخلّص نفسه منهم.

وأما «سعد» فقد أخذوه، وربطوا يديه إلى عنقه بنسع رحله، ثم أقبلوا بـه حتى أدخلوه مكة يضربونه، ويجذبونه بجمته(١) وكان ذا شعر كثير.

يقول سعد :

فواللّه إنّي لفي أيديهم إذ طلع علي نفر من قريش فيهـم رجـل وضـيء أبيض، طويل القامة، فقلت في نفسي : إن يك عند أحدٍ من القوم خير فعند هذا.

قال : فلما دنى منّي رفع يده فلكمني لكمةً شديدةً.

فقلتُ في نفسي : لا واللّه، ما عندهم بعد هذا من خير.

قال : فواللّه إنّي لفي أيديهم يسحبونني إذ رقّ علي رجل كان معهم، فقال : ويحك أما بينك وبين أحدٍ من قريش جوار ولا عهد ؟

قلت : بلى كنتُ أُجير لجبير بن مطعِمٍ بن عدي تجارةً، وأمنعهم ممن أراد ظلمهم ببلادي.

فذهب ذلك الرجلُ الى مطعِمٍ وأخبره بما فيه سعد بن عبادة من الحال، وأنه أخبره بأنه كان يجير لمطعم تجارة فقال مطعِم : صدق واللّه إنه كان ليجير لنا تجارة، ويمنعهم أن يظلموا ببلده ثم أسرع إلى سعد وخلّصه من أيديهم.

وكان رفقاء سعد من المسلمين قد علموا بوقوعه في أيدي قريش فـي أثناء الطريق إلى المدينة، فعزموا على أن يعودوا إلى مكة ويخلّصوه مـن أيدي المشركين، وبينما هم كذلك إذ بدى لهم «سعد» من بعيد، وأخبرهم بما جرى عليه(٢).

تأثير الاسلام ونفوذه المعنوي :

يصر المستشرقون على أن انتشار الاسلام ونفوذه فـي المجتمعـات تـم بواسطة

---

(١) مجتمع شعر الرأس.

(٢) السيرة النبوية : ج ١ ص ٤٤٩ و٤٥٠.

السيف وفي ظلّ استخدام القوة.

اما بطلان هذا الكلام فسيثبت من خلال الحوادث القادمة.

ونحن نذكر هنا للمثال حادثةً وقعت قبل الهجرة، ونلفت اليها نظر القـارئ الكريم، فان دراستها والتعمق فيها يثبت بجلاء ان انتشار الاسلام ونفـوذه

في أوساط الناس كان في بداية الأمر نابعاً من جاذبيتـه الـتي كانـت تجذب كل انسان بمجرد إعطاء شرح مختصر عنه وتعاليمه المحببة اليه.

واليك الحادثة بنصها :

قرر مصعب بن عمير المبلّغ والداعية الاسلامي المعـروف الـذي بعثـه رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله الى المدينة بطلب من اسـعد بـن زرارة، ذات يوم أن يدعو هو واسعد أشراف المدينة وساداتها الى الاسلام بالمنطق والدليل فدخلا حائطاً(١) من حوائط المدينة فجلسا هناك واجتمـع اليهمـا رجال ممن اسلم، وكان سعد بن معاذ واسيد بن حضير وهما من سـادات بني الاشهل موجودين هناك أيضاً.

فقال سعد لاسيد : جرد حربتك وقل لهذين (يعني مصعباً واسعد) ماذا جاء بهما الى ديارنا يسفهان ضعفاءنا، ولولا أن سعد بن زرارة ابـن خـالتي، لكفيتُك ذلك.

ففعل أُسيد ذلك وقال لمصعب ما جاء بكما الينا تسفّهـان ضـعفاءنا وراح يشتمهما فقال له مصعب داعية الاسلام الحكيم، والمتكلم البليغ الذي تعلّـم اسلوب الدعوة المؤثر من رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله أوتجلس فتسمع، فان رضيت أمراً قبلته، وان كرهته كفّ عنك ما تكره ؟

قال : أنصفت ثم ركّز حربته وجلس إليهما يستمع لقولهما فكلّمه مصعـب بالاسلام، وقرأ عليه شيئاً من القرآن، فأثّرت آياتُ القرآن وما قاله مصعب

من المواعظ البليغة في نفسه حتى عرف ذلك فـي إشـراق وجهـه، وانفراج اساريره، وشوقه فقال : ما احسن هذا الكـلام واجملـه ؟ كيـف تصنعون إذا اردتم أن تدخلُوا

---

(١) بستاناً.

في هذا الدين ؟ فقال مصعب وأسعد له : تغتسل فتطهر وتغسل ثوبيك ثـم تشهد شهادة الحق ثم تصلي.

فقام اسيد بن حضير الذي حضر لقتل مصعب وسعد من عندهما مبتهجـاً مسروراً فاغتسل وطهر ثوبيه وتشهد شهادة الحق ثم قام فركع ركعتين.

ثم قال لهما : ان ورائي رجلاً إن اتبعكما لم يتخلف عنه أحد مـن قومـه وسأرسله إليكما الآن، ثم اخذ حربته وانصرف الى سعد بن معاذ الذي كان ينتظر عودته على أحر من الجمر فلما نظر اليه سعد وقومه وهم جالسون في ناديهم قال :

أحلفُ باللّهِ لقد جاءكم اسيد بن حضير بغير الوجه الذي ذهب من عندكـم فلما وقف على النادي قال له سعد ما فعلت ؟

قال : كلّمت الرجلين، فواللّه ما رأيت بهما بأساً، وقد نهيتُهما، فقالا : نفعل ما احببتَ، فغضب سعد لذلك غضباً شديداً، وأخذ الحربة من أُسـيد، ثـم خرج الى مصعب واسعد ليقتلهما، فلما رآهما سعد مطمئنين وقف عليهمـا متشتماً مهدداً اياهما، ولكن مصعباً وزميله قابلاه بمثل ما قابلا بـه سـابقه اسيد، وجرى له ما جرى له، فقد فعلت كلمات مصعب في نفسه فعلتهـا، وخضع لمنطقه القوي، وبيانه الساحِر، وندم على ما قصـد فعلـه، وقـال لمصعب نفس ما قاله اسيد واعتنق الاسلام واغتسل وتطهر وصلى ثم رجع الى قومه وقال لهم : يا بني عبد الاشهل كيف تعلمون أمري فيكم ؟ قالوا : سيدنا وافضلنا رأياً وايمننا نقيبةً.

قال : فان كلام رجالكم ونسائكم علي حرام حتى تؤمنوا باللّـه وبرسـوله فالحمد للّه الذي اكرمنا بذلك.

فلم يمسِ في دار بني عبد الاشهل رجل ولا إمرأة إلا مسلمـاً أو مسلمـة، وهكذا أسلم كل قبيلة بني الأشهل قبل أن يروا النبي صلّى اللّه عليه وآلـه وأصبحوا من الدعاة إلى الاسلام والمدافعين عن عقيدة التوحيد، لا بمنطق القوة انما بقوة المنطق(١).

---

(١) إعلام الورى : ص ٥٩، بحار الأنوار : ج ١٩ ص ١٠ و١١، السيرة النبوية : ج ١ ص ٤٣٦ و٤٣٧.

ان في التاريخ الاسلامي نماذج كثيرة من هذا القبيل تـدل علـى بطـلان وتفاهة ما قاله أو روجه المستشرقون حول أسباب تقدم الاسلام وانتشـاره، فان العامل المعتمد في جميع هذه الموارد لم يكن المـال والتطميـع، ولا السلاح والتهديد، كما ادعى المستشرقون، وان الذين اسـلموا فـي هـذه الحوادث والوقائع لا هم رأوا رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآلـه ولا أنهـم التقوا أو اتصلوا به بنحوٍ من الانحاء، انما كان السبب الوحيد هو : منطق الداعية الاسلامي القوي وبيانه الساحر الجذاب، فهو الذي كان يفعـل فـي النفوس فعله العجيب، خلال دقائق معدودة، لا في نفـس شـخص واحـد فحسب، بل ربما في نفوس قبيلة بكاملها.

اجل انه المنطقُ القوي والكلام المبرهن والحجة البالغة لا سواها.

مخاوف قريش المتزايدة :

لقد ايقظت حماية اليثربيين للمسلمين قريشاً من غفلتها ونومها العميق مرة أُخرى، وكانت بيعة العقبة الثانية بمثابة ناقوس خطر لهـا فبـدأت أذاهـا وإضطهادها ومضايقتها لهم من جديد، وتهيأت للعمل على الحيلولـة دون انتشار الاسلام ونفوذه وتقدمه في الجزيرة العربية، وبلغ ذلك الاذى مبلغـاً عظيماً.

فشكى أصحاب رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله اليه ما يلقونه على أيـدي المشركين من ضغوط واذى، واستأذنوه في الهجرة الى مكان فاسـتمهلهم

رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله اياماً ثم قال :

«لقد أُخبرت بدار هجرتكم وهي يثرب فمن اراد الخروج فليخرج إليها»(١).

وبعد الاذن بالهجرة من قِبل النبي صلّى اللّه عليه وآله أخذ المسلمون يخرجون من مكة، ويتوجهون الى المدينة شيئاً فشيئاً وبحجج مختلفة لكي لا تمنعهم قريش من الهجرة.

---

(١) الطبقات الكبرى : ج ١ ص ٢٢٦.

ولم يكن قد مضى على بداية هجرة المسلمين التدريجية هذه زمان طويل الا وفطن زعماء قريش لسرها، وخطرها عليهم فاخذوا يمنعون من أي تنقل وسفر يقوم به المسلمون، وقرروا ان يعيدوا الى مكة كل من وجدوه في اثناء الطريق، كما قرروا ان يحبسوا زوجة كل مسلم يريد الهجرة وله زوجة قرشية ويمنعوها عنه، ولكنهم كانوا يتجنبون اراقة الدماء في هذا السبيل، بل وكان يقتصر اذاهم على الحبس والتعذيب ولا يتعداهما.

ولكن هذه المحاولات التي قام بها زعماء قريش لوقف الهجرة الى المدينة لم تثمر لحسن الحظ(١).

فقد استطاعت مجاميع كبيرة من المسلمين النجاة بنفسها من أيدي قريـش واللحاق بزملائهم واخوانهم في يثرب حتى انه لم يبـق فـي مكـة مـن المسلمين إلا رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله وعلي عليه السلام وعدد قليل من المسجونين، أو المرضى من المسلمين.

وقد زاد اجتماع المسلمين في يثرب من مخاوف قريش، وضـاعف مـن قلقها، ولهذا اجتمع كل رؤساء القبائل المكية في «دار الندوة» اكثر من مرة للتشاور في كيفية القضاء على الاسلام وطُرحت في ذلك المجلس خطـط متنوعة، واقترحت أُمور كثيرة لتحقيق هذه الغاية ولكنها فشلـت برمتهـا بتدبير رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله وحكمته، وسياسته الدقيقة.

وأخيراً هاجر رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله من «مكة» إلى «المدينـة» في شهر ربيع الاول سنة ١٤ من البعثة.

اجل لقد تضاعف قلق قريش منذ أن حصل محمد على قاعدة ثانية خارجة عن نطاق هيمنة المكيين وسيطرتهم واصبحوا حـيرى لا يـدرون مـاذا يفعلون، لان جميع خططهم للمنع من انتشار الاسلام، واتساع رقعته، قـد باءت بالفشل.

لقد أمر رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله أصحابه بـالهجرة الـى المدينـة والالتحاق

بالانصار وقال لهم : «إن اللّه قد جعل لكم داراً وإخواناً تأمنُون بهـا»(١)(٢).

---

(١) بحار الأنوار : ج ١٩ ص ٢٦.

(٢) لقد انتهينا من تسجيل حوادث السنوات الثلاث عشرة من البعثة، وقد حاولنا ذكر كل ما كان معلوماً مشهوراً من تواريخها، ولكن لا يمكن اعتبار تواريخ كل تلك الحوادث أُموراً مقطوعاً بها، من هنا ذكرنا الحوادث المثبتة في الفصل ٢٤ من دون ادراج تواريخ لها في الاغلب ولكن حيث أن الوقائع الحادثة بعد الهجرة وقعت في أوقات معينة معلومة لذلك فاننا سنرفق ذكر كل حادثة بتاريخ وقوعها في الفصول القادمة.

حوادث السنة الأُولى من الهجرة

٢٥ ـ قصّة الهجرة

كان زعماء قريش ورؤساؤها يجتمعون عند كل نائبة تنـوبهم فـي «دار الندوة» لحل المشاكل ومعالجة ما عرض لهم من نائبةٍ من خلال التشـاور حولها وتداول الرأي فيها، ومن خلال تضافر الجهود على حلها، ورفعهـا أو دفعها.

وفي السنوات : الثانية عشرة، والثالثة عشرة من البعثة واجه أهـل مكـة خطراً كبيراً جدياً، فقد حصل المسلمون على مركز هام، وقاعدة صلبة في يثرب، وتعهد اليثربيون الشجعان بحماية رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآلـه والدفاع عنه، وكل هذا كان من علامات ومظاهر ذلك التهديـد الخطـير، الذي بات يهدد كيان المشركين والوثنيين والزعامة القرشية.

وفي شهر ربيع الأول من السنة الثالثة عشرة من البعثة التي وقعـت فيـه هجرة رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله وبينما لم يكن قد بقي من المسلميـن في مكة إلا رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله وعلي وأبو بكر وجماعة قليلة من المسلمين المحبوسين، أو المرضى، أو العجزة، وكـان هـؤلاء علـى أبواب الهجرة ومغادرة مكة الى المدينة اتخذت قريش فجأة قراراً قاطعـاً وحاسماً وخطيراً جداً في هذا المجال.

فقد انعقدت جلسة هامة للتشاور في «دار النـدوة» حضرهـا رؤسـاء قريش

وزعماؤها وبدأ متكلمهم(١) يتحدث عن تجمع القوى والعناصر الاسـلامية وتمركزها في المدينة والبيعة التي تمت بين الخزرجيين والأوسيين وبيـن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله ثم أضاف قائلاً :

يا معشر قريش إنه لم يكن أحد من العرب أعز مِنّا، نحن أهل اللّه تفد إلينا العرب في السنة مرتين، ويكرموننا، ونحن في حرم اللّه لا يطمـع فينـا طامع، فلم نزل كذلك حتى نشأ فينا «محمد بن عبد اللّـه» فكنّـا نسميـه (الأمين) لصلاحه، وسكونه، وصدق لهجته، حتى إذا بلغ ما بلغ وأكرمنـاه ادعى أنه رسول اللّه، وأن أخبار السماء تأتيه، فسفّه أحلامنا، وسب آلهتنا، وأفسد شبابنا، وفرق جماعتنا، فلم يرد علينا شيء أعظم من هذا، وقد رأيت فيه رأياً، رأيت أن ندس اليه رجلاً منّا ليقتله، فان طلبت بنو هاشم بدمه(٢) اعطيناهم عشر ديات.

فقال رجل مجهول حضر ذلك المجلس ووصف نفسه بانه نجدي : ما هـذا برأي لأن قاتل محمد مقتول لا محالة، فمن هذا الذي يبذل نفسه للقتل منكم ؟ فانه اذا قُتِل محمد تعصب بنو هاشم وحلفاؤهم من خزاعـة، وإن بنـي هاشم لا ترضى أن يمشي قاتل محمد علـى وجـه الارض فيقـع بينكـم الحروب وتتفانوا.

فقال أبو البختري : نلقيه في بيت ونلقي اليه قوته حـتى يأتيـه ريـب المنون.

فقال الشيخ النجدي مرةً أُخرى : وهذا رأي أخبث من الآخـر، لأن بنـي هاشم لا ترضى بذلك، فاذا جاء موسم من مواسم العرب اسـتغاثوا بهـم، واجتمعوا عليكم فاخرجوه.

فقال ثالث : نُخرجه من بلادنا ونتفرغ نحن لعبادة آلهتنا، أو قـال نرحـل بعيراً صعباً ونوثّق محمداً عليه كتافاً، ثم نضرب البعير بأطراف الرمـاح فيوشَك أن يقطّعه بين الصخور والجبال إرباً إرباً.

فانبرى ذلك النجدي يخطّئ هذا الرأي أيضاً قائلاً : أرأيتم إن خلص به

---

(١) وروي انه كان المتكلم : أبو جهل.

(٢) وفي رواية : بديته.

البعير سالماً إلى بعض الناس فأخذ بقلوبهم بسحر بيانه وطلاقـة لسانـه، فصبأ(١) القوم اليه، واستجابت القبائل له قبيلة فقبيلةً، فليسيرن حينئذ اليكم الكتائب والجيوش فلتهلكن كما هلكت أياد ومن كان قبلكم.

فتحيروا وساد الصمت ذلك المجلس، وفجأة قال أبو جهل (وعلى روايـة : قال ذلك الشيخ النجدي) : ليس هناك من رأي إلا أن تعمدوا الـى قبائلكـم فتختاروا من كل قبيلة منها رجلاً قوياً ثم تسلّحوه حساماً عضباً وليهجمـوا عليه معاً بالليل ويقطعوه إرباً إرباً فيتفرق دمه في قبائل قريش جميعاً فـلا تستطيع بنو هاشم وبنو المطلب مناهضة قبائل قريش كلها فـي صـاحبهم فيرضون حينئذ بالدية منهم !!

فاستحسن الجميع هذا الرأي، واتفقوا عليه، ثم اختاروا القتلـة وتقـرر ان يقوموا بمهمتهم اذا جن الليل وساد الظلام كل مكان(٢).

الإمدادات الغيبية والعنايات الالهية :

لقد كان اولئك العتاة الجهلة يتصورون أن رسالة محمد صلّى اللّـه عليـه وآله المدعومة من قبل اللّه تعالى والمؤيدة من جانبه سـبحانه يمكـن ان يقضى عليها بواسطة هذه الحيل والمكائد، والخطـط والمؤامـرات، ولـم يكونوا يدركون أن هذا النبي - كغيره من الأنبياء - يتمتع بالمدد الالهـي الغيبي، وان اليد التي حفظت مشعل الاسلام طوال ثلاثة عشر عامـاً فـي وجه الاعاصير والرياح، قادرة على افشال هذه الخطة الاثيمة، وتعطيـل هذه المؤامرة أيضاً.

يقول المفسرون : بعد أن دبر الكفار ما دبروا نزل ملك الوحي «جبرئيل»، على رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله وأخبره بما حاك ضده المشركون من

مؤامرة اذ

---

(١) صبأ فلان : أي خرج من دينٍ إلى دين غيره وكانت العرب تسمّي النبيّ صلّى اللّه عليه وآله الصابئ لأنه خرج من دين قريش إلى دين الاسلام وتسمي المسلمين : الصباة. وهو جمع الصابئ.

(٢) الطبقات الكبرى : ج ١ ص ٢٢٧ و٢٢٨، السيرة النبوية : ج ١ ص ٤٨٠ - ٤٨٢ .

قرأ عليه قول اللّه تعالى :

(وإذ يمكُر بكَ الّذين كفروا ليثبِتوك أو يقتُلُـوك أو يخرجـوك ويمكـرونَ ويمكُر اللّه واللّه خير الماكِرين)(١).

وعندئذ أُمِر رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله بالهجرة من مكة إلى المدينة، ولكن التخلص من أيدي القساة المكلّفين بقتله من قبـل زعمـاء الوثنيـين وبالنظر الى المراقبة الدقيقة التي كانوا يقومون بها لجميع التحركات، لـم يكن بالأمر السهل وخاصة بالنظر الى بعد المسافة بين مكة والمدينة.

فاذا لم يكن رسولُ اللّه صلّى اللّه عليه وآله يخرج من مكة وفق خطة دقيقة صحيحة كان من المحتمل جداً أن يدركه المكيـون فـي أثنـاء الطريـق ويقبضوا عليه ويسفكوا دمه الشريف قبل ان يصل الى أتباعه وأصحابه.

ولقد ذكر المفسرون والمؤرخون صوراً مختلفة لكيفية خروج النبي صـلّى اللّه عليه وآله وهجرته، والاختلاف الذي نلاحظه بين هـؤلاء المفسريـن والمؤرخين في خصوصيات وتفاصيل هذه الواقعة مما يقل نظيره في غيره من الوقائع.

وقد استطاع مؤلف «السيرة الحلبية» أن يوفّق الى درجةٍ ما، بين المنقولات والمرويات المختلفة ببيان خاص، ولكنـه لـم يوفّـق لازالـة التناقـض والاختلاف في بعض الموارد في هذا الصعيد.

على أن الموضوع الجدير بالإهتمام هو أن اكثر المؤرخين الشيعة والسنـة نقل كيفية هجرة النبي، وخروجه من منزله، ثم من مكة بنحو مؤداه إسـناد نجاة النبي صلّى اللّه عليه وآله وخلاصه إلى عامل الاعجاز، وبالتالي فقد اسبغوا عليه صبغة الكرامة، والمعجزة.

في حين أن الإمعان في تفاصيل هذه القصة يكشف عـن أن نجـاة النبـي صلّى اللّه عليه وآله كانت نتيجة سلسلة مـن الاجـراءات الاحترازيـة، والتحسبات، والتدابير الحكيمة، وإن إرادة اللّه تعالى تعلّقت بان ينجي نبيه

---

(١) الانفال : ٣٠، ليثبتوك أي ليسجنوك.

الكريم، عن طريق الأسباب العادية المألوفة، وليس عن طريـق التدخّـل الغيبي وإعمال قدرته تعالى الغيبية.

ويدل على هذا المطلب أن النبي توسل بالعِلل الطبيعية، والوسائل والأسباب العادية (كمبيت شخص في فراش النبي، واختفاء رسول اللّه فـي الغـار وغير ذلك مما سيأتي ذكره)، وبهذا الطريق نجى رسول اللّه صـلّى اللّـه عليه وآله نفسه، وتخلّص من أيدي اعدائه، العازمين على إراقة دمه.

ملك الوحي يخبر رسول اللّه :

لقد اخبر ملك الوحي «جبرئيل» رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآلـه بخطـة قريش المشؤومة لاغتياله وامره بالهجرة، وتقرر - بغية إفشـال عمليـة الملاحقة - ان يبيت شخص في فراش رسول اللّه صلّى اللّه عليـه وآلـه ليتصور المشركون أن النبي لا يزال في منزله، ولم يخرج بعد، وبالتالـي يركّزوا كلّ إهتمامهم على محاصرة البيت، وينصرفوا عن مراقبة طرقات مكة، ونواحيها.

ولقد كانت فائدة هذا العمل أي حصر اهتمام المراقبين ببيت النبي انه تسنى لرسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله اغتنام الفرصـة والخـروج مـن مكـة، والاختفاء في مكان ما من دون ان يحس به أحد من الذين باتوا يراقبـون بيته، ويبغون قتله.

والآن يجب أن نرى من الذي تطوع للمبيت في فـراش رسـول اللّـه صلّى اللّه عليه وآله وفدى النبي بنفسه، ووقاه بحياته ؟

ستقولون حتماً : إن الذي سبق جميع المسلمين الى الايمان برسـول اللّـه صلّى اللّه عليه وآله ويقي من بدء بعثته والى ذلك الحين يذب عنـه، هـو الذي يتعين أن يضحي بنفسه في هذا السبيل، وبقي رسول اللّه صلّى اللّـه عليه وآله بحياته في هذه اللحظة الخطيرة، وهذا المضحي بحياته ونفسـه، هو «علي» ليس سواه احد، انه تقدير صحيح، وحدس مصيب.

فليس غير «علي» يصلح لهذه المهمة الخطيرة.

ولهذا قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله لعلي عليه السلام :

«يا علي إن قريشاً اجتمعت عَلى المكر بي وقتلي، وإنّه أُوحيَ إلـي عـن ربي أن اهجر دار قومي، فنَم على فراشي والتحف بـبردي الحضرمـي لِتُخفي بمبيتك عليهم أثري فما أنت قائل وصانع ؟؟

فقال علي عليه السلام : أَوَتَسلَمَن بِمَبِيتي هناك يا نبي اللّه ؟

قال : نعم، فتبسم علي عليه السلام ضاحكاً مسروراً وأهوى إلـى الأرض ساجداً، شكراً لما أنبأه رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله من سـلامته، فلمـا

رفع رأسه قال للنبي صلّى اللّه عليه وآله :

إمض لما أُمرتَ فِداك سمعي وبصري وسويداء قلبي، ومرني بما شئتَ اكن فيه كمسرتك، واقع فيه بحيث مرادك، وإن توفيقي إلا باللّه.

ثم رقَدَ علي عليه السلام على فراش رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله واشتمل ببرده الحضرمي الاخضر، ولما مضى شطر من الليل حاصرَ رصَد قريش - وهم اربعون رجلاً - بيت رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله وقد جردوا سيوفهم، ينتظرون لحظة الهجوم على النبي صلّى اللّه عليه وآله ويتطلّعون إلى داخل البيت من فرجة الباب بين الحين والآخر ليتأكدوا من بقاء رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله في مضجعه، فيظنون أن النائمَ في الفراش هو النبي صلّى اللّه عليه وآله.

وهنا أراد النبي صلّى اللّه عليه وآله أن يخرج من بيته.

فمن جانب يحاصر الأعداء بيته صلّى اللّه عليه وآله من كل جانب، ويراقبون كلّ شيء، ومن جانب آخر تعلّقت مشيئة اللّه تعالى وارادته القاهرة الغالبة أن ينجو رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله من ايدي تلك الزمرة المنحطة، فقرأ رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله سورة (يس) لمناسبة مطلعها لظروفه حتى بلغ الى قوله تعالى : «فهم لا يبصرون»(١) وخرج من باب البيت دون ان يشعر به رصد قريش المكلّفون بقتله، وذهب الى المكان الذي كان من المقرر ان يختبئ

(١) يس : ٩.

فيه على النحو الذي سيأتي تفصيله.

وأما كيف استطاع رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله ان يخـترق الحصـار البشري المشدد الذي ضربَ على بيته، ويتجاوز رصد قريش من غير ان يشعروا به فذلك غير معلوم جيداً.

إلا أنه يستفاد من رواية نقلها المفسر الشيعي المعروفُ المرحوم علي بـن ابراهيم في تفسيره : قول اللّه تعالى : (وإذ يَمكُر بِك الـذين كفَـروا) ان رجال قريش كانوا نياماً ينتظرون الفجر عند خروج رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله، ولم يكونوا يتصورون أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله قـد عرف بتدبيرهم ومؤامرتهم.

ولكن يصرح غيره من المؤرخين وكُتّاب السـيرة(١) بـان المحاصـرين لمنزل النبي صلّى اللّه عليه وآله كانوا يقظين حتى لحظة الهجوم على بيت رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله وان النبي صلّى اللّه عليه وآله خرج مـن البيت عن طريق الاعجاز والكرامة من دون ان يروه ويحسوا به.

إن امكان وقوع مثل هذه الكرامة ليس موضع شك، ولكن هل كان هناك ما

يوجب ذلك ؟؟

ان دراسة قصة الهجرة بصورة كاملة تجعل هذه المسألة أمراً قطعياً وهي أن النبي صلّى اللّه عليه وآله كان عارفاً بمؤامرة القوم قبل محاصرة بيته، وكان قد دبر ورسم لنجاته خطةً طبيعيةً عاديةً، ولم يكن فـي الأمـر أي اعجاز.

ولقد كان يريد صلّى اللّه عليه وآله باضجاع علي عليه السلام في فراشـه أن ينجو بنفسه من أيدي المشركين من الطرق العادية والقنوات الطبيعيـة من غير الاستعانة بالاعجاز والكرامة.

وعلى هذا كان في مقدور النبي صلّى اللّه عليه وآله ان يتحسـب لمسألـة المحاصرة والطوق الذي كان سيضرَب على بيته من أوائل الليل، وذلـك بمغادرة

---

(١) الطبقات الكبرى : ج ١ ص ٢٢٨، تاريخ الطبري : ج ٢ ص ١٠٠.

بيته قبل المحاصرة وقبل الغروب.

ولكن يمكن ان يكون لتوقف النبي صلّى اللّه عليه وآله في البيت حتـى ساعة المحاصرة علة لا نعرفها الآن.

من هنا يكون إدعاء هذا الموضوع (وهو خروج النبي صلّى اللّه عليه وآله من البيت في الليل) غير مقطوع به لدى الجميع لاعتقاد البعض بان رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله غادر منزله قبل فرض الحصـار عليـه، وقبـل غروب الشمس(١).

إقتحام الاعداء لبيت الوحي :

طوقت قوى الكفر مهبط الوحي وبيت الرسالة وباتت تنتظر لحظـة الإذن في إقتحامه، والهجوم على النبي صلّى اللّه عليه وآله في فراشه وضـربه وتقطيعه بالسيوف إرباً إرباً !

وقد أصر جماعة منهم أن ينفّذوا خطتهم المشؤومة هذه في منتصف الليـل وقبل الفجر فمنعهم أبو لهب من ذلك وقال : لا أدعكم أن تـدخلوا عليـه بالليل، فإن في الدار صبياناً ونساءً من بني هاشم، ولا نأمن أن تقـع يـد خاطئة، فنحرسه الليلة، فإذا أصبحنا دخلنا عليه.

وربما يقال أن علّة التأخير هي أنهم أرادوا أن يقتلوا رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله عند الصباح أمام أعين بني هاشم حتى يروا أن قاتلـه جماعـة وليس واحداً.

وانقشع الظلام شيئاً فشيئاً، وانفجر الصبح، ودب في المشركين شوق غريب، مع اقتراب ساعة الصفر، فقد كانوا يتصورون بأنهم سينالون ما يريدون قريباً، وبينما هم ينتضون سيوفهم دخلوا حجرة رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله، وبينما هم يهمون بأخذ من كان راقداً في الفراش بسيوفهم، إذا بهم يواجهون علياً

---

(١) السيرة الحلبية : ج ٢ ص ٢٩.

عليه السلام يثب في وجوههم وهو يكشف عن نفسه برد رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله الأخضر، وقال لهم في منتهى الطمأنينة والشجاعة : ما شأنكم ؟ وماذا تريدون ؟؟

فقالوا له بغضب : أين محمد ؟

فقال عليه السلام : أجعلتموني عليه رقيباً ؟!

فغضِب القوم غضباً شديداً، وكاد الغيظ يخنقهم، فقد ندموا على إنتظارهم انفجار الصبح وحملوا أبا لهب الذي منعهم من تنفيذ الهجوم على النبي في منتصف الليل فشل الخطة وتفويت الفرصة، فاقبلوا عليه يلومونه

ويوبخونه !!

أجل لقد انزعجت قريش بشدة لفشل هذه المؤامرة، ووجدوا انفسهـم أمـام هزيمة نكراء بددت كلّ أحلامهم، وحيث أنهم كانوا يتصورون بأن النبـي صلّى اللّه عليه وآله لا يستطيع الخروج عن حدود مكة في مثل تلك المدة القصيرة فهو إما مختبئ في مكة، أو أنه لا يزال في طريق المدينة، لذلـك أقدموا فوراً على العمل على ترتيب أمر ملاحقته والقبض عليه.

النبي في غار ثور :

ان ما هو مسلّم به هو أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله أمضى هو وأبو بكر ليلة الهجرة وليلتين اخريين بعدها في غار ثور الذي يقع في جنـوب مكة في النقطة المحاذية للمدينة المنورة(١).

وليس من الواضح كيف تمت هذه المصاحبة والمرافقة ولماذا، فـان هـذه المسألة من القضايا التاريخية الغامضة.

فان البعض يعتقد بان هذه المصاحبة كانت بالصدفة، فقد رأى رسول اللّـه صلّى اللّه عليه وآله أبا بكر في الطريق، فاصطحبه معه الى غار ثور.

---

(١) حيث ان الطريق المؤدي إلى المدينة تقع في شمال مكة، فاختبأ النبيّ صلّى اللّه عليه وآله في منطقة مقابلة أي في اسفل مكة، ليعمي بذلك على قريش فلا يتبعوا أثره.

وروى فريق آخر أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله ذهب في نفس الليلة إلى بيت أبي بكر، ثم خرجا معاً في منتصف الليل إلى غار ثور(١).

وقال فريق ثالث : أن أبا بكر جاء هو بنفسه يريد النبي وكان صلّى اللّـه عليه وآله قد خرج من قبل فأرشده «علي» إلى مخبأ النبي صلّى اللّه عليه وآله.

وعلى كل حال فان كثيراً من المؤرخين يعدون هذه المصاحبة من مفاخـر الخليفة ومناقبه، ويذكرون هذه الفضيلة ويتحدثون عنها بكثير من الاسهاب والاطناب، وبمزيد من الاكبار والاعجاب.

قريش تفتش عن النبيّ :

لقد تسبب فشل قريش في تغيير خطتها، فقد بـادرت إلـى بـث العيـون والجواسيس في طرقات مكة، ومراقبة مداخلها ومخارجها مراقبةً شـديدةً، وبعثت القافّة تقتص أثره في كل مكان، وفي طريق مكة - المدينة خاصة.

ومن جانب آخر جعلت مائة ابل لمن ياخذ نبي اللّه، ويرده عليهم أو يأتـي

عنه بخبر صحيح.

وعمد جماعة من قريش إلى ملاحقة رسول اللّه والتفتيش عنه في شـمال مكة، حيث الطريق المؤدي الى المدينة، على حين أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله كان قد اختبأ - كما قلنا - في نقطة بجنوب مكة لافشال عمليـة الملاحقة.

وتصدت مجموعة أُخرى لتتبع أثر قدم النـبي صـلّى اللّـه عليـه وآلـه ورفيقه !!

وكان الذي يقفو لهم الأثر يدعى أبا مكرز فوقف بهم علـى بـاب حجـرة رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله فقال هذه قدم محمد، فما زال بهـم حتـى أوقفهم على باب الغار فانقطع عنه الأثر فقال : ما جاوز محمد ومن معـه هذا المكان، إما أن يكونا صعدا إلى السماء، أو دخلا تحت الأرض، فـان بباب هذا الغار - كما ترون عليه - نسجَ

---

(١) تاريخ الطبري : ج ٢ ص ١٠٠.

العنكبوت والقبجة حاضنة على بيضها بباب الغار(١)، فلم يدخلوا الغار.

ولقد استمرت هذه المحاولات بحثاً عن النبي صلّى اللّه عليه وآله ثلاثة أيام بلياليها ولكن دون جدوى، فلما يئس القوم بعد ثلاثة ايام من السعي تركـوا التفتيش وكفوا عن الملاحقة.

التفاني في سبيل الحق :

ان النقطة المهمة في هذه الصفحة من التاريخ هي ما قام به علـي عليـه السلام من تفان في سبيل الحق، والحقيقة.

إن التفاني في سبيل الحق من شيمة الرجال الذين أحبوا الحق وعشقوه بكل وجودهم وكيانهم.

إن الذين يغضون نظرهم عن كلّ شيء من أشياء الدنيا ويضحون بالنفـس والمال والشخصية، ويستخدمون كل طاقاتهم المادية والمعنوية في سـبيل خدمة الحق، واحيائه، واقامته هم ولا شك من عشـاق الحـق والحقيقـة الصادقين.

انهم يرون كمالهم وسعادتهم في هدفهم، وهذا هو الـذي يـدفعهم إلـى أن يصرفوا النظر عن الحياة العابرة، والعيش الموقت، ويلتحقوا بركب الحياة الواقعية الأبدية.

إن مبيت علي عليه السلام في فراش رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآلـه في تلك الليلة الرهيبة لنموذج بارز من هذا الحب الحقيقي للحق، والعشـق الصادق للحقيقة، فان الدافع وراء التطوع لمثل هذه المهمة الخطيرة لم يكن إلا حب «علي» لبقاء الاسلام الذي يكفل سعادة المجتمع، ويضمن ازدهار الحياة، لا غير.

---

(١) الطبقات الكبرى : ج ١ ص ٢٢٩ تاريخ الخميس ج ١ ص ٣٢٧ و ٣٢٨ وغيرها، ولقد ذكر عامة المؤرخين هذه الكرامة هنا، ولا ينبغي - نظراً لما ذكرناه في قصة الفيل وهلاك أبرهة وجنده بواسطة الابابيل، تأويل مثل هذا الكرامات.

إن لهذه التضحية والتفاني من القيمة العظمى بحيث مدحها اللّه تعالى فـي كتابه العظيم، ووصفها بأنها كانت تضحية صادقة لكسب مرضاة اللّه، فان الآية التالية نزلت - حسب رواية اكثر المفسرين - في هذا المورد :

(ومِنَ النّاس من يشري نفسَه ابتغاء مرضاةِ اللّهِ واللّه رؤوف بِالعِباد)(١).

ان عظمة هذه الفضيلة واهمية هذا العمل التضحوي العظيم دفعت بكبـار علماء الاسلام إلى اعتبارها واحدة من أكبر فضائل الامام علي عليه السلام وإلى أن يَصِفُوا بها علياً بالفداء والبذل والايثار، وإلى ان يعتبروا نـزول الآية المذكورة في شأنه من المسلّمات كلّما بلـغ الحـديث فـي التفسيـر والتاريخ اليها(٢).

إن هذه الحقيقة مما لا ينسى أبداً فانه من الممكن اخفاء وجه الواقع والتعتيم عليه بعض الوقت إلا أنه سرعان ما تمزق أشعةُ الحقيقة الساطعة حجـب الاوهام، وتخرج شمس الحقيقة من وراء الغيوم.

إن معاداة معاوية لأهل بيت النبوة وبخاصة للامام أمير المؤمنين علي عليه السلام مما لا يمكن النقاش فيه.

فقد أراد هذا الطاغية من خلال تطميع بعض صحابة النبي صلّى اللّه عليه وآله أن يلوث صفحات التاريخ اللامعة ويخفي حقائقه بوضـع الاكاذيـب، ولكنه لم يحرز في هذا السبيل نجاحاً.

فقد عمد «سمرة بن جندب» الذي ادرك عهد رسول اللّه صلّى اللّه عليـه وآله ثم انضم بعد وفاته صلّى اللّه عليه وآله إلى بلاط معاوية بالشام، عمد إلى تحريف الحقائق لقاء اموال أخذها من الجهاز الأموي، الحاقد على أهل البيت.

فقد طلب منه معاوية باصرار أن يرقى المنبر ويكذّب نزول هذه الآية فـي شأن

---

(١) البقرة : ٢٠٧.

(٢) مسند احمد : ج ١ ص ٨٧، وكنز العمال : ج ٦ ص ٤٠٧، وقد نقل كتاب الغدير : ج ٢ ص ٤٧ - ٤٩ طبعة لبنان مصادر نزول هذه الآية في شأن عليّ عليه السلام على نحو التفصيل، فراجع.

علي عليه السلام، ويقول للناس أنها نزلت في حق قاتل علـي (أي عبـد الرحمن بن ملجم المرادي)، ويأخذ في مقابل هذه الاكذوبة الكبرى، وهـذا الاختلاق الفظيع الذي أهلك به دينه مائة ألف درهم.

فلم يقبل «سمرة» بهذا العرض ولكن معاوية زاد له في المبلغ حـتى بلـغ اربعمائة ألف درهم، فقبل الرجل بذلك فقام بتحريف الحقائق الثابتة، مسوداً بذلك صفحته السوداء اكثر من ذي قبل وذلك عندما رقي المنبر وفعل مـا طلب منه معاوية(١).

وقبل السامعون البسطاء قوله، ولم يخطر ببال أحد منهـم أبـداً ان (عبـد الرحمن بن ملجم) اليمني لم يكن يوم نزول الآية في الحجاز بل لعلّـه لـم يكن قد وِلد بعد آنذاك. فكيف يصح ؟!

ولكن الحقيقة لا يمكن ان تخفى بمثل هذه الحجب الواهيـة، ولا يمكـن ان تنسى بمثل هذه المحاولات العنكبوتية الرخيصة.

فقد تعرضت حكومة معاوية وتعرض أهلها وانصارها للحوادث، واندثرت آثار الاختلاق والافتعال الذي وقع في عهده المشـؤوم، وطلعـت شـمس

الحقيقة والواقع من وراء حجب الجهل والافتراء مرة أُخرى، واعترف اغلب المفسرين الأجلّة(٢) والمحدثين الافاضل - في العصـور والادوار المختلفة، بأن الآية المذكورة نزلت في «ليلة المبيت» في بذل علي عليـه السلام ومفاداته النبي صلّى اللّه عليه وآله بنفسه(٣).

---

(١) لاحظ شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد : ج ٤ ص ٧٣.

(٢) شرح نهج البلاغة : ج ١٣ ص ٢٦٢، ولقد أعطى ابن أبي الحديد حقّ الكلام حول هذه الفضيلة.

(٣) سمرة بن جندب من العناصر المجرمة في الحكومة الاموية، ولم يكتف سمرة بتحريف الحقائق وقلبها بما ذكرناه، بل أضاف الى ذلك - حسب رواية ابن ابي الحديد - أمراً آخر أيضاً اذ قال : ونزل في شأن «عليّ» قول اللّه : (ومِن النّاس من يُعجِبُك قولُهُ في الحياةِ الدُنيا ويشهدُ اللّه على ما في قلبِه وهُو ألَدُّ الخِصام)(البقرة : ٢٠٤).

ومن جرائم هذا الرجل انه قتل يوم وُلّيَ البصرة على عهد زياد بن أبيه في العراق ثمانية آلاف ممّن كانوا يحبون أهلَ البيت ويوالونهم وعندما سأله معاوية : هل تخاف ان تكونَ قد قتلتَ أحداً بريئاً ؟

أجاب قائلاً : لو قتلتُ اليهم مثلَهم ما خشيت !!

هذا ومخازي هذا الرجل اكثر من ان تستوعبه هذه الصفحات القلائل.

وسمرة هذا هو ذلك الرجل الصلف الجاف الذي رد على رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله طلبَه بأن يراعي حقَّ جاره في قضية النخلة مراراً فقال له رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله له : «إنك رجل مضارّ ولا ضرر ولا ضرار في الاسلام» ولمزيد التوضيح راجع كتب الحديث والتراجم والتاريخ.

كلام من ابن تيمية :

احمد بن عبد الحليم الحراني الحنبلي الذي مات في سجن بدمشق عام ٧٢٨ من علماء السنّة، تعود اليه اكثر معتقدات الوهابيين، وأفكارهم.

ولابن تيمية هذا آراء ومواقف خاصة من النبي الاكرم صلّى اللّه عليه وآله وأمير المؤمنين، وعامة أهل بيت النبوة، وقد صرح باكثر آرائه ومعتقداته هذه في كتابه «منهاج السنة».

وقد دفعت عقائده المنحرفة وآراؤه الضالّة الكثير من علماء عصره إلى تكفيره، والتبري منه.

ولابن تيمية رأي عجيب حول هذه الفضيلة نذكره للقارئ الكريم مع تصرف بسيط في الألفاظ(١).

ومن المؤسف ان يكون قد تأثر بآرائه بعض السذّج والجاهلين، فنجدهم يشيعون آراءه في المجتمع من دون تحقيق فيما قال، ومن دون مراجعة ذوي الاختصاص لمعرفة رأيهم في أفكاره ومعتقداته وهم غافلون عن أن مثل هذه الآراء قد صدرت من منحرف وكذّبه بل وكفّره بسببها أهل مذهبه.

هذا واليك خلاصة رأيه في فضيلة «المبيت».

يقول : ان مبيت «علي» في فراش رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله لا تعد

---

(١) راجع السيرة الحلبية : ج ٢ ص ٢٦٣ وسبعة الجاحظ في العثمانية.

فضيلة لأن علياً عرف من طريقين بانه لن يصيبَه شيء في تلك الليلة :

الأوّل : إخبار رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله الصادق المصدق نفسه اياه بذلك إذ قال له في نفس تلك الليلة : «نَم في فِراشي فإنه لا يَخلُص إليك شيء تكرَهه» !!.

الثاني : أن النبي صلّى اللّه عليه وآله كلّفه برد الودائع واداء الامانات التي أودعها أهل مكة عند رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله، إلى أصحابها.

فعلم - من ذلك - أنه لن يقتل والا لكلّفَ رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله الآخرين بها.

فعرف «علي» من هذا التكليف أنه لن يلحقه أذىً في هذه العملية وانه

سيوفق لأداء ما كلّفَه به رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله.

الجواب :

وقبل أن نجيب عن هذا الكلام على نحو التفصيل نقول إجمـالاً : إن ابـن تيمية بانكاره هذه الفضيلة أثبت فضيلة أعلى لعلي عليه السلام لأنه إما كان ايمان علي بصدق مقالة الرسول كان ايماناً عادياً، وإما أن كان إيماناً قوياً جداً، وكانت جميع اقوال النبي صلّى اللّه عليه وآله وإخباراته لديه - فـي ضوء ايمانه - كالنهار في وضوحه.

وعلى الفرض الاول لم يكن لعلي يقين بنجاته من تلـك الواقعـة لأنـه لا يحصل لمثل هذه الطبقة من الناس (ولا شك أن علياً ليس منهم حتماً) يقين من كلام النبي صلّى اللّه عليه وآله، وحتى لو قبلوا به في الظاهر، فانهـم سيساورهم القلق، ولا يفارقهم الاضطراب، واذا هم باتوا في فراشـه فـي لحظات الخطر، فانه سيبقون فريسة الخوف والوجل وستمر في نفوسـهم إحتمالات كثيرة حول مآل الأمر ومصيره، وسيتمثل أمامهم شبح المـوت المرعب في كل لحظة وآن.

وعلى هذا الفرض لا بد أن يقال : بأن علياً عليه السلام لم يقدم على هـذا الأمر الخطير إلا وهو يحتمل الهلاك على أيدي المشركين، لا أنـه بـات وهو يتيقن

النجاة والسلامة.

وأما بناءً على الفرض الثاني فانه تثبت لعلي عليه السلام فضيلـة أعلـى واعظم، لأن ايمان الرجل يجب ان يبلغ من القوة والكمال بحيث لا يفـرق بين صدق كلام النبي وبين وضوح النهار أي أنهما يكونان عنـده بمنزلـة سواء.

ولا شك ان أهمية مثل هذا الايمان لا يمكن أن يعادِلها شيء.

ونتيجة هذا الايمان هي أن النبي صلّى اللّه عليه وآله عندما قال له : نَم في فراشي فان يصيبك من هجوم الاعداء الحاقدين مكروه أن ينام في فـراش النبي صلّى اللّه عليه وآله بقلبٍ واثِقٍ بالسلامة، ونفس مطمئنةٍ الى النجاة، ومن دون أن يخالج نفسَه أقل إحتمال للخطر.

ولو كان مراد ابن تيمية من قوله : ان علياً كان واثقاً مـن سـلامته، لأن الصادق المصدق أخبره بذلك هو : إثبات أعلى درجات الإيمان لعلي عليه السلام فقد اثبت له عليه السلام من حيث لا يشعر اكبر فضيلـة، وأعلـى منقبة، وهي كمال الايمان والثقة برسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله وأخباره.

هذا هو الجواب الاجمالي واليك الجواب التفصيلي :

الجواب التفصيلي :

فنقول عن الدليل الأول : إن عبارة «لا يخلص اليك شيء تكرهه» لم ينقلها بعض أرباب السيرة ورجال علم التاريخ الذين لهم سابقة لا تنكر في هذا الصعيد(١).

نعم روى ابن الاثير المتوفى عام ٦٣٠(٢)، والطبري المتوفى عام ٣١٠(٣) هذه العبارة وكأنّما قد اخذاها عن ابن هشام في سيرته(٤) التي نقل فيها تلك العبارة

---

(١) مثل مؤلّف الطبقات الكبرى : ج ١ ص ٢٢٧ و٢٢٨ المولود عام ١٦٨ والمتوفى عام ٢٣٠، وكذا المقريزي في امتاع الاسماع، عند ذكرهم لتفاصيل قضية المبيت.

(٢) التاريخ الكامل : ج ٢ ص ٧٢.

(٣) تاريخ الطبري : ج ٢ ص ٩٩.

(٤) السيرة النبوية : ج ١ ص ٤٨٣.

بالصورة المتقدمة الذكر، خاصة أن عبارة ذينك المؤلّفين (الطبري وابن الأثير) تطابق عبارة ابن هشام في هذا المجال تماماً.

هذا مضافاً إلى أن القضية لا توجد بهذه الصورة في مؤلفات علماء الشيعة

على ما نعلم.

ولقد نقل شيخُ الطائفة الامامية محمد بن الحسن الطوسي المتوفى عام ٤٦٠ في أماليه قصة الهجرة بشكل اكثر تفصيلاً ودقة، وذكر العبارة المذكورة مع تغيير بسيطٍ، الا أنه تختلف صورة القضية مع ذلك عما هي عليه في كتب أهل السنة، فانه رحمه اللّه يصرح بان علياً عليه السلام انطلق هو و«هند بن أبي هالة» ابن خديجة وربيب رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله في منتصف الليل بعد ليلتين من الهجرة حتى دخلا على النبي صلّى اللّه عليه وآله فقال صلّى اللّه عليه وآله لعلي :

«إنّهم لن يَصِلُوا مِن الآن إليك يا علي بأمرٍ تكرهه حتّى تقدم علي»(١).

وهذه الجملة تشبه الجملة التي ذكرها ابن هشام والطبري وابن الأثير، ولكن النبي صلّى اللّه عليه وآله قالها لعلي عليه السلام مطمئِناً إياه بعد ليلتين من المبيت في الفراش، وليس ليلة المبيت كما يروي الثلاثة المذكورون.

هذا علاوة على أن كلام علي نفسه خير شاهد على ما نقول :

فلقد عد علي عليه السلام عمله هذا (أي المبيت في فراش رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله في تلك الليلة الرهيبة) نموذجاً من بذله وتفانيه في سبيل الحق كما يتضح ذلك بجلاء من اشعاره حيث يقول :

وَقيتُ بنفسي خيرَ من وطأ الحصا*ومَن طاف بالبيتِ العتيق وبالحجر**

محمّد لما خافَ أن يمكُروا بهِ*فوقاهُ ربّي ذُو الجلالِ مِن المَكر**

وبتُّ أُراعي منهم ما يسوءني*وقد وطّنت نفسي على القتل والأسر**

وباتَ رسُولُ اللّهِ في الغار آمِناً*هناك وفي حفظِ الاله وفي سَتر(٢)**

---

(١) الأمالي : ج ٢ ص ٨٤.

(٢) المصدر السابق وغيره، هذا مضافاً إلى أنَّ الامام عليه السلام نفسه قد استنشد المسلمين مراراً بهذه القضية مستدلاً بها على تفانيه في سبيل الاسلام.

ومع هذه العبارات الصريحة لا مجال للاعتماد على قول ابن هشام الـذي تدل قرائن كثيرة على خطأه، ويحتمل، احتمالاً قوياً، بأن اشتباهه وخطأه قد نشأ من تلخيصه لسيرة ابن اسحاق، وحيث أنه (ونعني ابن هشام) قد بنـى في سيرته على الاختصار لذلك اكتفى بنقل أصل العبارة، مهمـلاً ظـرف النطق بها لعدم أهمية زمن النطق بها وأنها قيلت في الليلة الثانية او الثالثة، في نظره، وروى الموضوع بنحوٍ يوهم بان جميع هذه الامور وقعت فـي ليلةٍ واحدةٍ !!

ويؤيد رأينا هذا أيضاً الحديث المعروف الذي رواه كثير من علماء السنـة والشيعة وهو : أن اللّه أوحى إلى جبرئيل وميكائيل عليهما السلام أنّي قـد آخيت بينكما وجعلت عمر احدكما أطول من عمر صاحبه فأيكمـا يؤثـر أخاه.

وكلاهما كره الموت، فاوحى اللّه إليهما : عبداي ألا كنتمـا مثـل وليـي «علي» آخيت بينه وبين «محمد» نبيي فآثره بالحياة على نفسه ؟ أو قال : قد نام على فراشه يقيه بمهجته.

ثم أمرهما بالهبوط إلى الأرض وحراسة علي وحفظه من عدوه(١).

واما الدليل الثاني الذي يستفيد منه ابن تيمية أن علياً كان يعلم بمصيره هو توصية النبي صلّى اللّه عليه وآله به بأداء الامانات والودائع إلـى أهلهـا، التي كانت تكشف عن ان رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله كان يعلم بأنه لن يصلَ إليه مكروه، ولهذا امره برد الودائع والامانات إلى أصحابها.

ولكنّنا نعتقد ان في مقدورنا الحصول على حل لهذه المشكلة إذا استعرضنا بقية قصة الهجرة بشكل صريحٍ وكاملٍ.

واليك بقية قصة الهجرة.

الخطيب وقضية المبيت :

وينبغي أن نختم هذا الفصل بما كتبه الاستاذ عبد الكريم الخطيب حول

---

(١) بحار الأنوار : ج ١٩ ص ٣٩ نقلاً عن احياء العلوم للغزالي.

مبيت علي عليه السلام في فراش رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآلـه حيـث قال : لقد دعا رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله علياً ليلة الهجرة، وطلب إليه أن يبيت في المكان الذي اعتاد الرسول صلّى اللّه عليه وآله ان يبيت فيه، وان يتغطى بالبرد الحضرمي الذي كان النبي صلّى اللّه عليه وآله يتغطى به حتى اذا نظر ناظر من قريش الى الدار رأى كأن النبي صلّى اللّه عليه وآله نائم في مكانه مغطى بالبرد الذي يتغطى به، وهذا الذي كان من علي في ليلة الهجرة اذا نظر اليه في مجرى الاحداث التي عرضت للامام علي في حياته بعد تلك الليلة فانه يرفع لعيني الناظر أمارات واضحة واشـارت دالة على ان هذا التدبير الذي كان في تلك الليلة لم يكن أمراً عارضاً بـل هو عن حكمة لها آثارها - الى ان قال - انه اذا غاب شـخص الرسـول كان علي هو الشخصية المهيأة لأن تخلفه وتمثّل شخصه وتقوم مقامه، حين نظرنا إلى علي وهو في برد الرسول وفي مثوى منامه الذي اعتاد أن ينام فيه فقلنا : هذا خلْفُ الرسول صلّى اللّه عليه وآله والقائم مقامه(١).

بقية قصةِ هجرةِ النبيّ :

انتهت المراحلُ الأولى لنجاة رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله وفق تخطيط صحيح، بنجاح، فقد لجأ رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله في منتصف الليل الى غار ثور، واختبأ فيه، وبذلك أفشل محاولة المتآمرين عليه.

ولقد كان رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله طوال هذا الوقت مطمئناً لا يحس في نفسه بأي قلق أو إضطراب، حتى انه طمأن رفيق سفره عندما وجـده مضطرباً في تلك اللحظات الحساسة بقوله :

(لا تحزَن إن اللّه مَعَنا)(٢).

وبقي هناك ثلاث ليال محروساً بعين اللّه تعالى ومشمولاً بعنايته ولطفه،

---

(١) راجع كتاب علي بن أبي طالب بقيّة النبوّة وخاتم الخلافة، ص ١٠٣ - ١٠٥ ملخّصاً.

(٢) التوبة : ٤٠.

وكان يتردد عليه صلّى اللّه عليه وآله في هذه الاثناء علي عليـه السـلام

وهند بن ابي هالة (ابن خديجة) على رواية الشيخ الطوسي في أماليه، وعبد اللّه بن أبي بكر وعامر بن فهيرة راعي اغنام أبي بكر (بناء على رواية كثير من المؤرخين).

يقول ابن الاثير : كان عبد اللّه بن أبي بكر يتسمع لهما بمكة نهاره ثم يأتيهما ليلاً، وكان يرعى غنمه نهاره على مقربة من الغار، وكان اذا غدا من عندهما عفى على أثر الغنم(١).

يقول الشيخ الطوسي في أماليه : عندما دخل علي عليه السلام وهند على رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله في الغار (بعد ليلة الهجرة) أمر رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله علياً أن يبتاع بعيرين له ولصاحبه، فقال أبو بكر : قد كنتُ أعددت لي ولك يا نبي اللّه راحلتين نرتحلهما الى يثرب.

فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله إني لا آخذهما ولا أحدهما إلا بالثمن. ثم أمر صلّى اللّه عليه وآله علياً عليه السلام فدفع إليه ثمن البعيرين(٢).

وكان من جملة وصايا رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله لعلي عليه السلام في الغار في تلك الليلة ان يؤدي أمانته على أعين الناس ظاهراً وذلك بأن يقيم صارخاً بالابطح غدوة وعشياً : ألا من كان له قِبل محمد أمانة او وديعة فليأت فلنؤد اليه أمانته(٣).

ثم أوصاه صلّى اللّه عليه وآله بالفواطم (والفواطم هن : فاطمة الزهراء بنت رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله الحبيبة لديه، والأثيرة عنده، وفاطمة

بنت أسد أم علي عليه السلام وفاطمة بنت الزبير ومن يريـد الهجـرة معه من بني هاشم)، وأمره بترتيب أمر ترحيلهم معه الى يثرب وتهيئة ما يحتاجون اليه من زاد وراحلة.

وهنا قال صلّى اللّه عليه وآله عبارته التي تذرع بها ابن تيمية في دليله

---

(١) الكامل في التاريخ : ج ٢ ص ٧٣ مع تصرف.

(٢) أمالي الشيخ : ج ٢ ص ٨٢.

(٣) الكامل : ج ٢ ص ٧٣، السيرة الحلبية : ج ٢ ص ٥٣.

الأول : «انهم لن يصلوا من الآن اليك يا علي بأمرٍ تكرهـه حـتى تقـدم علي».

فالملاحظ للقارئ هو أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله إنمـا قـال هـذه العبارة عندما أمره بأداء أمانته، وذلك بعد انقضاء قضية ليلة المبيت.

أي انه أمر علياً بذلك، وقال له تلك العبارة وهو يتهيأ للخروج مـن غـار ثور.

يقول الحلبي في سيرته : «وصى رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآلـه فـي احدى الليالي وهو بالغار علياً رضي اللّه عنه بحفظ ذمتـه واداء امانتـه ظاهراً على اعين الناس»(١).

وثم ينقل عن مؤلف كتاب «الدر» ما يقتضي انه اجتمع به عند خروجه من الغار.

وخلاصة القول : انه مع رواية شيخ جليل من مشـائخ الشيعـة الاماميـة كالشيخ الطوسي بالاسناد الصحيحة أن الأمر برد الودائع والامانات صدر من جانب النبي صلّى اللّه عليه وآله إلى علي عليه السلام بعد ليلة المبيت لا يحقّ لنا أن نعارض هذا النقل الصحيح، ونعمد إلى الهاء العامة بالتوافه، وأما رواية مؤرخي اهل السنة هذا المطلب بشكل آخر يوحي ظاهره بـأن جميع وصايا النبي صلّى اللّه عليه وآله لعلي تمت في ليلة واحدة هي ليلة الهجرة (ليلة المبيت) فقابل للتفسير والتوجيه، لأنه لا يبعد أن عنايتهم كانت مركزة على رواية أصل الموضوع، ولم يكن لظرف صدور هذه الوصايا والأوامر ووقت بيانها اهمية عندهم.

الخروج من الغار :

هيأ علي عليه السلام بأمر النبي صلّى اللّه عليه وآله ثلاث رواحل ودليـلاً اميناً يدعى أريقظ ليترحلوها إلى المدينة، ويدلّهم الـدليل علـى طريقهـا وأرسل كل ذلك إلى الغار.

---

(١) السيرة الحلبية : ج ٢ ص ٣٥.

قبل فهرس بعد

ولما سمع النبي صلّى اللّه عليه وآله رغاء البعير او نداء الدليل نزل هـو وصاحبه من الغار وركبا البعيرين وتوجها من أسفل مكة إلـى «يـثرب» سالكين إلى ذلك الخط الساحلي، وقد جاء ذكر المنازل التي مرا بهـا فـي السيرة النبوية لابن هشام(١) وفي الهوامش المثبتة على التـاريخ الكامـل لابن الاثير(٢).

صفحةُ التاريخ الأولى :

اجل لقد حلّ الظلام في كل مكان، ولملمت الشمس اشعتها الذهبية من هـذا الوجه من الكرة الأرضية لتوجهها الى الوجه الآخر منها.

وعاد جماعة من رجال قريش الذين سلكوا كل طريق في مكة وضواحيها بحثاً عن النبي، ثلاثة أيام، بلياليها، الى بيوتهم ومنازلهم متعبين مـرهقين، وقد يئسوا من الظفر بالجائزة (وهي مائة من الإبل) التي وضـعتها سـادة قريش جائزةً لمن يأخذ محمداً أو يدل على مكانه، وأُعيد فتح طريق مكة - المدينة التي أُغلقت لهذه الغاية بعد اليأس من الظفر برسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله - (٣).

وفي هذه اللحظات بالذات بلغ نداء الدليل الذي كان يصطحب معه ثـلاث

رواحل ومقداراً من الطعام، الى مسمع رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله ورفيقه وهما في الغار وقد كان يقول بصوت خافت : لا بد ان نتخذ مـن ظلام هذا الليل ستراً، ونسرع في الخروج من حـدود المكيـن، ونختـار طريقاً يقلّ سالكوه ولا يهتدي إليه أحد.

ويبدأ تاريخ المسلمين من العام الذي تضمن تلك الليلة بـالضبط، وجعـل المسلمون يقيسون كل ما يقع من الحوادث بذلك العـام وبـذلك يحـددون تاريخه وزمان حدوثه.

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام : ج ١ ص ٤٩١.

(٢) الكامل في التاريخ : ج ٢ ص ٧٥.

(٣) تاريخ الطبري : ج ٢ ص ١٠٤.

لماذا أصبح العام الهجري مبدأ للتاريخ :

إن الاسلام أكمل الشرائع السماوية قاطبة، وقد جاء الى البشرية باتتضمنـه بشريعة موسى وعيسى عليهما السلام ولكن بصورة أكمل وبصيغة تطابق وتتمشى مع جميع الظروف والأوضاع.

ومع أن السيد المسيح عليه السلام وميلاده المبارك يحظى بالاحترام عنـد المسلمين إلا أن ميلاده عليه السلام لم يتخذ لديهم مبدأ للتاريخ، والتوقيت.

وكانت العرب قد جعلت عام الفيل(١) مبدأً لتاريخها، وكانت تقيس حوادثها وأمورها إليه فترة من الزمن، ومع أن رسول الله صلّى الله عليه وآله كان قد ولد في ذلك العام نفسه، إلا أن المسلمين لم يتخذوه مع ذلك مبدأً للتاريخ، لأنه لم يكن ينطوي على ما يتصل بقضية الإيمان والاسلام.

ولاجل هذا أيضاً لم يتخذوا عام البعثة مبدأً لتاريخ المسلمين أيضاً لأن عدد المسلمين لم يكن يتجاوز في ذلك اليوم ثلاثة أشخاص، إذن فلم يكن في أي واحد من تلك الحوادث ما يعطي مبرراً قوياً لاتخاذه مبدأً للتوقيت والتاريخ، إذ لا بد ان يكون ما يتخذ لذلك قضية مصيرية بالغة الأهمية.

ولكنه في السنة الاولى من الاعوام الهجرية حقق المسلمون انتصاراً عظيماً وباهراً، وقد أسست فيه حكومة مستقلة وتخلّص المسلمون مـن التشـرذم والتبعثر، وتمركزت قواهم وعناصرهم في نقطةٍ واحدةٍ، وبيئةٍ حرةٍ لا أثر فيها للكبت والاضطهاد، من هنا جعلوا ذلك العام (أي العام الذي تحققت فيه هجرة النبي العظيم) مبدأً لتاريخهم، واخذوا يقيسون اليه - وحـتى الآن - كل ما يحدث ويقع من خير وشر، لتحديد تاريخ وقوعه.

من هنا يكون قد مضى على عام هجرة النبي صلّى الله عليه وآله من مكة الى المدينة الف واربعمائة وتسعة اعوام.

(١) وهو العام الذي سيّر فيه أبرهة جيشاً لهدم الكعبة تتقدمه الفيلة. راجع المحبّر : ص ٥ - ٨.

الهجرة النبوية مبدأ لتاريخ المسلمين كافة :

ولقد جعل رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله التاريخ الهجري بنفسه.

وان أي إعراض وتجاهلٍ لهذا التاريخ، واختيار تاريخٍ آخر مكانه إعراض عن سنة رسول الاسلام الكريم صلّى اللّه عليه وآله، ومخالفة لما رسمه للمسلمين في هذا المجال.

إن وجود تاريخ معين ثابت (مؤلّفٍ من السنة والشهر واليوم) في الحياة الإجتماعية البشرية، من الأُمور الضرورية بل هو في غاية الضرورة والحيوية، من أجل أن لا تتوقف عجلة الحياة الإجتماعية البشرية عن الدوران والحركة بسبب فقدان مقياس زمني ثابت ومعلوم للامور والحوادث.

وتلك حقيقة لا حاجة إلى اقامة البرهان عليها لأن الاستدلال عليها يكون مثل الاستدلال على الامور البديهية.

فهل يكون تنظيم المعاهدات، والمواثيق السياسية والعسكرية، والاتفاقيـات والعقود الاقتصادية وتحويل وتسديد السندات والحوالات التجاريـة ودفـع الديون وكتابة الرسائل العائلية من دون ذكر تاريخ معين فيها أمراً مفيداً ؟ كلا حتماً، ودون ريب.

فعندما سأل بعض الصحابة النبي صلّى اللّه عليه وآله عن علـة اختـلاف أشكال القمر، وانه لماذا يكون هلالاً تارة ثم بدراً أُخرى. ثـم يعـود إلـى سيرته الأُولى هلالاً، نزل الوحي الالهي، يبين بعض حكمة هذه الظـاهرة الطبيعية اذ قال تعالى :

(قل هي مواقيت للنّاس)(١).

أي ان اختلاف اشكال القمر وهيئاته انما هو لاجل ان يعرف النـاس بـه الوقت والتاريخ فيعرفوا في أي يوم من الشهر هم، في مبدئه أو منتصفـه، أو منتهاه،

---

(١) البقرة ١٨٩ ومطلعها : «يسألونك عن الأهلة قل : هي مواقيت..».

ولكي يعرفوا بواسطة ذلك مواعيد واجباتهم الشرعية والاجتماعية، ويعرف

الديان موعد تسلّم ديونهم، ويعمد المدِينون إلى دفع ما عليهم في وقته، ويقوم المؤمنُون بفرائضهم المقيدة بالازمنة والاوقات كالصوم والحج ومـا شابه ذلك.

من هنا لا مجال للنقاش في احتياج كل أُمة إلى تاريخ معينٍ ثابـتٍ محـدد تجعله ملاكاً للتوقيت، ومداراً لتحديداتها الزمنية.

إنما الكلام هو في ما ينبغي إتباعه والجري عليه من التـواريخ، وتنظيـم المستندات والمكاتبات والمواعيد وفقاً له.

وبعبارة أُخرى : إن الكلام إنما هو في ما ينبغي جعله مبدأً للتاريخ يقاس به كل العقودِ والاتفاقات من حيث الزمان، والتوقيت.

فما الذي يصلح او ينبغي إتخاذه مبدأً للتاريخ للامة الاسلامية ؟

الجواب :

إن الاجابة على هذا السؤال واضحة جداً، وتلك الاجابة هي :

اذا كانت لأُمة من الامم حوادث لامعة وسوابق مشرقة في حياتها، وثقافـة خاصة بها، ودين ومسلك مستقلّ وشخصيات علميـة وسياسـية بـارزة،

واحداث ووقائع عظيمة مثيرة، تبعث على الفخر والاعتزاز، ولم تكـن كنبتة وحشية نبتت عفواً واعتباطاً من غير قـانون ولا جـذور كبعـض الجماعات والشّعوب الجديدة الظهور التي لا ترتكز الـى أُصـول ثابتـة معلومة.

فان على مثل هذه الأُمة أن تتخذ من أعظم حوادثها الاجتماعيـة والدينيـة مبدأً لتاريخها الذي تقيس، وتنظم عليه بقية حوادثها وأعمالها التي سـبقت تلكم الحادثة العظمى، أو التي وقعت او تقع بعدها.

ومن هنا تكون قد اكسبت شخصيتها وكيانها قوةً اكبر، وصانت نفسها مـن التبعية للشعوب والأُمم الاخرى، والميعان والفناء فيها.

وإذ لم يكن في تاريخ الأُمة الإسلامية شخصية أعلى شأناً مـن شـخصية رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله، كما لم يكن هناك حادثة أعظم، وانفع من حادثة

الهجرة النبوية المباركة، لأن هجرة النبي صلّى اللّه عليه وآله فتحت - في الحقيقة - صفحةً جديدةً في حياة البشرية، فقد خرج رسول الاسلام واتباعه من بيئة مكة الرازحة تحت الكبت، الى بيئة مناسبة حرة مكنتهم من إحداث انطلاقةٍ كبرى لم يشهد التاريخُ البشري برمته له مثلاً.

فقد استقبل اهلُ المدينة رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله ومن هاجر معه من المسلمين الى يثرب استقبالاً حاراً، ووضعوا تحت تصرفه كل ما توفر لديهم من الامكانات والقوى، فلم يمض زمن إلا وتمتع الاسلام بفضل هذه الهجرة المباركة بتشكيلات سياسية وعسكرية، واتخذ صورة وشكلَ حكومة قوية لها وزنُها، وشأنُها، وجانبها المرهوب في شبه الجزيرة العربية، وسرعان ما نشر رايته على البسيطة كلها تقريباً، وأسس حضارةً عظمى لم تر البشرية لها نظيراً.

فاذا لم تحدث تلك الهجرة المباركة المعطاء لقُضي على الاسلام في محيط مكة، وحرم العالم الانساني من هذا الفيض العظيم.

من هنا، ولأجل هذا اتخذ المسلمون هجرة رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله مبدأً لتاريخهم، ودأبوا على ذلك الى الآن حيث ينقضي أكثر من ألف وأربعمائة عام، أي أن هذه الامة الكبرى تركت وراءها إلى هذا اليوم أربعة عشر قرناً من الأمجاد والمفاخر، وهي الآن على أعتاب القرن الخامس عشر ؟

من الذي جعل الهجرة مبدأً للتاريخ ؟

على العكس مما هو مشهور بين المؤرخين من أن الخليفة الثاني جعل هجرة النبي صلّى اللّه عليه وآله مبدأً للتاريخ باقتراح وتأييد من الامام أمير المؤمنين علي عليه السلام وامر بأن تؤرخ الدواوين، والرسائل والعهود وما شابه ذلك بذلك التاريخ، فان الامعان في مراسلات النبي صلّى اللّه

عليه وآله ومكاتباته التي هي مدرجة في الأغلب في كتب التاريخ والسيرة والحديث والسنة، وكذا غير ذلك من الادلة التي سوف نذكرها في هذه الصفحات يثبت أن النبي صلّى اللّه عليه وآله هو نفسه أول من اعتمد تلك الحادثة الكبرى كمبدأ للتاريخ،

وكان يؤرخ رسائله، وكتبه إلى امراء العرب، وزعماء القبائل وغيرهم من الشخصيات البارزة بذلك التاريخ (أي التاريخ الهجري).

وها نحن ندرج هنا نماذج من تلك الرسائل النبوية المؤرخة بهذا التاريخ، ثم نعمد بعد ذلك الى استعراض الدلائل الأُخرى على هذا الأمر، ونحن نحتمل ان تكون هناك أدلة أُخرى غير ما سنذكره هنا - أيضاً - لم نقف عليها.

نماذج من رسائل النبي المؤرخة :

١ - طلب سلمان من النبي صلّى اللّه عليه وآله ان يكتب له ولأخيه (ماه بنداذ) ولأهله وصية مفيدة ينتفع بها، فاستدعى رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله علياً وأملى عليه أُموراً، وكتبها علي عليه السلام ثم جاء في آخر تلك الوصية :

«وكتب علي بن أبي طالب بأمر رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله في رجب سنة تسع من الهجرة»(١).

٢ - أدرج المؤرخُ الشهير «البلاذري» في كتابه «فتوح البلـدان» نـص معاهدة رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله مع يهود «المقنا» وذكر أن مصرياً رأى نص هذه المعاهدة في جلدٍ أحمر اللون عتيقٍ وكان قـد اسـتنسخها، فقرأها لي.

ثم نقل البلاذري نص تلك المعاهدة وقد جاء في نهايتها :

«وليس عليكم امير الا من انفسكم أو من اهل بيت رسول اللّه صلّى اللّـه عليه (وآله) وسلّم وكتب علي بن أبو طالب في سنة تسع»(٢) ومع أن «أبا طالب» يجب أن يكتب حسب القواعد الادبية في المقام «أبي طالب» لكونه مضافاً اليه فقد كتب : «علي بن أبو طالب» ولكن مع ذلك ذكر المحققـون ان قبيلة قريش كانت تتلفظ لفظة أب في جميع المـوارد (أي فـي حالـة النصب والرفع والجر) ب: «أبو» وتكتبها كـذلك أيضـاً، وقـد صـرح الاصمعي بهذا من بين الادباء.

ويقول البروفيسور «محمد حميد اللّه» مؤلف كتاب «الوثائق السياسـية» : اني

---

(١) اخبار اصفهان تأليف ابي نعيم : ج ١ ص ٥٢ و٥٣.

(٢) فتوح البلدان : ص ٧٢.

لما كنت في المدينة المنورة في شهر محرم سنة ١٣٥٨ وجدت في الكتابة القديمة التي في جنوبي جبل سلع في المدينة المنورة «أنا علي بـن أبـو طالب»(١).

٣ - جاء في معاهدة الصلح التي نظمها «خالد بن الوليد» لاهل دمشـق، ونص فيها على احترام دمائهم، واموالهم وكنائسهم : «وكتب سنة ثـلاث عشرة»(٢).

وكلنا نعلم أن دمشق فتحت في أواخر حياة الخليفة الأول.

فما يدعيه البعض من ان التاريخ الهجري قد اتخذ في عهد الخليفة الثانـي بارشاد وتأييد من الامام علي عليه السلام غير صحيح فان تـاريخ ذلـك يرتبط بالسنة السادسة عشرة او السابعة عشرة من الهجرة، والحال ان هذه المعاهدة قد نظّمت ودونت وأرخت بالتاريخ الهجري قبـل ذلـك بأربـع سنوات.

٤ - ان كتاب الصلح الذي كتبه الامام علي عليه السلام بأمر رسول اللّـه صلّى اللّه عليه وآله لنصارى نجران مؤرخٌ بالسنة الهجرية الخامسة.

فقد جاء في هذه الرسالة :

«وأمر علياً ان يكتب فيه انه كتب لخمس من الهجرة»(٣).

ان هذه الجملة تفيد بوضوح ان النبي الاكرم صلّى اللّه عليـه وآلـه هـو واضع التاريخ الهجري ومؤسسه الاول وهو الذي أمر علياً عليه السـلام بان يؤرخ ذلك الكتاب بالتاريخ الهجري في ذيله.

٥ - جاء في مقدمة الصحيفة السجادية : قال جبرئيل وهو يفسر رؤيا رآها رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله : «تدور رحى الاسلام من مهاجرك فتلبث بذاك عشر، ثم تدور رحى الاسلام على رأس خمس وثلاثين من مهاجرك فتلبث بذاك خمساً، ثم لا بد من رحى ضلالة هي قائمة على قطبها»(٤).

---

(١) مكاتيب الرسول : ص ٢٨٩ نقلاً عن شرح ملا علي القاري لشفاء القاضي عياض، وكذا الوثائق السياسية.

(٢) الاموال : طبعة مصر ص ٢٩٧.

(٣) التراتيب الادارية : ج ١ ص ١٨١ نقلاً عن السيوطي.

(٤) مقدمة الصحيفة السجادية، سفينة البحار : ج ٢ ص ٦٤١.

٦ - يروي المحدثون الاسلاميون أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله قـال

لام سلمة :

قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله : «يقتَل حسين بن علـي علـى رأس ستين من مهاجري»(١).

٧ - قال أنس بن مالك : «حدثنا أصحاب النبي صلّى اللّه عليه وآلـه ان النبي صلّى اللّه عليه وآله قال : لا تأتي مائة سنة من الهجرة ومنكم عيـن تطرف»(٢).

٨ - أرخ أصحاب النبي صلّى اللّه عليه وآله في ايـام حياتـه الحـوادث الاسلامية بهجرته فقالوا : وقع كذا في الشهر كذا من الهجرة، مثلاً كـانوا يقولون :

حولت القبلة من بيت المقدس الى الكعبة في شهر شعبان ستة عشر شـهراً أو سبعة عشر شهراً او ثمانية عشر شهراً(٣).

على رأس ثمانية عشر شهراً فرض صوم شهر رمضان(٤).

وقال عبد اللّه بن انيس أمير الوفد الذي بعثه رسول اللّه صلّى اللّه عليـه وآله : خرجت من المدينة يوم الاثنين لخمس خلون من المحرم على رأس أربعةٍ وخمسين شهراً(٥).

وقال محمد بن سلمة عن غزوة القرطاء : خرجتُ في عشر ليال خلون من المحرم فغبت تسع عشرة وقدمتُ لليلة بقيت من المحرم على رأس خمسة وخمسين شهراً(٦).

إن هذا النوع من تاريخ الحوادث والوقائع يكشف عن ان المسلمين كانوا الى السنة الخامسة من الهجرة يقيسون الحوادث بهجرة النبي صلّى اللّه عليه وآله ويؤرخون بها عن طريق عد الأشهر، حتى إذا كانت السنة الخامسة من الهجرة

---

(١) مجمع الزوائد : ج ٩ ص ١٩٠.

(٢) تاريخ الخميس : ج ١ ص ٣٦٧.

(٣) نفس المصدر : ج ١ ص ٣٦٨.

(٤) المغازي : ج ٢ ص ٥٣١ تحقيق الدكتور مارسدن جونس.

(٥) المغازي : ج ٢ ص ٥٣١.

(٦) المغازي : ج ٢ ص ٥٣٤.

أمر رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله باحلال السنة الهجرية مكان الشهر

الهجري (كما مر في الرسالة رقم ٤) حيث أمر النبي صلّى اللّه عليـه وآله بان يؤرخ الكتاب الذي كتبه لنصارى نجران بالعام الهجري.

٩ - نقل المحدثون الاسلاميون عن الزهري قوله : ان رسول اللّه صـلّى اللّه عليه وآله لما قدم المدينة مهاجراً أمر بالتاريخ فكتب في ربيـع الأول (اي شهر قدومه المدينة)(١).

١٠ - روى «الحاكم» عن «ابن عباس» ان التاريخ الهجري بدأ من السنة التي قدم فيها النبي صلّى اللّه عليه وآله المدينة(٢).

إن هذه النصوص تحكي عن أن قائد الاسلام الأكبر قـد أوضـح مسألـة التاريخ من اليوم الاول، وانه جعل هجرته مبدأ لذلك التاريخ. غايـة مـا هنالك أن هذا التاريخ كان إلى فترة من الزمن يعد بالأشهر ثم حـل العـد بالأعوام منذ حلول السنة الخامسة من الهجرة محل العد بالأشهر.

سؤال :

ويمكن ان يسأل سائل : اذا كان حقاً أن النبي صلّى اللّه عليه وآلـه هـو مؤسس التاريخ الهجري وواضعه الأول فماذا نفعل بالخبر الذي رواه كثير من المحدثين والمؤرخين.

فانهم يقولون : رفع رجل إلى عمر صكاً مكتوباً على آخر بدين يحلّ عليه

في شعبان فقال عمر : أي شعبان ؟ أمِن هذه السنة أم التي قبلها أم التي بعدها ؟

ثم جمع الناس (أي أصحاب رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله) فقال : ضعوا للناس شيئاً يعرفون به حلول ديونهم... فقال : ان بعضهم أراد أن يؤرخوا كما تؤرخ الفرس بملوكهم كلما هلك ملك أرخوا من تاريخ ولاية الذي بعده فكرهوا ذلك.

---

(١) فتح الباري : ج ٧ ص ٢٠٨، تاريخ الطبري : ج ٢ ص ٢٨٨ طبعة دار المعارف.

(٢) مستدرك الحاكم : ج ٣ ص ١٣ و١٤ وقد صححه على شرط مسلم.

ومنهم من قال : ارخوا بتاريخ الروم من زمان اسكندر فكرهوا ذلك لطوله أيضاً.

وقال آخرون : أرخوا من مولد رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله.

وقال آخرون : أرخوا من مبعثه. واشار علي بن أبي طالب عليه السلام أن يؤرخ من هجرته الى المدينة لظهوره على كل أحد، فانه أظهر من المولد والمبعث، فاستحسن عمر ذلك والصحابة، فأمر عمر أن يؤرخ من هجـرة

رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله(١).

الجواب :

إن هذا القسم من التاريخ لا يمكن الاستناد إليه في مقابل النصوص الكثيرة التي وصفت الرسول العظيم صلّى اللّه عليه وآله بكونه واضـع التاريـخ الهجري ومؤسسه الأول.

هذا مضافاً إلى أنه من الممكن أن يكون التاريخ الهجري الذي وضعه النبي الكريم صلّى اللّه عليه وآله قد تعرض للترك، وفقد رسميته بمرور الزمن وقلة الحاجة إلى التاريخ ولكن جدد في زمن الخليفة الثاني، بسبب اتسـاع نطاق العلاقات وأُعيد الاهتمام به لاشتداد الحاجة إليه في هذا العهد.

التذكير بنقطتين :

١ - لا نجد في الاقتراحات التي عرضت على الخليفة في مجال التاريـخ أي ذكر للتاريخ المسيحي الذي يجعل ميلاد السيد المسيح عليه السلام مبدأً للتاريخ.

والعلة هي : أن التاريخ الميلادي ظهر في القرن الرابع الاسلامي بين

(١) البداية والنهاية : ج ٧ ص ٧٣ و٧٤، شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد : ج ١٢ ص ٧٤، الكامل لابن الاثير : ج ١ ص ١٠.

المسيحيين بعد سلسلة من المحاسبات التخمينية، فهو لم يكن رائجـاً قبـل ذلك.

٢ - ان البلاد والاقطار الاسلامية بحاجة اليوم إلى الوحدة والاتفاق اكثـر من أي زمن مضى.

ومن مظاهر تلك الوحدة هو السعى للحفـاظ علـى التـاريخ الاسـلامي الهجري.

ومن هنا يتوجب على الاقطار الاسلامية ان تقيم كل روابطها، وعلاقاتهـا على أساس التاريخ الهجري، شمسياً كان أو قمرياً.

وان هذا الأمر بحاجة الى مؤتمر إسـلامي كبـير يشـترك فيـه كبـار الشخصيات الفكرية الاسلامية من أجل توحيد التـاريخ، ودراسـة السبـل الكفيلة بالوصول الى هذا الأمر، والتخلّص من التبعية الغربية في التاريخ.

ان من المؤسف جداً أن تتجاهل بعض الدول الاسلامية والعربية التاريـخ

الهجري وتعتمد التاريخ الميلادي المسيحي، حـتى أن شـيخ الجامـع الازهر الذي يشكل قمة القيادة الدينية في المجتمع السني يـؤرخ رسـائله بالتاريخ الميلادي، ولا يذكر الى جانبه التاريخ الهجري على الأقل !!(١)

مؤامرة الطاغوت :

وكانت ايران من الاقطار الاسلامية التي حافظت بشـدة علـى التاريـخ الهجري، واعتمدته في اعمالها، ولكن في المؤامرة التي نفّـذت بواسـطة الطاغية المقبور في عام ١٣٩٩ هجري استبدلت التاريخ الهجري بالتاريخ الشاهنشاهي وأعلن في وسائل الاعلام عن وجوب اعتمـاد هـذا التاريـخ المختلق بدل التاريخ الهجري الاصيل !!

ولقد تصور الطاغوتُ الأرعن أنه يستطيـع بحـذف التـاريخ الهجـري، واستبداله

---

(١) وقد رأيت أنا شخصياً رسالةً من شيخ الجامع الأزهر الاسبق هو الشيخ محمود عبد الحليم وعليها التاريخ الميلادي فحسب !!

بالتاريخ الشاهنشاهي المشؤوم تثبيت قواعد حكومته المهزوزة، وسـلطانه المنخور، ونظامه الظالم المهترئ، مدة أطول، ولكن العناية الالهية، وهمة

الشعب الإيراني المسلم العالية، وقيادة الاستاذ الاكبر آية اللّه العظمـى الإمام الخميني قدس سره الشريف أفشلت هذه المحاولة النكراء، وآل الأمر إلى اسقاط النظام الشاهنشاهي بثورة الشعـب المجيـدة واقامـة حكومـة الجمهورية الاسلامية على انقاض الحكم الملكي المباد، واحـلال التاريـخ الهجري الاسلامي المبارك محلّ التاريخ الشاهنشاهي المختلق. والحمد للّه(١).

برنامج الرحلة في حادث الهجرة :

لقد كان على رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله ان يقطع - للوصـول الـى المدينة - ما يقرب من اربعمائة كيلومتر، ولا شك أن طي هـذه المسافـة الطويلة تحت تلك الحرارة العالية الدرجة بحاجة إلـى خطـة صـحيحة، لضمان السلامة، خاصة وانهم كانوا يخافون من ان يقوم الأعراب الذيـن كانوا ربما يصادفونهم في اثناء الطريق باخبار قريش بهم، ولهـذا كـانوا يسيرون ليلاً ويستريحون نهاراً.

ويبدو أن شخصاً شاهد النبي ومن معه في أثناء الطريق فرجع إلى مكـة وأخبر قريشاً بذلك فخرج «سراقة بن مالك بن جعشم» يطلبهم طمعاً فـي جائزة قريش الكبرى فلحق برسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله وقد صـرف قريشاً عن ملاحقة النبي صلّى اللّه عليه وآله قبل ذلك ليتفرد بها(٢).

يقول ابن الاثير : تبعهم سراقة فلحقهم فقال أبو بكر : يا رسول اللّه ادركنا الطلب، فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله : «لا تحزن إن اللّه معنا».

ثم قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله : «اللّهم اكفني شـر سـراقة بمـا شئت» فجمع به فرسه وطرحه أرضاً.

---

(١) يستخدم في ايران تاريخ هجري آخر هو التاريخ الهجري الشمسي وهو ينفع لمعرفة الفصول وما شاكل ذلك.

(٢) التاريخ الكامل : ج ٢ ص ١٠٥.

فعلم سراقة أن هذا من دعاء رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله ولهـذا قـال بنبرة المعتذر الملتمس : يا محمد هذه إبلي بين يديك فيها غلامي.

وان احتجت الى ظهرٍ (اي مركوب) أو لبن فخذ منه فقد حكّمتك في مالي.

فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله : لا حاجة لي في مالك(١).

وروى المجلسي ان سراقة قال : فسلني حاجة.

فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله : رد عنّا من يطلُبنا من قريش.

فانصرف سراقة فاستقبله جماعة من قريش في الطلب فقال لهم : انصرفوا عن هذا الطريق فلم يمر فيه أحد، وأنا اكفيكم هذا الطريق فعليكم بطريـق اليمن والطائف.

وهكذا ما كان يمر باحد إلا وصرفه عن البحث عن النبي صلّى اللّه عليـه وآله في هذا الطريق بمثل هذا الكلام.

ثم إن كُتّاب السيرة من الشيعة والسنّة يذكرون لرسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله كرامات كثيرة في طريق مكة - المدينة ونحن ندرج واحدة بعضها :

مر رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله في أثناء الطريق على خيمة أُم معبـد وكانت إمرأة شجاعة فاضلة فنزلوا بخيمتها وطلبوا منها تمراً ولحماً أو لبناً يشترون.

فقالت : ما يحضرني شيء وكانت أغنامها قد أُصـيبت بـالهزال بسبـب الجدب، فنظر رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله إلى شاة فـي جانـب مـن الخيمة فقال صلّى اللّه عليه وآله لها : ما هذه الشاة يا أم معبد ؟ قالـت : شاة خلّفها الجهد من الغنم فقال : هل بها من لبن ؟.

قالت : هي أجهد من ذلك، قال : أتأذنين ان أحلبها ؟

(١) يذكر كثير من المؤرخين كابن الاثير في الكامل : ج ٢ ص ١٠٥، والمجلسي في البحار : ج ١٩ ص ٧٥ - ٨٨ القصة كما نقلناها هنا، ولكن مؤلف حياة محمّد يقول : ان سراقة تطيّر لما كبا به فرسُه وأُلقي في روعه أن الآلهة مانعة منه ضالّته.

قالت : نعم ان رأيتَ بها حلباً فاحلبها.

فدعا بها رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله فمسح بيده ضرعها، وسمى اللّـه عز وجل، ودعا لها في شأنها قائلاً : اللّهم بارك لها في شاتها فدرت لبنـاً كثيراً بفضل دعائه صلّى اللّه عليه وآله، فطلب إناء وحلبها، فسقاهـا أولاً حتى رويت ثم سقى أصحابه حتى رووا وشرب هو آخرهم، وقال :

«ساقي القوم آخرهم شرباً».

ثم حلب الشاة مرةً ثانيةً فغادره عندها، ثم ارتحلوا عنها إلى المدينة(١).

وقد ذُكرت هذه الكرامة في كثير من كتب السيرة والتاريخ، وهو أمر ممكن في رؤية المؤمن باللّه، لأن الدعاء أحد الاسباب التي تستطيع أن تؤثر في الطبيعة، وشأنها شأن غيرها من الكرامات التي ورد ذكرها فـي الكتـب الدينية وصدقته التجربة(٢).

النزول في قرية قباء :

تقع قرية قباء على ميلين من المدينة على يسار القاصد الى مكـة وكانـت مساكن «بني عمرو بن عرف» ومركزهم.

ولقد وصل رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله ومن معه إلى قباء في الثانـي عشر من شهر ربيع الاول يوم الاثنين، ونزل على «كلثوم بن الهرم» وهو شيخ من بني عمرو وكان ثمة جمع كبـير مـن المهـاجرين والانصـار ينتظرون قدومه، ويستخبرون وروده.

ولقد لبث رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله في قباء إلى آخر أيام الاسـبوع، وقد خط في هذا الفترة مسجداً لقبيلة «بني عمرو بن عوف»، ونصب قبلته (٣).

---

(١) بحار الأنوار : ج ١٩ ص ٧٥.

(٢) بحار الأنوار : ج ١٨ ص ٤٣ وج ١٩ ص ٩٩ - ١٠٣، الطبقات الكبرى : ج ١ ص ٢٣٠ و٢٣١، تاريخ الخميس : ج ١ ص ٣٣٣، اسد الغابة : ج ١ ص ٣٧٧.

(٣) تاريخ الخميس : ج ١ ص ٣٣٨.

وكان البعض ممن رافق رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله يصر عليه أن يسارع في الدخول إلى المدينة، ولكن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله كان ينتظر ابن عمه علياً.

ويقول : فما أنا بداخلها حتى يقدم ابن أُمي وأخي، وابنـتي (يعـني عليـاً وفاطمة عليهما السلام)(١).

وأقام علي عليه السلام بمكة ثلاث ليال بايامها، حتى أدى عن رسول اللّـه صلّى اللّه عليه وآله الودائع التي كانت عنده للناس فقد وقف عليه السـلام على مكان مرتفع في مكة ونادى قائلاً :

«من كان لَه قِبلَ محمد أمانة أو وديعة فليأتِ فنؤد إليه أمانته».

فكان يأتيه من له امانة او وديعة عند رسول اللّه صلّى اللّـه عليـه وآلـه ويذكر علامتها ويأخذها فلما فرغ عليه السلام من اداء الامانات والودائـع خرج بفاطمة بنت رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله وامه فاطمة بنت اسـد، وفاطمة بنت الزبير وآخرين ممن لم يكن قد هاجر مكة حتى تلك الساعـة، وتوجه بهم نحو المدينة ليلاً سالكاً بها طريقاً في «ذي طوى».

كتب الشيخ الطوسي في اماليه في هذا الصدد يقول : إن جواسيس قريـش عرفت بسفر علي مع تلك الجماعة، فخرجوا لملاحقتهم، لغرض اعادتهـم الى مكة، فادركوهم في منطقة «ضجنان».

ووقع بين رجال قريش وبين علي عليه السلام تلاحٍ وتناوش، وأخـذ ورد، ودنا الرجال من النسوة، والمطايا ليثوروها فحال علي عليه السلام بينهـم، وبينها، ولم يجد عليه السلام طريقـاً إلا أن يـدافع عـن حـرم الاسـلام والمسلمين، فشد عليهم بسيفه شدة الأسد الغضِب والليث الغيور وهو يقول مرتجزاً :

خَلـوا سـبيل الجاهـد face="Simplified Arabic" size="4"> المجاهِد***آليتُ لا أعبد غير الواحِدِ

---

(١) الفصول المهمة لابن صباغ المالكي : ص ٣٥ دون ان يذكر اسماً، وامالي الشيخ الطوسي : ج ٢ ص ٨٣.

فلما وجدوا ما به من الجد والغضب خافوه وتفرقوا عنه وقـالوا - بنـبرة الخائف المتضرع - : إحبِس عنّا نفسك يا ابن أبي طالـب، فقـال عليـه السلام :

«فإنّي منطلِق إلى ابن عمي رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله بيثرب فمـن سره ان أفري لحمه وأهريق دمه فليتبعني، وليدن مني».

فتركه القوم وعادوا من حيث أتوا، وواصل الركب رحلته باتجاه المدينة.

يقول ابن الاثير : قدم «علي» المدينة وقد تفطّرت قدماه، فقال النبي صلّى اللّه عليه وآله : ادعوا لي علياً، قيل : لا يقدر أن يمشي، فأتاه النبي صلّى اللّه عليه وآله واعتنقه وبكى رحمةً لما بقدميه من الورم(١).

ولقد قدم رسول اللّه قباء في الثاني عشر من شهر ربيع الأول، والتحق به علي عليه السلام في منتصف ذلك الشهر نفسه(٢)، ويؤيد هذا القـول مـا ذكره الطبري في تاريخه اذ كتب يقول : واقام علي بن أبي طالب رضـي اللّه عنه بمكة ثلاث ليال وأيامها حتى أدى عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه (وآله) وسلّم الودائع التي كانت عنده الى الناس(٣).

المدينة تهب لقدوم النبي :

ولقد كان يوم دخول رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله يوماً عظيمـاً جـداً، ومشهوداً.

فكم ترى ستكون عظيمةً فرحةُ الذين آمنوا برسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله منذ ثلاث سنوات، وظلوا طوال هذه الأعوام يبعثون برسلهم ووكلائهم اليه، ويذكرون اسمه المقدس، ويصلّون عليه في صلواتهم كل يوم، إذا سـمعوا أن

---

(١) الكامل في التاريخ : ج ٢ ص ١٠٦.

(٢) إمتاع الأسماع : ص ٤٨ وعلى هذا تكون محاصرة بيت رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله قد تمّت ثلاث ليال قبل شهر ربيع الاول من السنة الأُولى من الهجرة، وقد خرج النبيّ من داره ليلة الاثنين ودخل غار ثور وبقي ماكثاً فيه ثلاثة أيام، وخرج منه ليلة الخميس اول ربيع الاول وتوجه نحو المدينة ووصل قباء في الثاني عشر منه راجع تاريخ الخميس : ج ١ ص ٣٣٧ - ٣٣٨.

(٣) تاريخ الطبري : ج ٢ ص ٣٨٢.

قائدهم ذلك الذي طال انتظارهم اياه، واشتد تشوقهم إليه كائن عند ميليـن من مدينتهم قد نزل في قبا اياماً، وسيقدم اليهم ويدخل مدينتهم بعد ايـام ؟ وكم سيكون مبلغُ ابتهاجهم، وأي ابتهاج ترى سيعم كل صغير وكبير ؟

إنه حقاً لأمر يعجز القلم عن بيانه، ويكل اللسان عن وصفه.

ولقد كان لفتية الأنصار وشبابهم الظامئين إلى الاسلام الحنيف برنامج رائع وعظيم، فقد كانوا عمدوا بغية تطهير جو المدينة من ادران الوثنية الى كل صنم في المدينة كان يقدس ويعبد فاحرقوه وكسروه، وقد كان كل شـريف في بيته صنم يمسحه ويطيبه، ولكل بطن من الأوس والخزرج صنم فـي بيت لجماعة يكرمونه ويطيبونه، ويجعلون عليه منديلاً ويذبحون له(١).

ولا بأس في أن نذكر نموذجاً من هذا العمل الجليل الذي قام به الانصـار في التخلّص من الوثنية :

لما قدم من بايع من الأنصار في العقبة الثانية الى المدينة اظهروا الاسلام بها وفي قومهم بقايا من شيوخ لهم على دين الشرك وعبادة الأوثان منهـم «عمرو بن الجموح» وكان من سادات بني سلمة وشريفاً من أشرافهم وكان ابنه «معاذ» بن عمرو قد شهد بيعة العقبة.

وكان عمرو هذا قد اتخذ في داره صنماً من خشب يقال له : منـاة، كمـا كانت الاشراف يصنعون، تتخذه إلهاً تعظّمه وتطهره، فلما أسلم فتيان بنـي سلمة : معاذ بن جبل، وابنه معاذُ بن عمرو بن الجموح كانوا يتسلّلون في الليل إلى صنم عمرو بن الجموح فيحملونه ويطرحونه في بعض حفَر بني سلمة ومزابلها، وفيها فضلات الناس وعذرها منكساً على رأسه !!

فاذا أصبح عمرو قال : ويلكم من عدا على آلهتنا هذه الليلة ؟

ثم يغدو يلتمسه حتى إذا وجده غسله وطهره وطيبه. ثم قال للصنم : أمـا واللّه لو أعلم من فعلَ هذا بك لأُخزينّه !

---

(١) بحار الأنوار : ج ١٩ ص ١٠٧.

فاذا أمسى ونام عمرو عدوا عليه ثانيةً ففعلوا به مثل ما فعلوا به أولاً.

فيغدو فيجده في مثل ما كان فيه مـن الأذى والوسـخ فيغسلـه ويطهـره ويطيبه، ثم يعدون عليه إذا امسى فيفعلون به مثل ذلك.

فلما اكثروا عليه استخرجه من حيث ألقوه يوماً فغسله وطيبه ثم جاء بسيفه فعلقه عليه، ثم قال : إنّي واللّه ما أعلم من يصنع بك ما ترى، فـإن كـان فيك خير فامتنِع، ودافع عن نفسك فهذا السيف معك.

فلما أمسى ونام عمرو عدوا على ذلك الصنم فأخذوا السيف من عنقه، ثـم أخذوا كلباً ميتاً فقرنوه به بحبلٍ، ثم ألقَوه في بئرٍ من آبار بني سلمة فيهـا عذر من عذر الناس وفضلاتهم. ثم غدا عمرو بن الجموح فلم يجـده فـي مكانه الذي كان به.

فخرج يتبعه حتى وجده في تلك البئر منكساً مقروناً بكلبٍ ميت، فلمـا رآه وأبصر شأنه وكلّمه من اسلم من رجال قومه فاسلم، وهجر الوثنية والأوثان وحسن إسلامه.

فقال حين أسلم وعرف من اللّه ما عرف وهو يذكر صنمه ذلك، وما أبصر من شأنه ويشكر اللّه تعالى الذي أنقذه مما كان فيه من العمى والضلالة :

واللّهِ لو كنتَ إلهاً لم تكن*أنتَ وكلب وسطَ بئرٍ في قرَن**

أُفٍّ لملقاكَ إلهاً مستدَن*الآن فتشناك عن سوءِ**

الغبن

فالحمد للّه العلي ذي المِنَن*الواهبِ الرزاق ديّان الدِيَن**

هُوَ الّذي أنقذني من قبلِ أن*أكونَ في ظُلمَةِ قبرٍ مرتهَن**

بأحمد المهدِي النبيِّ المرتهَن(١)

النبيّ يدخُلُ المدينة :

بعد أن التحق علي عليه السلام ومن معه برسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله في قباء توجه رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله الى المدينة ولما انحدر من ثنية الوداع (و

---

(١) اسد الغابة : ج ٤ ص ٩٩.

هي منطقة قريبة من المدينة) وحط قدمه على تراب يثرب استقبله الناس رجالاً ونساء، كباراً وصغاراً، استقبالاً عظيماً ورحّبوا به اعظم ترحيب، وردّد المرحّبون أناشيد الترحيب التالية :

طَلَعَ البدرُ علَينا*مِن ثنيات الوَداع**

وجبَ الشُّكرُ علَينا*ما دَعا للّهِ داع**

أيّها المبعوثُ فينا*جِئتَ بالأمر المُطاع**

وكانت بنو عمرو بن عوف قد اجتمعت عنده وأصرت عليه بأن ينزل في قباء وقالوا : أقم عندنا يا رسول اللّه فإنا أهل الجد والجلد، والحلقة (أي السلاح) والمنعة، ولكن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله لم يقبل.

وبلغ الأوس والخزرج خروج رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله وقرب نزوله المدينة فلبسوا السلاح وأقبلوا يعدون حول ناقته لا يمر بحي من أحياء الانصار إلا وثبوا في وجهه وأخذوا بزمام ناقته وأصروا عليه بأن ينزل عليهم هذا ورسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله يقول : خَلوا سبيلها فانها مأمورة.

واخيراً لما انتهت ناقته - وكان صلّى اللّه عليه وآله قد أرخى زمامها - إلى باب المسجد الذي هو اليوم، ولم يكن مسجداً إنما كان أرضاً واسعة ليتيمين من الخزرج يقال لهما : سهل وسهيل وكانا في حجر أسعد بن زرارة فبركت الناقة على باب «ابي أيوب» خالد بن زيد(١) الانصاري الذي كان على مقربة من تلك الأرض.

فاغتنمت ام أبي ايوب الفرصة فبادرت إلى رحل رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله فحلّته وأدخلته منزلها، بينما اجتمع عليه الناس ويسألونه أن ينزل عليهم.

فلما أكثروا عليه، وتنازعوا في أخذه قال صلّى اللّه عليه وآله أين الرحل ؟؟

فقالوا : يخوف أم أيوب قد ادخلته في بيتها.

فقال صلّى اللّه عليه وآله : «المرء مع رحله» وأخذ اسعد بن زرارة بزمام

---

(١) بحار الأنوار : ج ١٩ ص ١٠٨ ولكن ذهب البعض كصاحب الكامل في التاريخ الى أنهما كانا في حجر معاد بن عفراء.

الناقة فحولها الى منزله(١).

أصل النفاق ومنشؤه :

كانت الأوس والخزرج قد اتفقتا على أن تملّك عبد اللّه بن ابي بن سـلول (رئيس المنافقين وكبيرهم) عليهم، وذلك قبل أن تبايع رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله في العقبة وتؤمن به وتعتنق الاسلام، ولكن هذا القرار ألغي بعد اتصال الأوس والخزرج برسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله، من هنا حنـق عبد اللّه بن ابي على رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله واضمر له العـداوة منذ ذلك الحين، ولم يؤمن برسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله إلى آخر حياته، بل كان ينافق باسلامه.

ولما دخل رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله المدينة وشاهد عبد اللّه بـن أبي ذلك الاستقبال والترحيب العظيمين لرسول اللّه صلّى اللّه عليه وآلـه الذي قام بهما الأوس والخزرج، شق عليه ذلك جداً، ولم يستطـع اخفـاء حنقه وغضبه، وحقده وعداوته للنبي صلّى اللّه عليه وآله !

فعندما انتهى صلّى اللّه عليه وآله إلى عبد اللّه بن أبي - وقد أرخى صلّى اللّه عليه وآله زمام ناقته لتبرك حيث تريد، أخذ عبد اللّه كمه ووضعه على أنفه، وقد ثارت الغبرةُ بسبب الزحام وقال للنبي صلّى اللّه عليه وآله بنبرة الحانِق الغاضب : يا هذا إذهب إلى الّذين غروك وخدعوك وأتـوا بـك، فانزل عليهم، ولا تُغشنا في ديارنا !!

فقام سعد بن عبادة - وقد خشي أن يسوء رسولَ اللّه صلّى اللّه عليه وآلـه هذا الموقف الوقِح الشِرير فقال : يا رسول اللّه لا يعرض في قلبـك مـن قول هذا شيء، فإنّا كنّا اجتمعنا على ان نملِكه علينا، وهو يرى الآن أنّـك قد سلبته أمراً قد كان أشرفَ عليه(٢).

---

(١) تاريخ الخميس : ج ١ ص ٣٤١.

(٢) بحار الأنوار : ج ١٩ ص ١٠٨.

هذا ويتفق عامة المؤرخين وكتّاب السيرة أن رسول اللّه صلّى اللّه عليـه

وآله دخل يثرب يوم الجمعة، وصلّى صلاة الجمعة في بني سالم بـن عوف في بطن واد لهم، وكانت هذه اول جمعة جمعها رسول اللّه صـلّى اللّه عليه وآله في الاسلام فخطب في هذه الجمعة وهي أول خطبة خطبهـا في المدينة، وقد تركت هذه الخطبة البديعة البليغة التي لم يسمع اهل المدينة مثيلها لفظاً ومعنى من قبل، أثراً عميقاً وطيباً في قلوبهم ونفوسهم.

وقد أدرج ابن هشام نص الخطبة في سيرته(١) كما أدرجها المجلسي فـي بحاره(٢) أيضاً.

غير أن عبارات ومضامين الخطبة التي نقلها ابن هشام واثبتها في سـيرته تختلف عما رواها واثبتها المجلسي، وللاطلاع على ذلك يراجع المصدران المذكوران.

---

(١) السيرة النبوية : ج ١ ص ٥٠٠ و٥٠١.

(٢) بحار الأنوار : ج ١٩ ص ١٢٦.